

تفسير سورة الملك

مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها ثلاثون آية .

وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون

وحروفها : ألف وثلثمائة وثلاث عشرة .

مجموع فواصل آياتها (تمر) . على الميم اثنان : (أليم) (مستقيم)

اسمائها :

ولها في القرآن والسنن سبعة أسماء : سورة الملك ، لمفتتحها ، والمنجية لأنها تنجي قارئها من العذاب ، والمانعة ، لأنها تمنع من قارئها عذاب القبر — والدافعة ، لأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب الآخرة من قارئها وعذاب الآخرة من قارئها ، والشافعة ، لأنها تشفع في القيامة لقارئها ، والمجادلة ، لأنها تجادل منكراً ونكيراً ، فتناظرهما كيلا يؤذيا قارئها ، السابع : المخلصة ، لأنها تخاصم زبانية جهنم ، لئلا يكون لهم يد على قارئها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان استحقاق الله الملك ، وخلق الحياة والموت للتجربة ، والنظر إلى السموات للعبارة ، واشتعال النجوم والكواكب للزينة ، وما أعد للمنكرين من العذاب ، والعقوبة وما وعد به المتقون من الثواب ، والكرامة وتأخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرحمة ، وحفظ الطيور في الهواء بكمال القدرة ، واتصال الرزق إلى الخليقة ، بالنوال والمنة ، وبيان حال أهل الضلالة ، والهداية ، وتعجل الكفار بمجيء القيامة وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر ﴾ وبعده : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أي : الكرة الأولى وقيل : هي ثلاث مرات : أي : ارجع البصر — وهذه مرة — ثم ارجع البصر كرتين فمجموعها ثلاث مرات . قال أبو القاسم الكرماني : ويحتمل أن يكون أربع مرات ، لأن قوله تعالى : ﴿ ارجع ﴾ يدل على سابقة مرة .

قوله تعالى : ﴿ ءَأَمْنَم مِّن فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾ ، وبعده : ﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ خوفهم بالخسف أولاً ، لكونهم على الأرض ، وأنها أقرب إليهم من السماء ، ثم بالحصب من السماء ، فلذلك جاء ثانية .

فضل السورة

فيه حديث حسن عن النبى ﷺ أنه قال : إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل ، فأخرجته يوم القيامة من النار ، وأدخلته الجنة ، وهى سورة تبارك .

وأخرج أحمد بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذى بيده الملك » ورواه أهل السنن الأربعة من حديث شعبة ، وقال الترمذى هذا حديث حسن^(١) .

مناسبة السورة لما قبلها

إنه لما ضرب مثلاً للكفار بتلك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانت تحت عبيدين صالحين ، ومثلاً للمؤمنين بأسية ومريم وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفاراً — افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه — عز وجل — وقهره وتصرفه فى ملكه على ما سبق به قضاؤه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ

(١) مسند أحمد ٣٢١/٢ وسنن الترمذى — كتاب فضائل القرآن — باب فضل سورة الملك ١٦٤/٥ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه — كتاب الأدب — باب ثواب القرآن ١٢٤٤/٢ رقم ٣٧٨٦ .

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٢﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٣﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾

معاني المفردات

﴿ تبارك ﴾ : تعالى وتمجد أو تكاثر خيره . ﴿ بيده الملك ﴾ : له الأمر والنهي والسلطان .
 ﴿ خلق الموت ﴾ : أوجده أو قدره أولاً . ﴿ ليلوكم ﴾ أي : ليختبركم والمراد ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم . ﴿ أحسن عملاً ﴾ أي : أخلصه الله . ﴿ العزيز ﴾ أي : الغالب لا يعجزه عقاب من أساء ﴿ الغفور ﴾ أي : كثير المغفرة والستر للذنوب عباده . ﴿ طباقاً ﴾ أي : طبقة بعد طبقة .
 ﴿ تفاوت ﴾ أي : اختلاف وعدم تناسب ، والفطور الشقوق ، واحده فطر . ﴿ كرتين ﴾ أي : رجعتين أخريين في ارتياد الخلل ، والمراد بذلك التكرير والتكثير : أي : رجعة بعد رجعة .
 ﴿ ينقلب ﴾ أي : يرجع ، ﴿ خاسئاً ﴾ صاغراً ذليلاً ، ﴿ حسير ﴾ أي : كليل منقطع لم يدرك ما طلب . والحاسر : المعيا لنقاد قواه . ﴿ مصابيح ﴾ واحدها (مصباح) وهو السراج والمراد بها الكواكب . ﴿ والرجوم ﴾ واحدها (رجم) (بالفتح) وهو ما يرمى ويرمى به . ﴿ أعتدنا ﴾ أي : هيأنا . ﴿ عذاب السعير ﴾ أي : عذاب النار المسعرة الموقدة ﴿ ألقوا فيها ﴾ أي : طرحوا فيها كما يطرح الخطب في النار . ﴿ والشهيق ﴾ تنفس كتنفس المتغيظ قاله المبرد : ﴿ تفور ﴾ أي : تغلي بهم كغلي الرجل قاله ابن عباس : ﴿ تميز ﴾ أي : ينفصل بعضها من بعض . ﴿ الغيظ ﴾ شدة الغضب . قاله الراغب : ﴿ فوج ﴾ أي : جماع . ﴿ خزنتها ﴾ واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه ، ﴿ ينذر ﴾ أي : رسول ينذركم بأس الله وشديد عقابه . ﴿ إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ أي : ما أنتم إلا في ضلال بعيد عن الحق والصواب . ﴿ فسحقاً ﴾ أي : بعداً لهم من رحمة ربهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور ﴾ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أن بيده الملك أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ قال ابن عباس : بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحيى ويميت ، ويعطى ويمنع . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولى الليل فى النهار وتولى النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (١).

ثم شرع سبحانه يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، فقال تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾

قال ابن كثير : استدل بهذه الآية من قال إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق ومعنى الآية أنه أوجد الخلاق من العدم كما قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ (٢) فسمى الأول وهو العدم موتاً وسمى هذه النشأة حياة .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ قال كان رسول الله ﷺ يقول : إن الله أذل بنى آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء (٣).

قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أى : ليعاملكم معاملة من يختبر حاله وينظر أيكم أخلص فى عمله ، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم .

وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أى : أكثركم للموت ذكراً وأحسن استعداداً ، ومنه أشد خوفاً وحذراً .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ (٤).

وفى الآية ترغيب فى الطاعات وزجر عن المعاصى كما لا يخفى على ذوى الألباب .

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٣) تفسير الطبرى ٢/٢٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٣٥ .

الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وهو كما قال الفضيل بن عياض — رحمه الله — أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً : لم يقبل . وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً والخالص . أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة .

فالعمل الصالح : لا بد أن يراد به وجه الله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده ... وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الإسلام وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله ، وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده . أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ولابد — مع ذلك — أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما أمر الله به ورسوله وهو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة وهو العمل المشروع المسنون إذ العمل المشروع المسنون : هو المأمور به أمر إيجاب ، أو استحباب وهو العمل الصالح . وهو الحسن . وهو البر وهو الخير ، وضده المعصية ، والعمل الفاسد ، والسيئة والفجور والظلم .

وقال ابن القيم — رحمه الله — قال بعض السلف : مامن فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه ، هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا من محبة الروح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه ؟

والثاني : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التبعيد ، أى : هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملاً لم أشعره ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا بهما .

قوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ أى : هو سبحانه العزيز العظيم المنيع الجنب وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب بعد ماعصاه وخالف أمره وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز ، وإثبات العزة والغفران له سبحانه يتضمن كونه قادراً على كل المقدورات عالماً بكل المعلومات ، ليجازى المحسن والمسيء بالثواب والعقاب ، ويعلم المطيع من العاصي فلا يقع خطأ في إيصال الحق إلى من يستحقه ، ثواباً كان أو عقاباً كما قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾^(١)

ثم ذكر سبحانه دلائل قدرته فقال تعالى :

أى : هو الذى أوجد سبع سموات بعضها فوق بعض فى جو الهواء بلا عماد ، ولا رابط يربطها مع اختصاص كل منها بحيز معين ، ونظم ثابتة لا تتغير . قال تعالى : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ﴾ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى * يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ فارجع البصر هل ترى من فطور * أى : لا ترى أيها الرأى تفاوتاً وعدم تناسب ولا نقص ولا عيب ولا خلل ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿ أى : أنك إذا كررت النظر لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب ، بل يرجع إليك صاغراً ذليلاً لم ير ما يهوى منهما ، حتى كأنه طرد وهو كليل من طول المعادة وكثرة المراجعة .

قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ ^(٢) أى : من شقوق .

وبعد أن بين سبحانه خلوّ السموات من العيب ذكر أنها الغاية فى الحسن والبهاء فقال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت وهى التى يراها الناس مضيئة بالليل يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ ^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ قال ابن كثير : الضمير فى قوله وجعلناها عائد على جنس المصابيح لآعلى عينها لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الآخرة كما قال تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب ^(٤)

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ^(٥) .

(١) سورة الرعد الآية : ٢ .

(٢) سورة فى الآية : ٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٧ .

(٤) سورة الصافات الآيات من ٦ إلى ١٠ .

(٥) تفسير الطبرى ٣/٢٩ .

قال العلامة ابن كثير : يقول رب العزة : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ قال ابن جرير يعنى الصياح ﴿ وهى تفور ﴾ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير .

وقوله تعالى : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم . ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ يذكر تعالى عدله فى خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ (٢) وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به ولكن لما فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ قال الإمام أحمد بسنده عن أبى البحتري الطائى قال أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » (٣) وفى حديث آخر : « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

وعد ووعيد

قال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ
أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا
مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

(١) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٧١ .

(٣) مسند أحمد ٢٦٠/٤ .

معاني المفردات

﴿ بذات الصدور ﴾ أى : بما فى النفوس ، ﴿ اللطيف ﴾ : هو العالم بالأشياء التى يخفى علمها على العالمين . ﴿ الخبير ﴾ أى : بظواهر الأشياء وبواطنها . ﴿ ذلولاً ﴾ أى : سهلة منقادة يسهل عليكم السير فيها والانتفاع بها وبما فيها . ﴿ مناكبها ﴾ : جوانبها . أو طرقها وفجاجها . ﴿ إليه النشور ﴾ : إليه تبعثون من القبور .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أوعد الكفار بما أوعده ، وبألف فى ترهيبهم بما بالغ - وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكريم وذكر سبحانه أنه عليم بما يصدر منهم فى السر والعلن ، ثم أقام الدليل على ذلك بأنه هو الخالق ، فلا يخفى عليه شئ من أمرهم ، بل يصل علمه إلى ظواهر أمورهم وبواطنها ، ثم عدد نعماءه عليهم ، فذكر أنه ذلل لهم الأرض وهباً لهم فيها منافع من زروع وثمار ومعادن ، فليتمتعوا بما أوتوا ثم إلى ربهم مرجعهم ، وإليه بعثهم ونشورهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غالباً عن الناس فكيف عن المعاصى ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير أى تكفر

عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل . كما قال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما تعدون لكل أبواب حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾^(١) وكقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾^(٢) وكقوله جل فى علاه : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾^(٣)

(١) سورة ق الآيات من : ٣١ حتى ٣٥ .

(٢) سورة الرحمن الآية : ٤٦ .

(٣) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

وفي الحديث الصحيح إن الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك^(٤).

ثم نبه سبحانه إلى أنه مطلع على السرائر فقال :

قوله تعالى : ﴿ وأسرأ قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ أى : إن عملكم وقولكم على أى سبيل وجد فالله عليم به ، فداوموا أيها الخاشعون على خشيتكم وأنبيوا أيها المغترون إلى ربكم ، وكونوا على حذر من أمركم .

وقوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ كالعلة والسبب لما قبله . فهو سبحانه محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة فى الصدور ، فكيف لا يعلم ما تسرون وما تجهرون به . قال تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾^(٥).

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ أى : كيف لا يعلم السر والجهر من أوجد بحكمته ، وواسع علمه ، وعظيم قدرته ، جميع الأشياء ، وهو النافذ علمه إلى ما ظهر منها وما بطن وهو اللطيف الخبير .

قال القرطبي : قال أهل المعانى : إن شئت جعلت (مَنْ) اسماً للخالق — جل وعز — ويكون المعنى : ألا يعلم الخالق خلقه . وإن شئت جعلته اسماً للمخلوق ، والمعنى : ألا يعلم الله من خلق . ولا بد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه . قال سعيد بن المسيب : بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير وقد عصفت الريح فوق فى نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق ؟ فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ أى : إن ربكم هو الذى سخر لكم الأرض وذلّلها لكم ، فجعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأوجد فيها من العيون ، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم ، وسلك فيها السبل . كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥ .

(٥) سورة طه الآيتان : ٧ ، ٨ .

فجاءاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴿١﴾ وكما قال سبحانه : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين ، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ ﴿٢﴾

وقوله : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم ولهذا قال تعالى ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ فالسعى في السبب لا ينافي التوكل كما قال الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول الله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » فثبت لها رواحاً وغدوا لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسخر المسير المسبب .

وقوله تعالى : ﴿ وإليه النشور ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . وقيل : معناه أن الذى خلق السماء لا تفاوت فيها ، والأرض ذلولاً قادر على أن ينشركم .

عظمة الله تعالى المطلقة

قال تعالى :

أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْ أَمِنَ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَمِنَ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۖ بَلْ لَّجَّؤُا فِي عُنُورٍ ۖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ ۖ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٣١ .

(٢) سورة الحجر الآيات : من ١٩ حتى ٢١ .

(٣) مسند أحمد ٣٠/١ .

صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا
أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّئَتْ وُجُوهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن
أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

معاني المفردات

﴿ أأنتم ﴾ الأمن ضد الخوف . ﴿ من في السماء ﴾ هو ربكم الأعلى . ﴿ تمور ﴾ أى :
تهتز وتضطرب . ﴿ حاصبا ﴾ أى : ريحاً شديدة فيها حصباء تهلككم . ﴿ نذير ﴾ أى : انذارى
وتخويفى . ﴿ نكير ﴾ أى : انكارى عليهم بإنزال العذاب بهم . ﴿ صافات ﴾ أى : باسطات
أجنحتهن فى الجو حين طيرانها تارة ، ويقبضن . أى : ويضممنها تارة أخرى . ﴿ جند ﴾ أى : عون
﴿ ينصركم ﴾ أى : يساعدكم فيدفع العذاب عنكم ﴿ من دون الرحمن ﴾ أى : من غيره . ﴿ فى
غرور ﴾ أى : فى خداع من الشيطان الذى يغركم بأن لا عذاب ولا حساب . ﴿ أمسك رزقه ﴾
أى : بإمسك المطر وغيره من الأسباب التى ينشأ منها الرزق . ﴿ لجوا ﴾ أى : تبادوا . ﴿ فى عتو ﴾
أى : تكبر وعناد عن قبول الحق ﴿ تفور ﴾ أى : إغراض وتباعد منه ﴿ مكباً على وجهه ﴾ أى :
واقعاً عليه . ﴿ سوياً ﴾ أى : معتدلاً منتصباً . ﴿ الأفئدة ﴾ العقول واحداً فؤاد . ﴿ ذرأكم ﴾
أى : خلقكم . ﴿ الوعد ﴾ أى : الحشر الموعود . ﴿ إنما العلم ﴾ أى : العلم بوقته . ﴿ زلفة ﴾
أى : مزدلفاً قريباً . ﴿ سيئت ﴾ أى : تبين فيها السوء والقبح إذ علتها الكآبة والفترة ، ويقال ساء
الشيء يسوء إذا قبح . ﴿ تدعون ﴾ أى : تطلبونه وتستعجلونه استهزاء وإنكاراً . ﴿ أرايتم ﴾ أى :
أخبروني . ﴿ غوراً ﴾ أى : غائراً فى الأرض لا تناله الدلاء . ﴿ معين ﴾ أى : جاء سهل المأخذ
تصل إليه الأيدي .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه للكافرين من نار تلظى ، ووصف هذه النار بما تشيب من هوله الولدان — أردف ذلك بترهيبهم بأنهم لا يأمنون أن يحل بهم في الدنيا مثل ما حل بالمكذبين بالرسول من قبلهم : من خسف عاجل تمور به الأرض موراً ، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ، ولا تبقى منهم دياراً ولا نافخ ناراً . ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته ، وعظيم منته على عباده ، فطلب منهم أن يروا الطير وهي تبسط أجنحتها في الجو تارة وتضمها أخرى بتسخير الله وتعليمه ماهي في حاجة إليه ثم أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره تعالى يبتغون منه نصراً ورزقاً ، منكرًا عليهم ما اعتقدوه ، مبينا لهم أنهم لا يصلون إلى ما أملوه ، وإلا فليبينوا هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه . أما وقد وضع الحق لدى عيين فهم في لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين المحجة . ثم ضرب مثلاً بين حالى المشرك والموحد ، ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفردة بالألوهية بذكر خلق الإنسان في الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر ، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم .

ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول عن ميقات البعث استهزاء به ، وإجابته إياهم بأن علمه عند الله وليس له من علمه شيء ، وإنما هو نذير مبين وذكر حين تقوم الساعة ويعرف المشركون قرب وقوع ماكانوا ينكرون تعلو وجوههم غيرة ، ترهقها فترة ، ويقال لهم : إن ماكنتم تستعجلون قد وقع ولا مرد له ، فماذا أنتم فاعلون ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إنا آمنا بربنا وتوكلنا عليه ، وستعلمون غداً من الهالك ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إن غار ماؤكم في الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتيكم بماء عذب زلال تشربونه ؟

التفسير

قوله تعالى : ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ قال ابن عباس : المعنى أأمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون ﴿فإذا هي تمور﴾ أى : تتحرك بكم حين الخسف ، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهاباً .

وقوله تعالى : ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير﴾ أى : أم أمنتم الله العلى الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ؟ ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أى : فستعلمون عند معاينة العذاب ، كيف يكون إنذارى وعقابي للمكذبين .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن

ربكم لرءوف رحيم ﴿١﴾ وهذا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل كما قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جا أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ أي : ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا فحاق بهم من سوء العذاب ما لا مرد له ، وحل بهم من البأس ما لم يجدوا له دافعاً على شدة هوله وعظيم فظاعته .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ أي : غفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهي باسطات أجنحتهن في الجو حين طيرانها تارة ، وقابضات لها أخرى وما يمسكهن في الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها إلا واسع الرحمة من براهن على أشكال وخصائص هو العليم بها ، وألهمهن حركات تساعد على الجرى في الهواء المسافات البعيدة لتحصيل أقواتهن ، والبحث عن أرزاقهن ؟

﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ أي : أنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التي هو عليم بفائدتها لعباده .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ﴿٣﴾ .

ألهى :

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له	طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً	من فيض جودك — رنى — كيف ينساك
والله ما سعدت روحى ولا فرحت	في الدهر — ما بقيت — إلا بذكراك

قوله تعالى : ﴿ أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن * إن الكافرون إلا في غرور * أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو في عتو ونفور ﴾ يقول تعالى للمشرّكين الذين عبدوا معه غيره ويبتغون عبادهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم فيما اعتقدوه ومخبراً لهم أنه

(١) سورة النحل الآيات من ١٤٥ حتى ١٤٧ .

(٢) سورة فاطر : ٤٥ .

(٣) سورة النحل الآية : ٧٩ .

لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جَنْدُكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ لَا فِي غُرُورٍ ﴾ أي : ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضر إلا في جهل عظيم ، وضلال مبین ، حيث ظنوا الأوهام حقائق فاعتزوا بالأوثان والأصنام . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أَشْرَكَونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرٌ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصْهَرُونَ بِهَا ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ ، إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا ، وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ أَنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ، بَلْ لُجُوفُ عِتُو وَنُفُورٍ ﴾ أي : من هذا الذي إذا قطع عنكم رزقه يرزقكم بعده ؟ أي : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله — عز وجل — وحده لا شريك له ، أي : وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره ولهذا قال تعالى : ﴿ بَلْ لُجُوفُ ﴾ أي : استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عِتُو وَنُفُورٍ ﴾ أي : في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه . كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ، قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿ هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، فَالْكَافِرُ مِثْلُهُ فِيمَا هُوَ فِيهِ كَمِثْلٍ مَنْ يَمْشِي مُكِباً عَلَى وَجْهِهِ أَى : يَمْشِي مَنْحِنياً لَا مُسْتَوِيّاً عَلَى وَجْهِهِ ، أَى : لَا يَدْرِي أَيْنَ يَسِيلُ وَلَا كَيْفَ يَذْهَبُ بَلْ تَأْتِيهِ حَائِرٌ ضَالٌ ﴾ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ﴿ (٣) أَهَذَا أَهْدَى ﴾ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً ؟ ﴾ أي : منتصب القامة ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي : على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيم ؟ هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة ، فالْمُؤْمِنُ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ مَفْضُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِنَّهُ يَمْشِي عَلَى وَجْهِهِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

أخرج أحمد بسنده عن نفع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله : كيف

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩١ حتى ١٩٨ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٧١ .

يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ؟ » . رواه أيضاً البخارى ومسلم^(١).

وقوله تعالى : ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ هو سبحانه ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أى : العقول والإدراك ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أى : قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجه كما قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾^(٢)

قوله تعالى : ﴿ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾ أى : هو سبحانه بشكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم ولغاتكم وألوانكم ، وحلام وأشكالكم وصوركم ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أى : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات بجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم . كما قال تعالى : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، والله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾^(٣)

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين * فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون ﴾ أى : ويسألون الرسول استهزاء وتهكما : متى ما تعدنا به من الخسف والحاصب فى الدنيا ، والحشر والعذاب فى الآخرة إن كنت صادقاً فيما تدعى وتقول ؟

فأمر رسوله أن يجهم فإن علم ذلك عند بارئ النسم فقال : ﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أى : وإنما أنا منذر من عند ربى أبين لكم شرائعه ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أى : فلما رأوا العذاب الموعود قريباً — وكل آت قريب وإن طال زمنه — ساءهم ذلك وعلت وجوههم الكآبة والخسران ، وغشيتها القفرة والسواد ، إذ جاءهم من أمر الله ما لم يكونوا يحتسبون قال تعالى : ﴿ وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدأ لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾^(٤) ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿ هذا الذى كنتم به تدعون ﴾ أى : تستعجلون . كما قال تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾^(٥)

(١) مسند أحمد ١٦٧/٣ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧٨٩

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الجاثية الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

(٤) سورة الزمر الآيتين ٤٧ ، ٤٨

(٥) سورة الذاريات الآيتان : ١٣ ، ١٤ .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ، قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين ، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ . أى : قل لهم يا محمد — يريد به مشركى مكة ، وكانوا يتمنون موت النبى — ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر نترصد به ريب المنون ﴾ ^(١) : أرأيتم إن متنا أو رحمنا فأخرت آجالنا فمن يجيركم من عذاب الله ، فلا حاجة بكم إلى التربص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة . ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ أى : قل لهم آمنا بالله الواحد ، وعليه عتمدنا فى جميع أمورنا ، لا على الأموال والرجال ، ﴿ فستعلمون من هو فى ضلال مبين ﴾ أى : فسوف تعلمون عن قريب من هو فى الضلالة نحن أم أنتم ؟ وفيه تهديد للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤس الحداد ، ولا السواعد الشداد والغائر عكس النابع ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، أى : لا يقدر على ذلك إلا الله وحده — عز وجل — فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة فله الحمد والمنة قال تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ ^(٢) .

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

سياحة مباركة فى سورة الملك

الحمد لله والصلاة على نبينا وحبينا محمد ﷺ .

أما بعد

فإن سورة الملك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التى تعالج موضوع العقيدة فى أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهى « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة ، وإقامة الأدلة على وحدانية رب العالمين ، ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور قال تعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ . هذا هو التوحيد الخالص فلا قدرة لأحد سواه ، ولا ملك بيد غيره ، فهو سبحانه كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، قوة كل ضعيف ، ورضا كل قنوط ، ومفزع كل ملهوف ، وأمان كل خائف ، وشفاء كل سقيم ، وغنى كل فقير » من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾

(١) سورة الطور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٨ .

وهذا دليل لقدرة الفائقة التي لا سلطان لأحد عليها ولا يد لمخلوق فيها . ثم يقيم الدليل على وحدانيته بأنه خالق الموت والحياة ، وهل هناك على ظهر البسيطة من يحيى أو يميت سواه . اسأل العالم من أقصاه إلى أقصاه ، هل من الجابرة أو الأكاسرة أو القياصرة أو الأباطرة أو أصحاب الصولجان من استطاع أن يدفع الموت عن نفسه ﴿ قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾^(١) فسبحان من أمره قضاء وحكمه ورضاه أمان ورحمة ، وكيف يجرو مجترىء فيقول : أنا أحيى وأميت . إنه إن قالها فقد سفه نفسه ، وضل رشده وزلت قدمه وتعثر قلمه .

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾^(٢)

لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال : ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

وأراد ربك أن يقيم الأدلة الواقعية على أنه الواحد الذي يحيى ويميت فأقام لنا هذا المشهد الواقعي قال سبحانه : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾^(٣)

ولما قال إبراهيم الخليل للنمرود : ﴿ ربي الذي يحيى ويميت ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾^(٤)

وإنما كان السؤال من الله وكانت الإجابة بإثبات الإيمان من إبراهيم حتى لا يتوهم قلب مريض أن سؤال إبراهيم كان سؤال شك بل كان سؤالاً للاطمئنان كيف يكون إحياء الموتى أمام الجابرة القساة : ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾^(٥)

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٩ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

ليك اللهم ليك ، ليك لا شريك لك ليك ، لا محيى إلا أنت ، ولا مميت سواك .

ثم يؤكد هذه الأدلة بدليل مشاهد أمام العين نصبه الله في الآفاق الكونية ، وفي سورة تبارك قال سبحانه : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ .

الجزء يوم البعث

وينتقل بنا النظم الكريم من إثبات الوجدانية لصاحب العظمة المطلقة وصاحب الكمال المطلق ، إلى ساحات الجزاء يوم البعث فيقول تعالى : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفرور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ .

وبعد نيران الوعيد يشرق علينا نور الوعد

﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ هذا وعد من الله للذين يخافون الله وهم لم يروا ذاته ، وهذا سر عظمة المؤمنين أن يخافوا بالغيب ويؤمنون بالغيب ، وإلا لما كان للإيمان فضل إذا كان حسياً يقع تحت حاسة البصر أو السمع أو اللمس أو الشم أو الذوق : قيل للإمام على يا إمام . هل رأيت ربك ؟ قال : وكيف أعبد ما لا أرى . قالوا : فكيف رأيته ؟ قال الإمام : سبحانه ربي إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأبي بكر الصديق — رضى الله عنه — يا صديق بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربي برى ولولا ربي ما عرفت ربي قالوا : فكيف عرفته ؟ قال الصديق : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله اشراك . ما جزاء هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب . لهم مغفرة لذنوبهم ، ومكفرة لسيئاتهم ولهم أجر كبير فى الآخرة .

جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ يبين أجر الذين يخشون ربهم بالغيب حيث قال ﷺ : « سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل قلبه معلق

بالمساجد ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع»^(١).
فأنت ترى في هؤلاء السبعة نوعين ممن يخشون الله بالغيب ، هذا الذى دعت امرأه لنفسها فما
خاف إلا الله ، وهذا الذى تصدق بالمال فلم يعلن ذلك على الناس ليحمدوه ، إنما تصدق ابتغاء مرضاة
من لا يغفل ولا ينام .

وينتقل بنا النظم الكريم إلى علم الله الذى لا حدود له ، وإلى سمع الله الذى لا نهاية له فيقول
سبحانه : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف
الخبير ﴿

فسبحان من علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ،
وسبحان من يسمع ويرى ديب أرجل التملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وسبحان
من أمره بالكاف والنون وكيف يغيب عن مسمع الله أو بصره شيء وهو الذى قال : ﴿ وإن تجهر
بالقول فإنه يعلم السر واخفى ﴾^(٢) وهل هناك أخفى من السر ؟

نعم إنها ذات الصدور أى النيات التى لم يتلفظ بها العبد بل عقد عليها النية وأضمهرها ، وكيف
لا يعلم ذات الصدور وهو الذى قال : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾^(٣)
وكيف لا يرتبط بكل شيء علماً وهو الذى جمع الكائنات كلها تحت مفاتيح علمه وغيبه :
﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها
ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾^(٤)

وكيف تخفى عليه خافية ؟ أو تغرب عن علمه شاردة ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم
ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾^(٥)
وكيف يعلو صوت على كبريائه وعظمته وهو القاهر فوق عباده .
وكيف يستغشى جاهل أو غافل ثوبه ليستخفى منه وهو القائل : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم
يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾^(٦) ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى
الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك
ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿^(٧) نعم ألا
يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠

(٢) سورة طه الآية : ٧ .

(٣) سورة غافر الآية : ١٩ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .

(٦) سورة هود الآية : ٥ .

(٧) سورة المجادلة الآية : ٧ .

لطيف يعلم دقائق الأشياء ، وخبير يدرك حقائق الكائنات على هذا المنهج القرآني ربي الرسول أصحابه ، رباهم على مراقبة البصر العلوى لهم في تحركاتهم وسكناتهم .

أو ما سمعت إلى تلك الإجابة الشافية الكافية الوافية التي أجاب بها سيد الخلق وحبيب الحق عن سؤال جبريل . ما الإحسان ؟ فماذا كان الجواب أيكون الإحسان صدقة ؟ أيكون إتقان شيء ؟ أيكون إخلاص العمل ؟ لقد كانت إجابة الرسول ﷺ عن الإحسان أرحب أفقاً وأوسع دائرة وأصلب عوداً : لقد بين أن للإحسان مقامين أحدهما مقام المشاهدة والآخر مقام المراقبة .

فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ولذا قال أحد الناس لسفيان الثوري — رضى الله عنه : دلني على نصيحة إن عملت لا أجتريء على معصية الله ، فقال سفيان الثوري : تذكر خمسة أشياء :

- ١ - أيليق بك أن تعصى الله وهو يرزقك .
- ٢ - أتظن أنك تعصى الله وهو لا يراك .
- ٣ - أتستطيع أن تعصى الله خارج ملكه .
- ٤ - أتستطيع إن أتاك الموت أن تطلب تأجيله
- ٥ - أتقدر يوم القيامة إذا ذهب بك إلى النار أن تدفع العذاب عنك ؟ قال : لا أستطيع شيئاً من ذلك .

قال : سفيان : فكيف تجتريء بالمعصية على من رزقك وراك وأنت في ملكه ، وكتب عليك الموت ولا تستطيع أن تدفع عذابه عنك .

قال الرجل : والله لا أعصيه مادمت حياً .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى الامتنان الإلهي فيقول سبحانه : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾

ويواصل النظم الكريم مسيرته المباركة فيذكر نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده ألا وهى تذليل الأرض وتمهيدها وتسخيرها وإصلاحها للعباد يقول جل شأنه : ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون ﴾^(١)

وقال سبحانه : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾^(٢)

(١) سورة الأعراف الآية : ١٠ .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٣ ، ٤ .

وقال عز من قائل : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾^(١)

وقال تبارك اسمه : ﴿ قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾^(٢)

وقال عز وجل : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(٣)

إلهي ، لا يسعنا إلا أن نشنى عليك بما أنت أهله ، فلك الشكر على ما أوليت ولك الثناء الجميل ، وكيف يستطيع لسان أن يؤدي شكرك وأنت الذي قلت وقولك الحق في سورة النعم وهي سورة النحل :

﴿ أتي أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ، خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذراً لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾^(٤)

(٤) سورة النحل من الآية : ١ - ١٨

(١) سورة الذاريات الآية : ٤٨ .

(٢) سورة فصلت الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٩ .

أخا الإسلام قف عند هذه المشاهد الكريمة التى تفيض فيها يد الرحمن جوداً وكرماً وسخاءاً
ونعمة .

تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأبصار هى الذهب السبك
على قضب من الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

كيف يستطيع العبد أن يؤدى شكر نعمتك ولك فى كل نفس يتردد فى صدره نعمة وآلاء
وفضل .

﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ ومناكب الأرض جهاتها وجوانبها المختلفة . وفى
القصير بالمشى ما يفيد عدم الاندفاع وراءها فإن من سكر بحب الدنيا كان أشد ممن سكر بالشراب ،
فإن من سكر بحب الدنيا فلن يفيق إلا عندما يصطدم رأسه بجدار القبر بين معسكر الموتى حيث تذهب
السكره ، وتحل الفكرة ، فإن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ما انتبهوا ندموا ، فإذا ندموا لا ينفع
الندم .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

سبحانك يا صاحب الحكمة البالغة ، يا من أمرت بالمشى فى الدنيا وأمرت بالسبق والاستبان
والإسراع إلى الدار الآخرة . ألسنت أنت القائل وقولك الحق : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم
وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ﴾^(١)

ألسنت أنت القائل ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾^(٢)

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٣ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

وأنت القائل : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ﴾
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴿^(١)

هذا إذا كان الحديث حديث الدنيا : فانتشار ومشى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾^(٢)
وإلقاء بالأثمة على الذين يؤثرون العاجلة على الباقية : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾^(٣)

ثم ماذا بعد المشى في مناكبها ؟ أيتمرغ أين آدم في طينها ويتقلب في حمئها المسنون ؟ لا .
﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿^(٤) إن هناك إشارة تنبيهية يقول فيها مولانا جل ذكره : ﴿ وإليه النشور ﴾ والنشور هو البعث والإحياء بعد الموت والخروج من القبور ، وهذا دليل قاطع على أن الحياة لا يمكن أن تدوم لأحد . فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء ، وما الجيل في الزمان إلا لبنة في بناء وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالحياة ألم يخيفه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يحزى كل امرئ بما فعل .

﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾
وبعد ما بين العلى الحكيم آلاءه العظمى ونعمه التي لا تحصى حيث جعل الأرض ذلولاً كالداية المذللة لراكبها ، وأعطانا من القوى ما نستطيع أن نمشي عليها ، ونطرق مجالاتها ومناكبها ونستعمرها ونثقب في بطنها وتستخرج منها المعادن والطاقات التي لا تعدو لا تحصى ، ونلتمس الرزق في خباياها . إذا به سبحانه وتعالى يذكر هذه الآيات على سبيل الوعيد ، فما السر في أن يقرن آية الأرض بآيات الوعيد — نعم . إن السر رهيب إذا عرف ، وخطير إذا وقفنا عند حقيقته ، فالآية السابقة تستدعي الشكر للمنعم جل جلاله ، فإذا ما جحدنا شكره وأنكرنا فضله فما جزاء الجحود خسف وتدمير

(١) سورة المطففين الآيات : من ٢٤ حتى ٢٦ .

(٢) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٣) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

ورجم بالحصباء وعذاب شديد . ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾^(١)

إن هناك أم كانت عاتية ولربها عاصية ملكت الأرض فلم تحسن قيادتها بل ظلمت وتجبرت ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ ونسوا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآيات الله يجحدون ، وعن آلائه يعرضون ، واستهزءوا بالرسول وأنكروا الرسائل ، بل وهددوهم بالنفى إلا أن يكفروا مثلهم ، وهنا حق الوعيد « ان الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » اقرءوا أن شتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾^(٢) و اقرءوا : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾^(٣)

خسف الأرض آية من آيات الله

إننى وأنا أخط سطور هذه الآيات اطلعت على بحث نشرته إحدى المجلات المصرية عن الزلازل ، ولما كان هذا بحثاً علمياً يتعلق بخسف الأرض فإذا هى تمور وتدور وتضطرب ، رأيت من باب التتمة للفائدة أن أنقل هذا البحث فى هذا الوطن ليقول العلم كلمته :

يقول كاتب البحث : « لقد كان سكان إقليم بريتنزا بجنوب إيطاليا متجمعين حول الموائد لتناول وجبة العشاء الخفيفة التى يتناولونها عادة فى الساعة السابعة ، فى نفس الوقت الذى ينتبهون فيه جيداً لمتابعة أهم أحداث العالم التى ينقلها التلفزيون فى أهم نشراته الإخبارية وإذا بهم يتحولون إلى أهم حدث يتطلع إليه سكان العالم بالأسف والأسى ، ففى تمام الساعة السابعة و ٣٦ دقيقة تحولت ١٥٠ مدينة وقرية فى الجنوب الإيطالى إلى ما يشبه الأطلال ، وبالرغم من أن مجموع الذين اشتركوا فى عمليات الإنقاذ بلغ سبعة عشر ألف وخمسمائة رجل ، بغض النظر عن حالة الفوضى التى سادت الإنقاذ ، فإن ذلك لم يحل دون وقوع عدد كبير من الضحايا .

وتشير التقارير النهائية إلى أن عدد القتلى سوف يصل إلى ثلاثة آلاف وحوالى ألفى مفقود وثمانية آلاف جريح . أما المشكلة الكبرى فهى تشرد حوالى ربع مليون إنسان ، ولم تكف المدارس والمنازل والأكواخ الصيفيه وعربات السكك الحديدية فى توفير المأوى للآلاف المشردة .

(١) سورة إبراهيم الآية : ٧ .

(٢) سورة هود الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة النحل الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

إذن فما هو الزلزال ؟

ويستطرد كاتب هذا البحث فيطرح بهذا السؤال ثم يجيب قائلاً :

الزلزال هو عبارة عن اهتزازات خاطفة سريعة تنتاب الأرض من حين لآخر وتترك وراءها في معظم الأحيان شقوقاً وتصدعات تحدث في قشرة الأرض ، وتغير معالمها الجغرافية والعمرائية تغييراً ملحوظاً وقد يحدث مع وقوع الزلازل انهيار للجبال وهياج لأمواج البحار والمحيطات والأنهار بالإضافة إلى دمار واسع للمنشآت وضياع الكثير من الأرواح .

ونحن نضيف هنا قوله تعالى : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾^(١) ويضيف كاتب المقال قائلاً :

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومي أستاذ الجيوفيزياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة إن هناك نوعين من الأسباب التي تؤدي إلى حدوث الزلزال ، فهناك الزلازل البركانية التي تنتج عن نشاط بركاني ، وقد تسبق ثورة البركان أو تعقبها ، وكانت هذه هي النظرية السائدة في الماضي ، وأرجع العلماء إليها سبب حدوث الزلازل حتى وقعت زلازل في مناطق ليست بها براكين ، هنا اتجه العلماء للبحث عن سبب آخر لحدوث الزلازل وهي الزلازل الحركية . أي التي تحدث نتيجة حركة صخور القشرة الأرضية وهذه هي أكثر أنواع الزلازل حدوثاً وأكثرها تأثيراً على حياة الناس والمنشآت .

والزلازل الحركية تحدث نتيجة كسر في صخور القشرة الأرضية ، وعند حدوث الكسر تتحرك الصخور بالنسبة لبعضها البعض . ومن هنا نشعر بهذه الحركة . وقد توصل العالم الجيولوجي الشهير (ريدا) في عام ١٩٠٦ إلى أن هذه الكسور تحدث نتيجة لضغوط تتعرض لها القشرة الأرضية سواء من باطن الأرض أو من خارجها ، وعند تعرض الصخور لهذه الضغوط الهائلة تصبح في حالة إجهاد ، وتظل على ذلك إلى أن يبلغ الضغط درجة لا يتحملها الصخر ، ويختزن الصخر تلك الضغوط بداخله عبر ملايين السنين ، وينتشر ذلك الضغط المختزن إلى الصخور وطبقات القشرة الأرضية المجاورة ، وعند نقطة الذروة لا يستطيع الصخر اختزان مزيد من الطاقة فيتصدع وتنطلق الطاقة المختزنة على هيئة موجات تسبب اهتزازاً لسطح الأرض تتناسب قوته مع مقدار الطاقة المختزنة .

وهناك عدة عوامل تساعد على تولد تلك الطاقة التي تختزنها الصخور ثم ينتج عنها الزلزال . من بينها الحركة الدائمة للكرة الأرضية والمواد الإشعاعية التي تصل إليها أو تصدر منها . وكذلك انصهار أجزاء معينة داخل القشرة الأرضية مما يؤدي إلى حدوث اختلال الخواص الطبيعية للصخور .

فالصخور الذي تتعرض للحرارة في باطن الأرض يكون وزنه أو كثافته أقل من ذلك الذي لا يتعرض للحرارة فوق سطح الأرض .

وعندما تكون هناك مناطق جبلية تجاورها سهول منبسطة يحدث انتقال للضغط من المناطق المرتفعة إلى المناطق السهلة مما يسبب الزلازل والهزات الأرضية ، فعادة ما تحدث الزلازل في المناطق السهلة التي تحيطها سلاسل جبلية عظيمة مثل جبال الهيمالايا ، وسلسلة الجبال في غرب أمريكا وجبال أطلس في المغرب العربي .

وتتركز أحزمة الزلازل في المناطق المتباينة الارتفاع وقد وجد العلماء أن هناك ثلاثة أحزمة رئيسية للزلازل تحيط بالكرة الأرضية !

١ - الحزام الزلزالي الأول : يطوق المحيط الهادى . ويمتد من شيلي وبيرو في أمريكا الوسطى فالملكسيك فكاليفورنيا فكذا ثم جزر اليابان فاندونيسيا فالفلين . وهذه المناطق تتركز فيها سلاسل جبلية عظيمة وتجاورها مناطق سهلة قليلة الارتفاع .

٢ - الحزام الزلزالي الثانى : يمر بشمال أفريقيا وينحرف لحسن الحظ عند منتصف ليبيا ثم يمر بأسبانيا فإيطاليا فاليونان فتركيا فإيران ثم شمال الهند وبورما والصين .

٣ - الحزام الزلزالي الثالث : يمر بمناطق متفرقة في المحيط المتجمد الشمالى وسيبيريا ووسط وشرق أفريقيا ، ويمس مصر في طرفها الجنوبي الشرقى ولكنه لا يمثل خطراً كبيراً لقلّة ارتفاع جبال تلك المنطقة .

وهناك نظرية علمية تقول : إنه حيث تلتقى وتتصادم تكثر الزلازل ومن المعروف أن قارات الأرض في حالة حركة نسبية وبطيئة وتحسب بملايين السنين .

وعند مدينة الأصنام (بالجزائر) تتصادم كتلة القارة الإفريقية مع كتلة القارتين الأوروبية والآسيوية فتتجه القارة الأفريقية غرباً بينما تتجه كتلة القارتين الأوروبية والآسيوية نحو الشرق ، حينئذ تحدث بعض الاضطرابات الجيولوجية التى أدت إلى حدوث ثمانى هزات أرضية شهيرة في منطقة البحر المتوسط منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن .

هل يمكن التنبؤ بالزلازل ؟

هذا السؤال يشغل بال الكثير من العلماء المتخصصين في ذلك المجال وأيضاً البشر الذين يقطنون المناطق التى يكثر وقوع الزلازل بها .

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومى : إنه من رابع المستحيلات التنبؤ بمكان وزمان وقوع الزلازل .

فنحن لا نعرف أين ستخزن الطاقة التى ستسبب الزلزال ، ثم أين سينكسر الصخر الذى يخزن تلك الطاقة ، وبالتالي لا يمكن تحديد مكان وزمان وقوع الزلزال . إلا أنه يمكن القول بأن هناك مناطق تحيطها أحزمة زلزالية معروفة حددها العلماء ، والمناطق التى وقعت فيها زلازل هى أكثر عرضة لوقوع مزيد من الزلازل .

وهناك محاولات لعلماء الصين واليابان والولايات المتحدة للتنبؤ بوقوع الزلازل ، فهم يلاحظون أن الثعابين تخرج من الشقوق والجبال قبل وقوع الزلازل ، كما تصدر القطط والخيول أصوات معينة تدل على الفرع والخوف ويحدث ميل بسيط فى سطح الأرض كما يتغير المنسوب الطبيعى للمياه الجوفية .

وقد حدث عام ١٩٦٤ م وبعد هزة أرضية اجتاحت مدينة بكين أن خرج متحدثاً أكاديمياً يقول : إن الصين لن تشهد زلازل خلال السنوات الخمس أو الأربع القادمة على الأقل ، ولم يكدمر يوم واحد حتى وقع زلزال عنيف اجتاحت مدينة بكين !! ففقد الناس الثقة فى إمكانية التنبؤ بالزلازل حتى ولو كان علمياً ! وما تم التوصل إليه من أجهزة حتى الآن . ترصد الزلازل بعد وأثناء حدوثها فقط ، وليس قبل ذلك وكل الدلائل التى يتم تجميعها قبل حدوث الزلزال سواء كانت طبيعية أو بأجهزة علمية ، لا تعطى فترة كافية للاستعداد لتجنب الزلزال .

وقد نشأ فى الفترة الأخيرة علم حديث عن الزلازل وعلاقتها بالمنشآت فى أمريكا واليابان والصين ، وأصبحوا يبنون المنشآت ذات القيمة الاقتصادية والاستراتيجية بطريقة تقلل من الدمار الناتج عن حدوث الزلازل ، وأفضل مثل ذلك هو الكوبرى المعلق الذى يمر عبر خليج مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية لمسافة ١٠٥ ميلاً ، فقد تم تصميمه بطريقة هندسية تساعد على امتصاص الهزات الناتجة عن الزلازل .

ولقد زار الدكتور بيومى تلك المدينة منذ عشرين عاماً ، وقد حدث زلزال فى ذلك الوقت ، وتأرجح الكوبرى يميناً ويساراً ولم يتحطم رغم أن طوله حوالى ٢٢ كم ، ويساعد ذلك العلم الجديد على ابتكار أنواع معينة من حديد التسليح والأسمنت ومواد البناء ، وأيضاً يتم تصميم المباني بطريقة هندسية تجعلها تمص الزلازل ولا تسقط ..

مقياس الزلزال

هناك عدة مقاييس لتقدير الزلازل وأشهرها مقياس ريشر وفي مقياس ريشر يتم تفسير قوة الطاقة الناتجة عن الزلزال إلى درجات ، وكل درجة تعادل مائة « أرج » وهى وحدة لقياس الطاقة الناتجة عن الزلزال . ومقياس ريشر مقسم إلى ١٢ درجة وهناك علاقة بين تقدير قوة الزلزال وبين الدمار الذى يخلفه ، فإذا قلنا إن ذلك الزلزال قوة درجة واحدة على مقياس ريشر فمعنى هذا أن قوة الزلزال ضعيفة لا ينتج عنها أى دمار ولا يشعر به الانسان ولا تسجله المراصد . أى : أن الطاقة التى خرجت من الصخور وقت وقوع الزلزال ضئيلة جداً ولم تسبب أى اهتزاز للصخور والمنشآت والأرواح .

لقد كان زلزال شان تسي الذى وقع فى الصين عام ١٥٥٦ هو أخطر الزلازل التى عرفتها البشرية ، فقد راح ضحيته ما يزيد على ٨٣٠ ألف شخص بل إن العلماء يرجحون أن يكون ذلك الزلزال هو أسوأ كارثة طبيعية فى تاريخ البشرية . وغالباً ما تكون زلازل الصين ذات عدد ضخم من الضحايا نظراً للكثافة السكانية بها (حوالى ألف مليون نسمة) كما شهدت الصين بعد ذلك فى عام ١٩٦٦ م فى مدينة هيسنج ناى ومدينة هابشنج عام ١٩٧٥ م فى مدينة ناتج شان عام ١٩٧٦ م زلازل رهيبه ، ففى الزلزال الأخير فقط فقد ٦٥٠ ألف نسمة أرواحهم طبقاً لإحصائية الأمم المتحدة ...

وقد أطلق عدد من علماء أمريكا واليابان والصين أخيراً نظرية جديدة تقول : إن أحزمة الزلازل يمكن أن تهاجر إلى مناطق أخرى غير المناطق المعروفة حالياً .

ويرد الدكتور عبد الرحيم بيومى قائلاً : إذا اعتبرنا أن السلاسل الجبلية تقع فى نطاق أحزمة الزلازل فى العالم باعتبارها أسباب حدوث الزلازل كما أوضحنا ، فإن مصر ليست بها مثل هذه السلاسل الجبلية الشاهقة التى تؤدى إلى حدوث الزلازل ، لذا فإنه لم يثبت علمياً حتى الآن أن مصر يمكن أن تتعرض لزلزال عنيفة فى المستقبل القريب . وذلك مالم تظهر أدلة علمية أخرى تثبت عكس ما هو قائم . كما أن الزلازل التى تعرضت لها القاهرة والإسكندرية والزقازيق والمنوفية كانت زلازل ضعيفة لم تترك أى دمار خطير ، ولم تزد قوة أى زلزال فى مصر على أربع درجات على مقياس ريشر .

مسألة فى العقيدة

وبعد هذا الطواف فى مناكب الأرض وبيان انتقام الله تعالى وآيات وعيده وما يجرى على أهل الأرض من زلازل وخسوف ومسح لآبد لنا من وقفة هنا تتعلق بقوله تعالى : ﴿ أأمنتم من فى

السماء ﴿١﴾ كيف نفهم هذه الآية وأخواتها مثل قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾^(١) ﴿٢﴾ يد الله فوق أيديهم ﴿٣﴾ ، ﴿ ويقي وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾^(٢) ومثل قوله ﷺ : « ان قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء »^(٤)

كيف نفهم هذه النصوص وأمثالها ونقول وبالله التوفيق : إن الراسخين في العلم يقفون من هذه الآيات موقف الايمان المحض قائلين ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾^(٥) ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾^(٦) إذ أن هذه الآيات جميعها راجعة إلى أصلها المحكم في قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(٧) وفي سورة الاخلاص ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾^(٨) .

وما فتح على المسلمين أبواب الخلاف والفرقة إلا اختلافهم في عقائد كانت أولى ما تكون بالتسليم لله دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل فعلى المؤمن إذا قرأ مثل هذه الآيات أن يقول ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾^(٩) فالقاعدة الأصلية في هذه العقائد أن الله — تبارك اسمه — لا يحويه مكان لأنه خالق المكان ، ولا يسأل عنه بمتى كان ، لأنه لا يجرى عليه زمان ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾^(١٠) هو الأول فلا شيء قبله ، والآخر فلا شيء بعده ، والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه ، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر فهو سبحانه ليس كمثله شيء وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ...

اعلم يا أخى أن مسائل العقيدة أحد من السيف وأدق من الشعرة لذلك يجب العلم بها ويحظر الخلاف عليها ، اعلم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وليس له كفوا أحد ، فأياك أن يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ الآيات السابقة الذكر أن الله تعالى له جارحة وأصبع تماثل أو تشابه من بعيد أو قريب الحوادث إنما القول الحق أن تؤمن بما قاله الله تعالى وتقول فيها ما قاله الإمام مالك في قوله تعالى :

(١) سورة طه الآية : ٥ .

(٢) سورة الفتح الآية : ١٠ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ٢٧ .

(٤) صحيح مسلم ٢٠٤٥/٤ رقم ٢٦٥٤ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٦) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٧) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٨) سورة الإخلاص الآيات : من ١ حتى ٤ .

(٩) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(١٠) سورة الحديد الآيات : من ١ حتى ٣ .

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ قل مثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وفي قوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ فاليد والوجه معلومان ، والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب إنك إن فعلت ذلك فعد سلمت من الزلل ، ولقيت الله بقلب سليم ويكون جزاؤك عند الله الفلاح ، لأنك آمنت وصدقت وأذعنت وأيقنت وفوضت وسلمت واعتقدت ، فحكم الله لك الفلاح قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾^(١)

عالم الطير

قال الله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير . آمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور * آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور * أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ﴾

في هذا المشهد الرباني الكريم يوجه القرآن الكريم أنظار البشرية إلى عالم من العوالم الشتى الكثيرة المختلفة التى لها نظامها وآجالها وأرزاقها وأقذارها ، إنه عالم الطير : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾^(٢) وتأمل معى قول رسول الله ﷺ وهو يعلم البشرية القناعة والرضا فى طلب الرزق ف ضرب لهم مثلاً بعالم الطير فقال ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »^(٣).

ومعنى قوله تعالى : ﴿ صافات ﴾ أى : صافات أجنحتها وهذا أكثر حالاتها ولذا عبر عنه بالصفة ، أما ﴿ يقبضن ﴾ فمعناه قبض الأجنحة فى بعض الحالات لا فى أكثرها ولذا عبر عنه بالفعل الذى يفيد التجدد والحدوث وبين سر العظمة الإلهية فى هذا العالم العجيب فقال : ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ وفى الإمساك قدرة وفى التعبير بالرحمن رحمة فليس الإمساك هنا جبروتاً أو قهراً أو قوة إنما هو رحمة فياضة لتقوم الطير برسالتها وجمع أرزاقها لأفراخها فى أعشاشها وتسبيح ربها ﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض ، والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾^(٤).

فى سورة النحل يقول تعالى عن هذا العالم : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾^(٥).

(١) سورة المؤمنون الآية : ١ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٨ .

(٣) مسند أحمد ٣٠/١ .

(٤) سورة النور الآية : ٤١ .

(٥) سورة النحل الآية : ٧٩ .

اعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من الحقائق والأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته في هذه الدنيا التى تعيش فيها ويطير في أجوائها ؟

يقول علماء الكون أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن المقصد ، ويوضح جميل الصبغة ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلاً من الفم والشفيتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يتلغ الطير غذاءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها .

فالطيور الجارحة — كالبنم والحداة — ذات منقار قوى مقوس جاد على شكل خطاف وذلك لتمزيق اللحوم ، بينما الأوز والبط لهما مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة لتلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة مثلاً طويل طويلاً ملحوظاً ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصيد إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان التى غالباً ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء الطير من النظرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى من الذى هيا لعالم الطير هذا النظام وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة كما قال سيد المرسلين ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً »^(١) . هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والاتفاق الحكيم .

﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير ﴾

قال تعالى : ﴿ أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى

غرور ﴾ .

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها من الآيات أنه تعالى بعد ما بين آيات قدرته في الأنفس والآفاق والكونيات . وهذا الكوكب الأرضي ، وجه مولانا هذا السؤال إلى كل من استعان بغيره أو طلب المدد من سواه ، فقال لهم في أسلوب إنكارى بعد أمن التى تدل على الهمة والاستفهام وكأنه تعالى يقول : من هذا الذى هو جند لكم يوفر النصر ، ويرعى الأنفس والثمرات والأموال غير الله ، وعبر هنا بلفظ الرحمن لإفادة النعم والآلاء التى يغدقها بخالص رحمته وعميم فضله ، والجواب أنه لا أحد . فمن الذى يستطيع أن يدعى أن بيده الملك وأنه قدير على كل شيء من غير الله يستطيع ذلك .

بل من الذى يستطيع أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض وزين السماء بنجومها وجعل الأرض ذلولاً ؟ هذه أدلة قاطعات يشاهدها من كان لديه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وحيث بطل هذا الادعاء فمن زعم ذلك فهو كافر خدعه كفره ، وضال ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴿ إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ وهذا أسلوب يفيد القصد فإن حرف (إن) هنا يفيد النفي أى ما الكافرون إلا فى غرور وخداع وغش .

ثم يقول مولانا تبارك اسمه ﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ﴾

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الذى يملك النصر وحده هو الذى يملك الرزق وحده فهو صاحب الآيات والآلاء ، آيات القدرة وآلاء الرحمة .

وقوله جل وعلا : ﴿ إن أمسك رزقه ﴾ لها معنيان فإما أن تكون (ان) نافية بمعنى ما أمسك رزقه أى : ما حجب الرزق عنكم ليلاً ولا نهاراً : سماء يفيض بالماء ، وأرض تفيض بالخيرات والنبات ، والمعنى الثانى أن تكون (ان) شرطية على اضممار جواب الشرط من ، باب الایجاز والمعنى إن أمسك رزقه هلكتم .

﴿ بل لجوا فى عتو ونفور ﴾ وهذا تعقيب على السؤال السابق أنهم يعلمون أن الله بيده مفاتيح الرزق .

قال جل شأنه : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ (٢)

فقد أقروا بأنه هو الرازق إذن فلماذا انصرفوا ؟ لأنهم لجوا وتمادوا فى عتو وكبر ونفور ، وشروا وبطروا للحق وغمطوا للمعابر .

(١) سورة يونس الآية : ٣١

(٢) سورة العنكبوت : ٦٣

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى * أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم ﴾ وقد جاءت هذه الآية الكريمة نتيجة فاصلة بين أتباع الحق والسائرين وراء الباطل ، فمن أقر واعترف بآيات الله في كونه وأن لهذا الكون إله واحد ، مشى سوياً على صراط مستقيم ، ومن عمى ولج في باطله مشى مكباً على وجهه ، قال تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ (١)

قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿

ما زال النظم الكريم يواصل زحفة المبارك في إسباغ النعم التي لا تعد ولا تحصى : ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (٢)

وهذا أمر يخاطب الله به كل من يعقل الخطاب بقوله : ﴿ قل هو الذي أنشأكم بعد ما كنتم في عالم العدم ﴾ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴿ (٣) والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٤)

فهذه الآيات المعرفة ووسائل العلم : سمع وبصر وفؤاد مدرك ، وكان الواجب أن تقابل هذه النعم بالشكر ، ولكن بالأسف يعقب المولى على أحوال العباد بما هو واقع حالهم فيقول سبحانه : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴾ وذرأكم بمعنى كثرتم ونشرتم ، وإليه تحشرون بمعنى المصير والمآل إليه وحده لا شريك له ، وتلك قضية العقيدة التي لا شك فيها ولا ريب .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ والمقصود بالوعد هنا اليوم الموعود وهو يوم القيامة ومتى اسم استفهام يراد به على لسانهم الاستبعاد والاستحالة والتحدى بدليل قولهم بعد ذلك : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾

قال تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ (٥)

وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى

(٥) سورة المعارج الآيتان : ٦ ، ٧ .

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ - ١٠١

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٤) سورة النحل الآية : ٧٨ .

ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها * وأن الله يبعث من في القبور ^(١).

قوله تعالى : ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار رأوا أن الأمر كان قريباً لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما هم هناك من الشر ، فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿ وبداهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ ^(٢).

وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿ هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمتنا فمن ينجى الكافرين من عذاب أليم ﴾ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ^(٣)...

وهكذا قضينا هذه السياحة المباركة فى سورة الملك التى تسمى المنجية والتى قال فيها رسول الله ﷺ : « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : تبارك الذى بيده الملك . رواه أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له ، والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد ^(٣) . ١هـ (من كتاب سياحة مباركة فى سورة الملك للمؤلف) .

(١) سورة الحج الآيات : من ١ حتى ٧ .

(٢) سورة الجاثية الآية : ٣٣ .

(٣) مسند أحمد ٣٢١/٢ وسنن الترمذى — كتاب فضائل القرآن — باب فضل سورة الملك ١٦٤/٥ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه —

كتاب الأدب — باب ثواب القرآن ١٢٤٤/٢ رقم ٣٧٨٦ وسنن أبى داود ١١٩/٢ رقم ١٤٠٠ .

تفسير سورة القلم

مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : اثنتان وخمسون

وكلماتها : ثلاثمائة

وحروفها : ألف ومائتان وست وخمسون

فواصل آياتها : (من)

ولها اسمان : سورة ن ، وسورة القلم . وهذا أشهر .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الذب عن النبي ﷺ ، وعذاب ما نعى الزكاة ، وتخويف الكفار بالقيامة ، وتهديد المجرمين بالاستدراج ، وأمر الرسول ﷺ بالصبر ، والإشارة إلى حال يونس — عليه السلام — في قلة الصبر ، وقصد الكفار رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين كما في قوله تعالى : ﴿ ليزلقونك بأبصارهم ﴾ الآية .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ حَلَّافٌ مَّهِينٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ زَنِيمٌ ﴾ تسعة أوصاف ، ولم يدخل بينها واو العطف فيدل على ضعف القول بواو الثمانية ﴿ فَأَقْبِلْ ﴾ بالفاء سبق بيانه . ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ سبق .

مناسبة السورة لما قبلها

١ — أنه ذكر في آخر (الملك) تهديد المشركين بتغوير الأرض ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو ثمر البستان الذى طاف عليه طائف فأهلكه وأهلك أهله وهم نائمون .

أنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع ، وأنه لو شاء لخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصبا وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله ، وكان المشركون ينسبون في ذلك مرة إلى الشعر ، وأخرى إلى السحر وثالثة إلى الجنون — فبرأه الله في هذه السورة مما نسبوه إليه ، وأعظم أجره على صبره على أذاهم وأثنى على خلقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾
بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

تفسير المفردات

﴿يسطرون﴾ أى : يكتبون . ﴿ممنون﴾ أى : مقطوع . ﴿المفتون﴾ : المجنون لأنه
فُتن : أى : ابتلى بالجنون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ * ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ قال العلامة ابن القيم :
الصحيح أن (ن) ، (ق) ، (ص) من حروف الهجاء التى يفتح بها الرب سبحانه بعض السور ،
وهى أحادية ، وثنائية وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط فى أول سورة
إلا وعقبها بذكر القرآن ، أما مقسماً به ، وأما مخبراً عنه ، ما خلا سورتين سورة (كهيعص ، ون)
كقوله تعالى : ﴿ آلم ذلك الكتاب ﴾ ﴿ آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ نزل عليك
الكتاب ﴾ ، وكقوله : ﴿ ألمص ﴾ كتاب أنزل إليك ﴾ ﴿ ألم ﴾ تلك آيات الكتاب ﴾ وهكذا إلى
آخره ، ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها وجلالتها . إذ هى مبانى كلامه وكتبه
التي تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ،
وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ونهيه ، ووعيده ، ووعدته ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن ، والقبیح ،
وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث يبلغون بها أقصى ما فى أنفسهم ، بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة ،

وأوصله إلى المقصود ، وأدلة عليه ، وهذا من أعظم نعمه عليهم . كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب
سبحانه على من عبد إلهاً لا يتكلم . وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم . فكان فى
ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال إحسانه وإنعامه ، فهى أولى أن يقسم بها من الليل
والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات . فهى دالة أظهر دلالة على
وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه ، وصدق رسله .

وقد جمع سبحانه بين الأمرين — أعنى القرآن ونطق اللسان — وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه كما قال : ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان ﴾^(١) فهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الإنسان على سائر الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشتات العلوم ، وبها أمكن تنقلها في الأذهان ، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ؟ وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة ، وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فأياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان ، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه في هؤلاء يخرج من قصبة الرئة ، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق ، ووسطه وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا وفي الشفتين ، والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فإذا هو حرف .

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني ، أمراً ، ونهياً وخبراً ، واستخباراً ونفياً ، وإثباتاً ، وإقراراً وإنكاراً وتصديقاً وتكذيباً ، وإيجاباً ، واستحباباً ، وسؤالا وجواباً . إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ، نظمه ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره ، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين ، فهذا شأن الحرف المخلوق .

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل . وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور . كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوجدانية . فهي دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه . وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد والرسالة . فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن القرآن كلام الله . تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً . وبلغه كما أوحى إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف . واشعها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق .

السر في القسم بالقلم

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ القلم وما يسطرون ﴾ فأقسم بالكتاب وآله وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحي . وقيد به الدين . وأثبتت به

الشرعية وحفظت به العلوم . وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك . وأثبتت به السبل والمسالك وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصح . وأنفعه لهم وأنصح . وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم . وطيباً يرى بإذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم . ويودعها بحكمة فتصير بوادى الفهوم والأقلام نظام للأفهام . وكما أن اللسان يريد القلب ، فالقلم يريد اللسان ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم والقلم يريد القلب ورسوله وترجماته ولسانه الصامت .

مراتب الأقلام ، وقلم القدر

والأقلام متفاوتة في الرتب . فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق . كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : أكتب ، قال : يارب ، وما أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »^(١) واختلف العلماء . هل القلم أو المخلوقات أو العرش ؟ على قولين . ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني أحدهما أن العرش قبل القلم لما ثبت فى الصحيح من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء »^(٢) فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش . والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عباده هذا .

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذى أقسم الله به .

قلم الوحي :

القلم الثانى قلم الوحي ، وهو الذى يكتب به وحى الله إلى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والعالم خدام لهم . وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدام لأقلامهم وقد رفع النبى ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحى الله تبارك وتعالى من الأمور التى يدير بها أمر العلوى والسفلى .

(١) أنظر منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود — كتاب القدر ٢٥٥/٣

(٢) صحيح مسلم — ٢٠٤٤/٤ رقم ٢٦٥٣ .

قلم الفقهاء والمفتين :

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله . وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه . فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق . وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقاليم . وأقلام العالم خدماً لهذا القلم .

قلم طب الأبدان :

القلم الرابع قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة . وترد إليها صحتها المفقودة . وتدفع به عنها آفات وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقاليم بعد قلم طب الأديان . وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة .

قلم التوقيع عن الملوك :

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك ، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقاليم ، والمشاركون للملوك في تدبير الدول . فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .

قلم الحساب :

القلم السادس قلم الحساب ، وهو القلم الذي تضبط به الأموال ، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذي تضبط به المقادير ومايينها من التفاوت والتناسب . ومبناه على الصدق والعدل . فإذا أكذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .

قلم الحكم :

القلم السابع قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فتزد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفوذ وال لزوم وذاك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبت ، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه .

قلم الشهادة :

القلم الثامن قلم الشهادة ، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق ، وتصان عن الإضاعة ، وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحقق بحقه ، وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين .

قلم التعبير :

القلم التاسع قلم التعبير ، وهو كاتب وحى المنام ، وتفسيره ، وتعبيره ، وما أريد منه ، وهو قلم شريف جليل مترجم للوحى المنامى ، كاشف له ، وهو من الأقلام التى تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد على طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته وتحريره الصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهج السديدة ، مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحسن مؤيد بالنور الإلهى ، ومعرفة بأحوال الخلق وهياتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام ، وأعمها جولانا ، وأوسعها تصرفا ، وأشدّها تشبيهاً بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضى والحال والمستقبل ، فتعرف هذا القلم فى المقام هو محل ولايته وكرسى مملكته وسلطاته .

قلم تواريخ العالم :

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه . وهو القلم الذى تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه فى الخيال ، وينقشه فى النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحاني ، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك .

قلم اللغة :

القلم الحادى عشر قلم اللغة ، وتفصيلها من شرح المعانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعانى وكيفية الدلالة ، وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها . وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها .

القلم الجامع :

القلم الثانى عشر القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم وتهاقضهم وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل ، وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم . وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدل . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدم لكل مخالف للرسول . فهم فى شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن .

فهذه الأقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه وتعالى أقسم به فى كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم ، ولقد أبدع أبو تمام إذ يقول فى وصفه :

لك القلم الأعلى الذى بشباته
له ريقه طل ، ولكن وقعها
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
له الخلسوات السلاء لولا نجحها
فصيح إذا امتنطقته وهو راكب
إذا ما امتطى الخمس للطاف وأفرغت
أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت
إذا استغزر الذهن الذكر وأقبلت
وقد رفدته الخنصران وسددت
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف

يصاب من الأمر الكلى والمفاصل
بآثاره فى الغرب والشرق وابل
وأرى الجنا اشتارته أبد عواسل
لما احتفلت للملك تلك المحافل
وأعجم إن خاطبته وهو راجل
عليه شعاب الفكر وهى حوافل
لنجواه — تقويض الخيام — الجحافل
أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
ثلاث نواجيه الثلاث الأنامل
ضناً وسميناً خطبه وهو ناحل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه وهو قوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ . أى : ولست والحمد لله بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

قال ابن القيم : وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها ، فإن ما سطر الكتاب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا عن عقل وافر ، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الاتيان بها ، ولا سيما من أمى لا يقرأ كتاباً ولا يخط يمينه مع كونه فى أعلى أنواع الفصاحة ، سليماً عن الاختلاف ، برياً من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر إلا فك .

فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق ما لا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء وخضعت له أبواب الأولياء ، وتلاشت فى جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والاذعان ، طائعة مختارة وهى ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به ، ولا كمال لها إلا بما جاء به ! فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي . ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق .

وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها . ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالإيمان والتقوى . فكيف يكون

متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته ، وحال أتباعه ؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم . فغض عنه الجنون بنعمته عليه .

ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وأخراه فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ لَكَ لِأَجْرٍ غَيْرِ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر ونكبر الأجر تنكير تعظيم كما قال تعالى ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ ﴾ ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ ﴾ ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ ﴾ ﴿ إِنْ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازٌ ﴾ وهو كثير وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾

وهذه من أعظم آيات ثبوته ورسالته لمن منحه الله فهماً . ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ فأجابت بما شفى وكفى فقالت : كان خلقه القرآن . فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك ومن هذا قال ابن عباس وغيره . أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلقاً ، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زاكية . وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال ، والأعمال عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أخراً ، هى أزكى الأخلاق وأشرفها ، وأفضلها — فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له ، وتبياناً ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبه لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبليغه . والجهاد فى إقامته ، فترجمت أم المؤمنين السيدة عائشة — رضى الله عنها — لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : « كان خلقه القرآن »^(١) وفهم هذا السائل عن هذا المعنى ، فاكتمى به واشتفى .

ويقول ابن القيم : فإذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، وإرادتهم ، وأعمالهم ، مستفادة من القلم وما يسطرون ، وكان فى خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذى أعطاه أعلى الأخلاق وأفضل العلوم ، والإرادات ، التى لا تهتدى للقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون ، هو أم هم ؟ وقد علموا هم والعلاء ذلك فى الدنيا . ويزداد علمهم فى البرزخ ، وينكشف ، ويظهر الظهور فى الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق فى العلم به .

قوله تعالى : ﴿ فَسْتَبْصِرْ وَيَصْرُونَ بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ ﴾ * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

(١) صحيح مسلم — كتاب صلاة المسافرين — باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه ٥١٢/١ رقم ٧٤٦ ومسند أحمد ٢١٦/٦

أى : ستعلم با محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ؟ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾^(١) وكقوله تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾^(٢) . قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : (ستعلم وتعلمون يوم القيامة) . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بأيكم المفتون ﴾ أى : المجنون . وكذا قال مجاهد : وقال قتادة : وغيره فى قوله : ﴿ بأيكم المفتون ﴾ أى : أولى بالشيطان ومعنى المفتون ظاهر أى الذى قد افتنن عن الحق وضل عنه وقوله : ﴿ فستبصر ويصرون ﴾ تقديره فستعلم ويعلمون أو فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون . ثم قال تعالى : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾^(٣) أى : هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ويعلم الحزب الضال عن الحق . قال تعالى : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾^(٤)

من أخلاق النبى ﷺ

يقول الدكتور : أحمد محمد الحوفى فى كتابه القيم « من أخلاق النبى » ما ملخصه :
(تمهيد)

ما الأخلاق؟

هذه الأخلاق التى تحدث القدماء والمحدثون بها ، والتى لا يعرى إنسان من لبوسها لأن منها الطيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والعفة والفجور والشجاعة والجبن ، هل هى فى حاجة إلى تعريف ؟

نعم ، إنها معروفة لنا جميعاً ، ولكنها تحتاج إلى تعريف يكشف عن أصلها وعن ينبوعها . ولعل أسهل ما تعرف به أنها عادة مقصودة مرادة ، وإن شئت فقل إنها عزيمة مكررة معتادة ، توجه إلى الخير أو إلى الشر . وذلك لأن العادة كثيراً ما تكون عفوية غير مقصودة سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، فلا تسمى خلقاً .

وكذلك العزيمة قد تدفع إلى العمل مرة أو بضع مرات ، فلا تدخل فى نطاق الأخلاق ، كالذى يعلم أن صديقه مريض فيعتزم على زيارته ، ويسرع بتنفيذ عزمته ، والذى يرى شخصاً فى البحر

(١) سورة القمر الآية : ٢٦ .

(٢) سورة سبأ الآية : ٢٤ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٤) سورة النجم الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

مشرفاً على العزق ، فيسارع إلى نجاته ، فإن عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكررأً ينبىء عن عادة مقصودة أو عزيمة معتادة .

ولابد من عنصر الاختيار والحرية ، لأن الذى يبذل ماله مضطراً مجبراً لا يسمى اسخياً .

لهذا نقول : إن العزيمة اعتادت عملاً صار خلقاً ، فالذى تعود الصدق يسمى صادقاً ، فصار الصدق خلقاً من أخلاقه ، والذى تعود الأمانة يسمى أميناً ، والأمانة خلق من أخلاقه . والعفيف هو الذى تسيطر عليه العفة فى جميع حالاته ، والفاجر هو الذى تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يردعها ومعنى هذا أن ميلاً من الميول طبع الشخص بطابعه زمنياً طويلاً ، فصار خلقاً ثابتاً له .

فإذا كانت الميول الغلبة على شخص خيرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، وإذا كانت الميول المسيطرة عليه شراً كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العلو وذاك السفلى درجات متفاوتات وطبقات متعددة .

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر .

أما الغاية التى يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهى السعادة التى يشعر بها وينعم وهذا هو ما أراده الغزالي بقوله : « وغاية هذا الخلق أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً ، فالسخى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع .

ولقد سبق الإمام الغزالي إلى تحديد الخلق بما يكاد يتفق وهذا التعريف ، فقال : إنه هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر وروية .

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً .

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقاً سيئاً وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لتحقيق المداومة على الفعل ، لأن من يصدر عنه بذل المال على الدور الحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ .

وإنما اشتراطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال إن خلقه السخاء والحلم ...

لمحة إلى المذاهب الأخلاقية

اختلف الباحثون منذ القدم إلى اليوم فى الأساس الذى يقوم عليه صرح الأخلاق فتعددت آراؤهم ، ولم تسلم من النقد .

وأريد قبل أن أعرض للأساس الإسلامى للأخلاق ، أن ألم بهذه المذاهب فى إيجاز يغنى عن التفضيل .

١ - العرف :

لكل أمة عرفها ونظمها وعاداتها التى تتوسم الخير فى اتباعها ...

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاقى ، فما وافق العرف كان خيراً ، وما خالفه كان شراً ، وما سكت العرف من كان الناس فيه مخيرين بين أن يفعلوه أو يتركوه . لكن هذا المقياس مضطرب مختل ، لأن العرف لا ثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل ، ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفاً عند العرب فى الجاهلية ، فحرمها الإسلام ، وكانت الغارات عرفاً عندهم ، فحظرها الإسلام ، وكان الاسترقاق عرفاً عند الأمم القديمة ، فلما جاء الإسلام ضيق روافد الرق ، وفسح الطريق لتحرير الأرقاء .

ثم إن الاستمساك بالعرف صمود وتحجر ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة ، وهو إلى هذا كله معادة للإصلاح والمصلحين .

٢ - المنفعة المادية :

ذهب جماعة إلى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق وأجهدوا أنفسهم فى التفكير والتدليل والتعليل . فالأعمال التى تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لا بد أن يدور حول هذا المحور .

وأنهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحى ، ويعيدونه نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساساً عاماً للناس كافة .

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعادى والتدابير . فإن صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة إذا ما قامت على أساس النفع المادى فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشره ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذى يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرون خصوماً له ، فلا تعاطف ولا تآلف ، ولا محبة ولا إثارة ولا إنحاء ، ولا ثقة ولا سلام ...

٣ - السعادة الشخصية :

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هى اللذة والخلو من الألم ، فاللذة هى أساس الأخلاق ،

وهى محور الأعمال ، والعمل يكون خيراً بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شراً بقدر ما يسبب من ألم .
وقد كان من أكبر الدعاة إلى السعادة الشخصية أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) إذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هى غاية الإنسان ، وليس فى الحياة خير سواها ، وليس بها شر إلا الألم ، ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها فى السعادة التى تصحبها .
والحق أن فى هذا المذهب مجافاة للصواب فى كثير من الأعمال والأحوال ، فإن الأخيار يحتملون ألواناً من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم ، والآباء والأمهات كثيراً ما يشقون ، وكثيراً ما يطرحون لذاتهم ليسعدوا أبناءهم .

وإن المجاهدين ليفتدون أديانهم ، والشجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمائهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقون إلى شئ غير إعلاء كلمة الله ، وحماية الأوطان ، فأين هى السعادة الشخصية أو اللذة التى قام عليها هذا المذهب ؟

نعم إن فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التى ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشخصية .

ثم إن هذا المذهب قائم على الأثرة ، وإنها لشر يأباه الخلق الكريم ، لأن الذى يفعل الخير لغير مجلبة للذة أثر يفعل خيراً لنفسه لا للناس فهو يجود أو يشجع أو يعف ليكسب ثناء ، أو يشعر بالقدرة والتعالى والتفوق وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، لأن الفاضل فى رأى أبيقور لا يعنيه شئ من الخير الذى يصيبه الناس ، أو من الشر الذى يحيق بهم ، إلا القدر الذى يمس سعادته أو شقاءه .
٤ - السعادة العامة :

إذا كان أبيقور قد أسس مذهبه الأخلاقى على السعادة الفردية ، فإن آخرين قد أسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا إلى أن الواجب على الإنسان تحقيق أعظم قسط من السعادة للناس .
وهم يرون أن الفضائل تعد فضائل ، لأنها تثمر لذات أكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وإن آلمت بعض الناس ، وهى فضائل وإن آذت الفاعل نفسه ، ويرون أن الرذائل رذائل لأن آلامها تفوق لذاتها .

ومن أكبر الدعاة إلى هذا المذهب بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) م .

يقول بنتام : وضعت الفطرة الإنسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا فى الحياة .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقة ومع قربيه إلى المثل الأعلى يكلف فاعل الخير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل ، سواء أكان من

الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع ثم إن السعادة العامة ليست مقياساً محدداً ثابتاً ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص وباختلاف الملابسات ...

على أن السعادة العامة مقياس مؤقت لاثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس ينظرون إلى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر إلى عصر ، بل تختلف في العصر الواحد من بيئة إلى بيئة .

٥ - الضمير :

أقام زينون الفيلسوف اليوناني (٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م) مذهبه الأخلاقي على الضمير ، ثم عزز هذا الفيلسوف الألماني كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) .

وأساس هذا المذهب أن في كل إنسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشر كأنها إلهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل .

فنحن حينما نصف عملاً بأنه خير أو شر لا ننظر إلى لذة ولا إلى ألم ، كما يذهب مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين إلى نتائج العمل .

وسواء أكان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فإنه يتطلب من الإنسان أن يصغى إلى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه .

ولكن هذا المذهب لا يسلم من عيب ، لأن الناس يختلفون في حكمهم على الأعمال اختلافاً كبيراً ، وكثيراً ما تتباين أحكامهم حتى على البديهيّات . فالسرقة الخفية كانت في إسبرطة عملاً ممدوحاً يُمرّن عليه الشباب لتدريبهم على الحيلة في الحرب ، والاسترقاق كان في العالم القديم مباحاً ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب في الجاهلية .

وشتان ما يبين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التي ترجع إلى الإدراك ، كالحكم على الفحم بأنه أسود ، وكوصف القطن بأنه أبيض .

ومن عيوب هذا المذهب أن الضمير في حاجة إلى تربية وتكوين ، لأنه كثيراً ما يغشيه الهوى ، وتسيره المنفعة الخاصة ، وكثيراً ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فإذا رُبّي تربية دينية كان رقيباً على النفس وإن لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف السلطان .

على أن الضمير مهما يكن صوته قوياً دائماً الهتاف بالإنسان أن يصغى إليه ليطيعه فيعمل الخير ، وليتجنب الشر ، فإن في الإنسان قوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، وهي العزيمة

التي كثيراً ما ترفض نصائح الضمير ، وتطغى على العقل . فلا بد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعاً .

٦ - الوسطية :

كان مذهب الوسطية أكثر المذاهب شيوعاً وأعظمها تأثيراً على الدارسين والباحثين منذ وضع أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) مقياساً للأخلاق وأساساً للفضائل أنها وسط بين طرفين ، واعتدال بين رذيلتين .

ومثل أرسطو للحد الأوسط بأن الاعتدال أو العفة وسط بين الفجور والخمود ، والسخاء وسط بين الإسراف والبخل ، والحلم وسط بين الشراسة والفتور ، والبشاشة وسط بين السخرية والغظاظ ، والصدقة وسط بين الملق والشراسة .

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلماء ، وجاراه كثير من فلاسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا إلى أنه يدعو إلى الاعتدال ، والاعتدال خلة يرضاها الإسلام ويحدها الناس ، لأنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبير والبعد عن الشطط ...

لكن هذه النظرية ليست سليمة من القصور والعيوب

١ - ولقد يتضح قصورها إذا ما طبقناها على كل فضيلة من الفضائل ، فالشجاعة مثلاً ليست وسطاً بين التهور والجبن ، وإن كان التهور رذيلة والجبن رذيلة بل الشجاعة فضيلة حينما كانت وكيفما كانت ، مادامت سنداً للحق ، ودفاعاً عن العرض والمال والحياة ، وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء .

ولن تكون الشجاعة في حال من أحوالها هذه/مزعومة ، ولن تكون في مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شجاعة انحرفت عن الوسطية إلى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، إنما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخطل في التدبير ، وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبر العواقب .

فليست الشجاعة دائماً ألا يخاف المُقَدِّم ، فإنها كما تكون في الإقدام ، تكون في الإحجام ، وكما تكون في الاستهانة بالخواف ، تكون في توقي بعض المخاوف وفي تقديرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

وهذه الشجاعة درجات ، أولها فضيلة ، وعليها فضيلة بل أفضل الفضيلة وهي الفداء والبطولة والاستشهاد .

وكذلك الكرم تتفاوت درجاته من جود بالقليل إلى جود بالكثير إلى جود بالأكثر إلى جود

بالمال كله ، ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها ، فقد يجود الشخص في سبيل الخير بال عشرة أو المئة ويسمى كريماً ، لأن طاقته لا تحتل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يجود الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يسمى مسرفاً ، لأن ثراه يتسع لهذا السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه ...

وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالإسراف غنياً لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء ، أو يشيد به مدرسة أو مسجداً أو مصنعة أو يشتري به سلاحاً للدفاع عن الوطن ؟

إن هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة في الأريحية والسخاء .

وهذا الذي نقوله في نقد الوسطية في الفضائل كلها نقول مثله في نقد الوسطية في الرذائل

كلها ، كالجن ، والبخل ، والفجور وغيرها .

٢ - على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ، فكيف تعرف ؟ ومن الذي يحكم فإن هذه النقطة هي الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وأين ذلك المقياس الذي يعين المنتصف الذي عناه أرسطو وسواه ؟ وقد ذكر أرسطو أن إدراك الوسط في كل شيء أمر صعب جداً ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا ييسر لجميع الناس .

٣ - ثم إن بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل فالصدق ليس وسطاً بين الكذب وشيء آخر ، إنما الصدق صدق فحسب ، والعدل ليس وسطاً بين الجور وشيء آخر ، بل العدل عدل خالص والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطاً بين الفجور والخمود ، بل العفة هي العفة ...

٤ - أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والإسراف بقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً^(١) فإنه موضع نظر

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً^(٢) وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً^(٣) .

وبهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم في آية سابقة بالأخذ بيد آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير وهو البثرة في السرف والإنفاق في المعاصي وفي غير الحق ، كما روى عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعن مجاهد وقتادة وابن زيد . أما الإنفاق في الحق فقد قال فيه مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً ، ولو أنفق مدّاً في باطل كان تبذيراً .

(١) سورة الإسراء الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

ثم نهى الله عن البخل بالمال فى الحقوق التى أوجبها فى أموال الأغنياء ، ونهى عن العطاء الذى لا يبقى عند صاحبه شيئاً ، فلا يجد ما يعطيه إذا سئل فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

والذى يصح استنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هى الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هى البخل وعن رذيلة أخرى هى التبذير أو الإسراف والمراد بالإسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يتبدل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماثلها .

وليس فى الآيات ما يفهم أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذى يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشح والإسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف باختلاف مقدرة المنفقين ، فقد يكون إنفاق شخص معتدلاً وهو أقرب إلى البذل الكثير ، وقد يكون إنفاق شخص آخر معتدلاً وهو أقرب إلى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله فى الحق وهو براء من التبذير .

كذلك الآية الكريمة : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ وكان بين ذلك قواماً^(١)

لا تعنى الوسطية بين الجود والشح ، أو بين السخاء والتقتير ، بل تدم الإسراف ، وتدم الشح ، وتدعو إلى العدل ، ليس الاعتدال حداً وسطاً بين الإسراف والبخل ، بل هو شيء آخر لا صلة له ببخل أو إسراف .

٧ - القوة :

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيثشه ، ورأوا أن للأقوياء الأعلياء أخلاقاً لا يليق لها العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقاً لا تليق بالأقوياء ، وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها إلى القوة ، فالشجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشباهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التى لا تبدو فى مظاهر القوة راجعة إليها ، فالصبر محمود ، لأن القوى هو الذى يحتمل الشدة ، ويطبق المكروه ، ويثبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجزع ، لأن الجزع والتخاذل من أخلاق الضعفاء ...

وإن هذا المذهب لمعيب . لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما فصلاً لا تقره الإنسانية ، ويقيم بين الأقوياء والضعفاء سوراً لا ينفذ منه تراحم ولا تواد ولا تعاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض يبطش قوتهم بضعيفهم ، ويخنع ضعيفهم لقوتهم ، وإن أدى البطش والخنوع إلى هلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك فى أن بلالاً استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستئثارهم بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة كلها أو بعضها إلى هذا المذهب البغيض .

الأخلاق الإسلامية ينبوعها

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تخل من ضيق وكدر وانقطاع في الطريق وغيض ، فإن علينا أن نمد النظر إلى ينبوع آخر ، ينبوع ثر لا ينضب ، متدفق لا يفيض ، نقي لا يترنق ، مسترسل لا يتوقف مبرأ من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال .

فما هذا ينبوع ؟

إنه الإسلام الذي لا يهdy إلى الاخلاق الفضلى والمثل العليا سواه . إنه القرآن الكريم المنزل من عند الخالق — سبحانه وتعالى — الذي يعلم السر والنجوى وما هو أخفى ، العليم بمصالح عباده جميعاً : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾^(١) وهو الذي ﴿ يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾^(٢)

محورها

ما الفضيلة العظمى التى تدور الفضائل كلها فى فلكها الرحيب ؟
ما المحور المركز الثابت الذى تستدير الفضائل حوله منجذبة إليه كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟

إنه التقوى

فماذا تعنى التقوى ؟

١ - للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية .
هى الأساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يميد ، ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير ...

ومامن شك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراءة تدبير ، وثراء من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتحامى كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى — وهو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها — إلا كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفياً رحيماً غيوراً متحلياً بكل فضيلة ، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والعذر والكذب ومن كل رذيلة .

(١) سورة الملك الآية : ١٤ .

(٢) سورة الرعد الآية : ٤١ .

٢ - وقد ترددت مادة التقوى في القرآن الكريم بهذا المعنى تسعاً وثلاثين ومئتي مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثاً وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات وكلمة الأتقى مرتين ...

٣ - ونستطيع أن نستنبط للتقوى - مع هذه الدلالة العامة التي تجمع كل فضيلة ، وتنفي كل رذيلة - معاني جزئية تتصل بها فضائل معينة كما نجدتها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها .
(أ) فالكرم متصل بها في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (١) . وقوله : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ (٢) .

(ب) والشجاعة متصلة بها في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

(ج) والعدل مرتبط بها في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) .

وفي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا * اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى * وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

(د) والعفة ذات علاقة بها في قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٧) .

(هـ) والصدق صلة بها في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٨) وفي قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٩) .

(و) والوفاء بالعهد شعبة منها في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا * وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١٠) .

(١) سورة الليل الآيات : من ٥ حتى ٧ .

(٢) سورة الليل الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١٢٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٢٠٠ .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٩٤ .

(٦) سورة المائدة الآية : ٨ .

(٧) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .

(٨) سورة التوبة الآية : ١١٩ .

(٩) سورة الأحزاب الآية : ٧٠ .

(١٠) سورة الفتح الآية : ٢٦ .

عن الحسن : إن كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ، وقد أضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها .

وفي قوله تعالى : ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ^(١)

(ز) والرحمة غصن من درجتها ، في قوله تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾ ^(٢) .

فقد أمر الله الأوصياء بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ، ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافاً .

(ح) والعفو جزء منها في قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ ^(٣) .

(ط) والصبر جانب من جوانبها في قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين **واصبر وماصبرك إلا بالله** ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ^(٤) .

وفي قوله تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ ^(٥) .

(ي) والأمانة فرع من التقوى في قوله تعالى : ﴿ فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ ^(٦) .

(ك) وقوة العزيمة ومضاء الإرادة ، مظهر من مظاهر التقوى في قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾ وأمر بالعرف * وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ^(٧) .

(ل) وأداء الدين والوفاء به متصل بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ .

(م) وإصلاح ذات البين مرتبط بها في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ واتقوا الله لعلكم ترحمون ^(٨) .

(ن) والتسامح مع الزوجات المطلقات قبل الدخول ، والسخاء في معاملتهن المالية وثيق الاتصال

(١) سورة الأنفال الآية : ٥٦ .

(٢) سورة النساء الآية : ٩ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٤) سورة النحل الآيات : من ١٢٦ حتى ١٢٨ .

(٥) سورة يوسف الآية : ٩٠ .

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٨٣ .

(٧) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .

(٨) سورة الحجرات الآية : ١٠ .

بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمْوهن مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى * وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ * إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(١) .

(س) والكسب الحلال متصل بهما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾^(٢) .

خصائص الأخلاق الإسلامية

تتميز الأخلاق الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص :

١ - الخير المطلق :

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة ، أو من إيثار فريق من الناس على فريق ، أو من الاستجابة لنوازع الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات .

تحقق الخير المحض للفرد والناس جميعاً ، في كل البيئات ، وفي جميع الحالات ، وفي كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها ، لأنها خير يجب أن يفعل ، ونهى عن الرذيلة ، وبغضها إلى الناس ، لأنها شر يجب أن يترك ، وتسامى الإسلام بفاعلى الخير وتاركى الشر من أن يتوقعوا جزاء من الناس لأن الجزاء الأوفى من الله وحده ، وسما بهم عن إتخاذ الخير سلماً إلى شهرة أو مجد أو مباهاة أو تسلط أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة و بعيدة المنال ، لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله .

والآيات التي تقرر هذه الحقيقة كثيرة جداً ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٤) وقوله : ﴿ وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾^(٥) .

٢ - الصلاحية العامة واليسر :

تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس في كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٧٨ .

(٣) سورة الروم الآية : ٣٩ .

(٤) سورة النساء الآية : ١١٤ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٧٢ .

ميسورة ، ليس فيها أرهاق ولا إعنات ولا تكليف بما لا يطاق ، بل الإسلام سنٌّ أخلاقاً فاضلة تستريح إليها النفوس النقية ، **وتنهش** لها الضمائر الحية ، وتؤيدها العقول السليمة . وقد صدق المولى سبحانه في قوله : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾^(١) وفي قوله : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾^(٢) .

لهذا أعفى من فريضة الجهاد العاجزين عن القتال ، وأباح للمسافر وللمريض أن يرجىء صوم رمضان إلى زمن مقبل ، وبين العقوبة لا تكون إلا على ذنب مقصود متعمد ...

هذه السهولة وهذه الصلاحية محققان في الأخلاق الإسلامية ، على حين أن مذهب العرف ضيق المجال ، متغير الأحكام في البيئات والأعصار ، وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أنانية بغيضة ، وقاصر عن الاتساع من الأعمال الخيرة والبطولة والفداء .

ثم إن مذهب السعادة العامة عسير ضيق ، ومقياسة مضطرب لا حدود له ولا استقرار . أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فإن الإسلام ينكره أشد الإنكار ، لأن الإسلام دين المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، وفي الثواب والعقاب ، وفي الحسنات والسيئات ، فهو لا يقر التفرقة ولا يرتضيها .

ثم إن الإسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشجاعة والكرم والعفو والحلم ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والإيثار وطيب العشرة ...

وقد اتضح من دراسة المذاهب الأخلاقية أن الخير الذى تقصده أو الفضيلة التى تدعو إليها إما شخصية فردية ، وهذه أثرة يرفضها الإسلام ، وإما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو لدائمة ، وكثيراً ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الانحراف العام . أما الفضائل الإسلامية فإنها صالحة للأفراد والجماعات فى اليسر والعسر ، فى الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وفريق ، ولا بين حال وحال .

ولقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة موضحة سهولة التكليف الإسلامى ويسره قال عليه الصلاة والسلام : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبه » رواه البخارى^(٣) .

وقال **صلى الله عليه وسلم** : « **يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا** » متفق عليه^(٤) . وعن عائشة — رضى

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

(٣) صحيح البخارى كتاب البيوع ٦٦/٣ وسنن الترمذى ٦٦٨/٤ رقم ٢٥١٨ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٣١ .

الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله »^(١).

٣ - الثبات :

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحة للناس جميعاً ، فهي إذن تتسم بالثبات والدوام والاستقرار ، لأن المشرع الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام .

وإن النظرة إلى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور صلاحيتها ولهذا تعددت في العصر الواحد وفي مختلف الأعصار .

٤ - الإلزام المستجاب :

مالذي يبتغيه واضع القانون حين يضعه للناس ؟

ومالذي يريده العالم حين يضع مذهباً في الأخلاق ؟

إنهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم في السر والعلن ، وفي الوحدة والاجتماع ، وفي النعماء والبأساء .

ولكن مالذي يحدث في كثير من الأحيان ؟

ألا يتحايل الناس على القانون ، ويتسللون من قيوده إذا ماواتتهم فرصة للتحايل والفرار ؟

ألا يعصون نداء المذهب الأخلاقي إذا ما أمنوا ألا يعابوا بهذا العصيان ؟ ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الإغراء تتوارى أمامها رهبة القانون ، وتضعف مثل الفلاسفة ؟

ذلك بأن الوازع هنا خارجي لا سلطان له على دخائل النفوس ، وأعماق الوجدان ، فإذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمرت الأهواء والنزعات .

أما الأخلاق الدينية فإنها تستمد من ينبوعها قوة ناقدة تلزم بها في العلن والخفاء ، وفي السراء والضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وإن هذا الإلزام محبوب مطاع ، لأنه أمر أو نهى من الله — جل جلاله — قد ربي المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله .

ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند إلى سلطان روحي يمدّها بأعظم الدوافع على الاستمساك بها والاعتصام ، ويحفز الناس إلى عمل الخير حفزاً منوطاً بالثواب ويردعهم عن فعل الشر ردعاً مرهوب العقاب .

وإنه ليسترعى الانتباه أن القرآن الكريم لم يأمر بعمل الخير أمراً مطلقاً قائماً على الإلزام المجرد من التعليل والترغيب ، ولم ينه عن الشر نهياً مطلقاً مبنياً على التحذير والترهيب المستغنى بنفسه عن التوضيح .

اقرأ قوله تعالى في الأمر بغض البصر وصيانة الفرج : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ * إن الله خير بما يصنعون ﴿^(١)﴾ واقرأ قوله تعالى في الدعوة إلى صلح الزوجين : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صَلَاحًا وَصَلَحًا خَيْرٌ وَأَحْضَرْتِ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ وَإِنْ تَحْسَنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴿^(٣)﴾ والآيات التي تتضمن هذا كثيرة جداً .

٥ - الرقابة المحيطة :

على أن الأخلاق الإسلامية أمتنع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأن الهيمنة عليها أشد وأقوى ، فلا يجترىء إنسان على مخالفتها إلا بعد تردد وإحجام ثم يندم على ما اجترح وبأسى ، وقد يجره الندم إلى توبة نصوح لا رجعة بعدها إلى الآثام .

وذلك أن عليها رقيباً عتيداً من الدين نفسه ، ورقيباً من الضمير الحى الذى أيقظه الدين ورباه ، ورقيباً من العقل السليم الذى صقله الدين وهداه .

غاياتها

تبين أن الأخلاق الإسلامية منفردة بأن الدين منبعها ، وبأن التقوى محورها ، وبأنها ممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها وإنها لمتميزة أيضاً بغايتها . وماعسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذى تشربت إليه الإنسانية في جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وإيثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على البر والتقوى ؟

ماذا عسى أن يفعله الروح الطاهر الذى يسرى في كل نفس وفي كل جمع قوة دافعة إلى الكمال ، مانعة من العيب والنقص ؟

(١) سورة النور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٢٨ .

(٣) سورة المائدة الآيات : من ٩٠ حتى ٩٢ .

مالذى يتغيه الاتقياء الفضلاء من مرضاة الله عنهم فى الدنيا وفى الآخرة ؟

إنها السعادة

السعادة التى تظلل الفرد ، وتظلل الأمة .

السعادة المحققة ، لا الأوهام الملفقة .

السعادة الماثلة ، لا الأطياف الزائلة .

السعادة التى تجعل الحياة الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس إلى الحياة الآخرة ، وهى الجنة الكبيرة

التي ينعمون فيها بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

شغف النبى ﷺ بمكارم الأخلاق

اصطفاه الله من أكرم دوحه ، وتعهده فى طفولته وشبابه إلى أن اختاره ليكون مبشراً ونذيراً ، فرباه أشرف تربية ، وأدبه أحسن تأديب .

أدبه بمثل قوله تعالى : ﴿ خذ العفو * وأمر بالعرف * وأعرض عن الجاهلين ﴾^(١) و ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى * وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾^(٢) و ﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾^(٣) و ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾^(٤) و ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾^(٥) .

وكان القرآن الكريم منهل أخلاقه ، قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة — رضى الله عنها — فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت كان خلقه القرآن^(٦) .

فيكف لا يكون فى القمة من حلو الشمائل وحميد السجايا ؟

لقد كان ﷺ فى هذه القمة ، ولكنه مشغوف بالاستزادة ، حتى أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى ، اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت »^(٧) .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .

(٢) سورة النحل الآية : ٩٠ .

(٣) سورة لقمان الآية : ١٧ .

(٤) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٥) سورة فصلت الآية : ٣٤ .

(٦) صحيح مسلم — كتاب صلاة المسافرين ٥١٢/١ رقم ٧٤٦ ومسند أحمد ٢١٦/٦

(٧) مسند أحمد ٨٦/٦ .

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالاته ، فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »^(١) وكان ﷺ لا يفتأ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل وينفرهم من الرذائل .

وله فى هذا أحاديث كثيرة منها :

« إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكناًفاً ، الذين يألفون ويؤلفون »^(٢).

وقوله : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل **الظامى** بالهواجر »^(٣).

وقوله : « من سعادة المرء حسن الخلق »^(٤).

وقوله : « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق »^(٥).

وقوله : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »^(٦).

وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : خلق حسن^(٧).

وقيل له : أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال أحسنهم خلقاً^(٨).

والذى يفهم من هذه الأحاديث ومن غيرها أن النبى ﷺ ربط الأخلاق الفاضلة بالتدين وبالتقوى أوثق رباط ، ويفهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحى الحسنات ، ويبطل الطاعات ، فقد قيل له : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها ، هى من أهل النار^(٩).

وبلغ من كلفه ﷺ بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبى بنت حاتم الطائى لكرم أخلاق أبيها . وقال بعد أن أطلق سراحها « فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق ».

كان ﷺ شغوفاً بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه ، فكان المثل الأعلى فى كل فضيلة ، وكان خليقاً بثناء الله تعالى عليه فى كتابه الكريم كقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق

(١) السنن الكبرى للبيهقى ١٩٢/١٠ .

(٢) سند الترمذى ٣٧٠/٤ رقم ٣٠١٨ .

(٣) مسند أحمد ١٣٣/٦ والمستدرک للحاكم ٦٠/١ .

(٤) الخرائطى فى مكارم الأخلاق عن جابر — باب الحث على الأخلاق الصالحة والترغيب فيها .

(٥) مسند أحمد ٣٩٢/٢ .

(٦) سند أبى داود ٦٠/٥ رقم ٤٦٨٢ وسند الترمذى ٤٥٧/٣ رقم ١١٦٢ .

(٧) مسند أحمد ٣٨٥/٤ .

(٨) الجامع الصغير للسيوطى رقم ١٢٩٢ .

(٩) السنن الكبرى للبيهقى ١٦٦/٤ .

عظيم ﴿٢﴾ وقوله : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك﴾ ﴿٣﴾ وقوله : ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه ليقول رسول كريم﴾ ﴿٤﴾ وقوله : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ ﴿٥﴾ وقوله : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ ﴿٦﴾

وحسبه من هذا التشريف الإلهي أن الله تعالى أقسم بحياته في قوله : ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ ﴿٧﴾ ولم يقسم الله بحياة أحد غير محمد — عليه الصلاة والسلام — وحسبنا من وصف أصحابه له قول علي بن أبي طالب : « إنه كان أجود الناس كفاً ، وأجراً الناس قلباً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه »

خلق الشجاعة

« لم يكن النبي ﷺ شجاعاً فحسب ، بل كان المثل الأعلى في الشجاعة ، إذ كان شجاعاً في السلم ، وشجاعاً في الحرب ، وشجاعاً في وحدته ، وفي قلة من أنصاره ، وشجاعاً في جماعته ، وفي كثرة من أعوانه ، وكان شجاعاً في جهره بالحق ، وفي دفاعه عن العقيدة ، مهما تكن عاقبة الشجاعة . وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد سجل في صفحاته أسماء كثير من الشجعان الذين تضرب بشجاعتهم الأمثال ، فإنه لم يستطع أن يسجل لواحد منهم ما سجله لرسول الله ﷺ من ضروب الشجاعة المثل في مصادرها وفي مظاهرها وفي غاياتها .

مصادرها :

أما مصادر شجاعته فهي وراثته وفطرته وتربيته الله له ، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ﴿٨﴾ . وقوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في

(١) سورة القلم الآية : ٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

(٣) سورة الحاقة الآيات : من ٣٨ حتى ٤٠ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ٣١ .

(٦) سورة الحجر الآية : ٧٢ .

(٧) سورة التوبة الآية : ٤١ .

سبيل الله فيقتلون ويقتلون * وعداً عليه حقاً في التوراة والأنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴿١﴾

مظاهرها :

أما مظاهر شجاعة الرسول ﷺ فإنها متعددة الألوان متنوعة الضروب ، تجمعها شجاعة الرأي ، وشجاعة الحرب .

١ - شجاعة الرأي :

١ - فقد ضاقت قريش بدعوته إلى الإسلام ، وبتسفيه أحلامها وعيب آلهتها فمشوا إلى عمه أبي طالب وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة ، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك ، فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننزله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم أبو طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال لمحمد : يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه تخلى عنه ، وأنه خاذله ، وأنه قد ضعف عن نصرته فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام ، فلما ولي ناداه أبو طالب . فقال : أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه ، فقال : أذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء^(٢)

٢ - وعرض عتبة بن ربيعة على قريش -- بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب أن يعرض على الرسول أموراً لعله يقبل بعضها فيكف عن دعوته ، فوافقته قريش ، فقام إليه عتبة فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والعلاء في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً .

(١) سورة التوبة الآية : ١١٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٨٥ .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك .
وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رثياً تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .
فلما فرغ عتبة قال له رسول الله ﷺ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

قال الرسول : فاسمع منى

قال : أفعل

فقال الرسول ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه * ومضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه ، وعتبة منصت ، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى آية السجدة من السورة ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .
يا معشر قريش . أطيعونى واجعلوها لى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزمكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم^(١) .

٢ - الشجاعة فى الحرب :

وقد تجلت شجاعته ﷺ الحربية منذ مطلع شبابه ، فإنه لما كان فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة هاجت حرب الفجار بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله ﷺ بعض وقائعها ، إذ أخرجه أعمامه معهم . وحدث رسول الله ﷺ بقوله : كنت أثبل على أعمامى . ﴿ أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها ﴾^(٢)

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١ .

(٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/١ .

ثم بعد النبوة كان ﷺ يشارك في المواقع ، ويقدم إقدام البطل ، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع ، ويتعرض لما يتعرض له أتباعه وجنوده ، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية اعتماداً على أنه النبي ، فيتوارى أو يتحصن ، أو يتخذ مكانه في مؤخرة الجيش ، ولو أنه فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب أو ملام ، لو أنه آثر هذا المسلك لرضى المسلمون به مرضاة خالصة ، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم ، ويشترون سلامته بأرواحهم .

الغاية من شجاعته :

وأما الغاية من شجاعته فإنها إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن التوحيد الخالص ، وحماية الإسلام من عدوان المشركين ، وتحرير الناس من أغلال الوثنية ، وإرهاق الاستعباد ، وأصفاد الفساد ، ومخازي العقائد والنظم ومفاسد الأخلاق ، لتحل محلها أسمى عقيدة ، وأصلح نظام في السياسة والإدارة والمعاملات والاجتماع .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما القتال في سبيل الله ، فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ^(١)

فلم تكن الشجاعة التي اتصف بها النبي ﷺ والتي حرض عليها ، وأقرها وامتدحها ، شجاعة القوى المقدام المدل بقوته ، المفاخر بها بين الناس ولا شجاعة النائر المهتاج الذي أشعله الغضب لغير الحق ، بل كانت الشجاعة المثلى التي لا تتوخى غير إعزاز دين الله وإعلاء كلمته ، والذود عن محارمه ، والدفاع عن الحقوق التي صانتها الشريعة وحمتها ، ولهذا قال ﷺ « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » ^(٢)

وكانت الغاية النبيلة تقضى بأن تكون الوسائل نبيلة ، فقد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو في قلة من الأعوان وحاجة إلى فرد واحد يزيد عدد من معه ، فأبى وقال : لن أستعين بمشرك ^(٣)

الإشادة بشجاعته ﷺ

لقد كان المسلمون يعجبون بشجاعة رسول الله ﷺ إعجاباً يصغر في عيونهم شجاعتهم ، ويهون بسالتهم .

يقول الإمام علي : كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤٤ .

(٢) سنن أبي داود ١٢٨/٥ رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذي في الدييات حديث رقم ١٤٢١ وابن ماجه في الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن الترمذي — كتاب السير ١٢٨/٤ رقم ١٥٥٨ .

ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ، وهو أقربنا إلى العدو ، فكان يومئذ أشد بأساً .
ويقول أنس بن مالك . كان النبي ﷺ أشجع الناس ، فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق بعضهم نحو الصوت ، يريدون أن يتعرفوا الخبر ، فإذا النبي ﷺ عائد على فرس ليس عليه سرج ، وفي عنقه سيفه ، وكان قد سبقهم إلى الخروج فعرف الصوت ، فلما قابلهم قال لهم : لن تُراعوا ، لن تُراعوا^(١) .

وقال عمران بن حصين : مالقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

حضه على الشجاعة

كان النبي ﷺ قدوة المسلمين في شجاعته الحربية ، وغير الحربية ، وكان يحضهم على الشجاعة ، ويحببها إليهم بأقوال ، ويوضح لهم الغاية النبيلة التي يجب أن يتوخوها في جهادهم ، وله في هذا المجال أحاديث كثيرة منها :

١ - من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد^(٢) .

٢ - أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر^(٣) .

قيل : يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله : مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله^(٤) .

٤ - « إن في الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »^(٥) .

٥ - « لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها »^(٦) .

٦ - « لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل »^(٧) .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٨٩ .

(٢) سند أبي داود ١٢٨/٥ حديث رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذى في الديات حديث رقم ١٤٢١ وسنن ابن ماجه في الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن أبي داود في الملاحم ٥١٤/٤ رقم ٤٣٤٤ والترمذى في الفتن حديث رقم ٢١٧٥ وابن ماجه في الفتن حديث رقم ٤٠١١ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب فضل الجهاد والسير ١٨/٤ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب فضل الجهاد والسير ١٩/٤ .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣٤ .

(٧) صحيح البخارى - كتاب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام ٦٤/٤ .

٧ - قال في يوم بدر : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» (١).

خلق الكرم

كرم النبي ﷺ

لم يشغف العرب في الجاهلية والإسلام ، بأكثر من شغفهم بالشجاعة والكرم فكان الأمراء والملوك أشد حرصاً على أن يذيع في الناس كرمهم وشجاعتهم ، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ، ويختصون هاتين الفضيلتين بالتنويه ، محقين حيناً ، ومبطلين حيناً ، ومبالغين أحياناً .

لكن كرم النبي ﷺ كان لوناً آخر جديداً لم يعرفه العرب ، ولم يألفه غيرهم .

١ - فلم يكن جوده لكسب محمداً أو اتقاء منقصة ، ولم يكن للمباهاة أو الاستقلال ، أو لاجتلاب المادحين ، بل كان في سبيل الله ، وابتغاء مرضاة الله .

كان في حماية الدين ، وفي مؤازرة الدعوة ، وفي محاربة الذين يصدون عن سبيل الله .

وكان الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم في سبيل الله أو عجزوا عن الكسب وكان في رعاية اليتامى والأيتامى ، وكان في تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مال ، وكان في اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ، ليتقوى باجتماعهم إلى الإسلام .

٢ - وكان من كرم النبي ﷺ إثارة على نفسه وأهله ، فهو يعطى أحوج ما يكون إلى ما يعطيه ، ويبدل الكثير ، وهو محتاج إلى القليل ، لأنه لا يستطيع أن يصبر ، ولأنه يحيا حياة الزهاد ، ولأنه الملاذ الرفيق والأب الشفيق الذي تشغله حاجات بنية أضعاف ما تشغله حاجات نفسه .

وهذه هي الدرجة العليا من الكرم التي امتدحها الله تعالى في قوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (٢).

لهذا قالت السيدة عائشة : « ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا » (٣).

٣ - وكان ينفق في سبيل الله ما استطاع أن ينفق ، وهو يستقل ما أنفق ، وكان يعطى العطاء الجزل ، فلا يستكثر ما أعطى ، وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه ، وما سئل شيئاً قط فقال لا .

(٦) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٩ .

(١) سورة الحشر الآية : ٩ .

(٢) التولؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٧١ .

أتاه رجل فسأله ، فأعطاه غنماً سدت ما بين جبليين ، فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة^(١) .

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها .

ولما قفل من حنين جاءه الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه ، فوقف وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضية (شجر شائك كثير في الصحراء) نعماً لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً^(٢) .

٤ - وبلغ من الكرم أنه كان يستحي أن يرد سائله خالي اليدين معتذراً بالفاقة .

جاءه رجل فسأله ، فقال : ما عندي شيء ، ولكن ابتع عليّ ، فإذا جاءنا شيء قضينا .

فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، قد أعطيت من قبل ، فما كلفك الله مالا تقدر عليه .

فكره النبي ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله : أنفق ولا تخشى من ذي العرش إقلالا ، فأبتسم النبي ، وعرف البشر في وجهه ثم قال : بهذا أمرت^(٣) .

وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة ، لا يمسك شيئاً .

قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين

يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل — عليه السلام — كان أجود بالخير من الريح المرسلة^(٤) قال الزين بن

المنير : وجه التشبيه بين أجودتيه ﷺ بالخير وبين أجودية الريح المرسلة أن المراد بالريح ريح الرحمة التي يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام الذي يكون سبباً لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة ، أى فيعم خيره

وبره من هو بصفة الفقر والحاجة ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم القيم الناشئة عن الريح المرسلة ﷺ .

يامن له الأخلاق ما تهوى العلاء

منها وما يتعشق الكرماء

زانتك في الخلق العظيم شمائل

يغسرى بهن ويولع الكبراء

(١) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ١٨٠٦/٤ رقم ٢٣١٢ .

(٢) صحيح البخارى — كتاب الجهاد والسير ٢٧/٤ ومسند أحمد ٨٢/٤ .

(٣) مختصر الشمائل المحمدية للترمذى صفحة ٣٨١ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٠ .

فإذا سخوت بلغت بالجد مدى
 وفعلت مالا تفعل الأنواء
 وإذا عفوت فقادراً ومقدراً
 لا يستهين بعفوك الجهلاء
 وإذا رحمت فأنت أم أو أب
 هذان في الدنيا هما الرحماء
 وإذا أخذت العهد أو أعطيته
 فجميع عهدك ذمة ووفاء
 وإذا خطبت فللمنابر هرزة
 تعرو الندى وللقلوب بكاء
 وإذا غضبت فأئماً هي غضبة
 للحق لا ضغن ولا شحنا
 لو أن إنساناً تخير ملة
 ما أختار إلا دينك الفقراء

حضه على الكرم ﷺ

لطالما حض النبي ﷺ على الكرم بمعناه الذي يرتضيه الإسلام ، من بذل في تقوية الجيش ، أو
 في الدفاع عن الدعوة ، أو في البر بالفقراء .
 من هذا قوله :

١ - قال رجل للنبي ﷺ : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تتصدق وأنت صحيح حريص ،
 تأمل الغنى وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد
 كان لفلان »^(١)

٢ - سأل رجل النبي ﷺ : أى الاسلام خير ؟ يريد أن يعرف أى خصال الإسلام خير —
 فقال له : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »^(٢)

(١) اللؤلؤ والمرحان فيما اتفق عليه الشبخان حديث رقم ٦١١ .

(٢) صحيح البخارى — كتاب الإيمان ١١٥١ .

- ٣ - عُدْ من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة رجلاً تصدق فأخفى ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (متفق عليه)^(١)
- ٤ - وقال لأسماء بنت أبى بكر الصديق : « أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك . ولا توعى فيوعى الله عليك » (متفق عليه)^(٢)
- ٥ - « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »^(٣)
- ٦ - من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »^(٤)
- ٧ - « إذا طبختم اللحم فأكثرُوا المرق ، فإنه أوسع وأبلغ للجيران » (الجامع الصغير)^(٥)
- ٨ - « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه »

خلق العدل

المراد بالعدل هنا إعطاء كل ذى حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ومؤاخذه المسىء أو المقصر على قدر إساءته وتقصيره بدون إعنات أو محاباة .

مظاهره :

استقى النبى ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية وكانت فطرته السليمة مهياً للعدل منذ شبابه ، فقد اشترك فى حلف تعاهد أصحابه على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين .

وذلك أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف الفضول قبل البعثة بعشرين سنة ، وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه وناصروه على ظالمه حتى ينصفوه .

وقد شهد النبى ﷺ هذا الحلف ، وقال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٠٨ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٩١ .

(٤) مسند أحمد ١٧٤/٢ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطى ٣٩٧/١ رقم ٧٤١ .

ما أحب أن لي به حُمْر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»^(١) (سيرة ابن هشام)
ثم إن النبي ﷺ هو المبلغ للشرعة ، والمهيمن عليها ، والمنفذ لها ، وهو التااضي الأول الذي
يطمئن المسلمون إلى أحكامه ، ويقتدون بها ، فمن يعدل إذا هو لم يعدل ؟
أما مظاهر عدله فإنها متعددة متنوعة ، منها :

١ - لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ناداهم بطناً بعد بطن ، فقال :
يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .
يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .
يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .
يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .
يا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً^(٢)

٢ - كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هم أحق منهم ، فكان يجلّ العباس
اجلال الوالد والوالدة ، ولكنه لم يفضلهم في عطاء .

٣ - شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من مشقات في أعمالها بمنزلها ، وطلبت منه خادماً من
السبى يكفيها مئونة العمل ، فأمرها أن تستعين بالتسييح والتكبير والتحميد ، وقال لها : لا أعطيك
وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع^(٣)

فآثر عليها فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفه المسجد ، وليس لها مرتزق .
كان يُعدّل صفوف أصحابه يوم بدر ، وفي يده قدحٌ يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزّيه وهو
نائىء من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ، وقال : استو يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ،
وقد بعثك الله بالحق ، فأقذن (أى دعنى أقتص منك) .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : « استقد يا سواد ، فعانقه سواد ، وقبّل بطنه ،
فقال الرسول ، ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فلم آمن القتل ،
فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير » (سيرة ابن
هشام ، وتاريخ الطبرى)^(٤) .

٥ - سرقت امرأة مخزومية ، فأحزن قريشاً شأنها ، فقالوا : « ومن يكلم فيها رسول الله ؟

(١) سيرة ابن هشام ١/١٤١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣ .

(٣) الحلية لأبى نعيم ٤١/٢ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٨ .

ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ، وجاء في خطبته قوله : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها « (متفق عليه)^(١) .

٦ - قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن على المهاجرين ، والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فتذمر الأنصار ، وكثرت منهم القالة ، حتى ظنوا أن الرسول حانى قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفء الذى أصبت .

قال الرسول ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى .

قال : فاجمع لى قومك .

فخرج سعد فجمع الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فخطب فيهم بقوله : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتني عنكم ، وموجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : ألا تحببوني يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فواسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخصلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً «^(٢) .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى ٢٠٠/٥ .

حضه على العدل والمساواة ﷺ

جاء الإسلام والناس طبقات ، والعرب درجات ، فسوى بينهم مساواة حقيقية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد ، فلا عبرة بالحسب ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون ، بل العبرة بالأخلاق الفضلى وبالتدين الصحيح ، قال تعالى : ﴿ ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾^(١).

١ - وقال عليه الصلاة والسلام : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ولا فضل لعربي على عجمي ، ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الشاهد الغائب » (كنز العمال)^(٢).

٢ - وقال ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته »^(٣).

وقال ﷺ : « لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان » (متفق عليه)^(٤).

٤ - وقال : « الظلم ظلمات يوم القيامة »^(٥).

وقال : « من كانت له امرأتان فمال إلى أحدهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل »^(٦).

٦ - وقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »^(٧).

٧ - إن الله تعالى يميل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته^(٨).

خلق العفة

العفة فضيلة تقى الإنسان من أن يرتكب بيده أو بلسانه أو بشهوته مالا يحل له وربما تمنعه من الحلال إباء وأنفة .

(١) سورة الحجرات الآية : ١٣ .

(٢) كنز العمال ٩٥/٣ رقم ٥٦٥٥ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب المظالم ٣ ١٥٩ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١١٩ .

(٥) صحيح البخارى — كتاب المظالم ٣ ١٦٠ .

(٦) مسند أحمد ٣٤٧/٢ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .

(٨) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٦٨ .

مظاهرها :

بلغ عليه الصلاة والسلام أعلى الدرجات في جميع ضروب العفة وأنواعها فقد كان المثل الأعلى في الفضائل كلها ، والعفة موصولة ببعضها كالأمانة والعدل والقناعة والإيثار والزهد .

١ - أما عفته عن الفاحشة فإنها من البديهيات التي لا تحتاج إلى تفصيل . وقد عصم الله نبيه من الفاحشة منذ طفولته ، فلم يزل قط ، ولم يهم بفاحشة قط ، حتى إن يده لم تمس يد امرأة إلا إذا كانت زوجة أو محرماً أو ملك يمين .

وقد سن للمسلمين أدب الطريق ، فنهاهم عن الجلوس في عرض المارة ، فإنه لا مندوحة من أن تمر نسوة يستحيين من تطلع الأنظار إليهن ، أو تمر بعض نساء يبدو منهن — من غير قصد — شيء من زينتهن ، فإن اضطروا إلى الجلوس بقارعة الطريق كان عليهم أن يلتزموا آدابه ، ومنها أن يعضوا أبصارهم ، فلا يعلقوها بهذه أو بتلك .

قال — عليه الصلاة والسلام — لا تجلسوا على ظهر الطريق ، فإن أبيتم فعضوا الأبصار ، وردو السلام ، واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف^(١) .

٢ - وكان الرسول ﷺ عفيف اللسان حتى في أشد حالات الخصام ، لم يعرف البذاء والسباب سبيلاً إلى شفتيه .

لما رحل عن ثقيف قال له أحد أصحابه : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم ، وكذلك فعل لما سئل الدعاء على دوس^(٢) .

وسأله بعض أصحابه أن يدعو على قريش بعد غزوة أحد ، فقال إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعناً ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

فلم يشأ أن يدعو عليهم بالهلاك مع أنهم أعداؤه .

ولقد اقتصر من الدعاء على المشركين في غزوة الأحزاب بقوله : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزمهم »^(٣) .

لم يدع عليهم بالهلاك المدمر أو بالإبادة القاضية ، وكان يستطيع أن يدعو بذلك .

(١) الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عباس

(٢) صحيح البخارى — كتاب المغازى ٢٢٠/٥ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب المغازى ١٤٢/٥ .

حضه على العفة ﷺ

حرص رسول الله ﷺ على تكوين المجتمع الفاضل ، فأمر المسلمين بالعفة في كثير من أحاديثه كقوله :

- ١ - أن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال^(١)
- ٢ - اليد العليا خير من اليد السفلى . (اللؤلؤ والمرجان)^(٢)
- ٣ - لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه^(٣) (متفق عليه) .
- ٤ - ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس^(٤) (متفق عليه)
- ٥ - سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده فقال : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » (متفق عليه)^(٥) .
- ٦ - معاشر الشباب ، عليكم بالبلاء ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فالصوم وجاء^(٦) .
- ٧ - ذكر من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله^(٧) .

خلق الصدق

أجمع الذين عرفوا النبي ﷺ وخالطوه منذ صباه على أنه صادق أمين لم يسمعوا من فمه أكذوبة قط ، ولم يشكوا في خبر من أخباره ، أو يستريبوا في قول من أقواله .

- ١ - فالسيدة خديجة لم تجد ما تهدى به روعه حين أتاها خائفاً بعد أن نزل عليه الملك يقول ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ خيراً من قولها له : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، ووالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق^(٨) .

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الزهد ١٣٨٠/٢ رقم ٤١٢١ .
 (٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٢ .
 (٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٨ .
 (٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٤ .
 (٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٧ .
 (٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٨٤ .
 (٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .
 (٨) صحيح البخارى - كتاب التفسير ٢١٤/٦ .

٢ - وقریش أعلنت أنه صادق حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرة وصعد الصفا فقال :
يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقالوا : مالك ؟ قال : رأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما
كنتم تصدقونني ؟ قالوا : بلى ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .
فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ تبث يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله
وما كسب ﴾ سيصلي ناراً ذات لهب ﴿^(١)

٣ - على أنهم وإن كذبوه في دعوى النبوة لم يجرؤ أحد منهم على وصفه بالكذب في سواها ،
فقد قال أبو جهل للنبي ﷺ إنا لا نكذبك وما أنت فينا بمكذب ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل
الله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾^(٢)

٤ - ولما سأل هرقل امبراطور الروم أبا سفيان في ركب من قریش بعد صلح الحديبية : « هل
كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال ، لا ، فقال : ما كان ليدع الكذب على الناس
ويكذب على الله »^(٣) (الحديث بقوله في البخارى)

٥ - جاء في وصف على بن أبى طالب لرسول الله ﷺ أنه كان أصدق الناس لهجة^(٤)

الرسالة

لقد صدق رسول الله ﷺ في تبليغه عن ربه ، لكن قریشا التى وثقت واطمأنت إلى صدقه في
صلاتها به ومخالطتها له ، ناقضت نفسها ، فكذبت نبوته ، وأنكرت رسالته .

١ - فلو أن الذين كذبوه احتكموا إلى ثقتهم به وتجاربهم معه لعلموا أن الذى يصدقهم
الأحاديث والأقوال لا يستطيع أن يكذب على الله .

ولو أنهم كشفوا عن قلوبهم ماران عليها من حجب العناد والضلال والحرص على منافع الدنيا
وشهواتها لأيقنوا أن النبى يدعوهم إلى الحق والخير والارتفاع عن وهاد الوثنية والشرك إلى أوج
التوحيد الخالص الذى تقتضيه الفطرة الصحيحة والعقل السليم .

لكنهم عموا عن هذا كله ، وعموا عن البينات الدالة على صدق الرسول ولم يتبصروا في قوله
تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد
عنه حاجزين ﴾^(٥)

(١) المولود والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٣ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الوحي ٧/١ .

(٤) سنن الترمذى - كتاب المناقب ٥ ٥٩٩ رقم ٣٦٣٨ .

(٥) سورة الحاقة الآيات : من ٤٤ حتى ٤٧ .

لأنه لو كان مدعياً للنبوة ما نفى عن نفسه الكذب بهذا التصوير المرعب الذي لا يتفق ومكانة المدعى الكاذب .

٢ - على أن النبي - وهم يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم يتلقى عنه - قد جاءهم بكتاب من عند الله ، فيه تشريع جديد ، وفيه أخبار صحيحة عن الماضين ، وفيه أخبار بأمور ستقع وقد وقعت فعلاً ، فمن أين جاء النبي بهذا الكتاب ، وهو كما قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾^(١) .

من أين جاء النبي بالقرآن وقد عاش فيهم أربعين سنة لم يحدثهم فيها بنبوة ولا رسالة ﴿ قل لو شاء الله ماتلوتهم عليكم ولا أدراكم به ﴾ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴿ أفلا تعقلون ﴾^(٢)

٣ - وقد كانت تقع أحداث جسام يتطلع فيها النبي ﷺ إلى الهداية ، ويتشوف إلى الحكم الفاصل ، فينتظر وهو ملهوف حتى ينزل عليه الوحي بالقضاء الحاسم .

ويكفى أن أشير هنا إلى قصة الإفك التي نسجها بعض المنافقين حول زوجته السيدة عائشة ، وأبطأ الوحي ، والمسلمون في قلق ، والنبي في قلق ، والنبي ﷺ نفسه حائر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا الخير ، ثم بعد شهر كامل نزل الوحي بتبرئتها مما افتروا عليها .

فلو أن النبي كاذب - كما يدعون - لسارع منذ اليوم الأول إلى تبرئة زوجته وحماية عرضه ، ولكان من السهل عليه أن ينسب إلى السماء ما يدعيه ، ليكف المتخرصون عن أراجيفهم ، وليطمئن المسلمون إلى براءة زوجة نبيهم وهي أم من أمهاتهم .

وليس يصح أن ينسى أحد أن هذا المقام لا يحتمل الصبر والانتظار : لأن الفرية مصوبة إلى أعز ما يتصل بالإنسان الحر وهو العرض ، ولأن هذا العرض موصول بالإسلام صلة ترفعه أو تضعه ، فهو عرض النبي ﷺ وعرض صديقه أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - وعرض إحدى أمهات المسلمين .

ولا يصح أن يتغافل أحد في هذا المأزق عن أن النبي ﷺ عربى من أشرف قبيلة في العرب ، والعرب أصحاب غيرة على أعراضهم ، وخيانة لنسائهم لم يكن ما بين الأمم نظير ومثال .

٤ - على أن الوحي كان ينزل أحياناً بمالم يكن النبي يتوقعه ، فيأذن له في شيء لا يقبل عليه ، كتحريره بعض الطعام على نفسه . أو يعاتبه في عمل عمله ، كإذنه لبعض المسلمين الذين استأذنوه في أن يتخلفوا من غزوة تبوك ، معتذرين بالسفر البعيد أو بالمرض ، وهم في الحقيقة كاذبون ، قال تعالى : ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ وسيحلفون بالله لو

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٨ .

(٢) سورة يونس الآية : ١٦ .

استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ۖ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴿١﴾.

٥ - والعجب العجيب أن الله تعالى تحداهم أن يأتوا ولو بسورة من مثل القرآن ، وكان التحدى صارخاً ، وكانوا ذوى بلاغة وبيان ، فعجزوا ، عجزاً فاضحاً ، ولكنهم حاولوا أن يستردوا خزيهم فاتهموا النبی بأنه شاعر ، وبأنه كاهن ، وبأنه ساحر ، ولم يسائلوا أنفسهم لم قدر هو على ما يعجزون عنه وفيهم الشعراء والكهان والسحرة ؟ أو لعلهم ساءلوا أنفسهم ولكن العناد أملى لهم في الغي والضلال .

وشىء آخر بأنهم بأذواقهم ومقدرتهم على وزن الكلام ، وتمييز بعضه من بعض كانوا يجدون فرقاً كبيراً من القرآن وكلام النبی ﷺ ، فالقرآن الذى أعجزهم هو القمة العليا في البلاغة ، ولكن كلام النبی على كثرة رسائله وخطبه وأحاديثه لم يصل إلى هذه القمة ، ولم يدع النبی نفسه ولم يدع أحد من المسلمين لكلامه أنه على درجة من درجات الإعجاز .

فأنى له أن يكذب عليهم فيفتعل كلاماً معجزاً ينسبه إلى الله ، وهو لا يستطيع أن يحاكي هذا الكلام ؟

٦ - ثم إن لنا أن نسأل عن السبب الذى كانوا يظنون أنه يدفع النبی إلى الكذب ؟ لقد احتمل في دعوته أفدح المخاطر ، وأقصى الشدائد . وصبر على مالا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً ، لم ينعم فيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان ، ثم كان معه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضون لفقد الأرواح والأموال وللقلق الدائم على الحياة ، وهو لم يجن من وراء دعوته ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثناء وأبهة وسلطان .

فلو أنه كان كاذباً — كما يدعون — لآثر على دعواه الرضا بما عرضه عليه قومه من المال والملك حينما يفسوا من تراجعهم عن الدعوة إلى الإسلام الذى يفسد عقولهم ويلغى أديانهم ، ويبتل كثيرا من عاداتهم ومعتقداتهم ، ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال .

ولو لم يكن صادقاً لأقام نفسه ملكاً على الجزيرة العربية بعد أن دانت له ، وبعد أن وافته القبائل لتعلن إسلامها ، وتدين له بالولاء .

ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وقد كان ميسوراً عليه . بل آثر أن يقضى حياته زاهداً مبغضاً لمظاهر الجاه والسلطان .

٧ - على أن زعماء قريش الذين تولوا معارضة الدعوة حينما من الدهر لم يلبثوا أن آمنوا بها ، وأشربتها نفوسهم ، وكافحوا دونها بدمائهم وأموالهم ، لأنهم أيقنوا أن محمداً الذى لم يكذب عليهم قط لم يكذب على الله قط ، وليس بصاحب بهتان ولا طالب مال أو جاه .

حُضْهِ ﷺ عَلَى الصَّدَقِ

لِلرَّسُولِ ﷺ كَثِيرٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي الْأَمْرِ بِالصَّدَقِ وَتَرْيِينِهِ ، وَفِي النَّهْيِ عَنِ الْكَذِبِ وَتَقْبِيحِهِ ، مِنْهَا قَوْلُهُ :

١ - « عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصَّدَقَ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا »^(١).

٢ - « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أَوْثَمَنَ خَانَ »^(٢).

٣ - « الْبَيْعَانُ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنَّ صَدَقًا وَبَيْنَا بَوْرَكَ لَهْمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا مَحَقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)^(٣).

٤ - « تَحَرَّوْا الصَّدَقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ الْهَلَكَةَ ، فَإِنَّ فِيهِ النِّجَاةَ ، وَاجْتَنِبُوا الْكَذِبَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ النِّجَاةَ فَإِنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ » (كَنْزُ الْعَمَالِ)^(٤).

٥ - « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَجُلُوسُ وَكَانَ مَتَكِّنًا فَقَالَ : أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَكْرُرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ »^(٥).

« كَبُرَتْ خِيَانَةٌ أَنْ تَحْدِثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هَوْلَكَ بِهِ مَصْدَقٌ ، وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ »^(٦).

خَلْقُ الْأَمَانَةِ

أَمَانَةُ الرَّسُولِ ﷺ كَفَضَائِلُهُ ، كُلُّهَا شَامِلَةٌ كَامِلَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ الْمَظَاهِرُ :

١ - وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ مَظْهَرَهَا الْعَظِيمَ هُوَ نَهْوُصُهُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ الَّتِي أَيْتَمَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَكَلَّفَهُ أَنْ يَقُومَ بِهَا ، فَبَلَّغَهَا لِلنَّاسِ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ التَّبْلِيغُ ، وَقَامَ بِأَدَائِهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ الْقِيَامُ ، وَاحْتَمَلَ فِي سَبِيلِهَا أَشَقَّ مَا يَحْتَمِلُهُ بَشَرٌ .

(١) اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانِ حَدِيثٌ رَقْمُ ١٦٧٥ .

(٢) اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانِ حَدِيثٌ رَقْمُ ٣٨ .

(٣) اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانِ حَدِيثٌ رَقْمُ ٩٨٠ .

(٤) كَنْزُ الْعَمَالِ ٣/٣٤٤ رَقْمُ ٦٨٥٦ .

(٥) اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانِ حَدِيثٌ رَقْمُ ٥٤ .

(٦) مُسْنَدُ أَحْمَدَ ٤/١٨٣ .

٢ - وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته ، فكانوا يسمونه الأمين ، ولهذا رحبوا بتحكيمة فيما كان يهم من نزاع ، وارتضوا ما قضى به في شأن وضع الحجر الأسود ... (تاريخ الطبرى)

٣ - كان رسول الله ﷺ « إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى ثلاثاً في الناس فيجيئون بغنائمهم ، فيقسمها ويخمسها ، فجاءه رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبنا من الغنيمة ، فقال : أسمعت بلالاً ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم ، قال فما منعك أن تأتينى به ؟ فاعتذر إليه ، فقال النبي ﷺ لن أقبله منك حتى تكون أنت الذى توافينى به يوم القيامة »^(١)

٤ - استعمل رسول الله ﷺ عاملاً - ابن اللثبية - على الصدقة ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله هذا لكم ، وهذا أهدي إليّ ، فقال له : أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك ، فنظرت أيهدي إليك أم لا .

ثم قام عشية بعد الصلاة فقال : أما بعد ، فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم ، وهذا أهدي إليّ ؟ أفلا قعد في بيت أبيه وأمه ، فنظر هل يهدي له أم لا ؟

فوالذى نفس محمد بيده لا يغفل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيداً جاء له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار ، وإن كانت شاة جاء بها تيعر^(٢) (خ)

٥ - قال جابر بن عبد الله : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد ضحى ، فقال : صل ركعتين ، وكان لي عليه دين فقضاني وزادني^(٣) .

٦ - أتى رجل إلى النبي ﷺ يتقاضاه ، فأغلظ ، فهمّ به أصحابه وأرادوا أن يؤذوه ، فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالاً ، ثم قال : أعطوه سنناً مثل سنه (أى جملاً سنه مثل الذى له) قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه ، فقال : اعطوه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء^(٤) .

حضه ﷺ على الأمانة

قال عليه الصلاة والسلام :

١ - « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك »^(٥) (أخرجه أبو داود والترمذى) .

(١) سنن أبى داود - كتاب الجهاد رقم الحديث ٢٧١٢ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٠٢ .

(٣) مسند أحمد ٣/٣١٩ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٢ .

(٥) سنن أبى داود - كتاب البيوع ٨٠٥/٣ رقم ٣٥٣٥ والترمذى فى البيوع حديث رقم ١٢٦٤ .

٢ - « من انتهب فليس منا »^(١).

٣ - « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين »^(٢).

٤ - « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ، وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال أمه وهو مسؤول عن رعيته ، فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته »^(٣).

٥ - ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه

الله »^(٤) (خ)

٦ - « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من

النفاق حتى يدعها ، إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »^(٥).

خلق الصبر

قضى رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد الخالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى ، دعوة قوية لا يخفت صوتها ولا ينقطع صداها ، وهم يجدون في هذه الدعوة تسفياً لعقولهم ولآهتهم ، وتقويضاً لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدوا أو لتعويق انتشارها ، فلا يزداد الرسول إلا حماسة لدعوته وإصراراً عليها ، وكلما أمعنوا في إيذائهم له تعالى على الأذى ، فاحتمله في ثبات وجلد وصبر ، ثم أذن الله له في الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداء أمس أصدقاء اليوم ، وأقبل المشركون على دين الله أفواجا يحملون شعاره ، ويرضعون مناره ، ويفدون به بأغلى ما يفتدى به عزيز .

١ - لقد صبر الرسول ﷺ على جراح الألسنة ، وإنها لأليمة في مجتمع يحرص على الشاء وحسن الأحذوثة أيما حرص ، وينفر من المذمة والهجاء أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقام الصحف والإذاعة ووسائل الإعلام في المجتمع المعاصر ، حتى كان بعض السراة يغدق على الشعراء استدراكاً لمذائحهم واتقاء لهجائهم .

وكان رسول الله ﷺ في مطلع الدعوة أناساً يكون شوقاً إلى أن يسمعوا قومه ، ليرفعهم من

(١) سنن الترمذى — كتاب السير ١٥٤/٤ رقم ١٦٠١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٩ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٩٩ .

(٤) صحيح البخارى — كتاب الاستقراض ١٤٤/٣ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٣٧ .

الضلالة إلى الهدى ، وكان موسوماً بينهم بالعقل والحكمة والصدق والأمانة والعفة ، لم يسمعوا منه كذبة قط ، ولم يتناقلوا عنه نقيصة قط .

ولكنهم عاندوا الحق ، واستكبروا أن يتخلوا عما ألفوا عليه آباءهم ، فجرتهم الخصومة الحمقاء إلى أن يعمدوا إلى الافتراء ، فإذا هم يتهمون الرسول ﷺ بأنه حالم يهذى بما تراءى له في المنام ، وإذا هم يصبون إليه تهمة باطلة يعلمون أنه منها براء ، فينسبون إليه الكذب والادعاء . وإذا هم يلصقون به ما تعارفوا عليه في شعرائهم من تخيل ومبالغة ومهارة في التأثير والاستهواء ثم يتجادون في السفه فيتهمونه بالجنون وهو سيد العقلاء .

٢ - وكثيراً ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنق والطيش والسفه والاستهانة يريدون أن يصدوه عن سبيل الله ، ويريدون أن يؤسوه من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله ، فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذي يشق طريقه إلى النصر ، وبالجلد الذي يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان الصبر العظيم دليلاً على أن الرسول صادق مبلغ عن ربه وإلا ما احتمل هذا العدوان ، وهو لا يطلب ملكاً ، ولا يبتغي جاهاً ، ولا يتطلع إلى مال ، فجعل الناس يقبلون على الإسلام فرادى وجماعات وجعلوا يتحملون أذى المشركين في شجاعة وثبات وهم يودون أن يفتدوا رسول الله ﷺ مما يحتمل من عدوان وإعنات .

وهذه بعض صور من صبر الرسول على الإيذاء .

(أ) قال ابن مسعود : كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد وهو يصلي ، فقال : أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان ، فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبي معيط ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبي وهو ساجد ولم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على حماية النبي لأنهم كانوا حينئذ ضعافاً ، ولم يزل الرسول ﷺ ساجداً حتى جاءت فاطمة — رضى الله عنها — بنت النبي ﷺ فرمت القدر بعيداً عنه^(١) .

(ب) انتهزت قريش وفاة السيدة خديجة — وكانت للرسول مصدر حنان وخير معين — ووفاة عمه أبي طالب — وكان له عضداً ونصيراً — وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، فأمعنت في الأذى وطمعت فيما لم تكن تطمع فيه وأبو طالب حى فاعترضه سفيه من قريش ، فحشا على رأسه تراباً ، فدخل الرسول ﷺ على بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل التراب عنه وتبكي ، وهو يقول لها ، لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك^(٢) .

(ج) لما مات أبو طالب واشتدت قريش في إيذاء النبي خرج إلى الطائف ، فعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، واستنصرهم على من خالفوه من قومه ، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : أنزع أستار الكعبة وأرميها إن

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٢ .

(٢) سيرة هشام ٥٨/٢ .

كان الله قد أرسلك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لكن كنت رسولا من الله كما تقول لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولكن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك فقام الرسول من عندهم يائساً من ثقيف ، وقال لهم : أما وقد فعلتم ما فعلتم فاكمثوا عني ، لأنه خشي أن يعلم قومه بما حدث له فيزدادو جرأة عليه ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان فاستظل بكرمة فيه

فلما اطمأن قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك أو يحل سخطك ، لك العتيبي ولا حول ولا قوة إلا بك^(١).

٣ - ثم هاجر النبي من مكة إلى المدينة ، فتعقبوه ، وتتابع محاربتهم له ، وكثيراً ما جمعوا جموعهم من قبائل شتى ، للقضاء على المجتمع المثالي بالمدينة .

ولقد غدر يهود المدينة بعهدهم مع رسول الله ، فانضموا إلى المشركين تارة ، وحرصوهم على حربه تارة .

وكانت الحروب بين المسلمين وأعدائهم متصلة متلاحقة ، فلا يكاد يتخففون من سلاحهم حتى ينذرهم الأعداء بحرب ، فيسارع المسلمون إلى حمل السلاح ولقد انتصر النبي ﷺ في بدر والخندق وغيرهما ولكنه فقد كثيراً من خلصائه وأحبابه فصير

٤ - وقد كان الصبر شيمته وهو يفقد فلذات كبده وأغلى ثمره وبضعاً من نفسه ، فإنه فقد قبل البعثة طفليه القاسم وعبد الله - الملقب بالطاهر والطيب - ثم فقد بعد البعثة كريماته زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن .

ثم رزقه الله بإبراهيم ، بعد شوق طويل إلى الولد ، ففرح به أعظم الفرح ، ووجد فيه عوضاً عما فقد ، وأمل أن يبقيه الله ، ليسعد به في شيخوخته ، وليكون له عقباً وذكرى ، ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر حتى مرض . فلما كان في الاحتضار أخبر النبي ﷺ فاعتمد على عبد الرحمن بن عوف لشدة ألمه ، ومشى حتى رأى إبراهيم في حجر أمه ، وهو يصعد آخر أنفاسه ، فوضعه في حجره والحزن يعتصر قلبه العظيم ، وقال : إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً ، ثم صمت وبكى .

فلما أيقن أن إبراهيم قد ودع الحياة سال الدمع من عينيه وهو يقول : يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزننا عليك أشد من هذا .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال يا بن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال النبي ﷺ : العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون^(١).

حضه على الصبر ﷺ

لقد علم النبي ﷺ المسلمين الصبر عملاً ، وعلمهم الصبر إرشاداً وقولاً فحضهم على الصبر ، وحببه إليهم ، ونفرهم من الجزع ، وبغضه لهم وله في هذا أحاديث كثيرة منها :

١ - « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أوجرنى في مصيبتى ، وأعقبنى خيراً منها ، إلا فعل الله به ذلك »^(٢).

٢ - « ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاثّ عنه خطاياهم كما يحاث ورق الشجر »^(٣).

٣ - « أتى بعض المسلمين رسول الله وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكوا إليه فقالوا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمراً الوجه ثم قال : إن من قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة^(٤) ويحجأ بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه »

٤ - « إن الله تعالى قال » إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - يريد عينيه - فصبر عوضته منهما الجنة »^(٥).

٥ - « الصبر نصف الإيمان »^(٦).

٦ - « الصبر ضياء »

٧ - ليس منا من لطم الحدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »^(٧).

٨ - « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وإيس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »^(٨).

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٣٢ .

(٢) مسند أحمد ٣٠٩/٦ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب الطب ١٤٩/٧ .

(٤) مسند أحمد ٣٩٥/٦ .

(٥) مسند أحمد ١٤٤/٣ .

(٦) المستدرک للحاکم ٤٤٦/٢ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٥ .

(٨) صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤ رقم ٢٩٩٩ ومسند أحمد ٣٣٢/٤ .

خلق الحلم

كان الرسول ﷺ المثل الأعلى في الحلم لأن الله تعالى أدبه فأحسن تأديبه ، وأمره بقوله : ﴿ خذ العفو ﴾ وأمر بالعرف ﴾ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعد بالله ﴾ إنه سميع عليم ﴾ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ فإذا هم مبصرون ﴾^(١) وبقوله : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾^(٢) .

ففي الآية الأولى أمر بالحلم وبلاستعاذة بالله عند الغضب والنزوع إلى الانتقام وفي الآية الثانية مساواة بين كظم الغيظ والبذل في سبيل الله والعفو عن الناس . فإذا علمنا أن كظم الغيظ أقل شأناً من الحلم تبينت فضيلة الحلم ، لأن كظم الغيظ تحلم وتكلف للحلم ...

وكان عليه الصلاة والسلام القدوة في سعة الصدر وسماحة النفس التي تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء ، والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء ، وفيهم الذين يسألون أو يجادلون ليتبينوا ، والذين لا يريدون من الجدل إلا اللجاج والعناد ، والحلم في كل حال من هذه الحالات هو القوة النفسية التي لا تغنى قوة غناها .

كان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التي جذبت إليه النفوس وألفت حوله القلوب ، وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾^(٣) .

— جاءه أعرابي يطلب شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا .

ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي ، وزاده شيئاً ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النبي : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال الأعرابي : نعم .

فلما كان الغداة أو العشي جاء ، فقال النبي : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٣٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

قال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال الرسول : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثلي رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإنني أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها من بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها^(١) .

أرأيت إلى رسول الله ﷺ — كيف يحلم على من أعطاه فجحد عطاءه ؟ أرأيت إليه كيف يعطيه ثانية فيسمع رضاه ودعائه ؟

طلب منه أصحابه في موقعة أحد أن يدعو على المشركين الذين شجوا وجهه ، وكسروا ربايعيته حتى سال الدم على وجهه الشريف ، فقال : « إني لم أبعث لعانا ، ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » . (اللؤلؤ والمرجان)^(٢) .

حدث أنس قال : كان رسول الله ﷺ يمشي يوماً وأنا معه ، فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً ، وكان على النبي برد نجراني غليظ الحاشية فنظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البردة من شدة جذبه .

وقال الأعرابي : يا محمد ، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت النبي ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي ؟

قال الأعرابي . لا قال الرسول : ولم ؟ قال الأعرابي : لأنك لا تكافيء السيئة بالسيئة ، فضحك رسول الله ﷺ ، ثم أمر أن يحمل للأعرابي على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

غضب الحليم

لكن من الأحداث ما لا يسعه الصدر الرحيب ، ولا يطيقه الحليم ، فلا بد من غضب غير أن هذا الغضب هو اللائق بالعظيم .

لقد كان الرسول ﷺ صاحب رسالة ، ومبلغ دين ، وحامي حقيقة ، فمن حقه أن يحلم على ما يصيبه هو في سبيل دعوته ، ولكنه لا يستطيع أن يحلم على ما يصيب الدعوة نفسها قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم وماواهم جهنم وبئس المصير ﴾^(٣) .

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ١٥٩/٣ رقم ٢٤٧٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٠ .

(٣) سورة التوبة الآية : ٧٣ .

هنا كان رسول الله ﷺ يغضب ، ولم يكن له بد من أن يغضب لأن غضبه لم يكن للدنيا ، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق ، وكما قالت السيدة عائشة ، ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينقم لله بها^(١) . يكن غضب الرسول ﷺ لائق برسالاته وبعظمته ، فهو غضب لا يتجاوز حد الاعتدال بحال من الأحوال .

حظه على الحلم

كانت أحاديث رسول الله ﷺ التي تحض على الحلم مظهراً قولياً من حلمه العملي . مثال ﷺ :

- ١ - « ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله »^(٢) .
- « ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له الولد ، ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يعافهم ويرزقهم »^(٣) (خ) .
- ٣ - « قال رجل لرسول الله يا رسول الله مرني بعمل وأقلل : قال : لا تغضب ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب »^(٤) (خ) .
- ٤ - قال لأصحابه : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٥) .
- ٥ - « من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً »^(٦) (الجامع الصغير) .

خلق الرحمة

تعددت مظاهر رحمته ﷺ وتنوعت ، فوسعت المسلمين ، وغير المسلمين ، واتسعت للأصدقاء والأعداء ، وشملت الأحرار والأرقاء ، وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار ، واستوعبت الأناسي والحيوان .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٥٠٢ .

(٢) مسند أحمد ١٢٨/٢ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٣١/٧ .

(٤) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٣٥/٧ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٦ .

(٦) الجامع الصغير للسيوطي رقم ٨٩٩٧ .

قدم عليه رجل يطلب البيعة على الهجرة ، وقال ما جئتك حتى أبكيك والديّ فقال ارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما^(١).

جاء آخر إليه ليستشير في الجهاد ، فقال : ألك والده ؟ قال : نعم قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها^(٢).

شكا إليه رجل أنه يتأخر عند صلاة الصبح مع الجماعة ، لأن فلاناً يطيل بالناس فغضب رسول الله ﷺ وقال إن منكم منفرين فأياكم صلى بالناس فليتجاوز — فليخفف — فإن فيهم الضعيف والكبير وإذا الحاجة^(٣).

وقال رسول الله ﷺ إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجاوز — أخفف — في صلاتي ، كراهية أن أشق على أمة^(٤).

ولما فتح مكة ﷺ قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء^(٥).

وكان ﷺ يداعب الأطفال ، ويجلسهم في حجره ، وكان يصُفُّ عبد الله وعبيد الله وغيرهما من أولاد عمه العباس ، ويقول : من سبق إليّ فله كذا ، فيستبقون إليه ، فيقعّدون على صدره ، فيقبلهم ، ويلتزمهم^(٦).

أبصره الأقرع بن حابس يقبل الحسن ، فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال رسول الله ﷺ أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ، من لا يرحم لا يُرحم^(٧).

أكل يوماً رطباً في يمينه ، فحفظ النوى في يساره ، فمرت شاة ، فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسري ، وهو يأكل بيمينه ، حتى فرغ وانصرفت الشاة .

رأى حماراً قد وُسِمَ في وجهه ، فأنكر ذلك ، ونهى عن وسم الحيوان في وجهه ، وعن ضربه على وجهه^(٨) (تيسير الوصول) .

سافر مع بعض أصحابه ، فرأوا حُمرة معها فرخان لها ، فأخذوها فجاءت تفرش ، فلما رآها رسول الله ﷺ قال : من فجّع هذه بولدها ؟ ردوا إليها ولدها (والحمرة نوع من الطير كالعصفور)^(٩).

(١) سنن النسائي — كتاب البيعة ١٤٣/٧ .

(٢) سنن النسائي — كتاب الجهاد ١١/٦ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٦٧ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٧١ .

(٥) سيرة ابن هشام — فتح مك — ٥٥/٤ .

(٦) مسند أحمد ٢١٤/١ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٧ .

(٨) صحيح مسلم — كتاب اللباس والزينة حديث رقم ٢١١٧ وسنن أبي داود — كتاب الجهاد حديث رقم ٢٥٦٤ .

(٩) سنن أبي داود — كتاب الجهاد ١٢٥/٣ رقم ٢٦٧٥ .

حضه على الرحمة

كثيراً ما أمر رسول الله ﷺ بالرحمة ، وكثيراً ما نهى عن القسوة ، وهو في أمره وفي نهيه يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون .

قال ﷺ :

١ - من لا يرحم لا يرحم^(١) (خ).

٢ - من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا^(٢).

٣ - « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » (خ)^(٣)

٤ - من أحب أن ينسأ له في أثره ، ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه^(٤)

٥ - « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا انقطعت رحمه وصلها ... »^(٥).

تجلى من الوقفات القصار أمام أخلاق الرسول ﷺ أنه برسالته الخالدة ، وبأدبه الإلهي ، وبأخلاقه القرآنية الإنسان الكامل والمثل الأعلى ، ومالك الفضائل المتآزره في أعلى صورها ، في سلمه وحربه ، وفي بيته وبين صحبه ، وفي رضاه وغضبه ، وفي سره وجهره ، وفي وحدته واجتماعه ، ومع أعدائه وأتباعه ، ومع الأقوياء والضعفاء ، ومع الأحرار والأرقاء ، ومع الرجال والنساء وفي كل شأن من شؤونه جل أو صغر .

ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يشن به على نبي من أنبيائه ، فقال تعالى : ﴿ وإنا أنزلناه على خلق عظيم ﴾^(٦)

(١) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٩/٨ .

(٢) سنن أبى داود ٢٣٢/٥ رقم ٤٩٤٣ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب الأدب ١٤/٧ .

(٤) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٦/٧ .

(٥) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٧/٨ .

(٦) سورة القلم الآية : ٤ .

قال تعالى :

فَلَا تُطِيعُوا الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَدُهُنْ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُثْلَى عَلَيْهِ أَيْتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾

معاني المفردات

﴿ ودوا لو تدهن ﴾ : أحبوا لو تلاينهم وتصانعهم . ﴿ فيدهنون ﴾ : فهم يلاينونك ويصانعونك . ﴿ حلاف ﴾ : كثير الحلف في الحق والباطل . ﴿ مهين ﴾ : حقير في الرأي والتميز . ﴿ هماز ﴾ : عياب أو مغتاب للناس . ﴿ مشاء بنميم ﴾ : بالسعاية والإفساد بين الناس . ﴿ عتل ﴾ : فاحش لئيم ، أو غليظ جاف . ﴿ زنيم ﴾ : دعى ملصق بقومه أو الشرير . ﴿ أساطير الأولين ﴾ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم . ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ : سنلحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الأنف .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه مقالة المشركين في الرسول — أردفه بما يقوى قلبه ويدعو إلى التشديد مع قومه ، مع قلة العدد وكثرة الكفار فنهاء عن طاعتهم عامة ، ثم أعاد النهي عن طاعة المكذبين الذين اتصفوا بالأخلاق الذميمة التي ذكرت في هذه الآيات خاصة ، دلالة على قبح سيرتهم ، وضعة نفوسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ ودوا لو تدهن فيدهنون .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَطْعُ الْمَكْذِبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك القرآن العظيم ، والشرع المستقيم ، والخلق العظيم ﴿ فَلَا تَطْعُ الْمَكْذِبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس : ودوا لو نرخص لهم في رخصون لك . وقال مجاهد : المعنى ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيها لثونك . وقال الحسن : ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم . قال القرطبي كل هذه الأقوال صحيحة : - أن شاء الله تعالى - على مقتضى اللغة والمعنى ، فإن الأدهان اللين والمصانعة . وقيل : مجاملة العدو مما يلته ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ ^(١) . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تُحْذَوْكَ خَلِيلًا ﴾ ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنَمِيمٍ . مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ .

أى : ولا تطع المكثار من الحلف بالحق والباطل ، والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التي يجترى بها على الله - ضمه ومهاتته أمام الحق ، وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله . والكذب أس كل شر ، ومصدر كل معصية ، وكفى مزجرة لمن اعتاد الحلف من جعله المولى فاتحة المثالب ، وأس المعاييب .

والمهين : الضعيف القلب ، قال مجاهد ، وقال ابن عباس : الكذاب . وقيل معناه : الحقير عند الله تعالى . وقال الرُّمَّانِي : المهين الوضيع لإكثاره من القبيح وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة . وهى هنا القلة فى الرأى والتميز .

وقوله تعالى ﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن زيد : الهماز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم . واللماز باللسان قال تعالى : ﴿ وَيُلْ لِّكُلِّ هَمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ وقال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب .

وقوله تعالى : ﴿ مَّشَاءٍ بَنَمِيمٍ ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ويحرش بينهم ، وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهى الحالقة للدين وقد ثبت فى الصحيح عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث . فقال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة نمام » ^(٤) . (رواه مسلم) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال :

(١) سورة هود الآية : ١١٣

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٣

(٣) سورة النساء الآية : ٨٩

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب « بيان غلظ تحريم النميمة » فقد ورد الحديث بلفظه رقم ١٠٥/١٦٨ من رواية لحذيفة .

«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»^(١).

وقال الامام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن : أن الرسول ﷺ قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى - عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء العنت »^(٢).

وقوله تعالى : ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير . ﴿ معتد ﴾ فى تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد لمشروع ، ﴿ أثيم ﴾ أى : ذى إثم ، أى : يتناول المحرمات .

وقوله تعالى : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال القرطبي رحمه الله : العتل الجافى الشديد فى كفره ، وقال الفراء : هو الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل : إنه الذى يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب . مأخوذ من العتل وهو الجرّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾^(٣) . والعتل : الغليظ الجافى وقال معمر : هو الفاحش اللثيم .

وفى صحيح مسلم عن حارثة بن وهب أنه سمع النبى - ﷺ - قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ » قالوا : بلى ، قال : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ قالوا : بلى ، قال : كل عتل جواظ مستكبر » والجواظ : قيل هو الجموع المنوع . وقيل : الكثير اللحم المختال فى مشيته .

وأما (الزنيم) فقال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (عتل بعد ذلك زنيم) قال : « رجل من قريش له زئمة مثل زئمة الشاة »^(٤) ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزئمة من بين أخواتها .

ولما الزنيم فى لغة العرب هو الدعى من القوم قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة . وقال العوفي عن ابن عباس : الزنيم الدعى ، ويقال : الزنيم رجل كانت به زئمة يعرف بها ، ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفى ، قال محمد بن اسحاق : نزلت فى الأخنس بن شريق ، لأنه حليف ملحق فى بنى زهرة ، فلذلك سمي زنياً . وقال ابن عباس : فى هذه الآية نعت ، فلم يعرف حتى قتل فعرف ، وكان له زئمة فى عنقه معلقة يعرف بها .

وقوله تعالى : ﴿ أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل - وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ

(١) انظر صحيح البخارى : ج ٢ ص ١٢٤ باب عذاب القبر من الغيبة والبول فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مع تقديم وتأخير وزيادة .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٥٩ فقد ورد الحديث من رواية لأسماء بنت يزيد بن السكن .

(٣) سورة الدخان من الآية : ٤٧

(٤) انظر صحيح البخارى ج ٦ ص ١٩٨ تفسير (ن والقلم) فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

مأخوذ من أساطير الأولين كقوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ قال ابن عباس : معنى (سنسمه) سنخطمه بالسيف قال : وقد خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف : فلم يزل مخطوماً إلى أن مات .

وقال أبو العالية ومجاهد : (سنسمه على الخرطوم) أى : على أنفه ، ونسود وجهه في الآخرة فيعرف بسوء وجهه . والخرطوم الأنف من الإنسان .
قال القرطبي - رحمه الله - : وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة ولانعلم أن الله - تعالى - بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه ، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة ، كالسم على الخرطوم .

قصة أصحاب الجنة

قال تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
كَالْصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾
فَاَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾
وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَلِيلٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ
رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يٰوَيْلَنَا
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَٰعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

معاني المفردات

- ﴿ بلوناهم ﴾ امتحناهم بألوان من البلاء والآفات .
- ﴿ الجنة ﴾ : البستان .
- ﴿ ليصر منها ﴾ أى : ليقطعن ثمار نخليها .
- ﴿ مصبحين ﴾ : أى : وقت الصباح .
- ﴿ ولا يستثنون ﴾ : أى : يستثنون عما هموا به من منع المساكين .
- ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ أى : طرقها طارق من عذاب ربك ، إذ أرسل عليها صاعقة من السماء أحرقتها .
- ﴿ كالصرير ﴾ أى : كالليل البهيم في السواد بعد أن احترقت .
- ﴿ فتنادوا ﴾ أى : نادى بعضهم بعضا .
- ﴿ أن اغدوا ﴾ أى : اخرجوا غدوة مبكرين .
- ﴿ حرثكم ﴾ أى : بستانكم .
- ﴿ صارمين ﴾ أى : قاصدين الصرم وقطع الثمار .
- ﴿ يتخافتون ﴾ أى : يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافة والمناجاة حتى لا يسمعهم أحد .
- ﴿ على حرد ﴾ أى : على منع .
- ﴿ الضالون ﴾ أى : قد ضللنا طريق جنتنا وما هذه هي .
- ﴿ محرومون ﴾ أى : حرمتنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا .
- ﴿ أوسطهم ﴾ أى : أرجحهم رأياً .
- ﴿ تسبحون ﴾ أى : تذكرون الله وتشكرونه على ما أنعم به عليكم .
- ﴿ يتلاومون ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين .
- ﴿ طاغين ﴾ أى : متجاوزين حدود الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر - سبحانه - فيما سلف أن ذا المال والبنين كفر وعصى وتمرد لما آتاه الله من النعم - أردف هذا ببيان أن ما أوتيته إنما كان ابتلاء وامتحاناً ليرى أيصرف ذلك في طاعة الله وشكره ، أم يكفر بها ؟ كما أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعاصي دمر الله جنتهم ، فما بالك بمن حاد الله ورسوله ، وأصر على الكفر والمعصية .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدي اليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد - ﷺ - اليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أى : اختبارناهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إذا أقسموا ليصر منها مصبحين ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجدن ثمرها ليلاً ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : فيما حلفوا به ، ولهذا حنتهم الله فى أيمانهم فقال تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ أى : كالليل الأسود وقال السدى : مثل الزرع إذا حصد أى هشيأ يسأ . ﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ أى : القطع . ﴿ أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أى : تريدون الصرام . ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله - سبحانه - وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم . قال الله تعالى : ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ قال مجاهد : ﴿ وغدوا على حرد ﴾ أى : جد ، وقال عكرمة : على غيظ ، ﴿ قادرين ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرمون . ﴿ فلما رأواها قالوا إنا لضالون ﴾ أى : فلما وصلوا اليها وأشرفوا عليها وهى الحالة التى قال الله - عز وجل - قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلممة لا ينتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إنا الضالون ﴾ أى : قد سلكنا اليها غير الطريق ، فتها عنها ، ثم رجعوا عما كانوا فيه . وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أى : بل هى هذه ولكن نحن لاحظ لنا ولا نصيب ﴾ قال أوسطهم ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أى أعد لهم وخيرهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ ؟ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجح ولهذا قالوا : ﴿ إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أى : اعتدينا وبغيينا وطغيينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ قيل : رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة والله أعلم .

وقال ابن كثير : ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبیر : كانوا من قرية يقال لها : ضروان على ستة أميال من صنعاء ، وقيل كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : كان أبونا أحق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، وبوأننا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكفة رأس المال ، والريح ، والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

قال الله - تعالى - ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير ، وذوى الحاجات وبدل نعمة الله كفوفاً ﴿ وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق وأبقى ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيهم وثابوا إلى رشدهم .

وفى هذا نعى عليهم بالغفلة ، وأنهم ليسوا من أرباب النهى والمعرفة .

قصة حدوان شعراً (للشيخ الصاوى شعلان) :

الحرص قد يجعل الأحرار عبدانا
وقد يصوغ من الأموال أوثانا !
إذا رأيت قلوبا بالندى بخلت
فاصنع بها فى أثاث البيت جدراننا !
كم قصة فى كتاب الله ناطقة
يعيدها الناس فى دنياهم الآننا !
أصحاب جنة ضروان وقصتها
قد أنزل الله فيها الوحي قرآننا !
قد كان صاحبها فى الفضل ذا شيم
أندى من الروض أزهاراً وأفناننا !
فما بكى حوله الأيتام من سغب
ولاشكا عنده المضعوف حرمنا !
لا يكتفى بزكاة الزرع يبدلها
حتى يضيف إلى الاحسان إحساننا !
وأشرق الصبح فياض الندى عبقاً
يختال نوراً وأنداء وريحاننا !!
وأقبل الشيخ يمشى فى مهابته
متوجاً بوقار الشيب جذلانا !!
يحدو خطاه إلى البستان راعشة
وما يزال شباب القلب رياننا !!
رأى عجائب صنع الله قد رسمت
ما يسحر اللب أطيافاً وألواننا !!
والنورد فى الحلل الخضراء تحسبه
زمرداً ضم ياقوتاً ومرجاناً !!

ترى الفواكه مما يشتهون بها
 طلعاً وطلحاً وأعناباً ورماناً!!
 والطير ترسل في تسبيح خالقها
 ما يعجز الفصحاء اللسن تبياناً!!
 ما صور الله لا يرقى له بشر
 سبحانه في علاه ألف سبحاناً!!
 وكان للشيخ أبناء قد أزهروا
 وأورقوا في ربيع العمر عتياناً!!
 وحين شارف قريباً من بهاتيه
 وإن يوماً وشيك البين قد حاناً!!
 أوصى بنيه بأن تبقى مكارمه
 إرثاً يقيم لهم في المجد تبيناً!!
 لاتنبتوا الشج بعدى في مزارعكم
 لا تجعلوا جنى بالحرث نيراناً!!
 فما احتجرت عن الأهلين ثروتها
 يوم الحصاد ولا أهملت جيراناً!!
 لا يستر الخز في بدء ولا حضر
 من كان من حلية المعروف عرياناً!!
 النمل تبني قراها في تماسكها
 والنحل تجنى رحيق الشهد أعواناً!!
 والنهر يسقى العطاشى من مناهله
 رياً ورزقاً ويبقى النهر ملأناً!!
 وفارق الشيخ دنيا لا يدوم بها
 غير الثناء لأهل الفضل عنواناً!!
 فبدل الاخوة الأبناء سنته
 وارتد إيمانهم بالعهد كفراناً!!
 وأضمروا خطة نكراء غادرة
 كانت عواقبها ويلاً وخذلاناً!!
 وأقسموا أن يهبوا مصبحين إلى
 جمع الثمار ولا يألون كتماناً!!
 كى لا يراعوا بمسكين يطالعهم
 في طمرة لاهث الأنفاس جوعاناً!!

فأرسل الملك الجبار نقمته
 جزاء ما أضمرُوا بغياً وعدواناً!!
 ألقت بأشجارهم صرعى فما تركت
 حتى لأغصانها الأوراق أكفاناً!!
 غدوا على حرثهم صباحاً فما وجدوا
 في الحقل نبتاً ولا في الأرض بستاناً!!
 ضل الطريق بهم بل ضل مذهبهم
 وصار مبصرهم في النور حيراناً!!
 وقال أوسطهم إني نصحت لكم
 فلم أجد بينكم للنصح آذاناً!!
 الله يعلم ما تخفى الصدور وما
 يكون سراً يراه الله اعلاناً!!
 ماذا ظننتم بعلام الغيوب إذن
 أكان جهلاً بكم أم كان نسياناً!!
 خزائن الله ملأى لانفاد لها
 سبحانه قال : « كن » فالأمر قد كانا!!
 إن الألى حرموا المسكين قد رجعوا
 أذل مسكنة منه وحرماناً!!
 وقد مضى قدر لم يمحه ندم
 مكر البخيل يحيل الربح خسراناً!!
 إن رمت جنة رضوان فكن حذراً
 ولا تكن واحداً من أهل ضرواناً!!

الصراع بين النفس والمال

عندما نطالع آيات الله ، ونصافح كلماته في كتابه ، ونتعبد بتلاوته ، نطالع دروساً ونفوساً . نعم : ما أجمل القرآن إذا عرض الدروس على النفوس ، واستخلص العواقب ، واستنتج العبر ، انه الكلام الوحيد الذي نلتمس فيه الحكمة البالغة ، والعبرة النافذة ، التي لا نجد لها تفسيراً أعظم من كلام رسول الله - ﷺ - فاستمع اليه - ﷺ - وهو يقول في هذا المجال الذي نحن بصدده : « أرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » وأماننا في هذا المجال ستة مواقف في القرآن الكريم تبين منها عبرة الحياة ، ونستخلص فيها نتائج الدنيا إذا اخترقت مجال اليدين إلى مجال القلب وتربعت فيه ، هنا تكون الهاوية وما أدراك ما هي نار حامية .

الدرس الأول

ما ذكره القرآن الكريم عن هذا الخبر الكبير الذى عرف فى بنى اسرائيل بعلمه الغزير ، والذى قضى أيامه ولياليه بجوار كليم الله موسى حتى جاء اليوم الذى أرسله فيه نبي الله موسى مبعوثاً ليبلغ أمر الله إلى أهل مدين ، وذهب اليهم بقلب نقى تقى ، ووعظهم واستمعوا اليه بأذانهم ولسان قلوبهم يقول : سمعنا وعصينا ، بدلا من أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وواصل الخبر مواعظه وإرشاداته وواصلواهم خداعه وإغراءه بالمادة ، وعرض زينة الحياة الدنيا عليه ، حتى سأله يوماً : كم يعطيك موسى لقاء ما تبذل من جهد فى تبليغ هذه الرسالة قال لهم : إنما أقصد الأجر من الله . قالوا : فإن أموالنا كثيرة ولن ندخل بها عنك فى سبيل ألا نسمع منك شيئاً حتى لا تفسد علينا بيعنا وشراءنا ، وفكر العالم كثيراً وتردى فى صراع عنيف حتى وصل مجال انعدام الوزن عندما سأل نفسه : موسى أم المال ؟ الله أم الشيطان ؟ الدنيا أم الآخرة ؟ وأخيراً هداه هواه إلى اختيار المال والشيطان والدنيا ، فزلت قدمه بعد ثبوتها ، وأصبح فى الأرض حيران استهوته الشياطين فهوى بعد أن اتبع الهوى ، تمرغ فى طين الأرض بعد ما تربع على قبة الفلك إن هذا العالم هو « بلعام بن باعوراء » عالم بنى اسرائيل الذى قص الله علينا قصته فى سورة الأعراف حيث قال الله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعنا بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصد القصص القصص لعلمهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ (١) .

فتأمل معى ما احتوى هذا المشهد القرآنى من أسرار وعجائب ، إنه نبأ ولا يستعمل القرآن لفظ النبأ الا إذا كان المقام خطيراً ، والخبر عظيماً جليلاً ، فما بالك برجل آتاه الله آياته وآيات الله يكفيها شرفاً أنها نسبت إلى الله وأضيفت اليه - سبحانه - تذهب النفس كل مذهب فى تفسيرها وتفصيلها وبيانها ، فقد اشتملت على الحكم الالهية ، والمواعظ والارشادات والتوجيهات الربانية ، فماذا حدث هل تركها ؟ هل ابتعد عنها ؟ كلا . لو كان الأمر كذلك لجاز أن يعود اليها بعد زمان طال أو قصر ، لكن القرآن أعطى معنى يدل على أن العود بالنسبة اليه محال قال تعالى : ﴿ فانسلخ منها ﴾ فما معنى الانسلاخ ؟ إن السلخ فى الأصل كشط الجلد من اللحم وهو يعطينا أنه لا عودة ، فكما أن عودة الجلد إلى اللحم بعد سلخه أمر محال كذلك عودة هذا الذى أظلم قلبه بحب الدنيا ، عودته إلى آيات الله أمر محال ، لقد كانت الآيات بالنسبة اليه وقاية وعناية له من غضب الله ، كما أن الجلد وقاية وعناية باللحم فلما أنسلخ من الآيات أصبح عرضة لغضب الله . لقد كانت الآيات تزيينه وتجمله ، فلما أنسلخ منها أصبح مشوهاً دميم المنظر قميئاً فماذا كانت النهاية ؟ كانت النهاية ﴿ فكان من الغاوين ﴾ .

لماذا لم يكن من المغويين انما كان من الغاوين لأنه أصبح أستاذاً في الغواية دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْ الشَّيْطَانَ ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان أى : إنه أصبح بعد الضلال والانسلاخ من الآيات متبوعاً فصار الشيطان له تابِعاً .

وهذا يذكرنا بقول القائل :

وكننت امرءاً من جند إبليس فارتقى
بى الحال حتى صار إبليس من جندى

ثم ماذا ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ إنما عبر القرآن بلفظ أخلد لأنه يعطينا معنيين : الميل والاطمئنان إلى ما مال إليه فهو عندما أخلد إلى الأرض مال إليها مطمئناً بها وبدلاً من أن يقول القرآن أخلد إلى الدنيا قال : أخلد إلى الأرض وهذا هو قدر الدنيا وقدر من مال إليها ، هو فى الهاوية وفى الحضيض فما الدنيا إلا أرض تدمر من مال إليها مطمئناً بها قلبه إذا حلت أو حلت ، وإذا كست أو كست ، وإذا جلت أو جلت ، وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك دفعت له علامات فلما علامت نعم إنه اتبع هواه وما الهوى إلا نوازع النفس إلى مسالك الشر . ما شأن هؤلاء وما صفاتهم ، وما حالهم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم ما حالهم فى الدنيا ؟ إنهم فى تعب دائم وعذاب نفس مستمر قال تعالى : ﴿ فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ ﴾ إن تشبيه لحالهم بالكلب فى أحسن حالاته ، لا فى أمانته وحراسته ، إنما فى تبعه وشقائه ، فهو دائماً يلهث أى يخرج لسانه ، ويتنفس بصعوبة فى كل حالاته ، سواء زجرته وقسوت عليه ، أم ارحته وعطف عليه ، كذلك هؤلاء الذين اتبعوا الهوى أخلدوا إلى الأرض إذا لم تعطهم الدنيا طلبوها ، وإذا اعطتهم طلبوا المزيد منها ، ولو كان لأحدهم واديان من مال لا تبغى ثالثاً ، ولا يملأ جوفه إلا التراب .

وهذا مثل ضربه الله لكل من كذب بآيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وأمرنا الله أن نقصه على الناس ليتفكروا ويتذكروا ويعملوا ثم يعقب الله بعد ذلك قائلاً : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ .

أى : أن حال هؤلاء القوم بشس الحال ، ومثلهم بشس المثل ، وما ظلمهم الله لأن الله بين وأرشد فكان منه الإيجاد والإمداد والإرشاد ، ولكنهم قابلوا ذلك كله بالجحود والإنكار والعتو والنفور ﴿ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١) .

الدرس الثانى

ومن دروس القرآن الكريم مع النفوس الشاردة يحدثنا الكتاب العزيز عن شخصية أخرى أخلد صاحبها إلى الأرض واتبع هواه بعدما اقتحمت الدنيا قلبه فأظلم وأدلمهم ومال وانتكس وفى أحوال الحياة

ارتكس إنه « ثعلبة بن حاطب » الذى قال الله فيه وأمثاله : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ (١) .

يقول العلامة ابن كثير : يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قاله ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله - عز وجل - يوم القيامة ، عياداً بالله من ذلك .

وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة ثعلبة ابن حاطب الأنصارى ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبى حاتم من حديث أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله - ﷺ - : ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : فقال رسول الله - ﷺ - : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : ثم قال مرة أخرى فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت . قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم أرزق ثعلبة مالا » قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات الا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار . فقال رسول الله - ﷺ - : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة وأنزل الله - جل ثناؤه : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (٢) ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله - ﷺ - رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم ، وكتب لهم كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذوا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقراه كتاب رسول الله - ﷺ - فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه الا أخت الجزية ، ما أدرى ما هذا ؟ انطلقاً حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك فقال : بلى خذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له . فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أريانى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية ، إنطلقا حتى أرى رأى ، فانطلقا حتى أتيا النبی - ﷺ - فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى فأنزل الله - عز وجل - (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن - الآيات) قال : وعند رسول الله - ﷺ - رجل من أقارب

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ -

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٣

ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي - ﷺ - فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله - ﷺ - هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني ، فلما أبى رسول الله - ﷺ - أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله - ﷺ - ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أتى أبا بكر - رضي الله عنه - حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله - ﷺ - وموضعى من الأنصار فأقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله - ﷺ - وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولى عمر - رضي الله عنه - أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ؟ فقبض عمر ولم يقبلها ، فلما ولى عثمان - رضي الله عنه - أتاه فقال أقبل صدقتي فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك . فلم يقبلها منه . فهلك ثعلبة في خلافة عثمان .

قال رسول الله - ﷺ - « يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله . فيرجع اثنان : ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله » (١) متفق عليه .

الدرس الثالث

من هذه الدروس مع النفوس التي جرفها المال فانحرفت ما جاء في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ وأضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلاهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه ابداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها متقبلاً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكننا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بشجرة فاصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً ﴾ (٢)

المعنى : واضرب للفريقين الكافر والمؤمن مثلاً : رجلين أحدهما كافر مغرور بدنيته ، والثانى موحد بالله جعلنا لأحدهما وهو الكافر بستانين من الأعناب المتنوعة ، وجعلنا النخل محيطة بهما ، وجعلنا وسطها زروعاً حتى يجمعاً بين القوت والفاكهة ، وهما بهذا الوضع لهما الشكل الأنيق والموضع السليم .

كلتا الجنتين آتت أكلها كاملاً غير منقوص شيئاً ، وقد فجر الله وسط كل حديقة نهراً على حدة

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق جابت رقم ٢٩٦٠/٥ فقد أورده من رواية لانس بن مالك

(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٤٤

ليسقيها بلا تعب ومشقة ، ويزيدهما بهاء وروعة ، وكان لهذا الكافر ثمر ومال من غيرهما إذ كان من الأثرياء الكبار .

فقال يوماً لصاحبه : وهو يحاوره ويجادله شأن كل غنى مغرور مع مؤمن فقير صالح ، وقد روى انها أخوان ورثا مالا ، أما الكافر فاستغله في أرض ودار وزوجة وخدم وحشم ، وأما المؤمن فأنفق نصيبه في سبيل الله .

قال الكافر : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً وأكثر خدماً وولداً ، ودخل مع صاحبه جنته الواسعة العريضة ، دخلها وهو ظالم لنفسه معجب بما أوتى ، مفتخر به كافر النعمة ، معرض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش أنواع الظلم .

وماذا قال :

قال لطول أمله وشدة حرصه وكثرة غروره بها (قال ما أظن أن تبید هذه أبداً) وما أظن الساعة قائمة فيما سيأتى وأقسم لئن رجعت إلى ربى على سبيل الفرض ، أو كما يزعم صاحبنا المؤمن لأجدن جنة خيراً من هذه الجنة مرجعاً وعافية . وما علم هذا المغرور أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة والا لما سقى الكافر منها جرعة ماء ، وإن الإنسان قد يعطى استدراكاً . قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .

ماذا قال المؤمن ؟

قال وهو يحاوره : يا أيها الإنسان . أكفرت بالذى خلق أباك الأول من تراب ثم خلقك أنت من نطفة ثم سواك فعدلك رجلاً سوياً ؟ !

أبعد هذا تقول : ما أظن الساعة قائمة ، لكن هو الله ربى وحده لا شريك له ، له الحكم واليه ترجعون .

يا أخى : هلا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، الأمر ما شاء الله لا غير .

إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فى هذه الدنيا الفانية فعسى ربى أن يؤتىنى خيراً من جنتك وأبقى يوم القيامة .

وأما جنتك فيرسل عليها حسابان من السماء فتصبح أرضاً قاحلة ملساء لا شيء فيها أو يصبح ماؤها غائراً لا تدركه الأيدى بأى شكل ولا تستطيع له طلباً فضلاً عن إدراكه ، وقد كان فأحيط بثمره وهلك كل ماله فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ويعرض بنان الندم على ما فرط منه ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة تنصره من دون الله إذ هو القادر وحده على دفع العذاب ، وما كان هو فى حد ذاته منتصراً بنفسه .

هناك : وفي هذه الحال التي يؤمن فيها البر والعاجز النصر من الله وحده ، والسلطان لله وحده ، هو الحق تبارك وتعالى خير ثواباً وخير عقبى للعباد المتقين .

الدرس الرابع

من دروس المال والنفوس يتمثل أمامنا في صورة رجل طغى وبغى عندما كثر ماله فماذا فعل وكيف كانت عاقبته ؟ اليك ما قاله القرآن الكريم : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فخشفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرون من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخشف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ (١) .

هذه قصة المال والغرور بالعلم وكيف كان مآلها بعد قصة التملك والسلطان وكيف كانت نهايتها ؟ كان قارون من قوم موسى ، وكان ذا مال وفير ، والمقصود المهم من القصة هو ما يأتي : اذكر وقت أن قال له قومه على جهة الوعظ والإرشاد :

لا تفرح - وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة - ولا تنس نصيبك من الدنيا - وأحسن كما أحسن الله اليك . ولا تبغ الفساد في الأرض .

وهذه خمسة أصول مهمة ، ومن تمسك بها وعمل بمقتضاها نجا من الدنيا وما فيها .

وانظر إلى قارون وقد أبى أن يقبل هذا النصح - لأنه غير موفق - بل زاد عليه بقوله إنما أوتيته على علم عندي !! والمعنى : أنه أوتيه على علم عنده بوجوه الكسب وطرق الزيادة وإنماء المال ، كأنه قال إنما أوتيت هذا المال لفضل علمي وتمام مجهودي وتجاربي ، فليس لأحد حق له في هذا المال . وكأنه ينكر انعام الله عليه بتلك الأموال لاستحقاقه لها عن جدارة فهو حر التصرف فيها .

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الدراسات القرآنية الاستنباطية أن نذكر ما قاله نبي الله سليمان عندما وجد عرش بلقيس أمامه لم يقل إنما أوتيته على علم عندي . إنما تذكر نعمة الله وكبريائه وجلاله فقال

﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ (١).

ولقد رد الله عليه أبلغ رد حيث قال : ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ .

أى : أو لم يعلم هذا الأحق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدنأ وأكثر مالاً . ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أى : لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم لأنه عالم بكل شىء .

هذا حال قارون مع ماله ، ومواقفه عن وعظه وغروره بنفسه ، واستمع إلى الناس ، وقد أنقسموا إلى فريقين .

أما الفريق الأول فيقول : وقد خرج قارون فى أكمل زيتته وتمام أبهته : يا ليت لنا مثل ما ألقى قارون ، وإنه لذو حظ عظيم ، نظر هؤلاء إلى من فوقهم فتمنوا أن يكونوا مثل قارون فى غناه وأبهته ، ونسوا أن الله فى خلقه شئناً ، وأن السعادة والخير ليس فى المال الكثير ، والجاه العريض ، وإنما الخير والسعادة شىء وراء ذلك كله ، ما دام العبد موصولاً بربه ، راضياً مرضياً ، ولقد عالج القرآن الكريم هذا الداء علاجاً حاسماً لأن الحق - تبارك وتعالى - يعلم خطره إذ من يمد عينيه إلى مال غيره ويتمناه ، يعود وقد امتلأ قلبه حسداً وحقدأ ، وناهيك بهذه الأخطار التى ينشأ عنها معظم الجرائم : اقرأ معى قوله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ (٢) .

أما الفريق الثانى فيقول ناصحاً لأصحابه : ويلكم (هذه كلمة زجر) ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً فالسعادة فيه ، ولا يلقاها الا الصابرون ، أى : ولا يلقى هذه الحقائق ويعمل بها الا الصابرون ، ولا شك أن هذه الحقائق هى الايمان والعمل الصالح . وإدراك ما يوصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

نهاية محتومة

وقد جاءت نهاية قارون مؤيدة لما ذهب اليه العلم والبصر بالدنيا والآخرة فخسف الله بقارون وبداره وماله وبمجموعه الأرض . ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن ﴾ . وى هى كلمة تفيد التعجب . ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ نعم الله وحده هو الذى يعطى ويمنع ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فلم يعط انساناً لعقله وعلمه ، ولم يحرم آخر لجهله وسوء رأيه ، بل الأمر كله لله .

(١) سورة النمل من الآية : ٤٠

(٢) سورة طه من الآية : ٣

وقالوا : ﴿ لولا أن من الله علينا لحسف بنا ﴾ . ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ حقيقة وما هم فيه في الدنيا فهو استدراج لهم ، وفتنة لغيرهم ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ وما فيها من نعيم مقيم دائم لا تعب ولا مشقة معه يجعلها ربك ﴿ للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد وتقول الله خير الزاد ذخراً وعند الله لأتقى مزيد

الدرس الخامس

نتقل بالقارئ الكريم إلى الدرس الخامس من الدروس المستفادة التي سبق أن قدمنا أربعة منها وقد بين الله هذا الدرس في سورة ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ فانظر يا أخى نظرة المتأمل مدى الخطر المترتب على نطق اللسان بالسوء ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ وكيف تجاوب اللسان مع النية ؟ ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : صمموا وعزموا دون أن ينطقوا بالمشيئة المهيمنة أو يستثنوا نصيب الفقراء ، وكيف قطعوا على أنفسهم عهداً أن يقوموا في الصباح قبل أن تبرز الغزاة من خدرها ، وقبل أن يتنفس الصباح ويسفر الفجر فعاملهم الله بالعقاب من حيث لم يحتسبوا ، وكانوا وقتها نائمين والعقاب يقظ ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ ثم انظر وقد عزموا على أن يقطعوها هم ، فأحرقتها النار فأصبحت كالصريم ، وكيف قاموا من سباتهم ﴿ فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ هوكيف أسروا النجوى في أنفسهم وأقبل بعضهم على بعض ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ وغدوا في زعمهم قادرين على المنع فماذا كانت المفاجأة كانت رهبة ومهبة تنخلع من هولها الأفئدة ، لقد ضلوا عن طريق جنتهم في زعمهم لأنها أصبحت أثراً بعد عين ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ ثم تابوا إلى رشدهم ﴿ بل نحن محرومون ﴾ ثم قال أعقلهم : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ فقالوا بعد فوات الأوان : ﴿ سبحان ربنا إنا كنا طاغين ﴾ قالوا والندم يكوى النفوس ويسيل النفس مرارة ولوعة : ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ أى : لعل الله يعطينا بدلاً هو خير منها ، بتوبتنا من زلاتنا ، ويكفر عنا سيئاتنا ، إنا راجون عفوه ، طالبون الخير منه ، ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : وهكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه وأنعم به عليه ومنع حق البائس الفقير .

﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أى : أن عذاب الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا ، فما عذاب هذه إلا هلاك الأموال والثمرات ، وعذاب تلك نار وقودها الناس والحجارة ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيهم وتابوا إلى رشدهم .

الدرس السادس

يقول فيه مولانا تبارك وتعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآيتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر • إن هذا إلا قول البشر • سأصليه سقر • وما أدراك ما سقر • لا تبقى ولا تذر • لواححة للبشر عليها تسعة عشر ﴾ .

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا . وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي : خل بيني وبين من أخرجته من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد ، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض ، فكفر بأنعم الله عليه .

وفي هذا وعيد شديد على تمرده وعظيم عناده واستكباره لما أويته من بسطة المال والجاه ، والمراد بهذا الذي يقص الله علينا شأنه هو الوليد بن المغيرة وكان يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لي في العرب نظير ولا لأبي نظير ، وقد تهكم الله به وبلقبه ، وصرفه عن الغرض الذي كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه إلى ذمه وعيبه ، فجعله وحيداً في الشر والخبيث .

وقوله تعالى : ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ أي : ثم هو بعد ذلك يرجو أن يزيد ماله وولده وفي هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه على جمع حطام الدنيا كما هو شأن الإنسان فقد جاء في الحديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »^(١) ﴿ كلا ﴾ أي : لا أفعل ولا أزيد قال مقاتل مازال الوليد بعد نزول الآية في نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم علل هذا بقوله : ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي : أنه كان معانداً لآيات المنعم ، آيات القرآن التي نزل بها الوحي على لسان رسوله - ﷺ - ومن ثم قال فيها ما قال ومعاندة الحق جديرة بزوال النعم .

روى أن النبي - ﷺ - قام في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب . شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ فلما فطن النبي - ﷺ - إلى استماعه أعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلو عليه ، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبا والله الوليد ولتصبون قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً فقال الوليد : ما لي أراك حزيناً يا ابن أخي ؟

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١١٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

فقال : وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنت تدخل على ابن أبي كبشه وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم اتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ قالوا اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر وما يقوله سحر بأثره عن مسليمة وأهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين منه ، فنزلت هذه الآيات

أحكام إلهية عادلة

قال تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ
كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٧﴾
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ
لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٢٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٣٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ
فَلَبَّاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ
إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تُرْهَقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا
يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثُ
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٣٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ
أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٣٧﴾ فَأَصْبِرْ

لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْتَنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

معاني المفردات

- ﴿ تدرسون ﴾ أى : تقرأون .
- ﴿ تخيرون ﴾ أى : تختارون
- ﴿ أيمان ﴾ عهود .
- ﴿ بالغة ﴾ أى : متناهية فى التوكيد موثقة
- ﴿ أيهم بذلك زعيم ﴾ أى : أيهم بذلك الحكم وأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها
- ﴿ فذرني ﴾ بقول ذرني وإياه : أى : كَلُهُ إِلَىٰ فَإِنِ أَكْفَيْكَه .
- ﴿ سنستدرجهم ﴾ يقال : أستدرجه إلى كذا : إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه .
- ﴿ وأملى لهم ﴾ أى : أمهلهم وأطيل لهم المدة
- ﴿ المغرم ﴾ المغرم : الغرامة المالية
- ﴿ مثقلون ﴾ أى : مكلفون أحمالاً ثقالاً فهم بسببها يعرضون عنك .
- ﴿ الغيب ﴾ هو ما كتب فى اللوح المحفوظ واستأثر الله بعلمه .
- ﴿ يكتبون ﴾ أى : يحكمون على الله بما شاءوا .
- ﴿ حكم ربك ﴾ هو إمامهم وتأخير نصرتك عليهم
- ﴿ صاحب الحوت ﴾ هو سيدنا يونس عليه السلام .
- ﴿ مكظوم ﴾ أى : مملوء غيظاً
- ﴿ فاجتبه ﴾ أى : اصطفاه
- ﴿ يزلقونك ﴾ أى : يزلون قدمك ، يقولون : نظر إلى نظرة كاد يصرعنى
- ﴿ والذكر ﴾ القرآن الكريم
- ﴿ ذكر ﴾ أى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه - حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوه وخالفوا أمره ، أعقب هذا ببيان أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم التى لا تبید ولا تغنى فى الدار الآخرة ، ثم رد على من قال من الكفار : إن الله فضلنا عليكم فى الدنيا فلا بد أن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ، فرد الله عليهم ما قالوا وأكد فوز المتقين ، ثم خوف الكفار من هول يوم القيامة وخوفهم مما فى قدرته من القهر فقال لرسوله : خلّ بينى وبين من يكذب بهذا القرآن ، إنا سندنيهم من العذاب درجة فدرجة ، ونورطهم فيه بما نوليهم من النعيم ، ونرزقهم من الصحة والعافية ، فتزداد معاطيهم من حيث لا يشعرون .

ثم قال لرسوله : ماذا ينقمون منك ؟ أنت تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ؟ أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون منه ما يحكمون به ؟ كلا لا هذا ولا ذاك ، إذا فالقوم معاندون ، فلم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك

ثم نهى رسوله أن يكون كيونس - عليه السلام - حين غضب على قومه ففارقهم ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ثم أخبر رسوله بأن الكافرين يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة ويقولون : إنه لمجنون تنفيراً منه ومن دعوته ، وما القرآن إلا ذكر للعالمين .

التفسير

قوله تعالى ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون . أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه ما تخيرون . أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون . سلهم أيهم بذلك زعيم . أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

لما ذكر سبحانه وتعالى - حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا ربهم ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم ، التى لا تبید ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها . ثم قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ ؟ أى : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ؟ أى : كيف تظنون ذلك قال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ ^(١)

ثم قال تعالى : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تحيرون ﴾ يقول تعالى : أفبايديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمناً حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ وقوله تعالى : ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ثم قال تعالى : ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتكفل بهذا ؟ ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

وقصارى هذا الحجاج - نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، فنبه أولاً إلى نفى الدليل العقلى بقوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ثم إلى نفى الدليل النقلى بقوله : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ ثم إلى نفى الوعد بذلك - ووعد الكريم دين عليه - بقوله : ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ ثم إلى نفى التقليد الذى هو أوهن من حبال القمر بقوله : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ . قوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

قال البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت النبى - ﷺ - يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » (١)

وقوله تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة إذا تجلى الرب - عز وجل - فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه عكس السجود كما كانوا فى الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ .

هذا تهديد شديد لهم أى : دعنى وإياه منى ومنه وأنا أعلم به كيف أستدرجه وأمدته فى غيه وأنظره ، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أى : وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو فى نفس الأمر إهانة كما قال تعالى : ﴿ أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ (٢) وكما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ؟ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ (٣) ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وأملى لهم إن كيدى

(١) انظر صحيح البخارى ج ٦ ص ١٩٨ تفسير صورة (ن والقلم) فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(٢) المؤمنون الآيتان : ٥٥ - ٥٦ .

(٣) الأنعام آيتان : ٤٤ - ٤٥ .

متين ﴿ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدى ومكرى بهم ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كيدى متين ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى وكذب رسلى وأجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال : « إن الله - تعالى - ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »^(١) ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ . أى : أتسأل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله على ما آتيتهم من النصيحة والدعوة إلى الحق أجراً دنيوياً ؟ فهم من غرم ذلك الأجر مثقلون بأدائه ، فتحاموا لذلك قبول النصيحة والمعنى أن أمرهم العجيب فإنك لتدعوهم إلى الله بلا أجر نأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك من ربك ، وهم مع ذلك يكذبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وعناداً . ﴿ أم عندهم الغيب . فهم يكتبون ﴾ أى : عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائن ، فهم يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم .

ولما بالغ فى تزييف طريق الكافرين ، وزجرهم عما هم عليه ، أمر رسوله بالصبر على أذاهم فقال تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أى : فاصبر يا محمد على قومك فإن الله - سبحانه - سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ يعنى ذا النون وهو يونس - عليه السلام - حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشروء الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلل القدير ، الذى لا يرد ما أنفذه من التقدير فحينئذ نادى فى الظلمات : ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾^(٤) وقال ههنا : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ قال ابن عباس وهو مغموم وقال عطاء الخراسانى مكروب .

وقوله تعالى : ﴿ فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ وقد قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله قال :

(١) البخارى : ج-٦ ص ٩٣ ، ٩٤ تفسير سورة « هود » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى موسى .

(٢) هود الآية : ١٠٢ .

(٣) طه الآية : ١٣٠ .

(٤) الأنبياء الآيتان : ٨٧ - ٨٨ .

قال رسول الله - ﷺ - « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »^(١) وهذا الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿ ليزلقونك ﴾ لينقذونك ﴿ بأبصارهم ﴾ أى : يعيرونك بأبصارهم يعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحايته إياك منهم .

• قال ابن كثير وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابيتها وتأثيرها حق بأمر الله - عز وجل - كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق كثيرة متعددة قال مسلم فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا »^(٢) وقال ابن ماجه بسنده عن أبى أمامة أن سعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل من حنيف وهو يغتسل فقال لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة فما لبث أن لبط به فأق به رسوله الله - ﷺ - فقبل له أدرك سهلاً صريعاً قال : « من تتهمون به » قالوا : عامر بن ربيعة قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ » إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة » ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلته إزاره وأمره أن يصب عليه^(٣) وقد رواه النسائي ومالك ابن انس كلاهما عن الزهرى به .

وقال الإمام أحمد عن أبى سعيد أو جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - اشتكى فأتاه جبريل فقال : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك من حسد كل حاسد وعين بسم الله يشفيك »^(٤)

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بالسنتهم ويقولون : إنه لمجنون أى : لمجيئه بالقرآن قال الله تعالى : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : يقولون ما قالوا : وما هو إلا تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، أفىكون من أنزل عليه مثل هذا وهو مطلع على أسرارهم ، محيط بجميع حقائقه خيراً ، ممن ينطبق عليه مثل هذا الوصف الذى قالوه ، أم يكون مثل هذا من أدل الدلائل على كمال الفضل والعقل ؟

والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إله وصحبه وسلم - .

(١) سند الامام أحمد ج ١ ص ٢٤٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم ج ٤ ص ١٧١٩ باب الطب والمرض والرقى فى حديث رقم ٢١٨٨ / ٤٢ من رواية لابن عباس .

(٣) ابن ماجه ج ٢ ص ١١٦٠ باب العين حديث رقم ٣٥٠٩ فقد أورد الحديث من رواية لأبى أمامة ابن سهل بن ضيف .

(٤) مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٣٢٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبادة وهى إحدى رواياته .

تفسير سورة الحاقة

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون ، وكلماتها : مائتان وخمس وخمسون ، وحروفها : ألف وأربعمائة وثمانون .

مجموع فواصل آياتها (نم له) على اللام منها آية واحدة (بعض الأقاويل) ولها اسمان : سورة الحاقة ، لمفتتحها ، وسورة السلسلة ، لقوله تعالى : ﴿ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الإخبار عن صعوبة القيامة ، والإشارة بإهلاك القرون الماضية ، وذكر نفخة الصور ، وانشقاق السموات ، وحال السعداء والأشقياء وفق قراءة الكتب وذل الكفار مقهورين في أيدي الزبانية ، ووصف الكفار القرآن بأنه للكفار كهانة وشعر ، وبيان أن القرآن تذكرة للمؤمن وحسرة للكافر ، والأمر بتسبيح الركوع في قوله تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ بالفاء ، وبعده (وأما) بالواو ، لأنه الأول متصل بأحوال القيامة وأهوالها فاقضى الفاء للتعقيب ، والثاني متصل بالأول ، فأدخل الواو ، لأنه للجمع .

قوله : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ خص ذكر الشعر بقوله : ﴿ ما تؤمنون ﴾ لأن من قال القرآن شعر ، ومحمد - ﷺ - شاعر - بعدما علم اختلاف آيات القرآن في الطول والقصر ، واختلاف حروف مقاطعه فلكفره وقلة إيمانه ، فإن الشعر كلام موزون مقفى وخص ذكر الكهانة بقول : ﴿ ما تذكرون ﴾ لأن من ذهب إلى أن القرآن كهانة ، وأن محمداً - ﷺ - كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهان ، فإنه أسجاع لا معاني تحتها ، وأوضاع تنبو الطباع عنها ولا يكون في كلامهم ذكر الله تعالى .

مناسبة السورة لما قبلها :

- ١ - أنه وقع في ن ذكر يوم القيامة مجملًا ، وهنا فصل نبأه وذكر شأنه العظيم .
- ٢ - إنه ذكر فيما قبلها من كذب بالقرآن وما توعد به ، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل وما جرى عليهم ، ليزدجر المكذبون المعاصرون له - ﷺ - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أُدْرِكُ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
 وَعَادُ بِالقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا
 بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا
 فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ
 مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿٩﴾
 فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَّابِيَةٍ ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ
 حَمَلْنَاكُم فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَعَيْنٌ ﴿١٢﴾

معاني المفردات

﴿الحاقة﴾ من حق الشيء ، إذا ثبت ووجب : أى : الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجىء ، وهى يوم القيامة .

﴿ما الحاقة﴾ أى : أى شىء هى ؟ تفخياً لشأنها ، وتعظيماً لهولها .

﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أى : أى شىء أعلمك ما هى ؟ فلا علم لك بحقيقتها إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين

﴿بالقارعة﴾ هى الحاقة التى تقرر قلوب الناس بالمخافة والأهوال

﴿بالطاغية﴾ هى الواقعة التى جاوزت الحد فى الشدة والقوة والمراد بها الصاعقة .

﴿صرصر﴾ الصرصر : الشديد الصوت التى لها صرصرة .

﴿عاتية﴾ أى : بالغة منتهى القوة والشدة

﴿سخرها عليهم﴾ أى : سلطها عليهم

﴿حسوماً﴾ أى : متتابعة وأحدها حاسم .

﴿صرعى﴾ واحدهم صريع أى : ميت .

- ﴿ أعجاز ﴾ واحدها عجز ، وهو الأصل .
 ﴿ خاوية ﴾ أى : خالية الأجواف لا شئ فيها .
 ﴿ باقية ﴾ والباقية : البقاء .
 ﴿ المؤتفكات ﴾ أى : المنقلبات وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة .
 ﴿ الخاطئة ﴾ الخطأ .
 ﴿ رابية ﴾ من ربا الشئ إذا زاد أى : الزائدة فى الشدة .
 ﴿ طغى الماء ﴾ تجاوز حده وارتفع .
 ﴿ حملناكم ﴾ أى : حملنا آباءكم وانتم فى أصلابهم .
 ﴿ الجارية ﴾ السفينة التى تجرى فى الماء .
 ﴿ تعيها ﴾ أى : تحفظها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ .

الحاقة من أسماء يوم القيامة ، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ولهذا عظم الله أمرها فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ ثم ذكر - تعالى - إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال - تعالى - : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ ذكر - سبحانه - من كذب بالقيامة ، والقارعة القيامة ، سميت بذلك لأنها تقررع الناس بأهوالها وثمرود قوم صالح ، وكانت منازلهم بالحجر بين الشام والحجاز قال محمد بن إسحاق : وهو وادى القرى ، وكانوا عرباً .

(وأما عاد فقوم هود ، وكانت منازلهم بالأحقاف . والأحقاف : الرمل بين عمان إلى حضرموت واليمن كله ، وكانوا عرباً ذوى خلق وبسطة .

وقوله تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهى الصيحة التى أسكتهم ، والزلزلة التى أبادتهم كما قال - تعالى - : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ أى : بريح باردة تحرق بيردها كإحراق النار ، مأخوذ من الصر وهو البرد وقيل : إنها الشديدة الصوت وقال مجاهد : الشديده السموم وقوله : ﴿ عاتية ﴾ أى : عتت على خزانها فلم تطعمهم ، ولم يطيقوها من شدة هبوبها غضبت لغضب الجبار .

قوله - تعالى : ﴿ سخرها عليهم ﴾ أى : أرسلها وسلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أى : متتابعة لا تفتر ولا تنقطع وقوله : ﴿ فترى القوم فيها ﴾ أى : فى تلك الليالى والأيام ﴿ صرعى ﴾ جمع سريع ، يعنى موتى ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أى : كأنهم أصول نخل بالية كما قال - تعالى : ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ قوله تعالى ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أى : هل تحس من أحد من بقاياهم أو مما ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً كما قال - تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾^(١)

قوله تعالى ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ . أى : وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التى كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود والقرى التى أتتفتك بأهلها ، وصار عاليها سافلها بسبب خطيئتها ومعصيتها .

ثم بين هذه الخطيئة بقوله تعالى : ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ أى : فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفار ، كما زادت قبائحهم على قبائح غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - طغا الماء كثر وذلك بسبب دعوته نوح - عليه السلام - على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته ﴿ والجارية ﴾ هى السفينة الجارية والمحمول فى الجارية نوح وأولاده ، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك .

وقوله : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ يعنى سفينة نوح - عليه السلام - جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم .

وقيل لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم كما فى قوله - تعالى - فى ختام « قصة » نوح فى سورة هود ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾^(٢)

ولهذا قال سبحانه ههنا ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أى : تحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله .

قال قتادة : الأذن الواعية أذن عقلت عن الله - تعالى - وانتفعت بما سمعت من كتاب الله - عز وجل - كقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾^(٣)

(١) سورة مريم آية : ٩٨ .

(٢) سورة هود آية : ٤٩ .

(٣) سورة ق آية : ٣٧ .

مقدمات القيامة ومشاهدها

قال - تعالى :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً
وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
وَاهِبَةٌ ۖ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ۖ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ ۖ
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۖ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ رَبِّمِينِهِ ۖ فَيَقُولُ
هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۖ كُلُوا وَامْرَءُونَ مِمَّا اسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ۖ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ۖ فَيَقُولُ يَلْبِثُنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ۖ
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ۖ يَلْبِثُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ۖ
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۖ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۖ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَى
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۖ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۖ
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۖ

معاني المفردات

- ﴿ نفخة واحدة ﴾ : هي النفخة الأولى .
- ﴿ حملت الأرض والجبال ﴾ : أى : رفعت من أماكنها
- ﴿ فدكتنا دكة واحدة ﴾ : أى : ضرب بعضها ببعض حتى أندفعت وصارت كشيء مهيل .
- ﴿ الواقعة ﴾ : النازلة وهي يوم القيامة
- ﴿ انشقت السماء ﴾ : أى : فتحت أبوابها
- ﴿ واهية ﴾ : أى : مسترخية ضعيفة القوة
- ﴿ أرجائها ﴾ : أى : جوانبها
- ﴿ ثمانية ﴾ : أى : ثمانية أشخاص
- ﴿ خافية ﴾ : أى : سريرة .
- ﴿ هاؤم ﴾ : أى : خذوه
- ﴿ ظننت ﴾ : أى : علمت
- ﴿ ملاق ﴾ : أى : معاين
- ﴿ راضية ﴾ : أى : يرضى بها صاحبها
- ﴿ عالية ﴾ : أى : مرتفعة المكان
- ﴿ والقطوف ﴾ : ما يجتنى من التمر واحدا قطع (بكسر القاف وسكون الطاء) .
- ﴿ دانية ﴾ : أى : قريبة
- ﴿ هنيئاً ﴾ : أى : بلا تنغيص ولا كدر .
- ﴿ أسلفتم ﴾ : أى : قدمتم
- ﴿ الخالية ﴾ : الماضية .
- ﴿ القاضية ﴾ : أى : القاطعة للحياة فلم أبعث بعدها .
- ﴿ هلك ﴾ : بطل .
- ﴿ سلطانية ﴾ : طجتى أو تسلطى وقوى .
- ﴿ فغلوه ﴾ : أجعلوا الغل فى يديه وعنقه .
- ﴿ الجحيم صلوه ﴾ : أدخلوه أو أحرقوه فيها .
- ﴿ فاسلكوه ﴾ : فادخلوه فيها .

- ﴿ لا يخفى ﴾ لا يحث ولا يحرض .
 ﴿ حميم ﴾ أى : قريب مشفق يحميه من العذاب .
 ﴿ غسيلن ﴾ صديد أهل النار .
 ﴿ الخاطئون ﴾ الكافرون .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن قصّ - سبحانه - قصص الهالكين ، ونبه بها على ثبوت القدرة والحكمة وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة - شرع يذكر تفاصيل أحوال اليوم وما يكون فيه من أهوال ، ثم بعد ذلك فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

التفسير

قوله - تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخبراً عن أهوال يوم القيامة - وأول ذلك نفخة الفزع ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهى هذه النفخة ، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد .

وقوله - تعالى - ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ أى : بسطتا بسطة واحدة . ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره ، كقوله - تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾^(١)

وقوله ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أى : قامت القيامة كما قال - تعالى - ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجاً . وبست الجبال بساً . فكانت هباء منبثاً ﴾^(٢)

(١) سورة إبراهيم آية : ٤٨ .

(٢) سورة الواقعة الآيات : ١ - ٦ .

قوله - تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ أى : انصدعت وتفطرت كما قال - سبحانه - ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وقيل : تنشق لنزول ما فيها من الملائكة ودليله قوله - تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾^(١)

وقوله - تعالى : ﴿ فهي يومئذ واهية ﴾ أى : ضعيفة قال القرطبي : قيل إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوهي : ويكون ذلك لنزول الملائكة وقيل : الهول يوم القيامة قال - تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ الملك يعنى الملائكة ، اسم للجنس . ومعنى على أرجائها أى : على اطرافها حين تنشق لأن السماء مكانهم .

وقوله - تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك . وعن الحسن . الله أعلم كم هم . ثمانية أم ثمانية آلاف .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - « أذن لى أن أحدثكم عن ملك حملة العرش بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » قال ابن كثير وهذا اسناد جيد رجاله كلهم ثقات ورواه أبو داود بلفظ « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله - تعالى - من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عنقه مسيرة سبعمائة عام .

وقوله - تعالى : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ، كما قال - تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾^(٢) قال القرطبي : وليس ذلك عرضاً يعلم به مالم يكن عالماً به ، بل معناه الحساب وتقدير الأعمال عليهم للمجازاة .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي موسى قال : قال رسول الله - ﷺ - « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجداً ومعادير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ بيمينه وأخذ بشماله » .

وقال ابن أبي الدنيا بسنده عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإنه أحق عليكم في الحساب غداً ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٢٥ - ٢٦ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ٤٨ .

ونحو الآية قوله - تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) وكقوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٢)

قوله - تعالى - ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابية . إني ظننت أنى ملاق حسابية . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ أى : خذوا اقرءوا كتابية ، لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات .

وفى الصحيح عن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول « يدنى الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله - تعالى - إني سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » (٣)

وقوله - تعالى - ﴿ إني ظننت أنى ملاق حسابية ﴾ أى : قد كنت موقناً فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال - تعالى - ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ .

قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل .

وقوله - تعالى - ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ أى : مرضية كما قال - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبدلون عنها حولا ﴾ (٤)

وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - « إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ، ويصحون فلا يمرضون أبداً ، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ، ويشبون فلا يهرمون أبداً » (٥) .

وقوله - تعالى : ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها نعيمة دورها ، دائم حبورها ، وقد ثبت فى الصحيح « أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » (٦) . وقوله تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ أى : قرية يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره .

(١) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .

(٢) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ - ٨ .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل - حديث ٢٧٦٨/٥٢ من رواية لابن عمر .

(٤) سورة الكهف الآيتان : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٥) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فى دوام نعيم أهل الجنة فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة برقم

٢٨٣٧/٢٢ .

(٦) البخارى ج ٤ ص ١٩ كتب فضل الجهاد باب درجات المجاهدين فى سبيل الله فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وقوله - تعالى - ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أى : يقال لهم ذلك تفضيلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً ﴿ هنيئاً ﴾ لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ بما أسلفتم ﴾ قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ في الأيام الخالية ﴾ أى : في الدنيا كما قال - تعالى - ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ (١)

قوله - تعالى - : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانية . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه في العرصات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فيقول ياليتنى لم أوت كتابه ﴾ أى : فيقول إذا رأى قبائح أعماله : ياليتنى لم أعط كتابي . قال المفسرون : وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذ أنه لم يعط كتاب أعماله قال - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾ أى : ولم أعلم أى شيء حسابي الذى أحاسب به ، إذ كله وبال ونكال .

وقوله : ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾ أى : ليت الموتة التى متها في الدنيا كانت نهاية الحياة ، لم أبعث بعدها ولم ألق ما أنا فيه من نكال وسوء منقلب كقوله - تعالى - : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً ﴾ (٣)

وقوله - تعالى - : ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ أى : لم يدفع عني مالى الذى كنت أملكه في الدنيا من عذاب الله ولا من بأسه شيئاً كما في قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ (٤)

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة الكهف : ٤٩ .

(٣) سورة النبا من الآية : ٤٠ .

(٤) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ - ٣٧ .

وقوله ﴿ هلك عنى سلطانية ﴾ قال ابن زيد : يعنى سلطانية فى الدنيا الذى هو الملك . أى : ذهب ملكى وتسلى على الناس وبقيت فقيرا ذليلا .

ثم ذكر سبحانه سوء منقلبه فقال :

﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه ﴾ أى : فىقال لربانية جهنم خذوه فضعوا الغل فى عنقه ، ثم أدخلوه فى النار الموقدة لقاء كفره بالله واقترافه عظيم الآثام .

﴿ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ أى : ثم أدخلوه فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلف على جميع جسمه حتى لا يستطيع تحركاً ولا انقلاباً .

قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذرة جبل لذاب كما يذوب الرصاص .

وقوله ﴿ فاسلكوه ﴾ قال سفيان : بلغنا أنها تدخل عنقه فيها ثم يُجر فيها .

ونحو الآيات قوله - تعالى - : ﴿ إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ (١) .

ثم بين سبحانه سبب استحقاق هذا العذاب فقال :

﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ أى : افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله فى الدنيا وإشراكه به سواه ، وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أى : ولا يحث الناس على إطعام أهل المسكن والحاجة ، فضلا عن بذل المال لهم .

وقوله : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾ أى : فليس له يوم القيامة من ينقذه من عذاب الله - تعالى - كما جاء فى سورة أخرى ﴿ فككبوا فيها هم والغاؤون وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أى : وليس له طعام إلا ما يسيل من لحوم أهل النار من الدم والصيد الذى لا يأكله إلا من مرن على اجتراح السيئات ودسى نفسه وأحاطت به الخطايا .

(١) سورة غافر الآيتان : ٧١ - ٧٢ .

(٢) سورة الشعراء الآيات : ٩٤ - ١٠١ .

قسم صادق

قال - تعالى - :

فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

معاني المفردات

- ﴿ ما تبصرون ﴾ : هي المشاهدات ، ﴿ وما لا تبصرون ﴾ : هي المغيبات .
- ﴿ تقول ﴾ : القول : الافتراء ، وسمى بذلك لأنه قول متكلف ، والأقاويل : الأقوال المفتراه واحدها قول على غير قياس .
- ﴿ لأخذنا منه ﴾ أي : لأمسكناه ، ﴿ باليمين ﴾ أي : بيمينه .
- ﴿ الوتين ﴾ عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس .
- ﴿ حاجزين ﴾ أي : مانعين .
- ﴿ حق اليقين ﴾ أي : عين اليقين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الدليل - سبحانه - على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء - أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول المنزل عليه هذا القرآن ، وأكد هذا بأن محمدا لا يستطيع أن يفتعله ، إذ لو فعل ذلك لأبطلنا حجته ، وأمتنا دعوته ، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب .

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقى الله ويخشى عقابه ، وإنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين ، وإنه لحق لا ريب فيه . ثم أمر رسوله بأن يقدر ربه العظيم ويشكره على ما آتاه من النعيم ، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ قال قتادة المعنى : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .
 ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ أى : إن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد - ﷺ - .

﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ لأن محمداً لا يحسن قول الشعر ﴿ قليلاً ما يؤمنون ﴾ أى : تؤمنون بذلك القرآن إيماناً قليلاً ، والمراد أنهم لا يؤمنون أصلاً ، فالعرب تقول : قلما يأتينا ، يريدون أنه لا يأتينا . وقد يكون المراد بالقلّة أنهم قد يؤمنون في قلوبهم ثم يرجعون عنه سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولا بقول كاهن قليل ما تذكرون ﴾ أى : وليس بقول كاهن كما تزعمون لأنه سب الشياطين وشتمهم ، فلا يمكن أن يكون بإلهامهم ولكنكم لما لم تستطيعوا فهم أسرار نظمه - قلت : أنه من كلام الكهان .

ثم أكد ما تقدم بقوله :

﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أى : بل هو تنزيل من رب العالمين نزل به الروح الأمين على رسوله - ﷺ - .

قال العلامة ابن القيم عن هذه الآيات المباركات : هذا أعم قسم وقع في القرآن ، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والانس والعرش والكرسى ، وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو - سبحانه - يصرف الأقسام كما يصرف الآيات : ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولا مجنون ولا كاهن .

ومن تأمل المخلوقات ، ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجارى الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت ، كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق . كما قال تعالى : ﴿ فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ (١) أى : إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق ، كما في الحديث « أنه لحق مثل ما أنك ههنا » فكأنه سبحانه يقول : إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهدونه من أحواله ظاهراً وباطناً ، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ، وما لم يباشر قبله ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الايمان قلبه .

ثم ذكر - سبحانه - المقسم عليه فقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ وهذا رسوله البشرى محمد - ﷺ - . وفى إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل . فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم

بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولا ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكى فى سورة التكوير .

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم فى نسبة كلامه - تعالى إلى غيره ، وأنه لم يتكلم به ، بل قاله من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال : ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر وسيصله الله سقر .

ثم أخبر - سبحانه - أنه تنزيل من رب العالمين وذلك يتضمن أموراً : ﴿ أحدها ﴾ أنه تعالى فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده . ﴿ والثانى ﴾ أنه تكلم به حقيقة لقوله ﴿ من رب العالمين ﴾ ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير . ونظيره قوله تعالى ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ . ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ . ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وتأمل كيف أضافه - سبحانه - إلى رسول بلفظ القول ، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام فى قوله ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله ، فيقول قلت : كذا وكذا . والمرسل يقول للرسول : قل لهم : كذا وكذا كما قال تعالى : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ ونظائره . فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال : قال الرسول كذا وهذا قول الرسول أى : قاله مبلغاً - وهذا قوله مبلغاً عن مرسله ، ولا يجىء فى شىء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أنه بكلام رسول كريم ، ولا فى موضع واحد ، بل قيل للصديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال ليس بكلامى ولا كلام صاحبى . هذا كلام الله .

(الأمر الثالث) ما تضمنه قوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أنه ربوبيته الكاملة لخلقهم تأبى أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ولا ينههم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، وعذرهم ما يضرهم . بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة . فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلى ما لا يليق به - تعالى - : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

البرهان القاطع على صدق الرسول محمد - ﷺ -

قوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ .

يقول ابن القيم : ثم أقام - سبحانه - البرهان القاطع على صدق رسوله . وأنه لم يتقول عليه فيما قاله : وأنه لو تقول عليه لما أقره ، ولعاجله بالاهلاك ، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه ، وافترى عليه وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم ، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب ، وخالف الخلق فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك ؟ بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق : بسفك دماهم ،

ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلاً : إن الله أمرني : بذلك وأباحه لي ؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ، فيصدقه بإقراره ، وبآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها ، فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه الذي هو شر الخلق على الإطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من غفل ، وحكمة ، وحجى ، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله .

وقوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ يقول سبحانه : لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه إليه لما أقررناه ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه .

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة . فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره ، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه .

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ والوتين : نياط القلب ، وهو عرق يجرى في الظهر حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه ثم قال - سبحانه - : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أى : لا يحجزه منى أحد ولا يمنعه منى .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ﴾ (١) .

وفى معنى هذه الآية للناس قولان : أحدهما قول مجاهد ومقاتل : إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يشق عليك . والثاني قول قتادة : إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي . وهذا القول دون الأول لوجوه .

(أحدها) أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم : إن محمداً كذب على الله وافتري عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن جواب ، وهو أن الله تعالى - قادر لا يعجزه شيء ، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتى بشيء منه ، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه ، فيعود المعنى إلى أنه لو افتري على لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه ، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين ، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله

فالبيان التام ، والجزالة ، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه ، فلولا أن أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه . فأين هذا المعنى إلى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ، وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

(الوجه الثانى) أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل ، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرد صدق المخبر .

(الثالث) أن الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هذا فى عرف المخاطب ولا لغة العرب ، ولا هو المعهود فى القرآن بل المعهود استعمال الختم على القلب فى شأن الكفار فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ ونظائره ، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر كقوله : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ والانسان يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبى ، ولا يحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبى .

(الرابع) أنه - سبحانه - حيث يحكى أقوالهم (أنه افتراه) لا يجيبهم عليه هذا الجواب ، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً ، بل كان يأخذه ولا يقدرّون على تخليصه .

(الخامس) أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه وتفسير القرآن من أبلغ التفاسير .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ .

أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقى ، فيصير ما ينفعه فيأتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به أسماء الرب وصفاته وأفعاله فيؤمن ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيّه ، وآياته فى أوليائه وأعدائه ونفسه ، وما يزكيها ويظهرها ويعليها ، وما يفسدها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلمين .

ثم قال - سبحانه - ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أى : لا يخفون علينا فسنجازيهم بتكذيبهم .

قوله - تعالى - ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ، حين لا ينفعهم التحسر . وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعان فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة كما قال - تعالى - : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان

خذولاً ﴿١﴾ وكقوله ﴿٢﴾ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين . أى : الحق اليقين وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول ، وبالله التوفيق :

ذكر الله - سبحانه - فى كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة :

حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال - تعالى - : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾ فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علمه وهو التصديق التام به ، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة فقدح فى تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلاً ، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، وتيقنهم صدق المخبر .

(المرتبة الثانية) عين اليقين وهى مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ وبين هذه المرتبة والى قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع . وعين اليقين للبصر ، وفى المسند للإمام أحمد مرفوعاً « ليس الخبر كالمعاينة » وهذه المرتبة هى التى سأها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيى الموقى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين . فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه .

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين ، وهى مباشرة الشىء بالاحساس به . كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم فى الدنيا فى مرتبة علم اليقين ، وفى الموقف حين تزلف ونقرب منهم حتى يعاينوها فى مرتبة عين اليقين ، وإذا أدخلوها وباشروا نعيمها فى مرتبة حق اليقين . ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ فإن القلب يياشر الايمان به ويخالطه كما يياشر بالحواس ما يتعلق بها ، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين ، وهذا أعلى مراتب الايمان وهى الصديقين التى تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

ثم ختم السورة الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ وهى جديرة بهذه الخاتمة ، لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله . وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده فى الدنيا والآخرة ، وذكر عظمته - تعالى - فى ارسال رسوله ، وإنزال كتابه ، وأنه - تعالى - أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه ، مفترى عليه ، يبدل دينه ، وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له ، وهو - سبحانه - مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ، ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ، ويعلى ذكره ، فهو سبحانه العظيم الذى تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أقى بأقبح الكذب والظلم فسبحان ربنا العظيم ، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيراً .

سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، أهل الشاء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد .

(١) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٥٦ .

تفسير سورة المعارج

مقدمة :

يقول صاحب البصائر : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي

السورة : مكية .

آياتها : أربع وأربعون آية .

كلماتها : مائتان وثلاث عشرة .

وحروفها : سبعمائة وسبع وخمسون .

فواصل آياتها : (جعلناهم) .

أسماء السور :

للسورة ثلاثة أسماء : الأول سأل ، لمفتتحها . والثاني الواقع ، لقوله (بعذاب واقع) الثالث (ذي

المعارج) .

مقصود السورة :

بيان جرأة الكافر في استعجال العذاب ، وطول القيامة وهولها ، وشغل الخلائق في ذلك اليوم المهيب ، واختلاف حال الناس في الخير والشر ومحافضة المؤمنين على خصال الخير ، وطمع الكفار في غير مطمع ، وذل الكافرين في يوم القيامة في قوله ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ إلا المصلين ﴾ عد عقيب ذكرهم الخصال المذكورة أول سورة المؤمنين ، وزاد فيها ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ لأنه وقع عقيب قوله ﴿ لأمانتهم وعهدهم راعون ﴾ وإقامة الشهادة أمانة ، يؤديها إذا احتاج إليها صاحبها ، لأحياء حق ، فهي إذا من جملة الأمانة وقد ذكرت الأمانة في سورة المؤمنين ، وخصت هذه السورة بزيادة بيانها ، كما خصت بإعادة ذكر الصلاة حيث قال ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ بعد قوله ﴿ إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ .

مناسبتها لما قبلها : السورة نزلت بعد سورة الحاقة ، وهي كالتممة لها في وصف القيامة وعذاب

الزار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَاجِرِ ﴿١١﴾ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ ﴿١٢﴾ وَصَاحِبَتَهُ وَأَخِيهِ ﴿١٣﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٤﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى ﴿١٦﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ﴿١٧﴾ تَدْعُو مَنْ أَذْبَرَ تَوْلَى ﴿١٨﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٩﴾

معاني المفردات

﴿سأل سائل﴾ : دعا داع .

﴿ليس له دافع﴾ : أى : أنه واقع لا محالة .

﴿المعارج﴾ : واحدها معرج ، وهو المصعد . (بكسر الميم) .

﴿والروح﴾ : هو جبريل - عليه السلام - أمين الوحي .

﴿كالمهل﴾ : المهل : وردى الزيت وهو ما يكون فى قعر الاناء منه .

﴿كالعهن﴾ : العهن : الصوف المصبوغ ألواناً .

﴿حميم﴾ : الحميم : القريب .

﴿يبصرونهم﴾ : أى : يبصر الأحقاد الأحماء ويرونهم .

﴿يود﴾ : أى : يتمنى ، ﴿المجرم﴾ : المذنب ، ﴿وصاحبته﴾ : زوجته ، ﴿وفصيلته﴾ : هى عشيرته ،

﴿تؤويه﴾ : أى تضمه ويأوى إليها ﴿كلا﴾ : هى كلمة تفيد الزجر عما يطلب ، ﴿لظى﴾ : هى النار

﴿لشوى﴾ : الشوى واحدها شواه ، وهى جلدة الرأس تنتزعها النار انتزاعاً فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت

عليه ، ﴿تدعو﴾ : أى : تجذب وتحضر ، ﴿تولى﴾ : أى : أعرض عن الطاعة ، ﴿جمع فأوعى﴾ : أى :

جمع المال فجعله فى وعاء .

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ قال ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم كقوله تعالى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ واقع . للكافرين ﴾ أى : مرصد معد للكافرين .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليس له دافع ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ولهذا قال تعالى : ﴿ من الله ذى المعارج ﴾ قال ابن عباس : ذو الدرجات وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ذى المعارج يعنى العلو والفواضل .

وقال مجاهد : ذى المعارج معارج السماء . وقالت قتادة : ذو الفواضل والنعم .

وقوله - تعالى - : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ قال عبد الرازق عن معمر عن قتادة تعرج تصعد والروح قيل : هو جبريل عليه السلام - وذكر من باب عطف الخاص على العام وقيل : ﴿ الروح ﴾ اسم جنس لأرواح بنى آدم فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله : ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسين ألف سنة . وقوله تعالى فى ﴿ ألم تنزل ﴾ فى ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ يعنى بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة . وقيل : هو يوم القيامة قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، ثم يدخلون النار للاستقرار . (رواه ابن أبى حاتم) .

قال القرطبى : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية - إن شاء الله ، بدليل ما رواه قاسم بن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقلت : ما أطول هذا ؟ فقال النبى - ﷺ - : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى

يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»^(١) . واستدل النحاس على صحة هذا القول بما زواه سُهَيْل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - أنه قال : « ما من رجل لم يؤد زكاة ماله إلا جعل شجاعاً من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى الله بين الناس »^(٢) .

قال : فهذا يدل على أنه يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ .

أى : اصبر يا محمد على أذى قومك . والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ، ولا شكوى لغير الله ، كقوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾^(٣) .

→ وقوله تعالى : ﴿ إنهم يرونه قريباً ﴾ يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيداً ، أى غير كائن . ﴿ ونراه قريباً ﴾ لأن ما هو آت فهو قريب .

قوله تعالى : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً ﴾ .

أى : إن العذاب واقع بالكافرين ، يوم تكون السماء كالمهل ، كأنها عكر الزيت . والمراد أنها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة كما قال تعالى : ﴿ فهى يومئذ واهية ﴾ .

وقوله : ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أى : وتكون الجبال هشة غير متلاحمة فكأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح . كقوله تعالى : ﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ أى : ولا يسأل قريب مشفق قريباً عن حاله ، ولا يكلمه لابتلاء كل منها بما يشغله كما قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾^(٥) وكقوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾^(٦) .

وقوله : ﴿ يبصرونهم ﴾ أى : يتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . قال القرطبي : وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والانس . فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه ، لاشتغالهم بأنفسهم . وقال ابن عباس : يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧٥ فقد أورد الحديث عن رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنزى ج ١ ص ٥٣٧ كتاب الزكاة باب الترهيب من منع الزكاة . . . الخ فقد أورد الحديث رقم ٢ من رواية للنسائي .

(٣) سورة الزمل الآية : ١٠ .

(٤) سورة القارعة الآيات : ١ - ٥ .

(٥) سورة المؤمنون آية : ١٠١ .

(٦) سورة عبس الآيات : ٢٤ - ٢٧ .

مجموع زكريا سعيد وكرهه من

وقيل : يبصر المظلوم ظالمه ، والمقتول قاتله .

وقوله تعالى : ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه ﴾ .

أى : يتمنى الكافر لو ينفع أعز الناس إليه فدية لينجيه من ذلك العذاب ، فيود لو كان أبناؤه ، أو زوجته ، أو أخوه ، أو عشيرته التي تضمه إليه ، أو أهل الأرض جميعا فداء له ليخلص من ذلك العذاب . هيهات .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، أو بأعز ما يجده من مال ولو بملء الأرض ذهبا ، أو بولده الذى كان حشاشة كبده فى الدنيا ، أو بزوجته وعشيرته . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾^(١) وكقوله : ﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى ﴾ أى : أنها النار الشديدة الحرارة التى تنزع جلدة الرأس وتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر أنهم فى الدنيا يعملون عملها ، من بين أهل المحشر فدرسوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم ، وتركوا العمل بجوارحهم ، وجمعوا المال بعضه على بعض وكنزوه ولم يؤدوا حق الله فيه ، وتشاغلوا به عن فرائضه من أوامر ونواه .

وقوله : ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ أى : تدعو لظى من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الايمان ودعاؤها أن تقول : إى يا مشرك إى يا كافر ، وقال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح : إى يا كافر ، إى يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب .

وقوله : ﴿ وجمع فأوعى ﴾ أى : جمع المال فجعله فى وعائه ومنع منه حق الله - تعالى - .

(١) سورة آل عمران آية : ٩١ .

(٢) سورة الرعد من الآية : ١٨ .

من طبائع النفس الانسانية
وذكر أصحاب الجنة

قال تعالى :

* إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ (١) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ (٢) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ (٣)
إِلَّا الْمُضِلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٥) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٦)
لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٧) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ
مُشْفِقُونَ (٩) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (١٠) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (١١)
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (١٢) فَمِمَّنْ أَبْتَغَىٰ وِرَاءَ ذَٰلِكَ
فُتَاوَلَّتْكَ هُمُ الْعَادُونَ (١٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (١٤) الَّذِينَ هُمْ
بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ (١٥) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (١٦) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ
مَّكْرُمُونَ (١٧)

معاني المفردات

﴿هلوعا﴾ الهلع : سرعة الحزن عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير . وسأل محمد
ابن طاهر ثعلبا عن الهلع فقال : قد فسرهُ الله ولا يكون تفسيراً أبين من تفسيره - سبحانه - يعني قوله :
(إذا مسه) الآية .

﴿جزوعا﴾ الجزع : حزن يصرف الانسان عما هو بصده ويقطعه عنه .

﴿الخير﴾ : المال والغنى .

- ﴿ حق معلوم ﴾ : نصيب معين يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله وإشفاقا على المحتاجين .
- ﴿ المحروم ﴾ : الفقير الذى لا يسأل الناس فيظن أنه غنى .
- ﴿ يصدقون بيوم الدين ﴾ : أى : يصدقون به تصديقا يكون له الأثر فى نفوسهم .
- ﴿ مشفقون ﴾ : أى : خائفون .
- ﴿ حافظون ﴾ : أى : كآفون لها عن الحرام .
- ﴿ راعون ﴾ : أى : لا يخلون بشيء من حقوقها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر - سبحانه - أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية ، والنعم الوفيرة التى يسبغها على عباده - أردف هذا بذكر المؤهلات التى توصل إلى تلك المراتب ، وتبعد عن ظلمة المادة التى تدخل النفوس فى النار الموقدة التى تنتزع الشوى ، وبين أنها عشر خصال تفكه من السلاسل التى تقيده بها غرائزه التى فطر عليها ، وعاداته التى ألفها وركن إليها وهى ترجع إلى شيئين : الحرص ، والجزع .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الانسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا ﴾ .

أى : أن الانسان جبل على الهلع ، فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فإذا اقتصر أو مرض أخذ فى الشكاة والجزع ، وإذا صار غنيا أو سليما معافى منع معرفه وشح بماله ، وما زال إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة ، وقد كان من الواجب أن يكون مشغولا بأحوال الآخرة . كقوله تعالى : ﴿ لا يسأم الانسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه . وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾^(١) .

وقد استثنى - سبحانه - من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية :

(١) سورة فصلت الآيات : ٤٩ - ٥١ .

﴿إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال النخعي : المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة المكتوبة . وقال ابن مسعود : يصلونها لوقتها ، فأما تركها فكفر وقوله : ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أى : على مواقيتها . وقال عتبة بن عامر : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا . والدائم الساكن كما وصفهم فى صدر سورة «المؤمنون» ﴿قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾ . وقال ابن جريج والحسن : هم الذين يكثرون فعل التطوع .

وقال القرطبي : مداومتهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يُخلُّون بها . ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل .

وقوله : ﴿والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم﴾ ، أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات وهو الزكاة ﴿للسائل والمحروم﴾ أى : للفقير الذى يسأل ويتكفف الناس ، والمحروم الذى يتعفف عن السؤال فيظن أنه غنى فيحرم ، كقوله تعالى : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ (١) .

وقوله : ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أى : يؤمنون بيوم الحساب والجزاء ، ويصدقون بمجيئه تصديقا جازما لا يشوبه شك أو ارتياب ، فيستعدون له بالأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أى : خائفون وجلون كما وصفهم الله - سبحانه وتعالى - بقوله : ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (٢) ووصفهم بقوله - سبحانه - : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا وما رزقناهم ينفقون﴾ (٣) .

وبقوله : ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ (٤) .

قوله - تعالى - : ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله - تبارك وتعالى - .

قوله تعالى : ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله - تبارك وتعالى - قال تعالى : ﴿الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أى : يقتصرون على ما أحل الله لهم من الزوجات المنكوحات ، والرقائق المملوكات .

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٧٣ .

(٢) سورة الزمر من الآية : ٩ .

(٣) سورة السجدة الآية : ١٦ .

(٤) سورة الفرقان الآيات : ٦٤ - ٦٦ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أى : فإنهم غير مؤاخذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات حلال يؤجر عليه الانسان ، لما فيه من تكثير النسل والذرية .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أى : فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات ، فقد تعدى حدود الله وعرض نفسه لعذاب الله .

قال الطبرى : من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه ، ففاعلوا ذلك هم العادون ، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم ، فهم الملومون .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى : يؤدون الأمانات ويحفظون العهود ، فإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد فى الحديث الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » . وفى رواية « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتُمونها كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (١) - الآية . وكما قال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ .. الآية (٢) . وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٣) .

فالمؤمن التقى يشهد بالحق على القريب والبعيد ، ولا يكتُم الشهادة ولا يغيرها بل يؤديها على وجهها الكامل ، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم وخص سبحانه الشهادة بالذكر مع إندراجها فى الأمانات ، تنبيهاً على فضلها وخطرها لأن فى إقامتها إحياء للحقوق ، وفى تركها تضييع للحقوق .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خلق الهلع المذموم ، أى : يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركات صورية لا يجنى العبد ثمرتها ، فإن فائدة الصلاة أن تكف عن المحارم كما قال تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤) وكما قال - سبحانه - ﴿ إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

(١) سورة النساء من الآية : ١٣٥ .

(٢) سورة المائدة من الآية : ٨ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .

(٤) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ١٨ .

قال ابن كثير افتتح - سبحانه - الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها كما تقدم في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ سواء ولهذا قال هناك : ﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وقال عنها : ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ أى : أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة ، والمناقب الرفيعة مستقرون في جنات النعيم ، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات ، مع الإنعام والتكريم بأنواع الملاذ والمشتهيات ، لا تصافهم بمكارم الأخلاق . وعن أبي الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس : على وضوئهن ، وركوعهن ، وسجودهن ، ومواقيتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، وآتى الزكاة طيبة بها نفسه ، وأدى الأمانة » قيل : يا رسول الله ، وما أداء الأمانة ؟ قال : « الغسل من الجنابة ، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينة غيرها »^(١) رواه الطبراني بإسناد جيد .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « الجهاد في سبيل الله » قال : حدثني بهن رسول الله - ﷺ - ولو استزددته لزادني^(٢) . (متفق عليه) وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وخط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام في مصلاه . يقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة »^(٣) . رواه البخارى .

« فاعرف نفسك يا عبد الله ، واعلم أن حظك من الإسلام ، وقدر الإسلام عنك بقدر حظك من الصلاة وقدرها عندك ، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك ، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك ، وقد جاء في الحديث عن النبي - ﷺ - أنه قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله »^(٤) أأست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ، فكذلك الصلاة من الإسلام فانظروا - رحمكم الله - واعقلوا وأحكموا الصلاة واتقوا الله فيها ، وتعاونوا عليها ، وتناصحوا فيها بالتعليم من بعضكم لبعض فإن الله تعالى - قد أمركم أن : تعاونوا على البر والتقوى ، والصلاة أفضل البر . وقد جاء في الحديث : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة ، وليصلين أقوام لا خلاق لهم أى : لا نصيب لهم من الدين ولا من الخير والإصلاح .

(١) انظر مجمع الزوائد ج ١ ص ٤٧ باب فيما بنى عليه الاسلام فقد ورد الحديث من رواية أبي الدرداء . وقال رواه الطبراني في الكبير وإسناده جيد .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٩٠ كتاب الإيمان باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال حديث رقم ٨٥/١٣٩ فقد أورد الحديث بلفظه .

(٣) البخارى انظر صحيح البخارى ج ١ ص ١٦٦ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) أنظر البخارى في التاريخ ج ٧ ص ٤٢٦ فقد ورد الحديث برقم ١٨٦٨ باب مبارك من رواية لمعاذ بن جبل .

وجاء في الحديث : « أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله : صلاته فإن تقبلت منه صلاته ، تقبل منه سائر عمله ، وإن ردت عليه صلاته رد سائر عمله » .
 « فصلاتنا آخر ديننا وهى أول ما نسأل عنه غداً من أعمالنا . . فتمكسوا رحمكم الله - بآخر دينكم » . (رسالة الصلاة لأحمد بن حنبل) .
 قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - « من سره أن يلقي غداً مسلماً ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبىكم - ﷺ - سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به ، يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف » (٢) رواه مسلم .

من أحوال المعاندين

قال تعالى :

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُمْ مَهْطِعِينَ ﴿٢٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٢٧﴾ أَيُطْمَعُ
 كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أَقْسِمُ
 بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ مَنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٣١﴾
 فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ
 مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٣٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ
 ذِلَّةٌ ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٣ كتاب المساجد باب صلاة الجماعة من سنن الهدى فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله .

معاني المفردات

﴿ قبلك ﴾ : أى : الجهة التى تليك .
 ﴿ مهطعين ﴾ : أى : مسرعين نحوك ، مادي أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يجعلونه هزوا .

﴿ عزيز ﴾ : أى : فرقاً شتى خلقاً خلقاً .
 ﴿ بمسبوقين ﴾ : أى : بمغلوبين .
 ﴿ الأجداث ﴾ : القبور واحداً حدث .
 ﴿ سراعاً ﴾ : السراع واحدهم سريع .
 ﴿ والنصب ﴾ (بضمين) كل شئ منصوب كالعلم والراية ، وكذا ما ينصب للعبادة ، وهو المراد هنا .

﴿ يوفضون ﴾ : أى : يسرعون .
 ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ : أى : ذليلة .
 ﴿ ترهقهم ﴾ : أى : تغشاهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وعد الله المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال - أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول - ﷺ - : وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود ، ثم توعدهم بالهلاك ، ولن يستطيع أحد دفعه عنهم يوم يخرجون من قبورهم مسرعين كأنهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان - وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها - وهم في هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة وترهق وجوههم قترة ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ : فما بالهم يسرعون إليك ، ويجلسون حواليك ، عن يمينك وعن شمالك جماعات متفرقة ، نافرين منك ، لا يلتفتون إلى ما تلقى عليهم من رحمة الله وهديه ، ونصحه وإرشاده ، وما فيه سعادتهم في معاشهم ومعادهم .

قال القرطبي : نزلت في جمع من المنافقين المستهزئين ، كانوا يحضرونه - ﷺ - ولا يؤمنون به . ونحو الآية : قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ، بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَوْ يَؤْتِي صَاحِفًا مُنْشَرَةً ، كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۖ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ، كَلَّا ۖ ﴾ . أى : أَيْطَمَعُ هؤلاء وهم نافرون من الرسول - ﷺ - معرضون عن سماع الحق أن يدخلوا جنتي كما يدخلها المؤمنون المختبتون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ؟ كَلَّا ! لا مطمع لهم في ذلك مع ما هم فيه .

قال القرطبي : قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبي - ﷺ - ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه ، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه ، فنزلت ﴿ أَيْطَمَعُ .. ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، كما خلق سائر جنسهم فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة ، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى ..

روى أن مطرف بن عبد الله رأى المهلب ، ابن أبي صُفرة يتبختر في مُطْرِفٍ خَزٍّ وجبة خز فقال له : يا عبد الله ، ما هذه المشية التي يبغضها الله ؟ فقال له : أتعرفني ؟ قال نعم ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة . فمضى المهلب وترك مشيته . نظم الكلام محمود الوراق فقال :

عجبت من معجب بصورته	وكان في الأصل نطفة مذرة
وهو غدا بعد حسن صورته	يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته	ما بين ثوبيه يحمل العذرة

وقال آخر :

هل في ابن آدم غير الرأس مكرمة	وهو بخمس من الأوساخ مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك	والعين مُرمصة والثغر ملهوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً	قَصْرُ فإنك مأكول ومشروب

والنجوم ، وربوبيته ما بين الجهتين ، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه ، ثم قال - تعالى - : ﴿ إنا لقادرون ، على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ﴾ (١) أى : لقادرون على أن نذهب بهم ونأتى بأطوع لنا منهم وخيراً منهم كما قال - تعالى - : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ، ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه ، ولهذا عُدِّيَ بعلى دون إلى ، كما فى قوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم ﴾ فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بعلى ، بخلاف سبقه إليه . فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه . فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه ، والثانى بمعنى وصلت إليه قبله .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ ، وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم الحجة فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأس الله ، ولا صدقوا رسالته فى خوضهم بالباطل ولعبهم ، فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه . فالأول ضد العلم النافع . والثانى ضد العمل الصالح . فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب ، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لابد له من هذين الأمرين .

ثم ذكر - سبحانه - حالهم عند خروجهم من القبور فقال - تعالى - : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ (٣) أى : يسرعون والنسب : العلم والغاية التى تنصب ، فيؤمنونها . وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه ، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعى ، يؤمون الصوت ، لا يعرضون عنه يمنة ولا يسرة كما قال - تعالى - : ﴿ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ﴾ (٤) أى : يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته ، لا يعرجون عنه . قال الزجاج : المعنى لا عوج لهم عن دعائه ، أى : لا يقدرّون إلا على اتباعه وقصده .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ (٥) فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار ، وذلل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم وقريب من هذا قوله - تعالى - : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ (٦) ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٧) ، وضد هذا قوله تعالى ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ (٨) فالنضرة عز الظاهر وجماله ، والسرور عز الباطن وجماله ومنه قوله ﴿ فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ (٩) فجمع هؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن .

(١) سورة النساء : الآية : ١٣٣ .

(٢) سورة طه من الآية : ١٠٨ .

(٣) سورة القيامة الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) سورة يونس من الآية : ٢٧ .

(٥) سورة الإنسان من الآية : ١١ .

(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦ والآية ١٠٧ .

قوله تعالى : فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ﴿١﴾ .

أى : أقسم برب الكواكب ومشارقها ومغاربها ، إنا لقادرون على أن نخلق أمثلاً منهم يستمعون دعوة الداعى ونصح الناصح ، ونهلك هؤلاء ، ولن يعجزنا ذلك ، لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم .

• قال العلامة ابن القيم : أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب ، وهى إما مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب ، فكذلك جمع فى موضع ، وأفرد فى موضع وثنى فى موضع ، فقال تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ فقل : هما مشرق الصيف والشتاء ، وجاء فى كل موضع ما يناسبه ، فجاء فى سورة الرحمن ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات ، فذكر فيها الخلق والتعليم ، والشمس والقمر ، والنجوم والشجر ، والسماء والأرض ، والحب والثمر ، والجن والإنس ، ومادة أبى البشر وأبى الجن ، والبحرين ، والجنة والنار ، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين ، وجنتين دونهما ، وأخبر أن فى كل جنة عينين فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين ، والمغربين .

وأما سورة ﴿ سأل سائل ﴾ فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكما لها ، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم . فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع ، إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب . فكل ذلك آية ودلالة على قدرته - تعالى - على أن يبذل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون . فيأتى بهم فى نشأة أخرى ، كما يأتى بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب بها فى مغرب .

وأما فى سورة ﴿ المزل ﴾ فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد ، لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وكما أنه تفرد بربوبة المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده ، فليس للمشرق والمغرب رب سواه - فكذلك ينبغى أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ فقال : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ .

وفى ربوبيته - سبحانه - للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته للسموات وما حوته من الشمس والقمر ثم ذكر سبحانه أن ذلك العذاب الذى وقعوا فيه ، كانوا قد أُنذروا به ولم يأتهم بغتة فقال : ﴿ ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ أى : ذلك اليوم وما فيه من أهوال كانوا قد أُنذروا فى الدنيا أنهم ملاقوه وكانوا به يكذبون ، فلا عذر لهم فيما سيموا به من سوء العذاب .

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .
اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

تفسير سورة نوح

مقدمة

السورة مكية .

عدد آياتها : ثمان وعشرون آية .

وكلماتها : مائتان وأربع وعشرون .

وحروفها : تسعمائة وتسع وخمسون .

فواصل آياتها : (منا) على الميم آية أليم .

سميت سورة نوح لذكره في مفتتحها ومختتمها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : أمر نوح بالدعوة ، وشكاية نوح من قومه ، والاستغفار لسعة النعمة ، وتحويل حال الخلق من حال إلى حال ، وإظهار العجائب على سقف السماء ، وظهور دلائل القدرة على بسيط الأرض ، وغرق قوم نوح ، ودعاؤه عليهم بالهلاك ، وللمؤمنين بالرحمة ، وللظالمين بالتبار والخسارة في قوله : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ .

المتشابهات :

(قال نوح) بغير واو ، ثم قال (وقال نوح) بزيادة الواو ، لأن الأول ابتداء دعاء ، والثاني عطف عليه .

قوله ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضللاً ﴾ وبعده ﴿ إلا تبارا ﴾ ، لأن الأول وقع بعد قوله : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ ، والثاني بعد قوله : ﴿ لا تذر على الأرض ﴾ فذكر في كل مكان ما اقتضاه ، وما شاكل معناه .

مناسبة السورة لما قبلها ..

(١) أنه قال في السورة السابقة : ﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴾ .

وذكر هنا قصة بقوم نوح المشتملة على إغراقهم إلا من قد آمن ، وإبداهم بمن هم خير منهم ، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى .

(٢) تواخى مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعود به الكفار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَوْيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيْءَ أَذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشُوا نِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٩﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٤﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٨﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٩﴾

معاني المفردات

﴿ إن أجل الله ﴾ وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا .
 ﴿ فراراً ﴾ تباعداً ونفاراً عن الإيمان .
 ﴿ استغشوا ثيابهم ﴾ بالغوا في التغطية بها كراهة لى .

﴿ أصروا ﴾ تشددوا وانهمكوا في الكفر .
 ﴿ يرسل السماء ﴾ المطر الذى في السحاب .
 ﴿ مدراراً ﴾ غزيراً متتابعاً . .
 ﴿ لا ترجون لله وقاراً ﴾ لا تعتقدون أو لا تخافون عظمة الله .
 ﴿ خلقكم أطواراً ﴾ مدرجاً لكم في حالات مختلفة .
 ﴿ سموات طباقاً ﴾ كل سماء مقببة على الأخرى .
 ﴿ الشمس سراجاً ﴾ مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام .
 ﴿ أنبتكم من الأرض ﴾ أنشأكم من طينتها .
 ﴿ الأرض بساطاً ﴾ فراشاً مبسطاً للاستقرار عليها .
 ﴿ سبلاً فجاجاً ﴾ طرقاً واسعة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ .

يقول - تعالى - مخبراً عن نوح - عليه السلام - : أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم ولهذا قال تعالى : ﴿ أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين ﴾ أى : بين النذارة ، ظاهر الأمر واضح . ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه . (وأطيعون) فيما أمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم .

قال ابن جرير من هنا بمعنى عن والتقدير : يصفح لكم عن ذنوبكم ، وقيل : إنها للتبعية أى : يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام والله أعلم .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أى : يمد في أعماركم ويدرا عنكم العذاب الذى إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم .

قال ابن كثير : وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث « صلة الرحم تزيد في العمر » .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النعمة فإنه إذا أمر - تعالى - بكون ذلك لا يرد ولا يمانع فإنه العظيم الذى قد قهر كل شىء ، والعزیز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهْرًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ .

يخبر - تعالى - عن عبده ورسوله نوح - عليه السلام - أنه اشتكى إلى ربه - عز وجل - ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة ، التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشيد والسبيل الأقوم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أى : لم أترك دعاءهم في ليل أو نهار امتثالاً لأمرى وابتغاء طاعتك ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : كلما دعوتهم ليقربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه . ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوههم إليه ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبیر : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهْرًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : ثم إنى يارب دعوتهم إلى عبادتك مرة بعد أخرى بأساليب مختلفة : فحيناً أدعوهم جهراً في مجتمعاتهم ، وحيناً أنفرد ببعضهم سراً .

قوله - تعالى - : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ .

أى : قلت لهم : سلوا الله المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات وهذا منه ترغيب في التوبة ، وقد روى حذيفة بن اليمان عن النبي - ﷺ - أنه قال : « الاستغفار ممحاة للذنوب » وقال الفضيل : يقول العبد أستغفر الله ، وتفسيرها : أقلنى .

وقوله : ﴿ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أى : يرسل ماء السماء عليكم (مدراراً) ذا غيث كثير .

قال مقاتل : لما كذبوا نوحاً زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نساءهم أربعين سنة ، فهلك مواشيهم وزروعهم ، فصاروا إلى نوح - عليه السلام - واستغاثوا به فقال : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أى : لم يزل كذلك لمن أناب إليه . ثم قال ترغيباً في الإيمان ﴿ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ قال قتادة : علم نبي الله - ﷺ - إنهم أهل حرص على الدنيا فقال : ﴿ هَلُمُّوا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فَإِنْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ دَرَكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

ونحو هذه الآية قول النبي هود لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴾ .

قال القرطبي : - في هذه الآية والتي في « هود » دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار . قال الشعبي : خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار حتى رجع ، فأمطروا فقالوا :

ما رأييناك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ثم قرأ : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ .

وقال ابن صبيح : شكى رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له : استغفر الله ، وشكا آخر إليه الفقر فقال له : استغفر الله . وقال له آخر : ادع الله أن يرزقني ولداً ، فقال له : استغفر الله ، وشكا إليه آخر جفاف بستانه ، فقال له : استغفر الله . فقلنا له في ذلك ؟ فقال : ما قلت من عندى شيئاً ، إن الله تعالى يقول في سورة نوح : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أى : ما لكم لا تخشون الله عقاباً وترجون منه ثواباً . وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون الله حقاً ولا تشكرون له نعمة . وقيل : ما لكم لا توحدون الله ، لأن من عظمة فقد وحده . ثم دلهم على ذلك فقال :

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أى : جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحيده قال ابن عباس : ﴿ أطواراً ﴾ يعنى نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغه ، أى : طوراً بعد طور إلى تمام الخلق كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغه فخلقنا المضغه عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) وكما قال جل فى علاه ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغه مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٢) .

ألا	إننا	كلنا	بائد	* *	وأى	بنى	آدم	خالد
وبلّوهم	كان	من	رهم	* *	وكل	إلى	ربه	عائد
فواعجبا	كيف	يعصى	الإله	* *	أم	كيف	يجحد	الجاحد
وفى	كل	شئ	له	* *	تدل	على	أنه	واحد

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة الحج الآيات : ٥ - ٧ .

ثم تابع نوح مخاطبة قومه لافتاً أنظارهم إلى قدرة الله فوقهم ، فقد خلق الكواكب السيارة ، وجعل القمر يسير في مداراتها لينير لهم الأرض ليلاً ، وجعل الشمس سراج النهار فقال : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ ذكر لهم دليلاً آخر ، أى : ألم تعلموا أن الذى قدر على هذا ! فهو الذى يجب أن يعبد ، ومعنى (طباقاً) بعضها فوق بعض ، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب ، قاله ابن عباس والسدى .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ أى : وجعل القمر بروجاً ومنازل وفاوت في نوره ، فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ثم يبتدىء ينقص حتى يستسر ليذل ذلك على مضى الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل .
كما قال - تعالى - : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ أى : والله أنبت أباكم آدم من الأرض ، وقد يكون المعنى : أنه أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه سبحانه خلقهم من النطف وهى متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالد من الأرض .

وجعلهم نباتاً لأنهم ينمون كما ينمو النبات ويلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات ، وعروقهم المتشعبة فى الجسم والتي يجرى فيها الدم وينتشر فى الأطراف ، تشبه ما فى الشجر ، وأحوالهم مختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلو والمر والطيب والخبيث ، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات فلكل أمرىء خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله : ﴿ ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ أى : ثم يعيدكم فى الأرض كما كنتم تراباً ، ويخرجكم منها متى شاء أحياء كما كنتم بشراً . كما قال - تعالى - : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٢) .

ثم أخذ يعدد النعم التى أعدها للإنسان فى الأرض وذكر أن الأرض مهيأة مسخرة لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء ، ويظهر مواهبه لاستخراج ما فى بطنها من المعادن المختلفة ، وخيراتها المتنوعة فقال :

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أى : والله بسط لكم الأرض ومهداها ، وثبتها بالجبال الراسيات .

ثم يبين حكمة هذا فقال :
﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أى : لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطاها المختلفة .

وقصارى ما سلف - أن نوحاً - عليه السلام - أمر قومه بالنظر فى علوم الأنفس ، والآفاق من معدن ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، وسماء ، وأرض وشموس ، وأقمار .

(١) سورة يونس الآية : ٥ .

(٢) سورة طه الآية : ٥٥ .

موقف قوم نوح - عليه السلام - منه

قال تعالى :

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا
يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا
خَطَبَيْنَاهُمْ لِيُنْذَرُوا فَادْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَظِلُّوا عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

معاني المفردات

- ﴿ خَسَارًا ﴾ الخسار الخسران .
- ﴿ كَبِيرًا ﴾ أى : كبيراً عظيماً .
- ﴿ لَا تَذَرُنَّ ﴾ أى : لا تتركن .
- ﴿ وَدَ وَسَوَاعَ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ أسماء أصنام كانوا يعبدونها .
- ﴿ مِمَّا خَطَبَيْنَاهُمْ ﴾ أى : من أجل ذنوبهم وآثامهم .
- ﴿ أَغْرَقُوا ﴾ أى : بالطوفان .
- ﴿ نَارًا ﴾ أى : عذاباً فى القبر .
- ﴿ دَيَّارًا ﴾ أى : أحداً .
- ﴿ تَبَارًا ﴾ أى : هلاكاً .

المناسبة وإجمال المعنى

أخبر - سبحانه - عن نوح أنه أعلم ربه وهو العليم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة ، أنه مع ما استعمله من الوسائل والأساليب المختلفة ، المشتملة على الترغيب طوراً ، والترهيب طوراً آخر ، كذبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ، ومتع بما ولد وقالوا : لا نترك آلهتنا التى عبدناها نحن وآباؤنا من قبل ، ونتبع بشراً مثلنا .

وبعد أن ذكر - سبحانه - مقالة نوح وشكواه إليه - أردفه بما جازاهم به من الغرق والعذاب . ثم أخبر - سبحانه - بدعاء نوح على قومه ، وعلل هذا بأنهم يضلون الناس وأنهم لو نسلوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة ، ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة ، ودعا على قومه بالتبار والهلاك .

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً ﴾ . لم تؤثر كلمات نوح فى نفوس القوم ولم يستجيبوا لنصيحته ، ولم يأبهوا بإنذار الله لهم ، وأنكروا عليه أن يكون نبياً لعدة أسباب منها :

أنه إنسان مثلهم يأكل ويشرب ، فكيف يكون نبياً من كان بشراً مثلهم ، فالنبى - فى نظرهم - يجب أن يكون ملكاً لا بشراً .

وأن الذين اتبعوه هم المستضعفون ويقصدون بذلك الفقراء من العمال والمزارعين وأصحاب المهن الوضيعة ، وهؤلاء - فى نظرهم - قد اتبعوا دون روية ولا تفكير ، وهم ليسوا من ذوى الفضل . واتهم نوح ومن آمن معه بالكذب ، ولم يكونوا متأكدين من اتهامهم هذا بل كانوا يبنونه على الظن . . .

قال - تعالى - : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ . ويصور القرآن الكريم فى آية أخرى مدى استعلاء القوم ورفضهم الاستجابة لدعوة نوح ووصمهم له بالضلال ، كما يصور نوحاً الصابر الملائف الذى يحاول انتزاع هذا الوهم من عقولهم فيقول لهم : يا قوم ليس بى ضلالة كما تزعمون ، ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم ما أرسلنى به من الوصايا والأحكام التى تصلح بها أمركم ، وأنى ناصح لكم بما فيه سعادتكم ومحذركم مما فيه شقاؤكم ، وقد علمنى الله ما لا تعلمون .

قال تعالى : ﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾ * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴿^(١) .

تهديد نوح

لم تترك دعوة نوح في قومه إلا أثرا ضئيلا كما صرح القرآن فقال تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾^(١).

أما الأكثرون فقد تبرموا من دعوته وكذبوه ، ووصموه بالجنون وحالوا بينه وبين تبليغ رسالته بأنواع التخويف والأذى . قال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾^(٢) . كما هددوه بالرجم ﴿ قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين ﴾^(٣) .

وبعد أن بذل نوح غاية جهده في سبيل هداية قومه ، وبعد أن ضاقت في وجهه كل السبل لإصلاحهم ، عندئذ لجأ إلى ربه يشكو قومه :

﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله ولده إلا خسارا ﴾ .

أى : قال نوح : رب إنهم عصوني فيما أمرتهم به ، وأنكروا مادعوتهم إليه ، واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم واغترخوا بأولادهم ، فكان ذلك زيادة في خسارتهم وخروجنا عن محجة الصواب ، وبعدا عن رحمة الله .

﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ أى : مكروا كبرا ، فاحتالوا في الدين ، وصدوا عن سبيل الله بأساليب شتى ، وأغروهم بأذى نوح - عليه السلام - .

﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : لا تتركوا عبادة آلهتكم وتعبدوا رب نوح ، ولا سيما هذه الأصنام التي هي أكبر المعبودات وأعظمها .

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب فيما بعد .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما - قال : صارت هذه الأوثان في العرب بعد فكان :

ود : لكلب .

سواع : لهديل .

يغوث : لقطيف بالجرف عند سبأ .

يعوق : لهمدان .

نسر : لحمير آل ذى الكلاع .

(١) سورة هود من الآية : ٤٠ .

(٢) سورة القمر الآية : ٩ .

(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٦ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين :

اللات : لثيف بالطائف .

العزى : لسليم وغطفان وجشم .

مناه : لخزاعة بقديد

أساف : لأهل مكة .

نائلة : لأهل مكة

هبل : لأهل مكة وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة .^(١)

وقال ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس قال ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم - الذين كانوا يقتدون بهم - لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

قال القرطبي : وبهذا المعنى فسر ماجاء في صحيح مسلم من حديث عائشة - رضى الله عنها - أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة بالحبيشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وقد أضلوا كثيرا ﴾ أى : وقد ضل بعبادة هذه الأصنام التى استحدثت على صور هؤلاء النفر كثير من الناس فقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة كما قال الخليل - عليه الصلاة والسلام - فى دعائه ﴿ واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾^(٣) .

ثم دعا نوح على قومه لتمردهم وعنادهم فقال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ أى ولا تزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضلالا وطبعا على قلوبهم ، وقصارى القول بان دعا عليهم بالخدلان ، وإن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ رب انصرنى بما كذبون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ .

يقول - تعالى - ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار الى حرارة النار ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله كقوله - تعالى - : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾^(٤) .

(١) البخارى ج٦ ص١٩٩ كتاب التفسير تفسير سورة إنا أرسلنا فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم ج١ ص٣٧٥ ، ٣٧٦ كتاب المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور . الخ فقد ورد الحديث من رواية لعائشة

(٣) سورة ابراهيم من الآيتين : ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) سورة هود من الآية : ٤٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ أى : يارب لاتترك على وجه الأرض منهم أحدا ولا ديارا .

قال السدى : الديار الذى يسكن الدار فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل أبيه ﴿ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المفرقين ﴾^(١) .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال - رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة »^(٢) قال ابن كثير : وهذا حديث غريب رجاله ثقات .

وقوله - تعالى - : ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : إنك يارب إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك . أى : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : فاجرا فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

روى أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إليه ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك .

وبعد أن دعا على الكفار ، دعا لنفسه ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة فقال :

﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين . قال الكلبي : كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون وكذا قال ابن عباس . وقوله : ﴿ ولمن دخل بيتى مؤمنا ﴾ أى : مسجدى ومصلاى مصليا مصدقا بالله . وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم فجعل المسجد سببا للدعاء بالمغفرة . وهذا قول ابن عباس : « بيتى » مسجدى ، وعن ابن عباس - أيضا - أى : ولمن دخل دينى ، فالبيت بمعنى الدين ، ورواية ثالثة عنه - أيضا - : يعنى صديقى الداخل الى منزلى . ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ عامة إلى يوم القيامة كدعوة النبى ابراهيم - عليه السلام - : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾^(٣) .

قوله - تعالى - : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أى : الكافرين (إلا تبارا) إلا هلاكا فهى عامة فى كل كافر ومشرک . قال مجاهد (إلا تبارا) إلا خسارا أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾

(١) سورة هود من الآية : ٤٣ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٤ تفسير سورة نوح ط / الشعب فقد أورد الحديث عن ابن عباس ، عن رواية لابن أبى حاتم ، وقال : هذا حديث غريب ، رجاله ثقات .

(٣) سورة ابراهيم الاية : ٤١ .

وبعد فراغنا من تفسير سورة نوح - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - رأينا أن نسوق هذا الموضوع القيم والذي يتعلق بأهمية الدعوة والتبليغ ، وما من شك من أنها أعظم وأشرف عمل يقوم به المسلم في رسالة الأنبياء والمرسلين الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه . يقول الشيخ عبدالله ناصح علوان في كتابه

« وجوب تبليغ الدعوة » فضل الدعوة والداعية

إذا كان هذا - أخى الداعية - هو حال البشرية اليوم من الفساد والانحلال والشقاء حيث لم تنج بقعة من الأرض من العفن والميوعة ، ومبادئ الكفر والضلال ، إذا علمت هذا فعليك أن تعلم - أيضا - ماهى أبعاد مسئوليتك فى الإصلاح والتغيير ، وما هو عظم واجبك فى التبليغ والدعوة ؟
أعلم - رحمك الله - أن الدعوة إلى الإسلام أصبحت فى هذا العصر فريضة شرعية ، وضرورة حتمية على كل من انتسب إلى أمة الإسلام : شبيبا وشبابا ، رجالا ونساء ، صغارا وكبارا ، حكاما ومحكومين خاصة وعامة . . كل يقوم بهذه المهمة على حسب حاله ، وحسب طاقته ، وحسب إيمانه ، وحسب تحسسه بواقع المسلمين ، وأحوال المجتمعات البشرية .

والأصل فى هذه الوظيفة الدعوة العامة قوله - تبارك وتعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾^(١)

والقاعدة فى هذا المهمة التبليغية الشاملة قوله تبارك اسمه : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾^(٢) .

وعبارة ﴿ كنتم خير أمة ﴾ فى الآية تشمل المسلمين جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم .

وعبارة ﴿ أخرجت للناس ﴾ فى الآية نفسها تعبير يلفت النظر ، حيث يشير إلى اليد الخالقة المدبرة التى أخرجت أمة الإسلام من ستار الغيب إخراجا ، ودفعتها إلى الظهور واثبات الذات دفعا ، لتبليغ دعوة الله فى العالمين .

ولاشك أن هناك نصوصا كثيرة من القرآن والسنة وعمل الأمة تدل دلالة قطعية على حتمية التبليغ ، وفريضة الدعوة نقتطف باقة منها وبالله التوفيق .

(١) سورة التوبة الآية : ٧١ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

فمن نصوص القرآن الكريم :

أ - قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

فاللام في قوله : ﴿ ولتكن ﴾ للأمر ، والأمر يقتضى الوجوب ﴿ وأمة ﴾ في الآية يقصد منها - كما يدل عليه السياق - طائفة من العلماء والدعاة موظفة لمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وساهرة على حراسة الرأي العام في كل بقعة من المجتمع الاسلامي ، وإن كان ذلك واجبا - في الأصل - على كل فرد من الأمة ، كل على حسب طاقته واستعداده وإيمانه . . يقول « ابن كثير » - رحمه الله - في تفسير هذه الآية : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كل بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وفي رواية : « وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » (٢) .

فالذى تدل عليه الآية : أن تبليغ الدعوة ، وحراسة الرأي العام . . واجب على طائفة من العلماء والدعاة الموظفين من قبل الإمام على أعمال الحسبة ، وإن كان ذلك واجبا في الأصل على كل فرد من أفراد الأمة .

ب - قال تعالى : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (٣) .

أقسم الله - سبحانه - في هذه السورة بالعصر الذى بعث الله فيه نبيه لشرفه على كل العصور ، أقسم وأكد : إن جنس الإنسان لفي ضياع وخسران إلا من تحقق :
بالايمان بالله .

والعمل الصالح .

والتواصى بالحق .

والتواصى بالصبر .

فالذى تدل عليه السورة : أن أى إنسان في هذه الحياة إذا لم يكن مؤمنا بالله الواحد الأحد ، وإذا لم يكن سالكا سبيل العمل الصالح ، وإذا لم يكن متواصيا مع المؤمنين بالتمسك بالحق والمجاهرة به ، وإذا لم يكن صابرا على المحنة والبلاء ، راضيا بما قدر الله عليه ، فإنه يكون لامحالة خاسرا ضاللا ضائعا !!
فالدعوة الى الله إذن من أوجب الواجبات في نظر الإسلام ، بل هى واجبة على كل إنسان بحسبه .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٠٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ١ صـ ٦٩ كتاب الايمان باب كون النهى عن المنكر من الايمان - فقد ورد الحديث من رواية لأبي سعيد .

(٣) سورة العصر .

- قال الله تعالى : ﴿ والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾^(١) الآية . . وقال - سبحانه وتعالى - في السورة نفسها : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾^(٢) .

ومما يستفاد من النصين أن الله - سبحانه - ميز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال القرطبي في تفسيره : « فجعل الله - تعالى - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقاً بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام » .

ودل على أن أخص أوصاف المنافقين : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، ورأسها : الدعاء إلى الكفر !!

فهذا التميز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

كما يبدو من الآيات - دليل قاطع على أن تبليغ الدعوة على سبيل الوجوب ، لسمة هذه الأمة بالآيمان والخيرية والتبليغ . . فاذا تخلت عن سميتها وخصيصةها فإنها تتسم بصفات المنافقين وتنحدر إلى أخلاق اليهود المجرمين أعاذ الله هذه الأمة منهم .

د - وقال تعالى : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾^(٣) .

وقد سرد الإمام الغزالي هذه الآيات وعقب عليها وقال : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » وقد نزلت هذه الآية - كما ذكر ابن كثير - فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب : كعبدالله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة ، وغيرهم وأصبح معنى الآية : لا يستوى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب بالذم والإجرام ، وبين من أسلم منهم وأقروا بالإيمان ، بل الذين أسلموا منهم كانوا مستقيمين يتلون كتاب الله ، ويقىمون الصلاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين .

هـ - وقال - تعالى - : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ﴾^(٤) .

(١) سورة التوبة من الآية : ٧١ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١١٣ - ١١٤ .

(٤) سورة المائدة الآيتان : ٧٨ - ٧٩ .

ينحبر - تعالى - في هاتين الآيتين أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله ، وإعتدائهم على خلقه ، وكانوا أيضا لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، بل كانوا يخالطون أهل المعاصي ، ويجلسون معهم ويرضون بمنكرهم !!

وهذا ما بينه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - في الحديث الذي رواه الامام أحمد : « لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا ، فجالسوه في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم » (١) .

ومما يدل عليه هذا النص القرآني أن أمة الاسلام إذا لم تقم بوظيفة حراسة الرأي العام ، ولم تنصح الناس الى مافيه خيرهم ، ولم تبلغ دعوة الله - عز وجل - ولم تأمر بالمعروف ، ولم تنه عن المنكر فإن الله - سبحانه - يضرب قلوب بعضها ببعض ، ويلعنها كما لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل بسبب إهمالها لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبسبب تساهلها في حق دعوة الله - سبحانه - ، وحراسة الرأي العام المسلم .

- وقال - تعالى - : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (٢) .

يؤكد - سبحانه - في هاتين الآيتين أنه ينصر من ينصره ، وذلك في اتباع هواه ، وإعزاز دينه ، والجهاد في سبيله ، وهؤلاء الذين ينصرون الله - عز وجل - ، لهم في الحياة الدنيا مهمة ، وفي مجال العمل التبليغي رسالة ، فمهمتهم الأولى حين يمكن الله لهم في الأرض أن يعبدوا الله ويوحده ، ورسالتهم في إطار هذا التمكين أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويدعوا الناس إلى الخير . فهذه هي مهمتهم ، وتلك هي رسالتهم فلا يجوز أن يتساهلوا فيها ويتخلوا عنها حتى يستأهلوا نصر الله - عز وجل - ، وحتى يزيدهم الله في الأرض عزة وقوة وتمكينا ، وإذا حادوا عن تحقيق هذه المهمة ، وتقاعسوا عن أداء هذه الرسالة فإن الله - سبحانه - يجعل بأسهم بينهم شديدا ، ويسلط عليهم عدوهم ، فيستنفذ بعض مافي أيديهم ، ويزيدهم في الحياة ذلة ووهنا وتمزيقا .

ومما يوجه اليه هذا النص القرآني : أن هذه الأمة إذا لم تقم بمسئوليتها في التزام منهج الله - عز وجل - وإذا لم تؤد رسالتها في التبليغ والدعوة ، فإن الله - سبحانه - يعرض عنها ويتخلى عن نصرتها ، ويذيقها وبال أمرها ، ويبذلها من بعد أمن خوفا ، ومن بعد عزة ذلا ، وسوف تبقى على هذه الحالة المتردية حتى تعود إلى هدى ربها ، وأصالة دينها ، ولينصرن الله من ينصره إلى غير ذلك من هذه النصوص القرآنية المستفيضة التي تدل على وجوب تبليغ الدعوة في أرض الله .

● ومن نصوص السنة الشريفة

أ - روى الشيخان عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : « بايعنا رسول الله - ﷺ - على

(١) أنظر الامام أحمد ج ١ ص ٣٩١ فقد ورد الحديث من رواية لعبدالله .

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٠ والآية ٤١ .

السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم»^(١) .

ماذا تعنى كلمة : (بايعنا) ؟ وماذا تعنى عبارة « أن نقول الحق أينما كنا » أليست تعنى أن كل من انتمى الى جماعة المسلمين أن يعطى البيعة والعهد للأمير على أن يسمع ويطيع في العسر واليسر ، وان لا ينشق عن أمير الجماعة إلا اذا أمر بالمعصية ، أو دعا الى كفر بواح وأن يقول الحق أيما كان ، وان لا يخاف في الله لومة لائم .

أليس يدل هذا الحديث : على التزام جماعة المسلمين وجوب النصيح العام ، وحثمية التبليغ والدعوة أينما كانت هذه الجماعة ، وحيثما حلت ووجدت ؟

ب - روى البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - أنه قال : « مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا (اقترعوا) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »^(٢) .

مثل النبي - ﷺ - في هذا الحديث حال رقابة المجتمع للفرد ورقابة الفرد للمجتمع بحال جماعة ركبت في سفينة ، فأرادت طائفة منها أن تحبث بأمن السفينة وركابها ، فكل من في السفينة إذا تركوا هذه الطائفة العابثة تفعل ماتشاء هلك كل من في السفينة ، واذا منعوها وأخذوا على أيديها نجا كل من في السفينة !

أليس يدل هذا التمثيل النبوى ، على أن كل مسلم في هذا الوجود له وظيفة اجتماعية في الأخذ على يد العابثين المفسدين ، والوقوف في وجه المارقين الظالمين . . حتى تسلم لأمة الإسلام عقيدتها وأخلاقها ، ويتحقق لها كيانها وعزتها ، وانها اذا تساهلت في ذلك أصابها الله بالذل والهوان والتمزق . ؟

ج - روى أبو داود والترمذى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بني اسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ماتصنع به فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد (وهو على حاله) (أى من المنكر) فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال ﴿ لعن الذين كفروا من بني اسرائيل .. الآية ﴾ . ثم قال - عليه الصلاة والسلام : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه (أى لتجبرنه) على الحق أطراً ولتجبرنه على الحق قصراً »^(٣) هذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل فرد في الأمة .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ٩٦ . . كتاب الأحكام « باب كيف يبائع الامام الناس فقد ورد الحديث من رواية لعبادة بن الصامت مع اختلاف يسير .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٣ ص ١٨٣ كتاب في المظالم والغصب باب هل يقرع في القسمة والاستفهام فيه فقد ورد الحديث عن رواية النعمان بن بشير .

(٣) انظر سنن ابن داود ج ٤ ص ٥٠٨ باب الأمر والنهي فقد ورد الحديث برقم ٤٣٣٦ .

وجه الاستدلال

استحقاق الأمة جميعا لعنة الله اذا تقاعست في واجب التغيير والتبليغ والدعوة .
صيغ الردع ، والزجر ، ولام الوجوب في قوله - عليه الصلاة والسلام - « كلا والله لتأمرن بالمعروف » .

فهذه الصيغ كلها - كما هو معلوم - تدل على الوجوب .
تنافر القلوب وتمزقها بضرب بعضها ببعض بسبب التخلي عن الوظيفة الاجتماعية المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

د - روى الشيخان عن زينب بنت جحش - رضى الله عنها - ان النبي - ﷺ - دخل عليها فزعا يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر اقتراب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بين أصبعيه : الإبهام والتي تليها ، فقلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث »^(١) مما يدل عليه هذا الحديث ، أن الأمة بأسرها صلحاؤها وفجارها يعمها الدمار والهلاك لكونها لم تقم بمهمة التبليغ ومسئولية التغيير ، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالصالحون منها يشملهم الهلاك لكونهم سكتوا عن استئراء الفساد والمنكر ، ورضوا بواقع الذل والمهانة !!

هـ - روى مسلم والترمذي وابن ماجه . . عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »^(١) .

« فمن » في قوله عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكرا » - لفظ من ألفاظ العموم ، ويشمل هذا اللفظ كل من استطاع تغيير المنكر باليد أو اللسان أو القلب ، سواء أكان منكرا من العامة أو الخاصة ، إذا فقهوا الخطر الذي يترتب عليه تفشى المنكر في المجتمع الاسلامي .

ومما يدل عليه الحديث : أن تغيير المنكر واجب على حسب الاستطاعة ، فيبدأ المسلم بالتغيير باليد إن استطاع ، فان لم يستطع فباللسان ، وإن لم يستطع فبالقلب ، وذلك أضعف الايمان .
وتغيير المنكر بالقلب معناه ان ينكر بقلبه على أهل الفسوق والعصيان إذا رآهم متلبسين بالفسق والمعصية ، وذلك بمقاطعتهم ، والانسحاب من مجالسهم وتمعر وجهه من أفعالهم .

أ - وجه الاستدلال الذي يدل على الوجوب :

أن تغيير المنكر أمر واجب على كل الأحوال وعلى حسب الاستطاعة : اليد أولا ، ثم اللسان ثانيا ،

(١) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ٦٠ ط / الشعب كتاب الفتن باب قول النبي - ﷺ - « ويل للعرب من شر قد اقتراب مقدور والحديث عن رواية عن زينب ابنة جحش .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٦٩ باب كون النهي عن المنكر من الايمان حديث رقم ٤٩/٧١ .

ثم القلب ثالثا : فاذا لم يتم التغيير بأى مرحلة من هذه المراحل الثلاثة . . فالإثم واقع ، والخروج من دائرة الإيمان متحقق .

وهذا ما تدل عليه الرواية الثانية التى رواها مسلم : « فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »^(١) . الى غير ذلك من نصوص السنة المستفيضة التى تدلل على وجوب تبليغ الدعوة فى أرض الله .

الدليل من عمل الأمة

انطلاقا من خصيصة الإسلام الأولى : تكون الدعوة إنسانية عالمية . واستشعارا بمسئولية المسلمين فى حمل رسالة الاسلام الى الدنيا وإيمانا باعتقاد المؤمنين جميعا حين يخوضون غمرات الدعوة والجهاد أنهم على احدى الحسينين : النصر أو الشهادة . .

بناء على هذا كله انطلق المسلمون الأولون ومن تبعهم بإحسان فى مجاهل الأرض ، يمدون الأمم ، ويكرمون الانسان ، ويفرضون المعرفة ، ويشيدون فى العالمين صرح الحضارة ، وينبتون الأرض خيرا وعسلا ولبنا ، ويطبعون فى ضمير الزمان مبادئ التوحيد ، والعدل ، والحق ، والحرية ، والمساواة .

انطلقوا يعلنون للدنيا انهم دعاة حق ، ومصابيح هدى ، وحملة رسالة ، وأئمة خير وإصلاح .

واليكم باقة من مواقفهم الدعوية ، ومآثرهم الجهادية :

- أرسل سعيد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - جماعة من الأشراف دعاة إلى « يزدجرد » ملك الفرس ، وكان منهم ، النعمان بن مقرن ، وعمر بن معد يكرب ، والمغيرة بن زرارة . . . فلما وصلوا اليه بالمدائن سألهم « يزدجرد » : ما جاء بكم ودعاكم الى غزونا ، والولوغ ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فتكلم النعمان بن مقرن . فقال :

« إن الله رحمننا ، فأرسل لنا رسولا يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خيري الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا قاربه منها فرقة ، وتباعد عنه منها فرقة ، ثم أمر أن نبتدىء بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين : مكره عليه فاغبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العدوابة والضيق . ثم أمر أن نبتدىء بمن جاورنا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح ، فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية ، فان أبيتم فالمناجزة (أى القتال) .

(١) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ باب كون النهى عن المنكر من الايمان حديث رقم ٥٠/٨٠ .

فإن أجبتكم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتكم الجزاء (أى دفعتم الجزية) قبلنا منكم ومنعناكم (أى : دفعنا عنكم) وإلا قاتلناكم . . . » .

- ولما نزل « رستم » قائد الفرس أرض القادسية أرسل الى سعيد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - أن ابعث إلينا رجلا نكلمه فأرسل اليه ربيع بن عامر فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب ، وبسط النمارق (السجاد) والوسائد منسوجة بالذهب ، فأقبل ربيع على فرسه ، وسيفه فى خرقه ، ورمحه مشدود بعصب ، فلما انتهى الى البساط وطئه بفرسه ، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما خطوة حتى أفسد مامر عليه من البسط - ثم دنا من رستم - وجلس على الأرض ، وركز رمحه على البساط ، وقال : إنا لا تقعد على زينتك . . فقال رستم : ماجاء بكم ؟

قال ربيع : « الله جاء بنا ، وهو ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى تقضى الى الجنة أو الظفر » .

فقال رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ فقال ربيع : « نعم ، وإن مما سن لنا رسول الله - ﷺ - ألا تمكن الاعداء اكثر من ثلاث ، فنحن ممتنعون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

الاسلام وندعك وأرضك .

او الجزاء (أى : الجزية) فنقبل منك ، ونكف عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك .

أو المنابذة (أى القتال) فى اليوم الرابع إلا أن تبدأنا (أى بقتال وأنا كفيل على أصحابي) . هذا غيظ من فيض مما ذكره التاريخ من مواقفهم الدعوية المشرفة ومآثرهم الجهادية الخالدة . هؤلاء الرجال ، ومن سلك سبيلهم باحسان ، هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة ، وهم الذين استعذبوا فى سبيلها أسمى آيات الصبر والفداء والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم ، حتى حققوا لهذا الدين انتصاره ، ولهذا الاسلام إنتشاره .

فما هو إلا ربع قرن من الزمان من بعثة الرسول - ﷺ - حتى قامت للمسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين دولة عتيدة وسلطان ، وامتدا لهم فى رحاب الأرض كيان مرموق وسيادة ، وأخضعوا لحكمهم المملكتين الكبيرتين العظيمتين : فارس والروم ، وامتد ظلهم الى بلاد السند شرقا ، والى بلاد الخزر ، وأرمينية ، وبلاد الروس شمالا ، ودخلت فى عدلهم بلاد الشام ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وبقية إفريقية ، وذلك كله فى خمس وثلاثين سنة .

وفى عهد بنى أمية استبحر ملكهم ، وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، وبلاد التركستان ، ووصلوا إلى حدود الصين شرقا ، ودخلوا بلاد الأندلس بأوروبة غربا

ومما يدل على وجوب تبليغ الدعوة القاعدة الأصولية التي تقول :

« ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب » .

إن بلاد الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، كما هو معلوم - يجب أن تكون محررة صافية إلا من مسلم صادق ، أو ذمى معاهد ، وماعداهم من مرتدين ، أو ملحدين ، أو شيوعيين ، أو مستعمرين ، أو صهيونيين فلا يصح أن يقر لهم في بلاد الإسلام قرار ، ويكون لهم فيها وجود واستقرار .

فالمؤمنون لا يتحققون بصفة العزة الإسلامية في دار الاسلام ، وأرض المسلمين ، إلا أن يقوموا قومة رجل واحد في التوعية ، وتبليغ الدعوة والالتفاف تحت راية واحدة والارتباط بالجماعة المسلمة ، حتى اذا كونوا فيما بينهم القاعدة الصلبة وأصبحوا مهئين لخوض معارك الجهاد ، طهروا أرض الإسلام من كل مرتد أفاك ، أو ملحد مفسد ، أو مستعمر غاشم ، أو شيوعى مجرم ، أو يهودى آثم . . . عندئذ يعلم أعداء الاسلام في كل مكان أنهم لاهية لهم في أرض الاسلام إلا بإسلام أو ذمة !!

أما أن يكون في أرض الاسلام زنادقة ، وباطنيون ، وفرق ضالة تدعى الاسلام زورا وتقبة كالقرامطة ، والقاديانية ، والاسماعيلية وغيرهم ممن على شاكلتهم .

أما أن يكون في بلاد الاسلام أحزاب كافرة ، ودعاة الى مبادئ هدامة كالشيوعية والوجودية ، والقومية .

أما أن يكون هذا كله فذلك دليل على أن المسلمين فقدوا صفة أساسية من صفاتهم ، وهى إظهار العزة على الكافرين التي من مظهرها تبليغهم الدعوة ، ومجاهدتهم بالسيف إذا هم أعرضوا .

ومن يوم ما فقدت الشخصية الاسلامية هذه الصفة من العزة والاستعلاء على الكافرين ، تفكك المجتمع الاسلامى من مشرقه الى مغربه ، وأصيب بالذلة والدمار والتخلف . حتى استطاع اليهود بمعاونة (الماسونية) في بلاد الاسلام أن يقوضوا عرش الخلافة الاسلامية ، وأن ينكسوا الوحدة السياسية ، وأن يزرعوا في أرض الاسلام الفساد ، واستطاع الباطنيون أن يسيطروا على بقعة من أرض الاسلام ، وأن يجعلوا أعزة أهلها أذلة ، واستطاع الشيوعيون أن يضعوا أيديهم على كثير من بلاد المسلمين ، وأن يذيقوا أهلها القتل والتشريد والدمار . . . واستطاع اللادينيون أن يتحكموا في أقطار ينتسب أهلها الى الاسلام ، وأن يبعدوا الاسلام عن نظام الحكم ومناهج الحياة ، واستطاع النصارى أن يستولوا على أجمل البقاع في بلاد الاسلام وأن يجعلوها تحت حكمهم وسيطرتهم ، واستطاع اليهود أن يقيموا دولة في فلسطين ، وأن يغتصبوا المسجد الاقصى وأن يفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، واستطاع آخرون وآخرون أن يفعلوا الكثير والكثير !!

وفي الحقيقة لا تحل مشاكل المسلمين في هذا العصر إلا اذا وجد الجيل المؤمن الواعى الداعية المجاهد الذى يحقق بإيمان وشجاعة العزة للمؤمنين والحاكمية للاسلام في كل مجتمع يؤمن أهله بـ لا إله إلا الله محمدا رسول الله .

وهذا في الواقع لا يتأتى إلا أن يستشعر الجيل المسلم في العصر الحديث معنى الواجب الذى كلفهم

الشرع به ، ومعنى المسئولية التي حملهم الاسلام إياها . إقامة حكم الله في الأرض هو من أعظم المسئوليات وتحرير بلاد الإسلام من الإلحاد والكفر والانحلال هو من أقدس الواجبات ألا فلينهض الجيل الحاضر اليوم بمسئوليته وواجبه لأنه كما ذكر علماء الأصول : « ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب » وإلا فإن الحساب عند الله عسير ، وإن المسئولية يوم القيامة كبيرة .

(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)

ثم ماذا عن تبليغ الدعوة والجهاد والاكراه ؟
إذا كان الاسلام أوجب تبليغ الدعوة على المسلمين ، وإذا كان لم يكره أحدا من الناس على اعتناقه والدخول فيه ، فلماذا شرع الجهاد ، وما هو الهدف ؟

إن للجهاد في الاسلام أهدافا محددة تبلغ من صميم الواقع وعالمية الدعوة ، ونظام العهود والمواثيق نلخصها في النقاط التالية :

(١) رد الظلم والعدوان عن أرض الاسلام :
لقله تبارك وتعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١) .

(٢) الإخلال بالعهد والمواثيق :
لقله تبارك وتعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ (٢) .
(٣) إزالة العقبات التي تعترض الدعوة :

لقله سبحانه : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ (٣) .

وبناء على هذا النص يجب قتال من يعترض طريق الدعوة الاسلامية ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الاسلام الى الشعوب بل النص في جملة يأمر المسلمين أن يزيحوا عن طريق الدعوة ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الاسلام الى الشعوب أو حاكم متأله يحول بين قومه وبين الهداية ، حتى تصل دعوة الإسلام الى الأمم والشعوب نقية صافية واضحة ، ثم بالتالي الشعوب هي التي تقرر مصيرها : إن شئت أن تدخل في الإسلام عن طوعية واختيار ، وإن شئت أن تبقى على دينها وتدفع الجزية الى الدولة الاسلامية مقابل حمايتها من العدوان .

فتبين مما عرضناه من أهداف الجهاد في الإسلام : أن الاسلام لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، وإنه لم

(١) سورة البقرة آية : ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة آية : ١٢ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٣٩ .

ينتشر بحد السيف كما يزعم أعداء الاسلام وإنما شرع الجهاد - كما سبق ذكره - من أجل إزاحة الطواغيت والمتألهين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون وصول الاسلام الى شعوبهم .

ومما يؤكد أن الاسلام لم يكره أحدا على الدخول فيه ، ولم ينتشر بحد السيف هذه النصوص : قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾^(١) .

لو كان الاسلام يفرض وجوده واعتناقه بالقوة لما قبل رسول الله - ﷺ - من صاحب « أيلة » ومن أهل « جرباء » ومن أهل « أذرح » بعد ان انسحب أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك ، فإن طبيعة النصر تدفع المرء الى الظفر بأكبر قسط منه ، ولكن الرسول - ﷺ - أبى أن يحارب أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرح لما وجد جنوحهم للسلم امثالاً لقوله تعالى : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾^(٢) .

والجزية التي دفعوها ليست لقاء إصرارهم على دينهم وإنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم .

وهذا التخيير الذي فرضه الإسلام على المحاربين بين قبول الإسلام أو الجزية دليل واضح على منع الإكراه في الدين .

فضل الدعوة والداعية

إن الدعوة الإسلامية تميزت على غيرها من الدعوات بالفضائل التالية :

(١) أنها خاتمة (٢) إنها عالمية (٣) أنها ذات خصائص .

أما أنها خاتمة :

فلكونها ، جمعت في طياتها دعوة الرسل جميعاً ، وزادت عليها بالتشريع المتكامل الأبدى المتجدد على مر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما أنها عالمية :

فلكونها ذات صبغة إنسانية عامة في تشريعها ومبادئها ، فهي رحمة للعالمين ، وهي هداية للناس كافة وهي منهاج للبشرية عامة .

أما أنها ذات خصائص :

فلكونها تختص بالمزايا التالية :

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٥٦ .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٦١ .

- أ - الربانية : لأنها نزلت من حكيم حميد .
 ب - الشمول : لأنها تنزلت بمنهج الحياة .
 ج - التجدد : لكونها تحمل في طبيعتها عوامل نموها وامتدادها الى يوم الدين .
 د - التوازن : لكونها وفقت بين المادة والروح ، وحقت مصلحة الفرد والجماعة وأعطيت لكل ذي حق حقه في الحياة .
 هـ - اليسر : لكون تكاليفها تتوافق مع طاقة الانسان وتنسجم مع مسؤولياته .
 و - البساطة : لكون مبادئها واضحة بسيطة مفهومة يستحب لها كل ذى عقل ، وينشرح لها كل ذى فطرة .
 ز - الخلود : لكون نصوصها أصيلة ثابتة خالدة لا يتطرق اليها قصور ، ولا يعترها تحريف .
 وإن دعوة تحمل في طياتها مزايا الربانية ، والعالمية ، والشمول ، وتحمل في مبادئها خصائص التجدد ، واليسر ، والبساطة ، وتحمل في طبيعتها ظواهر التوازن ، والاصالة والاستمرار ، فهي دعوة تستحق البقاء وتستأهل الخلود ، وتفي بحاجات الزمن .. إلى أن يرث الله الأرض وعلوها .

فضل الداعية إلى الله - سبحانه وتعالى -

- لو استعرضنا نصوص القرآن والسنة في تكريمها للدعاة وفي الرفع من منزلتهم . وفي الإشادة بفضلهم .. لوجدناها أكثر من أن تحصى :
- ١ - الدعاة هم خير الناس .
 لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية .
- ٢ - الدعاة هم الشهداء على الناس :
 لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١)
- فأمة الاسلام هي الأمة الداعية الوسط التي تشهد يوم القيامة على أنها بلغت رسالة الاسلام ، وأقامت بينها موازين العدل والقسط ، ووضعت لها التصورات الصحيحة المستمدة من الرسالة الخالدة في كل ما يتصل ببناء الفرد والأسرة والمجتمع ، وفي كل ما يرتبط بهداية الأمم والشعوب والانسانية .
- ٣ - الدعاة هم المفلحون في الدنيا والآخرة
 لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ الْمفلحُونَ ﴾ .

هذه الأمة الداعية إلى الخير ، والآمرة بالمعروف ، والناهية عن المنكر ، هي الأمة المفلحة الفائزة في الدنيا والآخرة ، المفلحة في الدنيا لكونها نفذت منهج الله عز وجل - في الدعوة والجهاد ، والعمل في سبيل الاسلام ، فنالت أعلى مراتب العز والمجد والسؤدد والشرف العظيم .
والمفلحة في الآخرة لكونها بلغت الدنيا الرسالة وأدت الأمانة ، ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده ، فاستأهلت النعيم الخالد المقيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

فهنيئاً للدعاة الهداية ماأعد الله لهم من منزلة رفيعة ومقام كريم في الدنيا والآخرة .

٤ - الدعاة أحسن الناس حديثاً :

لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ (٢)

ألا فليكثر الدعاة من أحاديث الإسلام ، وليسيروا في طريق الدعوة إلى الله وليبلغوا دعوة الحق والقوة والحرية ، فإنهم في المقام الأرفع والمنزل الأكرم .

٥ - الدعاة ورثة الأنبياء :

لما روى الخمسة وصححه ابن حبان والحاكم أن رسول الله - ﷺ - قال : « العلماء ورثة الأنبياء » (٣)
وهل هناك شرف أعظم ممن يداني الأنبياء في المنزلة والكرامة ؟ وما العلماء والدعاة إلى الله - عز وجل - إلا ممن اقتفوا أثر رسول الله - ﷺ - في دعوة الأمم إلى الخير ، وهداية البشرية إلى الصراط السوي ، فهم ورثة الأنبياء ، وهم الواقفون على ثغرة الإسلام وهم المجاهدون لإعلاء دين الله ، وهم يحيون بكتاب الله الموتى ، ويفتحون قلوباً غلغلا ، وأعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وهم الذين يعيدون مجد المسلمين إلى الدنيا بعد أن غاب هذا الاسلام عن الشهود والوجود .

فهل أدرك الدعاة إلى الله فضلهم ، وعرفوا في هذه الحياة منزلتهم ؟

٦ - أهل السماء والأرض يستغفرون للدعاة :

لما روى الترمذى عن أبي امامة مرفوعاً . . أن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » (٤).

والصلاة - كما هو معلوم - من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن العبد دعاء . وهذه منزلة قلما يدركها أحد إلا من تصدى للدعوة وسار في طريق الهداية والإصلاح والتبليغ .

ألا فليعلم الدعاة مقامهم ، ويدركوا في هذا الوجود منزلتهم ؟ فهنيئاً لهم ، ولمن يسير على دربهم كم ينالوا من شرف ؟ وكم يسطر لهم في صحفائهم من أجر ومثوبة ؟ أهـ .

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ١ ص ٢٧ كتاب العلم ، انظر ابن ماجه ج ١ ص ٨١ حديث رقم ٢٢٣ .

(٣) انظر سنن الترمذى المجلد الرابع ط / دار الفكر ص ١٥٤ حديث رقم ٢٨٢٦ فقد أورد الحديث عن أبي امامة وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

سورة الجن

بين يدي السورة

قال صاحب البصائر : السورة مكية . آياتها ثمان وعشرون عند الكل إلا مكة فإنها في عددهم سبع عدوا (لن يجيرني من الله أحد) وأسقطوا (ملتحدا) في غير رواية البزى

وفي رواية البزى : لم يعد (لن يجيرني من الله أحد) ولم يعد (ملتحدا) فصار في روايته سبعا وعشرين . وفي الرواية الأخرى : ثمانيا وعشرين . وكلماتها مائتان وخمس وثمانون . وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون . فواصل آياتها على الألف . سميت سورة الجن لاشتغالها على الجن في قوله : ﴿ يعوذون برجال من الجن ﴾ وقوله : ﴿ نفر من الجن ﴾ معظم مقصود السورة : عجائب علوم القرآن وعظمة سلطان الملك الديان وتعدي الجن على الإنسان ومنعهم عن الوصول إلى السماء بالطيران والرشد والصلاح لأهل الإيمان وتهديد الكفار بالجحيم والنيران وعلم الله تعالى بالأسرار والإعلان وكيفية تبليغ الوحي من الملائكة إلى الأنبياء بالإتقان وحصر المعلومات في علم خالق الخلق في قوله : ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾ .

السورة محكمة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ .

المتشابه

قوله : ﴿ وأنه ﴾ : (كرر مرات أن وأنه) واختلف القراء في اثنتي عشرة منها وهي : من قوله : (وأنه تعالى) إلى قوله : ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ : ففتحها بعضهم عطفا على ﴿ أوحى إلى أنه ﴾ وكسرها بعضهم عطفا على قوله : ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ وبعضهم فتح (أنه) عطفا على (أنه) وكسر (إنا) عطفا على (إنا) وهو شاذ .

فضل السورة

عن أبي : من قرأها أعطى بعدد كل جن وشيطان صدق بمحمد وكذب به عتق رقبة وعن علي : يا علي من قرأها لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة وله بكل آية قرأها ثواب الزاهدين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي
إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا
السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ
الِّلِّسَمِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمْنُ فِي الْأَرْضِ
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُّعْجزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى
ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا
الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ
حَطَبًا ﴿١٥﴾

معاني المفردات

﴿ أُوْحِيَ ﴾ الوحي هو ما يلقي إلى الأنبياء من عند الله وفيه معنى الخفاء والسرعة ، والإيحاء
أن تلقى إلى غيرك ما تريده عن طريق الإيماء أو الإشارة أو الرسالة أو الكتابة أو الإلهام ﴿ نفر ﴾ نفر
العدد القليل هو من الثلاثة إلى العشرة ﴿ استمع ﴾ أصغى ﴿ عجباً ﴾ المراد يثير العجب ويدعو
للغربة والدهشة ﴿ جد ربنا ﴾ يقال : جد هذا في عيني أى عظم فالمراد تعالى جلال ربنا وعظمته
وقيل : الجد الملك والسلطان ﴿ يقول سفيها على الله شططا ﴾ السفيه من عنده خفة وطيش تنشأ عن
حق وجهل والقول الشطط الذى تخطئ صاحبه فيه حد العدل والحق ﴿ يعوذون ﴾ يطلبون النجاة
والعون ﴿ رهقا ﴾ طغيانا وإثماً أو ذلة وخوفا لا يطاق ﴿ لمسنا السماء ﴾ طلبنا بلوغها واستماع
أخبارها ﴿ حرسا ﴾ لفظ يدل على الجمع والمراد عليها حراس من الملائكة شداد ﴿ شهباً ﴾ جمع
شهاب وهو شعلة من نار ساطعة ﴿ رصداء ﴾ يرصده ويرقبه لينقض عليه ﴿ رشدا ﴾ المراد خيرا

ورحمة ﴿نعجز الله﴾ لن نفوته ونفلت من قدرته ﴿بخساً﴾ أى إنتقاصاً من حقه فى الثواب فيعطى أقل مما له ﴿ولا رهقا﴾ لا يخاف ظلماً غير محتمل ﴿تحروا رشدا﴾ أى : طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين ﴿القاسطون﴾ قسط : ظلم وجار ، وأقسط : أزال الظلم والجور

أضواء كاشفة

لقد ثبت فى الصحاح أن الجن استمعوا للنبي ﷺ وهو يصلى بأصحابه ويقرأ القرآن بصوت أمال الجن فصرفهم إليه فلما استمعوا وفهموا حقائق من كلام الله انطلقوا إلى أهلهم يبشرونهم ويحملون إليهم ما عرفوه ولقد أوحى الله إلى النبي بهذا ليطمئن خاطره وتستمر نفسه كما هى قوية شديدة فى دعوتها فإن أعرض عنها المشركون فهامهم أولاء الجن يؤمنون ويدعون غيرهم للإيمان بها نزلت هذه الآية مرة بالإجمال فى سورة الأحقاف قال تعالى : ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرم من عذاب إليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين^(١).

ومرة بالتفصيل كما هنا نزلت فيما نزلت تبكيها لقريش والعرب حيث تباطؤوا عن الإيمان وكانت الجن أسرع منهم فى قبول الدعوة مع أنهم من غير جنس البشر ، أما القرشيون والعرب فقد كذبوا حسداً من عند أنفسهم وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، قل لهم يا محمد : لقد أوحى الله إلى أنه استمع نفر من الجن إلى القرآن فقالوا لقومهم عند رجوعهم إليهم : إنا سمعنا قرآناً جليل الشأن بديعاً يدعو إلى العجب لأنه يخالف لكلام البشر بل ولكل الكتب السابقة فى نظامه وأسلوبه وأغراضه ومعانيه وهو كتاب يهدى إلى الرشـد وإلى الخير والحق وإلى الصراط المستقيم فنشأ عن ذلك أننا آمنّا به وبمن أنزل عليه بعد ما آمنّا بالقوى القادر الذى أنزله على عبده محمد ولن نشرك بعد هذا بربنا أحداً من خلقه أيا كان ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ أى : وصدقنا أن الحال والشأن ارتفع عظمة وجلال ربنا أى : عظمته وتعالى سلطانه فهو صاحب الملك والسلطان تبارك اسمه وتعالى سره ما اتخذ صاحبة ولا اتخذ ولداً ، وكأن الجن حينما سمعوا القرن نبهم ذلك الى خطأ كان يعتقده الكفرة من الجن حيث شبهوا الله بالحادث المحتاج الى صاحبة والزوجة والذى يجوز عليه الانفصال ويحتاج إلى الأولاد كيف يكون ذلك مع أنه المتعالى الغنى عن كل شىء .

آمنّا بالله وصدقنا بأن ما كان يقوله سفيهاً فى حقد سبحانه وتعالى كان شططاً وخروجاً عن حد العقول لفرط بعده عن الحق إذ كان ينسب الصاحبة والولد إليه - عز وجل -

وهامهم يعتذرون عن تقليدهم لسفيهم وقائدهم فى الشر فيقولون : آمنّا بالله وصدقنا بخطئنا فى

ظننا الذى لأجله اعتقدنا ما اعتقدنا فى نسبة ما لا يليق بالله لأننا كنا نظن أن من المستحيل أن يقول واحد من الإنس والجن على الله قولاً كاذباً فيه كنسبة الصاحبة والولد له - جل شأنه .

كان الرجل من العرب إذا أمسى فى واد مقفر وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادى - يريد رئيس الجن فيه - أعوذ بك من سفهاء قومك فلما سمع الجن ذلك أستكبروا وزادهم هذا إرهاباً وتعنتاً وعتوا ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ بمعنى آمنّا بالله وآمنّا بأنه كان رجال من الإنس يلجئون إلى الجن يستعيذون بهم فكان الجن يزدادون بذلك عتوا واستكباراً وقيل : إن معنى الآية : وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال منهم وهم الكهان والمنجمون والعرافون يستجيرون بهم من أذى الجن فيزداد الكهان والعرافون عتواً واستكباراً وهذا علاج جاء على لسان إخواننا الجن لرد البشر إلى الصواب فى اعتقادهم فى الجن وعلى ذلك فكاذب من يقول : إن بعض الناس يستخدم الجن أو إن للجن عملاً نافعا أو ضاراً فى حياتنا يقول **اللويس** : ولعل تعلق الإيمان بهذا باعتبار ما يشعر به من كون ذلك ضللاً موجباً لزيادة الرهق

وآمنّا بأن الإنس ظنوا خطأ كما ظننتم أن الله لن يبعث أحداً من الرسل إلى أحد من العباد وقيل : المعنى أوحى إلّى أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة أن الله لن يبعث أحداً من خلقه بعد موته ونخبركم بأننا طلبنا بلوغ السماء لنسمع كلام أصحابها كما كنا فوجدناها قد ملئت حرساً قويا من الملائكة أعد لطرده من يسترق السمع وملئت شهياً رصدت لمن يريد السمع فتحرقة

ونخبركم كذلك بأننا كنا نقعد منها مقاعد كثيرة لا ستراق السمع قبل بعثة النبي ﷺ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً خاصاً به رصد لأجله لا يخطئه وهذه الشهب لا يمنع وجودها الآن وقبل الآن وكونها ظاهرة طبيعية لا يمنع أنها أعدت بعد البعثة لذلك مع صفتها الأصلية وكثرت لهذا الغرض ويفيد ذلك قوله : ﴿ ملئت ﴾ وآمنّا بأننا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض بحراسة السماء أم أراد بهم رشداً وخيراً وآمنّا بأننا منا الصالحون أى فى أنفسهم الطيبون فى المعاملات مع غيرهم المائلون للخير بطبعهم ومنا غير ذلك وهم كثير كنا طرائق مختلفة حيث وكلنا إلى أنفسنا

وآمنّا بأننا لن نعجز الله ولن نفلت منه أبداً أينما كنا فى الأرض ولن نعجزه هارين منها إلى السماء فالكل فى قبضته وتحت تصرفه

وآمنّا بأننا كما سمعنا الهدى أى : القرآن آمنّا به من غير تلثم وتردد فمن يؤمن بربه وبما أنزله - عز وجل - فلا يخاف نقصاً ولا يخاف ظلماً إذ لا يظلم ربك مثقال ذرة وفى الواقع أن ربك لا يظلم أحداً بل الكل يأخذ جزاءه ولكن نصت الآية على أن المؤمن لا ينقص من حسناته ولا يبخص شيئاً من عمله .

وبعد سماع القرآن آمنا بأنا منا المسلمون ومنا القاسطون الجائرون على طريق الهدى ، فأما المسلمون المهديون فأولئك قوم توخوا العدل والحق وقصدوه واتبعوه وآمنوا وعملوا به وأما القاسطون الجائرون عن سنة الحق والعدل والكرامة التي هي سنن الإسلام فأولئك قوم مأواهم جهنم بل كانوا له حطباً ووقوداً .

تلك حقائق إسلامية أوردتها القرآن على لسان الجن فكانت دواء لكثير من أمراضنا وتصحيحا لكثير من أفهامنا وهي تتلخص فيما يأتي :

- ١ - أن الجن سمعوا قرآنا يدعو إلى العجب فآمنوا به ولن يشركوا بالله أحداً .
- ٢ - أنه تعالى جده وعظمت عظمتة لا يمكن أن يتخذ صاحبة ولا ولداً .
- ٣ - أنه كان يقول بذلك بعض سفهائنا وهو قول خارج عن كل الحدود
- ٤ **وأنا** كنا نظن أنه لا يعقل أن يقول أحد من الخلق على الله كذبا ولكن تبين لنا ذلك فنعتذر
- ٥ - وانه مما يدعو إلى العجب أن رجالا من الإنس كانوا يستجيرون برجال من الجن فيزدادوا تمنا وفجورا لذلك ، أو أنه كان رجال من الإنس يستجيرون بإخوانهم من الإنس ليمنعوا عنهم ضرر الجن فيزدادوا ظلما وفحشا مع أن الجن لا حول لهم ولا طول فليطمئن الإنس ولا يستعيذون إلا بالله من الإنس والجن .
- ٦ - أن الخلق كانت تظن خطأ أن الله لن يبعث أحدا من رسله ولا أحدا بعد موته
- ٧ - وأنا طلبنا بلوغ السماء لنعرف خبرا فمنعنا فليطمئن الإنس فليس الجن يعرف أى خير عن السماء .
- ٨ - وأنا كنا نقعد قبل ذلك في بعض الأماكن نسترق السمع أما الآن فلن يكون ذلك .
- ٩ - وأنا أجهل الخلق بالغيب فلسنا نعرف أشر أريد بالناس أم أريد بهم خير ؟!
- ١٠ - وأنا منا الصالحون ومنا غير ذلك .
- ١١ - وأنا عرفنا أن الله قادر على كل شيء فلن نعجزه في الأرض ولا في السماء
- ١٢ - وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن فسيأخذ حقه كاملا غير منقوص .
- ١٣ - وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فالمسلمون في الخير وإلى الخير صائرون وأما القاسطون فأولئك في ضلال وإلى جهنم صائرون .

مبحث في عالم الجن والشياطين

قال الشيخ (عمر سليمان الأشقر) في كتابه تحت هذا العنوان (عالم الجن والشياطين)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد

فقد يظن بعض الناس أن الكتابة في هذا الموضوع من قبيل الترف العلمي ويجذب هؤلاء أن يمر الإنسان بهذا الموضوع مروراً عابراً فلا يأخذ من تفكيره إلا القليل وهؤلاء يظنون أن القائدة المرجوة من وراء هذه الدراسة محدودة وأن الجهل به لا يضير

وأنا لن أذهب بعيداً فعالم البشر اليوم يذلون من المال ما يبني المدن ويشيد الدول ويقضي على الفقر في بقاع شاسعة من العالم تضم ألوف الملايين في البحث عن إمكانية الحياة والأحياء في الكواكب القريبة منا وقد قام العلماء في هذا السبيل بجهود جبارة كلفتهم من الوقت والمال الكثير فما بالكم بعالم من الأحياء العقلاء يعيشون معنا في أرضنا ويخالطوننا في مساكننا ويأكلون ويشربون معنا وقد يفسدون علينا تفكيرنا وقلوبنا وقد يدفعوننا إلى أن نخطم أنفسنا بأنفسنا وأن يسفك بعضنا دم بعض وقد يعبدوننا لأنفسهم أو لأي مخلوق كي يجلبوا لنا غضب ربنا فيحل بنا سخطه ويترك بنا غضبه ثم تكون عاقبة الشاردين عن ربهم ناراً تلظى

إن المعلومات التي جاءت بها النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الموثقة في هذا الجانب لا تقدر بمال .

فهى تكشف لنا أسرار هذا العالم : عالم الجن وتمدنا بفيض من المعلومات تكشف تفاصيل حياتهم كما تخبرنا عما يمكنه بعض هؤلاء من عدااء تجاه الإنسانية وما يقومون به من جهود متلاحقة لا تنقطع لإضلالنا وتدميرنا وحسبك دليلاً يبينك عن أهمية الأمر أن تتبع الآيات التي تحدثت عن الجن والشياطين لتعلم عظم المساحة التي شغلتها هذه النصوص من كتاب الله .

ومن يطالع هذه النصوص يعلم أن حياة الإنسان ليست إلا صراعاً بينه وبين الشيطان ، الشيطان يريد أن يقضى عليه بأن يوبقه ويهلكه والإنسان الذى أمده الله بنوره يجاهد كي يستقيم على صراط ربه ويقوم غيره على هذا الصراط وفى سبيل ذلك لابد له من أن يصارع هذا العدد فى حنايا نفسه وخطرات

قلبه وآماله وأحلامه وتطلعاته لا بد له أن يتفحص أهدافه وغاياته القريبة والبعيدة باستمرار كي يتبين مدى قربيه وبعده من ربه ومدى تخلصه من عدوه الذى يحاول أن يحتنكه ويقوده كما يقود الزارع حماره .

ولقد جمعت النصوص التى تحدثت عن هذا العالم وكلام الأئمة الأعلام عليها وتأملت فى ذلك كله فجاء هذا الكتاب فى ستة فصول .

الفصل الأول تعريف وبيان بهذا العالم : أصلهم وخلقهم وأسمائهم وأصنافهم وطعامهم وشرابهم وزواجهم ومساكنهم ودوابهم وقدراتهم التى وهبهم الله إياها وستجد فى غضون هذا الفصل الأدلة التى تثبت وجودهم وترد على المنكرين

والفصل الثانى بيان الغاية التى خلقوا من أجلها وطريقة تبليغهم التعاليم الربانية وعموم رسالة محمد ﷺ

أما الفصل الثالث فهو صلب هذه الرسالة وفيه عدة مباحث :

الأول : أسباب العداء بين الإنسان والشیطان والتدليل على قوته وعمقه وتحذير الله لنا من هذا العدو .

الثانى : الأهداف القريبة والبعيدة للشیطان .

الثالث : أساليب الشيطان فى إضلال الإنسان .

الرابع : قيادته للمعركة وجنده فيها .

الخامس : مصائد الشيطان التى يكيد بها الإنسان .

وختمت هذا الفصل بالحديث عن وسوسة الشيطان التى هى سلاحه فى إفساد النفوس وزرع الفساد فى القلوب .

والفصل الرابع تعرضت فيه لعدة قضايا تضر بها الشياطين العباد :

الأولى : تمثل الشياطين وتكليمها لبعض العباد وما ترتب على ذلك من الفساد

الثانية : تحضير الأرواح ومدى صحة ذلك وعلاقة هذا بالشياطين

الثالثة : مدى معرفة الجن بعالم الغيب وما ترتب على اعتقاد الناس بأن الجن يعلمون الغيب من

فساد

الرابعة : الجن والأطباق الطائفة

وفى الفصل الخامس تحديد للأسلحة التى لا بد للمسلم أن يتسلح بها وهو يخوض المعركة مع

الشیطان .

وفي الفصل السادس والأخير : تحدثت عن الحكمة من خلق الشيطان
أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المؤلف كاتبه وناشره وقارئه وأن يجزل للجميع المثوبة وأن يعيذنا من
الشيطان وأن يتولانا بعونه ورعايته إنه نعم المولى والنصير وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

الفصل الأول

تعريف وبيان الجن :

الجن عالم آخر غير عالم الإنسان وعالم الملائكة بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث
الاتصاف بصفة العقل والإدراك ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر ويخالفون الإنسان في
أمر أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان

وسموا جنًّا لاجتنانهم ، أى : استتارهم عن العيون ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾^(١)

أصلهم :

أخبرنا الله - جل وعلا - أن الجن قد خلقوا من النار في قوله : ﴿ والجان خلقناه من قبل من
نار السموم ﴾^(٢) وفي سورة الرحمن ﴿ وخلق الجان من مارج من نار ﴾^(٣) وقد قال ابن عباس
وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد في قوله : (مارج من نار) طرف اللهب وفي رواية من خالصه
وأحسنه وقال النووي في شرحه على مسلم : (المارج اللهب المختلط بسواد النار)

وفي الحديث الذى أخرجه مسلم عن عائشة عن النبى ﷺ قال : (خلقت الملائكة من نور وخلق
الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم)^(٤) متى خلقوا ؟

لاشك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان لقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من
صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾^(٥) فقد نص في الآية أن الجان
مخلوق قبل الإنسان ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفى عام وهذا لا دليل عليه من
كتاب ولا من سنة .

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٧ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ١٥ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرفائق - باب في أحاديث متفرقة ٢٢٩٤/٤ رقم ٢٩٩٦

(٥) سورة الحجر الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

أسماء الجن في لغة العرب :

قال ابن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب :

- ١ - فإذا ذكروا الجن خالصاً قالوا : جنى
- ٢ - فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس قالوا : عامر والجمع عمار
- ٣ - فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا : أرواح
- ٤ - فإن خبث وتعرض قالوا : شيطان
- ٥ - فإن زاد أمره على ذلك وقوى أمره قالوا : عفريت .

أصناف الجن :

يقول الرسول ﷺ في هذا : (الجن ثلاثة أصناف : فصنف يطير في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون)^(١)

لا مجال للتكذيب بعالم الجن :

أنكرت قلة من الناس وجود الجن إنكاراً كلياً وزعم بعض المشركين : أن المراد بالجن أرواح الكواكب .

وزعمت طائفة من الفلاسفة : أن المراد بالجن نوازع الشر في النفس الإنسانية وقواها الخبيثة كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم .

وزعم فريق من المحدثين (بفتح الدال المخففة) : أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التي كشف عنها العلم الحديث .

وقد ذهب الدكتور محمد البهى (فى تفسير سورة الجن) : أن المراد بالجن الملائكة فالجن والملائكة عنده عالم واحد لا فرق بينهما ومما استدلل به : أن الملائكة مستترون عن الناس إلا أنه أدخل فى الجن من يتخفى من عالم الإنسان فى إيمانه وكفره وخيره وشره (تفسير سورة الجن ص ٨)

عدم العلم ليس دليلاً :

وغاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم وعدم العلم ليس دليلاً ، وقبيح بالعقل أن ينفى الشيء لعدم علمه بوجوده وهذا مما نعاه الله على الكفرة : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) سورة يونس ٢٩ .

وهذه المخترعات الحديثة التي لا يستطيع أحد أن يكابر فيها أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك ؟

وهل عدم سماعنا للأصوات التي يعج بها الكون في كل مكان دليل عدم وجودها حتى إذا اخترعنا (الراديو) واستطاع التقاط ما لا نسمع صدقنا بذلك !؟

والصحيح :

والقول الحق أن الجن عالم ثالث غير عالم الملائكة والبشر وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة ليسوا بأعراض ولا جرائم وأنهم مكلفون مأمورون منهيون .

الأدلة :

١ - التواتر :

يقول ابن تيمية « مجموع الفتاوى ١٩ / ١٠ » : لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله أرسل محمداً - ﷺ - إليهم وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين وإن وجد فيهم من ينكر ذلك وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك كالجهمية والمعتزلة وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك .

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة بل مأمورون منهيون ليسوا صفات وأعراضاً قائمة بالإنسان أو غيره ، كما يزعمه بعض الملاحدة فلما كان أمر الجن مقواتساً عن الأنبياء تواتراً تعرفه العامة والخاصة لم يمكن طائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم .

وقال في ص ١٣ « جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب ، وكذلك عامة مشركي العرب وغيرها من أولاد حام ، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونان من أولاد يافث فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن »

٢ - النصوص القرآنية والحديثية :

كقوله تعالى : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ سورة الجن ١
وقوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ سورة

الجن ٦

وهي نصوص كثيرة سيأتى ذكر غالبها في ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله .

٣ - المشاهدة والرؤية :

كثير من الناس في عصرنا وقبل عصرنا شاهد شيئاً من ذلك وإن كان كثير من الذين يشاهدون ويسمعونهم لا يعرفون أنهم جن ، إذ يزعمون أنهم أرواح ، أو رجال الغيب أو رجال الفضاء .

وقد حدثنا الثقة في القديم والحديث عن مشاهداتهم فهذا عالم جليل يدعى الأعمش يقول : تروح إلينا حنى ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أذى اللقم ترفع ولا أرى أحداً ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التى فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الراضة فيكم ؟ قالوا : شرنا .

قال ابن كثير بعد سوقه لهذه القصة : عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزى ، فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش . ثم قال : وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة العباس بن أحمد الدمشقى قال : سمعت بعض الجن وأنا فى منزل لى بالليل ينشد :

قلوب براهها الحب حتى تعلقـت مذاهبها فى كل غرب وشارق
تهيم بحب الله والله ربهـا معلقة بالله دون الخلائق

أهـ كلام ابن كثير .

القول : وقد حدثنى كثير من الثقات عن مخاطبتهم للجن ورؤيتهم لهم . وسيأتى ذكر شىء من ذلك عند حديثنا عن قدرتهم على التشكل لعبور مختلفة ، إن شاء الله تعالى .

٤ - أصلهم الذى خلقوا منه :

أخبر الرسول - ﷺ أن الملائكة خلقوا من نور والجن خلقوا من نار ففرق بين الأصلين وهذا يرد على الذين لا يفرقون بين الجن والملائكة .

رؤية الحمار والكلب للجن

إذا كنا لا نرى الجن فإن بعض الأحياء يرونهم كالحمار والكلب ففى مسند أحمد وسنن أبى داود بإسناد صحيح عن جابر مرفوعاً : « إذا سمعت نباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل فتعودوا بالله من الشيطان فإنهن يرون ما لا ترون »^(١)

(١) مسند أحمد ٣/٣٠٦ وسنن أبى داود - كتاب الأدب - باب ما جاء فى الديك والبهائم ٥/٣٣٢ رقم ٥١٠٣

وهذا ليس غريباً فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية مالا نراه فالنمل يرى الأشعة فوق البنفسجية ولذلك فإنه يرى الشمس حال الغيم والبومة ترى الفأر في ظلمة الليل البهيم .

الشیطان والجان

الشیطان الذی حدثنا الله عنه كثيراً فی القرآن من عالم الجن ، كان یعبد الله فی بداية أمره ، وسكن السماء مع الملائكة ، ودخل الجنة ثم عصی ربه عندما أمره أن یسجد لآدم استكباراً وعلواً وحسداً ، فطرده الله من رحمته .

والشیطان فی لغة العرب یطلق على كل عاتٍ متمرّد ، وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوه وتمرده على ربه

وأطلق علیه لفظ (الطاغوت) ﴿ الذین آمنوا یقاتلون فی سبیل الله والذین كفروا یقاتلون فی سبیل الطاغوت ﴾ فقاتلوا أولیاء الشیطان إن کید الشیطان كان ضعیفاً ﴿ (سورة النساء ٧٦) وهذا الاسم معلوم عند غالبية أمم الأرض بنفس اللفظ كما یذكر العقاد فی كتابه (إبلیس) وإنما سمی طاغوتاً لتجاوزه حده وتمرده على ربه وتنصیبه نفسه إلهاً یعبد .

وقد یئس هذا المخلوق من رحمة الله ولذا أسماه الله (بإبلیس) والبلس فی لغة العرب من لا خیر عنده وأبلس یئس وتحیر .

ویذكر جمع من علماء السلف أن اسمه قبل أن یعصی (عزازیل) والله أعلم بمدى صحة ذلك .

الشیطان مخلوق :

الذی یطالع ما جاء فی القرآن والحديث عن الشیطان یعلم أنه مخلوق یعقل ویدرک ویتحرك و... لیس كما یقول بعض الذین لا یعلمون : « أنه روح الشر متمثلة فی غرائز الإنسان الحيوانية التي تصدّفه ، إذا تمكنت من قلبه عن المثل الروحية العليا » (دائرة المعارف الحديثة ص ٣٥٧) .

أصله :

سبق القول بأن الشیطان من الجن وقد نازع فی هذه المسألة بعض المتقدمین والمتأخرین وحجتهم فی ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبلیس أبى واستکبر وكان من الکافرين ﴾ سورة البقرة ٣٤ وأمثال هذه الآية التي یستثنی فیها إبلیس من الملائكة ، والمستثنی لا یكون إلا من جنس المستثنی منه عادة .

وقد نقلت لنا كتب التفسير والتاريخ أقوال جملة من العلماء يذكرون أن إبليس كان من الملائكة وأنه كان خازناً للجنة أو للسماء الدنيا وأنه كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة .. إلى آخر الأقوال ، قال ابن كثير في تفسير (٣٢٩٧/٤)

(وقد روى في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا وفي القرآن غنية عن كل ما عده من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروا وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكروه وموضوعه ومتروكه ومكذوبه وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس فيه » وما احتجوا به من أن الله استثنى إبليس من الملائكة ... ليس دليلاً قاطعاً لاحتمال أن يكون الاستثناء منقطعاً ، بل هو كذلك حقاً للنص على أنه من الجن في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ سورة الكهف ٥٠ .

وقد ثبت لدينا بالنص الصحيح أن الجن غير الملائكة والإنس فقد أخبر المصطفى ﷺ : ﴿ أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من نار وأن آدم خلق من طين ﴾ والحديث في صحيح مسلم^(١)

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين (البداية والنهاية ١/٧٩) والذي حققه ابن تيمية : أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله (مجموع الفتاوى ٤/٣٤٦) .

هل الشيطان أصل الجن أم واحد منهم ؟

ليس لدينا نصوص صريحة تدلنا على أن الشيطان أصل الجن أو واحد منهم وإن كان هذا الأخير أظهر لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ سورة الكهف ٥٠ .

وابن تيمية يذهب إلى أن الشيطان أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . (راجع مجموع الفتاوى ٤/٢٣٥ ، ٤/٣٤٦) .

طعام الجن وشرابهم :

الجن والشيطان منهم ، يأكلون ويشربون ، ففي صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له : « ولا تأتيني بعظم ولا بروثة » ولما سأل أبو هريرة الرسول ﷺ بعد ذلك عن سر نهيه عن العظم والروثة ، قال : « هما من طعام الجن وإنه أتانى وفد نصيبين - ونعم الجن - فسألونى الزاد فدعوت الله لهم : أن لا يمروا بعظم ولا روثة إلا وصبروا عليها طعاماً »^(١) وفى سنن الترمذى بإسناد صحيح « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن »^(٢) صحيح الجامع (١٥٤/٢) وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود « أتانى داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم لحمها وكل بعرة علف لدوابكم ، فقال النبى ﷺ - : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم »^(٣).

وقد أخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان يأكل بشماله وأمرنا بمخالفته فى ذلك ما روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله »^(٤).

وفى المسند أيضاً « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله ، قال : أدركتم المبيت وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » وأخرجه مسلم أيضاً^(٥)، ففي هذه النصوص دلالة قاطعة على أن الشياطين تأكل وتشرب .

وكما أن الإنس منهيون عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه من اللحوم فكذلك الجن المؤمنون جعل لهم الرسول - ﷺ - طعاماً كل عظم ذكر اسم الله عليه فلم يبح لهم متروك التسمية ويبقى متروك التسمية لكفرة الجن : الشياطين فإن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر عليه اسم الله ولأجل ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الميتة طعام الشيطان لأنه لم يذكر اسم الله عليها .

واستنتج ابن القيم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ سورة المائدة (٩٠) أن المسكر شراب الشيطان فهو يشرب من الشراب الذى عمله أولياؤه بأمره وشاركهم فى عمله فيشاركهم فى شربه وإثمه وعقوبته .

(١) صحيح البخارى - كتاب مناقب الانصار - باب ذكر الجن ٥٨/٥ .

(٢) سنن الترمذى - كتاب الطهارة - باب ما جاء فى كراهية ما يستنجى به ٢٩/١ رقم ١٨ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب الجهد بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠٢٠ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠١٨ ومسند أحمد ٣/٣٤٦ .

هل يتزاوج الجن ويتكاثرون :

الذى يظهر أن الجن يقع فيهم النكاح وقد استدل بعض العلماء على ذلك بقوله تعالى في أزواج أهل الجنة : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ سورة الرحمن ٥٦ وذكر صاحب (لوامع الأنوار البهية) حديثاً نحتاج إلى نظر في إسناده ، يقول : (إن الجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عدداً)^(١) رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة وسواء أصبح هذا الحديث أم لم يصح فإن الآية صريحة في أن الجن يتأتى منهم الطمث وحسنا هذا دليلاً .

وقد زعم قوم أن الجن لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون وهذا القول تبطله الأدلة من الكتاب والسنة التي سقناها .

وبعض العلماء ذكر أن الجن أنواع منهم من يأكل ويشرب ومنهم من ليس كذلك ، يقول وهب بن منبه « الجن أجناس : فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتوالدون ويتناكحون ويموتون ، قال : وهذه هي السحالي والغول وأشباه ذلك » أخرجه ابن جرير .

وهذا الذى ذكره وهب يحتاج إلى دليل ولا دليل وقد حاول بعض العلماء الخوض في الكيفية التى يأكلون منها هل هو مضغ وبلع أو تشمم واسترواح والبحث فى ذلك خطأ لا يجوز لأننا لا نعلم بالكيفية ولم يخبرنا الله ورسوله ﷺ .

زواج الإنس من الجن :

لازلنا نسمع أن فلاناً من الناس تزوج جنيه أو أن امرأة من الإنس خطبها حتى وقد ذكر السيوطى آثاراً وأخباراً عن السلف والعلماء تدل على وقوع التناكح بين الإنس والجن يقول ابن تيمية : « وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف » .

وعلى فرض إمكان وقوعه فقد كرهه جمع من العلماء كالحسن وقاتدة والحكم وإسحق والإمام مالك - رحمه الله - لا يجد دليلاً ينهى عن مناكحة الجن ، غير أنه لم يستحبه وعلل ذلك بقوله : « ولكنى أكره إذا وجدت امرأة حامل فقيل من زوجك ؟ قالت : من الجن فيكثر الفساد » .

وذهب قوم إلى المنع من ذلك واستدلوا على مذهبهم بأن الله امتن على عباده من الإنس بأنه جعل لهم أزواجاً من جنسهم : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ سورة الروم ٢١ فلو وقع فلا يمكن أن يحدث التآلف والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس فتصبح الحكمة من الزواج لاغية إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليهما فى الآية الكريمة .

وعلى كل فهذه مسألة يزعم بعض الناس وقوعها في الحاضر والماضي فإذا حدثت فهي شذوذ — قلما — يسأل فاعلها عن حكم الشرع فيها وقد يكون فاعلها مغلوباً على أمره لا يمكنه أن يتخلص من ذلك .

ومما يدل على إمكان وقوع التناكح بين الإنس والجن أن حور الجنة قال الله فيهن ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾^(١) فدلّت الآية على صلاحيتهن للإنس والجن على حد سواء .

هل تموت الشياطين :

لا شك أن الجن ومنهم الشياطين يموتون ، إذ هم داخلون في قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ سورة الرحمن ٢٦ - ٢٨ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول : « أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت ، الذي لا يموت والجن والإنس يموتون »^(٢) أما مقدار أعمارهم فلا نعملها إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين أنه سيبقى حياً إلى أن تقوم الساعة : « قال : فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : ﴿ إنك من المنظرين ﴾ سورة الأعراف ١٤ - ١٥ .

أما غيره فلا تدري مقدار أعمارهم إلا أنهم أطول أعماراً من الإنس . ومما يدل على أنهم يموتون أن خالد بن الوليد قتل شيطانة العزة (الشجرة التي كانت تعبدها العرب) وأن صحابياً قتل الجن الذي تمثل بأفعى .

مساكن الجن وأماكنهم وأوقات تواجدهم :

الجن يسكنون هذه الأرض التي تعيش فوقها ويكثر تواجدهم في الخراب والفلوات ومواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والمقابر ولذلك — كما يقول ابن تيمية : يأوى إلى كثير من هذه الأماكن التي هي مأوى الشياطين : الشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين وقد جاءت الأحاديث التي تنهى عن الصلاة في الحمام لأجل ما فيها من نجاسة ولأنها مأوى الشياطين وفي المقبرة لأنها ذريعة إلى الشرك مع أن المقابر قد تكون مأوى للشياطين .

ويكثر تواجدهم في الأماكن التي يستطيعون أن يفسروا فيها كالأسواق فقد أوصى الرسول ﷺ أحد أصحابه قائلاً : (لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته) رواه مسلم في صحيحه^(٣) .

(١) سورة الرحمن الآية : ٥٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الذكر والدعاء حديث رقم ١٧٣٦

(٣) صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة — باب من فضائل أم سلمة ١٩٠٦/٤ رقم ٢٤٥١

والشياطين تبيت في البيوت التي يسكنها الناس وتطردها التسمية وذكر الله وقراءة القرآن خاصة سورة البقرة. وآية الكرسي منها وأخبر الرسول ﷺ أن الشياطين تنتشر وتكثر بحلول الظلام ولذا أمرنا أن نكف صبياننا في هذه الفترة وهو حديث متفق عليه^(١).

والشياطين تهرب من الأذان ولا تطيق سماع صوته وفي رمضان تصفد الشياطين .

من مجالس الشياطين :

تحب الشياطين الجلوس بين الظل والشمس ولذا نهى الرسول ﷺ عن الجلوس بينهما وهو حديث صحيح مروي في السنن وغيرها .

دواب الجن^(٢) .

في حديث ابن مسعود في صحيح مسلم أن الجن سألوا الرسول ﷺ : الزاد ، فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم لحماً وكل بعرة علف لداربكم^(٣) فأخبر أن لهم دواب وأن علف دوابهم بعردواب الإنس .

حيوانات تصاحبها الشياطين :

من هذه الحيوانات الإبل ، يقول الرسول ﷺ : (الإبل خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطاناً) رواه سعيد بن منصور في سننه بإسناد مرسل حسن ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل ، ففي مسند أحمد ، وسنن أبي داود أن الرسول ﷺ قال : (لاتصلوا في مبارك الإبل فإنها من الشياطين وصلوا في مرايض الغنم فإنها بركة ..)^(٤) وفي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح : (ولاتصلوا في أعطان الإبل ، فإنها خلقت من الشياطين)^(٥)

وهذه الأحاديث ترد على من قال بأن علة النهي عن الصلاة في مبارك الإبل نجاسة أبوالها وروثها فالصحيح أن روث وبول ما يؤكل لحمه غير نجس .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٢) مسند أحمد ٤/٣ ، ومسند أبي داود - كتاب الأدب - باب في الجلوس بين الظل والشمس ١٠٦٤/٥ رقم ٤٨٢١

(٣) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب الجهد بالقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٤) مسند أحمد ٤/٣٥٢ وسنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب النهي عن الطلابة في مبارك الإبل ٣٣١/١ رقم ٤٩٣

(٥) سنن ابن ماجه - كتاب المساجد والجماعات - باب الصلاة في أعطان الإبل ومراح الغنم ٢٥٣/١ رقم ٧٦٩

قبح صورة الشيطان :

الشيطان قبيح الصورة وهذا مستقر في الأذهان وقد شبه الله ثمار شجرة الزقوم التي تثبت في أصل الجحيم برؤوس لما علم من قبح صورهم وأشكالهم ﴿ إِنهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (١)

وقد كان النصارى في القرون الوسطى يصورون الشيطان على هيئة رجل أسود ذى لحية مدبية وحواجب مرفوعة وفم ينفث لهباً وقرون وأظلاف وذيل (دائرة المعارف الحديثة ٣٧٥ .

الشيطان له قرنان :

ففى صحيح مسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها نطلع بين قرني شيطان » (٢) وفى البخارى ومسلم عنه : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ، ولا تَتَحَبَّنُوا بصلاتكم طلوع الشمس ، ولا غروبها ، فإنها تطلع بين قرني شيطان » (٣)

والمعنى أن طوائف من المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها عند طلوعها وعند غروبها ، فعند ذلك ينتصب الشيطان فى الجهة التى تكون فيها الشمس حتى تكون عبادتهم له .

وقد نهينا عن الصلاة فى هذين الوقتين ، والصحيح أن الصلاة فى هذين الوقتين جائزة إذا كان لها سبب كتحية المسجد ، ولا تجوز بلا سبب كالنفل المطلق ، لقوله ﷺ (لا تَحْسَبُونَهَا) أى لا تتقصّدوا ومما ورد فيه ذكر قرن الشيطان حديث البخارى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المارق ، فقال : « ها إن الفتن ههنا ، إن الفتن ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » . والمراد بقوله « حيث يطلع قرن الشيطان » أى جهة الشرق (٤)

قدراتهم :

أعطى الله الجنّ قدرة لم يعطها للبشر ، وقد حدثنا الله عن بعض قدراتهم ، فمن ذلك سرعة

الحركة والانتقال :

فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المقدس فى مدة لا تتجاوز قيام الرجل من جلوسه ، فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها ٥٦٧/١ رقم ٨٢٨

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٤٧٦

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٥٠/٤ طبعة الشعب

طرفك (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ، قال الذي عنده علم من الكتاب : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ... ﴾ سورة النمل ٣٩ - ٤٠ .

سبقهم الإنسان في مجالات الفضاء :

ومنذ القدم كانوا يصعدون إلى أماكن متقدمة في السماء ، فيسترقون أخبار السماء ، ليعلموا بالحدث قبل أن يكون ، فلما بعث الرسول ﷺ زادت الحراسة في السماء : ﴿ وأنا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ سورة الجن ٨ - ٩ .

... وقد وضع الرسول ﷺ كيفية استراقهم السمع ، فعن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كالسلسلة على صفوان ، قال عليّ وقال غيره : ينفذهم ذلك ، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الذي قاله الحق ، وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومستمعو السمع هكذا ، واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض ، فربما أدرك الشهاب المسمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذي يليه ، إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة ، فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكذا وكذا ، فوجدناه حقاً نلتى سمعت من السماء » رواه البخاري في صحيحه^(١).

خرافة جاهلية :

وهذا العلم عن السبب الذي من أجله يرمى بشهب السماء قضى على خرافة يتناقلها أهل الجاهلية ، فعن عبد الله بن عباس قال : أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار ، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمى بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله : « ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمى بمثل هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم . فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا - تبارك وتعالى - اسمه - إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذي يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، ثم قال الذي يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال . قال فيستخير بعض أهل السموات بعضاً » ، حتى يبلغ الخبر هذه السماء

(١) صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الحجر ١٠٠/٦ .

الدنيا . فتخطف الجنُّ السمع ، فيقذفون إلى أوليائهم ، ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يقرِّفون فيه ويزيدون » رواه مسلم في صحيحه^(١).

علمهم بالأعمار والتصنيع :

أخبرنا الله أنه سخر الجن لنبيه سليمان ، فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات ، وذكاء ، ومهارات ، ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب * وتماثيل * وجفان كالجواب * وقدور راسيات ﴿ سورة سبأ ١٣ .

ولعلمهم قد توصلوا منذ القدم إلى إكتشاف مثل (الراديو والتلفزيون) . فقد ذكر ابن تيمية — (مجموع الفتاوى ٣٠٩/١١) أن بعض الشيوخ الذي كان لهم اتصال بالجن أخبره وقال له : « إن الجن يرونه شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه من الأخبار به ، قال فأخبر الناس به ، ويوصلون إلى كلام من استغاث بي من أصحابي ، فأجيبه فيوصلون جوابي إليه » .

قدرتهم على التشكل :

للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان ، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك ، ووعد المشركين بالنصر ، وفيه أنزل : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس * وإني جار لكم ﴿ سورة الأفعال آية ٤٨

ولكن عندما التقى الجيشان وعاین الملائكة تنزل من السماء ولی هاربا : ﴿ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ﴾ وقال : إني برىء منكم * إني أرى ما لا ترون * إني أخاف الله ﴿ سورة الانفال ٤٨ . وقد جرى مع أبي هريرة قصة طريفة رواها البخاري وغيره ، قال أبو هريرة : وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : إني محتاج ، وعلى عيال ، ولي حاجة شديدة ، قال فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ، قال : قلت ، يا رسول الله شكاً حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله قال أما إنه كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود ، فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : الأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، ثم تعود ! قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت ما هو ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي . الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴿

حتى تختم الآية ، فأنتك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لى رسول الله ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليب سبيله ، قال : ماهى ؟ قلت قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شىء على الخير ، قال النبى : أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ياأبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطان ، فقد تشكل هذا الشيطان فى صورة إنسان^(١) .

وقد يتشكل فى صورة حيوان : جمل ، أو حمار ، أو بقرة ، أو كلب ، أو قط . خاصة الكلاب السود ، ولذا أخبر الرسول ﷺ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة ، وعلل ذلك بأن (الكلب الأسود شيطان) يقول ابن تيمية : « الكلب الأسود شيطان الكلاب ، والجن تتصور بصورته كثيرا » ، وكذلك بصورة القط الأسود ، لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وفيه قوة الحرارة .

حيات البيوت :

تشكل الجن بشكل الحيات وتظهر للناس ، ولذا نهى الرسول ﷺ عن قتل حيات البيوت ، خشية أن يكون هذا المقتول جنيا قد أسلم ، ففى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بالمدينة نفراً من الجن قد أسلموا فمن رأى شىئاً من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثاً ، فإن بدا له بعد فليقتله ، فإنه شيطان »^(٢) .

وقد قتل أحد الصحابة حية من حيات البيوت ، فكان فى ذلك هلاكه ، روى مسلم فى صحيحه : أن أبا السائب دخل على أبى سعيد الخدرى فى بيته ، فوجده يصلى ، قال : فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكاً فى عراجين فى ناحية البيت ، فالتفت ، فإذا حية ، فوثبت لأقتلها ، فأشار إلى أن اجلس ، فجلست ، فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار ، فقال : أترى هذا البيت ؟ قلت : نعم . قال : كان فيه فتى مّا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « خذ عليك سلاحك ، فإنى أخشى عليك قريظة ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثم رجع ، فإذا إمرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به ، وأصابته غيره ،

(١) صحيح البخارى - كتاب الوكالة - باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً ١٣٣/٣

(٢) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ٢٢٣٦ .

فقلت له : اكفف عليك رمحك ، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج ، فركزه فى الدار ، فاضطربت عليه ، فما يدرى أيهما كان أسرع موتاً : الحية أم الفتى ؟ قال : فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، وقلنا ادع الله يحيه لنا ، فقال : « استغفروا لصباحكم » ، ثم قال : « إن بالمدينة جنًا قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً فأذنوه ثلاثة أيام ، فإن بدالكُم بعد ذلك فأقتلوه ، فإنما هو شيطان »^(١).

تنبيهات :

- ١ - هذا الحكم ، وهو النهى عن قتل هذه الحيوانات خاص بالحيات دون غيرها .
- ٢ - وليس كل الحيات ، بل الحيات التى نراها فى البيوت دون غيرها ، أما التى نشاهد خارج البيوت فنحن مأمورون بقتلها .
- ٣ - إذا رأيت حيات البيوت فنؤذنها أى نأمرها بالخروج ، كأن نقول : أقسمت عليك بالله أن تخرجى من هذا المنزل ، وأن تبعدى عنا شرك وإلا قتلناك فإن رؤيت بعد ثلاثة أيام قتلت .
- ٤ - والسبب فى قتلها بعد ثلاثة أيام أننا نكون قد تأكدنا أنها ليست جناً مسلماً ، لأنها لو كانت كذلك لغادرت المنزل ، فإن كانت أفعى حقيقية فهى تستحق القتل ، وإن كانت جناً كافراً متمرداً فهو يستحق القتل ، لأذاه وإخافته أهل المنزل .
- ٥ - يستثنى من جنان البيوت نوع يقتل بدون استئذان ، ففى صحيح البخارى عن أبى لبابة أن الرسول ﷺ - قال : (لا تقتلوا الجنان ، إلا كلٌ أترذى طفيتين ، فإنه يسقط الولد ، ويذهب البصر فأقتلوه)^(٢).
- وهل كل الحيات من الجن أم بعضها ؟ يقول الرسول ﷺ إن الحيات مسيخ الجن كما مسخت القرودة والخنازير من بنى إسرائيل « رواه الطبرنى^(٣) وأبو الشيخ فى العظمه بإسناد صحيح ، راجع الأحاديث الصحيحة ١٠٤/٣ .

الشيطان يحرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق :

ففى صحيح البخارى عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يحرى من الإنسان مجرى اندم »^(٤) وفى الصحيحين عن صفية بنت حى زوج النبى ﷺ قالت : « كان رسول

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ١٤١ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب قوله تعالى : وبث فيها من كل دابة ١٥٦/٤ .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤١/١١ رقم ١١٨٤٦ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة الشيطان ١٥٠/٤ .

الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليقبني (يروني) ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمرّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعَا ، قال النبي ﷺ : على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله !! قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً ، أو قال : شيئاً ^(١) .

ضعفهم وعجزهم :

الجن والشياطين فيهم جوانب قوة ، وجوانب ضعف ، قال تعالى : ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ سورة النساء ٧٦ ، وسنعرض لبعض هذه الجوانب التي عرفنا الله ورسوله بها .

لاسلطان لهم على عباد الله الصالحين :

لم يعط الرب سبحانه الشيطان — القدرة على إجبار الناس ، وإكراههم على الضلال والكفر ، ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وكفى بربك وكيلًا ﴿ سورة الإسراء ٦٥ . ﴾ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك ﴿ سورة سبأ ٢١ . ﴾ ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ، ولا من جهة القدرة ، والشيطان يدرك هذه الحقيقة ، قال : ﴿ رب بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠ .

وإنما يتسلط على العباد الذين يرضون بفكره ، ويتابعوه عن رضا وطواعية : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ سورة الحجر ٤٢ . وفي يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ سورة إبراهيم ٢٢ .

وفي الآية الأخرى : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ والذين هم به مشركون ﴿ سورة النحل ١٠٠ . ﴾ والسلطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم ، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه ، ولا يدعهم يتركونه كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ سورة مريم ٨٣ ، ومعنى تؤزهم تحركهم وتهيجهم .

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس له فيه حجة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته ، فلما أعطوا بأيديهم ، واستأسروا له سُلط عليهم عقوبة لهم . فالله لا يجعل للشيطان

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٠٤ .

على العبد سلطاناً ، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به ، فجعل الله حينئذ له عليه تسليماً وقهراً .

وقد يسلط على المؤمنين بسبب ذنوبهم :

ففي الحديث « إن الله تعالى مع القاضي ما لم يجز ، فإذا جار تبرأ منه ، وألزمه الشيطان » رواه الحاكم ، والبيهقي بإسناد حسن (أنظر صحيح الجامع ١٣٠/٢) .

ويروى لنا أبو الفرج ابن الجوزي - رحمه الله - عن الحسن البصري - رحمه الله - قصة طريفة ، وبغض النظر عن مدى صحتها إلا أنها تصور قدرة الإنسان على قهر الشيطان إذا أخلص دينه لله ، وكيف يصرع الشيطان الإنسان ؟ إذا ضل وزاغ ، يقول الحسن : (كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليه رجل ، فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء ليقطعها غضباً لله فلقه إبليس في صورة إنسان ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله ، قال إذا أنت لم تعبد ما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها ، فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك ؟ لا تقطعها ، ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وصادتك . قال : فمن أين لي ذلك ؟ قال أنا لك . فرجع ، فأصبح فوجد دينارين عند وصادته ، ثم أصبح بعد ذلك ، فلم يجد شيئاً . فقام غضباً ليقطعها ، فتمثل له الشيطان في صورته ، وقال : ما تريد ؟ قال : أريد قطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله تعالى . قال : كذبت ، مالك إلى ذلك من سبيل ، فذهب ليقطعها فضرب به الأرض ، خنقه حتى كاد يقتله ، قال : أتدرى من أنا ، أنا الشيطان ، جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لي عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين ، فتركتها ، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك) (إبليس ٤٣) .

وقد حدثنا الله في كتابه عن شخص آتاه الله آياته ، فعلمها ، وعرفها ، ثم إنه ترك ذلك كله ، فسلط الله عليه الشيطان ، فأغواه ، وأضله ، وأصبح عبدة تروى ، وقصة تتناقل ، ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا * فانسلخ منها * فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها * ولكنّه أخلد إلى الأرض * واتبع هواه * فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث * أو تتركه يلهث * ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا * فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (سورة الأعراف ١٧٥ - ١٧٦) . وواضح أن هذا مثل لمن عرف الحق وكفر به كاليهود الذين يعلمون أن محمداً مرسل من ربه ، ثم هم يكفرون به .

أما هذا الذى عناه الله هنا ، فقال بعضهم : هو بلعام بن باعورا ، كان صالحاً ثم كفر ، وقيل : هو أمية بن أبى الصلت من المتألهين فى الجاهلية ، أدرك الرسول ﷺ — ولم يؤمن به حسداً ، وكان يرجو أن يكون هو النبى المبعوث ، وليس عندنا نص صحيح يعرفنا بالمراد من الآية على وجه التحديد . وهذا الصنف (الذى يؤتى الآيات ثم يكفر) صنف خطر به شبه من الشيطان ، لأن الشيطان كفر بعد معرفته الحق ، ولقد تخوف الرسول ﷺ هذا النوع من أمته ، روى الحافظ أبو يعلى عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : (إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رأيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك) قال : قلت يا رسول الله : أيهما أولى بالسيف : الرامى أم المرمى ؟ قال (بل الرامى) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد (انظر تفسير ابن كثير ٢٥٢/٣)^(١)

خوف الشيطان وهربه من بعض عباد الله :

إذا تمكن العبد فى الإسلام ، ورسخ الإيمان فى قلبه ، وكان وقافاً عند حدود الله فإن الشيطان يفرق منه ، ويفر منه ، كما قال الرسول ﷺ : لعمر بن الخطاب : (إن الشيطان ليفرق منك يا عمر) ، رواه أحمد ، وابن حبان بإسناد صحيح^(٢) (صحيح الجامع ٧٤/٢) . وقال فيه أيضاً : « إني لأنظر شياطين الجن والإنس فروا من عمر » رواه الترمذى بإسناد صحيح^(٣) (صحيح الجامع ٣٢٩/٢) : وليس ذلك خاصاً بعمر ، فإن من قوى إيمانه يقهر شيطانه : ويذله ، كما فى الحديث : (إن المؤمن لينفى شياطينه كما ينحنى أحدكم بغيره فى السفر) ، رواه أحمد^(٤) قال ابن كثير فى (البداية ٧٣/١) بعد سوجه لهذا الحديث : (ومعنى لينص شيطانه : ليأخذ بناحيته فيغلبه ، ويقهر ، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه) .

وقد يصل الأمر أن يؤثر المسلم على قرينه الملازم له فيسلم ، أخرج الإمام أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياى ، ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بخير) وفى رواية ابن عباس عن الإمام أحمد بإسناد على شرط الصحيح : (ولكن الله أعاننى عليه فأسلم) وفى رواية عائشة عن مسلم (ولكن رى أعاننى عليه حتى أسلم)^(٥)

(١) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٥٠٩/٣

(٢) مسند أحمد ٣٥٣/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب المناقب ٢٠/٩ رقم ٦٨٥٣

(٣) سنن الترمذى - كتاب المناقب - باب مناقب عمر ٦٢٢/٥ رقم ٣٦٩١

(٤) مسند أحمد ٣٨٠/٢ .

(٥) مسند أحمد ٣٨٥/١ وصحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريم الشيطان ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤ .

تسخير الجن لسليمان :

سخر الله لنبيه سليمان في جملة ما سخر الجن ، والشياطين يعملون له ما يشاء ، ويعذب ويسجن العصاة منهم : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴿ سورة ص ٣٦ - ٣٨ وقال في سورة سبأ : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴿ سورة سبأ ١٢ - ١٣ .

وهذا التسخير على هذا النحو إستجابة من الله لعبده سليمان عندما دعاه وقال : ﴿ وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ سورة ص ٣٥ . وهذه الدعوة هي التي منعت نبينا محمد ﷺ من ربط الجن الذي جاء بشهاب من نار ، يريد أن يرميه في وجهه ، ففي صحيح مسلم عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ، ثم قال : (ألعنك بلعنة الله ثلاثاً) ، وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا ، لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت . يدك ، فقال : (إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله المقالة ، فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة) وقد تكرر هذا أكثر من مرة ففي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : (إن عفريتاً من الجن جعل يتفلى على البارحة ليقطع على الصلاة ، وإن الله أمكنني منه ، فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ، أو كلكم ، ثم ذكرت قول أخى سليمان رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فرده الله خاسئاً)

كذب اليهود على سليمان :

يزعم اليهود وأتباعهم الذين يستخدمون الجن بواسطة السحر أن نبي الله سليمان كان يستخدم الجن بها وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر وكفر وجعلتهما تحت كرسیه ، وقالوا : كان سليمان يستخدم الجن بهذه ، فقال بعضهم : لولا أن هذا حصد جائر لما فعله سليمان ، فأنزل الله قوله : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ سورة البقرة ١٠١ . ثم بين أنهم أتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد سليمان وبرأ سليمان من السحر والكفر :

﴿ واتبعوا ماتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ سورة البقرة ١٠٢ .

عجزهم عن الإتيان بالمعجزات :

لا تستطيع الجن الإتيان بمثل المعجزات التي جاءت بها الرسل تدليلاً على صدق ما جاءت به .

فعندما زعم بعض الكفرة أن القرآن من صنع الشياطين قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ سورة الشعراء ٢١٠ - ٢١٢ .

وتحذى الله بالقرآن الإنس والجن : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن * لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ سورة الإسراء ٨٨ .

لا يتمثلون بالرسول ﷺ في الرؤيا :

والشياطين تعجز عن التمثيل في صورة الرسول ﷺ في الرؤيا ففي الحديث الذي يرويه الترمذى في سننه بإسناد صحيح : (من رأى فإني أنا هو * فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بي)^(١) وهو في الصحيحين يلفظ : (من رأى فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتزيا بي)^(٢) ، (الجامع الصحيح ٣٩٣/٥) .

والظاهر من الأحاديث أن الشيطان لا يتزيا بي بصورة الرسول ﷺ الحقيقية ولا يمنعه هذا من التمثيل في غير صورة الرسول ﷺ والزعم بأنه رسول الله :

ولذلك فلا يجوز أن يتبع بهذا الحديث على أن كل من رأى الرسول ﷺ في المنام أن رآه حقاً ، وإلا إذا كانت صفته هي الصفة التي روتها لنا كتب الحديث ، وإلا فكثير من الناس يزعم أنه رآه على صورة مخالفة للصورة المروية في كتب الثقات .

لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدوداً معينة في أجواز الفضاء :

قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس * إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ فبأى آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكم شواظ من نار ولحاس * فلا تتصران ﴾ سورة الرحمن ٣٣ - ٣٥ .

(١) سنن الترمذى - كتاب الرؤيا - باب في تأويل الرؤيا ٥٣٧/٤ رقم ٢٢٨٠

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٦١

فمع قدراتهم وسرعة حركتهم لهم مجالات لا يستطيعون أن يتعدوها ، وإلا فإنهم هالكون .

لا يستطيعون فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه :

أخبر بذلك الرسول ﷺ حيث يقول : (أجيفوا الأبواب ، وأذكروا اسم الله عليها فإن الشيطان لا يفتح باباً أجيف عليه) رواه أبو داود ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم بإسناد صحيح^(١) والجامع الصحيح ٢٢٩/١ .

وفي الحديث المتفق عليه : (فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، وأذكروا اسم الله وخمروا آنتكم ، وأوكوا أسقيتكم ، وأطفئوا سرجكم فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، ولا يكشف غطاءً ، ولا يحل وكاء)^(٢) .

الغاية من خلقهم

خلق الجن للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ سورة الذاريات الآية ٥٦ .

فالجن على ذلك مكلفون بأوامر ونواهي ، فمن أطاع رضى الله عنه وأدخله الجنة ، ومن عصى وتمرد فله النار ، يدل على ذلك نصوص كثيرة .

ففى يوم القيامة يقول الله مخاطباً كفرة الجن والإنس موبخاً مبكثاً : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا * وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ سورة الأنعام الآية ١٣٠

ففى هذه الآيات دليل على بلوغ شرع الله الجن ، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم . والدليل على أنهم سيعذبون فى النار قوله تعالى : ﴿ قال ادخلوا فى أعم قدخلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ﴾ سورة الأعراف الآية ٣٨ .

وقال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

وقال : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ سورة السجدة الآية ١٣ .

(١) سنن أبى داود - كتاب الأشربة ١١٧/٤ رقم ٢٧٣١ ومسند أحمد ٣/٣٠٦ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب الطهارة

٢٨٤/٢ رقم ١٢٦٩ والحاكم فى المستدرک - كتاب الأدب ٢٨٤/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٣) مسند أحمد ٣/٣٠١

والدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ سورة الرحمن الآية ٤٦ - ٤٧ .

وفي الآية السابقة امتنان من الله على مؤمن الجن بأنهم سيدخلون الجنة ولولا أنهم ينالون ذلك لما أمتن عليهم به . يقول ابن مفلح في كتابه الفروع : (الجن مكلفون في الجملة إجماعاً يدخل كافرهم النار إجماعاً ، ويدخل مؤمنهم الجنة وفقاً لمالك والشافعي — رضى الله عنهما — لا أنهم يصيرون تراباً كالبهائم ، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافاً لأبي حنيفة ، والليث بن سعد ومن وافقهما . قال : وظاهر الأول أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم خلافاً لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهداً أو أنهم في ربض الجنة ، أى حول الجنة (كعمر بن عبد العزيز) ، قال ابن حامد في كتابه : (الجن كالإنس في التكليف والعبادات) (لوامع الأنوار ٢/٢٢٢ - ٢٢٣) .

تكليفهم بحسبهم :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٢٣٣/٤) ، (الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا بمماثلين للإنس في الحدّ والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحدّ ، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين) .

شبهه والرد عليها :

يورد بعض الناس شبهة فيقولون : أنتم تقررون أن الجن خلقوا من نار ، ثم تقولون إن كافرهم يعذب في نار جهنم ، ومسترق السمع يقذف بشهب من نار ، فكيف تؤثر النار فيهم وقد خلقوا منها ؟

والجواب أن الأصل الذي خلقوا منه النار ، أما بعد خلقهم فليسوا كذلك ، إذا أصبحوا خلقاً مخالفاً للنار ، يوضح هذا أن الإنسان خلق من تراب ، ثم بعد إيجادهم أصبح مخالفاً للتراب ، ولو ضربت إنساناً بقطعة مشوية من الطين فقد تقتله ولو رميته بالتراب لآذاه ، ولو دفنته فيه فإنه يخنق ، فمع أنه من تراب إلا أن التراب يؤذيه ، فكذلك الجن .

لا نسب بين الجن ورب العزة :

هذا الذى ذكرناه مع أن الجن خلق من خلق الله ، وعباد من جملة عباد خلقهم لطاعته ، وكلفهم بشرعته ، يقضى على الخرافات التى تنشأ عن الانحراف فى القصور ، وعن ضمور العلم وكثرة

الجهل ، فمن ذلك ما شاع عند اليهود ومشركي العرب ، من أن الله تعالى وتقدس خطب من سروات الجن وتزوج منهم ؟ وكان الملائكة ثمة هذا الزواج ، وقد حكى الله هذه الخرافة وبين بطلانها ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحانه الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين ﴿ سورة الصافات الآية ١٥٨ - ١٦٠ .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات : (قال مجاهد : قال المشركون الملائكة بنات الله — تعالى عما يقولون — فقال أبو بكر — رضى الله عنه — فمن أمهاتهن ؟ قالوا بنات سروات الجن ، وبمثل قول مجاهد قال قتادة وابن زيد ... وقال العوفي عن ابن عباس : « زعم أعداء الله أنه — تبارك وتعالى — هو وإبليس أخوان — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

كيف يبلغون وحي الله إليهم ؟

بما أنهم مكلفون فلا بد أن يبلغهم الله وحيه ويقم عليهم الحجة ، فكيف حصل ذلك ؟ هل لهم رسل منهم كما للبشر رسل منهم ، أم أن رسلهم هم رسل البشر ؟

إن قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ... ؟ ﴾ (سورة الأنعام الآية ١٣٠) يدل على أن الله أرسل إليهم رسلاً . ولكنها لم تصرح بأن هؤلاء الرسل من الجن أم من الإنس ، لأن قوله (منكم) يحتمل كلا الأمرين ، فقد يكون المراد أن رسل كل جنس منهم ، وقد يراد أن رسل الإنس والجن من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهم الإنس وقد اختلف العلماء من ذلك على قولين :

الأول : أن للجن رسلاً منهم ، ومن قال بهذا القول الضحاك ، وقال ابن الجوزي : وهو ظاهر الكلام . وقال ابن حزم لم يبعث إلى الجن بنى من الإنس البتة قبل محمد — ﷺ .

الثاني : أن رسل الجن من الإنس قال السيوطي في (لقط المرجان) : (جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولا بنى كذا روى عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وأبي عبيد) . (لوامع الأنوار ٢/٢٢٣ - ٢٢٤)

ومما يرجح أن رسل الإنس هم رسل الجن قول الجن عند سماع القرآن : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ سورة الأحقاف ٣٠ ولكنه ليس نصاً من المسألة وهذه المسألة لا يبنى عليها عمل ، وليس فيها نص قاطع ، ولذلك لا ينبغي أن نطيل فيها أكثر من ذلك .

عموم رسالة محمد ﷺ الإنس والجن :

محمد ﷺ مرسل إلى الجن والإنس ، يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٩/١٩) (وهذا أصل

متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، وسائر طوائف المسلمين : أهل السنة والجماعة ، وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين) بدل على ذلك تحدى القرآن .

الجن والإنس : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله * ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ سورة الإسراء ٨٨ . وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن * فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهdy إلى الرشd فأما به ولن نشرك بربنا أحداً .. ﴾ سورة الجن ١١-٢ .

وهؤلاء الذين استمعوا القرآن وآمنوا هم المذكورون فى سورة الأحقاف : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن * فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهdy إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴾ سورة الأحقاف ٢٩ - ٣٢ . استمعوا للقرآن وآمنوا به ورجعوا دعاة يدعون قومهم إلى التوحيد والإيمان ويشرونهم وينذرونهم .

وقصة هؤلاء الذين استمعوا للرسول ﷺ يروها البخارى ومسلم عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شئ حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وأنظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن — قالوا : استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهdy إلى الرشd فأما به ، وأنزل الله على نبيه ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ سورة الجن ١ . وإنما أوحى إليه قول الجن (١) .

وفود الجن :

تلك كانت بداية معرفة الجن برسالة محمد ﷺ استمعوا لقراءة القرآن بدون علم الرسول ﷺ

فآمن فريق منهم وانطلقوا دعاة هداة . ثم جاءت وفود الجن بعد ذلك تتلقى العلم من الرسول ﷺ وأعطاهم الرسول ﷺ من وقته وعلمهم مما علمه الله وقرأ عليهم القرآن وبلغهم خبر السماء ... وكان ذلك في مكة قبل الهجرة ، روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود — رضى الله عنه هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان وجه الصبح — أو قال — في السحر إذا نحن به يجيء من قبل حراء فقلنا يا رسول الله ، فذكروا له الذى كانوا فيه فقال : « إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم^(١) وفي رواية عن الطبرى عن ابن مسعود : « بتُّ الليلة أقرأ على الجن واقفا

بالحجون » . ومما قرأه عليهم ﷺ سورة الرحمن ، يقول ﷺ : « لقد قرأتها يعنى سورة الرحمن » على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » رواه البزار والحاكم وابن جرير بإسناد صحيح^(٢) (الجامع الصحيح ٣٠/١) ولم تكن تلك الليلة هي الليلة الوحيدة بل تكرر لقاءه — ﷺ بالجن بعد ذلك ، وقد ساق ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف — الأحاديث التى وردت بشأن اجتماعه ﷺ بالجن وفي بعضها أن ابن مسعود كان قريباً من الرسول ﷺ في إحدى تلك الليالى ، وقد ورد في بعض الروايات في صحيح البخارى أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من ناحية من نواحي اليمن من مكان يسمى « نصيبين » ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أتاني وفد نصيبين — ونعم الجن — فسألوني الزاد ، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا روثه إلا وجدوا عليها طعاماً »^(٣).

دعوتهم للإنس :

وفي بعض الأحاديث الصحاح أن بعض الجن كان له دور في هداية الإنس ، ففى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب سأل رجلاً كان كاهناً في الجاهلية عن أعجب ما جاءته به جنيته قال : « بينا أنا يوماً في السوق جاءتنى أعرف فيها الفرع فقالت : »

ألم تر الجن وإبلاسهها وبأسهها بعد إنكاسهها
ولحقوها بالقلاص وأحلاسها

(١) صحيح مسلم — كتاب الصلاة — باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار — كتاب التفسير — سورة الرحمن ٧٤/٣ رقم ٢٢٦٩ والمستدرک للحاكم — كتاب التفسير — تفسير

سورة الرحمن ٤٧٣/٢ ، وتفسير الطبرى — سورة الرحمن آية رقم ١٦ — ٧٢/٢٧ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب المناقب الأنصار — باب ذكر الجن ٥٨/٥

قال : عمر رضى الله عنه — صدق ، بينما أنا نائم عند آهتهم إذ جاء رجل بعجل ، فذبحه ، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله ، قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم علم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله فقامت فما نشبنا أن قيل هذا بنى . قال ابن كثير فى تفسير سورة الأحقاف بعد أن ساق هذا الحديث : « هذا سياق البخارى ، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب بنحوه ، ثم قال : مظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر — رضى الله عنه — بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح ، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر — رضى الله عنه ، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ، والله أعلم ثم قال : وهذا الرجل (الكاهن) هو سواد بن قارب »^(١).

أمرهم بالخير وشهادتهم للمسلم :

أخبر الرسول ﷺ بأن قرينه من الجن أسلم فلا يأمره إلا بخير . وقد قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه لأبى صعصعة الأنصارى : « إني أراك تحب البادية والغنم ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شئ إلا شهد له يوم القيامة » . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ (رواه البخارى) فقد أخبر أن الجن يشهدون يوم القيامة لمن يسمعون صوت أذان »^(٢).

مراتبهم فى الصلاح والفساد :

وهم فى هذا طوائف : فمنهم الكامل فى الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ، ومنهم البله المغفلون ، ومنهم الكفرة ، وهم الكثرة الكاثرة ، يقول الله سبحانه فى حكايته عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن : ﴿ وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا ﴾ سورة الجن ١١ ، أى : منهم الكاملون فى الصلاح ، ومنهم أقل صلاحاً ، فهم مذاهب مختلفة كما هو حال البشر .

ويقول الله عنهم : ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ سورة الجن ١٤ - ١٥ . أى : أن منهم المسلمين والظالمين أنفسهم بالكفر فمن أسلم منهم فقد قصد الهدى بعمله ، ومن ظلم نفسه فهو حطب جهنم .

(١) صحيح البخارى - باب السلام عمر بن الخطاب ٦١/٥ وانظر ابن كثير طبعة الشعب ٢٨١/٧ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم ١٥٤/٤٠ .

طبيعة الشيطان :

أعطى الله الجن القدرة على الإيمان والكفر ، ولذلك كان الشيطان عابداً مع الملائكة ثم كفر . فلما تحول إلى الكفر ورضى به أصبح محباً للشر طالباً له ، يتلذذ بفعله والدعوة إليه ، ويحرص عليه بمقتضى خبث نفسه وإن كان موجباً لعذابه . (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)^(١) وهذا يكون في الإنسان ، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي ما يضره ويلتذ به بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله ، وحسبك أن تتأمل في حال شارب الخمر والدخان ، فإن هذين **تقتلان** شاربيهما ويفتكان بهما ولا يستطيعان منهما خلاصاً إلا بشق الأنفس .

هل يسلم الشيطان ؟

يظهر من حديث رسول الله ﷺ الذي يخبر فيه أن الله أعانه على شيطانه فأسلم فلا يأمره إلا بخير أن الشيطان يمكن أن يسلم بدليل أن شيطان الرسول ﷺ أسلم إلا أن بعض العلماء يرفض ذلك ويقول الشيطان لا يكون مؤمناً ، منهم شارح الطحاوية (٤٣٩) ووجه قوله : (فأسلم) أى **فانقاد** واستسلم .

وبعض العلماء يرى أن الرواية (فأسلم) برفع الميم ، أى فأنا أسلم منه ومع أن شارح الطحاوية يرى أن رواية الرفع تحريف للفظ إلا أن في شرح النووي على مسلم قال : « هما روايتان مشهورتان » وعزى إلى الخطابي أنه رجع رواية الضم . ومن يرى أن الشيطان يمكن أن يسلم ابن حبان قال معلقاً على الحديث : (في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى أنه لم يكن يأمره إلا بخير إلا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً) .

وما ذهب إليه شارح الطحاوية من أن الشيطان لا يكون إلا كافراً فيه نظر ، فإن كان يرى أن الشيطان لا يطلق إلا على كافر الجن فهذا صحيح ، وإن كان يرى أن الشيطان لا يمكن أن يتحول إلى الإسلام فهو بعيد جداً ، والحديث حجة عليه .

ما أسباب العداء بين الإنسان والشيطان ؟

العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور يعود تاريخه إلى اليوم الذى شكل الله فيه آدم قبل أن ينفخ فيه الروح ، **فأخذ** الشيطان يطيف به ، ويقول : لئن سلطت عليك أهلكنك ففى صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لما صور الله آدم في الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه

فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر مما هو ، فلما رآه أجوف عرف أن خلق خلقاً لا يتمالك»^(١).

فلما نفخ الله في آدم الروح ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر ، ولكنه تعاظم في نفسه واستكبر ، وأبى السجود لآدم : (قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين)^(٢). لقد فتح أبونا آدم عينيه ، فإذا به يجد أعظم تكريم ، يجد الملائكة ساجدين له ، ولكنه يجد عدوا رهيباً يهدده وذريته بالهلاك والإضلال .

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره ، وحصل على وعد من الله بإبقائه حياً إلى يوم القيامة : ﴿ قال فأنظرنى إلى يوم يعثون ، قال إنك من المنظرين ﴾ سورة الأعراف ١٤ - ١٥ . وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بنى آدم والكيد لهم : ﴿ قال فما أغويته لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ سورة الأعراف ١٦ - ١٧ . وقوله هذا يصور مدى الجهد الذى يبذله لإضلال ابن آدم ، فهو يأتيه من كل طريق ممكن ، عن اليمين والشمال ، ومن الأمام ، ومن الخلف أى من جميع الجهات قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : (ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى يأتى منها العدو فى الغالب ، وهذا مثل لو سوسته إليهم ، وتسوياه لهم ما أمكنه وقدر عليه) كقوله : ﴿ واستفز من استطعت منهم بصوتك ﴾ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ . سورة الإسراء ٦٤ .

تحذير الله لنا من الشيطان :

وقد أطل القرآن فى تحذيرنا من الشيطان لعظيم فتنه ، ومهارته فى الإضلال ودأبه وحرصه على ذلك ، قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان .. ﴾ سورة الأعراف ٢٧ . وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ سورة فاطر ٦ . وقال : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراً مبيناً ﴾ سورة النساء ١١٩ . وعداوة الشيطان لا تحول ولا تزول لأنه يرى أن طرده ولعنه وإخراجه من الجنة كان بسبب أينا آدم ، فلا بد أن ينتقم من آدم وذريته من بعده : ﴿ قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكّن ذريته إلا قليلاً ﴾ سورة الإسراء ٦٢ . وأرباب السلوك وعلماء الأخلاق اعتنوا بذكر النفس وعيوبها وآفات وقصروا فى التعرف على عدوهم اللدود ، مع أن الله حذرنا منه كثيراً ، وأمرنا بالاستعاذة منه ، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس فى موضع واحد ، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها فى خطبة النكاح فى قوله ﷺ : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا »^(٣).

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك ٢٠١٦/٤ رقم ٢٦١١

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٢ .

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح ٦١٠/١ رقم ١٨٩٣

ما أهداف الشيطان ؟

الهدف البعيد :

هناك هدف وحيد يسعى الشيطان لتحقيقه في نهاية الأمر ، هو أن يلقي الإنسان في الجحيم ويحرمه من الجنة ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ سورة فاطر ٦ .

الأهداف القريبة :

١ - إيقاع العباد في الشرك والكفر :

وذلك بدعوتهم إلى عبادة غير الله والكفر بالله وشريعته : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر * فلما كفر * قال إني بريء منك ﴾ سورة الحشر ١٦ . وروى مسلم في صحيحة عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ خطب ذات يوم ، فقال في خطبة : (يا أيها الناس إن الله تعالى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومى هذا ، كل مال نخلته عبدا حلال ، وإني خلقت عبادى حنفاء كلهم ، فأتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً)^(١)

٢ - إذا لم يستطع تكفيرهم فيوقعهم في الذنوب :

فإذا لم يستطع إيقاعهم في الشرك والكفر ، فإنه لا يئس ، ويرضى بما دون ذلك من إيقاعهم في الذنوب والمعاصي ، وغرس العداوة والبغضاء في صفوفهم ، ففى سنن الترمذى وابن ماجه بإسناد حسن (ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلدكم هذا أبداً ، ولكن ستكون له طاعة فى بعض ما تحقرون من أعمالكم ، فيرضى بها)^(٢) . وفى صحيح مسلم وغيره : (إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم)^(٣) أى : بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم وإغراء بعضهم ببعض ، كما قال تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟ ﴾ . سورة المائدة ٩١ . وهو يأمر بكل شر ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء * وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . سورة البقرة ١٦٩ .

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نصيحها - باب الصفات التى يعرف بها الدنيا ٢١٩٧/٤ رقم ٢٨٦٥

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب المناسك - باب الخطبة يوم الغر ١٠١٥/٢ رقم ٣٠٥٥ وسنن الترمذى كتاب الفتن - باب ما جاء فى تحريم الدماء والأموال ٣١٢/٣ رقم ٢٢٤٨

(٣) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريش الشيطان ٢١٦٦/٤ رقم ٢٨١٢ وسنن الترمذى - كتاب البر والصلة -

باب ما جاء فى التباغض ٢٢١/٣ رقم ٢٠٠٢

وخلاصة الأمر فكل عبادة محبوبة لله فهي بغیضة إلى الشیطان ، وكل معصية مكروهة للرحمن فهي محبوبة للشیطان .

٣ - صدّه العباد عن طاعة الله :

وهو لا یكتفى بدعوة الناس إلى الكفر والذنوب والمعاصی بل یصدّهم عن فعل الخیر ، فلا یترك سبیلاً من سبل الخیر یسلكه عبد من عباد الله إلا قعد فیهِ ، یصدّهم ویمیل بهم ، ففی الحدیث : (إن الشیطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطریق الإسلام فقال : تسلّم ونذر دینك ودين آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطریق الهجرة ، فقال : (تهاجر وتدع أرضك وسماؤك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فی الطول ، الطول الحبل الطویل ، یشد أحد طرفیه فی وتد أو غیره ، والطرف الآخر فی يد الفرس لیدور فیهِ ، ویرعى ولا یذهب لوجهه) . فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطریق الجهاد ، فقال : (تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ویقسم المال؟! فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن یدخله الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله أن یدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن یدخله الجنة ، وإن وقصته دابة كان حقاً على الله أن یدخله الجنة)^(٣) . رواه أحمد والنسائی وابن حبان بإسناد صحیح (صحیح الجامع ٧٢/٢) ومصدق ذلك فی کتاب الله ما حکاه الله عن الشیطان أنه قال لرب العزة : ﴿ فبما أغويتنی لأقعدن لهم صراطك المستقیم ﴾ ثم لآتینهم من بین أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم * ولا تجد أكثرهم شاكرین ﴿ سورة الأعراف ١٦ ، ١٧ . وقوله : ﴿ لأقعدن لهم صراطك ﴾ : أى على صراطك ، فهو منصوب بنزع الخائض أو هو منصوب بفعل مضمر ، أى لألزمّن صراطك ، أو لارصدته ، أو لأعوججه . وعبارات السلف فی تفسیر الصراط متقاربة ، فقد فسرہ ابن عباس بأنه الدین الواضح ، وابن مسعود بأنه کتاب الله ، وقال جابر : هو الإسلام ، وقال مجاهد : هو الحق . فالشیطان لا یدع سبیلاً من سبل الخیر إلا قعد فیهِ یصد الناس عنه .

٤ - إفساد الطاعات :

إذا لم یستطع الشیطان أن یصدّهم عن الطاعات ، فإنه یجتهد فی إفساد العبادة والطاعة ، کى یجرّمهم الأجر والثواب ، فقد جاء أحد الصحابة إلى الرسول ﷺ یقول له : إن الشیطان قد حال بینی وبين صلاتی وقراءتی ، یلبسها علیّ . فقال رسول الله ﷺ : « ذلك شیطان یقال له : خنزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه : واتفل على یسارك ثلاثاً » . قال : ففعلت ذلك ، فأذهبہ الله عنی رواه

(١) مسند أحمد ٤٨٣/٣ وسنن النسائی - کتاب الجهاد - یاب مالن أسلم وهاجر وجاهد ٢١/٦ والإحسان بترتیب صحیح ابن

حبان - کتاب الجهاد ٥٧/٧ رقم ٤٥٣٤ .

مسلم في صحيحه^(١) فإذا دخل العبد في صلاته أجلب عليه الشيطان يوسوس له ويشغله عن طاعة الله ويذكره بأمور الدنيا ، ففي صحيح مسلم — أن الرسول — ﷺ — قال : « إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ، أحال له ضراط ، حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكث رجع فوسوس ، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكث رجع فوسوس » رواه مسلم^(٢).

وفي رواية : « فإذا قضى التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له : أذكر كذا ، أذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى » رواه البخاري ومسلم^(٣).

كل مخالفة للشيطان فهي طاعة لله :

يقول تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ۖ وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ : لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيْبًا مَفْرُوضًا ۖ ﴾ . سورة النساء ١١٧ - ١١٨ . فكل من عبد غير الله من صنم أو وثن أو شمس وقمر أو هوى أو إنسان أو مبدأ فهو عابد للشيطان ، رضى أم أبى ، لأن الشيطان هو الأمر بذلك والمرغب فيه ، ولذلك فإن عباد الملائكة يعبدون الشيطان في الحقيقة ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾ ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك * أنت ولينا من دونهم * بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿ سورة سبأ ٤٠ - ٤١ يعنى أن الملائكة لم تأمرهم بذلك ، وإنما أمرتهم بذلك الجن ، ليكونوا عابدين للشياطين الذين يتمثلون لهم ، كما يكون للأصنام شياطين .

الخلاصة :

والشئ الذى نخلص إليه أن الشيطان يأمر بكل شئ ، ويحث عليه ، وينهى عن كل خير ، ويخوف منه ، كى يرتكب الأول ، ويترك الثانى . كما قال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ سورة البقرة ٢٦٨ . وتخويفه إبان الفقر بأن يقول : إن أنفقتم أموالكم أفقرتم ، والفحشاء التى يأمرنا بها : هى كل فعلة فاحشة خبيثة من البخل والزنا وغير ذلك

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة ١٧٢٨/٤ رقم ٢٢٠٣

(٢) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢٩١/١ رقم ٣٨٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١٦

٥ - الإيذاء البدني والنفسي :

كما يهدف الشيطان إلى إضلال الإنسان بالكفر والذنوب ، فإنه يهدف إلى إيذاء المسلم في بدنه ونفسه ، ونحن نسوق بعض ما نعرفه من هذا الإيذاء .

(أ) مهاجمة الرسول ﷺ :

أخبر الرسول ﷺ بمهاجمة الشيطان له ومجيء الشيطان بشهاب من نار ليرميه في وجه الرسول ﷺ .

(ب) الحلم من الشيطان :

للشيطان القدرة أن يرى الإنسان في منامه أحلاماً تزعجه وتضايقه بهدف إحزانه وإيلامه . فقد أخبر الرسول ﷺ أن الرؤى التي يراها المرء في منامه ثلاثة : رؤيا من الرحمن ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا حديث نفسي (صحيح الجامع ١٨٤/٣ ، ١٨٥) وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره »^(١).

(ح) إحراق المنازل بالنار :

وذلك بواسطة بعض الحيوانات التي يغريها بذلك ففي سنن أبي داود وصحيح ابن حبان بإسناد حسن أن الرسول ﷺ قال : « إذا نمت فأطفئوا سُرُجكم ، فإن الشيطان يدُلُّ مثل هذه (الفأرة) على هذا (السراج) فيحرقكم »^(٢).

(د) تخبط الشيطان للإنسان عند الموت :

وقد كان الرسول ﷺ يستعيز من ذلك فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من التردى ، والهدم ، والغرق ، والحرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك

(١) صحيح البخاري - كتاب التعبير - باب رؤيا الصالحين ٣٩/٩

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في إطفاء النار بالليل ٤٠٨/٥ رقم ٥٢٤٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - باب آداب النوم ٤٢١/٧ رقم ٥٤٩٤

مدبراً وأعوذ بك من الموت لديغاً» رواه النسائي والحاكم بإسناد صحيح ، (صحيح الجامع ٤٠٥/١)^(١).

(هـ) إيذاؤه الوليد حين يولد :

يقول الرسول ﷺ : « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » رواه مسلم^(٢) (صحيح الجامع ١٧١/٤) . وفي صحيح البخارى : « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن ، فطعن فى الحجاب »^(٣) . وفي البخارى أيضاً : « ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها »^(٤) . والسبب فى حماية مريم وابنها من الشيطان استجابة الله دعاء أم مريم حين ولدتها : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ سورة آل عمران ٣٦ . فلما كانت صادقة فى طلبها استجاب الله لها فأجار مريم وابنها من الشيطان الرجيم ، ومن أجاره الله أيضاً بن ياسر ، ففى صحيح البخارى أن أبا الدرداء قال : « أفيكم الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه ، قال المغيرة : الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه يعنى عمار »^(٥).

(و) مرض الطاعون من الجن :

أخبر الرسول ﷺ أن « فناء أمته بالطعن والطاعون ، وخز أعدائكم من الجن وفى كل شهادة » ، رواه أحمد والطبرانى بإسناد صحيح^(٦) (صحيح الجامع ٩٠/٤) ، وفى مستدرک الحاكم « الطاعون وخز أعداءكم من الجن ، وهو لكم شهادة » . ولعل ما أصاب بنى الله أيوب كان بسبب الجن كما قال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ . سورة ص ٤١ .

(١) سنن النسائي - كتاب الاستعاذة - باب الاستعاذة من التردى والهرم ٢٨٣/٨ والمستدرک للحاكم - كتاب الفضائل - باب فضل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٥١/٤ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران ٤٢/٦ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب مناقب المهاجرين - باب مناقب عمار ٣١/٥ .

(٦) مسند أحمد ٣٩٥/٤ ومجمع الزوائد - كتاب الجنائز - باب فى الطاعون ٣١١/٢ المستدرک للحاكم - كتاب الإيمان ٥٠/١ .

(ز) بعض الأمراض الأخرى :

قال ﷺ للمرأة المستحاضة : « إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان » ، رواه الأربعة بإسناد حسن^(١) (صحيح الجامع ١٩٦/٣) .

(ي) مشاركته لبنى آدم في طعامهم وشرابهم ومساكنهم :

ومن الأذى الذى يجلبه الشيطان للإنسان أنه يعتدى على طعامه وشرابه فيشركه فيهما ، ويشركه في المبيت في منزله ، يكون ذلك منه إذا خالف العبد هدى الرحمن ، أو غفل عن ذكره ، أما إذا كان ملتزماً بالهدى الذى هدانا الله إليه ، لا يغفل عن ذكر الله ، فإن الشيطان لا يجد سبيلاً إلى أموالنا وبيوتنا . فالشيطان لا يستحل الطعام إلا إذا تناول منه أحد دون أن يسمى ، فإذا ذكر اسم الله عليه ، فإنه يحرم على الشيطان ، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة ، قال : كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ، وإنا حضرنا معه مرة طعاماً . فجاءت جارية كأنها تدفع ، فذهبت لتضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، ثم جاء أعرابى كأنما يدفع فأخذ بيده . فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليستحل الطعام ، أن لا يذكر اسم الله عليه فإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها ، فأخذت بيدها ، فجاء بهذا الأعرابى ليستحل به ، فأخذت بيده ، والذى نفسى بيده إن يده في يدي مع يدها »^(٢) . وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نحفظ أموالنا من الشيطان وذلك بإغلاق الأبواب ، وتخمين الآنية وذكر اسم الله فإن ذلك حرز لها من الشيطان يقول ﷺ : « أغلقوا الأبواب ، واذكروا اسم الله ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، وأذكروا اسم الله ، وخمروا آنيتكم ، وأذكروا اسم الله ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً ، واطفئوا مصابيحكم » رواه مسلم^(٣) . ويأكل الشيطان ويشرب مع الإنسان إذا أكل وشرب بشماله ، وكذلك إذا شرب واقفاً ، ففي مسند أحمد عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكل بشماله أكل مفعه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان »^(٤) . وفي المسند أيضاً عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ رأى رجلاً يشرب قائماً ، فقال له : « قه » ، قال : لم ؟ قال : « أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ » قال : لا ، قال : « فإنه قد شرب معك من هو شرُّ منه الشيطان » ، وكى تطرد الشيطان من المنزل لا تنسى أن تذكر اسم الله عند دخول المنزل^(٥) ، وقد

(١) سنن الترمذى - كتاب الطهارة ٨٣/١ رقم ١٢٨ وقال : حديث حسن صحيح وسنن أبى داود كتاب الطهارة ١٩٩/١ رقم ٢٨٧ ومسند أحمد ٤٣٩/٦ ، ٤٦٤ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٧/٣ رقم ٢٠١٧ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب الأمر بتغطية الإناء ١٥٩٥/٣ رقم ٩٧ .

(٤) مسند أحمد ٧٧/٦ .

(٥) مسند أحمد ٣٠١/٢ .

أرشدنا الرسول ﷺ لذلك ، حيث يقول : « إذا دخل الرجل بينه فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء هنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : « أدركتم المبيت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء »^(١).

(ط) مس الشيطان للإنسان « الصراع » :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٢٤/٢٧٦) : « دخول الجن في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ . سورة البقرة ٢٧٥ وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »^(٢). وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : « قلت لأبي : إن أقواماً يقولون : إن الجن لا يدخل في بدن المصروع فقال : ابن تيمية : « هذا الذي قاله مشهور ، فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه ، ويُضرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضرب به جمل لأثر به أثراً عظيماً ، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ، ولا بالكلام الذي يقوله ، وقد يجُرُّ المصروع ، وغير المصروع ، ويجز البساط الذي يجلس عليه ، ويحول الآلات ... ويجرى غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علماً ضرورياً ، بأن الناطق على لسان الإنس ، والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان . » ويقول رحمه الله : « وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجن في بدن المصروع وغيره ، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك ، فقد كذب على الشرع وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك » : وذكر في (ج ١٩/١٢) أن ممن أنكر دخول الجن بدن المصروع طائفة من المعتزلة كالجبائي وأبي بكر الرازي .

قائد المعركة

إبليس هو الذي يخطط للمعركة مع بنى الإنسان ويقودها ، ومن قاعدته يرسل البعوث والسرايا في الاتجاهات المختلفة ، ويعقد مجالس يناقش جنوده وجيوشه فيما صنعتهم ويثنى على الذين أحسنوا وأجادوا في الإضلال وفتنة الناس . روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقربه ويدينه

(١) مسند أحمد ٣/٣٤٦

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ١٥٠/٤

ويقول : نعم أنت «^(١)». وفي مسند الإمام أحمد قال الرسول ﷺ لابن صائد (وكان يشك ﷺ أنه الدجال) : « ماترى ؟ » قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ذاك عرش إبليس »^(٢). والشيطان له خبرة طويلة مديدة في مجال الاضلال ، ولذلك فإنه يجيد وضع خططه ، ونصب مصايده وأحاييله ، فهو لم يزل حياً يضل الناس منذ وجد الإنسان إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة : **قال : رب ، فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴿ سورة الحجر ٣٦ - ٣٨ . وهو دؤوب على القيام بالشر الذى نذر نفسه له ، لا يكل ولا يمل ، ففي الحديث : « إن الشيطان قال : وعزتك وجلالك لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » . رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن (صحيح الجامع ٧٢/٢) .

الجنود :

وله فريقان من الجنود : فريق من الجان ، وفريق من بنى الإنسان .

جنوده من الجن :

الشيطان له جنود وأعوان من الجن ، ففي القرآن ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك * وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ... ﴾ سورة الاسراء ٦٤ . فله جنود يهاجمون راكبين راجلين يرسلهم على العباد يحركونهم إلى الشر تحريكاً ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزراً ﴾ سورة مريم ٨٢ .

لكل إنسان قرين :

كل إنسان يلازمه شيطان لا يفارقه كما فى حديث عائشة عند مسلم قالت : « خرج النبى ﷺ من عندى ليلاً ، فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال مالك يا عائشة : أغرت ؟ قلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قلت : يا رسول الله ، أو معى شيطان ؟ قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان شيطان ؟ قال : نعم ، قلت ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم »^(٤). وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ

(١) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحزين الشيطان ٢١٦٧/٤ رقم ٦٧ ، ٦٨

(٢) مسند أحمد ٦٦/٣

(٣) مسند أحمد ٢٩/٣ والمستدرک للحاكم - كتاب التوبة والإنابة ٢٦١/٤

(٤) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحزين الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس ٢١٦٨/٤ رقم ٢٨١٥ ومسند أحمد

« ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي لكن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »^(١)

وفي القرآن ﴿ ومن يَعِشْ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ سورة الزخرف ٣٦ . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء ﴾ فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴿ سورة فصلت ٢٥ .

أولياؤه من الإنس :

الشیطان عدو الإنسان الأول الذى يسعى فى إهلاكه ، ومع ذلك فإن غالبية البشر اتخذوه ولياً ، يسيرون على خطاه ، ويرضون بفكره ، وما أقبح هذا بالإنسان العاقل أن يتخذ عدوه ولياً ﴿ أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾ بشس للظالمين بدلاً ﴿ سورة الكهف ٥٠ . ولقد خسروا باتخاذهم ولياً خسراً مبيناً : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ سورة النساء ١١٩ . خسروا لأن الشيطان سيدسّ نفوسهم ويفسدها ، ويحرمهم من نعمة الهداية ، ويرمى بهم فى الضلالات والشبهات ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ سورة البقرة ٢٥٧ . وخسروا لأنه سيقودهم إلى النار فى يوم القيامة ، ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ سورة فاطر ٦ . وهؤلاء أولياء الشيطان يتخذهم الشيطان مطية وجنوداً ينفذ بهم مخططاته وأهدافه .

كيد وخدلاؤه لأوليائه :

يتولى كثير من الناس الشيطان ، ولكنه يكيد لهم ويوردهم الموارد التى فيها هلاكهم وعطيمهم ، ويتخلى عنهم ويسلمهم ويقف يشمت بهم ، ويضحك منهم ، فيأمرهم بالقتل والسرقة والزنا ويدل عليهم ويفضحهم ، فعل ذلك بالمشركين فى معركة بدر عندما جاءهم فى صورة سراقة بن مالك ووعدهم بالنصر والغلب ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴿ سورة الأنفال ٤٨ . فلما رأى عدو الله الملائكة نزلت لنصرة المؤمنين ، ولى هارباً وأسلمهم ، كما قال حسان بن ثابت :

دَلَّاهُمْ بُغْرُورٌ ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ إِنْ الْخِيَاثَ لَمَنْ وَالَاهُ غَرَّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها ، وأمره بالزنا ثم يقتلها ، ثم دل أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ، ثم أمره بالسجود له ، فلما فعل فرَّ عنه وتركه ، وفى يوم القيامة يقول لأوليائه بعد

(١) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحزين الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤ ومسلم أحمد

دخوله ودخولهم النار : ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ سورة إبراهيم ٢٢ فأوردتهم شر الموارد ثم تبرأ منهم كل البراءة .

الشيطان يجند أوليائه لخدمته ومحاربة المؤمنين :

الناس فريقان : أولياء للرحمن ، وأولياء للشيطان ، وأولياء الشيطان . هم الكفرة على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ سورة الأعراف ٢٧ . والشيطان يسخر هؤلاء لتضليل المؤمنين بما يلقونه من الشبه والشكوك ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ سورة الأنعام ١٢٧ . وما هذه الشبهات التي يقوم بها المستشرقون والصليبيون واليهود والملحدون إلا من هذا القبيل . ويدفعهم لإيذاء المؤمنين نفسياً ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ سورة المجادلة ١٠ . فقد كان يدفع المشركين للتناجى حين وجود المسلمين على مقربة منهم فيظن المسلم أنهم يتآمرون عليه ... بل يدفعهم إلى حرب المسلمين وقتالهم ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ سورة النساء ٧٦ . وهو دائماً يخوف المؤمنين أوليائه : ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿سورة آل عمران ١٧٥ . وأولياؤه جمع كبير﴾ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴿سورة سبأ ٢٠ .

أساليب الشيطان في إضلال الإنسان :

لا يأتي الشيطان إلى الإنسان ويقول له : اترك هذه الأمور الحيرة ، وافعل هذه الأمور السيئة ، كي تشقى في دنياك وأخراك ، لأنه لو فعل فلن يطيعه أحد ، ولكنه يسلك سبلاً كثيرة يغرر بها بعباد الله .

١ - تزوين الباطل :

هذا هو السبيل الذي كان الشيطان ولا يزال يسلكه لإضلال العباد ، فهو يظهر الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل ، ويكرهه بالحق ، حتى يندفع إلى فعل المنكرات ويعرض عن الحق ، كما قال اللعين لرب العزة : ﴿رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠ . يقول ابن القيم في هذا الصدد : « ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيد ، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه أنفع الأشياء ، وينفر من الفعل الذي هو أنفع

الأشياء له ، حتى يخيل إليه أنه يضره ، فلا إله إلا الله ، كم فتن بهذا السحر من إنسان ! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة ، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة ! وكم بهرج من الزيوف على الناقلين ، وكم روج من الزغل على العارفين ! فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيعة الأرحام ، ووأد البنات ، ونكاح الأمهات ، ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك في أعظم صورة التعظيم ، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله ﴿عليكم أنفسكم﴾ سورة المائدة ١٠٥ . والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في قالب التقليد ، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق والإدهان في دين الله في

قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس (اغاثة اللفهان ١/١٣٠) ، وبهذا السبيل كاد إبليس اللعين لآدم - عليه السلام - إذ زين له الأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، فمازال به يزعم له أن هذه هى شجرة الخلد وأن الأكل منها يجعله خالداً فى الجنة أو ملكاً من الملائكة حتى أطاعه ، فخرج من الجنة . وانظر إلى أولياء الشيطان اليوم كيف يستخدمون هذا السبيل فى إضلال العباد . فهذه الدعوات إلى الشيوعية والاشتراكية .. يزعمون أنها هى المذاهب التى تخلص البشرية من الحيرة والقلق والضياع والجوع .. وهذه الدعوات التى تدعو إلى خروج المرأة كاسية عارية باسم الحرية ، وتدعو إلى هذا التمثيل السخيف الذى تداس فيه الأعراض والأخلاق وتنتهك فيه الحرمات باسم الفن . وتلك الأفكار المسمومة التى تدعو إلى ايداع المال فى البنوك بالربا لتحقيق الأرباح باسم التنمية والربح الوفير ، وتلك الدعوات التى تزعم أن التمسك بالدين رجعية وجمود وتأخر ، والتى تسم دعاة الاسلام بالجنون والعمالة لدول الشرق والغرب .. الخ .

كل ذلك امتداد لسبيل الشيطان الذى كاد به آدم منذ عهد بعيد ، وهو تزيين الباطل وتحسينه ، وتقبيح الحق وتكريه الناس به ، ﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ (سورة النحل ٦٣) .

وهو والله سبيل خطر لأن الإنسان إذا زين له الباطل حتى رآه حسناً فإنه يندفع بكل قواه لتحقيق ما يراه حقاً وإن كان فيه هلاكه ﴿قل هل نبئكم بالآخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ (سورة الكهف ١٠٣ - ١٠٤) . وهؤلاء يندفعون لصد الناس عن دين الله ومحاربة أولياء الله ، وهم يظنون أنفسهم على الحق والهدى ، ﴿وإنهم ليعتدلونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ (سورة الزخرف ٣٧) وهذا هو السبب الذى من أجله اثر الكفار الدنيا وأعرضوا عن الآخرة كما قال تعالى : ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين

أيديهم وما خلفهم (سورة فصلت ٢٥) . فالقرناء هم الشياطين ، زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة ، وزينوا لهم ذلك حتى أنكروا البعث والحساب والجنة والنار .

١ - تسمية الأمور المحرمة بأسماء محبة :

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمى الأمور المحرمة التي هي معصية الله بأسماء محبة للنفوس خداعاً للإنسان وتزويراً للحقيقة ، كما سمي الشجرة المحرمة بشجرة الخلد كي يزين لآدم الأكل منها ﴿ قال يا آدم * هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾^(١) . يقول ابن القيم : « ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح وسموا أخاها بلقمة الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية .. » واليوم يسمون الربا الفائدة ، والرقص والغناء والتمثيل والتمثيل فناً .

٢ - الإفراط والتفريط :

يقول ابن القيم في هذه المسألة : « وما أمر الله - عز وجل - بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما تقصير وتفريط ، وإما إفراط وغلو ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين ، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشاق ، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة ، فثبطه وأقعده ، وضربه بالكسل والتواني والفتور ، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك ، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة .

وإن وجد عنده حذراً وجداً ، وتشجيراً ونهضة ، وأيس أن يأخذه من هذا الباب ، أمره بالاجتهاد الزائد ، وسؤل له أن هذا لا يكفيك ، وهمتك فوق هذا ، وينبغي لك أن تزيد على العاملين ، وأن لا ترقد إذا رقدوا ، ولا تفطر إذا أفطروا ، وأن لا تفتر إذا فتروا ، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات ، فاغسل أنت سبعاً ، وإذا توضأ للصلاة ، فاغتسل أنت لها ، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي ، فيحمله على الغلو والمجازة ، وتعدي الصراط المستقيم ، كما يحمل الأول على التقصير دونه وألا يقربه ، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم : هذا بألا يقربه ولا يدنو منه ، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه ، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ ، وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط والله المستعان » (الوابل الصيب ص ١٩) .

٣ - تشييطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويق والكسل :

وله في ذلك أساليب وطرق ففي صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » القافية : مؤخر الرأس « إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »^(١).

وفي البخارى ومسلم : (إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ ، فليستنثر ثلاثا ، فإن الشيطان يبيت على خيشومه)^(٢). وسئل الرسول ﷺ عن رجل نام ليلة حتى أصبح ، فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » رواه البخارى^(٣). وهذا الذى ذكرناه تكسيل وتشيط من الشيطان بفعله ، وقد تثبط الإنسان بالوسوسة وسيله فى ذلك أن يجب للإنسان الكسل ويسوف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمل ، يقول ابن الجوزى فى هذا ، « كم قد خطر على قلب يهودى ونصرانى حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ، ويقول : لاتعجل وتمهل فى النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصى بالتوبة فيعجل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنب لما تشتهى وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجد سوفه ! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثبطه ! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه فقال : استرح ساعة ، أو انتبه العابد فى الليل يصلى ، فقال له : عليك وقت ، ولا يزال يجب الكسل ، ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل . فينبغى للحازم أن يعمل على الحزم ، والحزم تدارك الوقت ، وترك التسويق ، والإعراض عن الأمل ، فإن الخوف لا يؤمن ، والقوات لا يبعث ، وسبب كل تقصير ، أو ميل إلى شرّ طول الأمل ، فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير ، إلا أنه بعد نفسه بذلك ، ولا ريب أن من أمّل أن يمشى بالنهار سار سيرا فاترا . ومن أمّل أن يصبح عمل فى الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جداً ... ، وقال بعض

السلف : أنذركم (سوف) فإنها من أكبر جنود إبليس ، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل ، كمثّل قوم فى سفر فدخلوا قرية ، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره ، وجلس متأهبا للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فرجاً أقمنا شهراً ، فضرّب بوق الرحيل فى الحال ، فاغتبط المحترز (المتوفى الحازم) وتحير الأسف المفرط ، فهذا مثل الناس فى الدنيا منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة ، فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى مافى الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ، فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة وأقام له كميناً » (تلبس إبليس ٤٥٨) .

٤ - الوعد والتمنية :

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة ويعلمهم بالأمانى المعسولة ، كى يوقعهم في وهدة الضلال : ﴿ **يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ** وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ (سورة النساء ١٢٠) يعد الكفرة في قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة ، ثم يتخلى عنهم ويولى هارباً : ﴿ **وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ** ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم * فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم ﴾ (سورة الأنفال ٤٨) . ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال في الآخرة بعد الدنيا ، فيقول قائلهم : ﴿ **وَلَنْ رُدَّتْ إِلَى رَبِّي لِأَجْدَنَ خَيْراً مِنْهَا مَنقَلَباً** ﴾ (سورة الكهف ٣٦) ، فيدمر الله جنته في الدنيا فيعلم أنه كان مغروراً مخدوعاً . ويشغل الإنسان بالأمانى المعسولة التي لا وجود لها في واقع الحياة ، فيصده عن العمل الجاد المثمر ، ويرضى بالتخيل والتمنى وهو لا يفعل شيئاً .

٥ - إظهار النصح للإنسان :

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية يزعم أنه ينصح له ويريد خيره ، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له ﴿ **وَقَاسِمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾ (سورة الأعراف ٢١) وقد روى وهب بن منبه هذه القصة الطريفة عن أهل الكتاب (هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لاتصدق ولا تكذب ويجوز التحديث بها يقول الرسول ﷺ - « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »^(١)) . نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في إضلاله العباد ، وكى نحذر نصحه ، ونخالفه فيما يدعونا إليه . يقول وهب : « إن عابداً كان في بنى إسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكرأ ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ، ولا من يأمنون عليها ، ولا عند من يضعونها ، قال : فأجمع رأيهم على أن يخلقوها عند عابد بنى إسرائيل ، وكان ثقة في أنفسهم ، فأتوه فسألوه أن يخلقوها عنده ، فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم ، فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم ، قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم . فقال : أنزلوها في بيت حذاء صومعتي . قال : فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا

(١) سنن أبى داود - كتاب العلم - باب الحديث عن بنى إسرائيل ٦٩/٤ رقم ٣٦٦٢

فتركوها ، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة ، ثم يأمرها فتخرج من بيتها ، فتأخذ ما وضع لها من طعام ، قال : فتلطف له الشيطان ، فلم يزل يرغبه في الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلو مشيت بطعامها حتى نضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً . قال فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ، ووضعها على باب بيتها ولم يكلمها ، قال : فلبث على هذه الحالة زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه ، وقال لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك . فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه في بيتها ، فلبث على ذلك زماناً . ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان أنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها . فلبثا زماناً يتحدثان . ثم جاءه إبليس فرغبه في الأجر والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من بيتها فحدثتها كان أنس لها . فلم يزل به حتى فعل . فلبثا زماناً على ذلك . ثم جاءه إبليس ، فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله ، فإذا مضى النهار صعد صومعته . ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزيناها له حتى ضرب العابد على فخذهما وقبلها . فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها ، فأحبها فولدت له غلاماً . فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك ، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ، خذها واذبحها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها ، وأضبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما ، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاءوا فسألوا عنها فنعاهوا لهم وترحموا عليها وبكاهوا . وقال : كانت خير امرأة ، وهذا قبرها ، فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر ، فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً ، ثم انصرفوا إلى أهاليهم ، فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان . وقال : لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم ، وألقاها في حفرة احتفرها خلف باب البيت الذي

كانت فيه عن يمين من دخله ، فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً .

وأتى الأوسط فى منامه فقال مثل ذلك . ثم أتى أصغرهم ، فقال له مثل ذلك . فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم : لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى . فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشيء فأمضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم : والله لا أمضى حتى آتى إلى هذا المكان فأنظروا فيه . قال : فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبحين فى الحفرة كما قيل لهم فسألوا عنها العابد فصَدَّق قول إبليس فيما صنع بهما فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت أطعنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقتك وصورك خلصتك مما أنت فيه فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه وهذه القصة يرويها المفسرون عند قوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ (سورة الحشر ١٦) . ويذكروا أن المعنى الإنسان هذا العابد وأمثاله . والله أعلم .

٦ - التدرج فى الضلال :

ومن القصة السابقة نعلم أسلوباً من أساليب الشيطان فى الإضلال وهو أن يسير بالإنسان خطوة لا يكل ولا يمل كلما روضه على معصية ما قاده إلى معصية أكبر منها حتى يوصله إلى المعصية الكبرى فيوثقه ويهلكه . وتلك سنة الله فى عباده أنهم إذا زاغوا سلط عليهم الشيطان وأزاع قلوبهم ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ (سورة الصف ٥)

٧ - إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه :

ومن ذلك ما فعله بآدم فمازال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربه ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾^(١) وقال صاحب موسى لموسى : ﴿ فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ (سورة الكهف ٦٣) .

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه فى المجالس التى يستهزأ فيها بآيات الله ولكن الشيطان قد يئس الإنسان مراد ربه منه فيجالس هؤلاء المستهزئين ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى

آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴿ (سورة الانعام ٦٨) .

وطلب نبي الله يوسف إلى السجين الذى ظن بأنه سينجو من القتل ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبي الله يوسف فيمكث يوسف في السجن بضع سنين ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴿ سورة يوسف ٤٢ .

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكنا كلياً فإنه ينسيه الله بالكلية ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴿ (سورة المجادلة ١٩) ، والمراد بهؤلاء المنافقون ، كما تدل عليه الآية السابقة لهذه الآية وسبيل التذكر هو ذكر الله لأنه يطرد الشيطان ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴿ (سورة الكهف ٢٤) .

٨ - تخويف المؤمنين أوليائه :

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يخافونهم ولا يأمرؤنهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر وهذا من أعظم كيدته بأهل الإيمان وقد أخذنا سبحانه عنه بهذا فقال : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿ (سورة آل عمران ١٧٥) . والمعنى : يخوفوكم بأوليائه قال قتادة : « يعظمهم في صدوركم ، ولهذا قال فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم » .

٩ - دخوله إلى النفس من الباب الذى تحبه وتهواه :

يقول ابن القيم فى هذا الموضوع (إغاثة اللهفان ١/١٣٢) « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم إخوانه وأوليائه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخلد عن حاجته من دخل منه ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مسدود » .

ومن هنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى : ﴿ وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿ (سورة الأعراف ٢٠) يقول ابن القيم « فسام عدو الله الأبوين فأحس منهما إنياساً وركوناً إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فعلم أنه لا

يدخل عليهما من غير هذا الباب فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال : مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

١٠ - إلقاء الشبهات :

ومن أساليبه في إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التي يلقيها ففى حديث البخارى ومسلم : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ ومن خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته »^(١) ولم يسلم الصحابة - رضوان الله عليهم من شبهاته وشكوكه وجاء بعضهم إلى الرسول ﷺ يشكون ما يعانونه من شكوكه ووساوسه ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله « إلى النبی فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : « أوقدو صبرتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان »^(٢) . ومراد الرسول ﷺ بقوله : « ذلك صريح الإيمان » أى دفع وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها .

وانظر إلى شدة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه . روى أبو داود فى سننه عن ابن عباس : أن النبی ﷺ جاءه رجل فقال : « إني أحدث نفسى بالشيء لأن أكون حممه أحب إلى من أتكلم به فقال : الحمد لله الذى رد أمره إلى الوسوسة »^(٣) ومن جملة ما يلقيه فى النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه فى قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾^(٤) .

والمراد بالتمنى هنا حديث النفس والمراد أن النبی ﷺ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحيلة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون أو يتمنى إيمان الناس جميعاً فينسخ الله ما يلقيه الشيطان بوساوسه فى أمنية النبی ﷺ وذلك تنبيهه إلى الحق وتوجيهه إلى مراد

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٢

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الوسوسة فى الإيمان ١١٩/١ رقم ١٣٢

(٣) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب فى رد الوسوسة ٣٣٦/٥ رقم ٥١١٢

(٤) سورة الحج الآيات : ٥٢ حتى ٥٤

الله .. وما قيل من أن مراد الآية أن الشيطان يدخل في القرآن ما ليس منه ففيه بعد ويرده أن الرسول ﷺ معصوم في التبليغ .

يقول شقيق (أحد العلماء الأعلام) : مبينا لبعض الشبهات التي يقذفها الشيطان في نفس الإنسان : « ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد : من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فإقرأ : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (سورة طه ٨٢) . وأما من خلفي فيخوفني الضيقة على من أخلقه ، فإقرأ : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ (سورة هود ٦) . ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء فإقرأ : . والعاقبة للمتقين ﴾ (سورة الأعراف ١٢٨) .

ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات ، فإقرأ : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ (سورة سبأ ١٠٤) .

١ - ٤ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام :

قال تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ (سورة المائدة ٩٠ - ٩١) . والخمر كل ما يسكر والميسر القمار والأنصاب كل ما نصب يعبد من دون الله : من حجر أو شجر أو وثن أو قبر أو علم . والأزلام : القداح كانوا يستقسمون بها الأمور أي يطلبون بها علم ما قسم لهم .

وهذه قد تكون أقداماً أو سهاماً أو حصيات أو غير ذلك ، يكون مكتوباً على واحد منها أمرني ربى وعلى الآخر نهانى ربى فإذا شاء أحدهم زواجا أو سفراً أو نحو ذلك أدخل يده في الشيء الذى فيه هذه القداح أو السهام فإن خرج الذى فيه الأمر بالفعل فعل وإن خرج الآخر ترك .

فالشيطان يمضى الناس على هذه الأربع لأنها ضلال في نفسها وتؤدي إلى نتائج وخيمة وآثار سيئة فالخمر تفقد شاربها عقله فإذا فقد عقله فعل الموبقات وارتكب المحرمات وترك الطاعات وآذى عباد الله ذكر ابن كثير في تفسيره عن عثمان بن عفان قال : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجلاً فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فغلقتة امرأة غويّة فأرسلت إليه جاريته أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقتة دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ولكنى دعوتك لتقع على أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كأساً فقال : زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع

هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » . رواه البيهقى وصحح ابن كثير إسناده^(١).

وروى أصحاب السنن أن رجلاً من الأنصار صنع طعاماً لبعض الصحابة ثم سقاهاهم خمرًا قبل أن ينزل تحريمها فلما سكروا تفاخروا فتعاركوا وأصاب سعد بن أبى وقاص من هذا العراك أذى ، فقد ضربه أحدهم بلحى بعير فأصاب أنفه فأثر فيه أثراً صاحبه طيلة حياته وتقدم أحد الصحابة يصلى بالناس وهو سكران قبل نزول تحريم الخمر فقراً^(٢) : (قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فأنزل الله ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ (سورة النساء ٤٣) وقد رأينا الرجل الذى بلغ من الكبر عتياً عندما يشرب الخمر سيتصرف تصرفات المجانين ويضحك منه الكبار والصغار ويفترش الطريق تدوسه الناس بأقدامها .

والميسر مرض خطير كالخمر إذا تأصل فى نفس الإنسان صعب الشفاء منه ، وهو سبيل لضياع الوقت والمال والميسر ينشئ الأحقاد ويدفع إلى الحرام .

والشيطان يدعو إلى إقامة النصب كى تتخذ بعد ذلك آلهة تعبد من دون الله وقد انتشرت عبادة الأصنام قديماً وحديثاً والشياطين تلازم هذه الأصنام وتخطب عبادها فى بعض الأحيان وترتهم بعض الأمور التى يجعل عابديها يثقون بها فيقصدونها بالحاجات ويدعونها فى الكربات ويستنصرون بها من الحروب ويقومون لها الذبائح والهدايا ويرقصون حولها ويطربون وقيمون لها الأعياد والاحتفالات وقد أضل بهذا الكثير كما قال إبراهيم داعياً ربه : ﴿ واجنبى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ (سورة إبراهيم ٣٥ - ٣٦) . ولا تزال عبادة القبور منتشرة بين المسلمين يقصدونها بالدعاء والألطف والذبائح وانتشرت بدعة جديدة اليوم - يضحك بها الشيطان على بنى الإنسان - تلك هى نصب الجندى المجهول يزعمون أنه رمز الجندى المقاتل ويكرمونه بالهدايا والورود والتعظيم وكلما زار البلاد زعيم جاء هذا النصب وقدم له هدية وكل هذا من عبادة الأصنام التى هى من عمل الشيطان .

الاستقسام بالأزلام :

الأمور المستقبلية من مكنون علم الله ولذلك شرع لنا الرسول ﷺ الاستخارة إذا أردنا سفراً أو زواجاً أو غير ذلك نرجو من الله أن يختار لنا خير الأمور .

وأبطل الاستقسام بالأزلام فإن السهام والقдах لا تعلم أين الخير ولا تدريه فاستشارتها خلل فى

(١) سنن البيهقى - كتاب الأشربة - باب ما جاء فى تحريم الخمر ٢٨٧/٨

(٢) سنن أبى داود - كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر ٨٠/٤ رقم ٣٦٧١ وسنن الترمذى - كتاب التفسير - باب سورة النساء

العقل وقصور في العلم ومثل ذلك زجر الطير كان من يريد سفراً إذا خرج من بيته ومر بطائر زجره فإن تيامن كان سفراً ميموناً وإن مرّ عن شماله كان سفراً مشئوماً .. وكل ذلك من الضلال .

٥ - السحر :

وما تفضل به الشياطين أبناء آدم السحر فهم يعلمونهم هذا العلم الذي لا يضر ولا ينفع ويكون هذا العلم سبيلاً للتفريق بين المرء وزوجه والتفريق بين الزوجين يعتبره الشيطان من أعظم الأعمال التي يقوم بها جنوده .

قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ (سورة البقرة ١٠٢) .

هل للسحر حقيقة :

اختلف العلماء في ذلك فمن قائل : إنه تخيل لا حقيقة له ، ، فإذا حباهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴿ (سورة طه ٦٦) ومن قائل أن له حقيقة كما دلت عليه آية البقرة والصحيح أنه نوعان : نوع هو تخيل يعتمد على الحيل العلمية وخفة الحركة ونوع له حقيقة يفرق به بين المرء وزوجه ويؤذى به .

سحر اليهود للرسول ﷺ :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله . حتى إذا كان ذات يوم دعا رسول الله ﷺ ثم دعا أى دعا ربه مرات ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ (أى أجابنى فيما طلبت) .

جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلى أو الذى عند رجلى للذى عند رأسى : ما وجع الرجل ؟

قال : مطبوب (أى مسحور) .

قال : من طبه ؟

قال : لبيد بن الأعصم .

قال : في أى شيء .

قال : في مشط ومشاطة - أى شعر سقط عند التسريح - وجف طلعة ذكر (أى غشاء الطلع)

قال : فأين هو ؟

قال : في بئر ذى أروان

قالت : فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه ثم

قال : يا عائشة والله لكأن ماءها فقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين .

فقلت : يا رسول الله أفلا أحرقتة ؟

قال : « لا أما أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شراً ، فأمرت بها فدفنت » رواه البخارى

ومسلم^(١)

ولا يقال : إن السحر فيه ﷺ يوجب لبساً في النبوة والرسالة لأن أثر السحر لم يتجاوز ظاهر

الجسم الشريف فلم يصل إلى القلب والعقل فهو كسائر الأمراض التي قد تعرض له والتشريع محفوظ بحفظ الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ سورة الحجر ٩

٦ - ضعف الإنسان :

في الإنسان نقاط ضعف كثيرة هي في الحقيقة أمراض والشيطان يعمق هذه الأمراض في نفس الإنسان بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية ومن هذه الأمراض : الضعف واليأس والقنوط والبطر والفرح والعجب والفخر والظلم والبغى والجحود والكنود والعجلة والطيش والسفه والبخل والشح والحرص والجدل والمراء والشك والريبة والجهل والغفلة واللدد في الخصومة والغرور والإدعاء الكاذب والهلع والجزع والمنع والتمرد والطغيان وتجاوز الحدود وحب المال والافتتان بالدنيا ،... فالإسلام يدعو إلى إصلاح النفس والتخلص من أمراضها وهذا يحتاج إلى جهد يبذل ويحتاج إلى صبر على مشقات الطريق أما إتباع الهوى وما تمليه النفس الأمارة بالسوء فإنه سهل ميسور فالأول مثله مثل من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل ومثل الثاني كمن يدحرج صخرة من أعلى الجبل إلى أسفله ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة ووجد دعاة الحق صعوبة وأى صعوبة في الدعوة إلى الله تعالى :

ونحن نسوق إليك بعض كلام السلف لنوضح كيف يستغل الشيطان نقاط الضعف في الإنسان :

- حكى المعتمد بن سليمان عن أبيه أنه قال : « ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينبعث في قلب

ابن آدم عند الحزن والفرح فإذا ذكر الله خنس » .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤١٢

وقال وهب بن منبه : « قال راهب للشيطان وقد بدا له : أى أخلاق ابن آدم أعون لك عليهم ؟ قال : الحدة (صفة تعترى الإنسان كالغضب) إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة » ويذكر ابن الجوزى أيضاً عن ابن عمر أن نوحاً سأل الشيطان عن الخصال التى يهلك بها الناس فقال : « الجسد والحرص » وليس بعيداً عنا ما فعله الشيطان بيوسف وإخوته وكيف أوغر صدور الإخوة على أخيهم وقد قال يوسف : ﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ سورة يوسف ١٠٠ .

٧ - النساء وحب الدنيا :

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين وأمر الرجال بغض أبصارهم ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة وأخبر أنه ما خلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان)^(١).

ونحن اليوم نشاهد عظم فتنة خروج غالب النساء كما وصفهن الرسول ﷺ كاسيات عاريات وقامت مؤسسات فى الشرق والغرب تستخدم جيوشاً من النساء والرجال لتزويج الفاحشة بالصورة المرئية والقصة الخليعة والأفلام التى تحكى الفاحشة وتدعو لها .

أما حب الدنيا فهو رأس كل خطيئة وما سفكت الدماء وهتكت الأعراض وعصبت الأموال وقطعت الأرحام ... إلا لأجل حيازة الدنيا والصراع على طعامها الفانى وحرصاً على متعها الزائلة .

٨ - الغناء والموسيقى :

الغناء والموسيقى طريقان يفسد الشيطان بهما القلوب ويخرب النفوس يقول ابن القيم : (ومن مكاييد عدو الله ومصايدته التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذى يصد القلوب بها عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقبة اللواط والزنى ، كادبة الشيطان النفوس المبطلية ، وحسنه لها مكرراً وغروراً وأوحى لها الشبه الباطلة على حسنه فقلبت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً ..) إغاثة اللهفان ٢٤٢/٨ . ومن عجب أن بعض الناس الذين يدعون التعبد يتخذون الغناء والرقص والتمايل طريقاً للتعبد ويتركون السماع الرحمانى ويذهبون إلى السماع الشيطانى وقد عدَّ ابن القيم فى (الإغاثة ٢٥٦/١) لهذا السماع بضعة عشر اسماً : اللهو واللغو والباطل والزور

والمكاء والتصدية ورقية الزنا وقرآن الشيطان ومنبت النفاق في القلب والصوت الأحمق والصوت الفاجر وصوت الشيطان ومزمور الشيطان والسمود .

٩ - تهاون المسلمين في تحقيق ما أمروا به :

إذا إلتزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلاً لإضلاله والعبث به فإذا تهاون وتكاسل في بعض الأمور فإن الشيطان يجد فرصة قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (سورة البقرة ٢٠٨) . فالدخول في الإسلام في كل الأمور هو الذى يخلف من الشيطان فمثلاً إذا كانت صفوف المصلين مرصوصة فإن الشياطين تتراقص بين صفوف المصلين فإذا تركت فرج بين الصفوف فإن الشياطين تتراقص كأنها أولاد الحذف قيل يا رسول الله : وما أولاد الحذف ؟ قيل جُرد « بأرض اليمن » رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح^(١) (صحيح الجامع ٣٨٤/١) وفى الحديث الآخر « أقيموا صفوفكم وتراصوا فوالذى نفسى بيده إني لأرى الشياطين بين صفوفكم كأنها غنم عفر » رواه أبو داود الطيالسى بإسناد صحيح^(٢) . (صحيح الجامع ٣٨٤/١)

كيف يصل الشيطان إلى نفس الإنسان :

الوسوسة :

الشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها ولا نعرفها يساعده على ذلك طبيعته التى خلق عليها وهذا الذى نسميه بالوسوسة وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه ﴿ الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ سورة الناس ٤ - ٥ قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس .

وقد ثبت فى صحيح البخارى أن الرسول ﷺ قال : « إن الشيطان يجزى من ابن آدم مجرى الدم »^(٣) .

وبهذه الوسوسة أضل آدم وأغراه بالأكل من الشجرة : ﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ (سورة طه ١٢٠) .

وقد تتمثل الشياطين فى صورة بشر وقد يحدثون الإنسان ويسمعونه ويأمرونه وينهونه بمرادهم .

(١) مسند أحمد ٢٩٦/٤ والمستدرك للحاكم - كتاب فضائل القرآن ٥٧٣/١

(٢) مسند أبى داود الطيالسى ٢٨٢/٩ رقم ٢١٠٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ١٥٠/٤

الفصل الرابع تمثل الشياطين

أحياناً تأتى الشياطين الإنسان لا بطريق الوسوسة بل تتراءى له فى صورة إنسان وقد يسمع الصوت ولا يرى الجسم وقد تتشكل بصور غريبة .

وهى أحياناً تأتى الناس وتعرفهم بأنها من الجن وفى بعض الأحيان تكذب فى قولها فتزعم أنها من الملائكة وأحياناً تسمى نفسها برجال الغيب أو تدعى أنها من عالم الأرواح .

وهى فى كل ذلك تحدث بعض الناس وتخبّرهم بالكلام المباشر أو بواسطة شخص منهم يسمى الوسيط تتلبس وتتحدث على لسانه وقد تكون الإجابة بواسطة الكتابة .

وقد تقوم بأكثر من ذلك فتحمل الإنسان وتطير به فى الهواء وتنقله من مكان إلى مكان وقد تأتى له بأشياء ويطلبها ولكنها لا تفعل هذا إلا بالضالين الذين يكفرون بالله رب الأرض والسموات أو يفعلون المنكرات والموبقات . وقد يتظاهر هؤلاء بالصلاح والتقوى ولكنهم فى حقيقة أمرهم من أضل الناس وأفسقهم وقد ذكر القدامى والمحدثون من هذا شيئاً كثيراً لا مجال لتكذيبه والطعن فيه لبلوغه مبلغ التواتر فمن ذلك ما ذكره ابن تيمية عن الحلاج قال : (وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدمه أحياناً كانوا معه (بعض أتباعه) على جبل أى قبس فطلبوا منه حلاوة فذهب إلى مكان قريب وجاء بصحن حلوى فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوى باليمن حمله شيطان تلك البقعة) .

قال : « ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممن له حال شيطاني ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء فى زماننا وغير زماننا مثل شخص هو الآن (فى زمن ابن تيمية) بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق فيجىء من الهواء إلى طاقة البيت الذى فيه الناس فيدخل وهم يرونه ونجىء بالليل إلى باب الصغير (باب من أبواب دمشق الستة التى كانت يومئذ) فيعبر منه هو ورفيقه وهو من أفجر الناس .

وآخر كان بالشوبك (قلعة حصينة فى أطراف الشام) من قرية يقال لها الشاهدة يطير فى الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه وكان شيطان يحمله وكان يقطع الطريق .

وأكثرهم شيوخ الشر يقال لأحدهم (البوشى أى المجيب) ينصبون له خركاه فى ليلة مظلمة ويصنعون خبزاً على سبيل القربان فلا يذكرون الله ولا يكون عندهم من يذكر الله ولا كتاب فيه ذكر الله ثم يصعد ذلك البوشى فى الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به .

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه ويأمرهم بأن يقربوا له بقرأ وخيلاً وغير ذلك وأن يخفقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها فإذا فعلوا قضى حاجتهم !!.

ويذكر ابن تيمية أيضاً عن « شيخ أخبره نفسه أنه كان يزني بالنساء ويتلوط الصبيان وكان يقول : يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان ، فيقول لي : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به . ما قضيت حاجته لأجلك فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر » .

ويذكر عن هذا الشيخ أنه قال : « وكنت إذا طلب في تغيير مثل (الأذن) (صمغ يستعمل عطراً ودواءً) أقول حتى أغيب عن عقلي وإذا بالأذن في يدي أوفى فمي وأنا لا أدري من وضعه . قال : وكنت أمشي وبين يدي عمود أسود عليه نور .

قال : فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير فلا يأتي بالأذن ولا غيره .

ويحكى عن شيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس فيأتي أهل ذلك المصروع ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس حتى أن بعض الناس كان له تين في كؤارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرون له فيطلب أصحاب لكؤارة التين فوجدوه قد ذهب .

ويذكر عن آخر أنه كان مشتغلاً بالعلم فجاءته الشياطين وأغوته وقالوا له : نحن نسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد فكانوا يأتونه بالحلوى أو الفاكهة حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان » (جامع الرسائل لابن تيمية في ١٩٤/١٩) وبين بعض طرق الشيطان في الإغواء فقال في (مجموع الفتاوى ٣٠٠/١١) .

« أنا أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر وتقول هنيئاً لك يا ولي الله فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول خذني حتى يأكلني الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسان ويخاطبه بذلك ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله » .

ويقول رحمه الله : « وأعرف من يخاطبه فخاطب ويقول له : أنا من أمر الله ويعد بأنه المهدي الذي بشره الرسول ﷺ ويظهر له الخوارق مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير الجراد في الهواء فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً وشمالاً ذهب حيث أراد وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر وتحمله إلى مكة وتأتي به وتأتيه بأشخاص في صور جميلة وتقول له هؤلاء الملائكة المقربون جاءوا لزيارتك فيقول في نفسه : كيف تصوروا بصور المرذان ؟ فيرفع رأسه فيجدهم بلحي ويقول له : علامة أنك المهدي أنك تنبت في جسدك شامة فتثبت ويراهها وغير ذلك وكله من مكر الشيطان » .

وبين رحمه الله (٤١/١٩) « أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعي ولهم أحياناً مكاشفات وتأثيرات يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نهى عن الصلاة فيها لأن الشياطين تنزل عليهم بها وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان وكما كانت تدخل في الأصنام وتكلم عابدي الأصنام وتعينهم في بعض المطالب كما تعين السحرة وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب وقد تقضى بعض حوائجهم » .

الذين تخدمهم الشياطين يتقربون إليها بالمعاصي :

هؤلاء الذين يزعمون الولاية والحقيقة أن الشياطين تخدمهم - لا بد أن يتقربوا إلى الشياطين بما تحبه من الكفر والشرك كي يقضوا بعض أغراضه ويذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى) أن كثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة وقد يقلبون حروف كلام الله - عز وجل - إما حروف الفاتحة وإما حروف قل هو الله أحد وإما غيرهما - ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أو بغيره من النجاسات وقد يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان أو يتكلمون بذلك . فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانته على بعض أغراضهم إما تغوير ماء من المياه وإما أن يحمل في الهواء إلى بعض الأماكن وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتي به وإما غير ذلك .

دجال الغيب :

يذكر شارح الطحاوية « أن من الشياطين ما يسميه الناس رجال الغيب وأن بعض الناس يخاطبون وتحصل لهؤلاء خوارق يزعمون بها أنهم أولياء الله ، وأن بعض هؤلاء يعين المشركين على المسلمين ويقول : إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين عصوا » .

ويعقب شارح الطحاوية على ذلك قائلاً : « هؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين وذكر أن الناس من أهل العلم في رجال الغيب ثلاثة أحزاب :

١ - حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن قد عاينهم الناس وثبت عن عاينهم أو حدثه الثقات بمالأوه وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

٢ - وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن تم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء .

٣ - وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ولياً خارجاً عن دائرة الرسول ، فقالوا : يكون الرسول هو محمداً للطائفتين فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه .

ثم قال مبيناً حقيقة هؤلاء وأتباعهم : والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالاً كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (سورة الجن ٦) . وإلا فالإنس يؤنسون أى يشهدون ويرون وإنما يحتجب الإنس أحياناً لا يكون دائم الاحتجاب عن أبصار الإنس ومن ظنهم من الإنس فمن غلظه وجهه .

ثم بين السبب في الاختلاف فيهم وفي افتراق هذه الأحزاب الثلاثة : هو عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن وبين أنه يجب عرض أفعال الناس وأقوالهم وحالهم على الكتاب والسنة فما وافقهما كان صالحاً وما خالفهما كان غلطاً ومهما فعل الإنسان وتبدى من حاله لا يكون مؤمناً ولا ولياً لله - وإن طار في الهواء ومشى على الماء مالم يكن ملتزماً بالكتاب والسنة (شرح العقيدة الطحاوية ٥٧٢/٥٧١) فلا بد أن يكون عند العبد الميزان الذى يفرق به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان والصالحين والطالحين وإلا ضل وزاغ وظن أعداء الله أولياءه . هذا الميزان هو الكتاب والسنة فإذا كان العبد ملتزماً بهما فنعم وإلا فإنه ليس على شيء ولو رأيناه يحى الأموات ويحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة .

يقول ابن تيمية : (ومن لم يميز بين الأموال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل ومن لم ينور الله قلبه بحقائق الإيمان واتباع القرآن لم يعرف طريق الحق من المبطل واللابس عليه الأمور الحال كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب الإمامة وغيره من الكذابين في زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذابون) جامع الرسائل ص ١٩٧ .

وقد ألف ابن تيمية كتاباً عظيماً إذا عرفته تبين لك الفارق الكبير بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بحيث لا يشتبه عليك بعد ذلك أمر أولياء الشيطان وقد أسماه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

حكم استخدام الجن :

الذى يظهر أن الله استجاب لسليمان ووهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فإذا حصل طاعة من الجن لأحد من الإنس فلا يكون على سبيل التسخير وإنما برضى الجن وهل يجوز ذلك ؟ يقول ابن تيمية في (مجموع الفتاوى ٣٠٧/١١) :

الجن مع الإنس على أحوال :

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ويأمر الإنس بذلك فهذا من أفضل أولياء الله تعالى وهو في ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه .

ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم في مباحات له فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله فغايتة أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم وإما في فاحشة كجلب لا من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاصي : إما فاسق وإما مذنب غير فاسق .

وإن لم يكن تام العلم بالشرعية فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج أو يطيروا به عند السماع البدعي أو أن يحملون إلى عرفات ولا يجح الحج الشرعي الذى أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به .

تحضير الأرواح

انتشر في عصرنا القول بتحضير الأرواح وصدق بهذه الفرية كثير من الذين يعدهم الناس عقلاء وعلماء .

وتحضير الأرواح المزعوم سبيله ليس واحداً فمنه ما هو كذب صراح يستعمل فيه الإيهام النفسي والمؤثرات المختلفة والحيل العلمية ومنه ما هو استخدام للجن والشياطين .

وقد كشف الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (الروحية الحديثة) كثيراً من ضراغ هؤلاء وتزويرهم للحقيقة فمنهم لا يجرون تجاربهم كلها إلا في ضوء أحمر خافت هو أقرب إلى الظلام وظواهر التجسيد المباشر ونقل الأجسام وتحريكها تجرى في الظلام الدامى ولا يستطيع المراقب أن يتبين مواضع الجالسين ولا مصدر الصوت ولا يستطيع كذلك أن يميز من تفاصيل المكان كجدرانه أو أبوابه أو نوافذه .

وتكلم الدكتور محمد عن (الخباء) وهو حجرة جانبية معزولة عن الحاضرين أو جزء من الحجرة التي يجلسون فيها تفصل بحجاب كثيف وهذا المكان المنفصل معد لجلوس الوسيط الذى تجرى على يديه ظواهر التجسد المزعوم ومن هذا المكان المحجوب بستار يضاف إلى حجاب الظلام السابق تخرج الأرواح المزعومة متجسدة وإليه تعود بعد قليل ولا يسمح للحاضرين بلمس الأشباح .

ويرى الدكتور أن الروحيين لا يعدمون في مثل هذا الجو المظلم قوالب علمية يصبون فيها حيلهم .

والتدليس على الناس بالحيل طريقة قديمة معروفة يضل بها شياطين الإنس عباد الله يطلبون الوجاهة عند الناس كما يطلبون ما لهم فقد ذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٥٨/١١) عن فرقة في عصره كانت تسمى (البطائحية) . أنهم كانوا يدعون علم الغيب والمكاشفة كما يدعون أنهم يرون ويرون الناس رجال الغيب ثم يكشف شيئاً عن دجلهم فقد كانوا يرسلون بعض النساء إلى بعض البيوت يستخبرون عن أحوال أهلها الباطنة ثم يكاشفون صاحب البيت بما علموه زاعمين أن هذا من الأمور التي اختصوا بالاطلاع عليها ووعدوا رجلاً — كانوا يمينونه بالملك — أن يروه رجال الغيب فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يمشى كهيئة الذى يلعب بأكر الزجاج فجعلوا يمشون على جبل المزة وذلك المخدوع ينظر من بعيد فيرى قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم . ودلسوا على آخر كان يدعى (قفجق) إذ أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموا أن الموتى تتكلم وأتوا به إلى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعرانى الذى بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته وقالوا أنه طلب منه جملة من المال فقال

(قفجق) : الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائنى ليس فيها هذا كله وتقرب قفجق وجذب الشعر فانقلع الجلد الذى الصقوه على جلده من جلد الماعز . وقد بين الدكتور محمد محمد حسين أن الوسيط وهو شخص يزعم الروحانيون أن فيه استعداداً فطرياً يؤهله لأن يكون أداة يجرى عن طريقها التواصل - غالباً ما يكون دجالاً كبيراً وغشاشاً مدلساً وبين كيف أن كثيراً من هؤلاء الوسطاء لا يكون على خلق ولا دين بل إن الروحانيين لا يشترطون فى الوسيط شيئاً من ذلك وقد ذكر حادثة تجرت معه شخصياً تبين له بعد تحقيق منه فى الموضوع أن الوسيط كان دجالاً كاذباً .

وبين كيف أن بعض الحضور يكونون متواطئين مع المحضرين وكيف يحترس فى إنتقاء الذين يسمح لهم بحضور مثل هذه الجلسات وكيف يعللون فشلهم إذا وجد فى الحضور بعض الأذكياء النبهاء .

استخدام الجن والشياطين :

أفاض الدكتور محمد محمد حسين فى الكشف عن الطريق الأول الذى يزعم الروحانيون أنهم يحضرون به الأرواح وهو طريق الدجل والكذب واستعمال المؤثرات النفسية والحيل العلمية . وأشار مجرد إشارة إلى الطريق الثانى وهو استخدام الجن والشياطين وأرى أن غالبية الدعوات التى يزعم فيها تحضير الأرواح هى من هذا القبيل .

تحضير الأرواح دعوة قديمة :

وبناء على ذلك فهذه الدعوى ليست جديدة بل هى قديمة وقديمة جداً وقد نقلنا فيما سبق كيف كان بعض الناس يتصلون بالجن بل حفظت لنا كتب ثقات أن بعض الناس كانوا يزعمون أن أرواح الموتى تعود إلى الحياة بعد الموت ، يقول ابن تيمية « ومن هؤلاء (أى أهل الحال الشيطاني من الكفرة والمشركين والسحرة ونحوهم) من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يحىء بعد الموت يكلمهم ويقضى ديونه ورد ودائعه ويوصيهم بوصايا فإنهم تأتيهم تلك الصورة التى كانت فى الحياة وهو شيطان تمثل فى صورته فيظنون أنه إياه » (جامع الرسائل ص ١٩٤/١٩٥) .

تجربة معاصرة :

هذه تجربة حصلت مع الكاتب أحمد عز الدين البيانونى ذكرها فى كتاب الإيمان بالملائكة حرصت على نقلها بنصها يقول فى هذا الموضوع .

لقد شغل « استحضار الأرواح » المزعوم أفكار الناس فى الشرق والغرب فكتبت فيه مقالات

بلغات مختلفات نشرت في مجالات عربية وغير عربية وألفت فيه مؤلفات وبحث فيه باحثون وجربه مجربون اهتدى بعد ذلك العقلاء منهم إلى أنه كذب وبهتان ودعوة إلى كفر وطغيان . إن استحضر الأرواح الذى يزعمه الزاعمون كذب ودجل وخداع وما الأرواح المزعومة إلا شياطين تتلاعب بالإنسان وتخدعه .

وليس فى استطاعة أحد أن يستحضر روح أحد فالأرواح بعد أن تفارق الأجساد تصير إلى عالم البرزخ .

ثم هى إما فى نعيم أو فى عذاب وهى فى شغل شاغل عما يدّعيه مستحضر الأرواح . وقد دُعيت أنا إلى ذلك من قبل هذه الأرواح وجربته بنفس تجربة طويلة وظهر لى أنه كذب ودجل وخداع على أيدى شياطين تتلاعب غرمتهم من ذلك تضليل الناس وخداعهم وموالة من يواليهم .

بدء التجربة :

عرفت منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً رجلاً يزعم أنه يستخدم الجن فى أمور صالحة فى خدمة الإنسان وذلك بواسطة وسيط من البشر . ويزعم أنه توصل إلى ذلك بتلاوات وأذكار طويلة قضى فيها زمناً طويلاً وله عليها بعض من يزعم أنه على معرفة بهذا العلم ! جاءنى الوسيط ذات يوم يبلغنى دعوة فلان وفلانة من الجن لحديث هام لى فيه شأن عظيم .

فذهبت فى الموعد المحدد متوكلاً على الله تعالى فرحاً بذلك لأطلع فى هذه التجربة على جديد .

كيف بدأت الخداعة ؟

. من أول أساليب الخداع التى سُلكت معى أن طريقة الاستحضار ، استغفار وتهليل وأذكار مما يجعل الإنسان لأول وهلة يظن أنه يتحدث مع أرواح علوية صادقة طاهرة .

دخلت بيت الوسيط واخلونا معاً فى غرفة وجلس هو على فراش وبدأنا بدلالته طبعاً نستغفر ونهلل - حتى أخذته إغفاءة فاضجعت أنا على فراشه وسجّيته بغطاء كما علمنى أن أفعل ، وإذا بصوت خافت ، يسلم صاحبه علىّ ويظهر حفاوته لى وحبه ويعرفنى أنه مخلوق يزعم أنه ليس من الملائكة ولا من الجن ولكنه خلق آخر من نوع آخر وُجد بقوله تعالى « كن » فكان .

وهذا على زعمه أن الجن لا يصدرن إلا عن أمره وأن بينه وبين الله تعالى فى تلقى الأوامر أربعة وسائط فقط خامسهم جبريل - عليه السلام - وأخذ يشنى علىّ ويقول : إنهم سيقطعون كل علاقة لهم

بالبشر وسيكتفون بلقائى لأنى على زعمهم الخصوصية فى هذا العصر وموضع العناية من الله تعالى وأن الله تعالى هو الذى اختارنى لذلك . ووعدنى بوعود رائعة فيها العجب العجاب

واستسلمت لهذه التجربة الجديدة والدعوة الخادعة متوكلاً على الله عز وجل سائلاً الله تعالى أن يعصمنى من الزلل وأن يهدينى إلى الحق المبين مستضيئاً بنور العلم سالكاً سبيل الاستقامة والحمد لله تعالى ولما انقضى اللقاء الأول دعانى إلى لقاء آخر فى موعد آخر ثم **ذلو** هو نفسه على تلاوة خاصة لإيقاظ الوسيط من غيبته .

وكان ذلك وجلس الوسيط **إوعرك** عينيه كأنه انتبه من نوم عميق ولا علم له بشيء مما جرى ورجعت فى الموعد المحدد أيضاً وتم بيننا لقاء بعد لقاء مدة طويلة وفى كل لقاء تتجدد الوعود الحسنة ويوصف لى المستقبل الرائع الذى ينتظرنى والنفع الذى تلقاه الأمة على يدى .

تطور الموضوع :

وتطور الأمر فأخذ كثير من الأرواح يزورنى فى كل لقاء بمقدمات من الأذكار وبغير مقدمات فقد أكون مع الوسيط على طعام أو على تناول كأس من الشاي فتأخذه الإغفاءة المعهودة فيميل رأسه إلى الأمام وتلتصق ذقنه ب صدره ويحدثنى الزائر الذى يزعم أنه من الملائكة أو من الجن أو من الصحابة أو من الأولياء حديثاً يغلب عليه طابع الاحترام والإجلال والتبرك بزيارتى وتبشيري بالمستقبل الزاهر المبارك ثم ينصرف ويحجى غيره وغيره .

من هم الزائرون :

زارنى فيما زعموا أفراد من الملائكة وأفراد من الجن وأبو هريرة - رضى الله عنه - من الصحابة وطائفة من الأولياء أمثال أبى الحسن الشاذلى - رضى الله عنه - وطائفة من أهل العلم والفضل المشهود لهم بالعلم والولاية أمثال الشيخ أحمد الترماتينى - رحمه الله تعالى . وبعض من أدركتهم من أهل العلم والفضل ثم درجتهم الوفاة ومنهم والدى - رحمه الله تعالى - وبشرونى بزيارة والدى إياى فى وقت عينوه وانتظرت الموعد بلهف ولما كان الموعد المنتظر كلفونى أن أقرأ سورة « الواقعة » جهراً فقرأتها ولما فرغت من قراءتها قالوا : سيحضر والدك بعد لحظات فاسمع ما يقول ولا تسأله عن شيء !!

بدء انتباهى :

وبعد دقائق جاءنى يزعم أنه أبى فسلم علىّ وأظهر سروره بلقائى وفرحه بى على صلتى بهذه الأرواح وأوصانى أن أعتنى بالوسيط وأهله وأن أرحاه رعاية عطف وإحسان إذ لا مورد له من المال إلا من هذا الطريق .

وختم حديثه بالصلوات الإبراهيمية وأنا أعلم أنه رحمه الله تعالى كان شديد الولع بالصلاة على النبي ﷺ ولا سيما الإبراهيمية وكان من العجب أن لهجة المتحدث شبيهة لحد ما بلهجة الوالد . ثم سلم وانصرف .

وأخذت أتساءل في نفسي : لم أوصوني أن لا أسأله عن شيء ؟ في الأمر سر ولا شك !

السر الخفى الذى انكشف لى آنذاك أنه ليس بوالدى ولكنه قرينه من الجن الذى صاحبه مدة حياته فجاءنى يمثل لى صوته وتشبه بخصوصية من خصوصياته أوصونى أن لا أسأله عن شيء لأن القرين من الجن مهما عرف من شأن والدى وحفظ من أحواله فلن يستطيع أن يحفظ كل جزئية يعرفها الولد من أبيه فحذرونى أن أسأله عن شيء حق ذلك فلا يجبنى فيفتضح الأمر ثم سلكوا معى فى لقاءى مع الآخرين أن لا يعرفونى بأسمائهم إلا عند إنصرافهم فيقول أحدهم : أنا فلان ويسلم وينصرف على الفور .

وفى ذلك من السر ما ذكرت : فلو أخبرنى واحد منهم عن نفسه وهو مشهود له بالعلم فيحدث معه فى اشكال علمى يعجز عن الجواب وانكشف الأمر .

وقد أتانى آت مرة يناقشنى فى إباحة كشف وجه المرأة وأنه ليس بعورة فرددت عليه ورداً على رداً ليس فيه رائحة العلم واحتدم الجدل بيننا .

فقلت له : وبماذا تجيب عن أقوال الفقهاء الذين قالوا : إن وجه المرأة عورة أو يجب ستره خشية الفتنة ؟

وإنتهى الجدل إلى غير جدوى ثم أخبرنى أنه هو الشيخ أحمد الترماتينى وانصرف فانكشف لى أنه الكذب لاشك فيه لأن الشيخ المذكور من كبار فقهاء الشافعية والسادة الشافعية يقولون : المرأة كلها عورة ولو عجوزاً شمطاء .

فلو أنه كان هو الشيخ المذكور وانكشف له من العلم جديد وهو فى عالم البرزخ لأخبرنى بذلك وأرشدنى إلى دليله . ولكنه الكذب والخداع وإرادة التضليل وأبى الله تعالى - والحمد لله - إلا هداى وثباتى على الحق والهدى فكشف المرأة وجهها ولا سيما فى هذا الزمان الفاسد والمجتمع المريض أمر لا يقره ذو عقل ودين .

انكشاف الحقيقة :

ولم تزل تنكشف الحقيقة على وجهها مرة بعد مرة وفى تجربة بعد تجربة حتى تحقق عندى أن الأمر كله كذب وبهتان ودجل وطغيان لا أساس له من تقوى ولا قائمة له على دين :

فالوسيط الذى يعتنون بشأنه ويوصون بحسن رعايته وإكرامه تارك صلاة ولا يأمرونه بها — وهو يخلق لحيته ولا يأمرونه بإطلاقها ثم هو يأكل أموال الناس بالباطل وبالوعود الخادعة ولا مورد له إلا من هذا الطريق الخبيث .

جاءنى رجل بعد ما عرف صلتى بهذا الوسيط يشكو إلىّ أنه خدعه فأخذ منه ثلاثمائة ليرة سورية وهو فقير وفى أشد الحاجة إليها .

فألزمت الوسيط بردها إليه فاستجاب لذلك حرصاً منه ومن شياطينه على بقاء صلتى بهم .
والوسيط وأسرته تقوم حياتهم على الكذب فى أكثر شؤونهم .

الخاتمة :

وقد حاولت هذه الأرواح بعدما إنكشف لى أمرها أن تسلك معى مسلك التهديد فلم يزل ذلك من قلبى شيئاً والحمد لله تعالى . وقد كنت كتبت فى هذه المدة الطويلة مما حدثونى به ما ملأ دفتريين كبيرين جمعت فيهما أكثر ما حدثونى به . ولما ظهر الباطل ظهوراً لا يحتمل التأويل قطعت الصلة بهم وحكمت عليهم بما حكمت وأحرقت الدفتريين اللذين امتلأ بالكذب والخداع . فهذه الأرواح التى تدعى أنها أرواح رجال من الصحابة والأولياء والصالحين كلها شياطين لا ينبغى لمؤمن عاقل أن ينخدع بها وجميع الصور التى اعتادها مستحضر الأرواح كذب وباطل .

سواء فى ذلك طريقة الوسيط التى ذكرتها وجربتها وطريقة المنضدة والفناجين التى ذكرها لى بعض من جربها ووصل إلى النتيجة التى وصلت إليها . ومن عجيب الأمر أنى قرأت بعد ذلك كتباً مؤلفة فى هذا الموضوع فإذا بالمجدين العاقلين وصلوا إلى مثل ما وصلت إليه وحكموا على تلك الأرواح أنها قرناء بنى آدم من الجن كما هدانى الله تعالى إلى ذلك من قبل والحمد لله .

وقد أديت بكلمتى هذه النصيح الواجب والله الهادى إلى سواء السبيل .

خطر هذه الدعوات :

هذه الدعوات التى تزعم أن بمكانها تحضير الأرواح اتخذها شياطين الجن والإنس سبيلاً لإفساد الدين فهذه الأرواح التى تحضر وهى فى الحقيقة شياطين تتكلم بكلام يحطم الدين وينسفه وتقر مبادئ ومثل ومناهج جديدة تعارض الحق كل المعارضة ففى واحدة من هذه الجلسات زعمت الروح (الشيطان) على لسان الوسيطة أن جبريل قد حضر هذه الجلسة ولما كان الحضور لا يعرفون جبريل قالت : (ألا تعرفون جبريل الذى كان ينزل بالقرآن على محمد ؟ إنه يبارك هذا الاجتماع وينقل

الدكتور محمد محمد حسين عن مجلة (عالم الروح) من مقال لها بعنوان (حديث الروح الكبير هوايت هوك) ما يأتي :

« يجب أن نتخذ في هذه الحركة . في هذا الدين الجديد . يجب أن تسودنا المحبة . ويجب أن تكون لنا قدرة على الاحتمال والتفاهم » . رسالتي (الروح المتحدث هنا أى الشيطان) أن أواسى المحروم وأساعد الإنسان على تحرره في نفسه من الله تعالى : (وصدق فهذه رسالته أى يجعله يكفر بالله) الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض (هكذا ينضج في الإنسان ويكذب عليه ليضله) وهو لن يدرك ما في مقدوره هو مالم يحس بجزئه الملائكى الإلهى الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله) . وينقل عن هذه المجلة أيضاً تعريفاً بالمنظمة التى أسست لهذه الغاية لأن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحى طريقة جديدة للحياة ويعظوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته ، إنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وبسعادة النفس والقلب سوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد وبين العقائد والأديان (هكذا) ... إن العضوية في هذه المنظمة بدون نظر للوطن أو اللون أو الدين أو المذهب السياسى .

وتزعم الأرواح أنها رسل مرسله من عند الله فالدكتور يذكر أن محمد فريد وجدى نقل عن هذه الأرواح (أى الشياطين) قولها « نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم فالهنا هو إلههم إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل في صفات البشرية وأكثر صفات إلهية .. لا تخضع لأى عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل » .

وهم يزعمون أن الرسل والأنبياء ما هم إلا وسطاء على درجة عالية من الوساطة وأن المعجزات التى جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية كالظواهر التى تحدث في حجرة تحضير الأرواح ويزعمون أنهم يستطيعون أن يعيدوا أحداث كل ما نسب للمسيح من أرواح وقد قامت بعض الصحف بحملة دعائية كبيرة زعمت أن أحد محضرى الأرواح في أمريكا يستطيع أن يقوم بمثل معجزات المسيح فهو يعيد البصر إلى الأعمى والنطق إلى الأبكم والحركة للمشلول بقى أن تعلم أن هذا الطبيب المزعوم طفل في العاشرة من عمره يدعى (ميشيل) وعندما يأتيه المريض يضع أنامله عليه ويتمم ببعض الأدعية والكلمات فتحدث المعجزة . ويقولون : إن هذا الطفل ورث الموهبة الروحانية عن والده وهو لا يتقاضى من المال عما يقوم به عن أعمال (راجع ملحق جريدة القبس الكويتية ١٧/١٠/١٩٧٧) . ووراثه هذا الطفل لهذه الأعمال من أبيه تذكرنا لقصة تروى في بعض نواحي فلسطين يقول الرواة إن أحد الرجال الذين كانوا يظهرون الصلاح والتقى كان يفعل عجباً فقد كان - في ذلك الوقت الذى لم تظهر فيه الطائفة والسيارة - ينطلق إلى الحج في ليلة عرفة فيشهد ذلك اليوم مع الحجيج ويسلمهم رسائل من أقاربهم وذويهم ويأخذ منهم رسائل إلى أقاربهم ويعود في الليلة

الأخرى وكان كثير من الناس يعتقد فيه الصلاح والخير رغم أنه ما كان يقوم بمناسك الحج ولا يمكث في منى المدة المقررة ولا يرمى الجمرات ثم شاء الله أن يكشف باطله ويظهر أمره للناس فعندما جاءه الموت استدعى ابنه الأكبر وأخبره أن جملاً سيأتيه ليلة عرفة ويحمله إلى عرفات في كل عام ولما جاء الجمل وركبه الابن وسار مسافة وقف وتحدث إلى الابن وأخبره أنه شيطان وأن أباه كان يعبدّه ويسجد له وفي مقابل ذلك يخدمه مثل هذه الخدمات ولما رفض الابن السجود له واستعاذ بالله منه تركه في الصحراء وقدر الله له الرجوع وكشف حقيقة أبيه الكافر .

وقد أشار إلى هذه القصة البيانوني في كتابه الملائكة بأخصر مما أثبتناها هنا .

هل يمكن استحضر الأرواح :

لقد وضعت مجلة (سنيتفك أمريكان) جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية ولا تزال الجائزة قائمة لم يظفر بها أحد رغم انتشار الروحيين ونفوذهم وبراعتهم في أمريكا وقد ضم إلى هذه الجائزة جائزة أخرى تبرع بها الساحر الأمريكي رنجر نفسه ولم يظفر بها أحد أيضاً .

ولكن ما موقف الإسلام من إمكان إحضار روح المتوفى ؟ إن التأمل في النصوص التي وردت في هذا تجعل الباحث يعتقد جازماً أن ذلك مستحيل فقد أخبرنا الله تعالى أن الروح من عالم الغيب الذي لا سبيل إلى إدراكه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ سورة الإسراء ٨٥ .

وأخبر أنه يتوفى الأنفس وأنه يمسك النفوس عند الموت ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ سورة الزمر ٤٢ . وقد وكل الله الأنفس ملائكة يعذبونها إن كانت شقية كافرة وينعمونها إن كانت صالحة تقية وقد بين لنا الرسول ﷺ كيف يقبض ملك الموت الأرواح وما يفعل بها بعد ذلك .

والأرواح إذ كانت مُمسكة عند ربها موكل بها حفظة أقياء مهرة ، فلا يمكن أن تنفلت منهم وتهرب لتأتى إلى هؤلاء الذين يتلاعبون بعقول العباد . وبعض هؤلاء يزعم أنه حضر روح عبد من عبيد الله الصالحين من الأنبياء والشهداء ، فكيف يتركون جنان الخلد إلى حجرة التحضير المظلمة فقد أخبرنا الله أن الشهداء أحياء عند ربهم ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ سورة آل عمران ١٦٩ . وقد بين الرسول ﷺ (أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها وتأوى إلى قناديل معلقة في سقف عرش الرحمن)^(١) . فكيف يزعم دجالو العصر أنهم يحضرون أرواح هؤلاء ؟ كيف ؟ (كبرت

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً (٢).

شبهة وجوابها :

يقولون فكيف تعللون معرفة الأرواح بأخلاق وأعمال الرجل الذى تزعم أنها كانت تسكنه ؟ قلنا هذا الذى يزعم أنه روح شيطان ولعل هذا الشيطان هو القرين الذى كان يلزم الإنسان وقد ذكرنا النصوص التى تدل على أن لكل إنسان شيطاناً فهذا القرين الملازم للإنسان يعلم عنه الكثير من أخلاقه وعاداته وصفاته ويعرف أقاربه وأصدقاءه .

فعندما يختبر ما أسهل أن يجب لأنه على علم ودراية فإن قيل : كيف تفسرون الإجابات العلمية التى قد يحصل عليها من الأرواح نقول : سبق أن بينا أن الشياطين والجن لديهم القدرات العلمية التى تمكنهم من الإجابة والإفادة .

ولكنها إفادة تحمل فى طياتها الإضلال العظيم فهم لا يفيدوننا إلا بمقدار كى نثق بهم ثم يوجهوننا الوجهة الضالة السيئة التى توبقنا فى دينانا وأخرانا .

تخلى الشياطين عن أتباعها :

هؤلاء الذين يدعون (الروحانيون) ويزعمون أنهم يحضرون الأرواح ويعالجون بها كاذبون وما هذه الأرواح إلا شياطين وقد تتخلى الشياطين عن هؤلاء فتدّهم وتخذلهم . نشرت جريدة القبس الكويتية فى ملحقها بتاريخ ٧٨/٦/١٢ مقالاً جاء فيه : بريطانيا بأسرها تتحدث هذه الأيام عن العالم الروحاني (بيتر غودوين) الذى كان يتمتع بمواهب (روحانية) خارقة يستطيع بواسطتها أن يشفى المرضى من الأمراض المستعصية ويكشف الأشياء المفقودة ويسخر الأرواح لخدمة الإنسان .

وكان بيتر غودوين يتمتع بمقدرة فريدة يستطيع بواسطتها التواجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد فقد كان يشاهده أصدقاؤه فى لندن مثلاً ، ويشاهده آخرون فى نفس اللحظة فى ليفربول وآخرون فى مانشستر بينما يؤكد فريق رابع أنه لم يكن فى هذا المكان ولا ذاك وإنما كان يجلس فى منزله بين زوجته وأولاده .

وأحياناً كانت أجساده الايثرية المختلفة تجتمع فى مكان واحد فيكون جالساً بين أصدقائه مثلاً ، وفجأة .. تدخل عليهم جميعاً شخصيته الأخرى .. وتشاركهم الجلسة وتأتى شخصيته الثالثة والرابعة والخامسة بعدها ويصبح بيتر غودوين عبارة عن خمس شخصيات تجالس الحضور وتحدث إليهم أو

تحدث مع بعضها البعض بينما يكون الجميع مهوورين وفجأة خسر بيتر غودوين كل شيء وتحول إلى إنسان عادى ولم يعد بقادر على شفاء المرضى ولا اكتشاف الأشياء المفقودة ولا كشف المستقبل ولا تسخير الأرواح لخدمة الناس .

وقد بدأت مأساة غودوين عندما حاول استغلال المواهب التي منحها الله له لتحقيق مكاسب مادية وهو قد أصبح ينظر إلى الماضي القريب ويقول : إن ما حدث لى لم يكن فى الحسبان فقد غضبت الأرواح منى وسلبتنى بركاتها .

بداية القصة :

والقصة أن بيتر غودوين حاول أن يقيم مراكز للعلاج الروحى فى طول بريطانيا وعرضها وأن ينشئ مركزاً فى كل مدينة كبيرة فى بريطانيا ولذلك نشر إعلاناً فى صحيفة بونماوت المسائية يطلب فيه من ربين للأبحاث الروحية بدوام كامل أو بنصف دوام ، المشروع يحقق دخلاً يعادل ٤٠ - ٥٠ جنيهًا فى الأسبوع .

وبعد أن نشر بيتر غودوين إعلانه بدأت الطلبات تنهال عليه ومن بين الذين استجابوا للطلب كاتب فى التاسعة والعشرين من عمره اسمه روين لاسى ، وإمرأة فى الخامسة والستين من عمرها اسمها جين بارتليث ورجل فى الثلاثين اسمه ارتر جفرى ولكن ما أن بدأ بيتر غودوين بإجراء المقابلات حتى بدأت متاعبه يقول روين لاسى : « فوجئت عندما حضرنا للمقابلة أن بيتر غودوين نفسه غير موجود وأن التى تجرى المقابلة إمرأة خمسينية يساعدها شاب وإمرأة صغيرة السن فاتنة الجمال .. ووزعت علينا أسئلة وطلب منا الإجابة عليها ومن بين الأسئلة :

هل شاهدت أرواحاً فى حياتك ؟ هل تؤمن بنتائج الأرواح ؟

هل تتناول المخدرات ؟ هل سبق أن زرت مستشفى للأمراض العصبية ؟

وقالت لنا المرأة الخمسينية : أن بيتر غودوين سيقم مركزاً روحياً فى كل مدينة فى بريطانيا وأنه سيدربنا على العلاج الروحى بحيث نصبح قادرين على العمل فى هذه المراكز ثم يرسل الزبائن إلينا على أن نتقاضى خمسة جنيهات استرلينية عن الجلسة الواحدة ونعالج ما يعادل ٤٠ شخصاً فى الأسبوع .. بشرط أن يقطع بيتر غودوين لنفسه نصف أول خمسة آلاف جنيه استرليني والنصف الباقى لنا ... وقد أصيب معظمنا بخيبة الأمل من ذلك وتعالى صيحات الاحتجاج ضد ذلك من الأشخاص الذين تقدموا بطلبات وغادر معظمنا الغرفة دون أن يكمل تعبئة الطلبات .

ماذا يقول شهود العيان :

ومع ذلك فقد تم إختيار البعض وسمح لهم بمقابلة بيتر غودوين في غرفة أخرى وقد دامت مقابلة الشخص الأول ٢٠ دقيقة بدأت تتقلص وعندما جاء دور الشخص الأخير استمرت المقابلة خمس دقائق وفي النهاية إختيار بضعة أشخاص على أن يتولى بيتر غودوين تدريبهم . ومن الأشخاص الذين تم إختيارهم جين بارتليث وهي مهندسة ديكور متقاعدة وزوجها ارثر بارتليث .. تقول جين : « لم أستوعب شيئاً مما علمه بيتر غودوين لي كان دائماً بادی الاضطراب أثناء التدريب وفي الآونة الأخيرة صار يلجأ إلى تسجيل محاضراته على أشرطة تسجيل ويتحدث فيها عن آفاق الإنسان في الحياة وطلب منامرة أن نصنع تماثيل من الطين تشبه الإنسان وعلّمنا قراءة بعض التعاويذ عليها ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً .. وزودنا بيتر غودوين بملاحظات لم نفهم منها شيئاً » .

أما ارثر جفرى وزوجته انجيلا فقد كانا من ضمن الأشخاص الذين تم إختيارهم تقول انجيلا : « في البداية أحسنا بأن الجو العلمى هو السائد في الدروس والمحاضرات ولكن غودوين كان دائم الاضطراب وبدأ يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً وبعد بضعة أيام أصبح مجرد إنسان عادى ، مثلنا لا يتمتع بأية مقدرة خارقة وقد لمسنا ذلك لأنه لم يعد يمارس أعاجيبه أمامنا بل أصبح يسجل محاضراته على شريط تسجيل ونسمعها نحن من الشريط دون أن نراه ولذلك أمتنعنا جميعاً عن حضور المحاضرات وتوقفنا عن دفع المصاريف التى كنا ندفعها له بمعدل عشرة جنيهات استرلينية للدرس الواحد »

ومن مكتبة في باسنكشوك في هانز ، قال بيتر غودوين الرجل الذى خسر ثقة الأرواح به : « كانت خطتى تقضى أن أنمى قوى تلاميذى الروحية ثم أمتنعهم شهادة تثبت ذلك لكى يتمكنوا من ممارسة عملهم فيستفيدوا بذلك ويفيدوا وأستفيد وعلى الرغم من أننى تلقيت عدة رسائل روحية بأن لا أستغل المواهب التى منحني الله إياها للكسب المادى إلا أننى لم أستمع فكانت النتيجة أن بدأت مقدرتى تتلاشى إلى أن اختفت تماماً . أما كيف حدث ذلك فإننى لا أعرف حتى الآن » .

تعليقنا على هذه الحادثة :

١ - ما زعمه هذا الرجل من أنه كان يحضر الأرواح لا دليل عليه وما يدل على أنه كان يحضر الشياطين أنه أمر أتباعه بصنع تماثيل وقراءة تعاويذ معينة وهذا ما يرضى الشيطان ويغضب الرحمن .

٢ - إذا قلنا إن هذه الأرواح شياطين تحل لنا ظاهرة وجود (بيتر) في أكثر من مكان في وقت واحد لأن الشياطين لديها القدرة على التشكل بشكل الإنسان .

وهذا كان يحدث في الماضى ولا يزال يحدث فإبليس جاء المشركين في غزوة بدر في صورة سراقه بن مالك ويحكى ابن تيمية من هذا شيئاً كثيراً ، وأنا أسوق شيئاً من كلامه ليتبين للقارىء أن هذا موجود من

قديم يقول ابن تيمية عن نفسه « إن طائفة من أصحابي ذكروا أنهم استغاثوا بي في شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن والآخر كان خائفاً من التتر فذكر كل منهم أنه لما استغاث بي لآتى في الهواء وقد دفعت عنه عدوه فأخبرتهم (المخبر ابن تيمية) أنى لم أشعر بهذا ولا دفعت عنكم شيئاً وإنما هذا شيطان تمثل لأحدم فأغواه لما أشرك بالله تعالى » .

يقول : « وهكذا جرى لأكثر من واحد من أصحابنا المشايخ مع أصحابهم يستغيث أحدهم بالشيخ فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته ويقول ذلك الشيخ : إني أعلم بهذا فيتين أن ذلك كان شيطانا » .

ويقول أيضاً : « وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لي أنه استغاث باثنين كان يعتقد هما وأنهما أتياه في الهواء ، وقالوا له : طيب قلبك نحن نرفع هؤلاء عنك ونفعل ونصنع .

قلت له : فهل كان من ذلك شيء ؟ فقال : لا . فكان هذا مما دله على أنهما شيطانان فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان لقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك كما كانت الجن يخبرونه الكهان » .

٣ - إن شياطين بيتر تخلت عنه كما تتخلي الشياطين التي تتصور بصورة الشيوخ عمن وعدتهم الحماية والنصر وكما تخلي الشيطان عن الراهب بعد أن وعده بالنصر وفي ذلك إذلال لهذا الذي كان بالأمس موضع احترام الناس وتقديرهم .

٤ - زعم (بيتر) أن هذه الأرواح تأيد من الله كذب لا دليل عليه .

الجن وعلم الغيب

شاع لدى كثير من الناس أن الجن يعلمون الغيب ومردة الجن يحاولون أن يؤكدوا هذا الفهم الخاطيء عند البشر وقد أبان الله للناس كذب هذه الدعوى عندما قبض روح نبيه سليمان — وكان قد سخر له الجن يعملون بين يديه بأمره — وأبقى جسده منتصباً وأستمر الجن يعملون وهم لا يدرون بأمر وفاته حتى أكلت دابة الأرض عصاه المتكئة عليها فسقط فتبين للناس كذبهم في دعواهم أنهم يعلمون الغيب : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ، مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خرت بينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ سورة سبأ ١٤ .

وقد سبق القول كيف كانوا يسترقون خبر السماء وكيف زيد في حراسة السماء بعد بعثة الرسول ﷺ فقلما يستطيع الجن استراحة السمع بعد ذلك .

العرافون والكهان :

وبذلك يعلم عظم الخطأ الذى يقع فيه عوام الناس باعتقادهم أن بعض البشر كالعرافين والكهان يعلمون الغيب فتراهم يذهبون إليهم يسألونهم عن أمور حدثت من سرقات وخبايات وأمور لم تحدث مما سيكون لهم ولأبنائهم ولقد خاب السائل والمسئول فالغيب علمه عند الله لا يظهر الله عليه إلا من شاء من عباده الصالحين : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ سورة الجن ٢٦ - ٢٨ .

والاعتقاد بأن فلاناً يعلم الغيب إعتقاد آثم ضال يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التى تجعل علم الغيب لله وحده .

أما إذا تعدى الأمر إلى إستفتاء أدعياء الغيب فإن الجرعة تصبح من العظم بمكان ، ففى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبی ﷺ عن النبی ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة »^(١) .

وتصديق هؤلاء كفر كما فى المسند عن أبى هريرة أن النبی - ﷺ قال : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »^(٢) .

قال شارح العقيدة الطحاوية : (والمنجم يدخل فى اسم (العراف) عند بعض العلماء وعند بعضهم هو فى معناه - ثم قال - فإذا كانت هذه حال السائل فكيف المسئول ؟) . ومراده إذا كان السائل لا تقبل له صلاة أربعين يوماً وإذا كان الذى يصدق الكاهن والعراف يكفر بالمنزل على الرسول ﷺ فكيف يكون حكم الكاهن والعراف ؟

سؤال العرافين والكهنة على وجه الإمتحان :

يرى ابن تيمية أن سؤال الكهنة بقصد إمتحان حالهم وإختبار باطنهم يميز صدقهم من كذبهم - جائز واستدل بحديث الصحيحين : « أن النبی ﷺ سأل ابن صياد ، فقال : ما يأتيك ؟ فقال : يأتينى صادق وكاذب . قال : ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ، قال : فإنى قد خبأت لك خبيئاً ، قال الدخ ، الدخ . قال : أخساً فلن تعدو قدرك فإنما أنت من إخوان الكهان »^(٣) . فأنت ترى أن الرسول ﷺ سأل هذا الدعوى ليكشف أمره ويبين للناس حاله .

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب الطيرة والفأل ١٧٥١/٤ رقم ٢٢٣٠

(٢) مسند أحمد ٤٢٩/٢

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٥١

المنجمون :

وصناعة التنجيم التي مضمونها : الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمريح بين القرى الفلكية والفوايل الأرضية : صناعة محرمة بالكتاب والسنة ، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ طه ٦٩ .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ سورة النساء ٥١ قال عمر بن الخطاب : الجبت السحر . (شرح العقيدة الطحاوية ٥٦٨)

شبهة :

قد يزعم قائل أن العرافين والكهنة والمنجمين يصدقون أحياناً والجواب أن صدقهم في كثير من الأحيان يكون من باب التلبيس على الناس فإنهم يقولون للناس كلاماً عاماً يحتمل وجوهاً من التفسير فإذا حدث الأمر فإنه يفسره لهم تفسيراً يوافق ما قيل .

وصدقهم في الأمور الجزئية إما أنه يرجع إلى الفراسة والتنبؤ وإما أن تكون هذه الكلمة الصادقة مما خطفه الجن من خبر السماء . ففي الصحيحين ومسنند أحمد عن عائشة ، قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الكهان ؟ فقال (ليسوا بشيء) . فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشئ يكون حقاً ! فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرأها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة »^(١)

وإذا كانت القضية التي صدق فيها من الأمور التي حدثت كمعرفته بالسارق أو معرفته باسم الشخص الذي يقدم عليه لأول مرة وأسماء أبنائه وأسرته فهذا قد يكون بحيلة ما كالذي يضع شخصاً ليسأل الناس وتكون عنده وسيلة لاستماع أقوالهم قبل أن يمثلوا بين يديه أو يكون هذا من فعل الشياطين وعلم الشياطين بالأمور التي حدثت ووقعت ليس بالأمر المستغرب .

الكهنة رسل الشيطان :

يقول ابن القيم (الإغاثة ٢٧١/١) : « الكهنة رسل الشيطان ، لأن المشركين يدعون إليهم ويفزعون إليهم في أمورهم العظام ويصدقونهم ويتحاكمون إليهم ويرضون بحكمهم كما يفعل أتباع الرسل بالرسول فإنهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب ويخبرون عن المغيبات التي لا يعرفها غيرهم فهم عند

(١) صحيح البخاري - كتاب الطب - باب الكهانة ١٧٦/٧ وصحيح مسلم - كتاب السلام - باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان

المشركين بهم بمنزلة الرسل فالكهنة رسل الشيطان حقيقة أرسلهم إلى ضربة من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين حتى إستجاب لهم حزبه ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله ﷺ : « من أتى كاهناً ، فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة وأتباع الرسل فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء بل يبعد عن الرسول ﷺ بقدر قربه من الكاهن ويكذب الرسول بقدر تصديقه للكاهن . أقول : ومن يدرس تواريخ الأمم يعلم أن الكهان والسحرة كانوا يقومون مقام الرسول ولكنهم رسل الشيطان فالسحرة والكهنة كانت لهم الكلمة المسموعة في أقوالهم يحلون ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأمرون بقطيعة الأرحام وانتهاك الأعراض :

واجب الأمة نحو هؤلاء :

ما يدعيه المنجمون والعرافون والسحرة ضلال كبير ومنكر لا يستهان به وعلى الذين أعطاهم الله دينه وعلمهم كتابه وسنة نبيه أن ينكروا هذا الضلال بالقول ويوضحوا هذا الباطل بالحجة والبرهان وعلى الذين في يدهم السلطة أن يأخذوا على يد هؤلاء الذين يدعون الغيب من العرافين والكهنة وضاربي الرمل والحصى والناظرين في اليد (والفنجان) وعليهم أن يمنعوا نشر خزعبلاتهم في الصحف والمجلات وتعاقب من يتظاهر بصناعاته وضلالاته في الطرقات وقد ذم الله بنى إسرائيل لتركهم التناهي عن المنكر : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

وفي السنن عن النبي ﷺ برواية الصديق — رضى الله عنه — أنه قال : (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعتمهم الله بعقاب منه)^(١).

الجن والأطباق الطائرة :

كثر الحديث في هذه الأيام عن الأطباق الطائرة فلا يكاد يمر أسبوع إلا ونسمع أن شخصاً أو عدة أشخاص رأوا طبقاً طائراً رأوه في الجو محلقاً أو على الأرض جاثماً أو رأوا مخلوقات مخالفة لشكل الإنسان يخرج منه ووصل الأمر إلى الإدعاء بأن بعض هذه المخلوقات طلبت إلى بعض الناس مصاحبته إلى الطبق وأجرت فحوصاً عليه .

(١) سنن الترمذى — كتاب الفتن — باب ماجاء في نزول العذاب وإذا لم يغير المنكر ٤/٤٦٧ رقم ٢١٦٨ وسنن أبى داود — كتاب

الملاحم — باب الأمر والنهى ٤/٥٠٩ رقم ٤٣٣٨

ولا يدعى هذه الدعوى أناس مغمورون فحسب بل يزعم ذلك رجال بارزون أمثال رئيسى الولايات المتحدة الأمريكية فإنه يعتقد أنه لمح شيئاً طائراً لم يتعرف على ماهيته فى سماء ولاية جورجيا عام ١٩٧٣ .

وهو يبدى إهتماماً خاصاً بال مخلوقات الأخرى التى بدأت تغزو الأرض فقد أمضى الرئيس الأمريكى (كما نشرت الصحف) أمسية يناقش أحد العلماء المقنعين بأن الإنسان ليس المخلوق الوحيد فى الكون وكان يرافق الرئيس كارتر (فرانك برس) مستشاره للشئون العلمية وبعد ذلك شاهد كارتر داخل المرصد القومى أفلاماً توجز آخر ما توصلت إليه الأبحاث حول المخلوقات التى تعيش خارج نطاق الأرض وقام بعرض هذه الأفلام (كارل ساجان) مدير معمل الدراسات الكونية بجامعة (كورنل) الذى ترجع إليه دائماً وكالة الفضاء الأمريكية فى الأمور المتعلقة بالمخلوقات التى تعيش خارج نطاق كوكب الأرض . (راجع جريدة السياسة الكويتية العدد ٣٣٩٩ - ٧٧/١٢/٥) .

وينسب ملحق الهدف الكويتية الصادر بتاريخ ٧٨/٣/٢٣ إلى الرئيس الصينى الأسبق (ماوتسى تونج) أنه كان يؤمن بوجود مخلوقات غيرنا فى الكواكب الأخرى .

ويذكر كاتب المقال أن حوالى ٦١٪ من الشعب الأمريكى مقتنعون بذلك وتزعم الصحف الأمريكية أن قرابة نصف مليون أمريكى شاهدوا هذه الأطباق وبعض هؤلاء استطاع أن يتصل بهم إتصلاً مباشراً .

وقد قام المخرج السينمائى الأمريكى (ستيفن سيلبرج) بإخراج فيلم سينمائى بعنوان (مواجهة من النوع الثالث) بلغت تكاليفه اثنان وعشرون مليوناً من الدولارات الأمريكية .

وقد وضع الفيلم بعد تجميع المعلومات من الذين شاهدوا الأطباق الطائرة أو اتصلوا بها : وقد عرض الفيلم لأول مرة فى البيت الأبيض وأن الرئيس الأمريكى أول مشاهديه وبعد خروج هذا الفيلم إقتنعت وكالة الفضاء الأمريكية بضرورة البحث فى هذا المجال وخصصت مليون دولار للأبحاث عام سنة ١٩٧٩ وقد أطلقت على المشروع السرى اسم (سىتى) ويتلخص فى إطلاق أجهزة خاصة للفضاء الخارجى للبحث عن رسائل لاسلكية قادمة من كواكب أخرى .

ويمكننا بعد هذا العرض أن نقرر ما يأتى :

١ - لا مجال للتكذيب بوجود مخلوقات غريبة غير الإنسان إذ تواترت الرؤية من عشرات الألوف بل مئات الألوف وقد تابعت ما قيل فى هذا الموضوع فترة طويلة فكنت أحد مقالاً كل أسبوع تقريباً أو أكثر أو أقل حول رؤية جماعة أو شخص بشيء من هذا .

٢ - أن الناس احتاروا في تفسير حقيقة هذه الأطباق وحقيقة المخلوقات التي تستخدمها خاصة وأن سرعة هذه الأطباق خيالية تفوق سرعة أى مركبة اخترعها الإنسان .

٣ - أنا أجزم بأن هذه المخلوقات هي من عالم الجن الذى يسكن أرضنا هذه والذى تحدثنا عنه فيما سبق وبيننا ما لديه من قدرات وإمكانات تفوق قدرة البشر ولقد أعطى سرعة تفوق سرعة الصوت والضوء كما أعطى القدرة على التشكل وهو يستطيع أن يتراءى للإنسان فى صور وأشكال مختلفة .

وبذلك يتبين لنا فضل الله علينا إذ عرفنا بهذه الحقائق ، خاصة ونحن نشعر بالحيرة والقلق لدى الذين لا يعلمون ما علمناه وبذلك نوفر طاقاتنا العقلية وقدراتنا العلمية وأموالنا كى نوجهها وجهة نافعة .

وقد يتساءل بعضنا عن السر فى ظهور هذه الأطباق فى أيامنا هذه وعدم ظهورها فى العصور الخالية فالجواب أن الجن يلبسون لكل عصر لبوسه وهذا العصر عصر التقدم العلمى ولذلك فإنهم يضللون البشر بالطريقة التى تثير انتباههم وتشد نفوسهم والناس اليوم يتطلعون إلى معرفة شئ عن الفضاء الواسع وعن إمكانية وجود مخلوقات فيه غيرهم .

الفصل الخامس

أسلحة المؤمن فى حربه مع الشياطين

أولاً : الحذر والحيلة :

هذا العدو الخبيث الماكر حريص على ضلال بنى آدم وقد علمنا أهدافه ووسائله فى الإضلال فبمقدار علمك بهذا العدو : أهدافه ووسائله ، والسبل التى يصلنا بها تكون نجاتنا منه ، أما إذا كان الإنسان غافلاً عن هذه الأمور فإن عدوه يأسره ويوجهه الوجهة التى يريد . وقد صور ابن الجوزى هذا الصراع بين الإنسان والشیطان تصويراً بديعاً حيث يقول : « واعلم أن القلب كالحصن وعلى ذلك الحصن سور وللسور أبواب وفيه ثلم » الثلمة فى السور الموضوع المتهدم منه « وساكنه العقل والملائكة تتردد على ذلك الحصن وإلى جانبه ربض . » الربض المكان الذى يؤوى إليه « فيه الهوى والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ألا يفتر عن الحراسة لحظة فإن العدو لا يفتر ، قال رجل للحسن البصرى : أنام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة .

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يترأى فيها صور كل ما يمر به فأول ما يفعل الشيطان في الربضين إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة وكال الفكر برد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة وللعُدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج وربما دخل مغاث وربما أقام لغفلة الحراس وربما ركبت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدري به وربما جرح الحارس لغفلته وأسروا متخدماً وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته وربما صار كالفقيه في الشر (تلبس إبليس ٤٩) .

ثانياً : الالتزام بالكتاب والسنة :

أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم والشيطان يجاهد كي يخرجنا من هذا الصراط قال تعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ سورة الأنعام ١٥٣ . وقد شرح الرسول ﷺ هذه الآية وبينها فقد « خط ﷺ خطأ بيده ثم قال : (هذا سبيل الله مستقيماً) وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ « وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » رواه الأمام أحمد والحاكم وصححه^(١) .

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات وترك كل ما نهى عنه يجعل العبد في حرز من الشيطان ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ سورة البقرة ٢٠٨ . والسلم هو الإسلام وقيل : طاعة الله وفسره مقاتل بأنه العمل بجميع الأعمال ووجوه البر وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، فالذى يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته والذي يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان ولذلك كان تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله أو الأكل من المحرمات والخبائث . كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التي نهينا عنها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طيباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ سورة البقرة ١٦٨ .

إن الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً يطرد الشيطان ويغيبه أعظم إغاظة روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قرأ ابن

(١) مسند أحمد ٤٦٥/١ والحاكم في المستدرک - کتاب التفسیر ٣١٨/٢

آدم السجدة فسجد أعتزل الشيطان ييكى ، يقول : ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار»^(١)

ثالثاً : الالتجاء إلى الله والاحتفاء به :

خير سبيل للاحتفاء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتفاء بجنابه والاستعاذة به من الشيطان فإنه عليه قادر فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه ، قال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ سورة الأعراف ٢٠٠/١٩٩ .

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ سورة المؤمنون ٩٨/٩٧ . وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم فالله يأمرنا بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم .

يقول ابن كثير في تفسيره (٢٨/١) « والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر ... ، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى : أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم لا يضرني في ديني ودنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل مانهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه الأذى وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه » .

وقد كان ﷺ يكثر من الاستعاذة بربه من الشيطان بصيغ مختلفة فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح في الصلاة « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه »^(٢) روى ذلك أصحاب السنن الأربعة وقد فسر همز الشيطان بالموتة وهى الخنق والنفخ بالكبر والنفث بالشعر .

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان ٨٧/١ رقم ٨١ وسنن ابن ماجه - كتاب الصلاة - باب سجود القرآن ٣٣٤/١ رقم ١٠٥٢ ومسند أحمد ٤٤٣/٢

(٢) سنن الترمذى - كتاب الصلاة - باب ما يقوله عند افتتاح الصلاة ١٠/٢ رقم ٢٤٢ وسنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ٤٨٦/١ رقم ٧٦٤ وسنن ابن ماجه - كتاب إقامة الصلاة ٢٦٥/١ رقم ٨٠٧ ومسند أحمد ٤٠٣/١

الاستعاذة عند دخول الخلاء :

وكان إذا دخل الخلاء يستعذ من الشياطين ذكورهم وإناثهم كما في الصحيحين عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث »^(١) وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث »^(٢)

الاستعاذة عند الغضب :

واستب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيّل إلى (إلى راوى الحديث) أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقالوا : ما هي يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم » رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد وهذا لفظ أحمد^(٣)

وقد علم الرسول ﷺ أحد أصحابه أن يقول : « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم » رواه الترمذى بإسناد صحيح^(٤) (صحيح الجامع ٥٦/٦) .

الاستعاذة عند الجماع :

وحثنا على الاستعاذة حين يأتى الرجل أهله بأن يقول : « بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه لو قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً » متفق عليه^(٥) . وإذا

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١١

(٢) مسند أحمد ٣٦٩/٤ وسنن أبي داود - كتاب الطهارة - باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء ١٦/١ رقم ٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٧ وسنن أبي داود - كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب ١٤٠/٥ رقم ٤٧٨١ ومسند أحمد

(٤) سنن الترمذى - كتاب الدعوات - ٥٤٢/٥ رقم ٣٥٢٩

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

نزل المرء وادياً أو منزلاً فعليه أن يستعيز بالله لا كما كان يفعل أهل الجاهلية يستعيزون بالجن والشياطين فيقول قائلهم : أعوذ بزعيم هذا الوادي من سفهاء قومه فكانت العاقبة أن أستكبرت الجن وآذتهم كما حكى الله عنهم ذلك في سورة الجن ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ سورة الجن ٦ . أى : الجن زادت الإنس رهقاً أما المسلم فأنظر إلأم أرشده الرسول ﷺ حيث يقول : « لو أن أحدكم إذا نزل منزلاً قال : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره في ذلك المنزل شيء حتى يرتحل منه ، رواه ابن ماجه بإسناد صحيح^(١) .

التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار :

يقول الرسول ﷺ : « إذا نهق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم » رواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد صحيح^(٢) (راجع صحيح الجامع ٢٨٦/٨) وقد سبق أن الحمار إذا نهق بالليل فيكون قد رأى شيطاناً

التعوذ حين قراءة القرآن :

قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ سورة النحل ٩٨/٩٩ . وقد بين ابن القيم الحكمة في الاستعاذة بالله من الشيطان حين قراءة القرآن (إغاثة اللهفان ١٠٩/١) فقال :

١ - إن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوسوس والشهوات والإرادات الفاسدة فهو دواء لما أمره الشيطان فيها فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلى منه القلب ليصادف الداء محلاً خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكناً

فيجىء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجح فيه .

٢ - ومنها أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب كما أن الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً فكلما أحس نبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه فأمر أن يستعين

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الطب - باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه ١١٧٤/٢ رقم ٣٥٤٧

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٤٥/٨ رقم ٧٣١٢

بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن ، والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله أن الاستعاذه في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها .

٣ - ومنها أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته كما في حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها المصاييح فقال عليه الصلاة والسلام : تلك الملائكة والشیطان ضد الملك وعدوه^(١) .

فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباحدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشیاطين .

٤ - ومنها أن الشیطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارئ به فأمر عند المشروع أن يستعيز بالله من الشیطان الرجيم .

٥ - ومنها أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه والله أشد أذنا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته والشیطان إنما قراءته الشعر والغناء . فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذه عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

٦ - ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشیطان في أمنيته والسلف كلهم على أن المعنى : إذ تلا ألقى الشیطان في تلاوته .. فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام — فكيف بغيرهم ولهذا يعلو القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا وربما جمعها له

٧ - ومنها أن الشیطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه » .

تعويذ الأبناء والأهل :

وقد كان الرسول ﷺ يعوذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شیطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول : هكذا كان أبي إبراهيم ﷺ يعوذ إسماعيل واسحق^(٢) »

(١) مسند أحمد ٨١/٣

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ١٧٩/٤ والترمذي في الطب حديث رقم ٢٠٦١ وابن ماجه في الطب حديث رقم ٣٥٢٥ باب ما عوذ به

النبي ﷺ وأحمد في مسنده ٢٣٦/١

قال أبو بكر بن الأبنارى : « الهامة واحد الهوام ويقال هي كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون أخف على اللسان » (تلبس إبليس ٤٧) .
خير ما يتعوذ به المتعوذون :

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ رواه النسائي^(١) .

فقه عظيم :

حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : « ما تصنع بالشيطان إذا سؤل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ، قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال هذا يطول ، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع ، قال : أكابده جهدى وأرده : هذا أو يطول ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك (تلبس إبليس ٤٨) وهذا فقه عظيم من هذا العالم الجليل فإن الاحتماء بالله والالتجاء إليه هو السبيل القوى الذى يطرد الشيطان ويبعده وهذا ما فعلت أم مريم إذا قالت : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ سورة آل عمران ٣٦ .

شبهة :

يقول بعض الناس إننا نستعيز بالله ومع ذلك فإننا نحس بالشيطان يوسوس ويحرضنا على الشر ويشغلنا فى صلاتنا .

والجواب أن الاستعاذة كالسيف فى يد المقاتل فإن كانت يده قوية أصاب من عدوه فضلاً وإلا فانه قد لا يؤثر فيه ولو كان السيف صقيلاً حديداً .

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقى ورع كانت ناراً تحرق الشيطان وإن كانت من مغلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر فى العدو تأثيراً قوياً قال أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله : (واعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام ولحم فمر به كلب فقال له اخسأ فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أخسأه (طرده) لم يرح فالأول مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده الذكر والثانى مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه نعوذ بالله من الشيطان) (تلبس إبليس ٤٨) فعلى المسلم الذى يريد النجاة من الشيطان واحبيله أن يشتغل بتقوية إيمانه والاحتماء بالله ربه والالتجاء إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

رابعاً - الاشتغال بذكر الله :

ذكر الله من أعظم ما ينجي العبد من الشيطان وسيأتي ذكر الحديث الذي يأمر فيه نبي الله يحيى نبي إسرائيل بخمس خصال ومن هذه « وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله »^(١) يقول ابن القيم في (الوابل الصيب ص ٦٠) : فلولم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله - تعالى - وأن لا يزال لهجاً بذكره فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه وإذا ذكر الله - تعالى - انخس عدو الله وتضاغر وانقمع حتى يكون كالوصع (طائر أصغر من العصفور) وكالذباب ولهذا سمي (الوسواس الخناس) أي : يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله خنس . أي : كف وأنقبض وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فاذا ذكر الله - تعالى - خنس .

ويقول ابن القيم (ص ١٤٤) : « الشياطين قد احتوت العبد وهم أعداؤه فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله - عز وجل - » .

ثم ساق رحمه الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً وكنا في صفة بالمدينة فقام علينا وقال : إني رأيت البارحة عجباً : رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه ، ورأيت رجلاً قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشه الشياطين فجاءه ذكر الله - عز وجل - فطرد الشيطان عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يلتهب - وفي رواية : يلهث - عطشاً ، كلما دنا من حوض منع وطرده فجاءه صيام شهر رمضان ، فأسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً جُلُوعاً كلما دنا إلى حلقة طرد فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور ورأيت رجلاً من أمتي يتقى بيده وهج النار وشرره ، فجاءته صدقته ، فصارت ستره بينه وبين النار ، وظللت على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المسلمين ، أنه كان وصولاً لرحمه فكلموه ، فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أحتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم ، وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه ، وبينه وبين الله - عز وجل - حجاب ، فجاءه حسنُ خُلُقِهِ ، فأخذ بيده ، فأدخله على الله - عز وجل -

(١) سنن الترمذى - كتاب الأمثال - باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٨/٥ رقم ٤٨٦٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح

ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله - عز وجل - فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي خفَّ ميزانه ، فجاءه أفراطه (جمع فرط ، والمراد به : من مات له من الأطفال) فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه في الله - عز وجل - فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار ، فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله - عز وجل - فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السَّعفة في ريح عاصف ، فجاءه حسن ظنه بالله - عز وجل - فسكَّن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط ، ويحبو أحياناً ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته على فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة ^(١) رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب « الترغيب في إتحصال المنجية ، والترهيب من الخلال المروية ، وبني كتابه عليه وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً ، رواه عن سعيد بن المسيب ، عمرو بن آزر ، وعلى بن زيد بن جدعان ، وهلال أبو جبلة ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يعظم شأن هذا الحديث ، وبلغني عنه أنه كان يقول : شواهد الصحة عليه والمقصود منه قوله ﷺ : ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله - عز وجل - فطرد الشيطان عنه » فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري ، وقوله فيه : « وأمركم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو ، فانطلقوا في طلبه سراعاً ، وانطلق حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه » .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه الا بذكر الله - عز وجل - وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال - يعني إذا خرج من بيته - بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كُفيت وهُديت ووُقيت ، وتنحى عنه الشيطان فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُقي ؟ » رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن ^(٢) .

وصح عنه - ﷺ - أنه قال : « من قال في يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسي » ^(٣) وذكر سفيان عن أبي الزبير ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هُديت وإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كُفيت ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الملك : حفظت ، فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ، ليس لكم عليه سبيل ، كيف لكم بمن كُفى وهُدى وحفظ ؟

وقال أبو خلاد المصري : من دخل في الاسلام ، دخل في حصن ، ومن دخل المسجد فقد دخل في

(١) أخرجه الترمذي في نوادر الأصول .

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب ما يقول إذا خرج من بيته ٣٢٨/٥ رقم ٥٠٩٥ ، وسنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب ما يقوله إذا

خرج من بيته ٤٩٠/٥ رقم ٣٤٢٦

(٣) مجمع الزوائد ١٢١/١٠

حصنين ، ومن جلس في حلقة يذكر الله عز وجل فيها ، فقد دخل في ثلاثة حصون ، وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني ، عن أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : إذا وضع العبد جنبه على فراشه ، فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب ، أمن من شر الجن والانس ومن كل شيء ذكره السيوطي في « الجامع الكبير » ونسبه للبزار والديلمي ، قال الهيثمي في « المجمع » : وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح (محقق الوابل الصيب) . وفي « صحيح البخاري » عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - زكاة رمضان أن احتفظ بها ، فأتاني آت ، فجعل يحثو الطعام فأخذته ، فقال : دعني فأني لا أعود . . فذكر الحديث ، وقال : فقال في الثالثة : أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، إذا أويت إلى فراشك ، فأقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها ، فانه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، فأصبح ، فأخبر النبي - ﷺ - بقوله ، فقال : « صدقك وهو كذوب »^(١) وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : أختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه - يعني النوم - طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها ، الحمد لله الذي يمسك التي قض عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه »^(٢) .

وفي « الصحيحين » : من حديث سالم بن أبي الجعد ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - « أما إن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبداً »^(٣) . وذكر الحافظ أبو موسى ، عن الحسن بن علي قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ، ومن كل لص عاد : آية الكرسي وثلاث آيات من الأعراف ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض . . ٥٤ - ٥٦) ، وعشراً من الصافات (١ - ١٠) ، وثلاث آيات من الرحمن ﴿ يا معشر الجن والانس . . (الرحمن : ٣٣ - ٣٤) وخاتمة سورة الحشر : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴿ (الحشر : ٢١ - ٢٤) . وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلي في المسجد ، إذا هو بشيء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك مني بأس إنما جئتكم في الله تعالى ، ائت عروة فسله : ما الذي يتعوذه ؟ - يعني من إبليس الأباليس - قال : قل آمنت بالله العظيم وحده ، وكفرت بالجبوت والطاغوت ، واعتصمت بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم ، حسبي الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى .

(١) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب فضل البقرة ٢٣٢/٦

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي - سند جابر ٣٢٦/٣ رقم ١٧٩١ ومجمع الزوائد ١٠/١٢٠ وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم ١٢ والحاكم في

المستدرک ٥٤٨/١

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

وقال بشر بن منصور : عن وهيب بن الورد قال : خرج رجل إلى الجبانه بعد ساعة من الليل ، قال : فسمعتُ حِسًا - أو صوتًا - شديداً ، وجيء بسرير حتى وضع ، وجاء شيء حتى جلس عليه ، قال : واجتمعت إليه جنوده ، ثم صرخ فقال : من لي بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله - عز وجل - من الأصوات ، فقال واحد : أنا أكفيكه ، قال : فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عروة ، وقال : ويلكم وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص إليه معهن ، قال الرجل : فلما أصبحت ، قلت لأهلي : جهزوني ، فأتيت المدينة ، فسألت عنه حتى دُلْتُ عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : شيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرني ، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال : ما أدري ، غير أني أقول إذا أصبحت : آمَنْتُ بالله العظيم ، وكفرتُ بالجِبِّ والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، والله سميع عليم . إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ، وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات . وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال : قال جبريل للنبي ﷺ : إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ من الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن^(١) . وقد ثبت في « الصحيح » أن الشيطان يهرب من الأذان . قال سهيل بن أبي صالح : أرسلني أبي إلى بني حارثه ومعى غلام - أو صاحب لنا ، فنادى منادٍ من حائط باسمه ، فأشرف الذي معي على الحائط ، فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبي ، فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، لكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإنني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ، وَلَّى وله حُصَاصٌ » وفي رواية : « إذا سمع النداء وَلَّى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . . » الحديث^(٢) . وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله - ﷺ - « استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهم بالذنوب ، وأهلكوني بقول : لا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم ، أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون »^(٣) .

وذكر أيضاً عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : بينا رجل مسافر ، إذ مرُّ برجل نائم ، ورأى عنده شيطانين ، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل ، فذهب إلى النائم ، فلما دنا منه رجع فقال : صدقت ، فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرني على أي آية نمت ؟ قال : على هذه الآية : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

(١) عمل اليوم والليلة لابن السني رقم ٦٣٧

(٢) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢٩٧/١ رقم ١٨

(٣) مسند أبي يعلى الموصلي عن أنس بن مالك .

استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴿ (الأعراف : ٥٤) وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : كنت أرى في دارى . . ف قيل : يا أبا النضر تحوّل عن جوارنا ، قال : فاشتد ذلك علىّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربى ، وأبى أسامة ، فكتب إلى المحاربى : إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها فنزل بهم ركب ، فشكوا ذلك إليهم ، فدعوا بدلو من ماء ، ثم تكلموا بهذا الكلام فصبوه في البئر ، فخرجت نار من البئر ، فطفئت على رأس البئر ، قال أبو النضر : فأخذت ثوراً من ماء ، ثم تكلمت فيها بهذا الكلام ، ثم تتبعت به زوايا الدار ، فرششته ، فصاحوا بى : أحرقتنا ، نحن نتحول عنك ، وهو : بسم الله ، أمسينا بالله الذى ليس منه شيء ممتنع ، وبعزة الله التى لا ترام ولا تضام ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ، وبأسمائه الحسنى كلها عائد من الأبالسة ، ومن شر شياطين الانس والجن ، ومن شر كل معلن أو مسر ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار ، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ، ومن شر ما خلق وذراً وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ، أعوذ بالله : بما أستعاذ به موسى ، وعيسى ، وإبراهيم الذى وفى ، من شر ما خلق وذراً وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر ما يبغى ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والصفات صفا ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن الهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصلب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (الصفات : ١ - ١٠) . فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد : يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى . وأحب أن أختتم هذا الموضوع بحديث لم يذكره ابن القيم ، وهذا الحديث يدل على أن ذكر الله فى كل أمر من الأمور يذل الشيطان ويصغر أمره ويرده خائباً خاسئاً ، روى الامام أحمد تيممة سمع أحد الصحابة يحدث أنه كان رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حمارة ، فقلت تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : « لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاضم ، وقال : بقوى صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » قال ابن كثير فى (البداية ١/٦٥) تفرد به أحمد وإسناده جيد^(١) .

خامساً - لزوم جماعة المسلمين :

ومما يبعد المسلم عن الوقوع فى أحابيل الشيطان أن يعيش فى ديار الاسلام ويختار لنفسه الفئة الصالحة التى تعينه على الحق وتحضه عليه ، وتنهيه عن السيئات ، وتذكره بالخيرات ، فإن فى الاتحاد والتجمع قوة وأى قوة ، يقول الرسول ﷺ : « من أراد منكم بحبوة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . ورجاله ثقات والحديث

صحيح وله طرق ،^(١) والجماعة جماعة المسلمين ، وامام المسلمين ولا قيمة للجماعة في الاسلام ما لم تلتزم الحق : الكتاب والسنة ، ففي الحديث : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة ، الا استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة ، فإنما أكل الذئب من الغنم القاصية » إسناده حسن . رواه أبو داود والنسائي وغيرهما^(٢) وروى أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة وهي الجماعة » . رواه أبو داود بإسناد جيد^(٣) .

سادسا - كشف مخططات الشيطان ومصائده :

على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله في الإضلال ويكشف ذلك للناس ، وقد فعل ذلك القرآن ، وقام بهذه المهمة الرسول - ﷺ - خير قيام ، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذي أغوى الشيطان به آدم . والرسول - ﷺ - كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع ويلقى بالكلمة التي سمع في أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة ، يبين لهم ذلك كي لا ينخدعوا بأمثال هؤلاء وبين لهم كيف يوسوس لهم ويشغلهم في صلاتهم وعبادتهم ، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأن وضوءهم قد فسد والأمر ليس كذلك ، وكيف يفرق بين المرء وزوجه ، وكيف يوسوس للمرء فيقول له : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك .

سابعا - مخالفة الشيطان :

يأتى الشيطان في صورة ناصح حريص على الانسان ، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به ، ويقول له : لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك ، فقد أوقعت نفسك في النار ، وجلبت لها غضب الجبار ، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه ، يقول الحارث بن قيس : (إذا أتاك الشيطان وأنت تصلى فقال إنك ترائي فزدها طولا) (تلبس إبليس ٣٨) وهذا فقه منه رحمه الله وإذا علمنا أن امرأ ما يحبه الشيطان ويتصف به فعليها أن نخالفه ، فمثلا الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله لذا وجبت علينا مخالفته ، يقول الرسول - ﷺ - (ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، فان الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطى بشماله ، ويأخذ بشماله) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح^(٤) (صحيح الجامع ٨٧٥) .

(١) سنن الترمذى - كتاب الفتن - باب ما جاء في لزوم الجماعة ٤/٤٦٥ رقم ٢١٦٥

(٢) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب التشديد في ترك الجماعة ١/٣٧٧ رقم ٥٤٧ وسنن النسائي كتاب الصلاة - باب التشديد في ترك الجماعة ١٠٦/٢

(٣) سنن أبي داود - كتاب السنة - باب شرح السنة ٥/٥ رقم ٤٥٩٧

(٤) سنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة - باب الأكل باليمين ٢/١٠٧ رقم ٣٢٦٦

والشيطان يشاركنا في الشرب إذا شربنا ونحن وقوف ولذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى الشرب ونحن جلوس . ورغبنا الرسول ﷺ - في القيلولة معللاً ذلك بأن الشياطين لا تقبل (قيلوا فان الشياطين لا تقبل) رواه أبو نعيم في الطب بإسناد حسن (صحيح الجامع ١٤٧/٤)

وحذرنا القرآن من الاسراف وقد عدّ المبذرين اخوان الشياطين ، وما ذلك الا لأن الشياطين تحب اضاءة المال وانفاقه في غير وجهه . ومن الاسراف الاكثار من الأثاث والفراش الذي لا لزوم له ، يقول - ﷺ - (فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، وفراش للضيف ، والرابع للشيطان) رواه مسلم وأبو داود والنسائي^(٢) بإسناد صحيح (صحيح الجامع ١٧/٤) .

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول ﷺ - بأن نغيط الأذى عن اللقمة التي تسقط من أحناءنا ، ولا نتركها للشيطان ، يقول - ﷺ - « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فإذا اسقطت اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلق أصابعه ، فإنه لا يدري في أي طعامه البركة » رواه مسلم في صحيحه (صحيح الجامع ٧٥/٢) .

مراكب الشياطين وبيوت الشياطين :

هذه المراكب الجمال والخيول والحمير في القديم ، والسيارات وأمثالها في الحديث جعلت لمنفعة بني الإنسان ، فإذا كان صاحبها غير شاغل لها كلها ومرّ على قوم يحتاجون إلى الانتقال إلى المكان المنطلق إليه صاحب المراكب فعليه ان يسمح لهم باستخدامها وإلا كانت مراكب للشياطين ، ففي الحديث « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشياطين ، فقد رأيتها يخرج أحدكم بجنيات معه قد اسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلم أرها » رواه أبو داود بإسناد صحيح^(٣) .

ولعل بيوت الشياطين المعنية في الحديث هي هذه السيارات التي يمر أصحابها بأولى الحاجة فلا يركبونهم ، وهذه الخيول والدواب التي يقامر عليها ويراهن عليها تعدّ من مراكب الشياطين ، ويقول الرسول ﷺ - « الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للانسان ، فأما فرس الرحمن . فالذي يربط في سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله في ميزانه ، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس الانسان فالفرس يرتبطها الانسان يلتمس بطنها فهي ستر من الفقر » رواه أحمد بإسناد صحيح^(٤) (صحيح الجامع ١٣٧/٣) .

(١) صحيح مسلم - كتاب اللباس والزينة - باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس ١٦٥٧/٣ رقم ٤١ وسنن أبوداود - كتاب اللباس - باب في الفرش ٣٧٩/٤ رقم ٢١٤٢ وسنن النسائي - كتاب النكاح - باب الفرش ١٣٥/٦
صحيح مسلم - كتاب الاشربة - باب استحباب لعق الأصابع ١٦٠٧/٣ رقم ١٣٥
(٣) سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب في الجنائب ٦٠/٣ رقم ٢٥٦٨
(٤) مسند أحمد ٦٩/٤

العجلة من الشيطان :

من الصفات التي يحبها الشيطان العجلة لما توقع الانسان به من أخطاء ، يقول الرسول - ﷺ -
 « الثاني من الرحمن والعجلة من الشيطان » رواه البيهقي في شعب الايمان بإسناد حسن (صحيح الجامع ^(١))
 (٥٧/٣) فعلينا أن نخالف الشيطان في ذلك ونتبع ما يرضى الرحمن ، ولذلك قال الرسول ﷺ لأحد
 أصحابه « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » .

التأؤب :

وما يحبه الشيطان من الإنسان التأؤب ولذا أمرنا الرسول - ﷺ : بكظمة ما استطعنا ، يقول
 - ﷺ - : « التأؤب من الشيطان ، فإذا تأؤب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال : ها ،
 ضحك منه الشيطان » متفق عليه ، ذلك لأن التأؤب علامة الكسل ، والشيطان يعجبه ويفرحه من
 الإنسان كسله وفتوره ، إذ بذلك يقل عمله وبذله الذي يرفعه عند ربه .

ثامنا - التوبة والأستغفار :

وما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان ، وهذا دأب
 عباد الله الصالحين ، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم
 مبصرون ﴾ (سورة الأعراف : ٢٠١) وقد فسر الطائف أو لهم بالذنب أو إصابة الذنب ، وقوله :
 ﴿ تذكروا ﴾ أى عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعدته ووعيدته ، فتأبوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من
 قريب . ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ قد استقاموا وصحوا عما كانوا فيه . وهذا يدل على أن الشيطان يكاد يجعل
 الانسان في عماية لا يرى الحق ولا يبصره بما يلقيه عليه من غشاوة وما يغشى به القلب من الشبهات
 والشكوك . وأخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان قال لرب العزة « وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك
 ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الرب : وعزتي وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » رواه أحمد في
 مسنده والحاكم في مستدركه (صحيح الجامع ٧٢/٢) .

هذه حال عباد الله الرجوع من قريب والتوبة والاناة إلى الله ولهم في ذلك أسوة في أبيهم آدم ، فإنه
 لما أكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات فتاب عليه توجه آدم وزوجه إلى الله قائلين : ﴿ ربنا ظلمنا
 أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (سورة الأعراف : ٢٣) أما أولياء الشيطان فقد
 قال الله فيهم : ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ (سورة الأعراف : ٢٠٢) والمراد

(١) البيهقي في شعب الايمان وأبويعلی الموصلي من حديث أنس ، والترمذي من حديث سهل رقم ٢٠١٢ كتاب البر والصلة .
 صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب الأمر بأن الايمان بالله ورسوله وشرائع الدين ٤٨/١ رقم ٢٥
 اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٨٨٥

بإخوانهم هنا : إخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ (سورة الاسراء : ٢٧) وهم أتباعهم والمستمعون لهم ، القابلون لأوامرهم ، يمدونهم في الغي : أى : بالتزيين والتحسين للذنوب والمعاصي بلا كلل ولا ملل . كقوله : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ (سورة مريم : ٨٣) .

تاسعا - أزل اللبس والغموض الذى يدخل الشيطان منه إلى النفوس :

لا تقف مواقف الشبهة ، وإذا حدث ذلك فوضح للناس حالك حتى لا تدع للشيطان فرصة الوسوسة في صدور المسلمين ، ولك أسوة في رسول الله - ﷺ - في هذا ، روى البخارى ومسلم في صحيحيهما عن صفية بنت حيي زوج النبی - ﷺ - قالت : « كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليقلبنى (ليردني إلى منزلي) وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمر رجلاً من الأنصار ، فلما رآيا رسول الله - ﷺ - أسرعاً ، فقال رسول الله ﷺ : « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإن خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً أو قال شيئاً^(١) قال الخطابي : « وفي هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ، ويخطر بالقلوب ، وأن يطلب السلامة من الناس باظهار البراءة من الريب .

ويحكى في هذا عن الشافعى - رضى الله عنه - أنه قال : « خاف النبی - ﷺ - أن يقع في قلوبها شيء من أمر فيكفرا ، وإنما قاله - ﷺ - شفقة منه عليهما لا على نفسه » (تلبیس إبليس : ٤٦) وما أرشدنا الله إليه القول الحسن مع الآخرين حتى لا يدخل الشيطان بيننا وبين أخواننا فيوقع العداوة والبغضاء ، قال تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ (سورة الاسراء : ٥٣) وهذا أمر تساهل فيه بعض الناس فتراهم يقولون الكلام الموهم والذى يحتمل وجوها عدة بعضها سىء ، وقد يرمى أحدهم أخاه بألفاظ يكرهها ويناديه باللقاب يمقتها فيكون ذلك مدخلاً للشيطان فيفرق بينهم ويحل العداة محل الوفاق والألفة .

علاج الصرع

إن الشيطان قد يصيب الإنسان وهو ما نسميه الصرع أو مس الجن ، وهنا سنحاول أن نبين أسباب الصرع وعلاجه :

أسباب الصرع :

بين ابن تيمية (المجموع ٣٩/١٩) « أن صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما

يتفق للإنس مع الإنس . . . ، وقد يكون - وهو الأكثر - عن بغض ومجازاة مثل أن يؤذيهم بعض الإنس ، أو يظنوا أنهم يتعمدون اذاهم إما ببول على بعضهم ، وإما بصب ماء حار ، وإما بقتل بعضهم ، وإن كان الإنس لا يعرف ذلك ، وفي الجن جهل وظلم فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه ، وقد يكون عن عبث منهم وشر يمثل سفهاء الإنس .

واجبنا تجاه هؤلاء :

إن الجن عباد مأمورون متعبدون بالشريعة ، فإذا استطاع المسلم أن يصل إلى مخاطبتهم ، كما يحدث مع الجن الذي يصرع الانسان وجب القيام بذلك .

فإذا كان صرع الجن للإنس من الباب الأول (عن شهوة وهوى) فهو من الفواحش التي حرمها الله تعالى على الإنس والجن ، ولو كانت برضا الطرف الآخر ، فكيف مع كراهته ، فانه فاحشة وظلم . فيخاطب الجن بذلك ، ويعرفون أن هذا فاحشة محرمة ، أو فاحشة وعدوان لتقوم الحجة عليهم بذلك ، ويعلموا أنه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذي أرسله إلى جميع الثقليين : الإنس والجن .

وما كان من الثاني (إيذاء بعض الإنس لهم) فإذا كان الإنس لم يعلم فيخاطبون بأن هذا لم يعلم ، ومن لم يتعمد الأذى لا يستحق العقوبة ، وإن كان قد فعل ذلك في داره وملكه عرفوا بان الدار ملكه فله أن يتصرف فيها بما يجوز ، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا في ملك الإنس بغير إذنه ، بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخرباب والفلوات .

ويقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٢/١٩) : « والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس أخبروا بحكم الله ورسوله ، وأقيمت عليهم الحجة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، كما يفعل بالإنس ، لأن الله يقول : ﴿ وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا ﴾ (سورة الاسراء : ١٥) وقال : ﴿ يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ ؟ (سورة الانعام : ١٣٠) .

النهى عن قتل حيات البيوت :

يقول ابن تيمية : « ولهذا نهى النبي - ﷺ - عن قتل حيات البيوت حتى تؤذن ثلاثا ، وقد ساق ابن تيمية تلك النصوص التي تبين السبب الذي من أجله نهى عن قتل حيات البيوت فقال : (وذلك أن قتل الجن بغير حق لا يجوز ، كما لا يجوز قتل الإنس بلا حق ، والظلم محرم في كل حال ، فلا يحل لأحد أن يظلم أحداً ولو كان كافراً ، بل قال تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (سورة المائدة : ٨) فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جناً فتؤذن ثلاثا ، فإن ذهبت وإلا قتلت فإنها إن كانت حية قتلت ، وإن كانت جنية فقد أصرت على العدوان بظهورها للإنس في صورة حية تفرعهم بذلك ، والعادى هو الصائل الذي يجوز دفعه بما يدفع حذره ولو كان قتلاً ، وأما قتلهم بدون سبب يبيح ذلك فلا يجوز . »

سب الجن وضربهم :

وذكر ابن تيمية أن واجب المؤمن نصرة أخيه المظلوم وهذا المصروع مظلوم ، ولكن النصرة تكون بالعدل كما أمر الله ، فإذا لم يرتدع الجنى بالأمر والنهي والبيان ، فإنه يجوز نهره وسبه وتهديده ولعنه ، كما فعل الرسول - ﷺ - مع الشيطان عندما جاء بشهاب ليرميه في وجه الرسول - ﷺ - فقال عليه السلام : « أعوذ بالله منك ، ألعنك بلعنة الله - ثلاثا » .

وذكر أنه قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب ، فيضرب ضرباً كثيراً جداً ، والضرب إنما يقع على الجنى ولا يحسه المصروع ، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس شيئاً من ذلك ، ولا يؤثر في بدنه ويكون قد ضرب بعضاً قوية على رجله نحو ثلاثمائة أو أربعمئة ضربة أو أكثر أو أقل ، بحيث لو كان على الإنس لقتله ، وإنما هو على الجنى ، والجنى يصيح ويصرخ ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة ، ويذكر ابن تيمية أنه فعل هذا وجربه مرات كثيرة يطول وصفها .

الاستعانة على الجن بالذكر وقراءة القرآن :

وخير ما يستعان به على الجنى الذى يصرع الإنسان ذكر الله وقراءة القرآن ، ومن أعظم ذلك قراءة آية الكرسي ، « فإن من قرأها لن يزال عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » كما صح الحديث بذلك وهو في صحيح البخارى ^(١) .

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٥٥/١٩) : « ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير في دفع الشياطين وإبطال أحوالهم ما لا ينضب من كثرته وقوته ، فإن لها تأثيراً عظيماً في دفع الشياطين عن نفس الإنسان وعن المصروع وعن تعينه الشياطين ، مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب ، وأرباب سماع المكاء والتصدية ، إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين وبطلت الأمور التى يخيلها الشيطان ، ويبطل ما عند اخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطاني ، إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هى من تلبسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين » .

طرد الرسول - ﷺ - للجن من بدن المصروع :

فعل ذلك الرسول - ﷺ - أكثر من مرة ، ففي مسند أبي داود الطيالسى ومسند الامام أحمد عن أم أبان بنت الوازع بن زارع بن عامر العبدى ، عن أبيها أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله - ﷺ - فانطلق معه بابن له مجنون ، أو ابن أخت له - قال جدى : فلما قدمنا على رسول الله - ﷺ - قلت : ان معى ابناً أو ابن أخت لى - مجنون ، أتيتك به تدعو الله له ، قال : (اثنى به) قال : فانطلقت به اليه وهو

في الركاب ، فأطلقت عنه ، وألقيت عنه ثياب السفر ، والبسته ثوبين حسنين ، وأخذت بيده حتى انتهت به إلى النبي - ﷺ - فقال : « أدنه مني ، أجعل ظهره مما يليني » قال بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله ، فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض ابطيه ويقول : « اخرج عدو الله ، اخرج عدو الله » فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول . ثم أقعده رسول الله - ﷺ - بين يديه ، فدعا له بماء فمسح وجهه فدعا له . فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله - ﷺ - يفضل عليه^(١) وفي المسند أيضاً عن يعلى بن مرة قال : رأيت من رسول الله - ﷺ - ثلاثاً ما رأها أحد قبلى ، ولا يراها أحد بعدى ، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها ، فقالت يا رسول الله : هذا الصبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ في اليوم لا أدرى كم مرة ، قال : « ناوليني » فرفعته إليه ، فجعله بينه وبين واسطة الرجل ، ثم فغر « فاه » ، فنفت فيه ثلاثاً ، وقال : « بسم الله ، أنا عبد الله ، اخسأ عدو الله » ، ثم ناولها إياه ، فقال : « القينا في الرجعة في هذا المكان ، فأخبرينا ما فعل » ، قال : فذهبنا ورجعنا فوجدناها في ذلك المكان معها ثلاث شياه ، فقال : « ما فعل صبيك » فقالت : والذي بعثك بالحق ما حسنا منه شيئاً حتى السبابة فاجترر هذه الغنم ، قال « أنزل خذ منها واحدة ورد البقية »^(٢) .

فقد أخرج الرسول - ﷺ - الجنى بالأمر والنهر واللعن ، ولكن هذه لا تكفى وحدها ، فإن لقوة الايمان وثبات اليقين وحسن الصلة بالله أثر كبير في هذا ، يدلك على ذلك الواقعة التالية :

الإمام أحمد يأمر الجنى بالخروج فيستجيب :

روى أن الإمام أحمد كان جالساً في مسجده ، إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل ، فقال : إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلني إليك لتدعو الله لها بالعافية : فأعطاه الإمام أحمد نعلين من الخشب ، وقال : أذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجنى : قال لك أحمد : أيها أحب إليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟ فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية وجلس عند رأسها وقال كما قال له الامام أحمد . فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء . ثم خرج من الجارية فهدأت ورزقت أولاداً . فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحباً من أصحاب أحمد ، فحضر ومعه ذلك النعل ، وقال للمارد : أخرج والا ضربتك بهذه النعل . فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته .

ما ينبغي أن يكون عليه المعالج :

وينبغي للمعالج أن يكون قوى الايمان بالله معتمداً عليه ، واثقاً بتأثير الذكر وقراءة القرآن ، وكلما قوى إيمانه وتوكله قوى تأثيره ، وربما كان أقوى من الجنى فأخرجه . وربما كان الجنى أقوى فلا يخرج ،

(١) أبوداود الطيالسي ومسنده أحمد

(٢) مسند أحمد ١٧٠/٤

وربما كان المخرج للجنى ضعيفاً فتقصد الجن ايداءه ، فعليه بكثرة الدعاء والاستعانة عليهم بالله ، وقراءة القرآن خاصة آية الكرسي .

الرقى والتعاويذ :

يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : (مجموع الفتاوى ٢٤ / ٢٧٧) « وأما معالجة المصروع بالرقى والتعويزات فهذا على وجهين :

فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها ، ومما يجوز في دين الاسلام أن يتكلم به الرجل ، داعياً الله ، ذاكراً له ، ومخاطباً لخلقه ، ونحو ذلك ، فإنه يجوز أن يرقى بها المصروع ، ويعوذ ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي - ﷺ - « أنه أذن في الرقى ما لم تكن شركاً » وقال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل »^(١) .

وإن كان في ذلك كلمات مجرمة ، مثل أن يكون فيها شرك ، أو كانت مجهولة المعنى ، يحتمل أن يكون فيها كفر ، فليس لأحد أن يرقى بها ولا يعزم ، ولا يقسم ، وإن كان الجنى قد ينصرف عن المصروع بها ، فإن ما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه ، وذكر في موضوع آخر (مجموع الفتاوى ١٩ / ٤٦) أن أرباب العزائم الشركية كثيراً ما يعجزون عن دفع الجنى ، وكثيراً ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل الجنى الصارع للإنس أو حبسه ، فيخيلوا إليهم أنهم قتلوه أو حبسوه ويكون ذلك تخيلاً وكذباً .

استرضاء الجن :

وبعض الناس يحاولون استرضاء الجن الذى يصرع الانسان بالذبح له ، وهذا من الشرك الذى حرمه الله ورسوله ، ورؤى أنه نهى عن ذبائح الجن .

وقد يزعم بعض الناس أن هذا من باب التداوى بالحرام ، وهذا خطأ كبير ، فالصواب أن الله لم يجعل الشفاء في شيء من المحرمات ، وعلى القول بجواز التداوى بالمحرمات كالميتة والخمر ، فلا يجوز أن يستدل بذلك على الذبح للجنى ، لأن التداوى بالمحرمات فيه نزاع لبعض العلماء ، أما التداوى بالشرك والكفر فلا خلاف بين العلماء في تحريمه ، ولا يجوز التداوى به باتفاق .

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب استحباب الرقية من العين ١٧٢٧/٤ رقم ٦١

حقيقة الصراع

في ختام هذا الفصل أحب أن أثبت فصلاً هاماً من كلام ابن القيم صور فيه رحمه الله حقيقة الصراع وطبيعته ، يقول ابن القيم ما ملخصه (الزايل الصيب ٢٧) : « اختار الله الإنسان من بين خلقه فكرمه واصطفاه وجعله محلاً للإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والرجاء ، وابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه » ثم يقول ابن القيم ما نصه : « فهو ألى الشيطان » يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد : ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح في قضاء وطهرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة ، وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا . هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمده بمجدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه ، فأرسل إليه رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر ، أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة ، وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله - عز وجل - والمحموظ من حفظه الله - تعالى - وجعل له مقابل نفسه الأمانة نفساً مطمئناً ، إذا أمرته النفس بالإمارة بالسوء ، نهته النفس المطمئنة ، وإذا نهته الإمارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة . فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منها ، وربما انقهرت إحداها بالكلية قهراً لا تقوم وجه إبدأ .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمانة نوراً وبصيرة ، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر ، فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية ، وقطاع الطريق ان سرت خلف هذا الدليل . فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، وتسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين أتيت ، والعجب أنه يعلم من أين أتى ، ويعرف الطريق التي قطعت عليه ، وأخذ فيها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأن دليله تمكن منه ، وتحكم فيه ، وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له ، وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه ، يتمكن منه ، ولكن هو ممكنه من نفسه ، وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه ، فيباشره ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمانة ، ثم يطلب الخلاص ، فيعجز عنه ، فلما أن بلى العبد بما بلى به ، أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها ، ورابط إلى الموت ، فالأمر قريب ، ومدة المراقبة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم ، وقد أرسل اليك رسله ، فنقلوك إلى داره ، واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدو ، وأطلقت في دار الكرامة تنقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك في أصعب الحبوس وأنت تراه .

فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه ، وأيسر من الروح والفرج ، وأنت فيما اشتتهت نفسك ، وقرت عينك ، جزاء على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ، ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . فان ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه ، فليتدبر قوله - عز وجل - ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ (سورة الأحقاف : ٣٥) وقوله عز وجل : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها ﴾ (سورة النازعات : ٤٦) وقوله عز وجل : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال : إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ (سورة المؤمنون : ١١٢ - ١١٤) وقوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً ، يتخافتون بينهم إن لبثتم الا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة أن لبثتم إلا يوماً ﴾ (سورة طه : ١٠٢ - ١٠٤) وخطب النبى - ﷺ - أصحابه يوماً ، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال ، وذلك عند الغروب قال : (إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه) رواه أحمد فى المسند ، والترمذى فى سننه وقال الترمذى حديث حسن صحيح^(١) فليتأمل العاقل للناصح لنفسه هذا الحديث ، وليعلم أى شى حصل له من هذا ، الوقت الذى قد بقى من الدنيا بأسرها ، ليعلم أنه فى غرور وأضغاث أحلام ، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوى شيئاً ، ولو طلب الله - تعالى - والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موقوراً وأكمل منه ، كما فى بعض الآثار : ابن آدم ، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً ، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً .

وقال بعض السلف : ابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة ، وكنت من نصيب الدنيا على خطر ، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمت انتظاماً .

وكان عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - يقول فى خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله - عز وجل - فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، فخاب وشقى عبد أخرجه الله - عز وجل - من رحمته التى وسعت كل شىء ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله - تعالى - واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا مهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟

والمقصود أن الله - عز وجل - قد أمد العبد فى هذه المدة اليسيرة بالجنود ، والعدد ، والامداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يفتك نفسه إذا أسر . وقد روى الامام أحمد - رضى الله عنه - والترمذى من حديث الحارس الأشعرى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن الله - سبحانه وتعالى - أمر يحيى

بن زكريا - ﷺ - بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطيء بها ، فقال له عيسى - عليه السلام - أن الله - تعالى - أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي وأعذب ، فجمع يحيى الناس في بيت المقدس ، فامتألوا المسجد ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله - تبارك وتعالى - أمرني بخمس كلمات أن أعملهن ، وأمركم أن تعملوا بهن .

وخامس هذه الخمسة التي أمرهم بها الذكر (وأمركم أن تذكروا الله - تعالى - فإن مثل ذلك كمثله رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله - تعالى -) قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح (١) ومما أمرهم به في الحديث الصلاة : (وأمركم بالصلاة ، فإذا صليتم ، فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت) الالتفات المنهى عنه في الصلاة قسمان : أحدهما : الالتفات القلب عن الله - عز وجل - إلى غير الله - تعالى - والثاني : الالتفات البصر . وكلاهما منهى عنه . ولا يزال الله مقبلاً على عبده مادام العبد مقبلاً على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصره ، أعرض الله - تعالى - عنه . وقد سئل رسول الله - ﷺ - عن الالتفات الرجل في صلاته فقال : « اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . وفي أثره : يقول الله - تعالى - : « إلى خير منى ، إلى خير منى » ؟ ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه ، مثل رجل قد استدعاه السلطان ، فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ، لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصلى لا يستوى والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتأل قلبه من هيئته ، وذلت عنقه له ، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره ، أو يلتفت عنه وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية : إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة ، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله - عز وجل - ، والآخر ساه غافل . فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله ، وبينه وبينه حجاب ، لم يكن إقبالاً ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل ؟

وإذا أقبل على الخالق - عز وجل - ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها ، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد أهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب ؟ والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام في أعظم مقام ، وأقربه وأغيبه للشيطان ، وأشدّه عليه ، فهو يحرص ويجهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لا يزال به يعده ويؤمّنه وينسيه ، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة ، فيتهاون بها ويتركها . فإن عجز عن ذلك منه ، وعصاه العبد ، وقام في ذلك المقام ، أقبل عدو الله - تعالى - حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه ،

(١) مسند أحمد ١٣٠/٤ وسنن الترمذى - كتاب الأمثال - باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٨/٥ رقم ٢٨٦٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها ، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة ، وأيس منها ، فيذكرها إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله - عز وجل - فيقوم بها بلا قلب ، فلا ينال من إقبال الله ، - تعالى - وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه - عز وجل - الحاضر بقلبه في صلاته ، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطايا وذنوبه ، وأثقاله لم تحف عنه بالصلاة ، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها ، وأكمل خشوعها ، ووقف بين يدي الله - تعالى - بقلبه وقاله . فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه . فوجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ، لأنها قرّة عينيه ، ونعيم روحه ، وجنة قلبه ، ومستراحة في الدنيا ، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها ، لا منها ، فالمحبون يقولون : نصلى فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم : « يا بلال أرحنا بالصلاة » ولم يقل : أرحنا منها ، وقال - ﷺ - « جعلت قرّة عيني في الصلاة » فمن جعلت قرّة عينه في الصلاة ، كيف تقرأ عينه - ﷺ - بدونها ، وكيف يطيق الصبر عنها ؟

وقد روى أن العبد إذا قام يصلى قال الله - عز وجل - : ارفعوا الحجب ، فإذا التفت قال : أرخوا ، وقد فسر هذا الالتفات بالفتات القلب عن الله - عز وجل - إلى غيره ، فإذا التفت إلى غيره ، أرخى الحجاب بينه وبين العبد ، فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها في صورة المرأة ، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله - تعالى - وبين ذلك القلب ، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فر إلى الله - تعالى - وأحضر قلبه فر الشيطان ، فإن ألتفت حضر الشيطان ، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة .

كيف يجعل المصلّي قلبه حاضراً في الصلاة ؟

وإنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه - عز وجل - إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه ، كيف يخلص من الوسوس والأفكار ؟ والقلوب ثلاثة :

قلب خال من الايمان وجميع الخير ، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من لقاء الوسوس إليه ، لأنه قد أتخذ بيتاً ووطناً ، وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن .

القلب الثاني : قلب قد استنار بنور الايمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية ، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ، فالجرب دول وسجال . وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة ، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر ، ومنهم من هو تارة وتارة .

القلب الثالث : قلب محشو بالايمان قد استنار بنور الايمان ، وانقشعت عنه حجب الشهوات ، وأقلمت عنه تلك الظلمات ، فلنوره في صدره إشراق ، ولذلك الاشراق ايقاد لودنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسماء التي جرسست بالنجوم ، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن ، وحراسة الله - تعالى - له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبد الملائكة ، ومستقر

الوحي ، وفيها أنوار الطاعات ، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والايمان ، وفيه أنوارها ، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو ، فلا ينال منه شيئاً الا خطفه ، وقد مثل ذلك بمثال حسن . وهو ثلاثة بيوت :

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره .

وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره ، وليس جواهر الملك وذخائره .

وبيت خال صفر لا شيء فيه ، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت ، فمن أيها يسرق ؟ فإن قلت : من البيت الخالي ، كان محالاً ، لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق ، ولهذا قيل لابن عباس - رضى الله عنه - ان اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها ، فقال : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟

وان قلت يسرق من بيت الملك ، كان ذلك كالمستحيل الممتنع ، فإن عليه من الحرس واليزك « يزك ويسك » (بالتركية) : بمعنى المنع والخطر والزجر « مالا يستطيع اللص الدنو منه ، كيف وحارسه الملك بنفسه ، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للصوص إلا البيت الثالث فهو الذى يشن عليه الغارات . فليتأمل اللبيب هذا المثل حق التأمل ، ولينزله على القلوب ، فإنها على منواله .

فقلب خلاصة الخير كله ، وهو قلب الكافر والمنافق ، فذلك بيت الشيطان ، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذته سكناً ومستقراً ، فأى شيء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه . وقلب قد امتلأ من جلال الله - عز وجل - وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه ، فأى شيطان يجترىء على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شيء منه ، فماذا يسرق ، وغايته أن يظفر في الأحايين منه بخطفه ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لا بد منها ، إذ هو بشر ، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع .

وقد ذكر عن وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - أنه قال : فى بعض الكتب الإلهية : « لست أسكن البيوت ، ولا تسعنى ، وأى شيء يسعنى والسموات حشو كرسى ؟ ولكن أنا فى قلب الوارع التارك لكل شيء سواى » وهذا معنى الأثر الآخر « ما وسعنى سمواتى ولا أرضى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » وقلب فيه توحيد - الله تعالى - ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعدته ، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعى الهوى والطبع .

وقلب بين هذين الداعيين فمرة يميل بقلبه داعى الإيمان والمعرفة والمحبة لله - تعالى - وإرادته وحده ، ومرة يميل بقلبه داعى الشيطان والهوى والطباع ، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع ، وله منه منازل ووقائع ، ويعطى الله النصر من يشاء « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (سورة آل عمران / ١٢٦) وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه ، فيدخل إليه الشيطان ، فيجد

سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به ، فإن أسلحته هي الشهوات والشبهات والخيالات والأمانى الكاذبة ، وهي في القلب ، فيدخل الشيطان فيجدها عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها ، انتصف من الشيطان ، وإلا فالدولة لعدوه عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإذا أذن العبد لعدوه ، وفتح باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملولم فنفسك لم ولا تلم المطايا ومّت كمدا فليس لك اعتذار

الحكمة من خلق الشيطان

الشيطان منبع الشرور والآلام ، فهو القائد إلى الهلاك الدنيوي والأخروي ، ورافع الراية في كل وقت ومكان ، يدعو الناس إلى الكفران ، ومعصية الرحمن فهل في خلقه من حكمة ؟ وما هذه الحكمة ؟ أجاب عن هذا السؤال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه (شفاء العليل ص ٣٢٢) فقال : (في خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله)

١ - ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية :

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله ، وإغاضته وإغاضة أوليائه ، والاستعادة به منه ، واللجوء إليه أن يعيدهم من شره وكيده ، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه . . . والموقوف على الشيء لا يحصل بدونه

٢ - خوف العباد من الذنوب :

ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه ، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبلسية يكون أقوى وأتم ، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى ، وخضوع آخر ، وخوف آخر ، كما هو حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ ، وهم يشاهدونه فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد .

٣ - جعله الله عبرة لمن اعتبر :

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره ، وتكبر عن طاعته ، وأصر على معصيته ، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهي ، أو عصى أمره ، ثم تاب وندم ، ورجع إلى ربه ، فابتلى أبوى الجن والإنس بالذنوب ، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه ، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربه فله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة ، والآيات الظاهرة .

٤ - جعله فتنة واختباراً لعباده :

ومنها أنه محك امتحن الله به خلقه ، ليتبين به خبيثهم من طيبهم ، فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض ، وفيها السهل والحزن ، والطيب والخبيث ، فلا بد أن يظهر ما كان في مادتهم ، كما في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعاً : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على مثل ذلك ، منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك^(١) ، فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في

المخلوق منها ، فاقترضت الحكمة الإلهية إخراجها وظهوره ، فلا بد إذاً من سبب يظهر ذلك ، وكان إبليس محكاً يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكاً لذلك التمييز ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (سورة آل عمران / ١٧٩) فأرسل رسله إلى المكلفين ، وفيهم الطيب والخبيث ، فإضاف الطيب إلى الطيب ، والخبيث إلى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان ، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم ، وجعل هؤلاء داراً ول هؤلاء داراً على حدة حكمة بالغة وقدرة باهرة .

٥ - إظهار كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد :

ومن هذه الحكم أن يظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين ، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيتته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسواء والأرض ، والضياء والظلام ، والجنة والنار ، والماء والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث .

٦ - الضد يظهر حسنه الضد :

ومن هذه الحكم أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده ، فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده ، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى .

٧ - والابتلاء به سبيل إلى تحقيق الشكر :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه ، يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ولا ريب أن أوليائه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده ، وامتحانهم به من أنواع شكره مالم يكن ليحصل لهم بدونه ، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلى بعدوه ، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله .

٨ - في خلق إبليس قيام سوق العبودية :

ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها - أحب العبودية إلى الله سبحانه ، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله ، وتقديم محبته على كل ما سواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية ، وأحبها إلى الرب سبحانه ، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله .

٩ - وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته :

ومن هذه الحكم أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ما وجود أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه كظهور آية الطوفان ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وإلقاء الخليل في النار ، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته ، وبراهين قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، فلم يكن بُدُّ من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك .

١٠ - الخلق من النار آية :

ومن هذه الحكم أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد ، وفيها الإشراق والإضاءة والنور ،

فأخرج منها - سبحانه - هذا وهذا ، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث ، والسهل والحزن ، والأمر والأسود والأبيض ، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، وآية داله على أنه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾^(١)

١١ - ظهور متعلقات أسمائه :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم ، وهذه الأسماء تستدعى متعلقات يظهر فيها أحكامها ، كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها ، ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه .

١٢ - ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه الملك التام الملك ، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالشواب والعقاب والإكرام والإهانة والعدل والفضل والإعزاز والإذلال ، فلا بد من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر .

١٣ - وجود إبليس من تمام حكمته تعالى :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الحكيم ، والحكمة من صفاته - سبحانه - وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه ، فاقتضت خلق المتضادات ، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص ، وهل تتم الحكمة إلا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة .

١٤ - حمده تعالى على منعه وخفضه :

ومنها أن حمده - سبحانه - تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه ورفعته وانتقامه وإهنته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعته وإكرامه ، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائؤه ، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتماحه ، فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة ، كما له عليه الحمد التام ، فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته .

١٥ - وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره .

ومنها أنه - سبحانه - يجب أن يظهر لعباده حلمه ، وصبره ، وآفاته ، وسعة رحمته ، وجوده ، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ، ويضاده في حكمه ، ويجتهد في مخالفته ، ويسعى في مساخطه ، بل يشبهه الله - سبحانه وتعالى - وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ، ويرزقه ويعافيه ، ويمكن له من أسباب ما يلتزمه من أصناف النعم ، ويحبب دعاءه ، ويكشف عنه سوء ، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفر وشركه وإساءته فله كم في ذلك من حكمة وحمد .

ويتحجب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته ، كما في الصحيح عنه - ﷺ - أنه قال : لا أحد أصبر

على أذى يسمعه من الله ، يجعلون له الولد وهو يرزقهم^(١) وفي الصحيح عنه - ﷺ - فيما يروى عن ربه : (شتمنى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، وكذبنى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، أما كذبه إياى ، فقله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد ، وأما تكذيبه إياى ، فقله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس بأول الخلق باهون عليه من إعادته^(٢) ، وهو سبحانه مع هذا الشتم له ، والتكذيب له يرزق الشاتم المكذب ، ويعافيه ، ويدفع عنه ، ويدعوه إلى جنته ، ويقبل توبته إذا تاب إليه ، ويبدله بسيئاته حسنات ، ويلطف به فى جميع الأحوال ، ويؤهله لارسال رسله ، ويأمرهم أن يلينوا له القول ، ويرفقوا به ، قال الفضيل بن عياض : (ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل - جل جلاله - من أعظم منى جوداً ، الخلائق لى عاصون ، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم ، كأنهم لم يعصون ، وأتولى حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا ، أجود بالفضل على العاصى ، وأفضل على المسىء .

من ذا الذى دعانى فلم ألبه ؟ ومن ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ أنا الجواد ، ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم ، ومن كرمى أنى أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه ما لم يسألنى ، ومن كرمى أنى أعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى يهرب الخلق ، وأين عن بابى ينتحى العاصون ؟

وفى أثر إلهى : « إنى والأنس والجن فى نبا عظيم : اخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى »^(٣)

وفى أثر حسن : ابن آدم ما أنصفتنى : خيرى إليك نازل ، وشركى إلى صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح) وفى الحديث الصحيح (لو لم تذبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون فيغفر لهم)^(٤)

خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها :

فالله سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها ، فالمحبة للعفو خلق من يحسن العفو عنه ، ولمحبة للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله ، بل يكون يحب أمانه وامهاله ، ولمحبة لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته .

ولمحبة للجوء والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان ، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان فلولا خلق من يجرى على أيديهم أنواع المعاصى والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، ذو الحكمة البالغة والنعم

(١) سورة الشورى آية : ١١

(٢) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لا أحد أصبر على أذى من الله ٢١٦٠/٤ رقم ٤٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الإخلاص

(٤) الديلمى فى مستند الفردوس ١٦٦/٣ رقم ٤٤٣٩ والترمذى فى نواتر الأصول

(٥) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب سقوط الذنوب والاستغفار توبة ٢١٠٦/٤ رقم ١١

السابقة الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته ، ولى فى كل شىء حكمة باهرة كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات .

وبعد : فقد ترتب على خلق هذا اللعين حكم كثيرة وحصلت محبوبات لله وافرة :
فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى ، يتصل فى حبه ما حصل به من مكروه ، والحكيم الباهر الحكمة - هو الذى يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذى يبغضه ويسخطه إذا كان طريقا إلى حصول ذلك المحبوب . ووجود الملزوم بدون لازمة محال ، فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصى ما حصل فكم حصل بسبب وجوده ، ووجود جنوده من طاعة هى أحب إلى الله وأرضى له من جهاد فى سبيله ، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له ، ويحتمل المشاق والمكاره فى محبته ومرضاته ، وأحب شىء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته .

من أجلك قد جعلت خدى أرضاً للشامت والحسود حتى ترضى ومن أثر إلهى (بغيتى ما يتحمل المتحملون من أجلى) فله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه ، وفى مرضاته ، وما أنفع ذلك الأذى لهم وما أحدهم لعاقبته ، وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرة عيونهم به ، ولكن حرام على منكرى محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة أو يدخلوا من هذا الباب أو يذوقوا من هذا الشراب

قل للعيون العمى للشمس أعين سواك يراها فى مغيب ومطلع وسامح بؤساً لم يؤهل لحبهم فما يحسن التخصيص فى كل موضع فإن أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبيأؤه ورسله وأولياؤه وذلك الرضا أعظم من ذلك الغضب ، وإن أسخطه ما يجرى على يديه من المعاصى والمخالفات فإنه سبحانه أشد فرحاً بتوبة عبده من الفاقد لراحته التى عليها طعامه وشرابه إذا وجدها فى المفاوت المهلكات ، وإن أغضبه ما جرى على أنبيأئه ورسله من هذا العدو اللعين فقد سره وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكتبته وغيطه وهذا الرضاء أعظم عنده وأبرّ لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضى المحبوب . وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذللته بين يديه وانكساره له . وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله - ﷺ - من حرمة وبلدته ذلك الخروج ، فقد أرضاه أعظم الرضا دخوله إليها ذلك الدخول .

وإن أسخطه قتلهم أولياءه وأحبابه وتمزيق لحومهم وإراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التى لا أطيب منها ولا أنعم ولا ألدّ فى قربه وجواره .

وإن أسخطه معاصى عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيأئه ورسله وأولياؤه سعة مغفرته وعفوه وبرّه وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك وحده وتمجيده بهذه الأوصاف التى حمده بها وأثنى عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصى وفوات هذه المحبوبات .

واعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله ؟ فهو عقد نظام الخلق والأمر ؟ والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه ، فما خلق شيئاً ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره حمداً حقيقياً يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والإقرار بحكمته البالغة في كل ما خلقه وأمر به ، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده . . . فكما أنه لا يكون إلا حميداً فلا يكون إلا حكيماً ، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته ، وحياته من لوازم ذاته ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه ومقتضياتها وآثارها ، فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبريائه وعظمته .

لأنه يحب سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه :

وفي هذا يقول ابن القيم : كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطي ويمنح ، فمنها أن يعيد وينصر ويغيث فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون ، وكما الملك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم كما قال أحمد بن حسين الكندي في ممدوحه .
يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجير الناس عظماً أنت كاسره ولا يهينون عظماً أنت جابره
ولو قال ذلك في ربه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله .

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه وأن يعوذوا به كما أمر رسوله أن يستعيز به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه ، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاده وأجاره من عدوه فلم يكن إعادته وإجارته منه بأدنى النعمتين والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين ويربهم نصره لهم على عدوهم وحمايتهم منه وظفرهم به ، فيألفها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم ، وعدل أظهره في أعدائه وخصمائه

ومامنها إلا له فيه حكمه . يقصر عن إدراكها كل باحث
الحكمة في بقاء إبليس إلى آخر الدهر :

أجاب ابن القيم - رحمه الله - عن ذلك في (شفاء العليل ص ٣٢٧) ووضحه

امتحان العباد :

فما ذكره - رحمه الله تعالى - أنه سبحانه جعله محكاً ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث ووليه من عدوه ، ولذا اقتضت حكمته إبقائه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه ولو أماته لفات ذلك الغرض ، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر اقتضت امتحان أولاده من بعده به ، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه ، وينحاز إليه من وافقه وولاه .

وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق :

ومنها أنه كلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة وقد سبق له طاعة وعبادة جزاء بها في الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر فإنه سبحانه لا يظلم أحداً حسنة عملها ، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في

الدنيا وفي الآخرة ، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي - ﷺ - .

أملى له ليزداد إثماً :

وبقاؤه إلى يوم القيامة لم يكن كرامه في حقه ، فإنه لو مات كان خيراً له وأخف لعذابه وأقل لشراً ، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدر في حكمته والحلف على اقتطاع عبادته وصددهم عن عبوديته كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقى في الدنيا وأملى له ليزداد هذا إثماً على إثم ذلك الذنب فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره ، فيكون رأس أهل الشر في العقوبة كما كان رأسهم في الشر والكفر . ولما كان مادة كل شر فعنه تنشأ جوزى في النار مثل فعله ، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ فيه ثم يسرى منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمه بالغة .

أبقاه ليتولى المجرمين :

ومن حكم إبقائه إلى يوم الدين أنه قال في مخاصمته لربه ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ (سورة الإسراء / ٦٢) وعلم الله - سبحانه - أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره ، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له ، وقال له بلسان القدر هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم وكلما مرّ بك واحد منهم فشأنك به فلو صلح لي ما ملكتك منه فإن أتولى الصالحين ، وهم الذين يصلحون لي وأنت ولي المجرمين من الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي ، قال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ (سورة النحل / ٩٩ - ١٠٠) فأما إمامة الأنبياء والمرسلين فلم يكن ذلك لهوانهم عليه ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم وليحیی الرسل بعدهم ، يرى رسولا بعد رسول ، فإماماتهم اصلح لهم وللأمة ، أمّا هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور ولا سيما وقد خيروهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللاحاق به ، وأمّا الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم وإن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم ، والله هو الحي الذي لا يموت ، فكم في إمامتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمة ، . هذا وهم بشر ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقه قابلة للدوام بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف ولضاقت بهم الأرض ، فالموت كمال لكل مؤمن ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا ولا هناء لأهلها بها ، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة .

إلى أي مدى نجح الشيطان في إهلاك بني آدم ؟

عندما رفض الشيطان السجود لآدم وطرده الله من رحمته وجنته وغضب عليه ولعنه ، أخذ على نفسه العهد أمام ربّ العزة بأن يضلنا ويغويننا ، ويعبدنا لنفسه ﴿ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ... ﴾ (سورة النساء / ١١٨ - ١١٩) .

﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ (سورة
الإسراء/ ٦٢)

فإلى أى مدى حقق الشيطان مراده من بنى الإنسان ؟
إن المسرح نظره في تاريخ البشرية يهوله ما يرى من ضلال الناس وكيف كذبوا الرسل والكتب
وكفروا بالله ربهم وأشركوا به مخلوقاته كما قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (سورة
يوسف/ ١٠٣) ولذا حق عليهم غضب الله وانتقامه ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسوله كذبوه
فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ (سورة المؤمنون/ ٤٤) وفي الحاضر
حيثما نظرنا أبصرنا أولياء الشيطان تعج بهم الحياة ، يرفعون رايته وينادون بمبادئه ، ويعذبون أولياء الله ،
ويدلنا على مدى تحقيق الشيطان لمراده أن الله يأمر آدم يوم القيامة أن يخرج من ذريته بعث النار ،
فلما يستفسر عن مقدار هذا البعث يقول له : تسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، وفي رواية تسعمائة
وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة .

وبذلك يصدق ظنه في هذه الذرية التي لم تعتبر بما جرى لأبيها ، ولا بما جرى لأسلافها ، ويبقى هذا
اللعين يقودها إلى هلاكها ، بل أحياناً تسابقه إلى الجحيم ، وما أقبح أن يصدق ظن العدو في عدوه ﴿ ولقد
صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ (سورة سبأ/ ٢٠) قبيح بالإنسان أن يتحقق فيه
ظن الشيطان فيطيع هذا العدو ويعصى ربه الرحمن ، ولقد بلغ الأمر حداً لا يوصف ولا يتصور ، فهذه
طائفة في العراق وفي جهات أخرى تطلق على نفسها : عباد الشيطان ، وبعض الكتاب نراهم يحلفون
(بحق الشيطان) فما أعجب أمرهم .

لا تفكر بكثرة الهالكين :

حرى بالعاقل اللبيب أن لا يغتر بكثرة الهالكين ، فالكثرة ليس لها اعتبار في ميزان الله ، إنما الاعتبار
بالحق ولو قل عدد متبعيه .

فكن من اتباع الحق الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، الذين عرفوا الشيطان واتباع
الشيطان فحاربوهم بالبغض القلبي ، وبالكلمة من اللسان ، وبالكتابة باليد ، وبالعمل بالحق وبمحاربتهم
بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وقبل ذلك بالالتجاء إلى الرحمن والتمسك بدينه .

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن
زلتم من بعد ما جاءتكم البيانات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ (سورة البقرة/ ٢٠٨ - ٢٠٩) نسأل الله
أن يجعلنا بمنه وكرمه من الذين دخلوا في السلم دخولاً كلياً وصلى وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله
وصحبه وسلم .

التفسير

يقول تعالى آمراً رسوله - ﷺ - أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشـد ﴾ أى يهدى إلى السداد والنجاح ﴿ فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ وهذا المقام شبيه لقوله تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ جد ربنا ﴾ أى فعله وأمره وقدرته ، وقال الضحاك عن ابن عباس : جد الله الآؤه وقدرته ونعمته على خلقه ، وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا ، وقال قتاده : تعالى جلاله وعظمته وأمره وقال السدى : تعالى أمر ربنا ، وعن أبى الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج : تعالى ذكره ، وقال سعيد بن جريد : (تعالى جد ربنا) أى : تعالى ربنا ، فأما ما رواه ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن زيد الكوفى حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس قال : الجد أب ولو علمت الجن أن فى الإنس جداً ما قالوا تعالى جد ربنا فهذا إسناد جيد وقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ صاحبة والأولاد أى قالت الجن تنزه الرب - جل جلاله - حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ صاحبة والولد ثم قالوا : ﴿ وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ﴾ قال مجاهد وعكرمة وقاتاده والسدى : ﴿ سفيهاً ﴾ يعنون إبليس ﴿ شططاً ﴾ قال السدى عن أبى مالك : ﴿ شططاً ﴾ أى : جوراً وقال ابن زيد : أى ظلماً كبيراً ويحتمل أن يكون المراد لقولهم سفيهاً اسم جنس لكل من زعم أن الله صاحبة أو ولداً ولهذا قالوا : ﴿ وأنه كان يقول سفيهاً ﴾ أى قبل إسلامه ﴿ على الله شططاً ﴾ أى : باطلاً وزوراً ولهذا قالوا : ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ أى ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله تعالى فى نسبة صاحبة والولد إليه فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك وقوله تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيرها كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشيء يسوءهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أى خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوداً بهم كما قال قتاده : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أى : إثماً وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أى : إزدادت الجن عليهم جرأة وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فىأتى الأرض فينزها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضـر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى قال قتاده : فإذا عاذ بهم من دون الله رهقهم الجن الأذى عند ذلك . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى ، حدثنا الزبير بن حرب عن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادى فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبيل والجنون وذلك قول الله - عز وجل - ﴿ وأنه كان رجال

من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴿١﴾ أى إثماً : وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم : ﴿٢﴾ رهقاً ﴿٣﴾ أى خوفاً وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿٤﴾ فزادوهم رهقاً ﴿٥﴾ أى إثماً وكذا قال قتاده : وقال مجاهد : زاد الكفار طغياناً .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن المغراء الكندي ، حدثنا القاسم ابن مالك - يعنى المزني - عن عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كروم بن أبي السائب الأنصاري ، قال : خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله - ﷺ - بمكة فأوانا المبيت إلى راعى غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعى فقال يا عامر الوادى جارك فنادى مناد لا نراه يقول ياسرخان أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمه وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿٦﴾ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴿٧﴾ ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبي العالية والحسن وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي نحوه . وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان حنيا حتى يهرب الأنس ويخاف منه ثم رده عليه لما أستجار به ليضله ويهيئه ويخرجه عن دينه والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿٨﴾ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴿٩﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً . قال الكلبي وابن جرير .

ويخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً - ﷺ - وأنزل على القرآن وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرصاً شديداً وحفظت من سائر أرجائها وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترخوا شيئاً من القرآن فيلقوه على السنة الكهنة فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق وهذا من لطف الله - تعالى - بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز ولهذا قال الجن : ﴿١٠﴾ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرصاً شديداً وشهباً وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴿١١﴾ أى : من يروم أن يسترى السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه ﴿١٢﴾ وأنا لا ندري. أشير أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴿١٣﴾ أى : ما ندري هذا الأمر الذى قد حدث في السماء لا ندري أشير أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، وهذا من أدبهم في العبادة حيث سندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله - عز وجل - وقد ورد في الصحيح « والشر ليس إليك » وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس بينما نحن جلوس مع رسول الله - ﷺ - إذ رمى بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون في هذا ؟ فقلنا كنا نقول يولد عظيم يموت فقال « ليس كذلك ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء وذكر تمام الحديث (١) وهذا هو السبب الذى حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فوجدوا رسول الله - ﷺ - يقرأ بأصحابه في الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذى حفظت من أجله السماء فأمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقى . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمى بها هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لخراب العالم كما قال السدى لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض بنى أودية لله ظاهر فكانت الشياطين قبل محمد - ﷺ -

قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - وقد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - نبياً رسولاً رجحوا ليلة من الليالي ففرع لذلك أهل الطائف فقالوا هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب فجعلوا يعنفون أرقاءهم ويسبون مواشيهم فقال لهم عن يالى بن عمرو بن عمير .

ويحكم يامعشر أهل الطائف أمسكوا عن مالكم وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة يعني محمداً - ﷺ - وإن نظرتهم فلم تروها فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم وفزعت الشياطين في تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال أثتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيين فقدموا مكة فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكهم تصيبه ثم أسلموا فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله - ﷺ .

ويقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ أي : غير ذلك ﴿ كنا طرائق قديماً ﴾ أي : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ كنا طرائق قديماً ﴾ أي : منا المؤمن ومنا الكافر وقال أحمد بن سليمان النجار في أماليه : حدثنا الحسن بن أسلم بن سهل تحل ، حدثنا علي بن الحذاء بن سليمان وهو أبو الشعثاء الحضرمي شيخ مسلم حدثنا أبو معاوية قال : سمعت الأعمش يقول تزوج إلينا جنى فقلت له ما أحب الطعام اليكم ؟ فقال الأرز قال فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً فقلت فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال نعم ، فقلت فما الرافضة فيكم ؟ قال شرباً ، عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزني فقال هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد :

قلوب يراها الحب حتى تعلقت مذهبها في كل غرب وشارق
تهيم بحب الله والله ربه معلقة بالله دون الخلائق^(١)

وقوله تعالى : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾ أي تعلم أن قدرة الله حكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض ولو أمعنا في الهرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ يفتخرون بذلك وهو فخر لهم وشرف رفيع وصفه حسنه وقولهم : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ قال ابن عباس وقتاده وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته ،

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢٢٤/٧

(٢) انظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٢٦٩/٨

أى : يحمل غير سيئاته كما قال تعالى : ﴿ فَلَإِيْخَافَ ظَلَمًا وَلَا هُمْضًا ﴾ ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ ﴾ أى : من المسلم ومن القاسط وهو الجائر عن الحق الناكب عنه بخلاف المقسط فإنه العادل .
 ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أى : طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أى وقود تسربهم .

توجيهات إلهية للرسول - ﷺ -

وَأَلَّوْا سَتَقُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ
 وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا
 تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ
 لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
 وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾
 إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَنْ لَه نَارُ جَهَنَّمَ
 خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَوْعَدُ
 نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي
 أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ
 رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ عَرَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا
 رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

معاني المفردات :

على الطريقة : على ملة الإسلام

غداً : كثيراً نافعاً

لنفتنهم : لنختبرهم فيه

يسلكه : يدخله

صعدا : يعلو العذب فيه وقيل شاقاً .

المساجد : أماكن السجود والمراد المواضع المعدة للعبادة والصلاة

لبدا : جمع لبدة مأخوذ من تلبد القوم إذا تجمعوا وعليه قولهم لبدة الأسد للشعر المتراكم حول عنقه .

يجيرني : ينفعني ويدفع عني

ملتجداً : أى ملتجئاً التجيء إليه أو حرزاً ومعدلاً .

أمدا : زمناً بعيداً

يسلك : المراد يقيم ويبث

رصدأ : حراساً وحفظه

أضواء كاشفة :

قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن وأوحى إلى أن الحال والشأن لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام التي هي الطريقة المحكمة التي فيها خير الدنيا والآخرة أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء كثيراً ومباركاً فيه ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾^(١) ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾^(٢)

لو استقام الخلق لأنتهم الدنيا وكثرت أرزاقهم ثم أتت مرحلة أخرى هي مرحلة الاختبار والابتلاء ليظهر أهم من الشاكرين أم من الذين يكفرون بالنعمة ؟ وهذا معنى قوله تعالى : لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه ولا يقبل على عبادته فإنه يدخله عذاباً يعلوه فيكون هو فيه ، عذاب والعياذ بالله شديد وبئس هذا المصير .

وأوحى إلى أن المساجد لله وحده لا تعبدوا فيها أحداً من خلقه وانظر إلى نظرية القرآن في الخلق وإلى علاجه المحكم لأمراض قد تظهر فيما بعد انظر إلى قوله إن المساجد لله فقط ليست لمخلوق مهما كان وإياكم ثم إياكم أن تعبدوا فيها أحداً غير الله .. ياسبحان الله !

وأوحى إلى أنه لما قام عبد الله ورسوله - محمد - ﷺ - يدعو الناس إلى الخير وإلى الهدى والنور ،

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦

(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦

لما قام يدعوهم كادوا أى الإنس والجن يكونون عليه متراكمين متكئين ليطفثوا نور الله فأبى الله إلا أن ينصره ويظهر دينه ولو كره المشركون وقد كان ذلك كذلك .

قل لهم : يا محمد : مالكم ؟ وماذا فعلت ؟ إنما أدعوربى وأعبده وحده ولا أشرك به شيئاً فليس هذا بأمر يضركم أو يدعو إلى ما تفعلون :
 قل لهم : ما لكم تقفون منى هذا الموقف ؟ إني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً والذي يملك ذلك هو الله فلم أكن مقصراً فى حقكم فى شيء .

قل لهم : وماذا أعمل لولم أدعكم إلى الخير فعاقبنى الله بالسوء إني لن يجيرنى من الله أحد ولن يدفع عني العذاب أحد ولن أجد من دونه ملتبجاً فأنا مكلف ومأمور بهذا العمل من الله ولو تأخرت لعاقبنى فما لكم تفعلون معى هذا ؟

قل لهم : إني لا أملك لكم شيئاً إلا أن أبلغ بلاغاً جاءنى من الله لكم ، هذا البلاغ هو القرآن الذى يهدى إلى التى هى أقوم إلا بلاغاً من الله ورسالاته التى هى أوامره ونواهيه الدينية فمن سمع البلاغ ووعاه وامثل جميع الأوامر والنواهي وتقبل الرسالات الإلهية وتدبرها كانت له الجنة خالداً فيها أبداً .
 ومن يعص الله ورسوله فى رسالاته وبلاغه فيعرض عن سماعها وتدبرها والعمل بهما فإن له نار جهنم خالداً فيها جزاء وفاقاً لتكذيبه وإعراضه وسوء صنيعه .

لا يزال المشركون سادرين فى ضلالهم مغرورين بأنفسهم وبقوتهم يستهزئون بك وبوعيدك وبمن معك حتى يروا العذاب فإذا رأوه فسيعلمون من هو أضعف ناصراً ومن هو أقل عدداً ، وسيعلمون :
 أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً فاحذروا يا آل مكة هكذا .

وكان المشركون حينما يسمعون هذا التهديد بالعذاب يوم القيامة ينكرونه ويستهزئون به فأمر النبى - ﷺ - أن يقول لهم : قل لهم : ما أدرى وقت هذا العذاب أما نفس العذاب فواقع لا محالة غير أنى لست أدرى أقرب هو أم بعيد ؟ قد جعل له ربى زمناً طويلاً .

هو عالم الغيب وحده لا يطلع على غيبه أحداً إلا من إرتضاه من رسول فإنه يطلعه على بعض غيوبه مما يحتاج إليه فى رسالته ويكون من الخير الاضطلاع عليه أما غير ذلك فلا يرقى إلى غيبه مخلوق من إنس أو جن أو ملك وكيف يكون ذلك ؟ « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »

والخلاصة : أن الله عنده علم الغيب ولا يطلع عليه أحداً من خلقه إنسياً كان أو جنياً حكيماً أو كاهناً أو غيرهما إلا من ارتضى من رسله الذين هم أصحاب الشرائع السماوية فإن الله أطلعهم على بعض غيوبه فكانت التوراة والزبور والأنجيل والقرآن وما فيهم . ذلك هو الغيب الذى أطلع الله عليه بعض خلقه بواسطة الوحى به على لسان الأمين جبريل ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ فالمراد بالغيب القرآن أى ما هو يمتهم عليه حتى يتصور أنه غير أو بدل .

ويريد الله أن يعلمنا أن هذا الغيب وصل إلى الرسول عن طريق محكم جداً وبلغته الرسل بأمانة

ودقة وحكمة لم يكن معه نسيان أو إهمال أو خطأ في شيء ألا ترى إلى قوله ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ .

فإنه يسلك من بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً شداداً يحفظون من الوسائس والاختلاط والذهول والنسيان حتى لا يترك بعض ما أوحى إليه أو يقعد في تبليغه ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ وهذا ما يسمى في عرف علماء التوحيد بالامانة والعصمة ٢٣ - ٢٧

كل ذلك ليعلم ربك علم ظهور وانكشاف - أي يتحقق هذا في الخارج ويشاهد الجميع - أن قد أبلغوا أن الرسل رسالات ربهم أولي علم أن قد أبلغ جبريل زعيم الملائكة رسالات ربهم والحال أن الحق تبارك وتعالى أحاط بما لديهم كله إحاطة العليم الخبير الناقد البصير وأحصى كل شيء من هذا الكون حالة كونه معدوداً مميزاً عن غيره فهل يعقل أن يتطرق إلى الرسل شك في زيادة أو نقص ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١)؟

وانظر إلى ختام السورة بإبراز أن الغيب الإلهي محاط بسور لا يقربه إلا المرتضى المختار من الرسل الكرام أما الجن والكهان ومن يدعى علم الغيب أولئك كذبه فجره لا يعرفون أنفسهم .

التفسير

قوله تعالى ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين « أحدهما » وأن لو استقام الفاسقون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ أي كثيراً والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (٣) وعلى هذا يكون معنى قوله ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي : لنختبرهم كما قال مالك عن زيد بن أسلم لنفتنهم لنبليهم لنعلم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية .

قال العوفي عن ابن عباس : « وأن لو استقاموا على الطريقة » يعني بالاستقامة الطاعة وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة قال الإسلام وكذا قال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدي ومحمد بن كعب القرظي : وقال قتاده : - ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ يقول لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا .

(١) سورة الحجر الآية : ٩

(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ٩٦

وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة » أى : طريقة الحق وكذا قال الضحاك وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : « لنفتهم فيه » أى : لنبتليهم به .

وقال مقاتل : نزلت فى كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين ،

والقول الثانى : « وأن لو استقاموا على الطريقة » الضلالة « لأسقيناهم ماء غدقا » أى : لأوسعنا عليهم الرزق استدراجا كما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (١) وكقوله : ﴿ أبحسون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ (٢) ؟ وهذا قول أبى محليز لاحق بن حميد فإنه قال فى قوله تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ أى : طريقة الضلالة رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وحكاه البغوى عن الربيع ابن أنس وزيد بن أسلم والكلبى وابن كيسان وله اتجاه ويتأيد بقوله لنفتهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ أى : عذابا مشقا شديدا موجعا مؤلما . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد : « عذابا صعدا » أى : مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عباس : جبل فى جهنم وعن سعيد بن جبير بئر فيها (٣) .

﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده (٤) . وقال ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين حدثنا إسماعيل بن بنت السدى أخبرنا رجل سماه عن السدى عن ابن مالك أو أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس (٥) وقال الأعمش : قالت الجن : يارسول الله أئذن لنا فنشهد معك الصلوات فى مسجدك فأنزل الله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ يقول صلوا لا تخالطوا الناس (٦) وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران حدثنا سفيان عن اسماعيل بن أبى خالد عن محمود عن سعيد بن جبير ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : قالت الجن للنبي - ﷺ - كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناءون ؟ أى بعيدون عنك وكيف نشهد الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ (٧) .

وقال سفيان عن خصيف عن عكرمة نزلت فى المساجد كلها (٨) ، وقال سعيد بن جبير نزلت فى

(١) سورة الأنعام الآية : ٤٤

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨

(٤) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩

(٥) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨

(٦) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٧) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩

(٨) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

أعضاء السجود أى هى لله فلا تسجدوا بها لغيره ، وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية عبدالله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ - : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة - أشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين »^(١) وقوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعو كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ قال العوفي : عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبي - ﷺ - يتلو القرآن كادوا يركبون من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ﴾ يستمعون القرآن ، هذا قول وهو مروي عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه -^(٢) ، وقال ابن جرير حدثني محمد بن معمر حدثنا ابن هشام عن أبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ لما قام عبدالله يدعو كادوا يكونوا عليه لبدا ﴾ قال لما رأوه يصلى وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال عجبوا من طواعيه أصحابه له قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لما قام عبدالله يدعو كادوا يكونوا عليه لبدا ﴾^(٣) وهذا قول ثان وهو مروي عن سعيد بن جبير أيضا ، وقال الحسن لما قام رسول الله - ﷺ - يقول لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا^(٤) ، وقال قتادة في قوله : ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعو كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ قال تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه^(٥) .

وهذا قول ثالث وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا ﴾ أى : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ أى إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ ولا أشرك به أحدا ﴾^(٦) ، وقوله تعالى : ﴿ قل إني لا ملك لكم ضراً ولا رشدا ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شيئاً في هدايتكم ولا غوايتكم بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد أى لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذه من عذابه ﴿ ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي : لا ملجأ وقال قتادة أيضاً ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ أى لا نصير ولا ملجأ وفي رواية لا ولي ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ إلا بلاغا من الله ورسالاته ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشدا .. إلا بلاغا ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لن يجيرني من الله أحد ﴾ أى : لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علىّ كما قال تعالى : ﴿ يا أيها

(١) صحيح البخارى - كتاب الصلاة - باب السجود على سبعة أعظم ١٩٥/١ - ومسلم - كتاب الصلاة - باب أعضاء السجود ٣٥٤/١ رقم

(٢) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٣) تفسير الطبرى ٧٤/٢٩

(٤) تفسير الطبرى ٧٥/٢٩

(٥) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٦) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٢/٨

الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴿١﴾ . . . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ أى : أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدا أى لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ﴿٢﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا رآوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴾ ؟ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس مايوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرا وأقل عددا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؟ أى : بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددا من جنود الله - عز وجل - . قوله تعالى : ﴿ قل إن أدري أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربي أمدا ﴾ يقول تعالى : آمرا رسوله - ﷺ - أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ، وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذى يتداوله كثير من الجهلة من أنه - عليه الصلاة والسلام - لا يؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره فى شيء من الكتب وقد كان - ﷺ - يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل فى صورة اعرابي كان فيما سأله أن قال : يا محمد فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الاعرابى بصوت جهورى فقال : يا محمد متى الساعة ؟ قال : « ويحك إنها كائنة فيما أعددت لها ؟ » قال أما إني لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكن أحب الله ورسوله قال : « فأنت مع من أحببت » قال أنس فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن مضاء حدثنا محمد بن جبير حدثني أبوبكر بن أبي مريم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سعيد الخدري عن النبي - ﷺ - قال : « يابني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموت ، والذي نفسى بيده إنما توعدون لآت » وقد قال أبوداود فى آخر كتاب الملاحم : حدثنا موسى بن سهل حدثنا حجاج بن إبراهيم حدثنا وهب حدثني معاوية بن صالح عن عبدالرحمن بن جبير عن أبيه عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لن تعجز الله هذه الأمة من نصف يوم) انفرد به أبو داود ثم قال أبو داود حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبوالمغيرة حدثني صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي - ﷺ - أنه قال : « إني لأرجو أن لاتعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد وكم نصف يوم ؟ قال « خمسمائة عام » انفرد به أبوداود ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ﴾ هذه كقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ ﴿٤﴾ وهكذا قال ههنا : إنه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يطلع أحدا من خلقه على شيء من علمه إلا بما أطلع تعالى عليه ولهذا قال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ أى : يخصه بمزيد معقبات من

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧

(٢) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٢/٨

(٣) سنن أبي داود - كتاب الملاحم ٥١٧/٤ رقم ٤٣٥٠

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥

الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساقونهم على مامعه من وحى الله ولهذا قال : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذى فى قوله (ليعلم) إلى من يعود ؟ فقل إنّه عائد إلى النبى - ﷺ - قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ قال أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل (ليعلم) محمد - ﷺ - ﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ ^(١) ورواه ابن ابى حاتم من حديث يعقوب القمى به . وهكذا رواه الضحاك والسدى ويزيد بن أبى حبيب ^(٢) .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتاده : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ قال ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ورفعتها عن الله ، وكذا رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة واختاره ابن جرير ، وقيل غير ذل كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ قال هى معقبات من الملائكة يحفظون النبى - ﷺ - من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم ^(٣) . وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) قال ليعلم من كذب الرسل ان قد أبلغوا رسالات ربهم وفى هذا نظر .

وقال البغوى : قرأ يعقوب (ليعلم) بالضم أى ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا إلى الله - عز وجل - وهو قول حكاه ابن الجوزى فى زاد المسير ، ويكون المعنى فى ذلك انه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من اداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ أى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ .

(١) تفسير الطبرى ٧٧/٢٩

(٢) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٤/٨

(٣) تفسير الطبرى ٧٧/٢٩

سورة المزمل

قال صاحب البصائر :

« السورة مكية سوى آية واحدة من آخرها وآياتها ثمان عشرة في عَدِّ الكوفة وتسعة عشر في البصرة وعشرون في الباقيين ، وكلما فيها مائتان وخمس وثمانون وحروفها ثمانمائة وست وثلاثون . والمختلف فيها ثلاث آيات : المزمل ، شيئا ، (إليكم رسولا) . فواصل آياتها على الألف ، إلا الآية الأولى فإنه باللام والأخيرة ، فإنها (بالراء) . مجموعها (رال) ، سميت سورة المزمل لافتتاحها .

معظم مقصود السورة : خطاب الانبساط مع سيد المرسلين والأمر بقيام الليل وبيان حجة التوحيد والأمر بالصبر على جفاء الكفار وتهديد الكافر بعذاب النار وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى والتخويف بتهويل القيامة والتسهيل والمسامحة في قيام الليل والحث على الصدقة والإحسان والأمر بالاستغفار من الذنوب والعصيان في قوله : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ ست آيات : ثلاث من أول السورة : (إن ربك يعلم) ، (واهجرهم هجرا) ، وقوله : (وذرنى والمكذبين) وقوله : (إن هذه تذكرة) ن آية السيف .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فاقراءوا ما تيسر من القرآن ﴾ ، وبعده : ﴿ ما تيسر منه ﴾ ، لأن الأول في الفرض ، وقيل : في النافلة ، وقيل : خارج الصلاة ، ثم ذكر سبب التخفيف ، فقال : ﴿ سيكون منكم مرضى ﴾ ثم أعاد فقال : ﴿ ما تيسر منه ﴾ والأكثر أن على أنه في صلاة المغرب والعشاء .

فضل السورة :

حديث أبي المعلوم ضعفه : من قرأها (دفع عنه العسر في الدنيا والآخرة وحديث على : يا على من قرأها) أعطاه الله ثواب العلماء وله بكل آية قرأها سترٌ من النار .

« إرشادات إلهية لزعيم الدعوة الإسلامية »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ وَأَوْنَقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾
 أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾
 إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا
 طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ
 وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ
 وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ
 قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا
 أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا
 مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا
 إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
 فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ
 مُنْفَطِرٌ بِهِ ؕ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ
 إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

معاني المفردات :

المزمل : المتلفف بشيابه يقال : تزمّل وتذر ثم قلبت التاء زايا في المزمل ، ودالا في المدثر .
ورتل القرآن : المراد اقرأه بثبت وتؤدة .
ثقيلا : شاقا
ناشئة : ما يحدث فيه ويتجدد مأخوذ من نشأ اذا حدث وتجدد .
أشد وطئا : أصعب وقعا .
وأقوم : أعدل
سبحا طويلا : عملا كثيرا سريعا ، وأصل السبح العوم على وجه الماء أو سرعة الجرى ، ثم استعمل في العمل السريع الكثير .
وتبتل : انقطع إليه إنقطاعا .
وذرنى : اتركنى
النعمة : التمتع والترفة
أنكالا : جمل نكال وهو القيد الثقيل
ذا غصة : مأكده الله في تلك الدار من طعام منكر فظيع
ترجف الأرض : تضطرب وتزلزل
كثيبا : تلاً من رمل متناثر جمعته الريح بعد تفرق .
مهيلا : هو ما إذا حرك أسفله سال من أعلاه وتتابع .
وبيلا : ثقيلا شديدا
منفطر : متصدع ومتشقق
تذكرة : عبرة وعظة .

أعد الله نبيه الكريم لتحمل أكبر رسالة في الوجود ، الرسالة العامة الى جميع الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكنه بشر بينه وبين الملك تنافر في الطبيعة المادية ، لذلك اضطرب ، وخاف عند أول لقاء ، وذهب الى خديجة كأنه محموم ، وقال زمّلون زمّلون !! وما علم أن هذا الذى لقيه في الغار هو جبريل الذى نزل على موسى وعيسى ، وكانت هذه الرسالة الى قوم وثنيين مشركين متعصبين مقلدين ، وكان النبی يعرف عنهم ذلك فكان كأنه يخشاهم ، ويشعر بخطورة هذه الدعوة في هذا المجتمع ! فناداه الله بهذا النداء ويقول في السورة الثانية : يا أيها المدثر من باب الملاطفة والملاينة وتأنيسا له على عادة العرب في اشتقاق اسم من صفة المخاطب التي هو عليها ، وكانت هاتان السورتان - المزمل والمدثر - من أوائل القرآن نزولاً ، ويروى أن الوحي لما نزل على النبي للمرة الثانية وحده متزملا في قطيفة فقال له : يا أيها المزمل قم الليل ، وجاء مرة أخرى وكان متدثرا فقال : يا أيها المدثر قم فأندر .

أضواء كاشفة :

يأياها المزمل - المتلف بكساء وقد اضطجع في ركن داره - قم الليل إلا قليلا منه ، وهو نصفه (هذا إشارة الى أن نصفه بدل من قليلا ، ووصفه بالقلة للإشارة الى أن النصف الذي أحياه بمنزلة الكل) أو انقص منه قليلا بحيث يزيد على الثلث أو زد عليه قليلا قليلا بحيث لا يزيد على الثلثين ، فالنبي - عليه السلام - أمر بان يقوم من الليل ساعات تتراوح بين الثلث والثلثين ، وهو التهجّد ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ .

يأياها المزمل دع مانت فيه وانشط لقيام الليل والصلاة فيه ، ولقراءة القرآن وترتيله وتدبر معناه ، هذا خطاب للنبي ويدخل معه في ذلك أمته وخاصة أصحاب الدعوات والمبادئ والافكار ، والشارع الأعظم يقصد بهذه الارشادات والتوجيهات التربية الاسلامية الكاملة ، تربية الجسم وتعويده على تحمل المشاق والمكاره ، وتربية النفس بسموها وبعدها عن شوائب المادة وقوتها بحيث تحكم على الجسم ونوازع الشرفيه ، إذ لا شك أن قيام الليل شاق على النفس لكنه يؤدبها ويهذبها ، ويعودها الصبر ، وهو كذلك مما يقوى الأجسام ويساعدها على العمل والثبات في معترك الحياة .

والنبي - عليه الصلاة والسلام - تنتظره في دعوته مشاق ومشاق ومتاعب وتكاليف ودرعه الواقى في ذلك هو تعويد جسمه تحمل المشاق ، وتقوية روحه بالعمل الصالح وتلاوة القرآن .

ياليت قومي يعلمون ذلك فيعملون على تحقيقه ، ويفرحون لإرادة الله ذلك لهم .

يأياها المزمل قم الليل إلا نصفه أو قلل منه قليلا أو زد عليه قليلا ، ورتل القرآن في تهجدك ترتيلا ، واقراه بتثبت وتدبر ، وتؤدة وتأن فإن القرآن جلاء للقلوب ، وحياة النفوس . ولقد امثل النبي أمرربه ، وتأدب بأدب القرآن ، وسهر الليل وجاهد النفس واقتدى به أصحابه حتى شحبت ألوانهم وضعفت أجسامهم ، وتورمت أقدامهم حتى كأنهم تخطوا الحدود المرسومة فأنزل الله ﴿ طه : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

ولقد أخذ القرآن يذكر سبب هذا الأمر فقال مامعناه : يا محمد إنك تحمل أكبر رسالة ، وتدعو الناس الى أضخم دعوة ، دعوة الحق والحرية والكرامة ، وسيكون لك أعداء وسيكون لمن يدعوبعدك بدعوتك أعداء ، لهذا أمرناك بأعداد نفسك وجسمك الى تحمل هذه الرسالة ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا وقعه شديدا وطؤه على الكفار والمشركين ، ولاينفع في هذا الا تقوية الجسم والروح ، وتدبر القرآن الكريم وتفهم معناه .

وكان سائلا سأل شاكا في أن قيام الليل وتدبر القرآن مما يساعد على تحمل مشاق الدعوة فقال : أن مايحدث في الليل من قيام وصلاة وقراءة قرآن وتدبر له هو أشد وطئا ، وأصعب على النفس الانسانية ، وهذا بلا شك مما يساعد على تحمل المشاق ويقويها فتصبر على المكروه ، ولاشك أن الليل حيث السكون والصفاء مما يساعد على تدبر القرآن وتفهم معناه .

إن لك في النهار عملاً كثيراً متواصلاً سريعاً فلم يبق إلا الليل ، فاعتنم جزءاً منه يكن لك خير كثير ، وفضل كبير .

وأذكر اسم ربك وتوكل عليه وحده ، وانقطع عما سواه ، فلن ينفعك غيره ، وهكذا المؤمن الكامل لا يتوكل إلا عليه ، ولا يعتمد على سواه ، ولا ينقطع عنه ، كل ذلك لأنه رب المشرق والمغرب ومابينهما ، لا إله غيره ، وكيف يكون غير ذلك ! وكل مافي الكون شرقه وغربه ، شاهد عدل على وحدانية الله ، وأنه لا إله غيره ، ولا معبود سواه ، إذا كان الأمر كذلك فاتخذة وكيلاً ، واعتمد عليه وحده في دعوتك الخلق الى الاسلام .

وسيصادفك - وكل من يدعو بدعوتك الى يوم الدين - ماتكره من أذى الناس ، العلاج في ذلك هو الصبر إنه سلاح المؤمن وعدة المسلم ، والهجر الجميل ، وانظر الى علاج القرآن حيث جعل دعامة الصبر والسلوان والهجر الجميل .

أما المكذبون المغرورون أولو النعمة والترف فالله يقول فيهم ذرني والمكذبين أولى النعمة والترف وأمهلهم قليلاً ، فإن للكون سنة لا تختلف ، إن عاقبة هؤلاء المكذبين المغرورين سيئة ، والله يمهله قليلاً ولا يهمل ، هذا في الدنيا أما في الآخرة فالله يقول : ان لدينا أنكالاً وقيوداً أثقالاً ، وجحيماً أعدت لهم ، وطعاماً ذا غصة ، هو طعام الزقوم ، الطعام البشع الكريه التي تغص منه النفوس ، وبعد هذا كله فهناك عذاب أليم لهم للغاية .

أذكر يوم ترجف الأرض وتضطرب ، وتزلزل الجبال وتتحرك ، وكانت صلدة ثابتة جامدة لا يقوى عليها شيء ، ولكنها في هذا اليوم تكون تلاً من الرمل كثيباً مهيلاً ، وليس هذا الاضطراب في الأرض فقط بل فيها وفي السماء ﴿إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت﴾^(١) . ﴿إذا السماء انشقت﴾^(٢) .

ولقد أخذ القرآن يهددهم بما حل بغيرهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فقال : إنا أرسلنا الى فرعون رسولا هو موسى ، فعصى فرعون وقومه رسولهم فكانت عاقبة أمرهم خسرا ، وأخذهم ربك أخذ عزيز مقتدر ، أخذاً شاقاً . . على نفوسهم حيث أغرقهم ونجى موسى ومن معه .

إذا كان الأمر كذلك فكيف تتقون - إن دمت على كفركم - يوما شديد الهول ، عظيم الخطر ، يوما يجعل الولدان من شدة أهواله شيباً والسماء في هذا اليوم تنفطر وتشقق ، بعد أن كانت آية في الأحكام والدقة ﴿ماترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾^(٣) كل ذلك كان وعده مفعولا .

إن هذه الإرشادات والتوجيهات التي سبقت في تلك الآيات تذكرة وعبرة وعظة ، وهل هناك تذكرة أقوى من هذا ؟ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً هو الإيمان والتمسك بالقرآن ، وتعود الصبر على المكاره والسلوان .

(١) سورة التكوين الآيتان : ١ ، ٢

(٢) سورة الانشقاق الآية : ١

(٣) سورة الملك الآية : ٣

التفسير

يأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يترك التزمل وهو التغطى في الليل وينهض الى القيام لربه - عز وجل - كما قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾^(١) وكذلك كان ﷺ - ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبا عليه وحده كما قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾^(٢) وههنا بين له مقدار ما يقوم فقالا تعالى : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ﴾ .

قال ابن عباس والضحاك والسدى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ يعنى يا أيها النائم .

وقال قتادة : المزمل في ثيابه ، وقال إبراهيم النخعي : نزلت وهو متزمل بقطيفة ، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : يا محمد زملت القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلا أو زد عليه ﴾ أى : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لاجرج عليك في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى إقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ - صلوات الله وسلامه عليه - : قالت عائشة - رضى الله عنها - كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها .

وفي صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقال كانت مدا ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) بمد بسم الله ومد الرحمن ومد الرحيم^(٣) ، وقال ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها سئلت عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقالت : كان يقطع قراءته آية آية (بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين) رواه أحمد وأبو داود والترمذى^(٤) .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبدالرحمن عن سفيان عن عاصم عن زر عن عبدالله بن عمرو عن النبى - ﷺ - قال : « يقال لقارئ القرآن أقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » ورواه أبو داود والترمذى من حديث سفيان الثورى به وقال الترمذى : حسن صحيح^(٥) .

(١) سورة السجدة الآية : ١٦

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن باب مد القراءة ٢٤١/٦

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٠٢/٦ وسنن أبى داود - كتاب الحروف ٢٩٤/٤ وتحفة الأحوذى أبواب فضائل القرآن - باب ماجاء كيف

كانت قراءة النبى ٢٤٠/٨ رقم ٣٠٩١

(٥) مسند أحمد ١٩٢/٢ وسنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل ١٥٣/٢ رقم ١٤٦٤ وتحفة الأحوذى - أبواب فضائل القرآن

وجاء في الحديث « زينوا القرآن بأصواتكم »^(١) - وليس منا من لم يتغن بالقرآن^(٢) ، ولقد أوتي هذا زمزماً من مزامير آل داود^(٣) يعني أبا موسى فقال أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرت لك تحبيراً ، وعن ابن مسعود أنه قال : « لا تشروه نثر الرمل ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » رواه البغوي ، وقال البخاري : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة سمعت أبا وائل قال : جاء رجل الى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة في ركعة ، فقال هذا كهذا الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله - ﷺ - يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في كل ركعة^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾ قال الحسن وقتادة : أي العمل به ، وقيل : ثقیل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت - رضى الله عنه - أنزل على رسول الله - ﷺ - وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي .

وقال الامام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبدالله بن عمرو قال : سألت النبي - ﷺ - وآله وسلم - فقلت : يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « أسمع صلاصلاً ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى الى إلا ظننت أن نفسي تقبض » تفرد به أحمد^(٥) .

وفي صحيح البخاري : عن عبدالله بن يوسف عن مالك عن هشام عن أبيه عن عائشة - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله - ﷺ - كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » .

قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي - ﷺ - في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وجبينه ليتفصد عرقاً هذا لفظه^(٦) .

وقال الامام أحمد : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبدالرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إن كان ليوحى الى رسول الله - ﷺ - وهو على راحلته فتضرب بجراها^(٧) وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا ابن ثور عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه أن النبي - ﷺ -

(١) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل في القراءة ١٥٥/٢ رقم ٤٦٨ - والثاني - كتاب الافتتاح ١٧٩/٢ وابن ماجه رقم

٤١٣٤٢

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب حسن الصوت بالقراءة ٢٤١/٦ ومسلم - كتاب الصلاة ٥٤٦/١ رقم ٢٣٦

(٣) صحيح البخاري - كتاب التوحيد ٨٨/٩ أو سنن أبي داود - كتاب الصلاة ١٥٦/٢ رقم ١٤٦٩ ومسنند أحمد ١٧٢/١

(٤) صحيح البخاري - كتاب الصلاة باب الجمع بين السورتين في ركعة ١٨٦/١

(٥) مسند أحمد ٢٢٢/٢

(٦) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي ٤/١

(٧) مسند أحمد ١١٨/٦

كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع ان تحرك حتى يسرى عنه^(١) وهذا مرسل (الجران هو باطن العنق) ، واختار ابن جرير انه ثقیل من الوجهين معا كما قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ قال أبو اسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : نشأ قام بالحشية ، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، وكذا قال مجاهد وغير واحد .

يقال : نشأ إذا قام من الليل وفي رواية عن مجاهد بعد العشاء ، وكذا قال أبو محرز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر والغرض أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الانات ، والمقصود ان قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ولهذا قال تعالى : ﴿ هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ أي : أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا ابراهيم ابن سعيد الجوهري حدثنا ابواسامة حدثنا الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلا ﴾ فقال له رجل إنما نقرأها وأقوم قيلا ، فقال له إن أصوب وأقوم وأهيا وأشبه هذا واحد^(٣) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم ، وقال أبو العالية ومجاهد وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري : فراغا طويلا ، وقال قتادة : فراغا وبغية ومتقلبا ، وقال السدي : (سبحا طويلا) تطوعا كثيرا ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴾ قال : لحوائجك فأفرغ لدينك الليل قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم ان الله - تبارك وتعالى - من على عباده فخففها ووضعها وقرأ : ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه - حتى بلغ - فاقراءوا ما تيسر منه ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ وهذا الذي قاله كما قاله . والدليل عليه ما رواه الامام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا يحيى حدثنا سعيد هو ابن ابى عروبة عن قتادة عن زرارة بن اوفى عن سعيد ابن هشام انه طلق امرأته ثم ارتحل الى المدينة لبيع عقارا له بها ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقى رهطا من قومه فحدثوه أن رهطا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله - ﷺ - فقال « أليس لكم في أسوة حسنة ؟ » فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رجعتها ثم رجع اليها فأخبرنا أنه اتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال ألا انبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله - ﷺ - ؟ قال : نعم : قال :

(١) تفسير الطبري ٨٠٢/٩

(٢) تفسير الطبري ٨٠/٢٩

(٣) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٨/٨

اثت عائشة فسألها ثم ارجع الى فاخبرني بردها عليك قال فأتيت على حكيم بن أفلاج فاستلحقته إليها فقال ما أنا بقاربها إني نهيتها ان تقول في هاتين الشبعتين شيئاً فكانت فيهما إلا مضياً ، فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا معك ؟ قال سعيد بن هشام قالت من هشام ؟ قال ابن عامر قال فترحمت عليه وقالت نعم المرء كان عامراً قلت يأم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله - ﷺ - ؟ قالت أأست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فان خلق رسول الله - ﷺ - كان القرآن فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله - ﷺ - قلت : يأم المؤمنين أنبئني عن قيام رسول الله - ﷺ - وآله وسلم - قالت : أأست تقرأ هذه السورة (يا أيها المزمل ؟) قلت بلى قالت فان الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة ، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله - ﷺ - فقلت : يأم المؤمنين أنبئني عن وتر رسول الله - ﷺ - قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يابني فلما أسن رسول الله - ﷺ - وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع يابني ، وكان رسول الله - ﷺ - وآله وسلم - اذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان اذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ولا أعلم نبي الله - ﷺ - قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان - فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهني مشافهة هكذا . رواه الامام أحمد بتمامه^(١) وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث قتادة بنحوه^(٢) . « طريق اخرى عن عائشة - رضى الله عنها - في هذا المعنى » قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب وحدثنا ابن حميد حدثنا مهران قال جميعاً : واللفظ لابن وكيع عن موسى بن عبيدة حدثني محمد بن طحلاء عن ابي سلمة عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنت أجعل لرسول الله - ﷺ - حصيراً يصلي عليه من الليل فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحياً فخشي أن يكتب عليهم قيام الليل فقال : (أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه)^(٣) ونزل القرآن : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم الى الفريضة وترك قيام الليل^(٤) .

ورواه ابن ابي حاتم من طريق موسى بن عبيدة الزبيدي وهو ضعيف والحديث في الصحيح^(٤) بدون

(١) مسند أحمد ٥٤/٦

(٢) مسلم - كتاب الصلاة - باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ٥١٢/١ رقم ١٣٩

(٣) تفسير الطبري ٧٩/٢٩

(٤) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل ١٢٢/٨ ومسند أحمد ٤٠/٦ ، ٦١ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢٤١ ، ٢٦٧

زيادة نزول هذه السورة وهذا السياق قد يوهم ان نزول هذه السورة بالمدينة وليس كذلك وإنما هي مكية وقوله في هذا السياق : ان بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر غريب فقد تقدم في رواية أحمد ان بينها سنة .

وقال ابن ابي حاتم أبوسعده الأشج حدثنا أبو أسامة عن مسعر عن سماك الحنفى سمعت ابن عباس يقول : أول منازل المزمل كانوا يقومون نحو من قيامهم في شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وهكذا رواه ابن جرير عن ابي كريب عن ابي أسامة به وقال الثوري ومحمد بن بشر العبدى كلاهما عن مسعر عن سماك عن ابن عباس كان بينها سنة ، وروى ابن جرير عن ابي كريب عن وكيع عن اسراييل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله^(١) .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن قيس بن وهب عن ابي عبد الرحمن قال : لما نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِل ﴾ قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ فاقْرءُوا مَا تيسر منه ﴾ قال : فاستراح الناس وكذا قال الحسن البصرى والسدى^(٢) . وقال ابن ابي حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا عبيد الله ابن عمر القواريرى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا ابي عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعيد بن هشام قال : فقلت : يعنى لعائشة أخبرينا عن قيام رسول الله - ﷺ - قالت : أأست تقرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِل ﴾ ؟ قلت بلى قالت فانها كان قيام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم وحبس آخرها في السماء ستة عشر شهرا ثم نزل ، وقال معمر عن قتادة : (قم الليل إلا قليلا) قاموا حولا أو حولين حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فانزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة .

وقال ابن جرير ، حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد هو ابن جرير قال : لما أنزل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِل ﴾ قال : مكث النبي - ﷺ - على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما امره وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله - تعالى - عليه بعد عشر سنين ﴿ إِنْ رَبِّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِ اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فخفف الله - تعالى - عنهم بعد عشر سنين^(٣) ، رواه ابن ابي حاتم عن ابيه عن عمرو بن رافع عن يعقوب القمى به ، وقال على بن ابي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ، نُصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف الله - تعالى - عنهم ورحمهم فأنزل بعد هذا ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَ لِيهِ تَبْتِيلًا ﴾ أى : أكثر من ذكره وانقطع اليه وتفرغ لعبادته

(١) تفسير الطبرى ٨٠/٢٩

(٢) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

(٣) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

(٤) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

إذا فرغت من اشغالك وما تحتاج اليه من أمور دنياك كما قال تعالى : ﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾ ^(١) أى : إذا فرغت من مهماتك فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البال قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه ، وقال ابن عباس ومجاهد وابوصالح وعطية والضحاك والسدى : ﴿ وتبتل اليه تبتيلاً ﴾ أى : اخلص له العبادة ، وقال الحسن : اجتهد وابتل اليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعابد فتبتل ومنه الحديث المروى نهي عن التبتل يعنى الانقطاع الى العبادة وترك التزوج ^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ أى : هو المالك المتصرف في المشرق والمغرب لا إله إلا هو ، وكما افردته بالعبادة فافرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً كما قال في الآية الأخرى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ^(٣) وكقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وآيات كثيرة في هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه . وقوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ يقول تعالى أمراً رسوله - ﷺ - بالصبر على مايقوله من كذبه من سفهاء قومه وان يهجرهم هجراً جميلاً وهو الذى لا عتاب معه ثم قال له متهددا لكفار قومه ومتوعدا وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شئ ﴿ وذرنى والمكذبين أولى النعمة ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق مالىس عند غيرهم ، ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ أى : رويدا كما قال تعالى : ﴿ نمتهم قليلاً ثم نضطرهم الى عذاب غليظ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ وهى القيود قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبدالله بن بريدة وأبو عمران الجوني وأبو محرز والضحاك وحامد بن أبى سليمان وقتادة والسدى وابن المبارك والثورى وغير واحد : ﴿ وجحيماً ﴾ وهى السعير المضطربة ﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ قال ابن عباس : ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج . ﴿ وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أى : تزلزل . ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ أى : تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شئ إلا ذهب حتى تصير الأرض قائماً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً أى وادياً ولا أمناً أى رابية ومعناه لا شئ فينخفض ولا شئ يرتفع . ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش : والمراد سائر الناس ﴿ إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم ﴾ أى : بأعمالكم . ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً ويلاً ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى والثورى : ﴿ أخذاً ويلاً ﴾ أى : شديداً ، أى : فاحذروا أنتم ان تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ماأصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن أنتم كذبتهم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران ، ويروى عن ابن عباس ومجاهد . وقوله تعالى : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ يحتمل أن يكون يوماً معمولاً لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون ايها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل ان يكون معمولاً لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفرع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثانى كيف

(١) سورة الشرح الآية : ٧

(٢) تفسير الطبرى ٨٣/٢٩

(٣) سورة هود الآية : ١٢٣

يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحتموه ، وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى والله أعلم ، ومعنى قوله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله وذلك حين يقول الله تعالى لآدم : إبعث بعث النار فيقول من كم ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة .

قال الطبراني : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قرأ : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة وذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعثا الى النار ، قال من كم يارب ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وينجو واحد » فاشتد ذلك على المسلمين وعرف ذلك رسول الله - ﷺ - ثم قال حين أبصر ذلك في وجوههم « إن بنى آدم كثير ، وأن يأجوج ومأجوج من ولد آدم وإنه لا يموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل ففيهم وفي أشباههم جنة لكم » هذا حديث غريب^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال الحسن وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله ، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى ، وروى عن ابن عباس ومجاهد : وليس بقوى لأنه لم يجر له ذكر ههنا . وقوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعاً لا محالة وكائنات لا محيد عنه .

يقول تعالى : ﴿ إن هذه ﴾ أى : السورة ﴿ تذكرة ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً ﴾ أى : فمن شاء الله - تعالى - هدايته كما قيد في السورة الأخرى ﴿ وماتشؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليهما حكيماً ﴾ .

طرف من سيرة المزمل - ﷺ -

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على خير رسله ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن سلك سبيلهم واستن بسنتهم الى يوم الدين .

وبعد فعلى فترة من الرسول ، ضاعت فيها معالم الحق ، وضل البشر سواء السبيل ، بعث الله رسوله سيدنا محمداً - ﷺ - بالهدى ودين الحق ، ففتح الله به للانسانية فتحة جديدة ، عرفت على أضوائه طريق الرشاد ، ودخلت الحياة من مدخلها الصحيح ، فتحررت من اصار الذل ، وحطمت اغلال العبودية ، وتقدمت باسم الله وعلى بركة الله ، وتحت راية الاسلام ، تنشئ حضارة سامقة ، وتكتب تاريخاً عبق بأطيب الشذى .

ومن كان فى ريب من ذلك فليس عليه إلا أن يتجرد من الهوى ، وينمى عوامل الجنوح ، ويقرأ

تاريخ ما قبل الإسلام وما بعده في مشرق الأرض ومغربها ، وسيجد بعد الجولات التزييه ان دعوة الاسلام وليس سواها هي التي فتحت القلوب والآذان ، والعقول والأبصار ، وإن كان كل مانراه اليوم من حركات إصلاحية أو وثبات علمية قامت على قواعد الفكر الاسلامى .

فإذا احتفل المسلمون في ذكرى مولد الرسول الكريم فليكن احتفالهم عوداً إلى المعين الذى لا ينضب ، يجددون العهد أن يكونوا حيث يرضى الله ، وتهدف إليه رسالة الإسلام ، استجابة صادقة واستلهاماً أميناً ، يفتح الله بهما الطريق إلى العزة والكرامة ، ويهذى بهما الله إلى الصراط الذى لا يضل عليه المسار .

ولنا في سوابق التجارب عبرة وعظة ، والتجارب الواعظات ينبغي أن تكون موضع تأمل وتدبر الذين يتغنون الرشاد ، ويتطلعون إلى الهدى ، فيلقون السمع ، ويفتحون القلب ، وخير التجارب تلك التجربة الرائدة التى عاشها الرسول - ﷺ - فهي حافلة بالكفاح ، حافلة بالأمل ، حافلة بألوان النصر العزيز .

يارسول الله

ما تفقدت الانسانية فضيلة نادرة إلا وجدتها نفحة من أدبك ، أو لمحة من خلقك أو ومضة من نورك ، أو خطوة من سلوكك ، أو لفظة من هديك ، أو شعاعاً من توجيهك ، أو عبرة من تاريخك ، أو قبساً كنت تبعث به في الليالى الحالكة ، والسبل الملتوية ، والمعالم المشتبهة ، والساعات الكالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الكريهة . . .

وسيظل تاريخك خالداً خلود الأبد ، باقياً بقاء الدهر ، مُدوياً دوى الأذان ، مضيئاً كالصبح ، يتحدى الغناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الأيام ، ويكافح الزمن ، ويحارب الطغيان ، ويخضع الجبابرة ، ويقضى على الفساد ، ويعلن المساواة ، وينادى بالحب ، ويتعقب الاستبداد ، ويشرع الاشتراكية ، ويقصم ظهور المتكبرين في الأرض بغير الحق . . لا لأنك رسول رب السماء ، والأرض - الذى يحتمى ببطشه ، ويعتز بياسه ، ويقا تل بسيفه ، وينطق بلسانه ، ويصونه من بغى المتسلطين ، وعدوان المفسدين ، الذى لا يتغافل عن الملحوظين بعنايته ، المشمولين بلطفه ، المحفوفين برضوانه ، المغمورين برحمته ، ولكن لأنك كنت المثل الأعلى الذى ترتقى اليه البشرية عند غموها ، وتتطلع له في تقدمها ، وتحاول أن تحتذيه ، كلما تاب إليها الرشد ، أو عاودها الحلم ، ويتعظ فيها العقل ، وتحركت أسباب الفقه والمعرفة ، وألهمها ربها السداد والتوفيق .

والحديث فيك يارسول الله حبيب إلى النفس ، خفيف على السمع ، لذيد رجعه كأنه الموسيقى للقلوب الظامئة ، والأفئدة الملتاعة ، والجوانح الحرى ، والأكباد المحترقة ، والأرواح المشوقة ، لا ينتهى له مدى ، ولا ينقطع له جرس ، ولا ينضب له معين . . ينشده الأديب فيجد في حديثك الحكمة الغالية ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوى ، والتصوير الدقيق ، والألفاظ الفخمة ، والمنطق الحلو ، والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والنمط الذى لا يصل إليه أساطين الكلام ، ودهاقين القول ، وجهابذة

الحديث ، وأساتذة الأدب . . . ويتصفح المصلح الاجتماعي فلا يعثر فيه إلا على هدى نافع ، ودستور قويم ، وتهذيب صحيح وتقويم واضح وتوجيه سديد . . . وهكذا كل جوانبك - يا رسول الله شائخة ، وجميع جهاتك عامرة أهلة بالخصوبة ، غنية كل الغنى بالبر والمعروف ، والأمن والسلامة ، والرضا والاطمئنان ، وأنا أجد في حديثي عنك لذة لنفسى ، ومتعة لخاطري ، وغذاء لروحي ، وضياء لقلبي ، وشفاء لغليلي ، وإرواء لظمئي ، وإرضاء لضميري ، فلا أسلك في الكتابة فيك سبيل التاريخ الجامد ، ولا طريق الحوادث المألوفة ولا نهج السيرة المعروفة ، ولا مآ تعود الناس أن يرددوه عنك ، أو يذكروه لك ، أو ينسبوه إليك أو يذيعوه عنك . . .

وليس هذا تخيلاً يتخيله شاعر ، ولا وهماً يدور بخلد فيلسوف لأن الخليفة لم تعرف رجلاً لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس وحير أبواب المفكرين ، وتطلعت الدنيا إلى مافيه من أخلاق نبيلة وسجايا عظيمة ، وخلال طيبة ، وسلوك حميد ، وأدب جم ، قبل أن تعرف أنت ، فتعرف طبها وعلاجها ، وشفاءها ودواءها ، ومثلها العليا . . . والدراسة التي تناولتك - يا رسول الله - والآداب التي أخذت عنك ، والسلوك الذي رسمته ، والمنهج الذي بينته ، والأخلاق التي رغبت فيها ، ودعوت إليها هي الدستور الذي كانت البشرية بحاجة إليه لينير لها الطريق إلى مستقبل أفضل ، وغاية أكرم ، ومجد أنبل ، وسعادة أعظم ، وأمن أشمل ، وعدالة أكمل ، واصلاح أعمق ، وبخاصة إذا نظرنا إلى تلك البلبلة التي كان عليها العرب ، حينئذ - وإلى تلك الجهالة التي كانت تضرب بجرانها في الجزيرة ، ولا سيما في المسائل الدينية وقد كانوا فيها أشبه ببحر يموج ، أو بركان يغلي ، لا هدف يصح لهم أن يتجهوا إليه ، ولا غاية يمكن أن يقفوا عندها ، ولكنهم كانوا يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ولا يدينون للحق ، أو يفتحون قلوبهم للهداية ، أو ينظرون بعيونهم نحو النور أو يوجهون أفئدتهم إلى الصواب ، يشتغلون بالخرافة ويتعلقون بالباطل ، ويهتمون الاهتمام كله بالأخذ بالثأر ، والمعاقرة للخمر ، وإشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، وليس لهم من المعارف ما يساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم في صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتقدمة ، المتطلعة إلى العمران والاصلاح ، والانتعاش واليقظة ، والسير إلى الغايات المحمودة . . . وفي الحق ! إن للدهر أن يطأطئ رأسه لك - يا رسول الله - إجلالاً لما كان من تاريخك ، وإعجاباً بما كان من خلالك ، وإكباراً لما كنت عليه من خلق عظيم ، تتجاوز حدود التقدير والاحترام . . . ونحن لانشك في أن أصحاب الدعاوى ، وأرباب المبادئ ، وحمة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعماء الاصلاح - في كل زمان ومكان - لا يصلون إلى غاياتهم ، أو يبلغون أهدافهم ، بنصاعة بيانهم ، وقوة حجتهم ، وسداد رأيهم ، واستقامة نهجهم ، وخلاصة منطقهم ، وروعة بلاغتهم ، بمقدار ما يساعدهم على ذلك سلطانهم المرهوب ، وقوتهم المخيفة ، وبأسهم المسلط ، أو نصرة تقف إلى جانبهم ، من قرابة قريبة ، أو ولاء مسعف ، أو عصبية تدافع ، أو مال يغري بالإقبال والرغبة ، ويعمل على تمكين النفوذ والجاه ، وإشاعة الإرهاب والخوف ، وأنت لم تنصرك عصبية ، ولم يساعذك مال كان في يدك ، ولا نفوذ أتيح لك ، غير أن سيرتك كانت قرآناً ، وحياتك كانت برهاناً ، وقد استقبلت الإنسانية حديثك الطيب استقبالها للأحداث الهامة ، والأمور الغريبة ، والمعجزات الكبرى ، وآمنت بسبب ما عرفت منك - أن الله سرّاً يخفي على الفطنة ، ويدق على الفهم ، ويتسامى على المنطق ، ويتجاوز حدود العادات ، ويأبى

أن يخضع للمألوف ، ولايسع الناس أمامه إلا أن يردوه إلى خالق السموات والأرض ، ومدبر الكون الواسع ، والملك الفسيح العريض !!

وفيك - يارسول الله - تحكم الفقر ، وتمكن اليتيم ، واستبد الجوع والحرمان ، الذي جرت به العادة مع الأطفال الذين تحيط بهم تلك الحياة ، وتلعب بهم الأحداث ، وتهز كيانهم هذه الأعاصير ، أن يموت فيهم النزوع إلى المجد ، والرغبة في الكمال والتطلع إلى الأهداف البعيدة ، والأغراض النبيلة ، والغايات السامية ، وأنت - يارسول الله - لم يقل قائل : إن همتك كانت واهنة ، وأن عزيمتك كانت فاترة ، أو أن نهوضك كان كسيحاً أو أن نزوعك كان ضعيفاً ، أو أن طموحك كان ميتاً ، أو أن قناتك لانت لغامز ، أو أن نفسك ذلت لجبار ، أو أن عودك انحنى لمتسلط ، أو أن جهادك للإصلاح وقف في منتصف الطريق أو حولته عن القصد غايات ، أو منعتة عن نهايته موانع ..

وفي سلوكك منذ كنت ناعم الأظفار ، غض الإهاب ، صغير السن ، من سمث طيب - وخلق قويم ، وعقل بصير ، وفكر ناضج ، ورجولة مبكرة ، وعظمة لاتصنع فيها ولا احتيال - مايدل على ان مستقبلا باسما كان ينتظرك ، ومجدا تالدا كان يترقبك وجاها عظيما كان على موعد معك ، وأن الإرهاص الذي يسبق المعجزة يسارع إليك ، ليؤذن بالنهاية الكريمة ، والمصير العزيز ، والختام الحميد ، والتاريخ الذي يرويه الآباء للأبناء !

فلما بلغت مبلغ الرجال وكنت تقرى الضيف وتحمل الكل ، وتؤازر الحق ، وتنطق بالصدق ، وتعين على المعروف وتنصر المظلوم ، وتخفف ويلات المكروبين ، وتمتلىء نفسك الكبيرة بالمعاني النبيلة ، والعواطف السامية ، والأمانى الطيبة ، والنوايا الصادقة ، والغرائز المهذبة ، والخلال الكريمة ، والسجايا المحببة ، هاهم امرك ، وعناهم شأنك ، وظنوا ان الأيام سوف تتمخض فيك - لامحالة - عن قبصر الروم ، أو كسرى الفرس ، أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد قاهر ممن كانوا يسمعون عنهم من الأساطير والأخبار ، إلا أنك حين جهرت بدينك الصحيح ، وبقينك السليم ، وإيمانك القوى ، وكشفت بذلك كله - عن الحق الصراح - والسلوك السوى ، والعدل المحض ، والنهج القويم ، تضاءل في أنظارهم كبرياء الظالمين ، وخطرسة أولئك المتعاليين المتكبرين ، وتهاوت تيجان الملوك والسلاطين . وآمنوا أن هذه الدنيا التي كانت لهؤلاء لاتزيد إلى جانبها ما أعطاك الله إياه جناح بعوضة ، ولاقلامه ظفر ، ولكنها غبار يتطاير ، أو سراب يخدع ، أو وهم لاينطلى إلا على الأغرار البله ...

والعجيب الغريب أن تكون - يارسول الله - مع هذه المكانة التي كنت عليها من العظمة والمجد والسؤدد والشرف ، والجاه والرفعة ، والسيادة والعزة ، والسلطان والنفوذ ، متواضعا غاية التواضع ، حليما إلى أقصى نهايات الحلم ، جامعاً للمكارم كلها ، تبذل وتعطي ، وتسخر وتجود ، وتنقذ من يتورط في شدة ، أو يشرف على هلكه ، أو يعاني جرحاً ، وربما نسيت إساءة المسيء وآثرت غيرك على نفسك ، وقابلت الشر بالخير ، والأذى بالصفح والعفو ، واللؤم بالكرم .. وكم أعلنت في كل مناسبة أنك بشر تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، وناديت في القاصي والداني بهذا الأدب الرفيع : (إنكم لاتسعون الناس

بارزاقكم ، وأموالكم فسعوهم باخلاقكم) (١) لتعطيهم الأمثال منك ، والقذوة بك ، والاتباع لك ، وحاشا لخلقك ألا يكون إلا كذلك ، وماعاب أحد لك صنيعا ، أو انتقد لك سلوكك ، ولم تكن جباراً في الأرض ، ولا قاسياً على الناس ، بل كانت دعايتك بالحسنى وهدايتك بالرفق ، واصلاحك بالحزم ، وإرشادك بالحجة وتوجيهك بالمنطق ، ونصحك باللين ، وسياستك بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ، وغيرتك للحق ، وانحيازك إلى جانب الفضيلة ، وجهادك للإصلاح ، وحياتك للخير ، وهدفك أن تعلو كلمة السماء ..

وهكذا تكون العظمة التي لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو ينتهبها أهلها بسلطان السيف ، ورهبة الملك ، وحكم القانون .

وصلى الله عليك - يارسول الله - كلما جرى ذكرك على لسانى ، أو خطر طيفك ببال إنسان ، أو ترسم أحد خطاك ، أو التمس مسلم هدايتك ، وسار على نهجك ، فإنك بحق سيد الناس وخير الخلق على الإطلاق ، ولا ينكر عليك ذلك جاحد ولا يمارى فيه مكابر ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١) .

محمد صلى الله عليه وسلم

« محمد » إن هذه الكلمة - وحدها - مجردة عما يقترن بها ، أو يساق معها ، أو يحىء في إثرها من الأوصاف والنعوت ، والأحداث والجهود ، تشيع في الجو الذى تسبح فيه ، والفم الذى ينطق بها ، معنى من معانى السحر ، لا يمكن لكائن من كان من الناس ، أن يحدده التحديد الذى يكشف عن حقيقته في فن الموسيقى الخلابة ، ولا البلاغة الأخاذة ، ولا الجاه الذى لا يتناول إليه جاه ، أو يمكن أن يزاحمه كبرياء وجبروت المحكمين ، وغرور المخدوعين ، أو أحلام المتطلعين ، لأن المسلمين الذى يضيف على أبناء آدم أردية المهابة ، وثياب العزة ، ومسوح الإحلال والاحترام ، خلقه هو ، خلق « محمداً » لتذوب أمامه النعوت ، وتتهادى بين يديه الأوصاف وتقتصر عن الإحاطة بكماله الألفاظ ، وتقف موقف العجز عن التنويه به ، أو الكشف عنه ، بلاغة البلغاء ، وأساليب الأدباء ، ومنطق اللسن المقاول ، ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى أو فؤاد المتحدث ، أو يقع عليها نظر قارئ في ثنایا سطور ، أو في صفحة من كتاب ، حتى يجد أنه - ﷺ - تأخذه المهابة من جميع جهاته ، وتصيب جسمه القشعريرة التى تصيبه إذا وجد نفسه في حضرة عظيم من العظماء الذين تملأ مجالسهم الهيبة الربانية التى لا تكون مستمدة من غطرسة مصنوعة ، ولا أهبة مكذوبة ، ولا مجد مختلق ، أو نفوذ مدعى ، أو جبروت موضوع ، وإنما هى من صنع الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وفي تاريخه - ﷺ - ما يدل على أن تيجان الملوك ، وعروش الجبابرة ، وكبرياء من كانت للدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيمانهم ، والسلطان بحوزتهم تتساقط بين يديه ، أو يصيبها الشلل ، والجمود أمامه ، فلا يجرو

(١) مسند ابن يعلى الموصلى - والحاكم فى المستدرک ، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن هريرة

(٢) سورة القلم الآية ٤

قوى أن يهدده ، ولا يتناول جبار أن يخيفه ، ولا يمكن لشرير مهما كانت شراسته ، وحمقه أن يهز كيانه أو يزلزل بنيانه ، أو يملأ يقينه الذى كان عامراً بخالقه ، ولا أن يحسب حسابه ، أو يخشى بأسه ، أو ترتعد فرائصه منه ، وذلك لأن الذى أرسله بالبينات ، وأيده بالمعجزات ، جعله هو فى نفسه قدوة هذه الانسانية فى أخلاقه الكريمة وأدبه الجم وذكائه اللماح وعبقريته الفذة وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم وعطفه الفطرى وحبه للخير وميله إلى البر ، وحبه على الناس وتفانيه فى الإصلاح وارتباطه بربه وتعلقه بالسماء ، وهكذا لم تبلغ لفظة من ألفاظ الأعلام ، ولا أسم من أسماء المعاني ولا كلمة من الكلمات فى ضخامة جرسها ودوى صوتها ونباهة شأنها وشهرة دلالتها وإيمان الخليفة بها - بعد لفظ الجلالة - ما بلغت تلك اللفظة « محمد » التى يتيمن بها المسلم ويعتز بها الموحد ويفاخر بها الإنسان ، ويشرف بالانتساب إليها كل من تكامل له عقله ، ونضج فيه وعيه ، وصح عنده دينه وارتقى إدراكه وشعوره ، وسلم بصره وذوقه ، وتردده السنة الملايين فى بقاع الأرض وأنحاء هذا الكون ، تلذذاً بذكرها وارتياحاً لنغمتها وسروراً بمرورها على البال وخطورها بالذهن ..

ولقد عاصرت أحداث التاريخ وصيحات المصلحين ودعوات الهداية ، والتقويم على الحجة الواضحة ، والجادة الصحيحة ، فكان منها الشعاع الكاشف والضياء المساعد والنور الذى ترى به البشرية مواضع أقدامها فى طريق الخير وسبيل الحق ودرب السداد والصواب والسلامة والنجاة والرشاد والفلاح والتقدم والعمران والحضارة والنهوض والعلم والعرفان ..

ولا يعنينا من هذا العنوان أن نسترسل به مع الحوادث وأن نرجع بك إلى ماعساك أن تكون قد حفظته من بطون الكتب ، أو سمعته من أفواه الرواة والقصاص ، ولا أن ننتهى بك إلى تاريخ أنت تعرفه وتعيه ، وإنما يعنينا أن نستشف ماتعطيه تلك النفس التى لا يتسع لها هذا الفضاء المحدود ولاتلك الأرض المرسومة ولا هذه السماء المرفوعة ولا ذلك الكون الفانى ، وهى التى حام الفلاسفة حولها بحثاً ودرساً وتحليلاً وتعليلاً فما وصلوا إلى شىء وراء كونها خلاصة هذه الخلق وسر هذا الوجود ، ومعنى الانسانية فى هذا الإنسان الذى أرسله لتقويمها وتهذيبها ، وهدايتها وارشادها وتكريمها وإجلالها وحريتها من ذل الأسر ورق العبودية وضراوة الإقطاع وكابوس الظلم وفوضى النظم والدساتير لتكون له السيادة فى الأرض والقيادة لما فى الدنيا من باغم وناغم : ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (١) .

ولعل هذه الجوانب فى حياته - ﷺ - من العظمة الخارقة وبخاصة فيما يتناول تلك السرعة فى انتشار العرب من وهدة التردى إلى قمة النهوض والسمو كانت موضع الدهشة عن كثير من المؤلفين القدامى فأضفوا عليه من النعوت والخلال ما يتجاوزون حدود البشرية ، وهو الذى كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعلن أن له مالبنى آدم من مزايا وخلال .

وقد كنا نحمد لهؤلاء الذين يكتبون عنه طريقته في الكتابة ، وأساليبهم في الدراسة ومنهجهم في البحث لو أنهم كانوا يحاولون أن يؤرخوا له من الحوادث وأن يجعلوا معيتهم في ذلك سيرته مع أصحابه وتواضعه لأهله وحبه لقومه وحبه على البائسين ورفقه بالضعفاء وإيثاره لغيره ومحاولته القضاء على عناصر الفساد في الأرض .

فإن هذا كله صدى لهمة الكبيرة وشخصيته العظمية وضميره النقي ودخيلته الطاهرة ونحيزته الشريفة ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف والتمويه والكذب والرياء والنفاق ذلك لأنه غط لا غبار عليه في البحث إذ هو يجرى على طريقة علم النفس الإنساني في تحليل السجاياء والطباع وفهم الغرائز والميول ، لو خلا من تلك المبالغات التي يلتجئ إليها بعض أصحاب هذه الدراسات . وستظل الأجيال والعصور تدرس جوانب هذه العظمة لتأخذ منها نماذج من النبل وشواهد من المكارم وملامح من البر وأساليب من الكمال ومقاييس من الخير لا تجدها الأفكار الواعية ولا العقول الناضجة إلا في صفحاته الناصعة من تاريخه الخالد أوسيرته التي تفوح بالعطر ، وتنفع بشذى المسك ولا يرى الناس شرفاً كهذا الذي يلتمسونه منه ، ولا قربى تشفع لهم عند الله أحسن من كونهم يجعلونه وسيلتهم إليه .

وحسب « محمد » - ﷺ - أن اسمه مأخوذ من « الحمد » الذي هو نهاية جهد كل إنسان في سعيه وآخر كدحه في عمله وقصارى إعلان الشكر لبارئه ، إذا ترادفت عليه نعمه وغمرته آلاؤه وشمله عفوه وأحاطت به وسائل رحمته .

إذ لا يجد سبيلاً إلى الاعتراف بهذا الفضل الذي أثقل كاهله وأسعفته أسبابه وراء قوله : (الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) ، وليس بعد هذا الشرف الذي حظى به والمكانة التي ارتقى إليها ، واسمه نردده في السر والنجوى والجهر والعلن مقروناً بالإجلال والاحترام : ﴿ إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

وفي هذا كله وسام الشرف وشارة المجد وعنوان الإجلال الذي ليس بعده ولا قبله ..

يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد جلّت وجهه سحابة من الحزن أو غمامة دكناء من الشعور بالمذلة والانكسار ، إن مَرَحَ زملاؤه أو لعبوا أو أخذتهم نشوة من الفرح فطربوا أو جرى في وجوههم دم الطفولة البريئة أو ماء الصبا الرقراق ، كان هو - مع ذلك كله - كأنه العود الصغير من الزرع ، جف عنه الري وانقطع عنه الغذاء فسارع إليه الذبول وتخلت عنه الحياة إلا أنه ظل في مكانه من الحقل يحسبه الناس حياً ويظنونه متهيئاً لمستقبل حافل بالأمان والأحلام وهو هيكلا لا يحس .

إن كنت قد رأيت ففاضت عينك بالدموع وثار قلبك من الجزع وملأت الحسرة نفسك وأسفت على تلك الإنسانية المعذبة يتخلى عنها المجتمع الظالم ، فلا يمسح عنها العبرات ولا يأخذ بيدها إلى سبيل النجاة من المهالك والسلامة من الأذى والبغض للدنيا والنفور من الحياة فذلك هو اليتيم . وإذا كان للنجاح في هذا الميدان الصاخب والمعتك المائج والميدان الذي يتصارع فيه على البقاء كل

كائن حتى وسائل من القوة ووشائج من الحيلة فإن إنكسار النفس باليتم وهوانها على الناس لا يجعل هذا النجاح نجاحاً ولا يضيف عليه الثوب الذى يظهر فيه بمظهر البهجة أو الارتياح أو لون اللذة والاغتراب . وقد رأينا كثيراً من هؤلاء الذين فقدوا العائل وعدموا الراعى كان اليتيم هو حجر العثرة فى طريقهم أو العقبة الكأداء فى سبيلها .

فكيف وقد كان « محمد » - ﷺ - مع اليتيم الذى ابتلاه الله به فقيراً من المال محروماً من الغنى على أنه لولقى مع هذا الشظف الذى كان يقاسيه مجتمعاً مهذباً أو بيئة رحيمة أو إنسانية راقية لكان له منها عزاء أو وجد فى جوارها الدواء .

وقد حدث التاريخ : أن أباه فارق هذه الدنيا بعد حمل أمه به بشهرين اثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد أربع سنوات من وضعه ، وأن أمه لما رأت أن تجرى على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم للمراضع لينشأ الناشء منهم على الخشونة والنبيل والإباء والشرف والنجابة والشمم ، لم تجد له من ترضى بضمه إليها وولت كل امرأة بوجهها عنه بعد أن عرفت أنه لا أب له من أهل الثراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ، وأن المرأة التى تقبل على نفسها أن تأخذه إنما تتقرب للأوثان ، أو ترمى بجهداها الذى تبذله فى وجه الشيطان ، لأن لقمة العيش لا تشتري بالمعروف والحياة لا تستقيم إلا لمن يدفع لها الثمن من المال . . . ولولا أن « حليلة السعدية » صادفها الجد العاثر والفأل العاطب ، ما قبلت على نفسها أن تأخذه أو تعود إلى منزلها بصفقة المغبون ، اللهم إلا أن يكون رضاها به لدفع ما عساه أن يوجه إليها من تهمة الخيبة وعار شؤم الرجوع من غير شيء .

وقد ظل الطفل عند أمه « حليلة » وانتهى رضاعة وحبا ومشى وأكل وحده ولبس وحده ، وكان المفروض فى أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بذويهم من الآباء والأمهات ليجدوا هنالك من رعاية الوالد وحنان الأم ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يجده إلا عندهما ، وتلفت الطفل ليجد هذين فلم يجد ، فبقى فى بيت « حليلة » يمرح مع ابنها ويروح ويغدو إلى أن جاء إليه الملك « جبريل » ليشق صدره الشريف ويخرج منه تلك العلقة السوداء التى يتسرب منها الشيطان إلى النفس ، وينفذ منها إبليس إلى خواطر الناس ، ليلقى فيها ما يريد من هواجس الشر .

وكان مع « محمد » - ﷺ - فى هذه الحادثة ابن « حليلة » الذى كان فى سنه والذى كان لفرط حبه له وتعلقه به يود ألا يفارقه ، وكانت حليلة لهذه العاطفة التى كان ابنها يكنها لمحمد لا تفكر أن يعود « محمد » إلى أهله ، وبخاصة بعد أن وجدت أن قدمه عليها كانت يمناً وعيشة فى بيتها كان بركة ، وأن المراعى لغنمها قد أخصبت فزاد اللبن وكثر الخير وأن اليوم الذى لا ترى فيه هذا الطفل يملأ بيتها بنور وجهه هو اليوم الذى يكثر فيه شؤمها ويزداد بؤسها .

إلا أنها لم تفسر هذا الحادث الذى حدث لمحمد بشيء سوى أنه نكاية بها أو مؤامرة عليها وهى مشكلة - إن وقعت - لا تستطيع أن تعتذر منها لأهل هذا الطفل لذلك لم تجد مخلصاً من ذلك الضيق وراء رده لهم وتسليمه إليهم وبراءة ذمتها من أمانة كانت تتحملها . وراح الطفل إلى جده الشيخ « عبد المطلب » وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس إليه ، يرأه ويعطف عليه ويوفر له أسباب الهناء والسعادة ويملا قلبه بالرضا والارتياح . ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير لا يزال يشعر بالفراغ الواسع الذى

تخلف عن فقدته لأبيه وأمه . . وعلى الرغم من الانكسار الذي كان يلازمه ما هانت نفسه ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائماً يشعر أنه يعيش في دنيا غير دنيا الناس ويحيا في عالم غير هذا العالم الذي يرفع درجات أهله بالمادة الحقيمة والحطام الفاني والعرض الزائل ، وما رآه راء من زملائه وأقرانه إلا وحمله ترفعه عن السفاسف وبعده عن الدنيا على أن يحترمه احتراماً يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ويطلبون السؤدد .

وسبب ذلك يرجع إلى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، وكأنما كان ينظر من عالم الغيب إلى ذلك الموقف الذي سيقفه من تلك الخرافات وهذه الحرب التي سيعلنها شعواء على تلك الخزعبلات فكان سلوكه الذي يسلكه ومعاملته التي يعامل بها من حوله على طراز من الأدب ومثال من الكمال . ولقد حدث نفسه : أنه رفع ثوبه عن جسمه ليجمع فيه شيئاً من الحصى والحجارة - كما يفعل الأطفال - فوجد هاتفاً يزجره في عنف بالغ وإزعاج مرعب وخوف انخلعت له نفسه فلم يعد بعد ذلك إلى مثلها .

وحدث أيضاً : أنه أستأذن أخاه من « حليلة السعدية » أن يترك له الغنم في المرعى ليذهب هو - وحده - إلى عرس كان فيه هو وطرب مما اعتاد الناس حينئذ أن يفعلوه ، فلما ذهب إلى هنالك أخذته سنة من النوم لم ينتبه منها إلا بعد انقضاء العرس .

وفي هذا كله دليل على حفظ الله له ورعايته إياه وعنايته به .

أما تلك العظمة التي كانت تملأ جوانب نفسه فإنها تظهر كذلك في كثير من خلاله التي كانت تسيطر عليه والتي كانت لا ترده أبداً موارد الصغار ، أو تنزل به إلى حيز الاسفاف ، ولقد كان لجدّه « عبد المطلب » بساط لا يجلس عليه غيره ولا يعتقده سواه وهو تقليد كان عند العرب توارثوه عن الآباء والجدود ، فإن تعدى متعد ذلك التقليد ، اعتبروه متمرداً على الأوضاع ، خارجاً على الحدود . وقد حكوا : أن « محمداً » في طفولته كان يتمرد على تلك السنة ويتجاوز ذلك التقليد ويسارع إلى المكان قبل أن يحتله جده « عبد المطلب » فإن وبخه أحد أولامه لائم قال لهم عبد المطلب : دعوه ، فإن دم السيادة يجرى في عروقه وروح المجد يملأ جوانحه والنزوع إلى الرفعة يدفع به نحو المكان العالي . وكان الذي يملأ قلب عبد المطلب بهذا اليقين أنه رأى في منامه رؤيا فسرها له العارفون بتأويل الأحلام : أن رجلاً من صلبه تدين له العرب بالطاعة وتعرف له بالفضل وتدعن له بالشرف وتؤمن له بالسلطان .

وكذلك كان يفعل الطفل مع عمه « أبي طالب » بعد أن انتقلت كفالته إليه بموت « عبد المطلب » وهي روح إن دلت على شيء فهي إنما تدل على أن تلك النفس العالية كانت تسبق الزمن وتستعد للمستقبل وترعاها عناية خفية عن أنظار البيئة التي يعيش فيها . وربما خطر ببال إنسان أن يسأل : ولماذا اختارت العناية الإلهية هذا المخلوق الذي طحنته الحوادث وعركته الخطوب ولوعته صروف الزمن ونشأ تلك النشأة المليئة بالشدائد والأهوال ؟

وهو سؤال يعرف الاجابة عليه من يدرك أن الله - سبحانه وتعالى - لم يشأ إلا أن يشرب رسوله تلك الكأس المترعة من أول يوم لتنطبع نفسه على الرحمة ويتعود قلبه على العطف وتمتزج روحه باللين ويتسع

صدره لما عساه أن يصادفه بعد ذلك من محن وهكذا يتربى الأبطال وينشأ العظماء ويحيا حياة القسوة من يريد أن تنقاد له الحوادث وتخضع له الظروف وتطأه الأيام والليالي .
على أن الأب والأم والناس جميعاً لم تكن إلا أسباباً ظاهرية للحدب والعطف والرعاية والشفقة والصيانة والحفظ والإرشاد والنصح ولو شاء الله لجعل أسباباً غيرها تؤدي عملها ، وتقوم بوظائفها ، تباركت آلاؤه لا نحصى الثناء عليه ولا ندرك أسرارها في خلقه ولا نفقه من قضائه وقدره إلا ما يكشفه لنا النظر الكليل والفهم المحدود والعقل القاصر وننتهي بعد هذا المطاف إلى الإيمان العميق والتسليم المطلق ، ونعوذ به من شر الوسواس الخناس ..

كان عصامياً

من أدبه الذي كان يؤدب به أمته ، وهديه الذي كان يهدي به المسلمين ، ألا يكون الرجل عالة على غيره ، وألا يقعد أحد وغيره يعمل له ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء والمرسلين ! أنهم كانوا يأكلون من عمل أيديهم .
لذلك لم يعرف عنه منذ طفولته أنه استراح إلى صدقة يُتَصَدَّقُ بها عليه ، أو معونة يبذلها باذل له ، وظل حياته كلها - قبل البعثة - يعمل بالأجرة في رعى الغنم تارة وفي التجارة تارة أخرى ليأكل من كده ويرزق من كدحه حتى لا يكون عنواناً سيئاً للأفراد الذين يعيشون على حساب غيرهم أو الجماعات التي تُشيعُ الكسل والنوم في الأمم .

وكان وهو في كفالة عمه « أبي طالب » بعد أن أحس من نفسه القدرة على مزاولة البيع والشراء - في التاسعة من عمره - يتعلق به ويلح عليه ليأخذه معه ، وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة بالارتياح وبخاصة بعد أن تبين له إنما يفعل هذا فراراً من التواكل وهرباً من أن ينبت لحمه من غيره .
وأول مرة تعلق به هذا التعلق هي تلك المرة التي استقبله فيها « بحيرا الراهب » في الطريق إلى الشام وحذره من اليهود ، وأفهمه أنهم سيقتلونه إن ظفروا به ، لأن في كتبهم نعتة ، وفي شرائعهم تحديد المصير الذي يترقبهم على يديه ، وهم لهذا يجدون في طلبه ليقطعوا عليه الرسالة وهم بذلك يكررون مأساة فرعون مع أطفال مصر حتى لا تتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه أن ملكه سيزول على يد غلام يولد في هذا الوادي ، فأمر بقتل كل مولود ذكر ، ولكن ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره ، وزال ملكه على يد « موسى » الذي تربى في بيته ونشأ في جواره . ولم يزل - ﷺ - على هذا الخلق يعمل لأصحاب رءوس الأموال بين مكة والشام ، وهو في هذه الآونة الرجل المحترم والإنسان الكريم على الناس ، يتسابقون إلى طلبه ، ويتنافسون في وده ، لأن الأمانة التي تحلَّى بها والصدق الذي غلب عليه والخبرة التي حذقها والبصر الذي كان له والخلال الطيبة التي كانت العامل الأول في إعجابهم به وحديثهم عنه جعلتهم يعتبرون الظفر به مغنياً من المغانم التي يكونون حصولهم عليها عنوان الجد السعيد والحظ الموفور ..

والسيدة « خديجة » لم تكن من دهماء الناس ولا عامة الشعب لأنها من أشرف قريش وأغنياء العرب ، وكثير من وجوه أهل مكة كان يتمنى أن يطلب يدها ويخطب ودها .
وكانت هي تقابل ذلك بالدفع والامتناع والكبرياء والصلف ، إلا أنها لم تملك أمام هذا الخلق

العظيم والأدب العالى والرأى السديد والفكر الواعى والأمانة النادرة والقلب النقى والرجولة الصحيحة إلا أن تعرض نفسها على هذا الرجل الذى لم تجد له مثيلاً بين أهلها وذويها وقومها وعشيرتها ، وليس ذلك لما بينهما من فارق السن - إذ كانت فى الأربعين وكان فى الخامسة والعشرين - ولكن لهذه المعانى النبيلة والسجايا الخلية .

على أنه - ﷺ - لم يعرف عنه أنه - وقد أسلمت إليه « خديجة » هذا القياد وجعلت فى يده هذا المال - كان مستغلاً لنفوذته أو مغتصباً لحق سواه بل كانت يده فى هذا المال يد الأمين ونفوذه نفوذ الوكيل وتصرفه تصرف العامل لم يظهر عليه بذخ ولم يبد منه سرف ولم يخطر - يوماً - فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولاً وفتحت له الدنيا أبوابها فلم يخدعه زخرف من زخارفها ولم يفتنه شىء منها . وهذه عائشة - رضى الله عنها - تحكى لنا هذا الخلق وتسجل عليه هذا الطبع وتصف لنا فيه ذلك الزهد إذ تقول : « ما شبع آل محمد - ﷺ - منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض »^(١) .

ولعل بعد هذا السرد الذى سردناه من حياته - ﷺ - قبل أن يبعث الله به رسولاً إلى الناس تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يعيش كلاً على أحد ، أو عالة على إنسان وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » ممجدين لشأنها معترزين بالإتصاف بها .

وكأنما كانت إرادته سبحانه وتعالى تقضى أن ينشأ يتيماً فقيراً لتكون هذه العصامية أبرز صفاته وأوضح خلاله ، وليكون ذلك امتحاناً لرجولته وتربية له وإعداداً لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره . وإن الذى يقرأ تاريخه الرائع ومواقفه الخالده وثباته العجيب وبطولته الفذة وجهاده الذى كان مثلاً للمجاهدين يؤمن أن ذلك لا يكون إلا لإنسان عركته الحوادث هذا العراق وامتحنته الخطوب هذا الامتحان ، وهكذا كان العصاميون من عظماء الرجال .

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق محدودة وأسباب العيش غير متنوعة وأبواب الكسب لا تكاد تتجاوز رعى الغنم والإبل وشيئاً من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك باعثاً لقصار الهمم والعزائم أن يحترفوا قطع الطريق أو اغتصاب ما لا يملكونه من متاع سواهم ، ولهذا ظهرت بينهم جماعات السلب والنهب أمثال « عروة بن الورد » و « الشنفرى » وغيرهما ممن يسمون فى الإصطلاح « بالصعاليك » فكان هؤلاء أبغض الناس إليه ، بل كان لا يقل فى بغضه لهم وكراهيته إياهم عن بغضه للذين يستجدون إحسان غيرهم .

وعلى رغم كون دينه حث على التصديق والبذل وزكاة الأموال والزروع ، كان يرى أن هذا الذى يؤخذ من أموال الأغنياء على هذا الأسلوب قدر يتعفف عنه المسلم ، ويرتفع عن أخذه كل ذى همة عالية ، وخير للرجل أن يأخذ حبله إلى الجبل فيحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم منعوه ، ثم يقول :

(١) سنن الترمذى - كتاب الزهد - باب ما جاء فى معيشة النبى وأهله ٥٧٩/٤ رقم ٢٣٥٧

(٢) سنن الترمذى - كتاب الزهد - باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٥٩٠/٤ رقم ٢٣٨٠ وسنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة ١١١١/٢ رقم

« بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »^(٢) ، ويقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه »^(١) .
ليعلم المسلم أن الذي يعيش لشهوته لا يساوى في نظر هذا الدين أحقر الأشياء .

اعتكافه وخلوته

في كتب السيرة كلها شبه إجماع على أنه - ﷺ - كان قبل مبعثه ميالاً إلى الخلوة توافاً إلى العزلة شديد الشغف بالانقطاع عن الناس لا يحب الصخب ولا يألف الضوضاء ولا يميل إلى الاندماج في مجتمعات اللهو ، ولا محافل الهذر فلما تكامل وعيه ونضج عقله ودق تفكيره وقوى شعوره بالكون وخالفه والحياة ونظامها والعالم وما فيه من حيوان وإنسان ، وكان قد عرف شيئاً عن ملة أبيه « إبراهيم » - عليه السلام - صارت العبادة همة والانقطاع إلى الله - جل جلاله - شغله الشاغل .

أما حقيقة شريعة « إبراهيم » التي كان يتعبد بها ويعبد الله على نسقها فأمر يدخل في باب الحدس والتخمين والظن والاجتهاد لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها كانت شريعة تضمنت هدياً واعياً وإرشاداً قوياً وأن القرآن تحدث عنها بكونها : ﴿ ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾^(٢) واليهود يزعمون : أنها صورة مكررة من التوراة ، والنصارى كذلك يزعمون أنها صورة طبق الأصل من الإنجيل .

وبالغ هؤلاء وهؤلاء في أن « إبراهيم » كان على تلك الملة التي هم عليها ترويجاً لدينهم الذي مسخوه بالعبث وغيروه بالهوى وبدلوه بالبهتان وحرفوه بالباطل وأدخلوا فيه ما ليس فيه ، وفضح القرآن دعواهم المزورة واقتراءهم الكاذب حينما قال : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾^(٣) .

وشريعة السماء على كل حال تهذيب وتقويم وهداية ونور ولا يمكن إلا أن تكون علاجاً للبشرية وصلاًحاً لحال الإنسانية في هذا الظلام الدامس الذي كان يخيم على الأفئدة فجعلها الوسيلة بينه وبين الله الذي امتلأ قلبه به ويقينه منه .

وهناك تحول هربه من الناس وفراره من صخب المحافل وبعده عن ضوضاء الدهماء واعتزاله لكل مكان يضم أهل الشرك أو عبّاد الأوثان ، إلى تفكير عميق في إنقاذ تلك الإنسانية الضالة والبشرية المعذبة فتطلع ببصره إلى السماء أملاً في قبس ترسله أو ضياء يكشف له معالم الطريق ، وساقته قدماه إلى مكان عال يجعله مع الكواكب في ارتفاعها والنجوم في مداراتها فكان في غار حراء يغذى فكره بالعزلة وينمي حسه بالخلوة ويرقق شعوره بالاعتكاف وطابت له هذه الإقامة ولذّت له تلك العبادة ، ورأى أن هذا العالم الروحي الذي تفتح له قلبه وانشرح به صدره وطاف فيه خياله لم تكن لتعدله لذة أو تساويه حياة ، ولذلك صار كلما فرغ زاده ذهب إلى أهله فتزود زاداً آخر ليواصل السير ويدوم العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر « محمد » - ﷺ - إلى جانب كونها رصيذاً روحياً ضخماً امتلأ به يقينه مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث وكانت سبباً في أن تكون صلته بالله خير ما يُمتع به فؤاده ، ولذلك يقول في بعض أحاديثه : « وجعلت قرة

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة - باب الاقتصاد في الأكل ١١١١/٢ رقم ٣٣٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٦١

(٣) سورة آل عمران الآية : ٦٧

عنى في الصلاة»^(١) لأنها صلة بينه وبين ربه حيث ينجيه بحاجته ويثبه شوقه ويطلب منه الرضا ولم تكن الصلاة وحدها هي هذه الفرصة التي أرضى الله فيها خواطره وحقق بها أمانيه من ذلك الارتباط الذي يبتغيه والتعلق الذي ينشده ، بل شرع له الصوم الذي هو إمساك عن الأكل والشرب والجماع واللذة وفيه يتجلى كبح النفس بالطاعة وكفها بالحرمان وتهذيبها بالرياضة وتأديبها بالجوع ، وهو - كما ترى - سمو بالروح ، وترفع عن المادة ، وبعد عن الناس واتصال بالله لا يقل عن ذلك الذي يكون بالخلوة وتحيى من طريق التجرد عن الدنيا .

وكانت الشريعة في جملتها عناية بالروح وتطهيراً للقلب وتزكية للنفس وتربية للجوارح وكانت النية في العبادات وهي معنى وجداني بحث شرطاً في صحتها وعاملاً من عوامل قبولها ، ويحاسب الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواء بسواء « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »^(٢) . بل إن في هذه الشريعة كثيراً من المعاني التي ترضى نزوعه - ﷺ - إلى الخلوة وميله إلى التأمل في صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، وحث صارخ على النظر في النجوم والكواكب والصحارى والبحار والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة والحظوظ والأرزاق والصحة والمرض والشقاوة والسعادة ، وهي سياحة طويلة في ملكوته وسفر مترام في مدى قدرته ليكون وراء ذلك كله التسليم له بالربوبية والإذعان له بالعبودية والإيمان بأنه وحده « لا شريك له ، له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف في المساجد . . وفي حديث السبعة الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحد هؤلاء السبعة .

الرجل الذي تعلق قلبه بالمساجد فهو لا يغادرها إلا على شوق العودة إليها والاعتكاف فيها ، وكان - ﷺ - إذا جاء العشر الأواخر من رمضان شمر عن ثيابه واعتزل أهله ، واعتكف في المسجد . ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول الكريم - غار حراء - الذي كان يتردد عليه ويلتجئ إليه كلما حزبه أمر أو اشتد به هم ، هو الابتداء للفرج الذي أصابه وللخير الذي أغدقه الله عليه ، إذ عليه جاءه جبريل الأمين بالرسالة وبشره بالاختيار ، وبلغه عن ربه قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴿^(٣) ثم توالى الغيث واسترسل .

قصة القراءة

جاء في البخارى وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « أول ما بدىء به - ﷺ - الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى

(١) سنن النسائي - كتاب عشرة النساء - باب حب النساء ٦٢/٧ ومسند أحمد ٣٧٣/٦ ، ٤١٧

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ١٥١٥/٣ رقم ١٥٥

(٣) سورة العلق الآيات : من ١ - ٥

خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء ؟ فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ؟ فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، فرجع بها رسول الله - ﷺ - يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زمملوني زمملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - : لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى « ابن عم خديجة - وكان امرأ قد تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل ما شاء الله له أن يكتب - وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخي ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله - ﷺ - خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل على موسى ياليتني فيها جذعاً ، ليتني حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله - ﷺ - : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي » (١) .

وفي هذه القصة دليل قاطع على أن الطابع التي تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام والفقه في الدين والدراية الواسعة بما في هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة وخيرات سخرها الله للإنسان وذلّلها للناس ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه - ﷺ - هو طلب القراءة : « اقرأ » ، ومتى أزال المرء عن نفسه غشاوة الجهل وقبس من نور العلم واهتدى بالمعرفة ، كان من السهل عليه إلى حد بعيد أن يتجه إلى الخير وأن يسلك سبيل الصواب وأن يكون في كل تصرفاته وأعماله على سنن الحق ومنطق الصدق وشرعة الإنصاف وكأنما العلم في هذه الدنيا هو الشعاع الهادي والمصباح المنير .

وهنا لفظة جميلة لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو يخطر بها الخطور الخاطف ولكنه يتأملها تأمل الفاحص ويتروى في أخذ العبرة منها تروى العاقل ، وتلك هي تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو الأخرى ، ليفهمه - ﷺ - وتفهم أمته معه أن الذي يطلب الأمر العظيم لا بد أن يحتال له ، ويجد فيه من غير ملالة ولا سأم ، وألا يكون الإخفاق فيه ، أو عدم الحصول عليه سبيلاً إلى اليأس منه أو قطع الرجاء فيه فمن جد وجد ومن زرع حصد .

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطراً وكل إنسان يدعو إلى مكرمة أو يحاول تقويم معوج أو ينادى بمبدأ من المبادئ أو يوجه جماعة من الجماعات إلى طريقة مثلى وخطة سليمة أو عمل نافع من شأنه أن تصادفه العقبات وتواجهه المصاعب وتقف في سبيله العراقيل ، فيوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والاستهانة بالجهد المبذول والتعب الحاصل والشدائد الطارئة التي يكون من أهونها المطاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصدقاء ولقد كان حديث « ورقة بن نوفل » للنبي - ﷺ - وقوله له : « ليتني حياً إذ يخرجك قومك . . لم يأت رجل قط بمثل ما أتيت

به إلا عودى ، بمثابة التأويل لهذا الضم الذى حصل من جبريل إلى حد أن بلغ منه الجهد ، فإن التاريخ الذى مر به - ﷺ - والشدائد التى لاقاها والخصومات التى قامت فى وجهه والحروب التى خاض غمارها من أعداء الدعوة كانت تطبيقاً لتلك الصورة التمثيلية الرائعة التى مثلها أمين الوحي وتصديقاً - كذلك - لقول « ورقة بن نوفل » : لم يأت رجل بمثل ما أتيت به إلا عودى . . . ولكن محمداً - ﷺ - على الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل والخوف الذى اعتراه والهلح الذى أصابه وتنبؤ ورقة بإخراج قومه له وعداوتهم إياه لم يثن ذلك من عزمه أو يفتل طموحه أو يطفىء نار الشوق إلى الغاية التى كان يترقبها وظل بعد ذلك يود أن تتكرر الحادثة وكان بصره دائماً يتطلع إلى السماء وقلبه دائماً مرتبط بغار حراء رجاء أن يتجلى الله عليه وتحفه الرحمة منه فلما فتر عنه الوحي ظلت جوانحه تغلى وفؤاده يخفق وعروقه تتمزق وأخذ اليأس من الدنيا يعاوده والكراهية للحياة تعتريه . . . إلا أن كلمات خديجة التى وجهتها إليه فى ساعة الفزع - إذ قال لها لقد خشيت على نفسى - كانت فى أذنه فى كل وقت أشبه بالموسيقى الحلوة والنغم الحبيب يذكرها بينه وبين نفسه : « لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق » ويحاول أن يطمئن إلى أن ربه أكرم من أن يخذله أو يخزيه مع ما هو عليه من خلال وما هو فيه من طاعة .

والبطولة التى تبدت فى موقف خديجة - مع أن الزوجة أجدر بالجزع وأحق من غيرها بالفزع - تدل على أن العزيمة القوية والإيمان الصادق والعقل الراجح والرأى السديد وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجل بلسم جراحه ، وراحة نفسه ، وظل له إذ اشتدت عليه حرارة الشمس ، أو تضاعف عليه لفح الحياة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ ^(١) فإن العاقل يفهم معنى قوله تعالى : « لتسكنوا إليها » تمام الفهم ، من مثل هذا الموقف الذى وقفته خديجة منه - ﷺ - والرجل تصيبه المتاعب وتعتريه الهموم وتتراكم عليه المصائب فتضيق الدنيا فى وجهه وتلتوى المسالك أمامه ، فلا يشع له بصيص النور إلا فى وجه شريكة حياته التى تمسح دموعه وتداوى آلامه وتحمل همّه وتحفف مصابه ، بما تكنه له من ود ، وتضممه من إخلاص ، وترجوه من خير ، وتحلم به من أمان وآمال .

ما ودّعك ربك !!

على الرغم من الخوف الذى اعتراه - ﷺ - والفزع الذى أصابه والهزة العنيفة التى كادت تقصف بقواه ، لولا ما كان من أمر « ورقة » وعزاء « خديجة » فإن شعوره بالشوق الحار إلى معاودة الوحي إياه وملاقة جبريل له - كانت تُقصّ عليه مضجعه ، وتملك عليه تفكيره كله ، فكان دائم الرغبة إلى تكرار ما حدث ورجوع ما كان وبلغ من حنينه إلى الملك وحبه له وظمئه إلى مشاهدته أن كان يزرع الأرض بقدميه صاعداً إلى حراء أو هابطاً منه متلفتاً هاهنا ، علّ صوتاً يسمعه ، أو نداءً يقرع أذنه أو بشيراً يقابله أو هاتفاً يناجيه أو نوراً يسطع عليه ليطمئن خاطره ، ويذهب قلقه وتبدد وساوسه وينقض بأسه أو تنقشع

عن تلك السحابة من الحزن الذى كان يلزمه من جراء حالة المرجفين وحديث الشامتين الذين كانوا يملأون مكة أن محمداً قد تركه ربه وبغضه مولاه وانصرف عنه ذلك الملك الذى كان يزعم أنه ينقل له خبر السماء ويبلغه التحيات المباركات عن خالق الكون كله ، ولا يؤلم المرء أو يحز في نفسه أو يسىء إلى شعوره ويكدر خواطره مثل الشدة بعد الفرج والإحجام بعد الإقدام ، والنقمة بعد النعمة والشر يجرى بعد الخير .

وقد ظل هذا الحرمان الذى ابتلى به مدة يختلف المؤرخون في تحديدها على أقوال متضاربة وآراء متباينة من أربعين يوماً إلى ثلاث سنوات إلا أنهم لا يختلفون في أنها أشد أيام مرت به وأوجع شدائد صادفته وآلم فترات عاشها في الحياة .

ونحن من جانبنا إنما نتصورها أسلوباً من أساليب التشويق الذى يقول عنه علماء التربية : إنه أحسن الوسائل للتعلم بالمطلوب والتلقى له والحرص عليه ووعيه وعياً لا يخامره شك ، ولا يداخله ريب وقد كانت كل خطوات جبريل معه - ﷺ - تربية وتهذيباً وتعليماً وتوجيهاً وإرشاداً ليكون منها بعد ذلك كله أحسن المواعظ والعبر « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » .

على أن الوحي بعد هذه الفترة قد أروى ظمأه وشفى غيظه وأذهب غليله وأرضى خاطره وبدد همومه وأحزانه بما أسبغه عليه من بر وأضفاه عليه من معروف وأشاعه فيه من أمل ورجاء : ﴿ والضحي * والليل إذا سجي * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فاوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ ^(١) ومحمد - ﷺ - بإجماع المنصفين من فحول البلاغة لا يدانيه أديب ولا يدرك شأوه فصيح ولا يجرى في حلبته إنسان وقد وجد في هذا الخطاب الذى وجه إليه والأسلوب الذى تحدث به الوحي غمطاً من القول ولوناً من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل ، سحره تصويره وخلبه بيانه ، وامتلات منه نفسه بما له من روعة وما فيه من حسن ارتفع إلى سماء عالية فلم يسعه إلا أن يقف منه موقف الذاهل إعجاباً بتمكنه من التأثير عليه تمكناً أنساه ما كان يعانيه قبل ذلك من حرارة الحرمان ولوعة الفراق .

ولقد رأى - ﷺ - قوله سبحانه : « والضحي والليل - الآيات » خطاباً يلامس وجدانه ويشير أحاسيسه فهو يقسم له بالضحي والليل وبهما يذكر محمد ليل همه وظلام حيرته وضيق صدره وجرح نفسه وتراكم هواجس وكأنما يتخيل باقترانها ومجىء الضحي آخذاً بتلابيب الليل : أن مع العسر يسراً ، وبعد كل ضيق فرج فيتطامن ويهدأ ويسكن ويسكت .

وفي ذلك العرض الإجمالى لتاريخه : ﴿ ألم يجدك يتيماً فاوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ تأخذه الدهشة لأنه تصوير ناطق وتعبير صادق لم ينحرف عن الواقع وكأنما كان حاضراً معه ، فينتقل من تلك الدهشة التى تبعث الرهبة في نفسه والمهابة في قلبه إلى قوله : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر ﴾ فيجد الحنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف ويستريح الراحة كلها

لهذه الوصية الأكيدة التي يوصيه بها ربه لأنه ذاق اليتيم ، وعرف مرارة الحرمان التي قد تحمل صاحبها على ذل السؤال وكأنما يناجيه فؤاده بأن شيئاً من ذلك كله لا يكون منه ، ثم يعود إلى ذلك الصوت الذي يهز ضميره : ﴿ وللاخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فيحمد الله على هذا الوعد الحلو والبشارة الصادقة .

وهكذا جو من البهجة والرضا والسعادة والأمل والغبطة والارتياح ينسى بها كل شدة كانت وكل كرب كدّر صفوه وأتعب خاطره وهو ما بين الاحتفال بشأنه والعناية بأمره والوعد له والرعاية التي تحيط به من كل جانب في جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

لكنه - ﷺ - مع ذلك كله كان يقف في الميدان وحده إلى أن آمنت به زوجته خديجة وصارت تصلي الصلاة التي علّمه إياها جبريل وتسبقها بالوضوء والطهارة وتقرأ ما يقرأ من القرآن وانحصر تفكيرها كله في الوقوف إلى جانبه بما لها وأهلها وذوى قرابتها ، وانقلبت عاطفتها له من زوجة تنظر إليه كزوج إلى مؤمنة مخلصه صادقة ، تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معاني الزوجية فترضاه وترجو أن يشملها بما أفاض الله به عليه من الهدى والإرشاد وكان إحساسه منها بذلك كله يشد أزره ويقوى ساعده ويبعث في نفسه الإيمان بأنه منتصر لا محالة طال الأمد أو قصر . .

ثم آمن به من الغلمان « على بن أبي طالب » الذي كان يتربى في بيته والذي أراد النبي - ﷺ - بصنيعه - معه أن يرد لعمه أبي طالب بعض جميله عليه إذ كفله صغيراً بعد انتهاء كفالة عبد المطلب . . ولم يتدنس على - كذلك - بشيء من دنس الجاهلية - لذلك قيل عنه كرم الله وجهه !!
وآمن به - أيضاً - مولاه « زيد بن حارثة » ، وآمن « أبو بكر » وكان وجيهاً في قريش يهابونه ويحترمونه ويكبرون رأيه وتفكيره فكان لإيمانه أثر بارز وفائدة عظيمة حيث قفى على أثره « عثمان بن عفان » ، و « طلحة بن عبيد الله » ، و « عبد الرحمن بن عوف » ، و « سعد بن أبي وقاص » وغيرهم ممن قوى بهم ظهر النبي وصار حديث الإسلام يتهامس به العرب في كل مجلس .

تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ

كان أبو هب اللعين عمّاً للنبي - ﷺ - يجمعه به آصرة الرحم والقربة وشيعة الحسب والنسب واللحم والدم والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم وأكثر حمية لأهلهم وذوى قرابتهم ولا يحتملون فيهم أذى ولا يقبلون أن يلحق بهم ضرر أو ينافهم مكروه معظم ما كان يقع بينهم من حروب ، تراق فيها الدماء وتزهق النفوس يرجع سببه الأصيل إلى الحمية للقربة والدفاع عن العرض أو الانحياز إلى جانب النسب .

والعقل البشري لا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا الرجل - على ما بينه وبين النبي من القربة - يحقد عليه هذا الحقد - ويبغضه هذا البغض ويشغل بعداوته والصد عنه والتنفير منه وإقامة الأشواك والعقبات في طريقه إلى هذا الحد ؟!

ولقد دفعت الحمية لمحمد - ﷺ - والغيرة عليه والعصبية له « الحمزة بن عبد المطلب » وهو أخ لأبي هب أن يعلن إيمانه بآبى أخيه رداً على ما بلغه عن أبي جهل من تطاوله على محمد وسخريته منه .

فهل يدور بخلدنا أن القرابة غير القرابة والوشيجة غير الوشيحة والدم غير الدم ؟ أم أن الجهل هو الذى يطمس على البصائر ويحول بينها وبين أن ترى الحق وتتبع سبيل الرشاد ؟
ويكفى أن التاريخ الذى لا يظلم أنزل كل إنسان المنزلة التى تليق به والمكانة التى تناسبه وهذا هو أبو لهب يكوى بميسم من نار إلى جانب ذلك التشنيع الذى أصابه والعار الذى لحق به وامراته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد وهو ازدراء وتنكيل لم يكن محمد ليقدر عليه ولا يستطيع أن يلحقه بأبى لهب ، ولو كان أحد من العرب صنع ذلك الصنيع بأبى لهب لزجر وغضب ، وأقام الدنيا وأقعدها ، ثم جعل الأرض ترتوى بدم القتلى ، وبخاصة لذلك الازدراء الذى يجعل زوجته من الابتذال والمهانة بتلك المثابة ، وللمرأة عند زوجها تقدير عظيم واحترام بالغ يجعلانه يجود لها بنفسه ويبذل فى سبيلها أغلى ما يملكه ، لكن الذى فعل بأبى لهب ذلك هو جبار السموات والأرض ، لهذا فإن أبا لهب ذهل ودهش ، ولم يملك إلا الحقد الدفين والكيد الخفى والعداوة الكاشمة أما زوجته فقد صنعت ما تصنعه المرأة وذهبت من غيظها بسلى جزور ورمت به النبی - ﷺ - وهو ساجد لربه فى إحدى صلواته .

وسبب هذه القصة الطريفة أنه - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فتر عنه الوحي وترضاه الله بعودته إليه ، وكان قد آمن به أبو بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من ذوى المكانة فى العرب ، وكانت الدعوة لا تزال فى الخفاء لا يجرأ أحد على إعلانها ، ولا يستطيع إنسان أن يرفع رايثها ، واتخذ المسلمون دار « الأرقم بن أبي الأرقم » مخابئهم الذى يجتمعون فيه ويتدارسون لئلا يتعرضوا للأذى أو يستهدفوا للضرر وظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى نزل عليه الوحي بقوله جل جلاله : ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين ﴾^(١) عسى أن يكثر بهم سواده ، أو تتمكن منزلته بينهم أو تقوى آصرته فى جوارهم فلم يسعه إلا أن يمثل أمر مولاه ، وفى هذه الآونة صعد الصفا ونادى : « يا صباحاه ! » وهى الكلمة التى كانوا يقولونها عند الدعوة للحرب والنفير للقتال وكانوا يرون تلبيتها والاجتماع بها من أوجب الواجبات وأقدس الأمور فلما سألت عليه شعاب الحى من كل ناحية وغص بهم المكان ، قال لهم : « رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقني ؟ » وهنالك قالوا له : « نعم . . ما جربنا عليك كذباً ! » فقال - ﷺ - : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! . . إنكم لتموتون كما تنامون ولتبعثون كما تستيقظون ولتعجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدأ أول نار أبدأ » وإلى هنا كان المنطق الفطري يقضى بصحة الموقف وسلامة العاقبة وقبول الدعوى أو رفضها ، لأن محمداً - ﷺ - قد أتى البيوت من أبوابها وخاطبهم بالعاطفة والعقل فى آن واحد وأخذ منهم صكا على أنفسهم بأنه صادق غير كاذب فلم يكن إصرارهم على الباطل بعد ذلك كله إلا مكابرة وعناداً كان الأليق بهم أن يتحاشوها ولذلك كان هذا الرد من أبى لهب على الرسول الكريم : « تبا لك : ألهذا جمعتنا ؟ » ومع كونه تصويراً للطيش ودليلاً على الحمق لا يستحق إلا هذا الردع القاسى والرد المؤلم : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب . . ما أغنى عنه ماله

وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد^(١) وكانت تشى
بالنبي عند قريش لتؤلبهم عليه وكأنها بذلك تحمل الحطب لتشعل به النار ، وكأن في عنقها حبلًا من ليف
لتحزم به ذلك الحطب وهو تصوير - كما ترى - يسمو على كل تصوير .

وقد كان في الشعر الجاهلي هجاء يتناول الأخلاق والأعراض ، وينال من العلية والسفلة والكبار
والرؤساء والعظيم والحقير وكان العرب يثرون الثورة العارمة لهذا الهجاء إلا أنه كان في الكثير الغالب من
النوع المبتذل أو الأدب المكشوف ، يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه .

وهذا الهجاء الذي أصاب أبا لهب كان من طراز جديد ، لأنه لم يعد أن أظهره مع ماله وولده في هيئة
الذليل الحقير أمام عقاب الله له يوم القيامة ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ وأن امرأته التي هان شأنها
وذهبت كرامتها وابتذل عرضها لا تعدو أن تكون في صورة ﴿ حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾
وأمام هذا التهديد المقلق والهجاء المقذع والتنكيل الشديد بأبي لهب بدأت دعوة محمد - ﷺ - ترفع رأسها
وابتدأ وابتدأ المسلمون - كذلك - يسفّهون معبودات المشركين ويعيبون آلهتهم الباطلة ويعلنون أن الإسلام
حق لا مرية فيه ، حتى إذا ما بلغ عددهم الثلاثين ، وكان « الحمزة بن عبد المطلب » ، و « عمر
بن الخطاب » وهما دعامتان قويتان للمسلمين ، قد أسلما ، نزل عليه ﷺ قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر
وأعرض عن المشركين ﴾^(٢) وهنالك أخذت الدعوة طوراً آخر تجاوزت به مرحلة الهمس إلى مرحلة
الإعلان .

رَجُلَانِ

رجلان كانت الدعوة الإسلامية تتقرب بفارغ الصبر لحظة انحيازهما إليها ، ووقوفهما إلى جانبها
يدافعان عنها ويشدان من أزرها ويجعلان كفتها ترجح على كفة الشرك والمشركين كلاهما بألف رجل
أويزيد لأن بطولته النادرة وشجاعته الفذة وصراحته البالغة من شأنها أن تجعل قريشاً تسكت عن
« محمد » - ﷺ - وتخشى بأسه وتحسب لحربه ألف حساب ، أولهما « الحمزة بن عبد المطلب » - سيد
الشهداء - وثانيهما « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه .

أما الحمزة هذا فكان سبب إسلامه غيرته على الرسول وحميته له وغضبه لأجله وكراهيته أن تنال منه
يد آثمة مهما كان شأنها وقد رووا أن أبا جهل - قبحه الله وأخزاه - تلاقى بالنبي ﷺ عند الصفا فازدراه
وسخر منه ، ثم لطمه على وجهه وسرى ذلك الخبر في شعاب مكة وقابله الناس بالبشاعة والاستنكار
والوجوم والسخط وعدم الرضا والارتياح ، وكان « الحمزة » في لهو عن ذلك كله لاشتغاله بالصيد والقنص
والرياضة في الصحراء بعيداً عن العمران فلما رجع من رحلته وحضر من سفره وانتهى إليه هذا الخبر المؤلم
لم يستطع الصيد ولم يقدر على الأغفاء ولم يحتمل مع كفره وكونه جندياً من جنود المعارضة لابن أخيه أن
يسكت على هذا الضيم الذي أصابه في أهله فذهب إلى المسجد وأخذ بتلايبب أبي جهل وضربه بالقوس

(١) سورة المسد الآيات من : ١ - ٥ .

(٢) سورة الحجر الآية : ٩٤ .

على ناصيته ولما شجرت رأسه وسال دمه وأراد بعض أصحاب أبي جهل أن يثأروا له أمرهم أن يكفوا ، وقال لهم : أنا الباغي وعلى الباغي تدور الدوائر وأفهمهم أنه تطاول على ابن أخيه ظلماً وعدواناً .
وفي هذا الوقت لم يسع « الحمزة » إلا أن يواصل سعيه لشفاء غليله من أبي جهل وفريق المشركين أجمعين فذهب إلى ابن أخيه وأعلنه أنه منذ هذا اليوم قد صار جندياً من جنود الله في ميدان الدعوة إلى دينه ، والدفاع عن شريعته ثم ظل إلى جانبه - ﷺ - وكان الرسول يحبه حباً لا مزيد عليه ولأن الذي قتله (وحشى) - عبد جيد بن مطعم - في غزوة أحد كان لا يحب أن يراه على الرغم من أنه أسلم بعد ذلك - والإسلام يجب ما قبله - ولذلك يحكى هذا القاتل عن نفسه : أنه كان أشد الناس ألماً لما كان من الرسول له وظل ذلك يحز في قلبه ، وكان يود مخلصاً أن يرضى عنه الرسول ، ﷺ فقيض الله له أن يقتل مسيئمة في خلافة أبي بكر فاطمأن خاطره ورجا من الله سبحانه وتعالى أن يكون ذلك إرضاءً للنبي - ﷺ -

وثاني الرجلين « عمر بن الخطاب » الذي لم يجد الزمن بمثله في تاريخ الاسلام والمسلمين عدالة وإنصافاً وصرامة على الباطل وتمسكاً بالحق ودفاعاً عن الدين ودفعاً لرأية القرآن واعتزازاً لكلمة الله ، وإرهاباً للمشركين وإذلاً للمعاندين وتوطيداً لدولة محمد - ﷺ - وقد كان في كفره درعاً للشرك وسيفاً للشيطان وقوة لخصوم الدعوة وكان السبب الذي جعله يفيق من غوايته ، يثوب إلى رشده ويشرح الله صدره للإسلام أنه أخذته الحمية لما فعل « الحمزة » بخاله أبي جهل فهام على وجهه وأخذ طريقه إلى « محمد » ليقتله وبينما هو في الطريق لقيه أحد أصحابه فقال له : إلى أين يا عمر ؟ فأخبره الخبر ، فأنكر عليه القصد وقال له : كان أولى بك أن تعمل ذلك بأهل بيتك لقد صبئت أختك هي وابن عمك زوجها ! وما كان (عمر) يدرى من أمر هذا قليلاً ولا كثيراً فغلى دمه في عروقه وبدأ على وجهه الغيظ وحول قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما في بيتهما وحول قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما كالأسد الهصور ولما أشبعهما ضرباً نظر إلى وجه أخته الذي كان يسيل منه الدم فسكن نائره وهدأت حدته وكانت قد أخفت بعض صحائف من « القرآن » .

فقال لها : ما هذا الذي واريته عني ؟ قالت له : إنه كلام رب العالمين فطلب منها أن تواصل القراءة لسمع هو إلى ذلك فظلت تقرأ في سورة (طه) إلى أن وصلت إلى قوله تباركت أسماؤه : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ، فَلَا يَصْدُنْكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ (١)

وهناك تطامن الأمر من (عمر) ، وزال غضبه وتحولت غلظته إلى رقة وكراهيته إلى محبة وجحوده إلى إيمان وأحس كأن الأرض تميد به وأن السماء تنطبق عليه وأن يوم الحساب قد حضر وأنه قذف به في جهنم فصاح بأعلى صوته أين الطريق إلى محمد ؟ لأقتبس من نوره وأروى الظمأ من رحيقه وأمتع النفس بعذب بيانه وكان المسلمون يترقبون في كل وقت من « عمر » أن يفتك بهم أو يتطاول عليهم لذلك أخذ كل

منهم يقول : أنا أكفيكم شره وأرد عنكم عدوانه وقال النبي - ﷺ - « بل علىّ به فإنّي أقدر عليه منكم » واستقبله النبي بقوله له : « أما آن لك أن تهتدى يا عمر ؟ » .

وكان رد عمر بالاذعان والتسليم والايمان والانقياد واعلان الشهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأشاع خبر انضمامه إلى معسكر المسلمين الذعر والهلع في نفوس المشركين وأخذ المسلمون يطوفون معه على مجالس قريش ومنتدياتها ليقوعوا في قلوبهم الرعب ولم يرض « عمر » منذ أعلن إسلامه أن يكون المسلمون في خفية بدينهم وقال للنبي - ﷺ - : « يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ » . قال له : نعم يا عمر ، فقال له : علام نرضى الدنيا في ديننا ؟ وهنالك أمر - ﷺ - بالجهر بالدعوة .

وتاريخه - رضى الله عنه - حافل بالأعجاز ، ملئ بالمكارم يعطى الصورة الرائعة عن الحاكم الاسلامى العادل ، والجندى المجهول في مؤازرة الحق ، ومعاونة الانصاف ، وفي الوقت الذى رغم أنف كثير من المؤمنين على أبى بكر لأن تكون الخلافة له من دونهم كان هو يساعده ويساعده وينصح له ويشير عليه كان « أبو بكر » لا ينسى له ذلك ولا يغمطه بل كان دائماً أبدأ كلما أثار له الطريق أوفتح في وجهه المغلق يقول له أمام الأشهاد : « لقد كنت أولى بها منى يا عمر » ولا يرى أن ذلك يضيع كرامته أو ينزل بقدره ، أو يحمل الناس على أن يتمرّدوا عليه .

ولعمر فضل التحرر والانطلاق وعدم الجمود في الشريعة الاسلامية لأنه كان - حتى والوحى ينزل - إذا لم ينقدح في ذهنه الحكم أو لم تظهر فيه حكمة التشريع يسأل ويستوضح ولا يرضى أن يأخذ قضية مسلمة بل كان هو بنفسه مدرسة للمسلمين تعلموا منها حرية الرأى والعلة تدور مع الحكم وجوداً وعدماً وأمثال ذلك من القوانين التى تدل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان .

والله يا عمى .. !!

كان لزاماً على « محمد » - ﷺ - وقد أمره ربه بإعلان الدعوة ونشر الرسالة . وبخاصة بعد أن انضم إلى معسكره بعض الكبار أمثال « أبى بكر » « وعمر » « وعثمان » « وحمة بن عبد المطلب » وهم قوم لهم منازلهم المرموقة ومكانتهم المحترمة ، وبعد أن صار أبو جهل واضرابه من المعاندين يشتغلون ليل نهار في مناوآته والكيد له والتنفير منه والتشويه لدعوته لذلك أخذ يبرز في المحافل ويذهب إلى الأسواق فيستجيب له من يستجيب .

وكانت تلك الحال أشبه بحرب باردة قامت بينه وبين قريش فصارت تؤمن إيماناً لا يخامره شيء من الريب أن مجد زعمائها مقضى عليه وجاههم في سبيله إلى الزوال وسلطانهم آخذ في التقلص وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة لأن الدين الجديد الذى جاء به محمد - ﷺ - وإن لم يكن ملكاً سيقوم على أنقاض ملكهم ولا سلطاناً سينازعهم السيادة - إلا أنه يذيب الفوارق ، ويمزج بين الطبقات وينفر من التسلط ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب والثروة المغتصبة والغنى من غير الطريق المشروع ولا يملك للأناية الجوفاء ولا الأثرة البغيضة .

وقد كانت السدانة على البيت الحرام والرياسة على العرب وحق الفصل في الخصومة والحكم في الديات والتقدم في المجتمعات سمات بارزة تميزهم على غيرهم وإذا استرسل ذلك الداعي في دعوته فسوف يكونون سوقة بين الناس لا يمتازون عن غيرهم بفضل ولا يتقدمون بجاه ولا يشرفون بحسب ولا نسب لأن « محمداً » يقول : « الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى »^(١) وهنالك أجمعوا أمرهم على الوقوف في وجه « محمد » مهما كلفهم ذلك كله من ثمن وشرعوا يتخذون مختلف الأساليب فلما أعتيهم الحيل كلها لم يجدوا إلا الالتجاء إلى « أبي طالب » ظناً منهم أنه هو الذي يحمي ظهره ويقف بجانبه فإذا تخلى عنه صار من السهل عليهم أن يردوه أو يمنعوه من المضي في سبيله .

وكان الالتجاء إلى « أبي طالب » في لين وسياسة وترغيب وإغراء حيناً أو في شكل تهديد ووعيد وسخط وغضب حيناً آخر فمرة يعرضون عليه أن يتبنى بعض الفتيان الذين فيهم وسامة وحسن ، وقوة وجلد على أن يسلم لهم ابن أخيه ليفعلوا به ما يريدون فيقول لهم أبو طالب :

« بش الرأي ما ترون » ومرة أخرى يمتزج الوعيد بالوعد والرغبة بالرهبة والأمن بالتخويف والرضا بالغضب ، إذ يقولون له : إن كان ابن أخيك يريد ملكاً ملكناه علينا وإن كان يريد المال أعطيناه حتى لا يرجو مزيداً وعليه بعد ذلك أن يكف عن آلهتنا التي ازدراها ومعبوداتنا التي حقرها وإلا فإن لنا معك ومعه حساباً آخر وسلوكاً جديداً وأبو طالب أمام هذا القول يقف موقف الحيرة ويظل يفكر في أهله وقومه كما يفكر في ابن أخيه الذي لا يصح له أن يسلمه أو يخذله أو يخيب رجاءه فيه وفي تيار هذه الوجدانات المتناقضة والعواطف المضطربة ، يذهب إلى (محمد) - ﷺ - ليأمره أن يكف عن إيلاهم لهم وعدوانه عليهم وإحراجهم إياهم وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذي عرضوه والعدة الطيبة التي وعدوه بها وفهم - ﷺ - من حديث عمه أنه ينوى أن يتخلى عنه ، فلا يقف له دونهم فأغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتمى بربه ويستعين بخالقه ويعول على القوى القادر ، ثم قال له في لهجة المطمئن الواثق : (والله يا عمي ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما رجعت عن هذا الأمر أو أهلك دونه)^(٢) فرق قلب « أبي طالب » وقال له يا بن أخى قل ما شئت فوالله لا أتخلى عنك ولا أخذلك ولا أسلمك لهم . . !

ومن حق الأديب البارع والفيلسوف الماهر والناقد البصير أن يقف أمام هذه الحملة التي نبعت من فيض إيمان « محمد » بربه وصدرت عن قلب امتلأ بجلال مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة ، ولا لدنيا الناس ولا لأكاذيب الجاه أو السلطان .

ترى هل كان يتروى في نسجها ويتأنق في صوغها ويفكر قليلاً أو كثيراً في تأليفها ، لتنتلق انطلاق السهم وتدوى دوى المدفع وتسير مسير الشمس فلا فم إلا وهو مرددها ولا لأس إلا هو واعياها ولا عقل إلا وهو مكبرها ويعجب بها أم أنها صدرت عن طبع وانحدرت عن سجية وحدثت من غير تكلف شأنها

(١) الدر المنثور للسيوطي سورة الحجرات ٥٨٠/٧

(٢) تاريخ الطبري ٣٢٦/٢ ودلائل النبوة للبيهقي ١٨٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٣٠/١

شأن الشهيق والزفير ، وهي وحدها تطوى ذلك التاريخ طياً في ماضيه وحاضره وتبرز لهذه الأمة سيرة المنقذ واضحة لا غموض فيها بسيطة لا تكلف معها .

وفي الحق أن اليقين الذي عمرت به نفسه والايمان الذي أنار بصيرته والثقة التي لا حد لها في خالق الخلق وبارئ النسم ومصرف الكون تجعله يسخر من كل هذه المظاهر وما الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والسماء والجاء والسلطان والنفوذ والحكم والرياسة والملك أو ما يسوى ذلك وذلك ؟ أليست كلها من خلقه جل جلاله ؟ ونتيجة حتمية لقوله : « كن » ولو شاء لأزالتها وسلبها بهجتها على أن الذي امتلأت يداه بأعظم من الشمس والقمر لا يفرح بهما ولا يطرب لحيازتهما وقد ملأ « محمد - ﷺ - » يديه برضا ربه عنه وحب مولاه له وأفعم قلبه الكبير به وهي ثروة - كما يرى - لا يكون القمر والشمس معها إلا هباءً منثوراً وما المال والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه إلا كمالاتاً نفسياً يطلبه المرء ليحجر به نقصاً كان به أو يغطي عواراً لحقه « ومحمد » - ﷺ - كما جاء في سورة الضحى - صنعه خالقه على عينه وأدبه سيده بأدبه وتعهد مولاه بعنايته ، وطهره بآرائه من رجس الشيطان فكان قلبه نقياً وفؤاده سليماً وضميره متيقظاً وروحه عالية وهمته بعيدة وعقله رشيداً وإيماناً حمياً . . . وكل هذه معان إذا أضفى الله - سبحانه وتعالى - رداءها على إنسان صار بها من الأبرار المقربين لا يف في غرض ولا ينحرف في قصد ولا يلتوى في سنن ولا يقصر في واجب ولا ينام عن مكربة ولا يقف دون غاية .

وهذه الكلمة التي قالها (محمد) - ﷺ - إلى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف واحتقار لما كان لديهم من دنيا وازدراء لما كان عندهم من موازين ترسم للمصلح الاجتماعي التصميم الجازم الذي يصير عليه والعزيمة القوية التي يتحلى بها وإلا كان جهده هزياً وعناؤه ضائعاً وسعيه خائباً . . . وذلك هو المنطق الذي وصل به الرسول الكريم إلى القمة وانتهى به إلى الغاية مع قلة عدده وكثرة خصومه .

عنت ومكابرة . . !!

التجأت قريش مع النبي - ﷺ - إلى العنت والمكابرة بعد أن فشلت في كل محاولة وخابت في كل سعى وأخفقت في كل جهد ظناً منها أن العنت والمكابرة ينطليان على الأغرار فيتسرب اليأس إلى نفوسهم ويسرى الوهن إلى أفئدتهم ولا يكون هذا الرسول في نظرهم إلا صورة للرجل المحرور ، أو الإنسان الأحمق ، الذي يقذف بالدعاوى طويلة عريضة من غير دليل يؤيدها أو برهان يصدقها ولم يدر بخلدهم أن زيفهم سينكشف وأن سحابة الصيف لا بد أن تنقشع : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ (١) كما لم يدر بخلدهم أن الخصم الذي يلتجئ إلى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن ضيق عطفه وسفاهة رأيه وطيش عقله وأنه لا يزيد شيئاً - في ميزان الحق - عن دموع المرأة التي تفرع إليها حينما يدركها الإعياء ويصيبها الهزيمة وهم أهل للدرد ، وأرباب بيان ودهاقين منطق وأصحاب بلاغة رائعة وما كان يظن ظان أنهم سينحدرون هذا الانحدار أو يسفون ذلك الاسفاف أو يتهافتون إلى هذا الحد .

والذى يتبع « القرآن الكريم » ليقف على ما كان منهم من عنت ومكابرة يجد الأعاجيب من أغاليطهم والأكاذيب فى دعاواهم ولعل ذلك كله يبرز بصورة واضحة إذ كانوا يتهمونه فيما يقوله عن ربه وينقله إليهم من وحيه ويزعمون أنه يمليه رومى كان يصنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمى » وقد قوى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومى من جنس له تشريع ولقومه ثقافة ومعرفة وأن هذا الذى يجىء به - ﷺ - فيه من المنطق وله من سيما التربية والتهذيب وعليه من مسحة الأخلاق والأدب ما يروج لتلك الشبهة المدعاة وتناسوا أن ذلك الكلام الذى يقرؤه « محمد » من معين عربى بحث وبيان لعربى محض ليست عليه سحنة الترجمة ولا فيه طابع النقل وقد كان أولى بهم وهم نقدة الكلام وأصحاب الذوق الأدبى ودهاقين البلاغة أن يلتفتوا إلى البون الواسع بين الجنسين ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾^(١) لكن ذلك على حد قول القائل : « كاد المريب أن يقول خذونى » ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ولهذا كانت محاولاتهم مفضوحة حتى بينهم وبين أنفسهم وليس أدل على فضيحتهم من أن « القرآن » لسحر بيانه وعذوبة منطق وقوة أسره ودقة تصويره كان يستهويهم جماله ويبههم نسجه ويأخذهم حسنة فلا يملكون أن يتحولوا عنه أو يميلوا إلى سواه وكانوا لذلك يختلسون الخطى ويتحينون أن تسنح لهم فرصة التنكر ، ليستمعوا منه بعضاً عما يقرؤه الرسول - ﷺ - حتى إذا ما فشا عليهم ذلك وعرف عنهم وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة وأن يتحولوا جميعاً إلى مفتونين بجرسه مأخوذين بسحر ألفاظه تعاقدوا على الكف وأكدوا بينهم الموائيق على ألا يفعلوا ثم كانت النتيجة المزرية أن كان يتلاقى كبارهم متلبسين بالجريمة فإذا تعاتبوا ادعى كل منهم أنه كان يتجسس على أخيه !!

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن من أنباء السابقين ، قصصاً جاء بها للاتعاظ وهو نوع من التربية الحكيمة الذى يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة أبنائهم كما قال سبحانه ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾^(٢) .

وظنوا - هم - أن « محمداً » يؤلف ذلك كله من خياله ويخترعه من وهمه قصداً إلى التلهى ليلتف حوله الفارغون من العمل المتعطلون عن الوظائف بعثوا « النضر بن الحارث » ليطوف على أهل القصص من الروم والفرس ، ليعارض « محمداً » ويحول الناس عنه : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾^(٣) وفاتهم أن الذى يقصه « القرآن » برهان قائم على أن « محمداً » لا يدعى ما يجىء به ولا يزعم ما يحكيه :

﴿ وما كنت بجانب الغرب إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكننا أنشأنا قرونا

(١) سورة النحل الآية : ١٠٣

(٢) سورة يوسف الآية : ١١١

(٣) سورة لقمان الآية : ٦

فتناول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتندر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴿١﴾ .
وهو تاريخ ليس عندهم علمه ولا بأيديهم كتبه ولا بين ظهرائهم رواته : ﴿٢﴾ إن هو إلا وحي يوحى ﴿٣﴾ .

وما كانوا يصدقون أن يكون الرسول من أبناء آدم بل كانوا يتوهمون أنه لا يكون إلا من الملائكة ﴿٤﴾ وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ونسوا أن الجنس أميل إلى جسسه وأن الإنسان يأنس للإنسان ﴿٥﴾ ولوجعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴿٦﴾ .

فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن وهزال هذا الرأي اتجهوا اتجاهاً آخر ﴿٧﴾ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿٨﴾ يقصدون الوليد بن المغيرة بمكة أو أبا مسعود بن عمير سيد ثقيف الطائف وقد قطع الله عليهم السبيل بقوله : ﴿٩﴾ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿١٠﴾ .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الإتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه والتسليم له ، ووصفوا بالحلاوة والطلاوة والاغداق وكثرة الثمر فإن حديثه يطول وحسبنا أن نقول : إنه تحداهم فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولم يبق بعد ذلك كله إلا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار والصراط والميزان والجزاء على الأعمال يوم القيامة وإعادة الأجسام بعد فنائها التي تعرض لها - ﷺ - في دعوته ، ليوقع الرهبة في نفوسهم والهلح في قلوبهم عسى أن يتخوفوا المصير ويحذروا سوء العاقبة وقد كانت هذه - أيضاً - محل تنذر عندهم ومجال تكذيب وشك ولا سيما الشجرة التي تنبت في أصل الجحيم ليأكل منها أهل النار فيشتد بهم الظم ولا يجدون ماء يرتوون به مبالغة في العذاب والإيلام ﴿١١﴾ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴿١٢﴾ والتي جاء ذكرها في آية أخرى في قوله جل جلاله : ﴿١٣﴾ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعتها كأنه رءوس الشياطين ﴿١٤﴾ ولم يعقلوا أن تعيش شجرة في النار أو تبقى على شدة اللهب وسبب ذلك أنهم قاسوا الدنيا على الآخرة وقدرة المخلوق على قدرة الخالق وما علموا أنه - سبحانه - على كل شيء قدير .

وقد كان (لخباب بن الأرت) دين على كافر من هؤلاء المعاندين فلما طالبه به وألح في الطلب وكان ذلك الكافر يريد أن يتخلص منه قال له يا خباب سأدفع لك هذا الدين يوم البعث مع أن عقلاءهم تحدثوا به وحكماءهم رددوه على ألسنتهم ولم ينكره هذا الإنكار إلا الملاحدة الذين كانوا يقولون - كما حكاه عنهم القرآن ﴿١٥﴾ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴿١٦﴾ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢٤

(٦) سورة الدخان الآيات : ٤٣ : ٤٦

(٧) سورة الصافات الآيتان : ٦٤ : ٦٥

(٨) سورة المؤمنون الآية : ٣٧

(١) سورة القصص الآية ٤٤ : ٤٦

(٢) سورة النجم الآية : ٤

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩

(٤) سورة الزخرف الآية : ٣١

الْمُعَذِّبُونَ

لما لم تفلح قريش في رد « محمد » - ﷺ - عن طريقه الذي سلكه ولا عن دعوته التي آلى على نفسه أن يمضى فيها إلى النهاية وقد خاب ظنها في « أبي طالب » الذي كانت ترجو أن ينتصر لها ويضرب بسيفها أو يسلم لهم ابن أخيه إستعملت معه أقذر الأساليب في الإيلام وأحقر الوسائل في الكيد ولم تكتف بالسخرية منه والاستهزاء به ولا بإلقاء الأوساخ عليه وهو مار في الطريق أو ساجد في الصلاة أو أن يكون ذلك كله من الصبيان والنساء لا من الكبار المرموقين كعقبة بن أبي معيط أو أبي جهل وهما من المستهزئين الذين نكل الله بهم وانتقم له منهم وأراه مصارعهم الذليلة ونهايتهم المحزنة . إستعملت أقذر الأساليب لتصرف عنه أصحابه وتفرق من حوله أتباعه ليقف هو وحده بعد ذلك أشبه بالخليع المعيل ولقد نجحت في ذلك كله إلى حد ما وأصبحت مكة ومنها من يعرفه ولا ينكره ويحترمه ولا يحقره لا تفتح أبوابها له ولا تأهل مجالسها به ولا تقبل كفارها بحال من الأحوال أن يعلن فيها محمد دعوته أو يرفع عقيدته أو يقول : لا إله إلا الله ، كما أصبح المسلمون هنالك مهددين بالردة أو معرضين لأقسى أنواع الإيلام والأذى ولقد ارتد فريق من هؤلاء الضعاف الذين أحسوا أنهم معرضون للموت وهكذا يكون العنت القذر والكيد الوضع والخصومات الفاجرة .

إلا أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن يشك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون الهوان ويحتملون الضيم ويمتحنون أشد أنواع الامتحان ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ (١) . إلا أن الإيمان الصادق والعقيدة الراسخة أو الأذعان القوى حينما يمتلئ بها القلب لا يبالي صاحبها بالعذاب ولا يابه بالموت ، وقديما آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت ضمائرهم بهديه وضاءت بصائرهم بدينه فلما هددهم بالقتل لم يكثرثوا لتهديده .

﴿ قالوا : لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمننا بربنا . ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ (١) .

وكذلك فعل أصحاب العزائم القوية من أصحاب محمد - ﷺ - فلم يفرطوا في دينهم أو ينفضوا عن نبيهم على الرغم من الجوع والعطش والمشقات التي كانت تترادف .

فهذا هو « بلال الحبشى » مؤذن رسول الله وقد كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحى يلاقى من مولاه هنا ما لا تحتمله الجبال ولا تصبر عليه البغال ثم لا يؤثر في عقيدته ولا يصرفه عن طيته ولا يجعل قناته تلين لغامزه إذ يخرج « أمية بن خلف » إلى الرمضاء في وهج الظهيرة ويأمره أن يلقي بجسده العارى فوقها ثم

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٤

(٢) سورة طه الآية : ٧٣

يكلفه حمل الحجر الثقيل ويقول له : « ستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين » محمد فلا يكون رده عليه إلا أن يقول : « أحدٌ أحدٌ » .

والتاريخ يحدثنا أن « أبا بكر » - رضى الله عنه - أنقذ كثيراً من الموالى أمثال « بلال » هذا ، إذ كان يشتريهم ثم يعتقهم .

ولعل إسلام الموالى وتعرضهم لهذه القسوة من أسيادهم دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ويقطع الحديد ولا يغلب سلطانه جبروت الطغاة ولا إرادة المتكبرين فى الأرض بغير الحق .

وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة التى تحالفوا على إنجازها من غير محاباة ولا استثناء ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ولا حى من الأحياء من عارها ، حتى « عمر بن الخطاب » انحدر فى ذلك قبل أن يسلم فنكل بجارية له وبالع في تعذيبها وطلب إليها أن تعود إلى عبادة اللات والعزى . ولم يفك خناقها ويحل وثاقها إلا شراء « أبى بكر » لها .

أما آل ياسر « عمار » وأبوه وأمه فإنهم صورة أخرى للفداء والتضحية والثبات على المبدأ والتمسك بالحق والتفانى فى ذات الله والاستهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب وتملأ الصدر ويحيى بها الروح فى دنيا من السعادة والبهجة والرضا استبد بهم بنو مخزوم يسومونهم الظلم ويحملونهم على الكفر وينكلون بهم التنكيل الذى تأباه الانسانية وتعافه الكرامة وتنفر منه الأخلاق والذى كان أقله التعذيب بلفح الشمس وحرارة الرمضاء الأمر الذى لم تقو عليه بنية الرجل المتهدم « ياسر » أبو عمار فلفظ أنفاسه فى زفير الحر وظمأ الكبد وجوع البطن وإيلام الروح ونصب النفس ولا سيما وقد رأى زوجته يطعنها أبوجهل اللعين فى قلبها الطعنة النجلاء التى تودى بحياتها ولبس بعد ذلك كله أسى تحجى به نفوس ناكبة عن الرشيد جانحة إلى الباطل منغمسة فى الشر متناسية للأخلاق متلاعبة بأبسط قوانين الانسانية .

ولعل رسول الله - ﷺ - كان ألمه أشد وهمه أكثر وعذاب نفسه أنكى وأوجع لأنه لا يملك لهؤلاء جميعاً سوى الرثاء والإشفاق والحسرة والعناء والمضامنة واللوعة وإن كان يقول لآل ياسر : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »^(١) .

أو يقول لخباب بن الأرت - الذى تضجر من قسوة تلك المحنة فطلب منه أن يدعو الله - سبحانه وتعالى - بكشف الغمة وتفرج الكربة : (يا خباب إنكم تتعجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد فلا يردده ذلك عن دينه)^(٢) الحديث .

وفى الحق إنها المحنة بلغت نهايتها فى الشناعة وغايتها من البشاعة والعرب الذين كانوا يغيثون الملهوف ويتدلون المعروف ويحسنون الجوار وينكرون الظلم ويأبون القسوة ، يتلوث تاريخهم بتلك المخازى وينحدر إلى ذلك المستوى .

(١) المستدرک للحاکم ٣/٣٨٨ والبيهقى فى الدلائل ٢/٢٨٢ ومجمع الزوائد ٩/٢٩٣ وسيرة ابن هشام ١/٣٩٥

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب علامات النبوة ٤/٢٤٤

أسئلة في الذهن ينهال بعضها في إثر بعض وتتزاحم في الرأس دون أن تظفر بالجواب ؟ .
لكن الذى يعلم قذف النمرود لابراهيم - عليه السلام - في النار ويتصور قصة أصحاب الأخدود
التي ورد ذكرها في القرآن ؛ ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على
ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ (١) .

يؤمن أن الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان كما يؤمن أن الفضائل التي كان العرب يتمدحون
بها لم تكن لها من الأصالة في النفس والتمكن من القلب والرسوخ في الخاطر ما يجعلها تبرز بالدم وتتغلغل
في الروح فتصور الأفعال على مقتضاها صدورها عن العقيدة .

وذلك هو السر في أن للتربية الدينية في الأمم والجماعات جلالها واحترامها وقوتها وسلطانها وثباتها
وتمكنها لأن الدين ينمى الوازع ويوقظ الضمير ويظهر القلب ويرتفع بالنفس عن الغرض والهوى والحاجة
والغاية والشهرة والميل .

وهم كانوا في حاجة إلى ذلك كله لتجرى منهم تلك الأخلاق مجرى الروح من الجسم .

هجرة إلى الحبشة

على الرغم من نكاية قريش بمحمد - ﷺ - وإيذائهم له وسخريتهم به وقطعهم الطريق عليه ، كلما
هم بدعوة إنسان ، أو أعلن دينه في محفل من المحافل أو مجتمع من المجتمعات لم يجرءوا على أن يتجاوزوا
ذلك إلى قتله لأن عمه « أبا طالب » كان واقفاً لهم بالمرصاد وبنو هاشم كلهم من ورائه والاقدام على مثل
هذا الطيش ويعرض قريشاً لحرب لا قبل لها بها ولا طاقة لها بمثلها فكان من الضروري - عندهم - أن
يصبوا جام غضبهم على أصحابه وأن يقضوا لهم بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله .

وهناك أذن النبي - ﷺ - للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم : (إن بها ملكاً لا يظلم جاره) (٢)
فتسللوا في ظلام الليل ولما انتهى خبر تسللهم إلى قريش أسرع لتقطع عليهم المنافذ وتردهم إلى مكة
لتواصل الحملة عليهم وتتمادى في تعذيبهم وتسدد عليهم كل مسلك ليعودوا إلى ما كانوا عليه من الوثنية
والشرك ولكن قضاء الله كان أسرع من إرادتهم ولطفه كان أسبق من حيلتهم .

غير أنهم لم يكادوا يصلون إلى الحبشة ويستقر بها قرارهم ، حتى كان الكفار قد أرسلوا إلى النجاشي
« عبد الله بن أبي ربيعة » المخزومي .

« وعمرو بن العاص » وحملوهما من الهدايا للملك وللبطارقة ما عساه أن يساعدهما على الوصول إلى
الغرض الذي جاءوا من أجله .

(١) سورة البروج الآيات : ٤ - ٧

(٢) البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٨٥ وتاريخ الطبري ٢/٣٣٠ وسيرة ابن هشام ١/٣٩٧

وقد تقبل الملك والبطارقة الهدايا بالغبطة والرضا ، والسرور والارتياح فكان ذلك مشجعاً للرسولين - ابن أبي ربيعة وابن العاص - أن يقولوا له : « إنه قد فر منا قوم ، تركوا دينهم الذي كانوا عليه واعتنقوا ديناً جديداً يعادى الأديان كلها ويقول في عيسى وأمه مريم قولاً لا يليق بهما) . .

اهتز الملك والبطارقة لهذا القول واعتبروه عدواناً على المسيحية وافتياناً على مقدساتهم المرعية فانتدبوا واحداً من ذلك الوفد الآبق ليناقشوه فيما نسب إليهم .

فإذا « جعفر بن أبي طالب » ينبرى لهم ويبين بياناً شافياً : أن هذين الرجلين إنما أرادا الإيقاع والدس وأن حقيقة الأمر : أن محمداً - ﷺ - جاء إليهم بعد أن طفح الكيل ، وطال الليل ، واشتد الظلم وساد البغي في الأرض بغير الحق وفشا بين الناس الربا وكثر الزنا واسترق القوى الضعيف فكف جماح الطيش وكبح لجام الظلم وسوى بين الناس في المعاملة وقضى على الرق ونهى عن الزنا وحرم الربا ودعا إلى أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ثم قرأ « جعفر بن أبي طالب » سورة « مريم » وفيها الاشادة بعيسى وجهده والثناء على ما كان له من هدى وتقويم وتنزيه « مريم » عن الفواحش والشهادة لها بطهارة العرض ، ونقاء النفس وبراءة الساحة وشرف المحتد وحينئذ أبى « النجاشي » والبطارقة كل الإباء أن يفرطوا في المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة أو ليسمحوا لأى إنسان من كان أن ينالهم بسوء .

وظل هؤلاء المسلمون في الحبشة يلاقون الرعاية والكرم والعناية والاهتمام حتى كانت الهجرة إلى المدينة وتراعى إليهم إجماع الناس عليها وخروج النبی - ﷺ - وصاحبه « أبي بكر » فلاحقوا بهم وشاركوهم النزوح إلى ذلك الوطن الجديد .

أما ما كان من أمر « النجاشي » والبطارقة بعد جلاء الحال لهم - هكذا - فإنهم بعثوا من قبلهم وفداً يستطلع الخبر من مكة ويدرس ذلك الحدث الذي حدث وينظر مدى تلاقيه مع المسيحية على محجة واحدة من السلوك القويم والسنن الواضح والهداية السليمة ، ثم مع هذا وذاك يشكر « محمداً » وأصحابه على ذلك التنويه العظيم بعيسى بن مريم وأمه ، وبالإنجيل الذي جاء به . وكان من هذا الوفد أن تأثر إلى حد بعيد بشريعة « محمد » - ﷺ - وأعجبه ما تأخذ به البشرية من إصلاح وما تسلكه من هدى وتعمل له من نهوض وما كاد يستمع للقرآن الكريم من النبی حتى شعر بسحره وأدرك سيطرته الغالبة على النفس وهيمنته القوية على الضمير واستدراجه الغريب للدمع وسلطانه القاهر للفؤاد ولما خنقته العبرة وفاض ماء عينه أعلن إيمانه بمحمد وبدينه وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (١) .

وفي هذه الأيام التي كانت قريش تعاني الهزيمة التي أصابتها من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ثم من إيمان هذا الوفد الوافد ، كذلك كان إسلام « حمزة بن عبد المطلب » ، وإسلام « عمر بن الخطاب » بعد ذلك بثلاثة أيام فطاش صوابهم أكثر وأكثر ، وأخذت منظماتهم الارهابية تزاوّل من جديد نشاطها في التنكيل بالمسلمين والاسلام .

ولحق ذلك الرجل الطيب « أبا بكر » الذي كان - على الرغم من حبه لمحمد ومبادرته إلى اعتناق دينه - محترماً لديهم ، موقراً فيهم ، لا يريدون أن ينالوا منه أو يعتدوا عليه ولم يجد بداً من الخروج هائماً على وجهه من الألم لا يدرى أهو ذاهب إلى الحبشة ليلحق هنالك بإخوانه من المسلمين أم هو ذاهب إلى مكان آخر .

ويرجع ذلك إلى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهافت عليه النساء والصبيان وقد خشيت قريش أن يكون ذلك من أب بكر غزواً داخلياً لها فضيقت عليه الخناق وأقامت في وجهه المتاريس وكأنه في هذه اللحظة قد تمثلت له الآية : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كتمت قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾^(١) فأخذ طريقه إلى حيث يفارق تلك الوجوه وينأى بعرضه عن تلك الأقدار .

إلا أن رجلاً من هؤلاء الذين كانت تمتلئ نفوسهم بحبه لقيه وعز عليه أن يفارق مكة ، أو أن تخلو عرصاتها منه ، فسأله ولما عرف من أمره ما عرف ، أخذ بتلابيبه وقال له : « لا تفعل يا أبا بكر فوالله مثلك لا يخرج ولا يُخرج » ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم : « ليلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل في جوار « ابن الدغنة » لا يتعرض له أحد بسوء إلا كان ذلك تعرضاً لابن الدغنة وعدواناً عليه » لكنهم اشترطوا على « ابن الدغنة » أن يظل أبوبكر في قراءته للقرآن متخفياً في داخل بيته حتى لا تعود الفتنة جذعة !

وكان الرجل يقرأ القرآن في داخل بيته فيقتحم الأطفال والنساء الجدران ويدخلون إليه ليستمعوا لما يتلو وحينئذ عادت شكوى قريش منه وخوفها من الافتتان به فراحوا إلى « ابن الدغنة » الذي هدده بسحب جواره منه ولم يكن من هذا الرجل - الذي لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة مجتمعة لرجح - إلا أن يقول له : « افعل ما بدالك فإنني في جوار من هو أقوى منك ومنهم ، ينصرني ويؤيدني ويكلؤني ويرعاني ولا يتخلى عن جوارى .. »

الحصار الاقتصادي

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ربما كان أهونها أن تكون وجهاً لوجه أو أن تكون حارة لا باردة وفي العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى في استدلال الدول الصغرى - لتنال غرضها منها

وتصل إلى غايتها التي تقصد إليها إلى ما يسمى في لغة علماء الاقتصاد السياسي « الحصار الاقتصادي » .
وهي وسيلة من وسائل الحرمان والتجويع والحيلولة بين الدولة وبين تبادل السلعة أو شرائها أو الانتفاع بها
بوجه من الوجوه سدا لحاجتها وقضاء لمصلحتها وإقامة للأسوار والحواجز دونها لتصبح أمام الضرورة
الملحة والحاجة القائمة مضطرة للتنازل عن كرامتها وعزة نفسها وإبائها فلا تعارض في سلطان يفرض عليها
أورغبة ظالمة توجه إليها كما يفعل الآن أرباب الجشع الاستعماري والعار الأجني مع الشعوب التي تريد أن
تتحرر من سيطرتهم أو تتخلص من نفوذهم .

وهو بعينه الذي حدث من كفار مكة مع النبي - ﷺ - والمسلمين معه حينما وجدوا أنهم استنفذوا كل
جهد في إرغامهم وبذلوا كل محاولة في إزلالهم وقطعوا كل أمل في إجلائهم وأن المطاردة والعنف والاستهزاء
والتعذيب وغير ذلك وذلك .

لا يقف التيار الجارف الذي كانت تسير به دعوة « محمد بن عبد الله » إلى نفوس الرجال والنساء
والصبيان والأطفال وأن فيهم من يتسللون إلى بيوت المسلمين ليستمعوا إلى القرآن الذي كان يترك في
نفوسهم يقض مضاجعهم ويطارد النوم عن أجفانهم ويثير الوسوس في قلوبهم والبلابل في أفئدتهم .

وقد حدث الرواة : أنهم بعد أن عقدوا المجالس للمشورة وتبادلوا الرأي لعلاج موقفهم مع « محمد »
انتهوا إلى معاهدة مكتوبة تربط ما بينهم وتعيد إلى حد بعيد سلوكهم مع المسلمين وكانت تلك المعاهدة
تقضى ألا يزوجهم أو يجيروهم أو يغيثوا اللهيف الذي يستصرخ بهم أو يفرع إليهم وألا يتبادلوا وإياهم
منفعة من المنافع على وجه من الوجوه وأن يكون حالهم معهم حال المنبذين واستتبع ذلك أن ينفصل كل
من الفريقين في الدار التي يعيشون فيها فكان هؤلاء المنبذون في شعب بني هاشم وبني عبد المطلب وظل
الأمر هكذا ثلاث سنوات كاملة .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال من الجوع والشحوب من الألم والحرمان والاصفرار من
الحبس وفشت فيهم الأمراض والأوبئة ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الضغط والحصار أن يتجولوا
أو ينتقلوا إلا في داخل هذا السور المضروب أو السجن المحدد ، اللهم إلا في الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت
إذا أرادوا أو يحجوا إذا ما ابتغوا وكان النبي - ﷺ - لا يجد متنفسه إلا في موسم الحج حين يستقبل
الوافدين على البيت فيعرض عليهم الاسلام وكانت دعوته تجد طريقها إلى أفئدتهم بسهولة وكان ما يعانيه
هو وأصحابه حينئذ سبباً في عطف القلوب عليهم وميل كثير من الناس إليهم وقد سرى ذلك كله إلى
صفوف خصومهم فكاد يبدد جمعهم ويفرق كلمتهم ويشيع بينهم التفكك والتخاذل .

ووقف بعض هؤلاء ليقول لقريش : إنه ليس من المروءة ولا من الرجولة ولا من الذوق والأدب أن
نتمتع نحن بحقوقنا المشروعة وأن نحس بقيمة الحياة في مرية وأن ننعم بدنياً التي بأيدينا في الوقت الذي
يشقى إخواننا في النسب وزملاؤنا في الوطن وشركاؤنا في حرم بيت الله .

فلما ذكره أبو جهل بما في الصحيفة أبدى تمرده عليها وعدم اعترافه بها ، وقال له لم تكن حاضرين لكتابتها ولا راضين عن قيودها ثم أمن على قوله آخر وآخر ، وهكذا ، حتى كادت الصحيفة تذوب من شدة ما وجه إليها من اعتراض ورميت به من قسوة ووصفت به من مجانبة للصواب وكان النبي - ﷺ - قد وصل إليه من العلم عن طريق الوحي أن الأرضة أكلت هذه الصحيفة الظالمة والوثيقة الغاشمة فأخبر بذلك بعض أصحابه ولم يلبث الخبر أن تطاير للمشركين أنفسهم فظنوا لأول وهلة أنها إشاعات يريد المسلمون بها بلبلة الخواطر استدرازا لعطف الناس عليهم وتمهيدا لرضا قريش بعودة المياه إلى مجاريها بينهم وبين المسلمين ولكن خبيثاً من خبثائهم تسلل إلى الصحيفة في مكانها من الكعبة ثم جاء يعلن أن ذلك الخبر لا ريب فيه وهناك ذهلت قريش ذهولاً شنيعاً وبخاصة حينما ترامي إليها أن « محمداً » يقول : إن الأرضة لم تبق منها إلا لفظة « باسمك اللهم » وفي هذه اللحظة حاصوا حيصة حمر الوحش وأخذوا يروحون ويجيئون ويفكرون فيما عساه أن يكون . أو ما عساه أن يتميز أمام هذا الموقف الذي وقعتهم أياه الحوادث وصيرتهم إليه الأقدار على اعتبار أنه خذلان لهم وتقهر إلى الراء في حرب المسلمين والقضاء على روحهم المعنوية التي كانت تدفعهم دائماً أبداً إلى الغيرة على « محمد » والعصية له والوقوف إلى جانبه والدفاع عنه والدعوة لدينه وإعلان رايته خفاقة مدوية وقد أصبح بنو هاشم وبنو عبد المطلب يحسون بأن الصراع بينهم وبين قريش قبلى أو عصبي لا أثر للدين ولا للعقيدة فيه وصار هم « أبو طالب » الاهتمام بابن أخيه في صحوة أو نومه وليله أو نهاره حتى لا تمتد إليه يد آثمة أو تتناول عليه نفس خبيثة أو يقتله سيف ظالم ورسول الله - ﷺ - يتابع الدعوة الخافتة والجهود المكتومة وأصبح ذلك الموقف أشبه بالاعلان الصامت لذلك الدين الذي أرادوا طمس معالمه وقبره في مهده منذ أول يوم ولادته ورأت قريش أنه لا مناص من التصريح بنقض الصحيفة المكتوبة والمعاهدة المعقودة واضطرت صاغرة إلى التنازل عن كبريائها وعاد الاتصال ورفعت قيود حظر التجول وتبادلوا السلع والحاجات الا أن النفوس كانت مع ذلك كله لا تزال تشعر بالجفوة والقلوب لا تزال تحس باللوعة والعيون لا تزال تتبادل النظر الشرر والجوانح لا تزال منطوية على الكراهية والبغضاء .

والمسلمون كانوا يشعرون أنهم في دار غربة وهوان يتمنون من صميم أفئدتهم أن يياهم الله قوماً خيراً من أولئك الذين يرونهم قذى في أعينهم أو شجى في حلوقهم ووطناً أحسن من هذا الوطن الذي يضيق بهم ويضيّقون به حتى لقد كانت الهجرة إلى الحبشة تراودهم ليتخلصوا من ذلك العنت الذي يلاقونه .

أما محمد - ﷺ - فإنه نفّض يديه من قريش وقطع أمله من مكه وظل - كذلك - يضيق ذرعاً بتلك البيئة المريضة والأرض الجذبة وكان يغدو إذا غداً ويروح إذا راح متمنياً ما يتمناه من كل معه من المسلمين أن يستبدله الله من قريش أهلاً بأهل وجيراناً بجيران .

عام الحزن

كان سند النبي - ﷺ - في دعوته ودرعه التي يتلقى بها الأحداث ، وساعده التي يزود بها الأذى وركنه الركين الذي يعتمد عليه في أول عهده بالرسالة حيث لم يكن حوله من سواء المسلمين من يشد أزره ويقوى ظهره إذ كان يُحسُّ من نفسه بالغربة والوحشة والضعف وقلة الحيلة اثنان من الناس كلاهما بعدد ضخمة وقوة هائلة .. امرأة هي خديجة ، ورجل هو عمه أبو طالب .

وخديجة لم تكن له زوجة ككل امرأة تكون تحت رجل لا هم لها إلا أن تتمتع به وتلوذ بكنفه وتحتمي بظله وتترامى بين أحضانه وتطلب فيه دائماً الغنى والمال والصحة والعافية والمركز والجاه وأن يكون قلبه في كل آن متلهفاً عليها إن غابت أو حضرت ، فإن رأت شيئاً من ذلك كله قد تحول أو نقص أو رأت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ، ويملك اعجابها ويشغل بالها وتفكيرها فترت شواغلها به وبردت حرارتها له ، وماتت أحاسيسها التي كانت متأججة وجعلته من تحفها القديمة أو ثيابها البالية لأنه لم يعد فتى أحلامها الذي تحن إليه وتنجذب نحوه ، لم تكن « خديجة » تلك الزوجة بل كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته وأحب الناس إليه وكان هو عندها كل شيء تطلبه وكل حلم يدور بوهما ويخطر ببالها ويسبح بخيالها تؤمن إيماناً جازماً بأنه يكمل نقصها ويحمل نفسها ويرضى تطلعها ويشفى أوجاعها ويملأ دنياها باليمن والبركة والسعادة والسرور لذلك كان عندها نور عينيها ونبض فؤادها وحياتها الدائبة وأملها الذي لا ينتهي فما لها في يده وثقتها في نفسه وقومها من حوله وأهلها وأطوع له من ظله وكأنه بها وحدها في ألف ساعد وساعد وألف نصير ونصير وكلما غدا أو أراح كان ظلها يتابعه بالأنس والبهجة والأمل والحب والصحة والعافية والشجاعة والاقدام والظفر والغنم والفراغ الذي كانت تملؤه من قلبه لم يكن حل من قبل وهي مع هذا وهذا أم أولاده ما عدا « ابراهيم » الذي كان بعد ذلك من « مارية » القبطية .

وكان موتها عند النبي - ﷺ - فاجعة كبرى ، ومصيبة عظيمة شعر بعده أن الأيام تتنكر له والمحن تصطليح عليه والمصائب تواجهه والحوادث تحاربه وزاد من الألم في نفسه أن لم يمض على موتها هذا ثلاثة أيام حتى مات عمه « أبو طالب » كذلك ، فكان هذا العام عام الحزن - كما سماه المسلمون وسماه النبي - وأي حزن وراء هذا وأبة فاجعة بعد تلك الفاجعة ولذلك روى عنه - ﷺ - أنه كان يقول : « اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري أنا بأيهما أشد جِزَعاً » (١) .

ونحن نعلم أن قريشا بعد موت « أبي طالب » ابتدأت تعامله معاملة أخرى . وتقف منه موقفاً جديداً وتحشد كل ما تملك من وسائل وما تستطيع من حيلة لفشل حركته وتعطل سيره وتعوق ركبته وإن

كانت هذه الشدائد التي كان يلاقيها والمحن التي كان يصادفها دفعت عجلة الزمن وحركت عقرب الساعة ولفقت أذهان كثيرين إلى الدخول في الاسلام والإيمان لمحمد - ﷺ - وهكذا الشر يأتي بالخير والضيق يكون وراءه الفرج القريب .

وعلى الرغم من أن قريشاً انتهزت فرصة موت عمه الذي كان درعه وسيفه ومجته وترسه وبرهنت بهذا على أنها تحررت من الذوق وجف معنى الحياء فيها وأصبحت تفكر في الحد من نشاطه والقطع لأوصاله والقضاء على تحركه وانتقاله وكان هو مع هذا كثيب النفس يحاول جهده كله أن يعيش في ذلك الجو من الحزن الذي خلفه له موت خديجة وأبي طالب لا لأنه يشس من الدعوة وقطع رجاءه في نصر ربه له ولكن لأنه وهو يستجيب لبشريته كان يتألم كما يتألم الناس ولذلك لم يكن أحد يراه على الحال التي كان عليها من التسلل إلى المجتمعات والتسرب للمحافل وكان دخول من يدخل في الإسلام أشبه بالعمل الآلي والتجاوب العاطفي لم يكن لأحد فيه جهد ولا فضل .

وكأنما أراد الله - جلت قدرته - أن يبرهن للنبي - ﷺ - من طرف خفي أن هذا الصنيع الذي يصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدراً أو يدفع إرادة أو يحول دون تبليغ الرسالة .

وبينما الرسول الكريم من شدة ما ناله من الحزن وكثرة ما أصابه من عناء التفكير مستغرق في ذهوله سابح في خياله رأى نفسه متكئاً إلى جذع شجرة يقرأ « القرآن » والجن حوله يستمعون إليه في صمت وينصتون إليه في إعجاب ويتأملون قوله ويتدبرون هديه وكأنما هو كان ضالتهم المنشودة وحاجتهم التي ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل وقد سجل القرآن قصتهم هذه وتغلغل الهدى في نفوسهم : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ (١) .

وكان في الحديث الذي صدر منهم والتفكير الذي بدأ عليهم مسحة من العقل والمنطق ، نذل على أنهم يجيدون التفكير إلى حد بعيد وبخاصة في مثل قولهم : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً وأنا لما سمعنا الهدى آمناً به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ (٢) وكان هذا الحدث في نظر العرب جميعاً من الدهول والغرابة بمثابة بعيدة حملتهم على أن يستغلوا بالتأمل والتفكير في أشياء كانت لا تخطر عليهم ببال ولا تمر لهم بذهن وكان في مقدمة ذلك فهمهم للجن وتصورهم لهم وحديثهم عن إيمانهم بالله وبحشهم عن المعرفة وجريهم وراءها وكانوا إلى هذه اللحظة يظنون في ذلك الظنون .

وقد تناقلوا هذه القصة وأخذوا يتحدثون بأن لمحمد - ﷺ - محيطاً وراء محيطهم وأن دعوته إن لم تجد منهم انتباهاً ورغبة وتلقياً وقبولاً فستجد في سواهم رضوا أم سخطوا وأنه إن كان - اليوم - يتودد إليهم في

(١) سورة الجن الآيات من ٣ - ٥

(٢) سورة الجن الآيات من ١٢ - ١٤

هديه ويلاطفهم في دعوته ويصفح عنهم في ايدائهم له ومطاردتهم إياه فسيجيء اليوم الذي يكونون فيه مرغمين ويكون الأمر والنهي والحل والعقد له هو وحده وأنهم إن كانوا يقولون : أمر ابن أبي كبشة - أبوه من الرضاع - استهزاء به وسخرية منه فلا بد لهم أن يقولوا صدقا وحقاً .

وسترى البشرية كلها هذا النصر الذي يسعى إليه والسلطان الذي يتمكن له : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ (١) وحينئذ يعاودهم الندم حيث لا ينفع .

مع ثقيف بالطائف

إصغاء الجن للنبي - ﷺ - واستماعهم إليه وإعجابهم به . وتبليغ قومهم ما دعوه منه كان بالطائف وقد كانت الطائف أهلة بالوجوه والأعيان من ثقيف وكانت خيراتها من التين والعنب وسائر أنواع الفاكهة يتهاذى بها الركبان ويتحدث بها الرائح والغادى وقد اختار الرسول الكريم أن تكون وجهته إليها ودعوته فيها بعد أن نقض يديه من قریش بمكة وأصبح لا يرجو عندهم خيراً ولا يترقب في جوارهم أمناً ولا يجد بينهم هدوءاً واستقراراً .

وكان المنظور - وللطائف تلك المزايا ولمناخها هذا الاعتدال ولأهلها ذلك الرزق الواسع - أن يكون منهم من دماثة الأخلاق وحسن المعاملة وقوة الإدراك وسهولة القياد ما يحقق منهم أمل النبي - ﷺ - الذي أمله منذ اللحظة الأولى لتحول وجهه إليهم إلا أن الذي أخلف الظن وجعله لا يعود من هنالك بطائل أن الطائف كانت كعبة للوثنية ومركزاً مرموقاً من مراكز الشرك لأن فيها « اللات » وهي إحدى نبات الله « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » - كما يزعمون - وعصبيتهم لها واعتقادهم فيها لا يمكن أن يفارق نفوسهم أو يغيب عن أذهانهم .

وتقص الأنباء أنه - ﷺ - حينما انتهى إلى الطائف واستقر بين ظهرائي ثقيف واستقبلوه استقبال الطاريء وأنسوا به أنسهم بالضيف واطمأنوا إليه اطمئنانهم لرجل حصيف الرأي بعيد النظر قوى الحجة واضح الدليل متكامل البيان استمعوا إلى دعوته إلى الله وتخويفه من المآل وتحذيره من العقاب ونصحه بالطاعة ونهيه عن المعصية ومجاهرته بضرورة المساواة ونبد العبودية وبغض الظلم .

ثم لم يكد يصل بهم إلى أن البشرية الضالة والإنسانية المتخبطة هي التي تنحرف عن السنن وتلتوى عن القصد إذ تعبد حجراً أو تبتهل إلى جماد لا يضر ولا ينفع ورب الناس حاضر بين يديهم يرفع الضر ويكشف البلوى ويلبى دعوة الداعي إذا دعاه حتى فهموا أنه يريد بذلك أن ينتقل بهم إلى دين يحول بينهم وبين ما كان عليه آبائهم وأجدادهم فأغروا به السفهاء منهم وسلطوا عليه الصبيان .

وما زالوا به حتى أدركه الإعياء وأنهكه الجهد وخارت قواه ووجد نفسه وقد أغمى عليه ، وهو مستند إلى حائط بستان من بساتين الطائف .

وبعد أن أخذ يضيق مما به ويصحوا من تلك الغاشية التي أصابته ابتداء يقول مناجياريه : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ! يا أرحم الراحمين ! .. أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هي أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)^(١) .

وهو دعاء - وإن كان عنواناً على الجزع والهلع والهوان والضعف والشدة والعسر - إلا أنه تسجيل لذلك العنف الذى قوبل به ، والندالة التى صنعوها معه وقد كان - ﷺ - يؤمن أن نصر الله يلاحقه وعنايته تسابقه ودفعه الأذى عنه ولا يمكن إلا أن يكون لذلك يخاطبه خطاب المطمئن إلى وعده الواثق من لطفه الطامع فى رحمته حتى إذا ما خشى أن يكون قد تجاوز حدود الأدب معه ، سارع إلى مرضاته : (إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى) وقد كانت هذه الكلمة شعاره فى أمثال هذه الشدائد .

وقد جاء إليه جبريل عقب هذه الحادثة من غير توان ، فقال له - بعد أن سلم عليه - « إن الله قد سمع الذى قلته وسمع ما ردوا به عليك وهذا أخى ملك الجبال إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل » .

ولكنه قال له : (لا .. يا أخى جبريل فانى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدوه وحده لا يشرك به شيئاً)^(٢) .

ولعمري لو أن انساناً آخر مع هذا الذى أصابه منهم أو ناله من إيلاهم لما وقف هذا الموقف الكريم أو عاملهم بهذا الظرف وتلك الرأفة ولكنه كان يعلم - منذ ضمّه « جبريل » عند أول عهده به وقال له : (اقرأ) ومنذ قال له (ورقه بن نوفل) : (لم يأت رجل بمثل ما أتيت به ألا عودى » . أنه معرض لذلك كله ولا بد له أن يلاقه .

وقد كان فى البستان الذى اتكأ إلى جداره بعض أصحابه من الأطفال فرق قلبهم له وثار فى النفوس منهم الشفقة عليه وبخاصة بعد أن سمعوا منه ذلك التضرع الباكى والتوسل الحزين فلم يجدوا من العزاء له إلا أن يشيروا على خادم لهم أن يقدم له عنقوداً من العنب وشربة من الماء فتناوله منه شاكراً له ولهم هذا الصنيع حتى إذا ما أخذ فى الأكل سمى الله فملك ذلك على الخادم اعجابه وحمله هذا الإعجاب أن يسأله بعض أسئلة انتهت بايمانه به وانقطاعه له وقد عاتبه مخدومه فلم يأبه بهم أو يلتفت اليهم أو يفكر فى أن قطع لما كان بينه وبينهم من صلة الخدمة التى يتعيش منها .

ومضى رسول الله - ﷺ - ومضى معه ذلك الغلام وثالث هو مولاه (زيد بن حارثة) الذى كان معه .

ظل الرسول يفكر فى المكان الذى يتجه اليه بعد ذلك ولم يكن قد رسم الخطة التى يخطها أو الجهة

(١) سيرة ابن هشان - باب سفر الرسول إلى ثقيف ٧١/٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢١١/١ ومجمع الزوائد ٣٥/٦

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٧/٣

التي يحول إليها وجهه ولم يكن هنالك مفر من الرجوع إلى مكة التي كان يرجو ألا يعاود الرجوع إليها وهو لا يأمن على نفسه إذا رجع إلى مكة أن يضاعفوا له الأذى ويواصلوا له الكيد ويدبروا له الشر وهو لم يبق فيه من الاحتمال ما يواجه له عدوانهم المنتظر ولا إيلامهم المترقب .

فكلف مولاه « زيداً » أن يسبقه إلى مكة لبحث له عن رجل من أهل المروءة والنجدة والكرم والإباء والتفضل والأريحية . ليجيره من هؤلاء الناس فكان ذلك الرجل هو (المطعم بن عدي) الذي قبل أن يؤمنه ريشا ينكشف الغيم الذي يحيط به أو يبدو لمحمد وجهاً جديداً يتحول إليه .

وكان حدثاً من الأحداث أن يجير (المطعم بن عدي) رجلاً لا يجد في مكة كلها إلا قلوباً تغل بالحقد عليه والكراهية له والنفور منه على أن « محمداً » - ﷺ - لم يكن ليفكر في البقاء هنالك حتى يعرض « المطعم بن عدي » نفسه لسخطهم عليه من هذا الجوار الذي منحه لمحمد بل كان يرجو أن يبد له الله خيراً من مكة ومن أهلها .

الاسراء والمعراج

كان لتلك المعاملة القاسية التي عاملت بها قريش النبي - ﷺ - إلى درجة أن ضاق ذرعاً بمكة وأهلها فقطع الرجاء من دعوتهم ونقض يديه من جوارهم وتطلع بقواده المكدود ونفسه الكثيرة وقلبه الحزين إلى جو آخر يتنفس فيه الهواء النقي وينظر فيه إلى وجوه باسمه مشرقة لا تكفر له ولا تعبس لرؤيته وظل على ذلك زمناً طويلاً يترقب الفرج ويتنظر طلوع رحمة الله وقد كانت ذلك - مضافاً إليه موت (خديجة) وموت (أبي طالب) وتلك المقاطعة الظالمة التي حاصرتها بها قريش هو والمسلمين معه في شعب بن هاشم ثلاث سنوات - سبباً في اجتهاد عنيف ونصيب قاس هذ ركنه وفتور عظيم أصابه وتعب ليس قبله ولا بعده لحق به والأجسام إذا لم تخلد إلى السكون بعد الكدح والراحة بعد العناء والنوم بعد الصحو الطويل والسهر الدائم كلت . وملت !

وقد جعل - سبحانه وتعالى - تلك الرحلة الممتعة ، ترضية لخاطره - ﷺ - ومتعة لنفسه ولذة لروحه وإظهاراً لمكانته عنده ومنزلته لديه حتى لا يتسرب إليه الشك في أنه أفضل خلقه وأكرم أنبيائه ورسله وهو عمل أشبه بما يصنعه الملك من ملوك الدنيا إذا ما وفد عليه زائر عزيز فإنه يطوف به على قصوره الفخمة وضياعه الواسعة حيث يستقبله الناس هنالك بما يدل على اغتباطهم به وفرحهم بقدومه وإذا كانت الرحلات إلى جانب ما يكون فيها من المتعة للنفس والترويح عز خاطر تزيد في المعرفة وتطبق العلم على العمل فقد كان ما رآه - ﷺ - من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان والأشكال والجزاء على أعمال الخير أو الشر وعقبى الظالم أو المتكبر والمنحرف أو المقترب تأكيداً للحقائق وتصويراً للمعاناة .

وقد ورد حديث الاسراء والمعراج بصورتين مختلفتين باختلاف الرواة فالذي يرويه « مالك بن صعصعة » غير الذي يرويه أنس بن مالك وإن كان كلاهما يتفق على أن الإسراء تقدمه إيقاظ جبريل له وشق صدره وصب وعاء من علم وحكمة فيه كما يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب

السموات يستأذن عليهم « جبريل » فيقول القائل منهم : « من يطرق الباب »؟ فيرد عليه جبريل قائلاً : « أنا جبريل » فيقول سادن الباب : « ومن معك ؟ » فيقول له : « محمد » فيقول ذلك السادن : « أو قد أرسل إليه ؟ » فيقول جبريل : « نعم » فيقول السادن « أهلاً بالأخ الصالح والنبى الصالح »^(١).

وأنت إذا تصورت هذا الاستقبال كله لم يرد في خيالك - شيئاً ما - عن هذا الذى تسمع به عن استعراض الجيوش لاستقبال الملوك وعظماء الدول احتفالاً بقدومهم وابتهاجا بضيافتهم .

ولا تنس أنه صلى بهم في بيت المقدس وفيهم أبوه « آدم » وأبوه « ابراهيم » وأولو العزم من الرسل وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة والتكريم الواسع المدى .

ويقول رواية الحديث : (إن جبريل - عليه السلام - لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو - ﷺ - فانه ارتفع إلى (سدره المنتهى) ورأى نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ثم تجاوزه إلى (البيت المعمور) وهكذا رأى ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وفى ذلك أيضاً دليل آخر على أن قدره وراء هؤلاء جميعاً بما فيهم « جبريل » الذى لا يستطيع أن يتجاوز قدره أو يتخطى مكانه .

والإسراء : هو السير بالليل ومثله « السرى » وزن « هدى » وهو قطعه - ﷺ - المسافة من « المسجد الحرام » إلى « بيت المقدس » على الدابة المسماة بالبراق وكان العرب لا يقطعونها إلا فى شهر كامل يذهبون وآخر يجيئون ولذلك هاهم الأمر واستعظموا ذلك الحديث وطالبوه بالدليل على صدقه فأخبرهم أن بالطريق عيراً لبنى فلان وأخرى لبنى فلان ومن أوصافها كيت وكيت . . فطالبوه بوصف بيت المقدس فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه وهو يتحدث إليهم عن جدرانه ونوافذه وأبوابه .

وفى الحديث عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : (لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فحلا الله لى بيت المقدس فطففت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه . .)^(٢)

والقرآن الكريم تعرض لذكر الإسراء دون المعراج إذ يقول : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)^(٣) والسبب فى ذلك أنه تعالى كان يعلم أنه لم يكن عندهم من الكفاية والفهم ما يساعدهم على تلقى مثل هذا الخبر بالقبول وأنه مهما أتى بالأدلة على حصوله فإنهم لا يصدقونه .

على أنهم أنكروا الإسراء - كما علمت - وقالوا : لعلها رؤيا نائم أو أوهام حالم وارتد بعضهم عن الاسلام بسببها : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس)^(٤) والمعراج : هو الصعود ومنه قوله تعالى فى سورة المعارج .

(١) مسند أحمد ١٥٧/١ والبيهقى فى الدلائل ٣٧٢/٢

(٢) أخرجه الشيخان من حديث الزهرى وأحمد عن ابن شهاب والسيوطى عن جابر فى الخصائص الكبرى ٣٩٣/١ تحقيق الدكتور الهراس .

(٣) سورة الاسراء الآية : ١

(٤) سورة الاسراء الآية : ٦٠

(تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)^(١) وقد صعد به (جبريل) من غير سلم ولا آلة أخرى يعرج عليها بل بقوة إلهية كانت تجذبه إلى فوق كأنه كان يمتطى « مصعداً » مما صنعه العلم الحديث الآن .

وللعلماء اختلاف في حصوله للنبي - ﷺ - هل كان بجسمه وروحه أم أنه كان بروحه فقط والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط يقولون : إن نظرية الضغط الجوى هي التي تحدد ذلك لأن الإنسان إذا ارتفع إلى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات وقد ثبت أنه - ﷺ - لم يمت من المعراج فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط .

والذين يقولون : إنه كان بالروح والجسم يبطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل ، ويقولون : أنه كان معجزة من معجزاته - ﷺ - والمعجزة : هي الأمر الخارق للعادة . . ويستدلون بأن الله سبحانه وتعالى في تسجيل هذه الحادثة قال : (سبحان الذى أسرى بعبده) والعبد : اسم للروح والجسم ولو كان بالروح فقط لما كان جديراً بالذكر ولما كان أكثر من خيال الشعراء أو أوهام الفلاسفة (أو أحلام النائم) .

وفي عروجه - ﷺ - إلى السماء فرضت الصلاة خمسين صلاة في اليوم واللييلة ومازال « محمد » يذهب إلى ربه ليسأله التخفيف - بناء على نصيحة موسى - حتى كانت خمسا لا خمسين .

ومن عجيب الأمر في حديث المعراج أنه يخص « موسى » باغرائه « محمداً » بالرجوع إلى ربه وخصه كذلك بالبكاء ، لأن رسولا بعث بعده يدخل الجنة من أمته أكثر من الذين يدخلون من أمة « موسى » .

بيعة العقبة

لم يعرف عنه - ﷺ - أنه سكت عن الدعوة أو تهاون في أداء الرسالة ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد لا يشنيه صعب ولا يردده مستعص ولا يثنى عزيمته قاس غليظ . . وقد كان خصومه كلما حاول واحد منهم أن يغلق في وجهه سبيلاً مهد هو بجلده وكفاحه سبيلاً آخر حتى لا تتوقف به عجلة المسير ولا تنقطع به حركة الجهاد .

ونحن نعلم أنهم منذ أول يوم وقفوا له وحاولوا أن يعوقوا ركبته وأن يعطلوا وظيفته ، وأن يردوه على وجهه في كل قصد يقصده وكل طريق يبتدىء منه الخطى فإن علموا أن وافداً جاء يسأل عنه أو غريباً يسعى في طلبه أخبروه عنه الأخبار الكاذبة وحدثوه الأحاديث الملفقة حتى لا يصل إليه أو يؤمن به .

وقد حدثوا : أن الأعشى الشاعر جاء إليه ليعلن إسلامه ومعه قصيدته التي قطعها : « ألم تفيض عيناك ليلة أرمدا » لينشدها بين يدي النبي - ﷺ - فاعترضه « عامر بن الطفيل » وقال له : يا أبا بصير إنه يحرم الزنا

فقال له : ما لي به من حاجة فقال له : ويحرم الخمر ، قال له : أغيب عنه إلى العام القابل حتى أرتوى منها ثم أجيء إليه وفي طريقه وهو عائذ مات .

وفي الأسواق التي يقيمونها للتجارة وللأدب كعكاظ « وذى المجنة » كان يدب في أزقتها ويندس في طرقاتها ويمشى في مسالكها ليدعو إلى دينه وينوّه برسالته ولا تخلو هذه الحركة كلها من فائدة حتى ولو أعرض عنه الناس أو واجهوه بالبرود وعدم الاكتراث فإنهم سيتحدثون إلى أهليهم وذويهم بما صادفوه في أسفارهم وما لاقوه في غربتهم ولذلك كانت الأبواق من كل جهة وفي كل مكان تتحدث عن حدث جديد ورسالة جديدة وكان ذلك بمثابة التهديد لما سيكون من تبليغ ومعرفة واذعان وقبول .

والمؤرخون يعتبرون أن بوادر انتصار الاسلام ودخول دعوته في مرحلة جادة قوية في أفق أوسع ونطاق أرحب كان من « بيعة العقبة » وهي منسك من مناسك الحج حيث ترمى الجمار وهي عقبة أولى وثانية وثالثة .

وتفصيل ذلك : أنه - ﷺ - كما كان يدعو في الأسواق كان كذلك في أيام الحج فيلتقى بالناس في موسم الحج ويتعرف على كبارهم وذوى المكانة في أهليهم وعشيرتهم ولما بدا له أن يفعل ذلك والتقى بنفر من « الأوس » بايعوه على السمع والطاعة والنصرة والكف عن المحارم وكان عدد هذا النفر ستة فسط .

ثم حضر في العام الذي بعده في موسم الحج - أيضا اثنا عشر رجلاً ، بايعوه عند (العقبة الثانية) لهم ولنسائهم الذين تركوهم في المدينة وفي العام الثالث حضر من الأوس والخزرج وفد ثالث مؤلف من ثلاثة وسبعين رجلاً بايعوه عند العقبة الثالثة على كل نصرة وعلى حرب الأسود والأبيض ورجعوا إليه أن يتخذ « المدينة » موطناً له لتطلع منها شمس الدعوة رائعة وهاجة على العالم كله من غير أن يحجب نورها حجاب أويقف في سبيلها جهول أويصد انبساط ضيائها أحق .

ولما سرى خبر هذا العرض الطيب ذهب جماعة من قريش إلى أولئك الضيوف الحاجين إلى بيت الله الحرام واعتبوا عليهم أشد العتب أنهم يأخذون عدوهم من بينهم ليحموه في بلدهم ويصونوه من خصم يطلبه أو غريم يبحث عنه في الوقت الذي يفكرون هم في قتله ليستريح العالم من شروره . وقد أكد الوفد لقريش أن شيئاً من ذلك لا يكون وحينئذ تسلل هذا الوفد إلى المدينة وشاع الخبر في أثرهم أنهم خدعوا قريشاً بهذا الرد الذي ردوا به عليهم وأن الخطة التي دبروها مع (محمد) والعهد الذي أخذوه عليه هي أن يتخذ (المدينة) منارة للرسالة وموطناً للدعوة وأنه هو جاد في ذلك وأنهم هم جادون في نصرته والعمل في صفوفه .

وكان النبي - ﷺ - منذ بايع الوفد الأول ، قد أرسل إليهم « مصعب بن عمير » يعلمهم القرآن وينير لهم بعض المسائل التي تشبه عليهم في الدين .

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيظفرون بهم وينتصرون عليهم بالنبي الجديد الذي سيسارعون إلى اعتناق دينه عندما يصل إليهم خبره فكان هذا عاملاً من عوامل سريان الدعوة بسرعة

إلى صفوف الأوس والخزرج حتى لا يسبقهم اليهود باتباعه والإيمان به وبذلك يتمكنون منهم ويظهرون عليهم ويكيدون لهم .

ولم يكن شيء من ذلك خافياً على قريش فأخذت تتوجس من الخوف وتضطرب من الفرع وتدرس من جديد الموقف الذي يجب عليها أن تقفه من (محمد) حتى لا يفلت من يدها ليستعد للوثبة عليها والنيل منها ولا يصدّم ما دام ماضياً في سبيله هذا المعنى - أن يزحف عليهم بجيش من العرب لا قبل لهم برد ولا طاقة لهم بالوقوف في طريقه .

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ووقوفنا على الخطوات التي سلكوها معه من قبل - على الرغم من الكيد العنيف والأذى المتلاحق - أنهم كانوا يتهيئون قتله ويعتبرون الإقدام عليه إقداماً على عمل طائش وتصرف خاطيء أو غير سديد لذلك تجنبوه ولم يقبلوا مشورة من كل يشير عليهم به تفادياً من عداوة بنى هاشم وبنى عبد المطلب لكنهم أصبحوا مع « محمد » على حال تحتم عليهم أن يفكروا في قتله لأنه بسلوكه الذي يسلكه ونهجه الذي ينتهجه منعه إلى قتلهم من غير شك والحصانة تقضى إذا تجهز لك عدوك أن تتجهز له وإذا خطا خطوة إلى حربك أن تخطو مثلها إلى حربك : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقد أيقنت قريش بذلك كله منذ أدبر عنها وفد الثلاثة والسبعين وأن عليها أن تحتاط للشر قبل أن يقع إلا أن هذا الشر الذي سيقع شر شائك ودفعه بمثله أكثر شوكاً والخرج الذي تتوقعه من قتل (محمد) قائماً لكن محمداً سيقتلها إن لم تبادر هي بقتله لذلك وضعت هذا الموقف موضع الدرس وأخذت تقلبه على وجوهه كلها . لتجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع - كما يقولون - حتى لا يفكروا في الثأر له إذا قتل .

فقال قائل : نربطه على ظهر بعير أهوج يضل به في الصحراء ليموت من الجوع والعطش فسفهاوا رأيه وقالوا له : إنه لا يعد بمنطقة الحلو وبيانه العذب أن يجمع عليه الجموع التي تتأثر بقوله وتشفق لحاله وتعطف عليه وتفك هذا الوثاق الذي يعاينه .

وقال آخر : نحبسه فردوا عليه يشبه ماردوا به على سابقه .

وكان رأى أبى جهل : أحزم هذه الآراء وأحكمها لأنه قضى أن يأخذوا من كل قبيلة فتي جلدأ قويا ثم يجمعوا هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد وبذلك يتفرق دمه في قبائل العرب جميعاً فلا يستطيع قومه أن يثأروا له .

وبينما كانوا يعملون - جادين - لانجاز ما وصلوا إليه من تفكير كان المسلمون في الحبشة ، والمسلمون في مكة قد أخذوا طريقهم إلى « المدينة » وكان على - كرم الله وجهه - في المكان الذي كان ينام فيه رسول الله ﷺ - نائماً على سريره وكان الرسول مع (أبى بكر) قد خرجا من مكة .

الهجرة

لم يكن من الحتم على « محمد » - ﷺ - أن يبقى بمكة وقد تبين له أنها لم تعد صالحة للدعوة ولا مرجواً

من أهلها الخير وبخاصة بعد أن أوصى الله - سبحانه وتعالى - إليه هذا الشر الذي يبيتونه له والغدر الذي تنطوى نفوسهم عليه بل إن بقاءه مع هذه الاعتبارات كلها عبث لا يليق به وخطأ ليس له أن يفعله .

ولا يصح أن تؤول هذه الهجرة بأنها فرار من الميدان أو هرب من المسئولية لأن الفرار إنما يكون فراراً إذا تأكد صاحبه أن الصمود نبل والبقاء شجاعة والمنازلة بطولة والحرب مصلحة والاستماتة فناء في الحق وكذلك المسئولية إنما تكون مسئولية إذا كانت جديرة بالتحمل .

لكن المسألة لا تعدوا أن يكون الجو غير ملائم والظروف ليست مناسبة والشأن في ذلك شأن طلب الثمرة من الأرض السبخة أو الباحث عنها في غير أوانها فإن المنطق يحكم عليه بالطيش ويصفه بالغته وهكذا كان كفار مكة كالأرض السبخة التي تلفظ الحب وتنكر البذور ولا يجدى معهم محاولة ولا جهد .

على أن الرسول الكريم لم يكن مرسلًا إليهم وحدهم مرتبطًا بعجلتهم أو تتعمد مصيره بهم أو يعيش تحت رحمتهم - كما يقولون - وإنما هو مرسل للأحر والأسود والعرب والعجم يسافر ويقيم ويتحمل ومن حقه أن يجعل مكة مقراً له وفي هذه الهجرة ظهر أنه - ﷺ - من كبار الساسة الذين لا يغلب دهاؤهم ولا يضعف احتمالهم ولا تضعيع جهودهم ولا يخدع لأبيهم ولا يطيش صوابهم وقد تبين ذلك كله في أمور : منها تركه عليا - كرم الله وجهه - مكانه متغطيا ببردته الخضراء التي كانوا يعرفون أنها تلازمه ولا تفارقه ليظنوا انه لا يزال في مكانه نائما كعادته فإن حاولوا أن يدهموا كان الأمر على غير ما يتوقعون والشأن على خلاف ما يقصدون وحيل بين ما يشتهون ولذلك ذهلبوا حينما علموا أن النائم « على » وكانت هذه أول هزيمة أصابتهم في الصميم وجعلت روحهم المعنوية هزيلة كثيبة ولم يشكوا عندها أنه قد سقط في أيديهم .

ومنها أنه لم يترك مكانه لعلهم يرصدونه أمام بيته . . . وقد طلع عليهم وهم في سنة من النوم فرمى التراب على وجوههم ، وفوق رؤوسهم قائلا : (شأهت الوجوه) إذلالاً لهم واختقاراً لشأنهم ولذلك تكامن كبرياؤهم وتضاءلت عظمتهم وبدأ على وجوههم الصغار والخزى .

ومنها أنه لم يخرج من مكة إلا في النهار ليسجل عليهم فشل محاولاتهم التي حاولوها وبطلان تأمرهم الذي اجتمعوا له وفكروا فيه ودرسوه دراسة خاصة وقلبه على وجه يحتمله وذلك لأنه نام في غار « ثور » إلى الصبح حيث عاد إلى مكة ليصحب معه « أبا بكر » وقد ظل هو وأبو بكر ثلاثة أيام في الغار حتى أحضر خادم « أبي بكر » البعيرين اللذين ركبهما « أبو بكر » وصاحبه . . . وكان القصد من لقائهما في الغار - الذي لا يبعد عن مكة إلا بساعة واحدة من الزمن - ألا يدركها القوم إذا ما حدوا المسير في طلبهما « ومنها أيضا ، أن « أسماء بنت أبي بكر » التي كانت تحب إليهما بالطعام ، « وعبد الله » ابنه الذي كان يأتيهما بحديث المشركين عنهما وكان يعفى على مواضع أقدامهما بغنم « أبي بكر » التي كان يرعاها له مولاه « عامر بن فهيرة » وكان هذا كله غاية التضييل وأقصى ما تكون التعمية . . . وكل هذه أساليب الرجل الداهية وخطط السياسى المحنك وطرق لايتهدى إليها إلا انسان رتبته الحوادث والأيام .

أما عناية الله التي أغنت عن مضاعفة من الدروع - كما يقول البوصيرى في قصيدته البردة - فهي التي

جعلت الحمام يصنع العش ويملؤه من بيضه ويرقد فوقه للتفريخ وجعلت العنكبوت تنسج حيوطها هذا النسيج الدقيق .

وكان من تلك العناية أن أعمى الله بصيرة المشركين فلم يدركوا من أمره - ﷺ - شيئاً مع أنه كان في موقع أنظارهم وكان « أبوبكر » كلما اشتد به الخوف وزاد عليه الهلع والفرع ، قال له صاحبه (« لا تحزن إن الله معنا » .

وقد دلت تلك المخاطرة التي أقدم عليها رسول الله - ﷺ - حينما كان لا بد له أن ينأى عن تلك الوجوه الكالحة .

وبباعد ما بينه وبين تلك النفوس الخبيثة على أنه كان مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن أعداءه لا يستطيعون أن ينالوا منه ولا أن يظفروا به ولا أن يستعدوا عليه وإلا لكان همُّه أن يهرب وكفى أو أن ينجو فحسب ولكننا رأيناه يخرج بالليل ثم يعود بالنهار ورأيناه يحثو في وجههم التراب غير مبال بما يستهدف له من انتقامهم أو ما يتعرض له من سخطهم .

وفي كتب التاريخ : أنهم بعد أن أصابهم هذا الحادث بدوار في رؤوسهم رصدوا جائزة مغرية لمن يجيء بخبر « محمد » - حيا أو ميتا - أو من يدهم على الطريق الذي سلكه والجهة التي انتهى إليها وكانت تلك الجائزة مائة بغير هي نصاب من المال لا يعدم أن يرفع الذي يحزره من ذات الصدع إلى ذات الرجوع لذلك تقدم « سراقه بن مالك » المدلجى الكنانى لهذه المهمة وقال لهم : « أنا ضمين لكم بذلك » وهناك ركب فرسه إلى حيث سار « محمد » و « أبوبكر » على الرغم من أنها سلكاً طريقاً مهجوراً لا يعرفه أحد ولا يمشى فيه انسان وكان السبب في ترك المسافرين له ، وعدم خطوره لهم ببال أنه غير ممهد ولا قريب المسافة ، وما كان لسراقه أن يعرفه لولا أنه سمع رجلاً يغنى بهذا البيت .

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

فأخذ يتقصى منه خبر هذين الرفيقين وماذا عساه أن يكون لهما من نأى حمل الشاعر على أن يسجله وجعل ذلك وغيره من الناس يتناقلونه والناس إنما يتناقلون الطريف من الحوادث أو الغريب من الأخبار .

ولابد أن يكون الفضول قد دفع غير (سراقه) أن يسأل لكن (سراقه) كان أسرع من سواه وطار إلى القوم ثم ركب إلى حيث يمر بخيمة « أم معبد » وربما سأها - كما سألتها قريش بعد - وعرف أن رجلين أضناها الجوع وأنهكهما المسير وأعيأهما التعب قدما إلى خيمتها يسألانها طعاماً أو شراباً ولم يكن عندها شيء من الزاد أو الماء ولم يكن بخيمتها غير شاه هزيلة كان ضرعها من الهزال والجوع لم يدر قطرة واحدة من اللبن منذ زمن بعيد وأن أحد هذين الرجلين طلب الشاه فقراً على ضرعها بعض الأدعية ثم احتلبها فحلبت فشرب هو وصاحبه وأعطى بقية الذي حلبه لصاحبة الخيمة . . وارتحل الرجلان وخلفا وراءهما هذا الحديث المروى .

ولم يشك « سراقه » في أن يكون هذان الرجلان « محمداً وأبوبكر » الذي يصاحبه في كل شيء .

في الطريق إلى المدينة

على الرغم من أن الطريق الذي سلكه رسول الله - ﷺ - لم يكن مألوفاً للمسافر إلى المدينة ولا معروفاً لقوافل التجارة التي كانت تنتقل من هنا وهناك فقد كان حادث خيمة « أم معبد » هو المفتاح الأول في أن يضع « سراقه » يده على الخيط الموصل لكنه لم يكن وصولاً ساراً ولا هداية نافعة إذ أن فرسه لم تكد تصل به إلى حيث كان « محمد وأبوبكر » حتى ساخت قوائمها في التراب وتوقفت حركتها وكأنها أصابها ذهول أو اعتراها شيء لا تدري ما هو فظلت مكانها لا تحاول أن تغادره إلى الأمام ولا إلى الوراء ثم بعد غيبوبة طويلة عن الوجود انتزعت قوائمها بعنف انفجر له مكان تلك القوائم بصوت مزعج وحركة مخيفة ، ذهل لها « سراقه » ولم يسعه إلا أن يطلب الأمان من « محمد » فأمنه - ﷺ - على أن يتأخر في الرجوع إلى قريش ريثما تكون الرحلة قد انتهت أوقاربت الانتهاء حتى لا يستطيعوا أن يدركوه .

وقد طلب (سراقه) كتاباً يثبت وصوله إلى الضالة المنشودة وحصوله على الغرض المطلوب رجاء أن يكون شفيعاً له في استحقاق الجائزة المرصودة فرغب النبي إلى (أبي بكر) أن يكتب لسراقه هذا الكتاب فكتبه ومضى (سراقه) إلى قريش ليخبرهم خبره فظنوه يتوهم أو يتخيل إلا أنه بعد أن أطلعهم على الكتاب الذي كتبه (أبوبكر) بيده أطمأنوا إلى صدقه وأذعنوا لقوله ثم عاتبوه على البطء في العودة الذي حال بينهم وبين ادراكه والحيلولة بينه وبين دخول المدينة فاعتذر بوعورة الطريق والتواء المسالك والخوف الذي يكتنف المسافر ولم يخبرهم عن السبب الذي حمله على التأخير حتى لا يتهموه بمجاملة (محمد) أو العمل على مرضاته لأنه وهب له حياته وكان في استطاعته أن يأخذه بذنبه أو يقوده أسيراً .

وعلى كل حال فقد كان يهون المسافة التي كان طولها مملاً بغيضاً أن « أبا بكر » وهو العالم بأنساب العرب وأخبارهم كان يقص من التاريخ ويروى من حوادث الأيام ما يطرد الهم ويشيع المرح والأنس في نفس النبي - ﷺ - فلا يحس تعباً ولا يشعر بألم ولا يدركه إعياء ولا فتور .

ومع ما كانت عليه تلك الرحلة من المشقة التي ظل محمد - ﷺ - يعانيها هو وأبوبكر فإنها كانت مشقة حبيبة إلى نفسيهما سهلة الوقع عليهما لإحساسهما العميق بأن المدينة سوف تكون الدار الطيبة والبيئة الصالحة والتربة الخصبة والوطن العزيز الذي تجد الدعوة فيه من الازدهار والكمال والثبات والاستقرار ما كانت تتوق إليه فلا تجده وتتطلع إليه فلا تكاد تقرب منه .

وقد كان من العوامل المهمة في الاستهانة بالمتاعب عامل آخر لا يصح اغفاله في تاريخ الهجرة والحديث عنها وهو أن « محمداً » - ﷺ - في كل خطوة يخطوها وفي كل مكان يمر به كانت تفتح له قلوب الناس وتترامى بين يديه أفئدتهم وتحفه من كل جانب ضمائر تتأجج بنار الشوق وتشتعل بلهب الحب وتخف من مكانها لاستقباله والحفاوة به وتطلب منه أن يعرج عليها وينزل بين ظهرانيها .

ولم يكد يصل إلى « قباء » وبينها وبين المدينة ثلاثة أميال - حتى وجد أهلها صفوفاً على الطريق يتشوقون إليه . ويتلهفون عليه ويرجون رجاء حاراً أن ينزل في رحابهم ويقيم بينهم وكان ذلك في الضحى والشمس تلمح بنارها الوجوه ولا يقوى على استقبالها والصبر على لدغها القوى إلا من يتناسى أذاها وألمها

في سبيل حاجته الملحة وهدفه النبيل وغرضه الأسمى وكان على رأس أهل « قباء » أشرافهم ، ورؤساؤهم من بني « عمر بن عوف » .

وكان في هذا الوقت نفسه ينتظر هذا الانتظار ويتربص هذا التربص ويصطف على جوانب الطرق أهل المدينة من لدن طلوع الشمس إلى غروبها إلا أنه آثر أن يستريح في « قباء » وأن يبني فيها مسجداً تقام فيه الصلوات وكان هذا المسجد أول مسجد في الاسلام أعلن فيه المسلمون عبادتهم^(١) ثم اجتمعت كلمتهم على نصرة الرسول ورفع راية الاسلام والجهاد الحق في سبيل الله فهو ذلك المسجد الذي امتدحه الله إذ يذم غيره حين يقول في سورة التوبة : (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا نقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)^(٢) وهو هذا الذي أسس على التقوى من أول يوم . . وأهله هم هؤلاء الذين يصفهم (القرآن) بأنهم يحبون أن يتطهروا وإذا تحدث المؤرخون عن تبائه - ﷺ - لهذا المسجد وأنه خطب بالناس هنالك خطبة الجمعة وصلى بالناس وفهمنا نحن أنه كان بناء على الطريقة المألوفة باللبن أو الحجارة اعتماداً على أن المدة التي أقامها بقباء كانت ثلاثة أيام وهي لا تتسع للبناء بمعناه الواسع فإنه كان - على كل حال - رمزاً للانتقال بالدين من مرحلة العقيدة والايمان إلى مرحلة العمل ، وهي المرحلة التي كانت المدينة السبب الأصيل في وجودها ، ولولا الهجرة إليها لما ظفر الاسلام بهذا الغنم إلا بعد عنف عنيف وجهد شاق .

أما المسجد الثاني بعد مسجد (قباء) هذه فقد كان بالمدينة - وهو المسمى بالحرم المدني - ومن حديثه الرائع أن الرسول - ﷺ - لما دخل المدينة بين تهليل أهلها وفرحهم كانوا يتنازعون زمام ناقته ليأخذوها إلى حيث ينزل ضيفاً عليهم وكان كلما أنتزع أحد زمامها يقول لهم الرسول : (خلوا زمامها فإنها مأمورة) ثم لا يزالون - كذلك - ولا يصرفهم النبي إلا بهذه الكلمة حتى مع أخوال جده « عبد المطلب » - بني النجار - الذين مات أبوه عندهم وفي حين أن طمعهم في نزوله كان شديداً لتلك القرابة القريبة بينهم وبينه : فإنه قال لهم كذلك : (خلوا زمامها فإنها مأمورة)^(٣) .

وأنهى أمر تلك المأمورة بأن بركت على مقربة من دار « أبي أيوب الأنصاري » ثم قامت فبركت على باب دار « أبي أيوب الأنصاري » ثم قامت وعادت ثانية إلى موضعها الأول :

كان تفسير ذلك أن المكان الأول هو مكان المسجد والمكان الثاني هو مكان ضيافته - ﷺ - فإن « أبا أيوب » حمل رحله ونزل به عنده وكان له شرف تلك الضيافة دون أهل المدينة .

وكان من طريف ما يروى عن تلك الضيافة أن دار « أبي أيوب » كانت ذات طابقين اثنين فاختر النبي الطابق الأول وألح « أبو أيوب » أن يختار - ﷺ - الطابق الثاني رفعاً لشأنه وتكريماً لأمره ولم يكف عن إلحاحه في ذلك إلا بعد أن أقنعه الرسول أن زواره كثيرون .

(١) سيرة ابن هشام ١٥٨/٢ طبعة الأردن

(٢) سورة التوبة الآيتان : ١٠٧ - ١٠٨

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٦/١ والبيهقي في الدلائل ٥٠٣/٢ وجمع الزوائد ٦٣/٦

في المدينة

وصل - ﷺ - إلى المدينة ومعه المسلمون وكلهم خاوى الوفاض بادی الانقاض كما يقول الحريري في المقامات وما منهم إلا من له في مكة ابن أو أب أو أخ أو زوجة أو أم أو أخت أو انسان عزيز عليه أن يفارقه أو يرى نفسه بعيداً عنه إلى جانب أنهم لا يملكون زاداً يتبلغون به ولا ماء يشربونه ولا داراً يأوون إليها .

والفقر إذا ما تناول الناس في ناحية من هذه النواحي كان هو الموت الأحمر ولكنه القدر القاسى يأبى إلا أن يضيف إلى مرارة الاغتراب وفراق الأهل والأصحاب مرارة الحاجة الشديدة والبؤس المحقق والمسلمون في المدينة إن اتسعت صدورهم ودورهم لضيافة النازلين عليهم لا تتسع أموالهم وأرزاقهم وإن كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة لهذا كان النبي - ﷺ - يهتم كل الاهتمام بأن يأخذ كل واحد من المهاجرين في عمل يكسب منه قوته حتى لا يكون عالة على أخيه من الأنصار على الرغم من أن الأنصار لم يتركوا باباً من أبواب البر بإخوانهم إلا ولجوه عليهم وفتحوه لهم ليشعروا إنهم لم تنأ بهم الدار أو تنقطع بهم الأسباب أو توصل في وجوههم السبل أو تقتر عليهم الأرزاق .

ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المريعة التي مر بها المهاجرون حينئذ إلا وهم لا يقلون في ثرائهم وكثرة أموالهم وانتعاشهم الاقتصادي عن السكان الأصليين - في المدينة من المسلمين وغيرهم وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين في هذا الوقت تلك التي أعطاها من نفسه عبد الرحمن بن عوف وقد أخذت المؤاخاة والامتزاج والشركة بين الفريقين من المكيين والمدنيين تتحكم وأصرها وتسود أسبابها إذ آخى النبي - ﷺ - بينه وبين (سعيد بن الربيع) الأنصارى وقد عرض « سعد » عليه أن يقاسمه أهله وأمواله فأبى ذلك وقال له : « بارك الله لك في أهلك وأموالك دلني على السوق » فدلّه على السوق وكان يتجر في الأقط والسمن ثم ما لبث أن كان من الأغنياء وكان من أكثر المسلمين بذلاً في سبيل الله إلى درجة أنه ساهم في تجهيز جيش العسرة أعظم المساهمة .

وهكذا يخبر التاريخ عن المهاجرين أنهم لم يكونوا مثلاً من أمثلة البطالة والتواكل والعجز والاستجداء لكنهم اشتغلوا بالتجارة والزراعة وفرضوا أنفسهم في المجتمع الجديد سادة لا سوقة .

ومن المعروف في هذه الآونة أن « محمداً » - ﷺ - جعل بعد وصوله إلى المدينة بئراً اشتراها المسلمون من يهودى بأربعين ألف درهم ليكون الانتفاع بمائها لجميع المسلمين حتى لا يشعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء لكن هذا كله لا يعنى أن النبي - ﷺ - ومن كان معه من أهل مكة اطمأنت ضمائرهم كل الأطمئنان في بلد ، هم وافدون عليه نازحون إليه تعاودهم ما بين آونة وأخرى فكرة أنهم قد انتهت بهم المطاردة عنده وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان ما يحملهم على الرضا بالأمر الواقع أو تنسيهم بلداً فيه البيت الذي جعله الله للناس مثابة وأما وهم في المدينة لا يعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافر الذي ينتظر الأوبة ويرجو لقاء أهله وعشيرته حتى رسول الله - ﷺ - الذي كان يظهر حنينه ويبدى تشوقه ولهفه وإن كان بنى المسجد وبنى بيوت زوجاته لاصقة به ليغرس في قلوب الذين هاجروا معه الحب لهذا الوطن الجديد والاطمئنان إليه والرضا به « وكل مكان ينبت العز طيب » .

وقد أخذت جذور الدعوة الاسلامية تمتد وتتمكن وشرع الله الآذان والصلاة والصيام والزكاة وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام وكان للمؤاخاة التي ربطها النبي ﷺ - بين المهاجرين والأنصار والمعاهدة التي جمعت بين اليهود والمسلمين الأثر البالغ في تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشا في مكة تحشى بأس المسلمين وتخاف أن تحدثهم نفوسهم باعلانهم الحرب عليهم وغزوهم في عقر دارهم انتقاماً لأموالهم المسلوبة وأهلهم المعذبين ودينهم المضطهد وحریتهم المحاربة وكرامتهم المضیعة لذلك أخذت حمى الخوف والهلع والجزع والفرع تسرى في أفئدة طواغيت للشرك هناك مما عساه أن يلحق بهم أو يطرأ عليهم فلم يكن لهم شاغل وراء الاستعداد للاجهاز على تلك الدولة التي يؤسسها « محمد » ﷺ - في المدينة لهذا كانت لا تفتأ تتحسس أخباره وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه وتبذل لذلك كله ما تبذل لترى إلى أى مدى تبلغ قوته إذا هي حاربتة أو خرجت لملاقاته وكان رسول الله ﷺ - كذلك - يتبع أخبارهم ويعرف ما يبيتون له وكان عمه « العباس » هنالك يكتب له تحركاتهم وشروهم التي يضمرونها .

وكان التشريع السماوى والأدب النبوى يسيران جنباً إلى جنب في تكوين الوحدة الاسلامية والمبادئ الانسانية والأخلاق النبيلة لتتلاقى القلوب ويجتمع الشمل وتذوب الفوارق ، وتسود المحبة وينسى كل انسان عصبية لأهله وذويه أمام دينه الذى كان له منه نسب وصهر .

وليست هذه المعاني بالأمر اليسير في نظر مشركى « مكة » الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد والمسلمين معه فقد كان الصراع في أفئدتهم على أشده من جراء هذا الزحف الذى يجيء به الغد المنتظر على الرغم من علمهم الذى لا شك فيه أن عناصر أخرى تشاركهم عداوة هذا الدين الذى يدعو به « محمد » وأصحابه ، لكن قريشا كانت على يقين أن هذه العناصر لا تلبث أن تصير هباء إذا هبت عليها الريح العاصف من غضبة أولئك الذين عاهدوا (محمداً) على أن يقفوا بجانبه ويدافعوا عنه ويردوا كيد المشركين إلى وجوههم إن حدثتهم نفوسهم أن ينالوا منه أو يلحقوا به شيئاً من الأذى والهوان .

عنت اليهود

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد طمأن اليهود على مستقبلهم وحریتهم وكرامتهم وأفهمهم أنه سوف لا يتعرض لعقائدهم وعباداتهم وأنهم سيكونون - معه - في تقديرهم واحترام ملكيتهم وحق تنقلهم وتصرفاتهم في أموالهم وطقوسهم كالمسلمين والمعاهدة التي وقعها وإياهم تضمن لهم هذه المعاني كلها لا يبخل فيها ولا ينحرف عنها ولا تحدثه نفسه بنقضها أو الخروج عليها .

لكن البوادر التي كانت تبدو في المناسبة تلو المناسبة تدل دلالة لا تقبل الريب والشك على أن نفوسهم تغلى بالحقد وجوانحهم تتأجج بالكراهية وأنهم يستعدون لجولة مفضوحة .

﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ (١)

ويقول أساتذة التاريخ الاسلامى : أنهم كانوا يطمعون أن يسيطروا على « محمد » - صلى الله عليه وسلم - ويسخروه للدعوة اليهودية ، لا يتحرك إلا بإرادتهم ولا يدعو إلا بما يرسمونه له من المبادئ والآداب والدساتير والنظم فلما رأوا أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً وأن حركته وسكونه وقوله وفعله وتوجيهه وإرشاده وهديه وتعاليمه وأوامره ونواهيه إنما يتلقاها من السماء ويأخذها عن رب « موسى » و « عيسى » والأنبياء من قبله وأنه ماض في خطة هو فيها مسخر لا غير ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾^(١) لا تحركه شهواته ولا يدفعه طموحه أخذوا ينفضون أيديهم من الآمال التي علقوها على طيه في أيديهم ووضعه في جيوبهم وتملكهم لزماته وحينئذ بدت الأحقاد والضغائن .

على أن اليهود إلى جانب ذلك كانوا في المدينة رجال أعمال ومال يحتكرون الأسواق ويحذقون أساليب الربح ويتفنون فنون التجارة ويحولون التراب إلى ذهب والمهاجرون من مكة زاحموهم في الأسواق ونافسوه في التجارة وضيقوا عليهم مجال العمل فلم يعد لهم من الربح والاستغلال والاحتكار مثل الذى كان لهم من قبل وهم الذين يجعلون المال إلههم من دون الله لذلك ضاقوا ذرعاً بمحمد وأصحابه لأنهم عكروا صفو حياتهم ونقصوا عليهم العيش الذى كانوا يتمتعون به . . . ومن وراء هذا وهذا كان « عبد الله بن أبى سلول » على وشك أن يراه الناس :

يلمع التاج فوق هامته على جبين كأنه الذهب

لأن اليهود كانوا يعدون العدة لتتويجه ملكاً عليهم - وإن لم يكن يهودياً فقد كان عميلاً لهم يعيش بعواطفهم ويجعل نفسه ذيلًا في مؤخرتهم فلما أشرق على المدينة نور الرسالة وسطعت شمس الهداية ذهبت تلك السحب وزال هذا الضباب وخابت ظنون وأحلام أوحى بها الأمانى الكاذبة والأوهام الباطلة .

وقد حدث أنه - صلى الله عليه وسلم - كان ذاهباً لزيارة « سعد بن عبادة » الخزرجى الأنصارى لمرضه وفي طريقه إلى بيت « سعد » رأى جمعاً فيهم « ابن أبى » - ويظهر أنه كان لا يزال على الكفر - ورأى النبى أن يسلم عليهم وأن يتحدث إليهم وكان في حديثه شيء من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والأمر والنهى والحلال والحرام فما كان من « ابن أبى » إلا أن قال له : هذا كلام تبذله لمن يطلبه وتذيعه لمن يتشوق إليه وتجلس في بيتك لتقوله لمن يفد عليك لأنك تؤذى به الأحاسيس وتثير به العواطف وتهيج به حفاظ الناس ولما انتهى الرسول إلى بيت « سعد » وسلم عليه رأى في وجهه الألم وعدم الارتياح فقال له : أرى في وجهك يا رسول الله تغيراً ينبىء عن غضب لأمر لم يصادف منك رضا وارتياحاً فأخبره الرسول الخبر فقال له سعد : اعذر يا رسول الله لأنك جئت إلينا ونحن ننظم له الخرز لتتوجه علينا وكان مجيئك تبديداً لأحلامه وخيبة لظنونه وضياعاً لما كان يرجوه ولهذا كان الدور الذى قام به « عبد الله بن أبى » - رأس المنافقين - من الكيد للإسلام واشعال نيران الفتنة في كل مناسبة وإقامة العقبات والعراقيل في وجه الدعوة لا يستهان به في رأى المنصفين معه علماء السيرة النبوية وربما كان هو وحده وراء التمرد الذى كان صلى الله عليه وسلم يقاومه في صفوف المنافقين تارة ويقاومه في صفوف اليهود مرة أخرى .

وفي هذه الآونة كان المسلمون يصلون إلى بيت المقدس وكان هذا ذريعة لأن يُعير اليهود « محمدا » وأصحابه أنهم يستقبلون قبلتهم ولا يتبعون شريعتهم وكان لهذا القول وقع السوء على نفس « محمد » وأصحابه فهو لذلك يترقب بفارغ الصبر أن يحول الله وجهه إلى البيت الحرام بمكة الذي تهفو إليه مشاعره ويرتبط به وجدانه وكان لشدة - طمعه في أن يحقق الله هذا الرجاء يتطلع بوجهه إلى السماء ترقباً للوحي الذي ينزل عليه وهناك نزلت الآية : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (١) وبذلك اطمأن خاطره واستراح قلبه وانقطعت قالة اليهود وأصبحوا يفكرون في أشياء أخرى جديدة يبلبلون بها الأفتدة ويشككون بها الناس وينغصون بها الصفو على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الدكتور « هيكل » في كتابه (حياة محمد) : « وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لئداً وأكبر مكرًا من حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش بمكة وفي هذه الحرب تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين جمعتهما اليهود صفوفًا متراسة يهاجمون به محمداً ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار ودسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه وجلس بين المسلمين بادياً في غاية الورع والتقوى ثم لم يلبث الحين بعد الحين أن يعتنى من الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يززع في نفس المسلمين عقيدتهم به ورسالة الحق التي يدعو إليها وانضم إلى اليهود - في ذلك كله - جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقاً وبلغ من تعنتهم - اليهود - أن كانوا ينكرون ما في التوراة ويسألون محمداً : إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم .

والنبي - صلى الله عليه وسلم - كان في غاية الحرج مع المنافقين لأنهم - في الغالب - كانوا من أهل المدينة ولقرابتهم وأهليهم عنده حق الرعاية والاحترام وليس من الكياسة أن يغضبهم وأن يحول موقفهم معه إلى موقف العدو اللدود فيكثر بذلك خصومه الذين يناوئونهم لهذا كان يعاملهم برفق ويكل أمرهم إلى ذويهم وقد أراد « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه - أن يفتك بعبد الله بن أبي بن سلول فمنعه الرسول وقال له : (أترضى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) . وكان لعبد الله بن أبي ولد من خيار صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعى « عبد الله » أيضاً - فاستأذن الرسول أن يقتل أباه بيده حتى لا تأخذه الغيرة على قاتله فيقتله ويرتكب حراماً ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (لا تقتله ولا يقتله سواك) (٢)

وكان من الحزم القضاء على أصل الداء - اليهود - الذين مكنوا للنفاق في المجتمع الاسلامي .

بعد الاستقرار

انتهى المطاف بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه بالمدينة واستقبلهم أهلها بالهشاشة

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٤

(٢) الإصابة لابن حجر ٣٢٧/٢ مجمع الزوائد ٣١٨/٩ تاريخ الطبري ٦٠٨/٢

والبشاشة والسرور والرضا والارتياح والاطمئنان واتجه كل واحد من المهاجرين إلى العمل الذي يناسبه من التجارة أو الزراعة ليصل على لقمة العيش التي تمسك أوده وتقيم صلبه فلا يكون عالة على غيره ولا عبثاً على سواه إلا أن الأمر لم يكن لينتهي إلى هذا الحد فيرضى كل منهم الرضا كله ويستريح الراحة التي لا يشكو بعدها أيها ولا تعباً ويخاصة الرسول الكريم الذي يخطط لحياة طويلة وسياسة دائمة ودولة يستطيع بها أن يكبح جماح الظلم ويعيد طغيان الكفر ويقضى على فساد الحكم وفوضى السلوك والأخلاق .

وفي مكة التي هاجر من وجه أهلها لا يزال بها الخطر الذي يتحين له فرصة الإيلام والإيذاء والجبروت والتعدي - والمطاردة والقهر والقضاء على دعوته والإجهاز على من يقفون معه أو يؤمنون به وكذلك كان الحال في المدينة التي ظن أنه سيجد فيها جواً نقى وحالاً أهدأ لكنه واجه اليهود بها يضمرون الشر ويكتمون العداوة ويلهبون في قلوب المنافقين نيران البغضاء ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان وإشاعة التفكك في صفوف المسلمين حتى لا تقوى لمحمد شوكة ولا تقوم للإسلام دولة وينتهي الحال بهجرة أخرى عن المدينة كالهجرة التي كانت من مكة وقد راود هذا الحلم أفكار بعض اليهود فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - لماذا لم تهجر إلى (بيت المقدس) كما فعل الأنبياء والمرسلون من قبل ؟ ومن أجل هذا كله فالنبي - صلى الله عليه وسلم - كان في المدينة على حال لا يحسد عليها وقد حمله هذا على أن يلتزم المبدأ القائل : « اطلب الموت توهب لك الحياة » وطلبه الموت كان ممثلاً في تلك الخطة التي سار عليها :

أراد أن يفهم قريشاً أنه لا يصح لها أن تستمر على موقف القوة الذي تقفه منه فتعامله معاملة الضعيف الفار من وجهها الهارب من عدوانها الناجي بدينه منها فتظل على تفكيرها في قتله أو الظفر به ولم يجد وسيلة لذلك أحسن من أن يرسل السرايا من المسلمين لتقطع عليهم طريق التجارة إلى الشام ولتشيع هنالك الفرع والخوف فلا يجرؤ أحد على اقتحامه أو السير منه إلا بقوة مدججة بالسلاح وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال أو يتحولون بتجارتهن إلى طريق آخر أكثر مشقة وأبعد مدى وفي هذا تعطيل رحلاتهم وكساد تجارتهم وإيلام لنفوسهم وإثارة لحفيظتهم وأكد النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأحلاف التي ربط بها بينه وبين القبائل والأقوام المختلفة التي تستوطن هذا الطريق ذلك المعنى الذي قصد به حرب العصابات التي تشنها جماعته على قوافل التجارة وكان الهدف الذي يرمى إليه أن تفكر قريش في تسوية حسابها معه - كما يقولون - اعتداء يستطيع المسلمون في مكة في ظلها أن يعيشوا في سلامة من شرهم وبعد عن إيذائهم ويترتب على ذلك أن المنافقين واليهود في المدينة يكفون عن نوايا السوء التي يضمرونها والخطط الخبيثة التي يرسمونها ولم يمض عامان كاملاً على اغترابه في المدينة حتى كان في استطاعته أن يلتقي بهم وجهاً لوجه ملاقة الند للند وكان له جيش يستطيع به أن يتهدد لقاءهم ويشرذم جموعهم ويشيع في صفوفهم الهلع والرعب .

وبعد ثمانية أشهر من إقامته بالمدينة بعث بعمره « حمزة بن عبد المطلب » في ثلاثين راكباً من المهاجرين فالتقوا بأبي جهل بن هشام في ثلاثمائة من أهل مكة كان « حمزة » هو وجماعته على استعداد لقتلهم لولا أن حجز بينهم جهنم كان موادعاً للطرفين وسار « عبيدة بن الحارث » عقب هذه المسيرة في

ستين راكبا ليقطعوا الطريق على « أبي سفيان » ومائتين كانوا معه وقد انسحب أبو سفيان ومن كان معه وخرج كذلك « سعد بن أبي وقاص » في ثمانية .

وهكذا خرج يتبعه آخر وآخر ، إلى أن أصبحت قريش تفكر تفكيراً جاداً في سلامة تجازتها وأمن طريقها وبخاصة وقد رأوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخرج بنفسه لملاقاة (أمية بن خلف) وملاقاة (أبي سفيان) .

ويقول بعض كتاب السيرة : أنه كان - صلى الله عليه وسلم - لا ينتدب لهذه العملية إلا المهاجرين بحجة أنهم هم المعتدى عليهم من أهل مكة الذين غنموا أموالهم واغتصبوا حقوقهم وخربوا ديارهم وأوقعوا الأذى بأهلهم وإلى جانب ذلك فرجاً كان في هذه القوافل بعض من يربطهم بهم دم أو قرابة فيحول ذلك بين قتالهم وإزهاق أرواحهم ويشير فيما بينهم عاطفة النسب وروح الاتصال وشائج الارتباط وعلى كل حال فقد كان هذا الموقف ضرورياً لأنه على الأقل منع قريشاً من مواصلة عدوانها وحملها على أن تحسب للمسلمين بالمدينة - من المهاجرين وغيرهم - ألف حساب . ثم تنتهي إحدى السرايا إلى نهاية تثير بعض النفوس وتوقف المسلمين موقف النقد وإن كان نقداً لا قيمة له ويرجع ذلك إلى أن « عبد الله بن جحش الأسدي » بعثه النبي - صلى الله عليه وسلم - في رجب من السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين لينزل بنخلة بين مكة والطائف ليرصد أخبار قريش لكنه لم يكتف بهذا التخطيط الذي رسمه له الرسول وإنما إنتهى به الأمر إلى أخذ عير بما تحمله من عروض التجارة المختلفة وقتل « عمرو بن الحضرمي » الذي كان يقودها هو وجماعة معه وقد جاء إلى النبي بتلك العير وأسيرين وكان هذا الحديث الذي أحدثه « عبد الله بن جحش » مثار أحاديث ردها المشركون والمنافقون على السواء كلها كانت لمزاً جارحاً وطعناً حقيراً ورمياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه لم يحترم الأشهر الحرم التي كانت لها قدسيته عند الناس منذ الجاهلية لم يسفكوا فيها دماً ولم يعتدوا على حرمة من المحرمات وقد أخذ بعض من تعطفهم العواطف على « عبد الله » يلتمسون له العذر ويصححون له الوضع وقال فريق منهم : إن القتل كان حيث كانت اللحظات الأخيرة من رجب قد تصرمت . وأثار ذلك القول الرسول نفسه - بعد أن وصل إلى أذنيه دوى المرجفين - فأبدى غضبه من (عبد الله بن جحش) وقال له : (لم آمرك بقتال ولا بسفك دم) . ولما حمى وطيس هذه الفتنة واتخذها المشركون والمنافقون ذريعة للطعن والتشويش نزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (١) .

يستعرض سلوكهم السيء وتاريخهم الأسود وماضيهم الملوث ومواقفهم المزدولة وكان هذا الخطأ الذي ارتكبه « عبد الله » لا يساوى شيئاً إلى جانب صدهم عن دين الله ومحاربتهم للحق وانحرافهم عن الجادة والتوائهم عن الصراط السوى وكأنما كان ذلك المنطق الذي سمعوه والأسلوب الذي جوبهوا به بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم وتنزل على رؤوسهم لأن من أحق الحمق وأكبر الكباثر أن يرى الرجل القذى في عين أخيه ثم لا يرى الجذع في عين نفسه .

شبهة ندفعها

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التي كان يرسلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من جماعة المهاجرين ، الواحدة تلو الأخرى مكونة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش إلى الشام أو الآبيين منها من أجل تجارتهم التي كانت الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ونماء أموالهم ، ووفرة أقاتهم : إن هذه حرب عدوانية لا يصح للداعية أو المصلح الاجتماعي أن يلتجئ إليها أو يجعلها معتمدة في نشر أفكاره وبث تعاليمه والاقناع بأنها الحق الصالح والرأي والصواب . . . وقد بالغ قوم في هذه الشبهة فزعموا أن دين « محمد » - صلى الله عليه وسلم - انتشر بالسيف وتمكن بالعنف وارتفعت رايته بالقوة وأخذ به معتنقوه حين لم يجدوا بداً من الدخول فيه والايمان به والوقوف إلى جانبه ليردوا عن أنفسهم طغيان القوة وجبروت السلطان وبطش الكثرة الكاثرة ممن وضعوا أرواحهم لمطامعه وانتصارا لمبادئه وتأكيدا لطموحه في السيادة والملك وهو قول إنما يقول به من يتجرد من المنطق ويجافي الحق ويجانب الصواب ويناقش مناقشة الأطفال ويحاول بلغة المجانين ويزعم أن دعوة محمد كانت تسلطا أو ملكا أو رياسة أو قيادة لجماعة من البشر يريد أن يسخرهم لمطامعه العدوانية وشهواته المسفة وكبرياته المصنوع كما كان الفراعين والقيصرية والأكاسرة الذين علوا في الأرض بغير الحق في حين أن دعوته هذه كانت : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) .

لا تعاند الطبع ، ولا تخالف الذوق ولا تعارض التقدم ولا تقود الانسان إلا إلى الصلاح والفلاح ولا يمكن للبشرية أن تسعد السعادة التامة دون أن تلتبس منها الرشد وتستمد منها الهداية وتجعل منها طب نفوسها وعلاج أمراضها .

ومع أنها كذلك فما صح أنه أرغم عليها أحد أو الجأ إليها انسانا وكتابه الكريم ينادى بأعلى صوته يقول له لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي وهو في الوقت الذي يجعل الأخذ بهذا الدين والايمان به قائماً على الاختيار لا الاضطرار يشرع للمسلم القتال دفاعاً عن عرضه أو ماله أو نفسه أو دينه . . . وإذا نحن حققنا النظر في تلك الحرب التي كانت تدير رحاها السرايا التي أشاعت الخوف في الطريق إلى الشام أو منها وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحداً من هذه الأمور الأربعة التي جعلناها أسباباً واضحة تبرر التحام الجيوش في ساحات القتال ، فأموالهم في مكة قد اغتصبت ودينهم يناله الايلام والايذاء والمطاردة والصد ونفوسهم مهددة بالقضاء فهم يقفون من كفار مكة الموقف الذي لا بديل عنه ويساقون إلى حربهم بحكم الدفاع الذي لا بد منه وحيثما انتهى قرار المسلمين بالمدينة واتخذوها الموطن الدائم كانت بحكم هذه الاقامة الدولة التي يحمون حوزتها ويدافعون عن حدودها ويرون من يغير عليها وتلك الطريق التي كانت تسلكها قريش وتنتهك حرمتها كانت في حدود الدولة وكان عليها لتمر منها أو تستخدمها لمصلحتها - أن تستأذن عليها كما تقضى بذلك الأعراف الدولية .

على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ظل يكتفى منها بهذا النفر القليل الذي يثير الرعب ويشيع الفرع فلم يجعلها حرباً بمعنى الكلمة تتخذ لها الأهبة ويوفر لها الاستعداد من الذخيرة والسلاح والرجال لأن القصد الأول كان تعرفها أخبار قريش وتحركاتها واستعدادها لمواصلة القضاء على المسلمين وكبت نشاطهم والحد من تحركهم واتساع نطاق دعوتهم والمنصفون من المؤرخين إنما يعيرون على المصلحين أو أصحاب الدعوات التقدمية الحرب الهجومية إذ هي التي يشتت منها القسر والقهر والاكراه والالغاء والالزام الذي لا اختيار معه ولا يدع مجالاً للمنطق والتفكير والترجيح والموازنة كما يفعل الذين يدعون للحق ويؤمنون بالصواب أما الحرب الدفاعية التي ترد العدوان وتصد الباطل وتزود شرور الاستبداد وطيش الرعونة وسفاهة الحمقى فإنها مسلمة بالبداية والفطر لا ينكرها عقل ولا باباها ذوق ولم تكن حروب الاسلام في يوم من الأيام هجوماً ولا بطشاً وإنما كانت لدفع الظلم ورد البغى وكبح جماح الباطل ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف في كتابه « الدولة الاسلامية » : « إن النبي لم يقم بحرب هجومية إطلاقاً حتى في أثناء المعارك الكبيرة التي وقعت بينه وبين قريش فإن موقعة « بدر » التي حدثت في السنة الثانية للهجرة حدثت داخل حدود إقليم المدينة وعلى إثر تحدى المكيين للنبي وتسييرهم قوافلهم بأراضي المدينة ممتنين حق السيادة اليثرية ، فأبوسفيان حين مر بقافلة في المنطقة اليثرية كان يتحدى أهل يثرب بقوته ويستتثل شأن النبي ولهذا خرج النبي إليه وأراد أن يصادر هذه القافلة أو أن يحاربها وكان أمرها يشغله منذ خرجت من الشام حتى رأى في منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم والطائفة الأولى هي القافلة والطائفة الثانية هي قوات قريش التي كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ومنع النبي من مصادرتها .

« ووقعة » أحد في السنة الثالثة وقعت في جوار المدينة مباشرة وعلى نحو ميلين منها وكان المكيون فيها مهاجمين يطالبون بثار بدر ثم إن النبي خرج في السنة الرابعة إلى « بدر الثانية » لوعده بالحرب كان بينه وبين المكيين يوم أحد فلما كان العام الخامس وهو العام الذي وقعت فيه موقعة « الخندق » كان النبي مستقراً في يثرب وعدوه هو الذي جاء إليه متحدياً منتهاكاً لحقه في السيادة كما كان الحال في عام أحد وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكيين وكان فتحاً خلا من القتال بوجه عام ومع ذلك فإن النبي حرص على الجهاد ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين إلا أن الجهاد لم يكن يقصد به إلا الدفاع وإعزاز الدولة الاسلامية بحيث يعيش في أمن عام وإتاحة الفرصة للمبادئ أن تسير حجة بحجة وبرهانا ببرهان . دون أن تقف القوى المسلمة المادية في طريقها فتصددها وتعطل من سيرها .

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الاسلام ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر وجبروت الظلم وتسلب الجبارين . وتشويش المرجفين وعناد الحمقى وسفه المحرومين على أن دعوى الاكراه والارغام والالغاء إذا صح في هذه الآونة أن يرددها مدع مغرض فهل يمكن أن يرددها الآن عاقل بعد أن أثبت التقدم الحضاري والنضوج الذهني والازدهار العلمي أنه يغزو العقول والأفئدة وبعد أن اعترف فلاسفة الدنيا أنه الذي يجب أن تأخذ الانسانية بتعاليمه لأنه الدين الذي لا تنهض بسواه ولا يصلح حالها إلا به .

ويقول الدكتور هيكل : (وما دامت الحرب في مطرق الناس فتهديب فكرتها في النفوس وحصرها في أدق الحدود هي غاية ما تحتل نظرة البشر وما يحقق للانسان اتصال تطورها في سبيل الخير والكمال وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي والدعوة إليه وهذا ما قرره الاسلام ونزل به القرآن ومن غريب أمر هؤلاء الذين يخوضون في حديث هذا الاكراه المزعوم أو الموهوم ممن يتهمون الاسلام بالعنف واراقة الدماء واشعال نيران الحروب في سبيل إعلاء كلمته وانضواء الناس تحت رايته إنهم ينسون ما جاء به من إرشاد وما أعلنه من هداية وما تضمنه من آداب وما رسمه من خطوط وما دعا إليه من خير لم يتخلف به عن تقدم وعمران ومدنية وحضارة وإصلاح ونفع وكنا نود في هذا الوقت الذي يرمونه بالقسر والقهر والعنف والتسلط والارغام والضغط واراقة الدماء وإزهاق النفوس أن يغمروا جانبه أو يلمزوا تكاليفه أو يتهموا أساليبه في الأخذ بيد الانسانية إلى البر والمعروف لتنتطلي دعوى اتهامه والاختلاق عليه لكن شيئاً من ذلك لم يكن ولا يمكن أن يكون . . . ولو كان عندهم قليل من الانصاف لقارنوا تلك الدماء التي أراقها محمد - صلى الله عليه وسلم - للتمكين لدينه ونشر دعوته بما أراقوه هم باسم (عيسى) و (موسى) وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها وتلك الأموال الطائلة التي كانوا يزودون بها الحملات التبشيرية للصد عن الاسلام وتحويل القلوب والأنظار عنه : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ (١) .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الولايات التي تعانينا البشرية هنا وهناك لا تحتوى إلا باليهودية والمسيحية وهما متهم براء ما في ذلك شك . أما الاسلام فهو لا يزال سلاحاً على الانسانية والناس .

اليهود في الطريق

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يعاني شدة في طريق دعوته إلى الله وإبلاغ رسالته إلى الناس أفدح ولا أعظم من تلك الشدة التي كان يعانيها من المنافقين واليهود غير أن حال المنافقين كان شائكاً لأنهم يعلنون الاسلام وليس من حقه أن يدخل إلى قلوبهم ولا أن يهتك سرائرهم ولا أن يعاملهم الا بظاهر ما يبدو منهم ولكن اليهود كانوا يزعمون في أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لا تقل في تقديرها واحترامها عن دعوة « محمد » وهم لهذا يحب أن يجعلوه مطية طيعة لأهوائهم وأغراضهم أو يزيلوه عن الطريق ليكونوا وحدهم في الميدان لا ترتفع عليهم صيحة ولا يزاخمون منافس . وسياستهم التي يسلكونها - في كل زمان ومكان - تقوم على الكيد المشوب بالذلة والخنوع المختلط بالضعف والتواضع الذي يصل إلى حد الهوان في سبيل الوصول إلى أغراضهم فإن أمكنتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف وعاملوه بالقسوة وأرغموه على أن يركب حد السيف ، يقول الدكتور هيكل :

« فقد كان يثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج

وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت ثم كان بها اليهود يقيم منهم « بنو قينقاع » داخلها ويقيم « بنو قريظة » في « فدك » و « بنو النضير » على مقربة منها وإلى هؤلاء يهود خبير ، أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط وإن بقيت في نفس « محمد » بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوماً ما مما جعله يفكر في وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيراً كان له أثره بعد ، وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج فقد ألفوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً نهكتهم الحروب الماضية فاتجه همهم للوقية بين هؤلاء وأولئك وأما اليهود فبادروا بادئ الرأي إلى حسن استقبال « محمد » ظناً منهم أن في مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله في دينهم والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي أجلت اليهود - شعب الله المختار كما يزعمون عن فلسطين أرض الميعاد وانطلق كل على أساس تفكيره يمهد لأسباب النجاح لبلوغه غايته .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : « كان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنهم من أهل المدينة فلا يستطيعون رد الاعتداء على من يعتدى عليه منهم فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدى وإلقاء الرعب في قلوبهم ممن تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الإسلامية الناشئة في يثرب .

وكان « أبو عفك » - وهو يهودى من بنى عمرو بن عوف - يرسل الأشعار يطعن بها على « محمد » وعلى المسلمين ويحرض قومه على الخروج عليهم وظل كذلك إلى ما بعد بدر يغرى بهم الناس فأخذ « سالم بن عمير » نفسه بالقضاء عليه وذهب إليه في داره ليلا وقتله وكذلك قتل « عمير بن عوف » امرأة من بنى أمية بن زيد تسمى « عصماء بنت مروان » وكانت تعيب الاسلام وتؤذى النبی وتحرض عليه ولم يكتف « عمير » بقتلها بل تحدى قومها حين سألوه في هذا ، فكان لجرأته أثر كبير إذ ظهر الاسلام في بنى خطمة - وهم قوم زوج عصماء هذه - ومن ثم ظهر منهم من كان يخفى اسلامه .

كذلك كان كعب بن الأشرف اليهودى شاعراً شيطاناً أخذ نفسه بالكيد للمسلمين وإرسال الأشعار في التحريض عليهم ولقد ساءت نتيجة « بدر » وآلت نفسه حتى لقد قال حين علم بها : « هؤلاء أشراف العرب ملوك الناس - يعنى قريشا - والله لئن كان « محمد » أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ثم ذهب إلى مكة يرثى أصحاب « القلب » ويحرض قريشاً على الثأر وينشد في ذلك الأشعار وعاد إلى المدينة فأخذ يسب بنساء المسلمين حتى امتلأت النفوس بالغيظ منه وحتى أجمع المسلمون على قتله فذهب إليه جماعة استدرجوه حتى خلوا به وقتلوه وزاد هذا الحادث من مخاوف اليهود ولكنه لم يسكتهم عن « محمد » ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أى فيض .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقظاً لحيلهم بصيراً بكيدهم عالماً بما تمتلىء به قلوبهم العفنة وضمايرهم الخبيثة وطواياهم الفاسدة ونواياهم الشريرة ولقد رأيناهم يأخذهم بحذق ويقلم أظافرهم بحكمة ويقص أجنحتهم ببراعة ويستريح من كيدهم بمهارة وينتهى بهم إلى الإذلال الذى كتبه الله عليهم ولم تكن مانعتهم حصونهم التى أحكموا بناءها . وقد كان بنو (قينقاع) بداخل المدينة يعملون في صياغة الذهب

والحلل وكان المال الذى فى أيديهم يملأ نفوسهم بالخلاء ورؤوسهم بالكبر وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ويطئوا بأرجلهم أشلاءهم لأن اقتصاد المدينة وتجارها وأسواقها بأيديهم هم لا يزاحمهم فى ذلك كله أحد ، وفى ذات يوم قدمت إلى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشتري شيئاً من الذهب فتناول أحدهم عليها وعبث بخبائها وعرى ثوبها عن جسدها فأخذت الغيرة رجالاً من المسلمين فقتل ذلك اليهودى الذى تناول على المرأة المسلمة . وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى إشعال نار حرب بين يهود بنى قينقاع والمسلمين على الرغم من المعاهدة القائمة بين المسلمين وسائر اليهود وقد أعلنوا عدم التزامهم بهذه المعاهدة وتحديهم للنبي - ﷺ - والمسلمين معه وقالوا للنبي ﷺ :

(لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) ولم يكن هناك بد من أن يضرب - محمد صلى الله عليه وسلم - ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح الفوضى التى تهددها والرعب الذى يسيطر عليها وحينئذ حاصر « بنى قينقاع » خمسة عشر يوماً لا يخرجون من بيوتهم ولا يدخل إليهم أحد فى بيوتهم وكان هذا الشلل الاقتصادى الذى نالهم والفرع الشديد الذى أصابهم داعياً إلى أن يظهر « عبد الله بن أبى بن سلول » - رأس المنافقين - على شاشة المسرح ويقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « إنهم حلفائى وأنا لا أحب أن تؤذيني فى حلفائى » وقد أعرض عنه النبي - صلى الله عليه وسلم فلم يصغ إليه ولم يأبه به إلا أن « عبادة بن الصامت » رجاء أن يضيق الخرق على الواقع ويستجيب لرجاء « ابن أبى » ليصبح هو والمشركون الموالون لبنى قينقاع دينين لآحسانه ورحمته وكان رأى الذى انتهى إليه النبي هو استئصال شأفتهم وإبادتهم جميعاً إلا أن رأى الذى استقر عليه بعد ذلك كان خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وأقواتهم وديارهم وكان هذا الخروج إلى « وادى القرى » ثم إلى « أذرعات » على حدود الشام وبهذا الخروج أصبحت المدينة فى مأمن من الفتن الداخلية والدسائس التى تحاك هنالك وإن كان يهود بنى النضير وبنى قريظة على حدودها القريبة .

وكان طبيعياً بعد هذا الذى حل ببني قينقاع أن ينكمش غير المسلمين وأن يصيبهم الرعب لكن « أباسفیان » جمع مائتي رجل وأغاروا فى خارج المدينة على رجلين فقتلوهما وحرقوا بعض البيوت والنخيل يقصدون بذلك إلى إشاعة الفرع فى قلوب الناس وقد ندب الرسول بعض أصحابه ليلحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام وكان أكثر الطعام سوقاً لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السوق وبعد ذلك بقليل قتل « كعب بن الأشرف » فكان ذلك نهاية إذلال اليهود .

أما ما كان من أمر « بنى النضير » فهو لا يعدو أن يكون صورة - كذلك - من صور الخداع واللؤم والمكيدة والغدر والذلة والضعف فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذهب إليهم يستعين بهم على دفع دية قتيلين قتلها أحد المسلمين بطريق الخطأ وكان القتيلان من حلفائهما وحلفائهما - بنى عامر - وقد أظهروا الاستعداد كل الاستعداد لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيلين لكنهم أخذوا يسوفون ويروحون ويجيئون ليدبروا أمر قتله بحجر يلقيه أحدهم فوق رأسه من سطح المنزل الذى يستند إلى جواره إلا أن الله أخبره بما يدبرون له فتسلل من مكانه دون أن يحس به أحد ثم أخذ سمته إلى المدينة ولما طال غيابه لحق به أصحابه

وهم لا يعرفون من أمر تسلله شيئاً وكان هذا التصرف منه محل دهش واستغراب حملهم على الايمان بنفاذ بصيرته - صلى الله عليه وسلم - وهنالك أرسل النبي « محمد بن مسلمة » يحمل إنذاره إليهم أن أخرجوا من بلادى لأنكم نقضتم عهدي وهمتم أن تغدروا بي وفي هذه الأونة أخذتهم الحيرة والارتباك وبينما هم يتهياون للرحيل جاء إليهم رسول من « ابن أبي » يأمرهم بعدم الخروج لأنه سيقف إلى جانبهم ومعه ألفان من قومه يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل إليهم أحد من المسلمين وقد أخذوا يقلبون هذا العرض الذي يعرضه ابن أبي على وجوهه وانتهوا إلى عدم الثقة فيه لأنه قال مثل هذا القول لبني قينقاع ولم يغن عنهم شيئاً « وبنو قريظة » الذين هم على مقربة منهم لا يستطيعون أن يقدموا لهم صنيعاً لأنهم يرتبطون مع « محمد » بمعاهدة تجعلهم يقفون إلى جانبه لا إلى جانبهم وقال كبيرهم « حى بن أخطب » : سأرسل إلى « محمد » إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا وليصنع بنا ما يريد ، وسنحتمي بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوماً أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا « محمد » أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم رضى النبي أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره فخرجوا ومعهم « حى بن أخطب » الذى كان يغريهم بالعصيان ونزل منهم من نزل بخير وذهب الباقيون إلى أذرعات وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى البشر التى كانت تناوى الدعوة وتكيد للإسلام وتصد عن سبيل الله وتبغى فى الأرض الفساد ولم يجد اليهود بعد ذلك - وعلى رأسهم حى بن أخطب - طريقاً يسلكونه للانتقام لأنفسهم من « محمد » ومن حوله المسلمون معه إلا أن يؤلبوا عليه قريشاً والمشركين جميعاً لتتلاقى وإياه فى حرب تكون قضاء عليه وعلى دعوته ولهذا خرج « حى بن أخطب » و « سلام بن أبي الحقيق » ومعهم من بنى وائل « هوزة بن أبي قيس » و « أبو عمار » حتى قدموا على قريش بمكة فسأل أهلها حياً عن قومه فقال : تركتهم بين خير والمدينة ينتظرون مجيئكم إليهم لتسبروا إلى « محمد » وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال :

أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ولم تصدق قريشاً شيئاً من ذلك فسألته « أديننا خير أم دينه ؟ فقال : لا بل دينكم أنتم وإلى هذا تشير الآية : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ ^(١) .

ولم يزل « حى بن أخطب » يسعى سعيه ويعمل عمله حتى مر غلى « كعب بن أسد » ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد والتخلي عنه إذا ما جاءت الأحزاب إلى المدينة وكان « بنو قريظة » قد عاهدوا المسلمين أن يقفوا إلى جانبهم بكل أنواع المعونة والمساعدة وقد تردد كعب أن يستجيب لحى لكن حياء لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فبعث « سعد بن معاذ » سيد الأوس و « سعد بن عباد » سيد الخزرج ومعهما « عبد الله بن رواحة » و « خوت بن جبير » ليقفوا على جلية الأمر فلما رأوا منهم روح الشر وقال : « كعب بن أسد » : « من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه

ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد والمعونة وفتحوا الطريق إلى الأحزاب ليدخلوا المدينة لم يجدوا بدا من أن يتمهلوا لهم فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة طالبوا بعدما بالخروج إلى أذرعات تاركين ما يملكون ولم يرض النبي ولا المسلمون هذا العرض وعرض عليهم الرسول أن يختاروا رجلاً يحكمونه بينه وبينهم فاختاروا « سعد بن معاذ » فحكم بقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية^(١).

ويقول الدكتور هيكل تعليقاً على هذا الحكم: « ولعل » « سعد » ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لما كان أمام المسلمين لا أن يُستأصلوا وأن يقتلوا وأن يُمثل بهم فجزاهم بمثل ما عرضوا المسلمين له ».

وقد كان للقضاء على بني قريظة أثر بالغ في قوة المسلمين وخوف المشركين منهم والاهتمام كل الاهتمام بوجود جبهة متينة لصدد عدوانهم وعندئذ اتجهت الأنظار إلى يهود خيبر الذين وفد عليهم فلول اليهود الأخرى من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وإلى جانبهم على القرب يهود تيماء ووادي القرى وكانوا يترقبون ما بين وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون لذلك كان الاستعداد بينهم قائماً على قدم وساق فتارة يفكرون في الدخول في حلف مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ليزيلوا من نفوس المسلمين وبخاصة الأنصار وأغلق بها من العداوة التي غرسها « حبي بن أخطب » من جراء تأليب العرب لاقتحام المدينة وتارة أخرى يفكرون في تكتل يهودي عام يضمهم ومعهم وادي القرى وتيماء .

وقد كان المسلمون سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما « سلام بن أبي الحقيق » و « اليسير بن زرام » وبهذا القتل حصلت خلخللة في صفوف اليهود إلا أن كثيرين من قريش مع ذلك كله - كانوا يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين وذلك لمناعة حصون خيبر وقيامها فوق جبال صخرية وكان أبرز زعماء أهل خيبر في هذا الوقت « سلام بن مشكم » الذي أشار عليهم أن يوزعوا أنفسهم على الحصون فيجعلوا الأموال والعيال في حصن والذخائر في حصن والمقاتلة في ثالث وهكذا وضيق المسلمون الحصار عليهم وهم يستमितون في الدفاع عن أنفسهم وقتل « سلام بن مشكم » فتولى قيادتهم « الحارث بن أبي زينب » وما زالوا صامدين مستبسلين والأيام يتابع بعضها بعضاً وقد أرسل النبي إليهم « أبا بكر » ثم رجع من غير جدوى وأرسل بعده « عمر » فرجع كذلك فأرسل « عليا » ودعا له بالنصر وقد خرج إليه رجل من اليهود فضربه فسقط ترسه فتناول بابا كان عند الحصن فترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن واقتحم المسلمون بعده وهكذا توالى اقتحام الحصون كلها حتى سقطت « خيبر » وصالحهم النبي - صلى الله عليه وسلم - على البقاء في أراضيهم يزرعونها بالنصف لأنه لم يكن في المسلمين من يحسن القيام على فلاحه الأرض وزراعتها وقد قبل يهود فدك ووادي القرى هذا المبدأ فقد صالحوه - صلى الله عليه وسلم - على مثل ما حصل ليهود خيبر من غير حرب ولكن يهود تيماء قبلوا دفع الجزية وسنرى من متابعة الحوادث أن أمرها بعد الفتح سيؤول إلى الاذعان والخضوع .

(١) صحيح البخارى - كتاب الجهاد - باب إذا نزل العدو على حكم رجل ١٦٥/٦ ومسلم ١٣٨٨/٣ وعبد الرزاق في مصنفه ٣٧٠/٥

غزوة بدر الكبرى

يرى المؤرخون ممن تصدوا للكتابة عن حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومواقفه التي وقفتها في وجه الشرك أن هذه الغزوة كانت حداً فاصلاً بين عهدين مختلفين كل الاختلاف عهد الاستكانة والرضا والمصافحة والاغضاء والالتجاء إلى أسلوب السياسة وعهد القوة الرادعة والبطش المزعج والبأس المخيف والموقف الذي يحس صاحبه معه بالتمكن والاعتزاز والثقة فإن المسلمين لم تنته بهم الجولة - ولم يفرعوا من تفريق شمل الكافرين الذين لا ذوا أمامهم بالفرار والهلع والخوف والجزع حتى أخذت نشوة الانتصار تدب في مفاصلهم ثم صارت بعد ذلك تشعرهم بأن هذا الرصيد من الايمان الذي يملأ جوانحهم لا يمكن أن تقف له قوى الغدر ولا جيوش البغى ولا محافل الكفر ولا وسائل الدمار والموت وأن هذه الحرارة التي تصنعها العقيدة لا تستطيع حرارة البخار ولا الكهرباء أن تتغلب عليها أو تسقط حسابها من الاعتبار فلقد كان عدد المقاتلين الذين خرجوا لملاقاة أبي سفيان - أولاً - ولملاقاة هذا الجيش الذي دفعت به مكة كلها - ثانياً - لا يتجاوز ثلث خصومهم ومع ذلك كان النصر إلى جانبهم والفوز من نصيبهم وقضى الله بهذه الجولة أن يملأ الخوف نفوس الصناديد الأبطال ممن أرادوا أن يخفت صوت الحق وتتكسر راية القرآن و « محمد » ينفض يده من كل بارقة أمل تحته نفسه بها .

ونحن نعلم أن أسلوب حرب العصابات التي آلت على نفسها أن يعكر الصفو على أهل مكة فلا تطمئن بعض الاطمئنان أبداً على تجارتها إلى الشام ظلت حدثه تتزايد وأمره يتضاعف ثم كان ما كان من سرية « عبد الله بن جحش » التي أثارت حالة السوء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه أنهم لا يقدسون حرمة الأشهر التي لا يحل فيها القتال وأن الرسول بعد هذا أغرى أصحابه بالغير التي خرج بها « أبو سفيان » إلى الشام بتجارة كان معظم أصحاب الأموال فيها ولم يكتف من جانبه بهذا الإغراء حتى خرج معهم يترقب في الطريق أبا سفيان ومن معه وهم ذاهبون إلى الشام لكن الفرصة كانت قد تفلت منه . إذ أن أبا سفيان مر قبل أن يأخذ النبي وأصحابه مكانهم من الطريق ولم يكن لهم بد بعد ذلك كله إلا ترقب أوبة العير عند رجوعها من الشام وكانت أنباء هذا التآمر على أبي سفيان وعيره تطايرت إليه فكان عليه أن يغير طريقه حتى لا يظفر به خصومه وفي الوقت نفسه كان استأجر من يسبقه إلى مكة يستنفر الناس جميعاً لحماية تجارتهم التي توشك أن تقع في قبضة « محمد » وأصحابه وعلى الرغم من أن كثيراً من رجالات مكة لم يطاوعهم وجدانهم أن يخرجوا لقتال « محمد » وأصحابه لاقتناعهم بالظلم ما حققوا المطاردة التي وقعت عليه وروابط النسب التي لا تخلو من أن تكون قائمة بينهم وبين الذين كانوا معه من المسلمين وبخاصة بعد أن تبين لهم أن السبب الذي من أجله كانت الدعوة إلى الحرب والخروج لملاقاة المسلمين قد زال فإن أبا سفيان كان قد وصل إلى مكة بالتجارة لم يصبها - أويصيه - أذى إلا أن الدعوة إلى الخروج ولقاء « محمد » وأصحابه وإشعال نار الحرب والقضاء على هؤلاء الذين يحاولون أن يستعملوا مع ركب المسافرين بالتجارة إلى الشام أسلوب العصابات قد لقيت استجابة عند بعض الذين يحبون الاصطياد في الماء العكر أمثال « أبي الجهل » الذي سفه رأى « أبي سفيان » وهو يدعو إلى عدم الخروج ما دام السبب غير قائم « وعتبة بن ربيعة الذي قال : « إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً والله لئن

أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه لما لا تريدون .

وعلى كل حال فقد رجحت كفة أبي جهل في الدعوة إلى الخروج وذهب الفريقان إلى « جبهة القتال » وفي نفوسهما من الحماسة والحمية والأستبسال والشجاعة الشيء الكثير إلا أن الفرق ما بينهما بعيد كل البعد محمد وأصحابه تثور بهما عقيدة تحارب وإيمان يطارد ومبدأ يريد أن ينطلق إلى غايته لكن قريشاً وكفار مكة معها يثور بها طيش جاهلي ووثنية هوجاء وحقد ظالم وشتان ما بين اليزيديين في الندى ولما نزل المسلمون للتجمع الذي يسبق الهجوم كانوا - بادئ ذي بدء - بعيداً عن الماء الذي يسمى بدرًا فناقش بعض المسلمين النبي - صلى الله عليه وسلم - : أهذا النزول بعيداً عن الماء وحى أوحى به الله إليك لا تنحرف عنه ولا تستطيع أن تخالفه ، أم هي المكيدة والخدعة والسياسة والحنكة والحزم التي يتطلبها الحرب ؟ فقال الرسول : لم يكن ذلك وحياً ولكنه الاجتهاد والرأي فقال له « الحباب بن المنذر » : السياسة والحزم أن نضع أيدينا على ناصية بدر تستقي منها وتشرب دوابنا ونحول بينها وبين المشركين ويكون ذلك تضيقاً عليهم وحرباً لهم^(١) ، وهناك استراح النبي لهذا الرأي واستراح له المسلمون وبنوا حوضاً على فم البئر لتسعفهم بالماء حتى لا يعوقهم الاحتياج منها وبينما هم يمرحون ويتصفون ابتهاجا بهذا الموقع « الاستراتيجي » الذي اتخذوه إذ اندفع « الأسود بن عبد الأسد المخزومي » من بين صفوف قريش يريد هدم الحوض الذي بناه المسلمون وهناك يضربه « حمزة بن عبد المطلب » ضربة في ساقه فيسقط ودمه يشخب ويدعو ذلك « عتبة بن ربيعة » أن يخرج من بين الصفوف ليطلب مبارزة المسلمين ولما تقدم له بعض الشبان الذي كانت الحمية تغلى في عروقهم امتنع أن ينازله ونادى بأعلى صوته : « يا محمد أخرج لنا أكفأنا من المقاتلين » وكان « عتبة » يحيط به أخوه شيبة وابنه الوليد فتصدى « حمزة » لشيبة فقتله وتصدى « علي » للوليد فقتله ، وتصدى « عبيدة بن الحارث » لعتبة وانتهى بالاجهاز عليه وبذلك كانت قريش قد خسرت ثلاثة من أعز أبطالها وخيرة فرسانها^(٢) فلم تجد بداً من أن تلقى بكل ثقلها في المعركة وتعطى للحرب حظها من الاهتمام فتزاحف الناس والتقى الجيشان صبيحة الجمعة السبعة عشر من رمضان والنبي - صلى الله عليه وسلم - على رأس المسلمين ينظم صفوفهم ويحدد مواقعهم ويملاً نفوسهم إيماناً بالله وثقة بنصره وتمكيناً لدينه ورفقا لمراميه وإعزازاً لمن يقفون إلى جانب نبيه ، قائلاً : (اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها ، تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد)^(٣) .

وما زال يهتف بهذا الدعاء حتى أشفق عليه « أبو بكر » أن يناله مكروه من هذا الجهد الذي يبذله والاعياء الذي يعانيه فقال له : « هوّن عليك يا رسول الله ، فإن الله منجز لك ما وعدك وكان الرسول -

(١) المستدرك للحاكم ٤٤٦/٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ١٥/٢

(٢) تاريخ الطبري ٤٤١/٢ والبيهقي في دلائل البقرة ٣٥/٣

من هذا التعب - قد أخذته سنة من النعاس رأى فيها مصارع الصناديد من قريش واطمأن كل الاطمئنان إلى نصر الله فتقدم إلى صفوف المسلمين - من جديد - ليقول لهم : (والله لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)^(١) وكان لهذا القول في نفوس المسلمين أثره البالغ . وكان « سعد بن معاذ » قد رأى أن يبنى للرسول - صلى الله عليه وسلم - عريشاً ليقوم فيه بعيداً عن مخاطر الحرب وعدوانها حتى إذا ما كان النصر في جانب قريش استطاع أن يعود إلى المدينة ليواصل كفاحه وجهاده والاستمرار في نشر دعوته إلى الناس وقد لقيت هذه الفكرة استحساناً وقبولاً ومن هذا العريش كان يخرج إلى صفوف المسلمين المرة تلو الأخرى ليطمئن كل الاطمئنان على سير القتال وكان من اغتباطه لسير المعركة وارتياحه لاستبسال أصحابه واعتقاده أن النصر في النهاية سيكون في جانبه ربما جرى على لسانه قول القائل :

نغلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أحق وأظلماً أو قرأ قوله سبحانه ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾^(٢) .

ويقول الأستاذ « أحمد إبراهيم الشريف » : « سمت روح المسلمين المعنوية بتحريض الرسول ونزول القرآن يبشرهم بأن الملائكة تشد أزركم فاندفعوا يقاتلون وقد جعلوا همهم سادة قريش يريدون استئصال شأفتهم جزاء ما عذبوهم وأخرجوهم ولأنهم رأس الكفر لو قتلوا الضعف غيرهم ولوجد الإسلام طريق الدعوة ممهداً لا تقف في طريقها مطامع الزعماء وكبرياء الرؤساء . . وما لبثت قريش حين رأت كثيراً من ساداتها يسقطون قتلى بأيدي المسلمين أن ولت الأدبار لا تلوى على شيء . والمسلمون يضربون في أعناقها وأدبارها ويأسرون من رجالها من لم يسعفه حسن فراره بالنجاة وبلغ عدد القتلى من قريش سبعين قتيلاً فيهم معظم سادة قريش وعلى رأسهم أبو جهل كما استأسر سبعون . . وهكذا كانت هزيمة قريش تامة ساحقة أما المسلمون فقد اندفعت منهم فرقة تطارد الفارين وقامت أخرى بجمع الغنائم والتفت الثالثة بالعريش تحمى النبي مخافة أن يرتد إليه العدو » .

ومن الحديث في « بدر » أو عن بدر لا نسمع إلا بطولة نادرة امتلأت بها نفوس المسلمين الذين طوّحوا بالكفر وأذلوا أهله وأطاحوا بدولته .

طرف كانت في بدر

كان في صفوف المشركين في بدر « أمية بن خلف » وقد وقع في أيدي المسلمين أسير هو وابنه وأراد « عبدالرحمن بن عوف » أن يحميها من عدوان من عدوا أن تحدّثه نفسه بالنيل منها أو التطاول عليها وكان (بلال) رقيقاً مملوكاً لأمية ولقى منه من صنوف العنت وألوان التعذيب بسبب اعتناقه الإسلام ودخوله في دين « محمد » ما لم يلقه أحد في سبيل عقيدة أعتنقها أو مبدأ التزمه أو شريعة انضوى تحت رايتها وكم تركه في الرمضاء المحرقة متجرداً من ثيابه لتلفحه نارها ويؤذيه لهيبها ثم لا يكتفى بذلك دون أن يلقى بالحجر

(١) سيرة ابن هشام ٣٢٢/٢

(٢) سورة القمر الآية : ٤٥

الثقل على بطنه رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والايلام على المروق عن الاسلام والبقاء على وثنية الكفر وضلالة الشرك والسجود للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تحس ولا تدرك . وما إن وقعت عيننا « بلال » على طلبته التي يرجوها وضالته التي كان يترقب فرصة الظفر بها حتى هجم عليها ليشفى غليله منها ويروى ظمأه إليها ويقتص لهذا الذي لقيه من جبروت المالك وعسف التسلط وجهل الضال وكبرياء الأحق فلما زجره « عبد الرحمن بن عوف » المرة بعد المرة نادى بأعلى صوته قائلاً رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فلما ألح بلال في الهجوم عليه وألح عبد الرحمن في الزجر له قال عبد الرحمن لبلال : « يا ابن السوداء هو أسيرى ومالي » ولكن بلالاً كرر الإلحاح وقال يا أنصار الله : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا^(١) وأحاط الناس بأمية وابنه في يدى ابن عوف وسبقت ضربة إلى ابن أمية وأخرى إلى أمية نفسه فكانا في خبر كان .

وكان من هؤلاء الأسرى كثيرون كانت لهم سوابق سيئة في معاملة المسلمين بمكة لم يقبل منهم المسلمون الفداء وأبوإلا أن تجز رؤسهم وتباح دماؤهم وتكون نهايتهم على أيديهم مثل « عقبة بن أبي معيط » . و « النضير بن الحارث » وذلك للايلام والأذى الذي كان منهم وبخاصة « النضر » الذي كان يشتري كتب الأسمار والخرافات ويحكى منها للسذج وضعاف العقول ثم يقول : أليست هذه خيراً مما يزعم محمد أنه يوحى به إليه ؟ وتشير إلى قصته الآية من سورة لقمان : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾^(٢) .

وكان من طريف أمر الاسلام أن جاء النبي - صلى الله عليه وسلم - شاعر هو « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي » وقال : لى خمس بنات ليس هن شىء فتصدق بى عليهن ولك على ألا أقاتلك أو أعين عليك فلما أطلق سراحه نكث عهده وأخلف وعده وخرج لحربه وحرب المسلمين فى « أحد » فوقع فى أيدي المسلمين وأنهى أمره بالقتل .

وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أبدى رغبة شديدة فى الترفق بمن كانت لهم مواقف نبيلة سابقاً مع المسلمين قبل الهجرة وبخاصة إن كانوا من « بنى هاشم » الذى ساعدوه ووقفوا إلى جانبه مدى ثلاثة عشر عاماً بمكة قبل الهجرة وكان فى هؤلاء الذين أوصى - الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهم ولم يرغب فى قتلهم عمه « العباس » إلا أن حذيفة - أو أبا حذيفة - لما بلغه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يؤكد الوصية بعمه - وكان فى القتل أبوه « عتبة بن ربيعة » وعمه (شيبة) وأخوه (الوليد) قال : أيقتل أهلونا وينجو العباس ؟ وهنالك تغير وجه النبي - صلى الله عليه وسلم - لهذا القول ولم يسعه إلا أن يشكو لعمر قوله حذيفة فقال عمر : « لقد نافق حذيفة دعنى أقتله » وكان حذيفة يقول : شككت فى نفسى ورجوت أن استشهد فى سبيل الله لأكفر عن هذه الكلمة ومات - رضى الله عنه - فى حرب اليمامة فى خلافة « أبى بكر » وحذيفة هذا هو الذى بدا عليه الغضب حين بلغه مقتل أبيه عتبة فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : (هل آلمك مقتل أبيك) فقال : (لا ولكنى كنت أرجو فيه رجاحة عقل وبعد نظر

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى ٩٦/٥

(٢) سورة لقمان الآية : ٦

وحسن تفكير أن يكون له ميل إلى رسول الله وحب في دينه واستجابة لدعوته ووقوف إلى جانبه وود عن شريعته لكنه أثر سبيل الكفر وطريق الغواية ودخل جهنم من أوسع أبوابها .

ومن الصور العاطفية التي تفيض بالحنين والحب في هؤلاء الأسرى الذين ضاقت عليهم شباك الأرض تلك الصورة التي كانت بين « زينب » ابنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين زوجها فإن زوجها « العاص بن الربيع » وقع أسيراً في أيدي المسلمين ولم يكن هنالك بدا من أن يلاقى الذي يلقاه أمثاله من معسكر الكفر الذي كان كل هم الرجل منهم أن ينكل بالرسول وبالمسلمين وبدعوة الحق حتى إذا ما انتهى به المصير إلى تلك النهاية بدت عليه الكآبة وأحاطت به الذلة وشعر بأنه أحقر من لا شيء في العدد فلما رأت « زينب » ما لحق به دفعت بقلادة كانت أمها « خديجة » قد نحتلتها إياها حين بنى بها « العاص » وذلك فداء لزوجها وكان هذا الصنيع الرقيق مثيراً لوجدان الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلم يسعه إلا أن يقول للمسلمين هل لكم أن تردوا قلاذتها وتخلوها لها أسيرها بها) وقد خلى المسلمون سبيله وعاد إلى مكة وخرج على رأس غير في تجارة لبعض أرباب الأموال من قريش وفي عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه وهنالك التجأ إلى « زينب » ليرد المسلمون إليه ما أخذوه منه وعملت « زينب » على رد أمواله إليه فقد كان أجيراً على العمل لا يملك من الأموال شيئاً - على الرغم من أن صلة الزوجين بينهما قد انقطعت لأن الرسول فرق بينهما بحكم اختلاف الدين و « مضى العاص بن الربيع » إلى مكة ولما أبرأ ذمته من الأموال التي كانت في يده عاد إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة وأعلن إسلامه وعادت إليه « زينب » واستأنف معها في ظلال الاسلام عيشاً أرغد وحياة أهنأ وصلة أقوى فما كانت ولعل السبب في تمسكه بها وحده عليها وترامى عاطفته نحوها إلى هذا الحد لا ترجع إلى رابطة الزوجين وكفى ولكن إلى أنها ابنة رسول الله وأنها - كذلك - ابنة خالته لأن أمه (هالة بنت خويلد الأسدية) أخت « خديجة » - أم المؤمنين - وكان « العاص » هذا ممن عرفوا في مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق وكان النبي يثنى عليه في صهره وكثيراً ما حاول المشركون أن يحملوه على ترك « زينب » فلم يتركها وازداد تعلقاً بها .

وكان من الصور التي تفيض بالانسانية المهذبة والمروءة النادرة أن قتل المشركين الذين لم يجدوا من قومهم وذويهم من يدفن جثتهم ويوارى في التراب أجسامهم صنع المسلمون بهن ضنيع الانسانية والمروءة إذ جمعوا أشلاءهم وأجسامهم وجعلوهم في قلب - بئر - ثم هالوا عليهم التراب وقد ظل المسلمون بعد أن انتهت المعركة يوماً كاملاً وليلة كاملة لا يغادرون مكان المعركة وبينها المسلمون بالليل يسودهم الهدوء والسكون يستغرق في نومه منهم من أتعبه العمل وأنهكته الحركة وأعياه الكر والفر في ميدان القتال ، كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - واقفاً على القلب الذي يضم جثث الموتى مناجياً تلك الجثث قائلاً : (يا أهل القلب ، يا عقبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام يا فلان يا فلان - يذكر من في القلب واحداً واحداً - : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني وجدت

ما وعدني ربى حقاً ؟) قال المسلمون : « يا رسول الله أتنادى قوماً حيّقوا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (ماأنتم باسمع لما أقول منهم) ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا ^(١) »

ولقد كانت هذه الجولة بين المشركين والمسلمين - على الجملة - من الأيام الحالكة السواد على دولة الكفر والجماعة المناوئة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه معه ولقد كان « أبو لهب » الذي فضحه القرآن الكريم في السورة التي تلعنه وتهتك عرضه : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ ^(٢) من الذين استأجروا من ينوب عنه في الخروج إلى قتال المسلمين فلما انتهت إليه نأ هزيمة دولة الباطل وجيش الشرك وأصحاب دعوة الشيطان دارت به الأرض الفضاء وأصابه دوار حاد مرض بعده أيام ثم مات ولم يكن هو وحده الذي تلقى كالصاعقة وقع انتصار المسلمين في غزوة بدر فإن كثيراً منهم من كان يقول تعقياً أو تعليقاً على هذا الانتصار : « بطن الأرض أحسن من ظهرها » .

ويقول الدكتور هيكل : « ناحت من بعد قريش على قتلها شهراً كاملاً وجززن شعر رؤوسهن وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحن حولها ولم يخالفهن في هذا إلا « هند بنت عتبة » زوج أبي سفيان ولقد مشى نساء منهن يوماً إليها فقلن لها :

« ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بني الخزرج . لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه والدهن على حرام حتى نغزو محمداً . . والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبة ، ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فراش « أبي سفيان » وتحرض الناس حتى كانت موقعة (أحد) أما (أبوسفيان) فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً) وقد فعل وفعلت زوجته هند بنت عتبة .

بعد بدر

ترك انتصار المسلمين ببدر أثره السيئ في نفوس المشركين والمنافقين واليهود على السواء : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم ﴾ ^(١) لكن هذا الانتصار من ناحية أخرى كان عنواناً على طور جديد من القوة والبأس والمهابة والسلطان والعنفوان والشدة إلى درجة أن الشعراء الذين كان يهجون « محمداً » - صلى الله عليه وسلم - ويحرضون عليه أعداءه ، خرسست ألسنتهم وخفضت أصواتهم وأصبحوا يسرون في أنفسهم ما كانوا يباهون بالجهر به . والإعلان له وقد أصبح « محمد » وأصحابه يطاولون بأعناقهم ويجاهرون بينهم وينادون بأعلى صوتهم أنهم على الحق وكلمتهم هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يحجب النور الذي يحملونه بأيمانهم مهما غلت مراجل الحقد فيهم وازداد لهيب الكراهية في أفئدتهم وكان « كعب ابن الأشرف » . الشاعر اليهودى . قد وقف بمكة ليرثى قتلى القلب ليشير في نفوسهم أهليهم وقرابتهم الغيظ الافر والالم المكبوت والضغن المتمكر

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى ٩٧/٥

(٢) سورة المسد الآيتان : ١ ، ٢

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٨

وهو الذى قال الكلمة المشهورة : هؤلاء أشرف الناس وملوك العرب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . . لكن هذا كله من المشركين والمنافقين وخصوم « محمد » جميعاً يشبه ما يسمونه حركة المذبوح وليس من الممكن لمحمد ولأصحابه أن يرجعوا إلى الوراء أو تقف بهم عجلة الماضى فى الطريق إلى النهاية « جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر بالبيت الحرام - بعد مصاب أهل بدر بيسير وكان « عمير » شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله وأصحابه ويلقون منه العناء وكان ابنه « وهب » فى أسارى بدر فقال صفوان : « والله ما فى العيش بعدهم خير » . فقال عمير : « والله صدقت . ولولا دينى وعيالى لركبت إلى « محمد » حتى أقتله فقال صفوان : على كل ذلك ، قال عمير : فاكمم على شأنى وشأنك » . ثم انطلق عمير إلى المدينة من غير علم صفوان ، فرآه « عمر » فأخبر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : (أدخله على) فأقبل « عمر » حتى أخذ بحمالة سيفه ولبيه بهما فلما دخل على النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : (أرسله يا عمر أدن يا عمير ما الذى جاء بك ؟ قال : جئت من أجل الذى فى أيديكم - يعنى ابنه وهباً - فأحسنوا إليه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقنى بالذى جئت به ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . قال : بل قعدت ، أنت وصفوان بن أمية بالحجر ثم قص عليه ما دار بينهما من حديث . فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقهوا أحاكم وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره ففعلوا وقال عمير : يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله وأنا أحب أن تأذن لى فى القدوم إلى مكة لأدعوهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام فلعل الله أن يهديهم وإلا آذيتهم فى دينهم فأذن له فلحق بمكة وأسلم على يديه ناس كثيرون ^(١) .

وتدل كتب السيرة من غير استثناء على أن هذا الأثر العميق الذى تركته « غزوة بدر » فى النفوس لم يكن فى مكة وحدها وإنما كان فى مكة والمدينة ولذلك فإن معسكر الكفر قد تحول كله إلى جهة حامية الوطيس لا حديث لها إلا عن الثأر والقتال وتأديب « محمد » وأصحابه ولهذا فقد اجتمعوا فى دار الندوة ليقرروا ما يمكن أن يواجهوا به هذا الموقف الجديد ، وكانت الخطوة الأولى هى التنازل عن أرباح القافلة التى كان يقودها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت هدف « محمد » وأصحابه فى أول الأمر وهو مبلغ كبير فى هذا الوقت ثم أخذوا يتصلون بحلفائهم من الأحابيش وغيرهم وباليهود الذين امتلأت نفوسهم بالحقد والكراهية لمحمد والذين آمنوا معه وانتهى ذلك كله باللقاء المعروف فى « أحد » . أما « محمد » وأصحابه فإنهم لا يزالون فى نشوة الظفر والنصر لم يدر بخلدهم شبح المعارك ولا معنى الكرة الأخرى التى تنتظرهم من وراء السحب والحجب وفى الطريق إلى المدينة - وهم منصرفون من ميدان المعركة - كان الذى يعينهم ويشغل تفكيرهم هو توزيع الغنائم وقسمة هذه الأسلاب التى أخذوها من عدوهم ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ولا تشريع متبع ولا عرف معمول به وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث : جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وحده وهو لائذ بالفرار وجماعة المقاتلين التى كانت تصارع الموت وتتلقى الضربات والذين كانوا فى حراسة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يدهمهم

العدو أو يلحق به السوء فأى هذه الطوائف ، يأخذ الغنائم أويظفر منها بنصيب الأسد ؟ وصحح الله - سبحانه وتعالى - هذا الخلاف ونزل قوله جل جلاله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾^(١) ليفهم المسلمون أن القصد الأول والأخير هو إعلاء صوت الحق ويمكن راية الإسلام ثم تبع ذلك فيما بعد البيان لتوزيعها على أربابها . المستحقين لها : ﴿ واعلموا أنما غنمنا من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾^(٢) .

فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات الاتي حددتها الآية الكريمة ثم يوزع الباقي بعد هذا الخمس كما يرى القائد العام للجيش وقد كان التوزيع على هذا النحو للراجل نصف ما يأخذه الفارس وللورثة حصة من استشهد وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم في المعركة دون أن يحضرها ومن كُلف بأمر خاص بعيداً عن ميدانها .

أما الأسرى فإن حالهم كان موزعاً بين الفداء الذي كان يتراوح بين الألف إلى عشرة آلاف أو الترك إذا كان الأسير لا يمكن ما يفدى به : ﴿ فإمأنا بعد وإما فداء ﴾^(٣) وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأي في الأسرى هو الفكرة الأولى فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - حينما عرض الرأي - بادية ذي بدء - على أصحابه كان رأى « عمر » القتل والإبادة ليكون في هذا الصنيع الردع والزجر وكان من رأى « أبى بكر » الفداء لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقربة وقد كان رأى الذى انتهى إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحد الوسط وقد أخذ المسلمون الفداء ممن استطاعه وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه وفي بعض الأحيان كانوا - شفاءً لغليلهم وذهاباً لغيظهم وثأراً لإحـن قديمة بينهم وبين الأسير - يرون أنه لا بديل من قتله فيقرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - على ذلك ولا يعارض فيه وقد أخذ « عمر بن الخطاب » بوثق « العباس بن عبد المطلب » فشدد عليه فظل « العباس » يئن ليلة كاملة فتألم الرسول أشد الألم فبلغ ذلك الأنصار فعملوا على حل وثاقه وإطلاقه من غير فدية فأبى الرسول إلا أن يسوى بينه وبين الأسرى وقال له : (أفد نفسك وابنى أخيك . . عقيل ونوفل) فاشتكى له أنه لا يجد ما يدفعه فقال له : (ادفع من الذى تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة) فقال له : ومن أخبرك به ؟ قال : (أخبرنى الله)^(٤) قال : أشهد أنك رسول الله ودفع عن نفسه مائة أوقية وعن كل واحد من ولدى أخيه ثمانين وجرى فى خاطر « العباس » أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أرهقه بهذا المال الذى ألزمه بدفعه فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾^(٥) فسر بذلك « العباس » ولم يعد بعد ذلك إلا جندياً مخلصاً من جنود

(١) سورة الأنفال الآية : ١

(٢) سورة الأنفال الآية : ٤١

(٣) سورة محمد الآية : ٤

(٤) جمع الزوائد ٨٦/٦

(٥) سورة الأنفال الآية : ٧٠

الإسلام يدافع عنه وينادى به ويرغب فيه ويبذل له ويقف إلى جنب رسوله وقوف المؤمن المخلص الذى جرى الدين فى لحمه ودمه وخالط روحه مخالطة امتزاج فلم يكن منه إلا ما يكون من المؤمن الصادق .

حديث أحد

كان ما أصاب المشركين فى بدر حافزاً قوياً لأن تتجمع قلوبهم وتتلاقى أهواءهم ويبذلوا كل ما يملكونه لتعادل ميزان القوى ورد الاعتبار الذى كان لهم من قبل وكان أول شيء تناولوه بالتفكير أن تباع العير التى كان يسوقها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت الشراة الأولى فى بدر ثم يحصل ثمنها فى تجهيز جيش جرار للقضاء على شوكة المسلمين ووقف زحفهم على طريق التجارة والحد من محاولاتهم النيل من أهل مكة أو العدوان عليهم وبخاصة بعد هذا الذى حصل لسادتهم وكبار القادة منهم الذين عرفوا فيما بعد بأهل القلب والذين يمكن أن يكون قتلهم إغراء لمحمد وأصحابه لغزو مكة نفسها وتطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها .

ولم يمض شهر واحد حتى كان « أبو سفيان » قد اتصل بحلفاء قريش - فى كل جهة - ليعدوا أنفسهم للقاء « محمد » والقضاء عليه وعلى من يقفون إلى جانبه من المؤمنين بدعوته المتفانين . فى السير على دربه وساعده على الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو إليه من تكوين جبهة قوية للخروج إلى القنال أن ظهر على المسرح العنصر النسائى من أمثال « هند بنت عتبة » وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس فيهم وكانت « هند » بالذات من العوامل القوية فى إذكاء الحماسة وإشعال نيران الحمية والغيرة وكان من ضحاياها فى « بدر » أبوها . . وأخوها وعمها وكذلك كان « جبير بن مطعم بن عدى » قد فقد عمه « طعيمة بن عدى » وكان الغلام الحبشى « وحشى » قد اشتهر بمهارة فائقة وفروسية نادرة وإقدام لا تراجع فيه وأنه لا يخطئ مقاتل فريسته فوعده بالعق مولاة جبير بن مطعم بن عدى كذلك استأجرته « هند » واتفق معه الطرفان على أن تكون فريسته أو هدفه « حمزة بن عبد المطلب » لأنه كان حبيباً عزيزاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وقتله فى الميدان إيلام بالغ .

وكان « العباس بن عبد المطلب » عم النبى - صلى الله عليه وسلم - بمكة يرسل إلى ابن أخيه أخبار تلك التحركات التى تتحركها قريش خطوة خطوة حتى لا يؤخذ على غرة أو يفاجأ مفاجأة بما لم يكن فى خلده وحياته وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى دونهم ولكنه أراد أن يشركهم فى الخطة التى يأخذ بها والأسلوب الذى يسلكه ويسير عليه ويقف به الموقف الذى يواجهه به هذا التآمر الذى يهيم له « أبو سفيان » وغيره من رؤساء الكفر وطواغيت الشرك للنيل من الدعوة التى يحمل رايتها « محمد » وأصحابه وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه قد رأوا أن الخطة المثلثية التى يواجهون بها هذا الغزو المرتقب أو الزحف المنتظر هى التحصن بالمنازل والبيوت فى المدينة حتى إذا ما جاء الجيش الملكى بقيادة أبى سفيان وغيره ووجه فى المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات وتزعم هذا الرأى « عبد الله بن أبى بن سلول » ولاقى ارتياحاً وقبولاً عند المحنكين من ذوى الأسنان الذين لم يكن فى عقيدتهم ريب ولا شك إلا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك فى « بدر » من الشبان والمتطلعين إلى الاستشهاد ألحوا فى الخروج وملاقاة العدو خارج المدينة حتى

جاء بعضهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال له : « يا رسول الله إن ابني أصابته القرعة فخرج في بدر وكان من الشهداء في جوار الأنبياء والصديقين وقد رأيت في النوم ينعم في الجنة وأكان مما أوصاني به أن أسارع في اللحاق به لأكون معه في الجنة . وأنا أرجو يا رسول الله أن أموت في سبيل الله لألحق بابني في الجنة » .

وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو في الميدان هي الفكرة التي انتهى إليها رأى الأغلبية فلم يسع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا أن ينزل على هذا الرأي الذي هو السواد الأعظم وما هو إلا أن دخل بيته ولبس لامته استعداداً لخوض المعركة وخرج إلى قومه ليعلن إليهم أنه جاد في أمره حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأي بما يفيد الرجوع عنه قائلين : إخلع لامتك يا رسول الله فإننا سنتحصن بالمنازل والبيوت ونرميهم من داخل حصوننا وسطوح دورنا وقد ظنوا أنهم يرضونه بهذا الرأي الذي كان يميل إليه في بادئ الأمر ولكنه قال لهم :

(ما ينبغي لنبي لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم)^(١) .

ويقول صاحب كتاب الدولة الإسلامية الأولى : « تقدم النبي بالمسلمين متجهاً إلى « أحد » حيث عسكرت قريش ببعض سفوحه ورفض أن ينضم إليه كتيبة من اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبي ، حذر أن توقع الاضطراب في نفوس الجيش وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذي ظهر من خيانتهم وبعد ما امتلأت به النفوس من حقد وفي الطريق انخزل عنه « عبد الله بن أبي » بثلاث الناس وعاد إلى المدينة محتجاً بأنه خالف رأيه واتبع رأى الغلمان ممن لم يحسنوا استعمال الرأي . وكذلك هممت طائفتان أخريان من الأنصار أن تتراجعا متأثرة برأى « ابن أبي » لولا أن ذكرتا إيمانها فصبرتا وبقى الرسول ومعه سبعمائة من المسلمين المؤمنين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور وكلهم على ثأره حريص ! وقد جعل الرسول ظهره إلى جبل « أحد » وصف أصحابه في مواجهة العدو ووضع خمسين من الرماة على مرتفع . وقال لهم : (احموا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من وراء ، وألزموا مكانكم لا تبرحوه وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل وألزموا أماكنكم حتى يأتيكم أمرى)^(٢) .

وفي تشديد النبي على الرماة وفي تراجع بعض الناس عنه وفي المناقشة التي دارت قبل الخروج ما يشير التفكير والتأمل في أمر الجبهة اليسارية قبل بدء القتال فقد بدأت الجبهة اليسارية في المعركة مفككة ورأينا كيف أن المسلمين لم يكونوا موحدى الكلمة في الاستعداد لمقاتلة العدو لقد كانت كلمتهم موحدة في بدر وكان أمرهم جميعاً وكانوا مثال الطاعة والنظام والحرص على تنفيذ أمر القيادة كما كانوا يقدرون قوة العدو . ويدركون تفوقه عليهم ويعدون أنفسهم للصبر على الشدة وتمتلىء نفوسهم مع ذلك باليقين بالنصر وها هم

(١) صحيح البخارى ١٢٠/٥

(٢) مصنف عبد الرزاق ٣٦٤/٥ وأحمد في الفتح الربانى ٥١/٢٢ ومجمع الزوائد ١٠٧/٩ وابن سعد في الطبقات ٣٨/٢ والبيهقى في الدلائل

أولاء اليوم تختلف كلمتهم فمنهم من يرى البقاء بالمدينة والتحصين بها ومنهم من يرى الخروج ومناصرة العدو حيث هو بظاهر المدينة وقد أنستهم حماستهم أن يقدروا قيمة العدو ويعملوا حسابه لتفوقه في العدد وأن يدركوا ما تضطرب به نفسه من الحقد والحرص على الثأر ليوم « بدر » وعلى كل حال فقد ابتدأت المعركة حامية الوطيس على الرغم من عدم تعادل القوتين وتكافؤ الطرفين وكان « أبودجانه » قد أخذ سيف الرسول - صلى الله عليه وسلم -^(٢) وجعل يحصد به الرؤوس وهو رجل قد اشتهر بالشجاعة والإقدام والفروسية وكان هو وحمزة « يمثلان في جيش المسلمين القوة التي لا تقهر ولا يستطيع أحد أن يردهما أو يقف في طريقهما إذا كانت الانتصارات والهزائم في الحروب تتوقف على النظام والطاعة والإيمان والعقيدة وأن شيئاً واحداً من هذه كلها قد يكون شيئاً قوياً في نهاية محمودة أو غير محمودة فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي لا ينطق عن الهوى قد رسم للمسلمين وهو لا يشك في صدق إيمانهم - الدستور الصحيح للنظام والطاعة التي يحتاجها النصر وهو يعلم مدى الفائدة التي تعود منها وفي هذه الكلمات البسيطة التي يخاطب بها الرماة الخمسين ما يدل على مقدار بصره الدقيق بالتكتيك الحرب الذي لا يعرفه إلا كبار القواد والساسة فإن المحنة لم تحل بالمسلمين في أحد إلا بسبب هذه المخالفة حيث بدأت بوادر النصر فترك هؤلاء أمكنتهم وسارعوا إلى انتهاب الغنائم وكان كشف هذه الثغرة تمهيداً لالتفاف جناح جيش العدو بقيادة (خالد بن الوليد) حول المسلمين وإعمال السيف فيهم بعد أن انضم إليه الفارون من أهل مكة وبذلك أصبح جيش « محمد » - صلى الله عليه وسلم - هدفاً ميسوراً للمشركين ينالون منه ويقبضون على ناصيته ويفرار المسلمون وانطلاق الصوت المغرض : « إن محمداً قد مات » كان جيش « محمد » - صلى الله عليه وسلم - على الحال التي تستحق الرثاء والأسف إذ كان كبار المسلمين من أمثال « أبي بكر » و « عمر » و « علي » قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم ولم يكن لهم تفكير إلا في النجاة من الموت أو الأسر ، ومن خلال تلك السحابة الدكناء التي اشتبه فيها الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه « محمد » - صلى الله عليه وسلم - فنادى بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله نبينا فأشار إليه الرسول أن يسكت لكن المسلمين لم يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر ففرحوا به ، والتفوا حوله ووقفوا إلى جانبه يدافعون عنه ومن جوله أبو بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام ورهط من كثير غيرهم وكان أبودجانه الترس الواقى الذي وقف إلى جانبه يتلقى الرميات المصوبة إليه ويردها عنه وقد تقدم أمية ابن خلف يريد قتله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : « لا نجوت إن نجا محمد » فطعنه الرسول بحربة « الحارث ابن الصمة » طعنة ولياً بعدها ثم مات^(١) .

وانجلت هذه المعركة عن شدائد شديدة عاناها الرسول وإصابات بالغة لقيها وطارت قريش لنصرها سروراً وفرحاً حتى قال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر موعدا العام القابل » . وكان قد وقر في ذهن « أبي سفيان » أن النبي - صلى الله عليه وسلم - في القتلى هو وأبو بكر وعمر وعلي وكبار الصحابة فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة حزن حزناً شديداً .

ولما خلا الميدان من المشركين وأخذوا طريقهم إلى مكة خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ساحة المعركة ليتفقد موتاه ليأمر بدفنهم وإهالة التراب عليهم فراعهم عمه « الحمزة » في القتلى قد مثل به - وكانت

(٢) سيرة ابن هشام ٩٧/٣ طبعة الأردن

(١) سيرة ابن هشام ١٢٢/٣ طبعة الأردن

هند بنت عتبة زوج أبي سفيان قد بقرت بطنه وأخذت كبده لتلوكلها - فلما رآه على تلك الحال غضب غضباً شديداً وقال : (لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم)^(١) فأنزل الله عليه قوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبروا صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾^(٢) فهذا - صلى الله عليه وسلم - وقال : (أصبروا أحسب)^(٣) ونهى عن المثلة .

وكان من طريف أخبار أحد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما التقى ببعض هؤلاء الذين فروا من الميدان وعاتبهم في ذلك الفرار كان ردهم عليه أنهم قد انتهى إلى مسامعهم خبر موته فلم يجدوا بعد ذلك سبباً لصمودهم واستمرارهم في المعركة الدائرة بينهم وبين العدو وهناك نزلت الآيات : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ، وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾^(٤) .

ولم يشأ النبي إلا أن يترك لهم المدارس للحالة وأخذ العظة والعبرة رجاء ألا تتكرر المأساة فيما بعد أمام هذا العدو الذي يتربصن بهم الدوائر في كل موقف وكل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها ولذلك فإنه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت هذه المأساة فيما بعد مأساة الخروج على أوامر القائد ومخالفة تخطيطه الذي يرسمه للمعركة مع العدو وربما كان الذي استفاده المسلمون من هذه المحنة وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم من أحسن الدروس في تعليمهم الجرأة على عدوهم وكيفية الاستعداد للوقوف في وجهها وقوفاً يشيع في نفسه الرعب .

قاتل حمزة

كان خروج المشركين إلى « أحد » مسبوقاً بحوافز كثيرة وتصميم أكيد استعداد تام لغسل العار الذي لحق بهم من جراء الهزيمة التي حلت بهم ببدر ولذلك فإنهم تأهبوا لها بكل ما يمكن أن يتأهبوا به من عتاد ومال ورجال ولم يكن ذلك قاصراً على الرجال وحدهم وإنما شاركت الرجل المرأة وكان الصراع بينها وبينه قوياً على هذا الخروج فالرجال يرون أن الميدان لهم والحرب تبعته يتحملونها ومن العيب أن تحمل المرأة السلاح إلا إذا فنى الرجال ولم يبق من يزود عن العرض ويأخذ بالثأر ويذب عن الحمى ويدافع عن الحرم والمرأة تريد أن تشفى غليلها وتثأر لقتلها وترى مصارع أعدائها وبعد صراع في الرأي ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع وعواطفها المشبوبة وفؤادها الملتاع خرجت « هند بنت عتبة » ومعها عدد من النسوة لا يقل عن خمسة عشرة وحملت معهن صنماً على جمل ليبارك نواياهن ويقرن بهن التوفيق في سعيهن ويجعل النصر لهن على العدو وكان هؤلاء النسوة ومعهم هند يرددن الأناشيد الحماسية التي تلهب في قلوب

(١) الدار المنثور للسيوطي - تفسير سورة النحل الآية ١٢٦

(٢) سورة النحل الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

(٣) رواه الترمذى في كتاب التفسير - سورة النحل ٢٩٩/٥ وأحمد في مسنده الفتح الربان ١٩٢/١٨ والحاكم في المستدرک ٣٥٩/٢

(٤) سورة آل عمران الآيات : ١٤٤ - ١٤٦

الرجال نيران الاستبسال والشجاعة حتى لا يتردد أحد في إقدامه وكره على الخصوم الكرة القاضية .
وإذا كان لكل واحدة منهم ثأر تطلبه فإن هند بنت عتبة كان لها أكثر من ثأر لأنها كانت تندب أباهما وأخاها وعمها ولهذا كانت أكثر النساء إلحاحاً في الخروج إلى المعركة مع العلم بأنها لم تكن من السوق ولا النساء اللاتي ينطلي عليهن التبذل والاختلاط بالرجال في ميدان كر وفر إلا أن المصائب لا قانون لها ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها أو يوجّه خط سيرها لذلك كان خروج من خرجن إلى ميدان المعركة في « أحد » خارجاً عن القانون مغايراً للمألوف .

وقد ساعد « هند إلى جانب مصابها الفادح أن تيسر لها أن تضع يدها على فتى مفتول الذراعين حديد النظر جرىء القلب غير هباب ولا وجل طمعت أن تغريه بالمال ليأخذ لها بالثأر الذي يشفى غليلها ويروى ظمأها ويمسح دموعها ويريح نفسها وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى « وحشى » عبد « جبير بن مطعم بن عدى » وهو فارس لا تخطىء ضربته ولا يخيب قصده ولا ينبو سيفه ولا ينجو منه منازله وقد اطمأنت كل الاطمئنان لأنه وعدّها أن يقتل عدوها اللدود « حمزة بن عبد المطلب » وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده « جبير بن مطعم » أن يعتقه إن هو قتل « حمزة بن عبد المطلب » لأنه قاتل عمه « طعيمة بن عدى » وعلى هذا فإن وحشياً الحبشى يهزه إلى الحرب ويغريه بقتل « حمزة » عاملان قويان المال الذي وعدت به « هند » والعتيق الذي وعد سيده « جبير بن مطعم » .

لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته يجدر بنا أن نقف وقوفاً قصيراً عند « حمزة » الذي تحاك له هذه المؤامرات كلها لترى هل كان يستحق كل هذا الاهتمام من خصومه ؟

في الحق أن « حمزة بن عبد المطلب » لم يكن مجرد إنسان في صفوف محمد يغار على دينه ويدافع عن عقيدته ويحارب خصومه ويخيف عدوه ويرد عنه كيد الكائدين وإنما هو عمه - أولاً - وإلى جانب هذا فهو من القلوب النقية التي تحيطه بالحب وتخصه بالرعاية وتمحضه الود الصادق والاخلاص النادر وكان منذ نشأته ملازماً للرسول لا يفارقه إلا على الكره منه وكان مع هذا كله من الفرسان المغاوير الذين تعزز ببطولتهم الجبهة الإسلامية كلها ويحدث موته فيها اهتزازاً يتصدع له جدار دعوة « محمد » - صلى الله عليه وسلم - والتركيز على اختفاء وجهه من الميدان - إلى جانب كونه إيلاماً بالغاً لمحمد - ثغرة واسعة - وفجوة فسيحة في الصف الثرى وبخاصة بعدما تبين بلاؤه في « بدر » وقتله لرجالات قريش الذين كان قتلهم الجرح الذي لا يندمل وقد صدّق ذلك كله فجيرة الرسول عليه وتهديده إذا نصره الله على قريش وأمكنه منهم أن يمثل بثلاثين رجلاً في مقابل المثلة بحمزة وحده وكذلك جاء في قصة إسلام « وحشى » من قول الرسول له : هل تستطيع أن توارى وجهك عني فإنى لا أحب أن أراك ؟ في حين أنه قد جاء إليه ليعلن إسلامه أو أنه كان أعلنه حينئذ .

وقد اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذي يمكنه عن قتله لحمزة إذ سأله النبي - صلى الله عليه وسلم - وسأله غيره كذلك : « قال عبيد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشياً قلت جئنك لتحدثنا عن قتلك « حمزة » كيف قتلت ؟ قال وحشى : أما إني سأحدثكما كما حدثت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين سألتني عن ذلك . . كنت غلاماً لجبير ابن مطعم وكان عمه طعيمة ابن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير إن قتلت حمزة عم « محمد » بعمى فأنت عتيق فخرجت مع

الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلماً أخطىء بها شيئاً فلما التقى الناس مثل الحمل الأورق يهد الناس بسيفه هداً ما يقوم له شيء فوالله إنى لأتهدأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه « سباع ابن عبد العزى » فلما رآه « حمزة » قال : له هلم إلى يا بن مقطعة البظور فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه وهزئت حربى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات ثم أتيت فأنذرت حربى ثم رجعت إلى المعسكر فقعدت فيه ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة أعتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليسلموا رميت على المذاهب فقلت : ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد فوالله إنى لفى ذاك من همى إذ قال لى رجل : ويحك ! إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل فى دينه وتشهده شهادة الحق فلما قال ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة . فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآنى قال : أوحشى ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ فحدثته كما حدثتكم فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ! غيب عنى وجهك فلا أرينك ! فكنت أتتك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث كان لثلاثى يراى ، حتى قبضه الله فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربى التى قتلت بها حمزة . فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائماً فى يده السيف وما أعرفه فتهيات له وتهيات له رجل من الأنصار فضربه بالسيف فربك أعلم أينما قتله فإذا كنت قتله ، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد قتلت شر الناس» (١) .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ويغلب الانحراف على طبعه لا يلبث إذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلباً فى الحق ، مستميتاً فيه مدافعاً عنه لا يتزحزح ولا يشك ولا يرتاب وفى حرص « وحشى » على أن يرضى عنه النبى - صلى الله عليه وسلم - وشغله نفسه زمناً طويلاً بهذا الرضا ، دلالة على أن عقيدته راسخة وإيمانه ثابت وربما كان أول المؤمنين بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حينما قال له غيب وجهك هنى لم يقلها كرها لأن يراه فى صفوف المسلمين يعلن إيمانه الذى ملأ قلبه ، وأخذ عليه هواجسه وأحلامه ولكن قالها تعبيراً عن كامن اللوعة المكبوتة فى نفسه على عمه الذى كان يحبه ويقف بجانبه ويساعده فى التمكين لكلمة السماء حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وكان قتله خسارة وما بعدها خسارة للإسلام والمسلمين من غير شك !!

بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد شعورهم بأن مقاومتهم للعدو ووقوفهم فى وجهه ضرب من العبث ولون من ألوان الانتحار ، حتى لقد كاد صموده هو نفسه يكون عبثاً وانتحاراً لأنه بعد انفضاض المسلمين من الميدان كان يعرض

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى ١٢٨/٥ ورواه أحمد فى مسنده انظر الفتح الربانى ٢١/٥٩ والطبرى فى تاريخه ١٦/٢ والبيهقى فى

نفسه للموت بغير ثمن وللهزيمة بدون جدوى ، وقد كان الأجدر به والهزيمة تحل بالجيش لا محالة أن يهوى لنفسه طريقاً للفرار كما فعل كثير من أصحابه حرصاً على حياته من الهلاك وإبقاء على روحه التي لم يكن ليملكها وحده ولكنها كانت ملكاً للبشرية التي يعمل لها ويكدح لانقاذها ويعيش ليأخذ بيدها ويكافح للنهوض بها وتوجيهها إلى مستقبل أفضل ، وحياة أحسن وسلوك أمثل إلا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل أعباء الرسالة ومسئولية الدعوة إلى الله لا يعنيه أن يكون إلى جانبه قوة من الناس تسانده وجيش من المحاربين وما ضده لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف ولا أن يغلب بالقوة ولا أن يظهر بالبطش ولا أن يعلو بالعدد والعدة وهو الذي يعتمد على المنطق ويدعو إلى الحق ويقود الإنسانية إلى شئ أقوم ومثله لا يثقل ميزانه أن ينتصر في معركة أو يغلب في جولة أو يضطر خصمه معه إلى أن ينزل على حكم القوة ، أو إرادة التسلط والنفوذ لأن هذا هو أسلوب المفلسين من الحجة والبرهان أو الصواب والحق . على أن انصراف خصومه عنه مع هذا العنصر الساحق الذي أصابوه كان من المعجزات التي أيده الله بها والخوارق التي سخرها له ، فلقد وقفت له قلة قليلة تناوشه ونفر ضئيل يحاربه فنال منه بعض الذي يحب لا كل الذي يحب أما بقية الجيش فإنها كانت على يقين أنه قتل وليس هنالك بعد الذي كان ما يدعو إلى حرب شاملة . أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن « محمداً » لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف وخطوا رحالهم وهم في طريقهم إلى مكة دون أن يترثوا وأجمعوا الرأي على أن يأخذوا طريقهم إلى « يثرب » لتأديب « محمد » ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا في الوقوف في وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو إليها .

ولم يكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يشك في أن خمر الانتصار الذي حصلت عليه قريش - وبخاصة بعد قول « أبي سفيان » في نهاية المعركة ، يوم بيوم بدر والموعود في بدر مرة أخرى في العام المقبل - سيحملها على التمرد والطغيان الفرور وأن ذلك سيسوقها لا محالة إلى الطمع في الدخول إلى يثرب التي يتحصن بها محمد والمسلمون معه لقطع الطريق على المارة من مكة أو إلى مكة بالتجارة ولهذا فإنه - صلى الله عليه وسلم - لم يرد أن يظهر بمظهر المتهور الذي خرج من المعركة مشحناً بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ولكنه أقام في الطريق من غير أن يواصل السير إلى المدينة وظل بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان هو وأصحابه بالروحاء على بعد سبعة وثلاثين ميلاً بعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على « محمد » وأصحابه ، وقد أراد - صلى الله عليه وسلم - ببقائه على الطريق أياماً أن تفهم قريش أنه لا يزال على أتم الاستعداد للقائهم ودفع عداوتهم وإشاعة الرعب في قلوبهم وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة وكان كـ كـ مضافاً إليه تنكيل « محمد » باليهود وإشاعته الخوف والفرع في نفوس المنافقين عاملاً قوياً حاراً في أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الإسلام واستعراض عضلاتهم جميعاً في مبارزة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » : فلما كان الغد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن النبي في المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته على ألا يخرج إلا من حضر

الغزوة وخرج المسلمون فوق في روع أبي سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء فمر به « معبد الخزاعي » وكان قد مر بمحمد ومن معه فسأله عن شأنهم فأجابه معبد - وكان لا يزال على الشرك .

« إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط . وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه وكلهم أشد ما يكونون عليكم حنقاً ومنكم للثأر طلباً » .

على أن (أبا سفيان) فكر من جانبه فيما يكون لفراره من « محمد » ، ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه من الأثر أفلا تقول العرب في قريش ما كان يود أن تقوله في محمد وأصحابه ؟ ولكن هبه رجع إلى « محمد » فهزمه المسلمون إذا ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ! فلجأ إلى الحيلة فبعث مع ركب من « بني عبد القيس » يقصدون المدينة يبلغون « محمداً » أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليتأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعع عزمه ، ولم تن قوته ، بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابة ليدل قريشاً أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم وأخيراً فترت همة أبي سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة ، ورجع (محمد) إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانته .

وفي هذا الموقف الذي وقفه المسلمون مع النبي بحمراء الأسد وغيرها لإرهاب العدو وتخويفه نزل قوله سبحانه ثناء عليهم : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ (١) ولم يمض عام واحد على « أحد » حتى كان الموعد الذي هدد « أبو سفيان » بلقاء المسلمين فيه « بدر » قد حان فخرج أبو سفيان إلى بدر وخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن هدد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك إلى أن يخرج وحده وكان لهذا التهديد أثره في حماسة المسلمين وإقدامهم البالغ بعد أن كان فيهم فتور وتردد وقد أقام ثمان ليال ينتظر أبا سفيان لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع معتمداً على أن العام لم يكن خصباً وقال : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن وإن عامكم هذا عام جذب فارجعوا فرجع الناس أما المسلمون فإنهم اتجروا في سوق بدر وعادوا بربح عظيم لعله هو المقصود في آخر الآيات السابقة بقوله جل شأنه : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ﴾ ويقول المؤرخون : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يرجع إلى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة التي كانت إلى بدر الثانية والتي انقلب المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل إلا وقد صنع من التطهير العام في الطريق وإشاعة الرعب في نفوس المتمردين ولم يكن له أن يصنعه في سنوات وكان أبرز ما صنع هو جلاء بني النضير الذي كان بعد جلاء بني قينقاع الضربة القاصمة التي وجهت إلى اليهود جبهة المعارضة للرسول وأصحابه ثم كانت بعد ذلك غزوة الخندق أو الأحزاب التي لم تجن من ورائها بعد التجمع ومحاصرة المدينة والفسل الذي منيت به إلا القضاء على بني قريظة وبذلك كله صار المركز القوى للإسلام والمسلمين .

حديث الإفك

كانت غزوة « المريسيع » - أوبنى المصطلق - إحدى العمليات الحربية التي أراد بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة « أحد » لم تفت في عضده ولم تضعف شوكرته لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ويرهبون بأسه لا يزالون يعملون من طريق حرب الاشاعات على تشويه سمعته وتلفيق الأكاذيب له وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان لتكوين هذه الحرب النفسية تقويضاً لبنائه الضخم ونلوياً لتاريخه الناصع وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة من أن يصلوا إلى غرضهم هذا من أسير الطرق وأقربها إذا انقطعت « عائشة » - رضى الله عنها - عن الركب لداع ضرورى وقد أركبها راحلته رجل كان - أيضاً - تأخر كما تأخرت وكان هذا ذريعة للإفاسة في حديث غير كريم القصد منه نقكير الصفو وأثارة الفتنة . والقصة - كما تروى صاحبته - « عن عائشة » - رضى الله عنها - قالت : كان - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد أن يخرج سافراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمى فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمنا حين آذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرجل فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت التمسست عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم وإنما يأكلن العلقمة من الطعام فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأمت منزلى الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى فبينما أنا جالسة غلبتنى عيناء فنامت وكان « صفوان بن المعطل السلمى » ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطئ يدها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين فى حر الظهيرة فهلك من هلك ! وكان الذى تولى الإفك « عبد الله بن أبى سلول » فقدمنا المدينة فاشتكى بها شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك وبينما فى وجعى أنى لا أرى من النبى - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض إنما يدخل فيسلم فيقول : كيف تيكم ؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نقهت « فخرجت أنا و « أم مسطح » قبل « المناصع » تبرزنا - لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية أوفى التنزه فأقبلت أنا و « أم مسطح بنت أبى رهم » نمشى فعثرت فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بشما قلت ! أتسبى رجلاً شهد بدرأ ؟ فقالت : يا هنتاه ! ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : إئذن لى إلى « أبوى » .

قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتيت أبوى فقلت لأمى ما يتحدث الناس به ؟ فقالت : يا بنية هوئى على نفسك الشأن ! فوالله لقلما كانت امرأة

قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! فقلت : سبحان الله : ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « على بن أبي طالب » و « أسامة بن زيد » حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله فأما « أسامة » فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم فقال أسامة : أهلك يا رسول الله ! ولا نعلم إلا خيراً ، وأما « على » فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك ! فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « بربرة » فقال : يا بربرة ، هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقالت : بربرة : لا والذي بعثك بالحق ! ما رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأق الداجن فتأكله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي ؟ فوالله ، ما علمت على أهلي إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي . فقام « سعد بن معاذ » فقال : يا رسول الله ، أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقام « سعد بن عباد » - وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام « أسيد بن الحضير » فقال : كذبت لعمر الله . لتقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكنوا وسكت وبكى يومى لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبواى وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدي ، قالت : فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معي ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء . قلت ، فتشهد ثم قال : يا عائشة ، لقد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ! وإن كنت ألممت بذنب ثم تبت تاب الله عليك ! فلما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ! وقلت لأبي : أجب عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله فقلت لأمي : أجيبى عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما قال ، قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قلت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت : والله ، لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث الناس وقر في أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أني لبريئة لا تصدقونني بذلك ولئن اعترفت لكم بأسر والله يعلم إني لبريئة لا تصدقونني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : فمسير جميل والله المستعان على ما تصفون ! ثم تحولت على فراش وأنا أرجو أن يرثني الله ولكن والله ما ظننت أن الله ينزل في شأني وحيّاً يتلى ولأنا أحقر في نفسى من أن يتكلم القرآن في أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في النوم رؤى يرثني الله بها فوالله ما دام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات فلما سرى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي : يا عائشة ، إحمدي الله فقد برأك الله ! فقالت لي أمي : قومي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : لا والله لا أقوم إليه

ولا أحمد إلا الله ! فأنزل الله - عز وجل - ﴿ إِن الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ۚ لَا يَأْتِلُ الْغَايِبُ عَلَى شَيْءٍ ۚ وَالَّذِينَ يَأْتِلُونَ الْغَايِبَ لَا يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢١﴾ (١) ، فلما أنزل الله - عز وجل - هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وكان ينفق على « مسطح بن أثاثه » لقربته منه : « والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قال لعائشة ! فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ ۚ إِلَىٰ قَوْلِهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢١﴾ (٢) ، فقال أبو بكر : بلى ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى « مسطح » الذي كان يجرى عليه .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل « زينب بنت جحش » عن أمرى ، فقال : يا زينب ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت عليها إلا خيراً ! قالت : وهى التى كانت تسامينى فعصمها الله بالورع» (٣) وفى هذه القصة عظات وعبر :

منها أن الشدائد كانت تلاحقه - صلى الله عليه وسلم - فى كل خطوة من خطوات دعوته إلى الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه وفى أهله وفى سبيل إعلان هذه الدعوة وإبلاغها إلى الناس ومع ذلك كله فإنها لم تستطع أن تصرف جهده أو تثنى عزمه أو أن تشيع اليأس فى نفسه أو تعوق خطوه أو تنال من ثقته بربه أو تشوه تاريخه أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنن الذى هو ما صير فيه . .

ومنها - كذلك - أن مع العسر يسراً - كما يقول الله - سبحانه وتعالى - فإن عائشة - رضى الله عنها - لما شهدت لها السماء وبرأها الوحى ، ونوّهت بها الآيات البينات صار الإيمان بطهرها عقيدة ورميها بالزنا كفراً - والعياذ بالله - : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۚ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٤﴾ (٤) . ومن أن المولى - جلا وعلا - لا يتخلى عن أوليائه فى أخرج الأوقات وأحلك الظروف مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم وعناصر الشر تحاربهم والخصوم يكيّدون لهم ويتفقون عليهم وقد كان مسطح الذى أذاع هذا الفحش وعبد الله بن أبي الذى تولى كبره ، ومن أخذوا عنها هذه الفرية يظنون أنهم أصابوا من محمد - صلى الله عليه وسلم - مقتلاً أو كشفوا له هناة ولكن الله قد رد كيدهم فى نحركم : ﴿ إِن الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۝٢٥﴾ (٥) ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة - رضى الله عنها - بهذا الإفك أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب بنزاهة العرض وطهارة الجانب وشرف القدر وسمو المنزلة لما كان منهم إلا الخرس ولكنه الحمق الذى جعلهم يسعون إلى حتفهم لظلفهم ويقدمون على سلوك يكون من ورائه لهم الويل والخزى والأسى والأسف والحسرة والخيبة والصغار والهوان .

ومنها - وهى أهم من ذلك كله وأعظم - أن الذى يهتم بكشف الأستار وافتضاح الأعراض يتخبط فى

(١) سورة النور الآية : ١١

(٢) سورة النور الآية : ٢٢

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى - ١٤٨/٥ - ١٥٣ وكتاب التفسير - باب قوله : لولا إذ سمعتموه ٤٥٢/٨ ومسلم فى كتاب التوبة ٢١٢٩/٤ وعبد الرزاق فى مصنفه ١١٠/٥ والترمذى فى كتاب التفسير ١٣/٥

(٤) سورة النور الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٥) سورة النور الآية : ١١

منطقة ويلتوى في سيره ولا يبالي أن تمشى به رجله إلى حتفه وتنتهى به إلى خاتمة لا يرضاها وغاية لا يحمدها أم أنها ستصل به إلى شاطئ الأمان ومواطن السلامة والعافية ، فإن هذا الرجل الذى اهتم به مروجوا هذه القالة وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ظهر من مجريات الحوادث والأمور - فيما بعد - أن إسناد دور البطولة إليه فى هذه الخرافة الملفقة والفرية المصنوعة لم يصادفه التوفيق ولم يقترن به الصواب والسداد لأنه رجل « غرهاء » كما تقول كتب المعاجم وقواميس اللغة ويفسرونه بأنه لا يرغب فى النساء ولا يتوق إليهن ولا يخشى عليهن منه لأنه يفقد الفحولة ولا يوجد عنده الميل الجنسى ولا يمكن أن يشتاق إلى المرأة أو يحزن إليها أو يطلبها أو يرى أنها ترضى فيه نزوعاً أو تشفى غليلاً ولذلك فإن عبد الله بن أبى وهو المقصود بقوله سبحانه : ﴿ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ ^(١) لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الإفك حتى راح يؤلب النفوس ويشير القلوب ويقدم للفتنة وقوداً آخر وآخر مصوراً ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم من حزازته ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزان السماء والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ^(٢) وكأنما كان يعتقد أنه « كقابض على الماء خاتته فروج الأصابع » .

الخندق أو الأحزاب

مع تلك المجاهبات الكثيرة التى كانت بين المشركين والمسلمين والذعر الذى بدأ يدب فى قلوب خصوم محمد - ﷺ - من مواقف البطولة التى كانوا يرونها غير مرة من أصحابه - (رضوان الله عليهم) فإن العداوة التى كانت بادية فى سلوكهم معه ، ونواياهم نحوه ، لم تكن لتقطع بوادرها ، أو تخفى ظواهرها أو تنتهى نتائجها المتكررة فى كل يوم وكل مناسبة وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه هى أبرز تلك المسرحيات التى تجلى فيها بشكل واضح تيقظ موامرتهم بالنبي - ﷺ - ووضح وضعهم الشاذ بالنسبة له حين تيقظت خصومهم الحفيرة المتمثلة فى تحركاتهم المريبة هنا وهناك لحشد الجيوش واتخاذ العدة وإشعال نار الحرب وإعلان التغير العام على هذا الذى جعل الآلهة إلهاً واحداً ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضرى : « لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وإرث المسلمين لها بل كان فى نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم إلى مكة ، وقابلوا رؤساء قريش وحرصوهم على حرب رسول الله ووعدوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولاً لما طلبوه ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرصوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم إرتياحاً فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدى ، وعددهم أربعة آلاف وتجهزت غطفان يرأسهم عيينه بن حصن جازى إحسان الرسول إليه كفراً فإنه أقطعه أرضاً يرعى فيها سوائمة حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المرى وهم أربعمائة وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن ربيعة وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع

(١) سورة النور الآية : ١١

(٢) سورة المنافقون الآيتان : ٧ ، ٨

عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبوسفيان ، فلما بلغه عليه السلام أخبار التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيملك في المدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار ؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه فأمر - عليه السلام - المسلمين بعمله وشرعوا في حفره شمالي المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية بعمله وهذه هي الجهة التي كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ويقول الاستاذ أحمد إبراهيم الشريف في الإعداد الذي سبق غزوة الأحزاب هذه : « اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين في يثرب في نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا إلى خير بعد إجلائهم عن المدينة ، وأرادوا لها أن تكون مجاملة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ، وفي سبيل ذلك لم يدخروا جهداً من حيلة أو مكر أو مال . . . وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حمى بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق وأخوة كنانة ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش بمكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التي تحمل لواء المعارضة ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهي التي بينها وبين المسلمين حرب معلنة لم تنته لكن قريشا كانت قد بدأت تمل الحرب وبدأت جبهتها الداخلية تتضعض وأخذ الحصار الاقتصادي يؤثر فيها تأثيراً كثيراً جعلها تفكر في إعادة النظر في موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التي نشأت في يثرب وأخذت عليها طرق تجارتها وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والنمو لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التي يدعوبها وليس بعيداً أن يكون على حق مادامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموا . . . وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حياً عن قومه من بنى النضير فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال : أقاموا ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم حتى أخذ معهم موعداً بعد أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب بلغت أنباء هذا المسير محمداً والمسلمين معه في المدينة ففرعوا وقد رمتهم العرب كلها عن قوس واحدة وإذا كانت قريش قد انتصرت في أحد ولم تكن في أكثر من ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون المقابلة هذه القوة التي تبلغ أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ؟ لم يكن من سبيل سوى التحصن بالمدينة ولكن أيكفى التحصن أمام هذه القوة الساحقة ثم إن النبي لا يريد المغامرة وليست البطولة هي التي يحرص عليها فالحرب عنده وسيلة لا غاية وهو - وإن كان سريع النهضة لضرب العدو - رقيق التنظيم ماهراً في القيادة فإنه ليس على مثال قواد الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربي وإنما هو نبي يريد سيادة مبدأ وتحقيق رسالة ويحرص على السلم مادام له عن القتال مندوحة وقد أقبلت قريش وأحزابها وهي ترجو يوماً كيوم أحد ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها في مساحة مكشوفة مثل يوم أحد وإنما ووجهت بتنظيم جديد وفاجأها الخندق فأخذها العجب إذ لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول وكان الوقت شتاءً والجو بارداً والرياح شديدة وأدركت قريش وأحزابها أنهم مقيمون أمام الخندق طويلاً يتعرضون لهذا الجو القاسي الذي تعجز خيامهم عن حمايتهم منه ومحمد وأصحابه بخندقهم ولدتهم الحيرة ومساكنهم وراءهم فهم يستطيعون الصبر طويلاً أفليس الخير للأحزاب أن يعودوا أدراجهم لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر

الذين ، قدر اليهود هذا كله وخاف حيى بن أخطب مغبتها فقال لزعماء الأحزاب إنه سيقنع بنى قريظة بنقض عهدهم مع محمد والانضمام إليهم ومتى منعت معونتها عن محمد انقطعت عنه الميرة وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب وسرت قريش بما تعهد به حيى وسارع هو إلى تنفيذ خطته فاقنع زعيم بنى قريظة كعب بن أسد بذلك ومازال حتى ثارت يهوديته وأعلن نقضه للعهد وعاد حيى يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم وعلم الرسول بذلك فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير ليقفوا على جليلة الأمر ، وليحاولوا رد اليهود إن كانوا قد فكروا فى الخيانة وهنالك طلب زعيمهم كعب بن أسد أن يردوا إخوانهم من بنى النضير إلى ديارهم إن كانوا يريدون منهم أن يلزموا موقفهم الأول وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ما حل ببنى النضير لكنهم لم يقتنعوا وقال كعب : من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ؟ واشتدت المناقشة وكاد الفريقان يتشاثمان . . . ورجع رسل محمد إليه ، واشتد البلاء وعظم الخوف ورأى المسلمون طريق قريظة وقد فتح للأحزاب ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو فإن الحيلة إذن خير ما يلجأ إليه القائد البصير فى مثل هذا الموقف لذلك بعث النبى إلى غطفان بعدها بثلاث ثمار المدينة إن هى ارتحلت ولما لم يكن لغطفان هدف إلا المال فقد بدأت تميل إلى هذا العرض ثم إنه أرسل نعيم بن مسعود وكان قد أسلم حديثاً ولم يعلم الناس بإسلامه وكان صديقاً لقريش كما كان صديقاً لليهود ليصل بالحيلة إلى تفكيك وحدة الأحزاب وكان داهية ذكيا فأفهم اليهود أن غطفان وقريش لا تطيقان البقاء وربما انسحبا وظلوا هم وحدهم يواجهون محمداً وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهنا من رجالهم يكونون بأيديهم ضماناً لهم ألا تتركهم الأحزاب لهذا المصير^(١) وقال لقريش : إن بنى قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسيأخذون رجالاً باسم رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها ، فلما طلبت قريش والأحزاب من بنى قريظة خوض المعركة طلبوا منهم الرهائن وعندئذ تأكد لأبى سفيان أنهم سيغدرون وعرض أمر الهجوم السريع على غطفان فترددت فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر غزيراً وقصفت الرعد واشتدت العاصفة بما لم ير له مثيل من قبل حتى امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب وخيل إليهم أن محمداً سوف يستغل هذه الفرصة فيها جمعهم ويوقع بهم فقام طليحة بن خويلد الأسدى وصاح إن محمداً قد بدأكم بشر النجاء النجاء وكان أبو سفيان أول من أجاب النداء ولبى داعى الفرار وصاح بقريش إنى مرتحل أيها الناس فارتحلوا فقد نقضت قريظة عهدها وبدأكم محمد بشر ما تكرهون وهكذا هزم الله الأحزاب وكفى المسلمين القتال .

وفى هذه الغزوة لم يكن عدد المسلمين مشجعاً على الوقوف فى وجه الأحزاب الذين جاءوا للإجهاد عليهم وإسكات صوته وتفريق شملهم وتنكيس رأيهم إلى الأبد حتى لا تزحم طريقهم هذه الدولة الجديدة فى يثرب وهنالك تمر القوافل التجارية وهم يخشون الخشية كلها من تعرضها لها وعدوا بها عليها إلا أن المسلمين مع هذه القلة كان فى قلوبهم إيمان وبين جوانحهم عقيدة غماها لديهم وأكدها فى نفوسهم

(١) مصنف عبد الرزاق ٣٦٨/٥ والبيهقى فى الدلائل ٤٤٥/٣ والواقدي فى المغازى ٤٨٠/٢

تلك الشقة التي لا حد لها في نصر الله لهم والتي كان الرسول - ﷺ - يعلنها إليهم ويبشرهم بها ويؤكد لهم أن الله - سبحانه وتعالى - قد وعده بها ولا يخلف الله وعده ونحن نستطيع أن ندرك من غير شك - أن الرسول - ﷺ - أثبت مما لا ريب فيه أنه قائد حربى عنك استطاع بدهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدو الضخم الذى حشده عدوه وواجهه به خصومه وتبين ذلك واضحا كل الوضوح فى أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذى استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبني قريظة إلى درجة أن فكرت قريش ممثلة فى القائد العام أبى سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفية بهذا النصر الذى أحرزته فى أحد وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التى صادفتها من البقاء الطويل وقيام العواصف التى اقتلعت الخيام وأشاعت الرعب على أن الخندق كان ضمانا إلى حد ما فى صيانة جيش المسلمين من هجوم عدوهم وتطاؤل خصومهم وإن كان بعض الفرسان اقتحمه وأراد بهذا الاقتحام أن يمهد لغيره أن يقتحمه غير أن عملية لم تكن من اليسر بحيث يستطيعها كل أحد وثانى هذين الأمرين تلك المبارزة التى أراد مقتحموا الخندق أن يشيعوا بها الرعب والفرع فى نفوس أصحاب محمد - ﷺ - إلا أنها لم تحقق غرضها ولم تصل بأصحابها إلى النتيجة المطلوبة وكان على بن أبى طالب - رضى - الله عنه صاحب الفضل فى أنها خيبت ظنونهم وأحبطت أعمالهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً إذ تقدم عمرو بن ودقى طلبا للمبارزة وتقدم له على فقتله وكان بعد ذلك قرار المشركين وكانت هذه هى الضربة الأولى والفضل فى الحروب دائما أبداً للضربة الأولى وأظن أنه قد كان من الطبيعى جدا بعد هذه الغزوة أن يفهم خصوم محمد - ﷺ - أنهم سوف لا تقوم لهم قائمة بعد وأنه لم يبق إلا أن يقول قائلهم فى صوت عال أوخافت إن الإسلام قد أصبح قوة ضاربة لا يمكن قهرها ولا القضاء عليها .

قصة زينب

لم يقتصر مؤامرات المشركين ، ولا دسائس المنافقين فى الكيد للرسول - ﷺ - على الحروب الميدانية التى أثاروا عجاجها ورسموا منهاجها وأشعلوا نيرانها وأراقوا فيها دماء كريمة عزيزة ولكن هذا الكيد كان يمتد بهم إلى أقصى الغايات وأبعد المسافات فيتناول العرض والشرف والسلوك والطباع والأخلاق والعادات وأمهات المؤمنين اللاتى كن أظهر من ماء السماء وأنقى عرضا من حبات الندى وكأنما هو مخطط قد رسمت له الحدود والأبعاد وأعدت لتنفيذه الأوقات والمناسبات والظروف الملائمة وتتناول الرسول - ﷺ - نفسه إذا دعت الضرورة إلى ذلك فيتهمه بالسحر والكهانة والشعر وأن ما ينزل به جبريل الأمين أساطير الأولين اكتبها فهمى تملى عليه حتى إذا ما تبين لهم تفاهة ما يقولون وخرافة ما يدعون وكذب ما يزعمون حاولوا أن يتخذوا لهم ميدانا آخر للهجوم ومناسبة أخرى للطعن واللمز والتشويه والتجريح وقد كان زواجه - ﷺ - بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث العفن والتشنيع المفضوح والانتهاش الساقط وفى كل مناسبة من المناسبات التى تأخذ فيها هذه الأحاديث طريقها إلى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى والمستشرقون فى العصر الحديث ورثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به وأتقنوا التنقيص والطعن واختلاق العيوب والمساوى وقصة زينب بنت جحش واحدة من هذه القضايا التى أخذوا على عاتقهم استخدامها فى الطعن على الرسول وإبرازه فى صور الشخص الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه هو فقط يشبع شهواتها ويلبى رغباتها ويستجيب لتزوعها وميولها أو الرجل الشهوانى الذى ينس عقله ورشده وتفكيره

وخلقه ومنطقة وأدبه وعرضه ودينه لينزل على إرادة الغريزة والطبع والهوى والميل متناسيا الأعراف والتقاليد والديساتير والنظم والقصة هكذا كما يرويها الشيخ محمد الخضرى : (وفى هذا العام - يقصد السادس الهجرى الذى كانت فيه غزوة الأحزاب وبنى قريظة والمصطلق تزوج عليه السلام زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاة زيد بن حارثة وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول - ﷺ - خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانتها من الشرف العظيم فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ويعتقدون ألا كفاء من سواهم لبناتهم وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف فلما نزل قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾^(١) لم يروا بدا من القبول فلما دخل عليها زيد أرتة من كبريائها وعظمتها ما لم يتحملة فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها أى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العيث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسبا للنزاع من جهة وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب عليه . فى زواجه بزواج ابنه فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم الزوج من زوجة المتبنى ﴿ الاثلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾^(٢) ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثة) بدل زيد بن محمد ويقول جهال المؤرخين وذوو المقاصد السافلة منهم : فى هذه القصة أقوالا لا تجوز إلا على من ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه فقال : سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات ورسول الله هو الذى زوجها زيدا فلو كان له فيها رغبة عن حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك ومن هنا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه : إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾^(٣) ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجته ثم يشتهى زواجها ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا وأبعدهم عن الدنيا حتى مدحه الله بقوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾^(٤) أما الدكتور هيكل فى كتابه حياة النبی - فإنه يقول : (يكفى لهدم كل هذه القصة التى قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله - عليه السلام - وأنها ربيت بعينة وعناية وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى وأنه كان يعرفها ويعرف أمى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيدا وأنه شهداها فى نموها تحبو من الطفولة إلى الشباب وأنه هو الذى خطبها لزيد مولاة إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٦٠

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٧

(٣) سورة طه الآية : ١٣١

(٤) سورة القلم الآية : ٤

مر بيت زيد ولم يكن هو فيه رأى زينب فبهره حسنهما وقال : سبحان مقلب القلوب أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذي على غرفة زينب فلقاها في قميصها ممتدة فانقلب قلبه فجأة ولو أن شيئاً من حبها علق بقلده لخطبها لنفسه لا لزيد ويثبت التاريخ أيضاً أن محمداً خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية وهي مع ذلك ابنة عمه الرسول وأن تكون تحت عبد رقيق اشتريته خديجة ثم أعتقه محمد ورأى في ذلك على زينب عاراً كبيراً وكان ذلك عاراً كبيراً عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وإن أعتقوا لكن محمد يريد أن تزول مثل هذه الاعتبار القائمة في النفوس على العصبية وحدها وأن يدرك الناس جميعاً أنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هي التي تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب وهذا الهدم لعاداتها مضحية في ذلك بما يقول الناس عنها مما تخش سماعه وليكن زيد مولاه والذي أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق في أن يرثه كسائر أبنائه هو الذي يتزوجها فيكون مستعداً للتضحية التي أعد الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس قيادها ولا لأن إباؤها واشتكى زيد إلى النبي ذلك وطلب طلاقها وقال له النبي : أمسك عليك زوجك إلا أن زيداً لم يطق فطلقها وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعوى جميع حقوق الإبن ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السابقة إن محمداً نفسه على قوة عزمته وعميق إدراكه لحكمة الله في أمره قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب لكن محمداً كان القدوة في كل ما أمر الله به وما طلب منه أن يبلغ رسالته فليخش ما يقول الناس فذلك لا شيء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادعاء هذه رواية التاريخ (الصحيح) وربما كان من المستحسن أن ننقل لك صورة من تفكير بعض المستشرقين وتصورهم لهذه القصة عن كتاب حياة محمد للمستشرق (إميل درمنغم) الذي ترجمه إلى العربية (محمد عادل زعير) لتري إلى أي حد كان هذا الإسفاف وتلك الخرافات : « شعر محمد في العقد الأخير من عمره بكبير ميل إلى النساء فقد أثارت عائشة الفتاة التي تزوجت به في السنة التاسعة من عمرها عوامل الميل إلى النعيم الجنس في زوج خديجة الطاهرة الذي ظل وفيها لها عشرين سنة مع زيادة سنهما عن سنه كثيراً فلما بلغ محمد المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب أقام لنفسه بيتاً كبيراً سادات العرب فأبرم كهؤلاء السادات عقود نكاح كثيرة عن ميل جنسى أو عن سياسة وكان له بضع سرارى جميلات عرضت عليه هدية أو نالها سبياً وقد زاد لذلك الميل الجنسي القوى الذي كان محصوراً قبل زمن أبواب بيته النافذة إلى فناء المسجد بالتدريج فكان كل باب منها خاصاً لسكن إحدى زوجاته . . . وقد دخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثه بعد الفراغ من غزوة بني النضير وكان محمد يحب مولاه العتيق زيد بن حارثه كثيراً وكان قد تبناه فكان زيد بن محمد وكان يستشير في كل أمر وكان زيد في ذلك اليوم غائباً عن بيته فوجد محمد نفسه تجاه زينب بنت جحش التي كانت أجمل فتيات قومها والتي كانت زوجة لزيد وكانت زينب هذه سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها فأثر هذا الجمال الغض الفياض في نفس النبي - ﷺ - فقال : سبحان مقلب القلوب ولم ينطق

بغير هذه الكلمة ثم انصرف وقد قصت زينب على زوجها زيد ما رأت فحار في الأمر وكان زيد المخلص لمولاه النبی مزاجه المتقد فرأى ألا يمسك عليه زوجه فأعرب عن عزمه على طلاق زينب وذكر له أنه لا يستطيع العيش معها فقال محمد : أمسك عليك زوجك بيد أن زيدا أدرك أن ذلك لا يعبر عما يخفيه - محمد في نفسه فأصر على حل عقدة النكاح متعللاً بأنه أصبح كارهها لزينب فطلقها بعد بضعة أيام فلما انفضت عدة زينب أرسلت إلى محمد من يقول له : إن زيدا طلقها إرضاءً له وكان محمد راغباً في الزواج من زينب على استحياء .

ونحن نرى من هذا الرأي الذي يمثله « درمنغم » يتجافى مع الحقيقة كل المجافاة ويتجرد من الذوق إلى أبعد حد لأنه لا يجعل الرسول في مصاف النخبة الممتازة من البشرية التي ارتفعت بها عناية الله عن هذا المستوى البشرى السافل إلى أفق يجعل منهم القدوة الصالحة للإنسانية ولكنه ينزل بهم إلى المستوى الترابي الحقيق الذي يعيش الناس فيه لحيوانيتهم الطائشة وأدميتهم الرعناء فلا يمنعهم شيء وراء شهوة البطن والفرج على أن محمداً - ﷺ - الذي مرت به فترة الشباب وهو أكمل ما يكون قوة وأنضج ما يكون حيوية وأقصى ما يكون جنسياً وأعظم ما يكون فراغاً لم يُعرف عنه الميل الذي يجعله أسير شهوته يجرى وراءها ويبحث عنها وينسى في سبيلها كرامته وخلقه شأن أولئك الذين كانت المرأة تقودهم وتتحكم في سلوكهم وتملك عليهم كل شعورهم ولقد طلبته خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وهي في الأربعين وسعت إليه دون أن يسعى إليها . . وفي الوقت الذي جرت حوادث قصة زينب لم يكن في فراغ جنسى حتى يتصور العقل أن يكون عنده هذا الشبق والميل العام فقد كان في حريمه حفصة الشابة الجميلة في الثمان عشرة من عمرها وعائشة الصغيرة العزيزة التي كانت تملأ جوانب قلبه كلها فأى شيء كانت تزيد زينب التي كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة وهي - مع ذلك كله - ابنة عمته ، اللهم لا شيء فلم يبق يعد ذلك كله إلا أن المسألة لا تغدو أن يكون هذا منهجاً سماوياً خاصاً أردا به صاحبه أن ينفذ على شكل لا يحمل على التردد ولا يكون شاقاً على الناس ولا يمثل قصته على خشبة المسرح إلا أشخاص لا يدخل في روع المجتمع أنهم من السوق أو ممن لا يصح أن تكون لهم قيادة للجماعة الإنسانية التي يعيشون معها ولو أن أصحاب هذا الدور التشريعي الذي أريد به أن يكون انتقالاً بالمجتمع من سلوك إلى سلوك غير الرسول - « - وزيد بن حارثه مولاه وصفيه وموضع ثقته وزينب عمته لكان لهذا الثورة على هذا الوضع البغيض شأن آخر في تقبل الناس إياها وتركهم لها وإقلاعهم عنها وعدم ارتياحهم إليها ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزمياً في الأسلوب وحكمة في التشريع وصواباً لا يعدله صواب ولهذا فإنه لم يثبت أن أحداً غضب من أجل أن تنحل منه هذه النبوة المزودة أو هذا النسب اللصيق أو هذه الوشيجة التي لا تعتمد على شيء وإنما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح كل الارتياح ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (١) إلا أن الخصومة لا منطق لها والحقد يتجاوز معايير السدا والحكمة والذوق والأدب .

صلح الحديبية وبيعة الرضوان

إلى هذا التاريخ كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود وبين النبي - ﷺ - والمسلمون معه وكانت قريش إلى هذه الفترة نهكتها الحرب وقلمت أظافرها الهزائم التي لحقت بها فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمداً إلا الحقد الذي تغل جوانحها ونوايا الشر التي تخفيها في ضمايرها حتى لقد جلس أبو سفيان يوماً من الأيام في نادى قومه يكاد الغيظ يفيض منه فقال ، ألا رجل يأخذ محمداً على غرة في مسيرة إلى السوق أو إلى دار بعض أصحابه أو إلى المسجد فيضربه ضربة تقضى عليه ليريحنا منه ومن خطره علينا بعد تلك الدماء التي أريقت من قومنا وأهلينا وذوى المكانة فينا فتقدم إليه رجل وقال له أنا ذلك الذي تنشده وهنالك أعطاه أبو سفيان الأموال والزاد والراحلة ليقوم له بتلك المهمة وفي صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحنى على النبي - ﷺ - ليضربه بخنجره الذي سقط منه فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروهاً ولما وجد أن قدرته قد ذهبت وأن خطره قد هوى وأن قلبه قد امتلأ بالخوف وأن رجله لا تحملانه وأن الأرض موشكة أن تنشق لتبتلعه وأن أسيد بن حضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه أعلن ندمه وأسفه على ما أقدم عليه فقال له النبي أصدقني حديثك وخبرني خبرك فلم يخف عنه شيئاً وأنبأه أنه موفد من قبل أبي سفيان لقتله وأنه يعترف منذ هذه اللحظة أن أبا سفيان وقومه على الباطل وأن الرسول على الحق وقد بعث النبي - ﷺ - رجلين من أصحابه ليقتلا أبا سفيان هما عمرو بن أمية الضمري - وكان من فتاك العرب في الجاهلية - وسلمة بن أسلم وقد عرف أبو سفيان وهو يطوف بالبيت فاستعدى عليه أهل مكة فهرب هو وصاحبه وقتل في طريقه وهو فار رجلان من تيمه ورجلان من بنى الدليل ولقى آخرين من قريش بعثتهما يتجسسان على محمد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالآخر أسيراً إلى المدينة وكان الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يبقى أبو سفيان على قيد الحياة يسلم حتى بيديه مفاتيح مكة فيما بعد .

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمر الهين اليسير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحرام ومكة التي تضم أهليهم وذوى قرابتهم وإخوانهم وأخواتهم بل لم يكن النبي - ﷺ - أكثر منهم جلداً ولا أشد منهم احتمالاً أو أقل شوقاً ولهفة إلى أن يجد نفسه وقد مكناه الله من الأرض العزيزة عليه ومن البيت الحبيب إليه حتى بلغ من حنينه هذا ومن شدة تعلقه بهذا المكان الذي بزغت شمسُه قبل أن تطلع الشمس وتنشر ضياءها على هذه الدنيا أن رأى في منامه - ﷺ - أنه دخل مكة ولم يكن يذيع فيهم ذلك النبأ ويبشرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم ۞ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين ۞ (١) حتى ويثبت أفئدتهم من بين أضلاعهم تطوف بالبيت وتتملى من نوره ويتمم بغباره وتملاً خياشيمها برياً ثم ظلوا يتحينون الفرصة ويتربصون أن يحقق الله لهم ما يرجون أن يكون إلا أنهم كانوا على يقين أن قريشاً لا تفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس وطيب خاطر وسوف تصدهم صداً عنيفاً إذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف وسلطان الحرب وقد

كانت قريش لا تفكر في حرب محمد - ﷺ - لأنها تعاني من حروبها الماضية وتقاسى مما خسرت فيها من عتاد ورجال وكذلك كان الرسول - ﷺ - لا يرغب في حربها ولا يميل إلى مناوشتها ولا يهوى نفسه لمواجهتها إلا أنه مع ذلك كله كان ينتظر أن يحقق الله ما وعده به ولا يشك بعض الشك في أنه منجزه إياه وكان يرجو أن يصل إلى غرضه باللين والسياسة والحزم والكياسة ويقول الدكتور هيكل : « إنهم المجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبي بما ألهم في رؤياه الصادقة ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام أن شاء الله آمنين مخلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون فما كاد القوم يستمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم وحتى تنقل نبأ هذه الرؤيات إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف. ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام أيحاربون في سبيله ؟ أيحملون قريشاً عنه عنوة أم تفتح قريش له طريقه صاغرة مدعنه ؟

أذن محمد في الناس بالحج وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج في أول ذي القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القصواء وكان عدد الذين خرجوا ألفاً ونصف وساق معه الهدى وسبعين بدنه وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً فلما بلغ ذا الحليفة قص الناس الرؤوس ولبوا بالحج وغرلوا الهدى ومن بينها بئر أبي جهل الذي أخذوه في بدر ولم يحمل أحد سلاحاً إلا ما يحمله المسافرين من سيف مغمد وبلغ قريش أمر محمد فامتلات بالمخاوف وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوههم حتى لقد حسبه حيلة أراد بها محمد أن يحتال لدخول مكة ولم يشتم ما علموا من إحرام خضوعهم بالعمرة وإذاعتهم في أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركهم إلا العاصفة الدينية عن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة بالغاً ما بلغ الثمن الذي يدفعونه كذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمه بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مائتين وعسكر بذي طوى ليحول بين محمد وأم القرى أما محمد فإنه تابع مسيرته حتى إذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش فقال له : « لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً : فقال ﷺ - يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافدين ولم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة^(١) ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع إنه لم يخرج من المدينة غازياً وإنما خرج محرماً يريد بيت الله يؤدي عنده إلى الله فرضه وهو لم يتخذ للحرب عدتها فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش مكة تبدر على مرمى النظر فنأدى في الناس قائلاً من يخرج بنا على غير طريقهم التي هم بها وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب مضنية حتى أفضت به إلى سهل عند منقطع الوادي سلکوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المزار مهبط الحديبية من أسفل مكة فلما رأت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه ركضوا راجعين أدراجهم مدافعين عن مكة إذا داهمها المسلمون . . . ولما بلغ المسلمون الحديبية برکت ناقة النبي فقال قائل خلأت القصواء فقال ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم دعا الناس إلى النزول فقالوا يارسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه فأخرج سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً فنزل به إلى بئر من الآبار المنشورة في تلك الأنحاء ففرزه في الرمال

في قاع البئر فجاش الماء فاطمأن الناس ونزلوا ، ولكن قريشا كانت لهم بالمرصاد فهل يعدون لها عدة النزال .

وقف المعسكران يفكران في الخطة التي تتبع . . . أما محمد فظل على خطته في السلم والجنوح إليه إلا أن تهاجه قريش أو تغدر به وهنالك لا يبقى من انتصار السيف مفر وأما قريش فترددت ثم فكرت في أن توفد إليه من رجالها من يتعرف قوته ويصده عن دخول مكة وجاءه بديل ابن ورقاء في رجال من خزاعة يسألونه ما الذي جاء به فلما اقتنعوا أن لم يأت محارباً رجعوا إلى قومهم ليبلغوهم ذلك لكنهم لم يصدقوا وبعثوا رجلاً من بني عامر فعاد بمثل ما عاد به بديل فلم يصدقوا فبعثوا سيد الأحابيش الحليس بن علقمة فلما رآه النبي مقبلاً أمر بالهدى أن تطلق أمامه لتكون تحت نظره دليلاً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجين للبيت فأيقن الحليس أن قريشاً ظالمة وعاد إليهم ليقول لهم سبحانه الله ما ينبغي هؤلاء أن يُصَدَّوا أتجح لحم وخدام وحير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ، هلكت قريش ورب الكعبة فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم . . . وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم فأكدوا له أنه عندهم غير متهم وقد خرج إلى محمد وذكر له أن مكة بيضته وأنه إن نالها بهؤلاء الأوشاب كان ذلك العار الخالد وكان عروة يتناول - أثناء الحديث - لحية الرسول وكان المغيرة ابن شعبه يضرب يد عروة كلما تناول لحية النبي ، ورجع عروة إلى قريش فقال لهم : « يامعشر قريش إني والله ما رأيت ملكاً في قوم مثل محمد وأصحابه وإنهم لم يسلموه لشيء أبداً فروا رأيكم » .

وطالت المحادثات على النحو الذي قدمناه ففكر محمد في أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذي يرى فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعه الأحابيش فخلوا سبيله وخرج جماعة من سفهاء مكة - أربعون أو خمسون - يريدون العبث بمعسكر المسلمين فأخذوا أخذاً وجيء بهم إلى النبي فأطلق وثاقهم وعفا عنهم .

وقد أراد عليه السلام أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر بن الخطاب ليذهب إليهم فاعتذر بأنه ليس له هنالك من ينصره ويحميه من عداوتهم إذا أرادوا الاعتداء عليه وقال للنبي إن عثمان أعز بها مني فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره وأبلغهم رسالته فلم يأبها بها ولكنهم أذنوا له في دخول البيت والطواف به فأبى إلا أن يكون مع محمد وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة وطال إحتباس عثمان هنالك وترامى إلى المسلمين أنه قتل غيلة وغدراً ودخل في روع النبي - ﷺ - أن قريشاً قتلت عثمان فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت وكلهم حماسة للإنتقام ممن غدر وقتل وهي بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى في سورة الفتح ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ^(١) وبهذه البيعة اهتزت السيوف في أغمادها وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا ريب فيها وجعل كل ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد

ثم لم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان بنفسه إليهم وأبلغ محمداً ما قالت قريش واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له انت محمد وصالحه على أن يرجع ليعود في العام المقبل « وإلى هنا ينتهي الحديث عن قصة هذا الصراع الذي تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية والجانب الآخر منها يتمثل في الموقف الذي وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمي من قبل قريش في إبرام المعاهدة بينها وبين محمد وقد كان فيه من الطرافة بالبسملة - بسم الله الرحمن الرحيم - فيأبى سهيل إلا أن يكون ذلك باسمك اللهم على ما تعود الناس قبل الإسلام عليه « هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله » فلا يرضى بذلك سهيل ثم يقول لو آمانا بك رسول الله ما كان بيننا وبينك خلاف وإنما أنت محمد بن عبد الله ويستجيب الرسول لذلك ويأمر علياً أن يكتبه وتنتهي المعاهدة بعد الاق وأخذ ورد إلى نصوص أربعة :

الأول : أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود في العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام .

الثاني : أن تعقد هدنة عدم الاعتداء بين الطرفين إلى مدى عشر سنوات أو أربع بعض الروايات - يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه

الثالث : أنه من أراد أن يدخل في حلف جانب من الجانبين دخل ويجرى على الحليف ما يجرى على حليفه من صون حرمانه وعدم الاعتداء عليه .

الرابع : أن من جاء إلى محمد من أهل مكة رده - ولو كان مسلماً - ومن جاء إليهم لا يردونه .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : والشرط الأخير هو الذي أغضب المسلمين وأثار إعتراضهم لكن محمد أمضى العقد واعتبر الوصول إلى السلم هدفاً يصغر إلى جانبه كل شيء وعد هذا فتحاً مبيناً وقد كان محمد أبعد نظراً من رجاله ومن خصومه على السواء وإن بدا لأول وهلة أن قريشاً ذهبت في الصلح بالكفة الراجحة إلا أن الأيام أثبتت غير هذا فقد أتاح هذا العقد لمحمد ورجاله أن يدخلوا مكة في العام المقبل واضطرت قريش إلى إخلاء مكة لهم ثلاثة أيام فأثر هذا تأثيراً كبيراً في موقفها الداخلي والخارجي كما أن العقد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول في عقد محمد صراحة وبخاصة خزاعة التي كان جزءاً كبيراً من الأحابيش في بطولها وبذلك جذب محمد إليه جزء كبيراً من هذه القوة فأضعف ذلك مركز قريش الحربي ثم إن محمداً قد أتاحت له فرصة للعمل بحرية على أن يقضى نهائياً على اليهود ببلاد العرب وبذلك يأمن شرهم ودسائسهم وبدأت القبائل التي كانت تناوئه من غطفان وسليم ومزينة وغيرها تسعى للانضمام إليه «

والحق أن هذا الشرط الأخير في تلك المعاهدة كان مشكلة المشاكل لأن كثيراً من المسلمين الذين كانوا يُعذَّبون بمكة جاءوا إلى النبي هرباً من ذلك الجحيم الذي يعيشون فيه فردهم بحكم الوفاء « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » (١) ولم يجف مداد هذه المعاهدة وسهيل لا يزال في موقفه بجوار النبي - ﷺ - حتى جاء - يرسف في قيده - أبو جندل بن سهيل

ابن عمرو هذا فضربه سهيل وجعل يرده ليرجع معه وجعل أبو جندل يصرخ ويقول يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين وأفتن في ديني والنبى يقول له : اصبر يا أبا جندل واحتسب فإننا لا نغدر وإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين مخرجاً .

ووفد - كذلك - من مكة إلى المدينة ابوبصير فأرسل إليه سيده رجلين ليأخذه من النبى فلما سلمه إليهما قال له يارسول الله أتردنى إلى المشركين فقال له نحن لا نغدر . . . وفى الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفر الآخر وذهب ابوبصير حتى نزلت العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجارى وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمناً فلما ذهب ابوبصير إلى هنالك وسمع إخوانه بمكة هربوا إليه وجعلوا وإياه يقطعون الطريق على قريش ويظفرون بكل مايربهم من قوافل وبذلك أحست قريش بالخطر الذى يتهددها من جراء وجود هذا الشرط فى معاهدة الصلح التى أبرمها مع محمد مبعوثهم سهيل بن عمرو فذهبوا إلى محمد يرجون منه أن يعتبر هذا الشرط لاغياً وأن يقبل كل من يفر إليه من أهل مكة حتى لايزداد خطر أبى بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التى تمر إلى الشام وهكذا أثبتت الأيام بعد نصر النبى ﷺ وأنه لم يكن ليأخذ بهذا الشرط الأخير الذى كان مثار اعتراض وسخط عن ضعف منه أو عدم بعد للأمر وإدراك لعواقبها وإنما كانت سياسة رشيدة ونظراً بعيداً وكياسة حازمة مهدت له أن يوجه سياسته من مركز القوة وأن يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء وهو مطمئن إلى أنه لا يواجه تكتل خصوم ولا احتشاد أعداء ولا كيد جماعات لها نفوذ أو سلطان وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكن الدولة الإسلامية وصلابة عودها وارتفاع رايتهما لأن المعاهدات إنما تكون بين قوتين متكافئتين وهذا يعنى أن قريشاً قد أصبحت تحسب - من جديد - لمحمد حساباً جديداً كالحساب الذى يكون بين الند والند يكون محمد - - قد اطمأن إلى وضعه اطمئناناً يساعده على ألا يتهيب قوة أو يخشى جبروتاً أو يهرب طغياناً ولذلك فإن الخطوة التى تحرك بها صلح الحديبية فى القضاء على فلول اليهود التى كانت فى خير وفدك وتيباء ووادى القرى دلت على أنه ماكان ليقدم على هذا الصنيع الذى صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابتة .

بعد الحديبية

كان صلح الحديبية بمثابة علامة النصر فى الطريق أمام محمد - - لأنه بهذا الصلح قد صار بمأمن من المؤمرات والخيانات والغدر والتحرش به من هنا وهناك لأن عدواته كانت متمثلة فى معسكرين قوين يخشى بأسهما ويخاف مايعدانه له من كيد وخصومة هذا المعسكران هما قريش واليهود . . أما قريش فلإنها أصبحت قريرة العين مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التى حققت دمائها وأبقت على شبابها وكبار القادة منها وجعلتها آمنة على تجارتها التى هى شريان حياتها وأما اليهود فاننا نعلم كيف أن الرسول - ﷺ - قد أخذهم بالشدة وعاملهم بالعنف وأشعرهم بالذلة التى تليق بهم والتى تخالط دمائهم وتكون الجزء المهم فى حقيقتهم ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله إلا فى خير والفلول الأخرى التى فرت إليها واختارت البقاء إلى جوارها وقد مر بنا الحديث عنهم أيضاً تحت عنوان « اليهود فى الطريق » ولسنا بحاجة إلى تكرار ذلك مرة أخرى . . إلا أن لكل شىء إذا ماتم نقصانه - كما يقول الشاعر الأندلسى - فإن

المنافقين لا يزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقيق في خذلان الدعوة وإشاعة عوامل الهزيمة ويقول الشيخ عبدالمتعال الصعيدي : « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدا المنافقون لأن قريشا انصرفت عن الحرب إلى السلم وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التي عطلتها الحرب لتستعيد ما فقدته من أموال وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التي وقعت فيها باستمرار صانع الحرب تلك السنين الخمس وانقطاع تجارتها فيها إلى الشام وهي أهم مواردها المالية فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ولم تعد محتاجة إلى تحسبهم لها ولا إلى ما يدبرونه من فتن ومؤامرات فسكتوا » عما كانوا يدبرونه من قبل لأنهم كانوا آلات في يد قريش أيضا فلا يتحركون إلا اذا حركتهم ولا يمكنهم أن يقدموا على شيء من أنفسهم .

ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف : « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى في شبه جزيرة العرب فأما القوة الأولى فهي قوة قريش في مكة بما لها من نفوذ أدبي ومادى وأما القوة الثانية فهي قوة اليهود بمالها من علم وذكاء وقدرة على الدس والوقية وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه وقد استطاع محمد أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويا حتى لقد أصبح زمام المبادأة في يده وقد استطاع ببعد نظره وحسن سياسته وما أظهره من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن الجنوب كله لكنه لم يأمن ناحية الشمال حيث تجمعت فلول اليهود في خيبر وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهودى وادى القرى . . . تيباء لغزو يثرب وإذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية واليهود أشد من قريش عدواة لمحمد لأنهم أحرص على دينهم من قريش ولأن فيهم علما ومكرا أكثر مما في قريش وليس من اليسير أن يوادعهم لصلح كصلح الحديبية ولأن يطمئن إليهم وقد سبقت منهم وبينه خصومات لم ينتصروا في إحداها فما أجدرهم أن يثاروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يمدوا لهم مددا من قوى خارجية وإذن فلا بد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضاء أخيرا حتى لا تقوم لهم من بعد بلاد العرب قائمة أبدا وكذلك فعل فإنه لم يبق بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول آخر حتى أمر الناس بالتجهيز لغزو خيبر على ألا يغزوه معه إلا من شهد الحديبية وقد حرص - محمد - على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه وبعد تفكير عن الكسب المادى ومحمد لا يريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأسا وأوفرها مالا وأكثرها سلاحا وأعظمها دربة على القتال لذلك وقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلعة إلى هذه الغزوة حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولم يتم له الغلب فيها وكان كثيرون يتوقعون ان تدور الدائرة على المسلمين لما عرف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال وكان المسلمون يدركون تمام الإدراك ويقدررون نتائجهم حق التقدير لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردد سبيلا إلى نفوسهم وكان النبی يدرك - كذلك - قيمة هذا الموقف ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر فسيغير ميزان القوى من جديد وربما حدثت نكسة أعادت إلى أعدائهم قوتهم وحماسهم لقتاله والهجوم عليه ثم إنه كان يدرك أنه مابقيت لليهود شوكة في شبه جزيرة

العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغلب له وحائلا دون تمام الوحدة التي يعمل لها والتي يسعى لإقرارها حتى يتم تكوين الأمة التي يريد لها نواه لمجتمع إنساني فاضل تحت لواء الإسلام . . وبانتهاء سلطان اليهود خفت حدة البغضاء التي كانت في صدور المسلمين لهم وبخاصة الأنصار وتغير الموقف نهائيا في جزيرة العرب لصالح المسلمين وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا أتاح للنبي فرصة إحكام خطته وبدا بوضوح لأصحابه إنه الرجل العبقري الفذ الذي اكتملت له بصيرة القلب إلى جانب تأييد السماء . .

وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الأستاذ الشريف فيها بيت القصيد لأن الرسول - ﷺ - اجتمع له الى جانب بصيرة القلب تأييد السماء ولهذا كان سلوكه حازما ونهجه حكما وتصرفه صوابا وعمله سدادا يؤيده الوحي وتؤازره عناية الله وهذه هي عقيدة المسلم التي لا يتحول عنها ولا يرتاب فيها ولقد كان وقوفه - ﷺ - لهذه القوى الجبارة والخصومات الفاجرة دليلا على أنه لا يقف وحده وإنما كانت معه إرادة الله التي هي السلاح الذي لا يفشل والجيش الذي لا يغلب ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذي كان ظهره إليه واعتماده عليه لخائنه الأسباب وخفى عليه الصواب وكان له تاريخ آخر غير هذا التاريخ .

وقد كان لأصحابه في تلك الأدوار البطولية المواقف الرائعة والعمل الجاد والجهد المشكور حتى في غير ميدان الكر والفر وهو مانسميه نحن الآن بالحرب النفسية كما فعل نعيم بن مسعود في السفارة بين قريش وبين قريظة في غزوة الأحزاب المسماة بالخنزق وهي السفارة التي كانت سببا في فقدان الثقة بينهما فقدانا كان له أثره البارز في هزيمة الأحزاب أو بعبارة أدق في خيبة التجمع الذي أرادت الأحزاب من ورائه الدخول الى المدينة والقضاء على محمد وأصحابه حتى لا تقوم له قائمة الى الابد .

وما كانوا يظنون على الباغي تدور الدوائر وليس أكثر من هذا الرعب الذي ملأ قلوبهم والفرع الذي تحطمت به نفوسهم الى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف في كل شيء وقد حدث أن النبي - ﷺ - لما انتهى العام الذي تضمنته المعاهدة وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقضى العمرة التي ساق لها الهدى في عامه السابق وعلمت قريش بقدمه أخذها الهلع وظنت أنه - ﷺ - سيغدر بها ويغزوها في عقر دارها وربما كان سوء الظن الذي يملأ نفوسهم سببا في أن يأمر الرسول أصحابه في طوافهم بالبيت أن يظهروا حركة ونشاطا يدلان على القوة لتمتلىء نفوسهم بالرعب والخوف فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ، وقال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة »^(١) وكان عدد المسلمين في هذه العمرة ألفين كانوا في نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذي زلزلت له أفئدة قريش وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذن للصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذي يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مغريا لعبدالله بن رواحة أن يقذف في وجه قريش بصيحة الحرب لولا أن صدّه عن ذلك عمر بن الخطاب وقال له رسول الله - ﷺ - مهلا يا ابن رواحة ، وقل : لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وخذل الأحزاب وحده فنادى بها ابن رواحة رافعا صوته وردّها المسلمون بعده فتجاوبت بأصدائها

جوانب مكة وارتفعت رهبتها الى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذى كان يثير في نفوسهم الحقد والكراهية وكانت أم الفضل زوجة عمه العباس قد قذفت أختها ميمونة التى أحبت الاسلام وآمنت به ورغبة العباس في الزواج منها فلما تقدم اليه سهيل بن عمرو أن يخرج بعد انتهاء الأيام الثلاثة قال له الرسول ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولنا وأشركناكم معنا طعام الوليمة ؟ فقال له : لا حاجة لنا لطعامكم . . إلا أن هذه الأيام التى أقامها النبى - ﷺ - والمسلمون معه كانت نموذجا طيبا للسلوك القويم والخلق الكريم والأدب الرفيع والمعاشرة الحسنة حملت كثيرا من العقلاء أن يعلنوا دخولهم في دين محمد حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش وأحد أبطالها المغاوير ينادى في بطن مكة قائلا : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بشاعر ولا ساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه » وأسلم بعد ذلك عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثيرون غيرهم وكان لإسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز في أن كانت مكة قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذى تدك فيه معالم الشرك وتتهاوى فيه الأصنام ويصبح من المألوف إلى حد بعيد أن تكون هنالك عقيدة وراء « لا إله إلا الله محمدا رسول الله » ولهذا كان المسلمون في غاية الاطمئنان الى أن الزمن في صالحهم - كما يقولون - لم يتعجلوه ولم يسبقوا حوادثه لفتح مكة بعد أن تهيأت الأذهان لهذا الفتح وبخاصة وهم يعلمون أن الأجل الذى نصت عليه معاهدة الحديبية لايزال بعيد المدى اللهم إلا اذا حصل جديد يحملهم حملا على أن يحملوا السلاح قبل الأوان .

حديث أبي سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر السنة السادسة كان همهم - ﷺ - أن ينتقل بدعوته الى خارج نطاق الجزيرة في الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذين كتب إليهم يدعوهم بدعاية الاسلام قيصر ملك الروم وكان نص الخطاب الذى أرسله إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين - الفلاحين - يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

ولما وصل الكتاب إلى قيصر هذا أراد أن يتقصى الحقيقة وأن يتأكد من المصير الذى يمكن أن يصير إليه حتى اذا - ما استجاب للداعى ودخل في هذا الدين واختط لنفسه طريقا جديدا كان قويا مستقيما أم ليس فيه من الاستقامة شيء وهذا هو شأن الرجل الذى تفتح نفسه للحق وتتجه للصواب وترحب بالنور

الذى يضىء لها الطريق ويكشف لها مواضع أقدامها فى الدرب الذى تسلكه فكان منه أن قال « أنظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه وكان أبوسفیان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : « سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي فقال أبوسفیان : أنا - لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره - فقال قيصر : أدن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي وقد جعلكم خلفه ، كيلا تحملوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ، قال : هو فينا ذو نسب قال : هل تكلم هذا القول أحد منكم قبله ، قال : لا . . . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا ، قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفائهم ؟ قال : بل ضعفائهم ، قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال : لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا ونحن الآن منه فى ذمة لاندري ما هو فاعل فيها ، قال : فهل قابلتموه ؟ قال : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه مرة لنا ومره علينا ، قال : فيم يأمركم ؟ قال : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة فقال الملك : إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت انه لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يأتى بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال فزعمت أن لا فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لا فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك أشرف الناس يتبعونه أم ضعفائهم فقلت ضعفائهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت بل يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه فقلت لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وان الحرب بيننا وبينه سجال وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك بماذا يأمر فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبي وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم وإن كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك . . قال أبوسفیان فعلت أصوات الذين عنده وكثر لفظهم فلا أدري ما قالوه وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبوسفیان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة له ثم أمر بأبوابها أن تغلق ثم قال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردهم على فقال لهم : إني قلت مقاتلى لأختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه فغلبه حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمهم وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام .

وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها في تاريخ النبي محمد - - لأنها تنطوي في حوارها وجدلها السيرة العطرة التي يعتز بها المسلمون إذا ذكرت النبوات وتحدث الناس عن الرسائل فلقد كانت الأسئلة التي وجهها قيصر في صميم الدعوة والدعاة إلى درجة أنها تصلح لأن تكون دستوراً أو بمعنى أصح ميزاناً توزن به أعمال الذين يتصدون لقيادة الجماهير وتوجيه الانسانية وإنقاذ المتورطين في سلوكهم أو المتخبطين في سيرهم ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف أن كان الداعي من هؤلاء الذين ينشدون المجد ويطلبون الملك ويبغون الريادة أم إنه من أولئك الذين يحملون المصاييح ويجعلون من أنفسهم زيتاً لها ليضيئوا للبشرية سبيل الخير وطريق البر ويأخذوا بأيديها إلى حيث يكون النجاح وانفلاح دون أن يترقبوا على ذلك أجراً إلا رحمة الله الذي له مافى السموات وما في الأرض .

ونحن ننظر إلى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين أشخاصها الذين أداروا دفعة هذا الحوار ثم الحوار نفسه ، أما الحوار فهو - كما رأينا - لم يترك شبهة تخطر بالبال وتتوارد على الذهن إلا أشبعها بحثاً وناقشها من كل ناحية وجعل الجواب عنها مسلماً لبرائة العقول لذلك كانت النتيجة المترتبة عليه ضرورية لا مفر من التزامها ولا ريب في تزيفها عليها كما تترتب النتيجة على المقدمات في قانون المنطق السليم إلا أن رجوع قيصر كان لعمى في بصيرته سببه أنه آثر الفانية على الباقية والدنيا على الدين والشيطان على الرحمن وانحرفه عن السفن والتواؤه عن القصد لا يطعن في علم المقدمات وسلامة الترتيب والترتب .

وأما الأشخاص الذين أداروا ذمة الحوار ومثلوا هذا المنطق فهما أبوسفیان وقيصر وكلاهما لا يمكن أن يحابي محمداً ولا أن يحابي دينه لذلك كان لرأى كل منهما ميزانه بين الآراء وقد كان أبوسفیان من أساطين الكفر وكبار المعارضين وكان يعينه - حينئذ - أن يقول كلمة مغموزه ، أو رأياً ملتوياً أو يحكم حكماً قاسياً يرسله كالصاروخ الموجه ليكيد به محمداً وأصحابه ولكنه آثر الجانب الذي يتناسب مع رجولته الضخمة وبسالته الفذة وعقله الكبير وشرفه العظيم ونسبه النبيل ومكانته في قومه والقاضى أو الشاهد إنها معا تبه لشرف مركزه وقداسته وضعه لم يذكر شيئاً في هذا الوقت إلا الصدق في القول والإنصاف في الحكم والسداد في الرأى وعدم الميل إلى جانب الهوى أو الغرض لأن ذلك يزرى بالمرءة والشرف ويدنس العرض والخلق وأبوسفیان مهما كانت خصومته لمحمد واختلافه معه في الرأى لا ينسى أنه ذلك الرجل الذي كانت له السيادة في العرب ولا يليق بمثله أن يُسَفَّ أو أن ينزل إلى مستوى السوق لذلك كله كان جديراً من النبي - ﷺ - في يوم فتح مكة أن يعطيه هذا الأمان الكبير المقرون بأن ينادى مناديه من دخل دار أبي سفیان فهو آمن وكان هذا سبباً في الدهش البالغ الذي أصاب الناس في هذا اليوم وهم كانوا لا يزالون يزعمون أنه باق على موقف العناد والمعارضة ولم يفهموا أن التيار الجارف لا يعترضه إلا الذي يبلغ به الحق غايته .

فتح مكة

لاتزال إلى هذا التاريخ مسافة الزمن الذي تضمنته معاهدة الحديبية والذي اتفق على أن يكون إحدها هدنة قائمة بين النبي - - وبين قريش ولايشعل أحدهما حربا ولايعتدى على حليفا إلا أن غزوة مؤتة التي جاءت في أعقاب الحديبية وخرج فيها مائة ألف أو أكثر من الروم والعرب المواليين لهم لثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ماكان يرجو محمد وأصحابه ولهذا أغرت هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد - وعاد وضعهم معهم - أو كاد يعود - الى مثل ماكان عليه قبل الأحزاب وكان من نصوص معاهدة الحديبية - كما نعلم - أن من أراد الدخول في حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر في حلف قريش ودخلت خزاعة في حلف رسول الله وكان بين بني بكر وخزاعة حزازات قديمة وثارات من سالف العهود أثارها وبعث كامن حقدتها ماوصل اليه معسكر محمد وأصحابه في مؤتة التي لم يكن طيشهم فيها من فضل الأفضل الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ولاضرر يلحقونه وأخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتنال منها وكانت قريش تساعد بني بكر بالمال والسلاح في الخفاء متناسية أن ذلك خرق لمعاهدة الحديبية زاعمة أن أحدا لايعرف هذا التحرك المستتر الذي تتحركه لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا الى النبي - ﷺ بالمدينة وأخبروه خبر هذا النكث للعهد وناشدوه أن يدرك حلفاءه ويقول الشيخ الخضري في كتابه « نورا يتبعني » : « إذا أراد الله أمرا هيا أسبابه وأزال موانعه وقد كان عليه السلام يعلم أنه لا تنزل العرب حتى تنزل قريش ولا انتقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوق لفتحها ولكن كان يمنع من ذلك العهود التي أعطاها قريشا في الحديبية - وهو سيد من وفي - ولكن إذا أراد الله أمرا هيا أسبابه وقد علمت أن خزاعة دخلت في عهد رسول الله وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء في الجاهلية كمنت نارها بظهور الاسلام فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول - ﷺ - على مسمع من رجل خزاعي فقام هذا الخزاعي وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سرا بالعتاد والرجال ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم مايربوا على العشرين ولما رأى ذلك حلفاء الرسول - خزاعة - أرسلوا وفدا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعي ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال : « والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسي » . أما قريش فإنهم لما رأوا أن ماعملوه نقض للعهد التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا ، وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين حبيبة وقد اراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يا بنية أرغبت به عني أم رغبت لي عنه ؟ فقالت : ماكان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فقال لها : لقد أصابك بعدى شر ثم خرج من عندها وأق النبي في المسجد فعرض عليه ماجاء له . فقال عليه السلام : هل كان من حدث ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك .

قام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش ، عليهم يساعدونه على مقصده ، فلم يجيره منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا في جوار رسول الله ، فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئا ، فاتهموه بأنه خانهم . واتبع الاسلام ، فتنسك عند الأوثان ، لينفى عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله ﷺ فانه تجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة ، فقال يا رسول الله أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكنهم عندوا ونقضوا ، ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينه ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش ، كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرماتها ، فدعا مولاة جل ذكره ، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبعثها في بلادها ، فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدرأ ، وكتب كتابا إلى قريش ، يخبرهم بأمر رسول الله ﷺ - وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على عجل ، فأعلم الله رسوله بذلك ، فأرسل في أثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقوا حتى الروضة ، فوجدوا بها المرأة ، فقالوا لها أخرجي الكتاب أولنلقين عنك الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله فقال عليه السلام : يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل علي ، إني كنت حليفاً لقريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولارضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام : أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه شهد بدرأ ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرأ فقال إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وفي هذا نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيل وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعل منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولي على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعوانه ودعا : ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر ، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، شقيق أم المؤمنين أم سلمة ، وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديداً ، وقال : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وقد قابل عليه السلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله ، فأمره بأن يعود معه إلى مكة ، ويرسل عياله إلى المدينة ، ولما وصل عليه السلام مر الظهران ، أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكانت قريش قد بلغها أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدري وجهته ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يلتمسون الخبر عن رسول الله ، فأقبلوا يسرون حتى أتوا مر الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال

أبوسفيان ما هذه لكأنها نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو ، فقال أبوسفيان عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبوسفيان ، وقال للعباس احبس أباسفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين ، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة ، وهو يسأل عنها ويقول مالى ولها ، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عباد ، فقال سعد يا أباسفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبوسفيان يا عباس حبذا يوم الزمار ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام ، فأخبر أبوسفيان رسول الله بمقالة سعد ، فقال رسول الله : كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدى ، ودخل هو من أعلاها من كداء ، ونادى مناديه من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله عظيم الأذى ، فأهدر دمه وإن تعلقوا بأستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، الذى أسلم وكتب لرسول الله الوحي ثم أرتد وافتري على الله الكذب ، فكان يقول : إن محمداً كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم ، فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ، ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب ابن زهير ، ووحشى قاتل حمزة ، وهند بنت عقبة زوج أبى سفيان ، وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل ، فأما جيش خالد بن الوليد فقابلته الزعر من قريش يريدون صده ، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين ، وقتل من جيشه أثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة ، وأما جيش رسول الله - ﷺ - فلم يصادف مانعاً ، وهو عليه السلام راكب راحلته منحني على الرحل ، تواضعاً لله وشكراً على هذه النعمة ، حتى تكاد جبهته تحس الرحل وأسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صباح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، حتى وصل إلى الحجون موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة ، وميمونة ، فاستراح قليلاً ، ثم سار وبجانبه أبوبكر يحادثه ، وهو يقرأ سورة الفتح : حتى أتى البيت ، وطاف سبعا على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة إذ ذاك ، ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل) ، (وما يبدىء الباطل وما يعيد) ثم أمر بالآلهة التى كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وابراهيم فى أيديهما الأزام فقال عليه السلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ، وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة ، من هذه الأدناس ، سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب .

وإلى هنا تكون عصابة الشرك ، فى مكة وغيرها ، قد تهاوت أعلامها ، وزالت دولتها ، ولم يعد فى إمكانها أن تعامل محمداً بالأسلوب القديم ، الذى كانت تعامله به ، والذى كان يقوم على العنف والشدة والقسوة والغلظة وعدم المبالاة ، ولكنها الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله ، لتكتسب رضاه ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فاذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط ، أو خرجت على نص من نصوص المعاهدة ، بعثت كبيراً من ساستها ، أو عظيمياً من قوادها يرجوا محمداً - ﷺ - أن يتغاضى عن هفوة المسئء ، وحمافة المعتدى ، ولقد رأينا كيف إنها مادت الأرض من تحت

أقدامها وتهدها الأخطار وأحاط بها الهلع والفرع ، لأن خيانتها قد تكشفت وإمدادها لبني بكر بالسلاح والمال في اشتباكها مع بني خزاعة ، قد عرف أو وصل أمره إلى النبي - ﷺ - فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تصبر ، وراحت ترسل قائدها لعناد النبي وحره ليؤكد من جديد عهد الحديبية ، فلما لم يجدها ذلك كله نقيراً ولا قطميراً ، أسلم للأمر الواقع ، ودخل محمد عليها مكة ، فلم يقاوم دخوله ، أن تعترض طريقه ، أو تشهر في وجهه سيفاً ، باستثناء تلك المناوشة البسيطة التي قوبلت بها كتيبة خالد بن الوليد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحده في هذا اليوم هو كل شيء ، ولكن الذي كان هو كل شيء وأعظم من كل شيء .

أولاً : أطلب النبي - ﷺ - سادن الكعبة عثمان بن طلحة ليأخذ منه مفتاح الكعبة ثم يدخلها دخول الظافر المنتصر .

ثانياً : تتحطم على مرآى ومسمع منهم تلك الأصنام ، التي يؤلهونها ويعبدونها من دون الله ولم يكن منهم إلا الرضا والاستسلام .

ثالثاً : أن يعلن إليهم أنه في موقف القوة الذي يسمح له بالعفو عنهم - والعفو عند المقدرة ، فيقول : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

رابعاً : أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء ، تباعه على الاسلام والطاعة والبذل والعطاء ، في حين أنهم لم يستطيعوا صد هذا التيار الزاحف ، وهذه كلها معان تدل على أنه - ﷺ - كان يتحدث من موطن القوة لا موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية النادرة عوضه الله بها عن كل شدة كان يلاقيها ، وكل إيذاء أصابه نصراً عزيزاً ، أرض به خاطره ، وأثلج صدره ، وأراح فؤاده ، ورفع رأسه ، وبيض وجهه ، وبوأه مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ونسى الرسول احن هؤلاء وعداوتهم ، ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس ، ويعلق الدكتور هيكمل على هذا الموقف فيقول : (ما أجمل العفو عند المقدرة ، وما أعظم هذه النفس التي سمت كل السمو ، فارتفعت فوق الحقد والانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النيل فوق ما يبلغ الانسان ، هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ، ومن عذبه هو وأصحابه من قبل ذلك ، ومن قاتلوه في بدر وفي أحد ، ومن حاصروه في غزوة الخندق ، ومن ألبوا عليه العرب جميعاً ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه لما ونوا عن ذلك لحظة ، هؤلاء قريش في قبضة محمد وتحت قدميه ، أمره نافذ في رقابهم ، وحياتهم جميعاً معلقة بيده وفي سلطانه ، هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبديد أمة وأهلها في لمحة الطرف ، لكن رسول الله ليس بالرجل الذي يعرف العداوة ، أو يريد أن تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبار ولا المتكبر ، لقد أمكنه الله من عدوه ، فصيح وعفا ، وضرب بذلك للعالم كله مثلاً في البر والوفاء بالعهد ، وفي سمو النفس سمو لا يبلغه أحد) .

والقاريء لأبناء هذه الغزوة وأحاديثها ، يعثر على كثير من الأخبار الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التي تنبئ عن اخلاص المؤمنين كدينهم ، ودعوة نبهم ، إخلاصاً يفوق حدود الوصف ، وتنبيء كذلك عن العصبية للجنس ، أو الدم ، أو الجاه والحكم .

وربما كان من أروع الصور للاخلاص للدين وللرسول - ﷺ - ما صنعتته أم المؤمنين حبيبة بأبيها أبي سفيان ، الذي ظن أنه سيجد في جوارها من الحنان والرحمة ، والاجلال والاحترام ، ما يخفف عنه ما يحمله فوق كاهله من هموم ، وما لاقاه في طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن آبويه لها ، لا قيمة لها ، إلى جانب ما تحتفظ به لرسول الله من قداسة ، وما ترعاه له من حرمة ، وإن الحقوق التي يملها الدين لها عندها الاعتبار الأول ، وقد قدم لنا أبو سفيان صورة للرجل الكبير ، الذي تقوم كبرياؤه على الزيف ، وتعتمد على الباطل ، وتنحاز إلى جذب الشيطان ، وتغتصب جاهها وسلطانها من الغوغاء والأوباش ، ثم لا تلبث إذا ما جد الجد ، وانتصر الحق على الباطل ، أن يتضاءل حجمها ، ويتهاوى كبرياؤها ، وتبدو على حقيقتها أقل من لا شيء في العدد .

يمر به صديقه العباسي بن عبد المطلب على نيران المسلمين ، ليدخل في نفسه الرعب ويعلق هو على هذا المنظر المذهل فيقول : إنها كنيران عرفة ويراه عمر فيقول : عدو الله أبو سفيان ، الحمد لله الذي أمكن منه بغير عقد ولا عهد ، ويهم بقتله ، ويمنعه العباس قائلًا له : إنه في جوارى ، ويدخل على النبي - ﷺ - ليعلن اسلامه ، حقنا لدمه ، وإبقاء على نفسه ، ويبتدره الرسول بقوله : أما أن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله فيقول بلى وأن محمدا رسول الله فيقول : أما هذه ففي النفس منها شيء ، فيعالجه صاحبه العباس بقوله : أشهد قبل أن تضرب عنقك ، فيشهد ، ويتجه العباس إلى رسول الله بقوله : إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له ذكراً ، ليظفر منه فيما بعد بتلك الكلمة (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن) وإلى أن تزول دولة الظلم وسلطان الباطل (إن الباطل كان زهوقاً) .

ويقر الهاربون من العدالة ، عكرمة ، وصفوان ، ووحشى قاتل حمزة ، في أحد ، وعبد الله بن الذبيري ، وكعب بن زهير ، وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، ثم تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، فلا يجدون سبيلاً أقوم من أن يسلموا رقابهم إلى رسول الله - ﷺ - ليحق عليهم بالحرية ، وتقول أكلة الكبود . هند ، بعد أن وقفت بين يدي رسول الله وأعلنت اسلامها (والله يارسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن أذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء إلى أن يعزوا من أهل خبائك) ويتنكر كعب بن زهير ، ليقف بين يدي الرسول عقب صلاة الفجر بالمسجد ، ليقول له لوجاء اليك كعب عائداً لاثدا ، تقبل منه يارسول الله ، فيقول له : نعم أقبل منه ، فيقول له : مكان العائد بك ، كعب يارسول الله ، وينشده قصيدته المعروفة بانت أساء ، والتي يقول فيها :

أنبئت أن رسول أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

غزوة تبوك

كان رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإذلاله لطواغيت الشرك وقادة الكفر ، وتهافت القبائل والبطولة على مبايعته على الاسلام ، ودخولهم في دين الله أفواجا ، وتحطيمه للأصنام التي كانت في الكعبة ،

وغيرها ، قد أصبح له شأن دونه شأن الأباطرة والاكاسرة والملوك والسلاطين ، وصار زحفه يزداد يوما بعد يوم ، بحكم نشر الدين وعلان العقيدة ، وعموم الدعوة إلى الناس جميعا ، وهناك دب الخوف إلى نفوس الروم والفرس ، وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهددهما الغزو الاسلامي حينئذ ، وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف في وجهه ، والحد من تحركه ، والعمل على ألا يتجاوز نطاق دعوته من البلاد والناس وراء ما تجاوزته ، لأن ذلك سيجعلها في خبر كان لا محالة ، طال الزمان أو قصر ، فأعلن - ﷺ - النفير العام في المسلمين ، لأنه علم أن الروم لا يناجذونه وحدهم ، ولكن ينضم اليهم من لا يزال على الشرك من العرب والاعراب ، الذين كان محمد - ﷺ - قد أرغمهم - ماداموا لم يختاروا الاسلام - على أن يدفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويقول المؤرخون إن النبي - ﷺ - كان مما أخذ نفسه به مع المسلمين ، إذ أراد الخروج إلى غزو ، ألا يصارحهم بالجهة التي سينتهى إليها الجيش ، حتى لا يتسرب نبا ذلك إلى العدو ، فيتأهب له ، لكنه في هذه المرة قد أثر الإعلان والمصارحة ، والسبب في هذه المخالفة أن السفر شاق ، لأنه إلى تبوك في الشام ، والجو شديد الحرارة والثمار على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة مدعاة إلى التعلل بها ، وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج ، وبهذا كان الاعتذار مفتوحا على مصراعيه ، وبدأ النفاق في أوضح صورة وأجلى مظهره ، على الرغم من التهديد الصريح ، الذي كان يقرع أذانهم في مثل قوله سبحانه : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١) وقوله أيضا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) على أن هنالك من المسلمين من أبدى غاية الاخلاص في الجهاد ، ونهاية البذل في سبيل الله ، مثل عثمان ، وأبي بكر ، وعمر ، وعبدالرحمن بن عوف ، وأولئك الذين كانوا لا يجدون الظهر التي يركبونها ، فجاءوا إلى الرسول ليوفر لهم الظهر التي يركبونها ، فلما قال لهم : (لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) (٣) ويظهر من أحداث غزوة تبوك : أنها كانت خرماطفح به الكيل في نفوس المنافقين ، إذا ظهرت كراهييتهم ، لأن يتنصر ﷺ أو ليتمكن نفوذه ويقوى سلطانه بشكل لا إلتواء فيه ولا خفاء فانهم لم يتركوا لونا من ألوان الاعتذار ولا اسلوبا يعللون به تخلفهم وعدم وخروجهم ، إلا سلكوه والتجأوا إليه ، وفي سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان وتلك الأساليب ، وإن كانت كلها لم تخف عن النبي ﷺ . ولكنه علمها وأطلعه الله عليها ، وكان ذلك افتضاحا لحالهم ، وكشفا لسوءاتهم ، وقد حمل ذلك كله جماعة من المتخلفين أن يصارحوه ﷺ أن يتخلفهم ، لم يكن لعذر يلتمسونه التماساً ، أو يزورونه كذبا وبهتاناً ، وإنهم لهذا يتركون الأمر له ، ليقض فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد ، وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ، ثم نزلت فيهم الآية : ﴿ وعلى الثلاثة الذين

(١) سورة التوبة آية : ٢٤

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩

(٣) سورة التوبة الآية : ٩٢

خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿١﴾ .

ويقول الدكتور هيكل : وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته ، فأثرت الانسحاب بجيشها ، الذي كانت وجهته إلى حدودها ، ايتحصن داخل بلاد الشام في حصونها ، فلما انتهى المسلمون إلى تبوك ، وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونفى إليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلاً لتبعضهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن يناله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى بعد ذلك أحد ، وكان يوحنا بن رؤية صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود ، قد وجه إليه النبي رسالة أن يذعن أو يغزوه ، فأقبل (يوحنا) وعلى صدره صليب من ذهب ، وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة ، وصالح محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل جرياء وأذرح ، واعطوه الجزية ، وكتب رسول الله لهم كيف آمن ، هذا نص أحدها ، وهو ما كتب به إلى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ذمة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ما له دون نفسه ، وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يرونه من بر أو بحر » وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد ، أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد أن اتفق على أن يتدفع أيلة جزية ، قدرها ثلاثمائة دينار كل عام .

لم يكن محمد بحاجة إلى القتال ، بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمانة عودة الجيش البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أكيد بنى عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة ومعاونته جيوش الروم ، إذا جاءت من ناحيته ، لذلك بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس ، وأنقلب هو بجيشه راجعاً ، إلى المدينة ، وأسرع خالد بالانقضاض على دومة في غفلة من مليكها ، الذي خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر ، حتى أخذ حسانا ، وأخذ أكيدر أسيراً ، وهدده بالقتل أن لم تفتح دومة أبوابها ، وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها ، وساق خالد منها ألفى بغير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي في عاصمته ، وهناك عرض على أكيدر الاسلام فأسلم وأصبح حليفاً له .

ولم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذي عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات ، من تأمين حدود شبه الجزيرة ، وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذي نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا في قطعها ما تحملوا من

الأذى ، وها هم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوماً ، وكأنهم لهذا قطعوا الصحراء في شدة تبوك في حيث كانت ثمار المدينة قد طابت وأن يستمتع الناس بها ، وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ، فينتقل من ملأ الايمان قلوبهم نبأهم اليه ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلاً إلى المدينة ومحمد يحفظ النفوس ، حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها ومعه أكيدر وما حمل من دومة من أبل وشاء وبرود روع ، وعلى أكيد رحلة من ديباج موشى بالذهب بهت أهل المدينة لمراها .

وهناك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه اضطراباً ، رد المستهزئين إلى صوابهم ، وجاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم ، وأقروا بذنبهم ، هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية ، وقد أمر محمد فأعرض عنهم المسلمون خمسين يوماً ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، ومنذ ذلك اليوم بدأ محمد يشتد في معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل ، وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه ، وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم ، وذلك ما لم يقم بنفس محمد ريب فيه ، بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليعلن كلمته ، كان المنافقون خطراً عظيماً ، ولقد كان له من قبل حيث كان الاسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن تشرق بنفسه على ما يجرى بين المسلمين ، أما وقد انتشر الدين في أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وها هو ذا يشارف الانتقال منها فكل تهاون مع المنافقين ، شر تخشى مغبته ، وخطر ما اسرع ما يستشرى ، إذا لم تجتث جرثومته .

بنى جماعة مسجداً بذى أوان على بعد ساعة من المدينة ، وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين ، يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضاراً وكفراً ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبی أن يفتح المسجد بالصلاة فيه ، وكان طلبهم هذا قبل تبوك فاستمهلهم حتى يعود ، فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقته ما قصد اليه من اقامته ، أمر باحراقه ، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائض المنافقين ، فخافوا وانكمشوا ولم يعد لهم من يحميهم الا عبد الله بن أبي شيخم وقائدهم ، على أن عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين ، مرض أثرهما وتوفى ، وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك في شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلمون لله الاسلام ، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبی عليه السلام .

والواقع أن سورة التوبة كانت السجل الواعى لغزوة تبوك ، وقد عرفت لكل لون من ألوان النفاق ، الذى صهر به هؤلاء ، الذين كان لهم ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر ، في حقيقته المكشوفة ، حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة ، لأنها فضحت أمرهم ، وهتكت أسرارهم ، ولقد كان النبی - ﷺ - عنيفاً في معاملتهم ، كما ثبت ذلك مع الذين أخذوا مسجد ضاراً ، وكما ثبت مع الذين خلفوا الا أن ذلك كله كان في آخر المطاف ، حيث لم يبق في قوس الصبر منزع كما يقولون ، والا فإن الباب كان مفتوحاً لهم على مصراعيه لا في الاستئذان الكثير ، الذى عاتبه الله عليه بقوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم

حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستثذك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنما يستأذك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴿١﴾ . ولكن في لصق العيون والنقائص به ، ثم بالمسلمين معه كذلك ، ، وهذه آيات هذه السورة تقول : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات . . . ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ وعلى الجملة فإن هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المجابهة والالتحام ، إلا أنها كانت مجابهة والتحاماً لهؤلاء الذين كانوا مرضى القلوب والأفئدة ، إذ تبينوا للرسول - ﷺ - والمسلمين على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء ولا بهرج ، وفي الوقت الذي تكامل للدولة الإسلامية نفوذها ، والذي لا يمكن لأحد أن ينكره أو يزاحمه ، كانوا هم قد تكاملت لهم عناصر الهزال والضعف ، الذي لا يكون بعده سوى الفناء والموت ، وكذلك تكون نهاية المرضى . . . وربما تغاضى رسول الله - ﷺ - عن بعض المنافقين ، فلم يأخذهم بالشدة ارضاء لذوهم أو بعض قرابتهم ، وكان عمله هذا من صميم الحزم والكياسة وقد كان هذا المعنى واضحاً تمام الوضوح في عبدالله بن أبي ، الذي طالما هم بعض المسلمين بقتله ، فلم يرض الرسول من ذلك لم يشجع عليه ، وحيث وفاته صلى عليه صلاة الجنازة ، ارضاء لأبنة الذي كان من خيار الصحابة وإن كان - ﷺ - قد نهى عن مثل هذه الصلاة فيما بعد بقوله سبحانه : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ (٢) وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب في نفوس الخزرج ، الذين كانوا يحبون عبدالله ، ويعترفون له بالفضل عليهم ، ومهما كان الحال من اللين أو الشدة ، في معاملة المنافقين ، فإن أحداً لا يشك في أنهم أصبحوا منذ تبوك ، يعاملون بعنف ، ويؤخذون بشدة لا تقل عن تلك التي كان يعامل بها المشركون ، وقد كان المشركون أنفسهم يتنفسون الصعداء إلى ما قبل تبوك ، لكنهم بعدها أخذوا يشعرون بالعزلة والذلة ، والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن الأرض تميد من تحتهم ، وقد أرسل الرسول - ﷺ - أبواب بكر ، في أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ، ولم يشأ أن يخرج هو بنفسه ، لأنه كان غير راض عن حج المشركين إلى بيت الله الحرام ، مع أن ذلك كان مألوفاً في الجاهلية ، وقد سبق له أن استنقرهم للحج في غزوة الحديبية ، ولهذا نزلت الآيات الأولى من سورة التوبة تنبذ إليهم عهدهم ، وتمنع أن يدخل البيت مشرك ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ (٣) وذهب على بن أبي طالب ممثلاً رسمياً عن النبي - ﷺ - ليعلن ذلك الانذار الرسمي الذي تضمنه أوائل السورة من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر : ﴿ أنى الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ وبهذه المرحلة من القوة والعزة والنفوذ والسلطان ، التي وصل إليها الاسلام ، كان من الوضع الذي يسمح بأن يصدر أوامره ونواهيه من مركز القوة ، التي يحسب لها الناس ألف حساب ، فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف في وجهها ، إلا إذا تجرد من العقل أو كان مغامراً بروحه التي بين جنبيه ، وهيهات أن يكون هنالك شيء من ذلك كله إلا عند المجانين .

(١) سورة التوبة الآيات : ٤٣ - ٤٥

(٢) سورة التوبة الآية : ٨٤

(٣) سورة التوبة آية : ٢٨

حجة الوداع

بعد هذا الاعلان الصارخ الذى تولى اذاعته على بن أبى طالب رضى الله عنه - والذى اردفه بأنه لا يدخل البيت مشرك ، ولا يطوف به عريان كان ، لابد لهؤلاء جميعاً أن ينكمشوا ، وأن يؤمنوا إيماناً لا شك فيه ، أن الدولة المسلمة لا حياة فيها الا من يدين بدينها ، ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عن رايها ، وان وجود غير المسلم مهما اتسع صدر الدولة له ، واحسنت اليه ، وضمنت له البقاء الطيب والعيش الناعم ، والاستقرار الآمن ، فانه فى النهاية أشبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ويكتنفه الشك ، وتترمى حوله الظنون ، ولا يطمئن اليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مبادئ علم الاجتماع ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم (ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم)^(١) وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ، ويستعصى فيها الوثام والصلح ، ترجع عن طريق مباشر أو غير مباشر ، إلى هذا السبب الذى ينتهى فى آخر أمره إلى الدين والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولا بعيد ، لذلك كله أدركت هذه الفلول المشتركة فى اطراف الجزيرة أوفى داخلها ، أنه لا علاج لتلك العلة المستعصية الا بالدخول فى هذا الدين ، وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالاذلال والهوان ، إلى الأبد ، وعندئذ أخذت الوفود من نجران ، وعبد القيس ، وبنى حنيفة ، وكنده ، وأزد شنوءه ، وهمزان ، وثعلبة ، وغسان ، وبنى أسد ، وبطون وقبائل كثيرة ، تتوافد عليه ﷺ لتعصم دماءها من السفك وقومها من الازدراء ، وحياتها من الامتهان ومستقبلها من الضياع ، تعاهده على الاسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وهنالك كان رسول الله - ﷺ - قد اطمأن الاطمئنان على الاطمئنان ، إلى أنه لا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأعلن أنه فى هذا العام الحادى عشر سيخرج إلى حج بيت الله الحرام ، ودب حنين المصاحبة له ، وشرف المرافقة إلى الافئدة المؤمنة والقلوب الممتلئة بنور اليقين ، وخرج معه تسعون ألف ، أو أربعون ألف ومائة ألف فى بعض الروايات ، ومشوا تميد الأرض من تحتهم ، وترقص النجوم من فوقهم ، ويمتلئ الجو كله من حولهم بالبهجة والسرور ، ويتقدمهم رسول الله ﷺ - على ناقته القصواء قائلاً : « لبيك اللهم لبيك - لبيك لا شريك لك لبيك - إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

وهم بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيحون إلى نغمته الحلوة ، ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه ، التى تنساب فى النفوس انسياب الحياة فى الاحياء ، ولما دخل مكة وشاهد البيت قال : « اللهم زده تشريفا وتعظيما ، ومهابة وبراً ، وطاف به سبعا ، واستلم الحجر الأسود ، وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ، وسعى بين الصفا والمروة سبعا كذلك ، وكان إذا صعد الصفا والمروة يقول : « لا اله الا الله أكبر لا اله الا الله وحده انجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » فى الثامن من ذى الحجة توجه إلى منى فبات بها وفى التاسع توجه إلى عرفات وخطب خطبته المشهورة ، وهى خطبة الوداع لهذه

الامة ، التي كافح من أجلها ، وجاهد لتحريرها ، وحارب في سبيلها وظل ثلاثا وعشرين سنة ، يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأكرم ، والعيش الاحسن ، والحياة التي تمتلئ بالسعادة ، وتطفح بالبهجة ، وتجود على الناس بالرخاء والاطمئنان ، ونصها الذي اجمعت عليه كتب التاريخ والسيرة .

(الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد الا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمداً عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير .

أما بعد . . . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن ربا الجاهلية موضوع وأن أول ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وأن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبرأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . . أيها الناس إن الشيطان قد يشس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليوطئوا عدة ما حرم الله وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم . ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم فاشهد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهون بيوتكم إلا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجرهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكون لأنفسهن شيئاً اتخذتموهن بآمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم فاشهد فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله ألا هل بلغت اللهم فاشهد . . أيها الناس إن ربكم واحد وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث والولد للفراس وللعاشر الحجر من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله^(١) .

وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى جل شأنه : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾^(١) وأدى - ﷺ - مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعاً إلى المدينة ، ولما بدت له من بعيد معالمها الشاغرة ، كبر ثلاثاً وقال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير أيون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده)^(٢).

والواقع الذي لا شك فيه أن هذه الخطبة كانت وثيقة تاريخية رائعة ، حدد فيها النبي - ﷺ - المعالم الصحيحة للمجتمع المتماسك القوى ، الذي يسوده التعاون والوفاء والحب والبر ، والرحمة والتعاطف والخير والسعادة ، والأمن والطمأنينة والاستقرار والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال : (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام) فإن الجماعات والشعوب ، والأمم لا تسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول إلى أحراش وغابات تسكنها الوحوش الضارية والذئاب المفترسة ، إلا إذا رخصت فيها الدماء على الناس ، إلى هذا الحد الذي لا يجد فيه القاتل من يضرب على يديه ، ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ تشبه الدستور العادل والقانون الصحيح ، والنظام الذي لا بد منه لوجود البيئة المترابطة بالحق ، المتواصلة بالبر ، المتماسكة بالعدل ، المتضاربة في القلوب والأفئدة ، حتى يمكن أن تحصل على السعادة التي تنشدها ، والاستقرار الذي تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبارات ، لأن المال عصب الحياة ، فإذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيماً . والعيش لونا من ألوان التعاسة أن لم يكن هو التعاسة بذاتها .

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة (فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أتمنه عليها ، وفي القرآن الكريم : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾^(٣)) والأمانة أو أداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات ، ووجود هذه الثقة أمر ضروري للتكتل الأسرى ، والشعب الذي لا بد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس ، والانسان مدني بالطبع كما يقول : ابن خلدون وغيره من فلاسفة علم الاجتماع ، ولا يمكن لإنسان أن يعامل إنساناً تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط ، وتنقطع الأواصر ، وتذوب الوشائج ، ولا يقوم بين الناس اجتماع ، وهنالك تتعطل المصالح ، ويصيبها الشلل والموت ، وهكذا إذا مشينا مع الخطبة خطوة خطوة ، وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذي لا يصدر إلا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملحة في الفلاح والنجاح ، والسداد والرشاد لمن يوجه إليه القول ونصحه بالتقويم ، ويأخذ بيده إلى سلوك السبيل السوي ، والصراط المستقيم ، فهي تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله لما فيه من مفساد ، تهدد كيان الأمم والشعوب ،

(١) المائدة الآية : ٣

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه ج ٣ ص ٢٨٥ كتاب الحج باب ما جاء فيما يقول عند التقول من الحج والعمرة رقم ٩٥٠ ، وأخرجه البخاري

كتاب باب ٣٦ ومسلم برقم ٤٢٨ كتاب الحج .

(٣) النساء آية : ٥٨

وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ، ويبدو بالذى يتهاون في دينه حتى ولو بارتكاب الصغائر ، التي يعتادها مستهيناً لشأنها مستخفاً لها ، وهي الخطوة الأولى إلى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجرأة على الله ، وسوء الآداب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومعظم النار من مستصغر الشرر « إن الشيطان قد يش أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » وطاعة الله رياضة للنفس على التزام أوامره واجتناب نواهيه ، التزاماً لا تهاون فيه ولا تغافل ، ولا تباطؤ ولا تراخي ، ولا نقص ولا زيادة ، كذلك فإن حصل خلل في دقة الامتثال ودقة التطبيق ودقة الالتزام ، كان ذلك كله هو الثغرة التي ينفذ منها الشيطان إلى ضمير المؤمن ، ليقوده إلى المعصية ، ثم إلى الغضب عليه ، ثم إلى الطرد من رحمته والعياذ بالله .

وفي الخطبة مقدار عظيم من الاهتمام بالمرأة لأنها نصف المجتمع ، وبخاصة حيث تكون زوجة ، فإن وضعها يكون شائكاً ، لأن حياتها مع الرجل ، وهي قائمة على الحب المتبادل والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما تحتاج إلى صون حرمانه ، والمحافظة على عرضه (ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة » وهي على كل حال بالنسبة للرجل مخلوق ضعيف « وإنما النساء عندكم عوان لا يمكن لأنفسهم شيئاً أخذتموهن بآمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً » إلا إنها مع هذا الضعف ، تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية في سعادة البيت ، كما تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية في ذلك النعيم الواسع ، الذي ينشده الرجل من البناء بها ، أو الحياة معها ، وهذه السعادة وذلك النعيم ، لا يمكن وجودها إلا إذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبي ، أو الخلق لهذا المخلوق الضعيف المسمى بالمرأة ، الوضع الذي يحتم على الرجل أن يعاشرها بالمعروف ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيت إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾^(١) وليس أدل على روح الاخلاص وحب الخير والرغبة الصادقة في الإصلاح من قوله - ﷺ - في أول الخطبة :

(اسمعوا مني فإنني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا) ورحمه الله وصلى وسلم عليه ، فقد كان موقفه هذا بحق موقف وداع ..

انتهى هذا البحث من كتاب (من فيض الرسالة) لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الخشب خاتمة (سورة المزمل) .

تخفيف من الله الغفور الرحيم

* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي
 اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلَاثُهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ
 وَالنَّهَارَ عِلْمَ اللَّيْلِ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِّنَ
 الْقُرْآنِ إِنَّ عِلْمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي
 الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا
 اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ
 هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

معاني المفردات

(أدنى من ثلثي الليل) : المراد أقل منه
 (لن تحصوه) : تطيقوه .
 (فتاب عليكم) : رجع بالتيسير عليكم .

أضواء كاشفة

هذه الآية ترجع إلى أول السورة ، حيث كان الأمر فيها للنبي - وكذلك صحبه - بأن يقيم ساعات
 طويلا في الليل ، تتراوح بين الثلث والثلثين ، وقد امثل النبي لذلك بل وبلغ في هذا ، وبعد عشر سنين
 من هذا الأمر ، نزل التخفيف على الأمة ، وانتقل الأمر من الواجب إلى المباح ، لما ستذكر الآية
 الشريفة ، فلقد خفف الله عن الأمة الإسلامية ، حيث اتسع العدد ، وأصبح فيها المريض وذو الحاجة ،
 والمسافر والمقاتل ، وهؤلاء بلا شك لا يطيقون القيام ، فجعله الله مندوبا ، من شاء فعله ، فاستحق
 ثوابه ، ومن شاء ترك هذا الفضل الكبير ، والله هو العالم بكل شيء .

إن ربك يعلم أنك قمت وامثلت أمر ربك ، أنت وطائفة من قومك ، قمتم أدنى من ثلثي الليل ، وقمتم نصفه وثلثه ، وكان معك صحبتك ، والمراد بالعلم أن الله سيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء .

والله وحده هو الذي يقدر الليل والنهار ، وهو الذي يعلم المصلحة وقد علم أن المدة السابقة كافية للتربية الإسلامية ، وقد جاء معكم أناس لا يستطيعون ذلك العمل . فالله علم أنكم كجماعة لن تطيقوا قيام الليل على سبيل الواجب ، أما كأفراد فمنكم من يقدر وأكثركم لا يقدر ، والأحكام الشرعية تبنى على الأعم الأغلب . فالله قد رجع عليكم بالتيسير والتخفيف ، قد رجعتم إليه بالشكوى والدعاء ، فأقرءوا ما تيسر من القرآن في قيام الليل ، أوفى الصلاة في ساعة من ساعات الليل ، علم الله أن الحال والشأن صون منكم مرض ضعاف ، لا يستطيعون قيام الليل ، وآخرون منكم مسافرون يضربون في الأرض ، يبتغون من فضل الله بالتجارة ، والسعى على تحصيل الرزق من طريق الحلال ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، هؤلاء وهؤلاء لا يستطيعون قيام الليل ، فالله خفف عنكم فأقرءوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة كاملة الأركان ، مستوفاة الشروط وآتوا الزكاة - أي الزكاة الواجبة بناء ، على أن هذه الآية نزلت بالمدينة ، أو هي زكاة الفطر ، أو مطلق انفاق على أن السورة مكية - وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، فالله غنى قادر سيجازيكم على الدرهم عشراً ، بل ربما ضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، فأقرضوه يكن خيراً لكم وأفضل ، وما تقدموا لأنفسكم من خير مطلقاً تجددوا ثوابه عند الله كاملاً ، وتجددوه عند الله هو خيراً من العمل ، مهما كان صعباً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله على ما فرط منكم ، فإن من أمراض القلوب الرياء وحب السمعة ، وكثيراً ما كان ذلك في الصدقة فاستغفروا الله مما يكون قد حصل ، إن الله غفور رحيم .

التفسير

قوله تعالى : (إن هذه) أي السورة (تذكرة) أي يتذكر بها أولوا الألباب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي ممن شاء الله تعالى هدايته ، كما قيده في السورة الأخرى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ ^(١) ثم قال تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ .

أي تارة هكذا وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرّون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ، لأنه يشق عليكم ، ولهذا قال : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أي تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ فأقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ أي من غير تحديد بوقت ، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة الاسراء ﴿ ولا تجهروا بصلاتك ﴾ ^(٢) أي بقراءتك ﴿ ولا تخافت بها ﴾ وقد استدلل أصحاب الامام أبي حنيفة ، - رحمه الله - بهذه الآية وهي قوله : (فأقرءوا ما تيسر من

(١) سورة الانسان آية : ٣٠

(٢) سورة الاسراء آية : ١١٠

القرآن ﴿ على أنه لا يجب تعيين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو غيرها من القرآن ولو بآية أجزاء واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذي في الصحيحين « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » ^(١) وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو في الصحيحين أيضا أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ^(٢) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج فهي خداج غير تمام » ^(٣) وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً « لا تجزى صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن » ^(٤)

وقوله تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ، ذوو أعذار في ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين لما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الأخبار ، بالمغيبات المستقبلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فاقراءوا ما تيسر منه ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه ، قال ابن جرير ، حدثنا يعقوب حدثنا ابن عليه عن أبي رجاء محمد قال قلت للحسن ابن أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلي المكتوبة ، قال يتوسد القرآن لعن الله ذاك . قال الله تعالى للعبد الصالح : (وإنه لذو علم لما علمناه) ^(٥) وقال تعالى : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم ﴾ ^(٦) قلت يا أبا سعيد قال الله تعالى : ﴿ فاقراءوا ما تيسر من القرآن ﴾ قال نعم ولو خمس آيات ، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصري ، أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن ، أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله - ﷺ - سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » ^(٧) فقبل معناه : نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قيام الليل (وفي السفن « أوتروا بأهل القرآن » وفي الحديث الآخر « من لم يوتر فليس منا » ^(٨) وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم .

وقال الطبراني حدثنا أحمد بن سعيد فرقد الحداد حدثنا أبو أحمد محمد بن يوسف الزبيدي حدثنا عبد الرحمن عن محمد بن عبد الله بن طاوس من ولد طاوس عن أبيه عن طاوس عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - : « فاقراءوا ما تيسر منه » قال « مائة آية » وهذا حديث غريب موجود في معجم الطبراني - رحمه الله تعالى ^(٩) .

(١) أخرجه البخاري ج ١ ص ١٨٢ كتاب الصلاة باب وجوب القراءة للامام والمأموم .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ج ٢ ص ٢٥ كتاب أبواب الصلاة - باب ما جاء أنه لا صلاة الا بفاتحة الكتاب رقم ٢٤٧

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٢٩٦ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة رقم ٣٩٥/٣٨

(٤) أخرجه ابن خزيمة ج ١ ص ٢٤٨ رقم ٤٩٠

(٥) سورة يوسف ية : ٦٨ (٦) سورة الانعام اية : ٩١

(٧) أخرجه مسلم ج ١ ص ٥٣٧ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح رقم ٧٧٤/٢٠٥

(٨) أخرجه الترمذي في سننه ج ٢ ص ٣١٦ كتاب أبواب الصلاة - باب ما جاء أن الوتر ليس بختم رقم ٤٥٣ ، ٤٥٤ - وقال محققه أخرجه النسائي وصححه الحاكم .

(٩) أخرجه مجمع الزوائد عن ابن عباس ج ٧ ص ١٣٠ تفسير المزمل وقال أخرجه الطبراني . وفيه عبد الرحمن بن طاوس ولم أعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أى أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا دليل لمن قال أن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين الا بالمدينة ، والله أعلم .

وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واجب من السلف ، إن هذه الآية نسخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال لذلك الرجل : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » قال هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع »^(١)

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ يعنى من الصدقات فإن الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾^(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً ﴾ .

أى جميع ما تقدموه بين أيديكم ، فهو لكم حاصل ، وهو خير مما ابقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خثيمة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن الحارث بن سويد قال : قال عبد الله : قال رسول الله : « أيكم ما له أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا يا رسول الله ما منا من أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه قال : « اعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما آخر »^(٣) ورواه البخارى من حديث حفص ابن غياث والنسائى من طريق أبى معاوية كلاهما عن الأعمش به ثم قال تعالى : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » أى أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها فانه غفور رحيم لمن استغفره .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٤١ كتاب الايمان باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الاسلام رقم ١١/٨

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٥

(٣) أخرجه الامام أحمد ج ١ ص ٣٨٢

سورة المدثر

بين يدي السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، وياتها ست وخمسون في عدّ العراقي والبزّي وخمس وخمسون في عدّ المكي ، وكلّما تها مائتان وخمس وخمسون وحروفها ألف وعشر .
المختلف فيها اثنان : (يتساءلون عن المجرمين) فواصل آياتها (رُدّها) على الدال آية : (ثم يطمع أن أزيد) .

سميت المدثر : لفتحها .

مقصود السورة : - أمر النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق إلى الإيمان ، وتقرير صعوبة القيامة على (الكفار) وأهل العصيان ، وتهديد وليد بن المغيرة بنقض القرآن ، وبيان عدد زبانية النيران وأن كل أحد رهن بالاساءة والإحسان ، وملامة الكفار على إعراضهم عن الإيمان ، وذكر وعد الكريم على التقوى بالرحمة والغفران في قوله : (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) .
المنسوخ فيها آية واحدة : (ذرني ومن خلقت وحيداً) من آية السيف .

المتشابهات :

قوله : ﴿ إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ﴾ أعاد (كيف قدر) مرتين وأعاد (قدر) ثلاث مرات ، لأن التقدير : إنه - أي الوليد - فكر في شأن محمد - صلى الله عليه وسلم - وأتى به وقدر ماذا يمكنه أن يقول فيها . فقال الله سبحانه : (فقتل كيف قدر) أي القول في محمد - صلى الله عليه وسلم - (ثم قتل كيف قدر) أي القول في القرآن .

قوله : ﴿ كلاً إنه تذكرة ﴾ أي تذكير وعدل إليها للفاصلة .

وقوله : ﴿ إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ وفي عبس (إنها تذكرة) لأن تقدير الآية في هذه السورة : إن القرآن تذكرة وفي عبس : إن آيات القرآن تذكرة وقيل : حمل التذكرة على التذكير لأنها بمعناه .

فضل السورة :

فيه الحديث الضعيف عن أبي : من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة وحديث عليّ : يا عليّ من قرأها أعطاه الله ثواب المتحابين في الله وله بكل آية قرأها مائة شفاعة^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾
وَلَا تَمْنُنْ تَسْكَثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ ﴿٨﴾ فِي النَّاقُورِ ﴿٩﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١١﴾

معاني المفردات

- (المدثر) : - لابس الدثار وهو ما فوق الشعار الذي يلبس فوق الجسد مباشرة .
(وثيابك) : المراد قلبك ونفسك .
(الرجز) : - هو العذاب والمراد هنا أسبابه .
(نقر في الناقور) : - نفخ في الصور .
(لا تمنن) : - المراد لا تعط ، يقال : من الأمير على فلان إذا أنعم عليه وأعطاه .

أضواء كاشفة

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - في أول اتصاله بالوحي ولقائه له ، يتأثر بذلك كثيراً ، وكان يتزمل بعده ويتدثر ، حتى انقطع عنه الوحي حيناً ، ثم جاءه على شوق منه إليه ، وربما كان هذا التخلّف ليهدأ روعه ، وتسكن نفسه ، ويتطلب تلك المناجاة الإلهية ، وقيل أن النبي - صلى الله عليه وسلم - : كان يصيبه من أذى قومه ما يجعله يفكر في مصيرهم ، ويعتزل مجتمعهم ، ويجلس متدثراً بدثاره في بيته ، فجاءه الوحي يخصه على ترك العزلة وعلى التشمير للدعوة .

يا أيها المدثر الذي اشتمل بدثاره لمن لا يهमे أمر ، ولا يعنيه شأن ، والمستغرق في أفكاره ، والمتهيب للقاء الوحي ، قم نشيطاً من مضجعتك ، ولا تجعل لليأس سبيلاً إلى قلبك ، فإن العناية الإلهية أعدت لك لرسالة سامية خالدة ، ولنشر دين عام ، هو خاتم الأديان ، قم فأنذر الناس بذلك الدين ، وخوفهم عاقبة الكفر به ، هذه الرسالة التي كلف النبي بها ، والتي جاءت لتهدى الناس إلى الطريق الحق ، وتجعلهم يعبدون الله الواحد الأحد بعد الأصنام والأوثان ، والصاحبة والولد ، ليست بالأمر الهين السهل . تصور أنك تحاول أن تقنع شخصاً بترك ما يعتقده وورثه عن آبائه ، لذلك أرشد الله نبيه إلى طريق النجاح في تلك الدعوة الإسلامية ، وأنها لأسلحة جبارة لو استخدمت استخداماً صحيحاً ، لكسب صاحبها المعركة بلا شك وهي :

١ - « وربك فكبر » نعم مهما يكن من شيء فكبر ربك وحده ، ولا تشرك به غيره ، واختص ربك بالكبرياء والعظمة ، وخلص عقلك من أوهام الشرك وعبادة مالا ينفع بل يضر .

٢ - « وثيابك فطهر » تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تدم به من الأفعال ، ولذلك قالت العرب : فلان طاهر الثوب ، أونقى الثياب ، أو طاهر الجيب ، يزيدون بذلك وصفه نفسه بالنقاء من المعاييب وسوء الأخلاق ، ولا غرابة في ذلك ، فالثياب مما يلزم الإنسان في جميع أدوار حياته ، وقد يطلقون الثياب ويريدون ذات النفس أو القلب وعليه قول عنترة :

فشككت بالرمح الأمم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
وعلى ذلك فالمراد بالآية تحرير نفسه الشريفة من سوء الأخلاق ، وردى العادات ، بحيث يكون صبوراً قوياً الهمة ، عظيم النفس ، متحلياً بالمثل العليا .

٣ - « والرجز فاهجر » أى اترك كل ما يؤدى بك إلى العذاب من المعاصى والآثام ، وحرر جوارحك من كل ما يغضب ربك :

ألست معى فى أن هذه الكلمات ، جمعت أمهات الفضائل ، لتحرير العقل من ربة الشرك ، وتقويم النفس بكريم الخلق ، وإصلاح البدن بهجر المآثم والمحارم .

وهذه الأوامر للنبي ، ليس معناها أنه يفعل ضدها لا : بل هو من باب « فاستقم كما أمرت »^(١) أى دُم على ما أنت عليه من عبادة الواحد الأحد ، ومن تحلى نفسك بالخلق الشريف ، ومن هجر لك كل ما يغضب الله .

٤ - أرباب الدعوات ، وأصحاب الرسالات ، لابد فيهم من أخلاق وصفات ، مفضى ذكر بعضها ، وهنا يشير القرآن إلى صفة مهمة ، تستحق الأفراد بالذكر وهى : الجود وعدم البخل ، واستكثار العطاء ، فإن البخل وشح النفس ، ممن ينفر الناس عن صاحب الدعوة ، حقيقة الجود مما يدخل فى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) ولكنه خص بالذكر ، لأثره المهم فى جذب قلوب الناس فحقاً صدق الله « ولا تمنن تستكثر » أى لا تعط عطاء مهما كان كثيراً وأنت تقدر فى نفسك أنه كثير ، بل اعتقد أنه قليل وأعط عطاء من لا يخاف الفقر بحال .

٥ - « ولربك فاصبر » أى إذا كان الأمر كذلك ، وقد قمت بالواجب عليك ، واتبعت نصائح ربك ثم وجدت من قومك إغراضاً وتكديباً وإيذاء ، فاصبر لأجل ربك ، ولتبليغ رسالاته ، وتلقين وحيه ، فإن الصبر هو عدة المسلم ، وطريق الوصول إلى ما يريد .

قم يا محمد فأنذر وبلغ رسالة ربك كلها ، وإن لم تفعل هذا فما بلغت رسالته ، والله عاصمك من الناس ، فإذا أبوا إلا التكذيب ، فاعلم أن وراءهم يوماً ثقيلاً ، يوماً عبوساً قمطيراً ، فإذا نقر فى الناقور ، ونفخ فى الصور ، فذلك يومئذ يحصل هذا يوم عسير جداً ، شديد على الكافرين غير يسير .

التفسير

ثبت في صحيح البخارى من حديث يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر أنه كان يقول أول شيء نزل من القرآن (يا أيها المدثر) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾^(١) ، إلخ ، قال البخارى حدثنا وكيع عن على بن المبارك ، عن يحيى ابن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يا أيها المدثر) قلت يقولون : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «جاءت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً فرفعت رأسى ، فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا على ماء بارداً - قال - فدثرونى وصبوا على ماء بارداً - قال : فنزلت ﴿يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر﴾^(٢) .

هكذا ساقه من هذا الوجه وقد رواه مسلم من طريق عقيل ابن شهاب عن أبي سلمة ، قال أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث عن فترة الوحي فقال فى حديثه : «فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجثت منه حتى هويت إلى الأرض فجثت إلى أهلى فقلت زملونى فزملونى فأنزل ﴿يا أيها المدثر . قم فأنذر - إلى - فاهجر﴾^(٣) ، قال أبو سلمة والرجز الأوثان - ثم حمى الوحي وتتابع هذا لفظ البخارى وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقيض أنه قد نزل الوحي مثل هذا لقوله : (فإذا الملك الذى كان بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(٤) ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا ، ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة ، كما قال الإمام أحمد حدثنا حجاج ليت حدثنا عقيل عن ابن شهاب قال سمعت أبا سلمة ابن عبد الرحمن يقول : أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «ثم فتر الوحي عنى فترة فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجثت منه فرقا حتى هويت إلى الأرض ، فجثت أهلى فقلت لهم زملونى زملونى فأنزل الله تعالى : ﴿يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر﴾ ثم نزل الوحي وتتابع ، أخرجه من حديث الزهرى^(٥) وقال الطبرانى حدثنا محمد

(١) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٣ ص ٢٠٩ كتاب التفسير باب تفسير المدثر أنظر توضيح مسلم ج ١ ص ١٤٤ كتاب الإيمان باب بدء

الوحي رقم ١٦١/٢٥٧

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ١٤٣ كتاب الإيمان باب بدء الوحي رقم ١٦١/٢٥٥

(٤) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٠

ابن علي بن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بشر البجلي ، حدثنا المعافى بن عمران عن إبراهيم ابن يزيد ، سمعت ابن أبي مليكة يقول سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم ساحر ، وقال بعضهم ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن ، وقال بعضهم شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر ، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فحزن وقنع رأسه وتدنثر ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأندر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ قم فأندر ﴾ أى شمر عن ساق العزم وأندر الناس ، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة (وربك فكبر) . أى عظم .

وقوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال الأصلح الكندى عن عكرمة عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية (وثيابك فطهر) قال لا تلبسها على معصية ولا على غدره ، ثم قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى .

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنع

وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال فى كلام العرب نقى الثياب وفى رواية بهذا الإسناد فطهر من الذنوب ، وكذا قال إبراهيم والشعب وعطاء وقال الثورى عن رجل عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال من الإثم وكذا قال إبراهيم النخعى ، وقال مجاهد : (وثيابك فطهر) قال نفسك ليس ثيابه ، وفى رواية عنه (وثيابك فطهر) أى عمالك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين وقال فى رواية أخرى (وثيابك فطهر) أى لست بكاهن ولا ساحر ، فأعرض عما قالوا ، وقال قتادة : (وثيابك فطهر) أى طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب ، وإذا وفى وأصلح إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك لا تلبسها على معصية وقال الشاعر :

وإذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وقال العوفى عن ابن عباس : (وثيابك فطهر) يعنى لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ويقال لا تلبس ثيابك على معصية ، وقال محمد بن سيرين : (وثيابك فطهر) أى اغسلها بالماء ، قال ابن زيد كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه ، وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال عمرو القيس :

أقاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجلى

وإن تك قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقال سعيد بن جبير : (وثيابك فطهر) وقلبك ونيتك فطهر .

وقال محمد بن كعب القرطبى والحسن البصرى : وخلقك فحسن .

وقوله تعالى : (والرجز فاهجر) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس والرجز وهو الأصنام فاهجر ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة الزهوى وابن زيد : إنها الأوثان ، وقال ابراهيم والضحاك : (والرجز فاهجر) أى اترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ ^(٢) وقوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال ابن عباس لا تعط العطية تلتمس أكثر منها ، وكذا قال عكرمة ، ومجاهد وعطاء وطاوس وأبو الأحوص وابراهيم النخعى والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ (ولا تمنن أن تستكثر) وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير ، وقال خصيف عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن فى كلام العرب تضعف . وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها ، عليه عوضاً من الدنيا ، فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أى اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل ، قاله مجاهد ، وقال ابراهيم النخعى اصبر عطيتك لله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والشعبى وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدى وابن زيد (الناقور) الصور ، قال مجاهد : وهو كهيئة القرن ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا أسباط ابن محمد عن مطرف عن عطية العوفى عن ابن عباس (فإذا نقر فى الناقور) فقال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا) وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط به ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن فضيل وأسباط كلاهما عن مطرف به .

ورواه من طريق أخرى عن العوفى عن ابن عباس به ^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ أى شديد (على الكافرين غير يسير) (على الكافرين غير يسير) أى غير سهل عليهم كما قال تعالى : ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ ^(٤) . وقد روى عن زرارة ابن أوفى قاضى البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ شهق شهقة ثم خر ميتاً - رحمه الله تعالى -

(١) الأحزاب الآية : ١

(٢) الأعراف الآية : ١٤٢

(٣) رواه أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٣٢٦ مسند عبد الله بن عباس .

(٤) القمر الآية : ٨

مصير زعماء الضلال

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ^(١٢)
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ^(١٣) كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَنَبَّأُ عَنِيدًا ۖ^(١٤) سَأَرَّهُ مَقْهَرٌ
صَعُودًا ۖ^(١٥) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ^(١٦) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ^(١٧) ثُمَّ قُنِيَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ^(١٨) ثُمَّ
نَظَرَ ۖ^(١٩) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ^(٢٠) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ^(٢١) فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ^(٢٢) إِن
هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ^(٢٣) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۖ^(٢٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۖ^(٢٥) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۖ^(٢٦)
لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ ۖ^(٢٧) عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ۖ^(٢٨) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا
عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَالْيَسْتَبِقْنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا
وَلَا يَرْتَابَ ۖ^(٢٩) الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ^(٣٠) وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ^(٣١) كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ ۖ^(٣٢)
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۖ^(٣٣)

معاني المفردات

- (ذرنى) دعنى واتركنى .
ممدوداً) : مبسوطاً موسعاً .
(شهوداً) : حضوراً لا يفارقونه .
(مهدت تمهيداً) : بسطت له الدنيا بسطاً .
(كلا) : كلمة روع وزجر .
(عنيداً) : معانداً لها ومكابراً .

- (سَأَرْهَقُهُ صَعُوداً) : سأكلفه وأحمله عذاباً شاقاً صعباً كصعوبة من يحاول صعود جبل صعب .
 (قدر) : هيا الأمر في نفسه ودبره .
 (عبس وبسر) : العبوس تقلص عضلات الوجه أو الحاجبين عند ألم أو حزن .
 والبسور أشد من من العبوس .
 (سقر) : اسم من أسماء جهنم وهو من سقرته الشمس إذا لوحته وآمته .
 (فتنة) : ابتلاء واختباراً .
 (ولا يرتاب) : ولا يشك .
 (مرض) : شك ونفاق .
 (مثلاً) : المثل هو القول السائر على ألسنة الخلق ويكون في أمر عجيب وشأن خطير والمراد أن عدة الحزنة أمر عجيب كالمثل .
 (جنود ربك) : أنصاره وأعوانه والمراد هنا صنف من الخلق .
 (ذكرى للبشر) : موعظة وعبرة .

أضواء كاشفة

لقد رسم الله سبحانه وتعالى الخطوط لنجاح الدعوة المحمدية باستكمال العقل وتحرره من الشرك ، وباستكمال النفس بالخلق الكامل والمثل العليا ، وتطهير الجوارح بالبعد عن المعاصي والمحارم ، ولقد ذكر صنفين لهما وضع خاص ، هما الجود والصبر ، وبعد ذلك بين ما يلاقيه الكفار يوم القيامة ، ثم أراد أن يشجع الرسول على التبليغ ، فذكر أحد زعماء الشرك وتوعده الشعر التي هي لواحة للبشر ، هذه هي دعائم نجاح الرسول في دعوته ، وتلك سنة الله في الدعوات كلها ، لا يستقيم لها أمر إلا بهذا ، ذرني ومن خلقت وحدى بلا شريك معي ، اتركه لي وثق أني قادر عليه ، فقد خلفته وحيداً ، لا مال له ، ولا ولد ، ولا حول له ولا قوة ، حتى إذا أنعمت عليه بالمال والولد ، قام يكفر بي ويكذب رسلي ، لقد مهدت له الدنيا ووسعتها عليه توسيعاً ، ثم بعد ذلك يطمع أن أزيده من نعمي ، أو ثم يطمع أن أزيده كلا إنه كان لآياتنا القرآنية معانداً ومكابراً ، وماذا يكون جزاؤه ؟ سأرهقه صعوداً أي سأحمّله من العذاب نوعاً شاقاً عليه تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد في الجبل في طريق وعر ، وكأن سائلاً سأل كيف كانت حالته في معاندة الآيات حتى استحق هذا العذاب ؟ فأجيب : إنه فكر فيها وقدر ، وهياً في نفسه أمراً وأجل فيها رأياً بقوله ليرضى الباطل وأهله .

فقتل كيف قدر ؟ ثم قتل كيف قدر ؟ وهذا كما يقولون : قاتله الله ما أشجعه في معرض التعجب والاستعظام مدحاً للشخص الذي يقولون فيه هذا الكلام ، وكأنه بلغ حداً يجعل حساده يقولون له هذا ، ثم شاع هذا الاستعمال وحرّف نوعاً ما ، حتى صار يقوله كل معجب بشخص أو كل محب له ، أما العبارة في الآية فليس المقصود منها المدح إنما هي للتعجب المشوب بالذم ، أو المدح الذي فيها للتهكم

والاستهزاء ، ثم بعد أن فكر وقدر نظر في جمهور الندى نظر المفكر الساهم ، ثم قطب وجهه وقلص عضلات حاجبيه واشتد ذلك التقطيب . متهيئاً للكلام والحكم القطعي في شأن الرسول والقرآن ، ولما كان قوله مخض افتراء ونهاية الاعراض عن الحق والإيمان ، وكان ناشئاً عن كبر وغمط للحقوق عبر عنه القرآن بقوله : « ثم أدبر واستكبر » فماذا قال ؟ قال : إن هذا الكلام الذي سمعته ما هو إلا سحر يؤثر عن السحرة من البابليين والأشوريين والمصريين ، ثم أكبر رأيه بأنه سحر معروف وليس من كلام الله بقوله : ما هذا إلا مثل قول البشر الذين عاشوا في القرون الماضية . ما جزاء هذا ؟ سأرهقه صعوداً ، سأصليه سقراً . وما أدراك ؟ ما سقر ؟ أى شئ أعلمك ؟ ما سقر ؟ وهذا استفهام يراد به التعجب من هول سقر ، وأنه مهما فكر فيها المفكر ، لا يمكنه أن يعرف من أمرها إلا ما عرفه الوحي من أنها لا تبقى على شئ يلقى فيها إلا أهلكته ، ولا تذر أحداً من الفجار يفلت منها وهى لواحة للبشر ، تجعل أجسامهم قطعاً سوداً متغيرة ، عليها تسعة عشر ، وهم خزنتها الموكلون بخدمتها وهل هم تسعة عشر ملكاً أو صنفاً أو صفاً أو نقيباً الله أعلم بذلك كله وليس لنا أن نبحث في ذلك بل ندع الأمر إلى الله وخاصة بعد قوله تعالى : ﴿ ما أدراك ما سقر ؟ ﴾ على أن المخاطب بذلك سيد البشرز وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة أى ليسوا بشراً وهذا رد على من قال : سأكفيكم أمر سبعة عشر فأكفوني أمر الاثنين وعلى قول أبي جهل لما سمع هذه الآية لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء ؟ ! فيرد الله عليهم ، ليس هؤلاء بشراً ، بل هم ملائكة ، فاسألوا عنهم عاداً وشمود وأهل قرى قوم لوط ، فإنهم يعرفون الملائكة وقوتهم . وما جعلنا عدتهم - تسعة عشر - إلا ابتلاء واختباراً للناس وكانت فتنة وضلالاً وإعراضاً ، أما المؤمنون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - من المسلمين وأهل الكتاب ، فازدادوا يقيناً على يقينهم ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، بل هم متيقنون ، وكان ذلك ليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق كالمنافقين ، وليقول الكافرون بالوحي : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ أى ماذا أراد الله بهذا القول - عدتهم تسعة عشر - الذى يشبه المثل في الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر .

مثل ذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ممن أراد لهم بذلك ، لأنهم على استعداد للخير أو للشر ، وقد ساروا بمحض إختيارهم في أحد السبيلين ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، نعم لا يعلم خلقه إلا هو وجنود ربك ، التى هى وسائط فى تنفيذ إرادته وأحكامه من الأمور الغيبية التى تؤمن بها فقط . وما سقر ووصفها بهذا إلا ذكرى وموعظة للبشر ، فيخافون ربهم ويتعدون عن عقابه وعذابه ، أما حقيقتها فشئ لا يعلمه إلا الله .

يكاد المفسرون يجمعون على أن قصة التهديد السابقة نزلت فى الوليد بن المغيرة ، فإنه كان كثير المال والولد ، عظيم الجاه قوى النفوذ ، فيروى أن بساتينه كانت ممتدة بين مكة ، والطائف لا ينقطع لها ثمر ، وكان له عشرة أولاد ، يحضرون مجلسه لكبر سنهم ورجاحة عقولهم ، ويقيمون معه لا يغادرون مكة لغناهم وراثتهم ، ولما اشتد الأمر ورأى زعماء الشرك أن دعوة النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - آخذة فى الانتشار ، وأن محمداً سيجمع بوفود العرب وسيكلمهم فى الإسلام ، اجتمعوا للتشاور فيما يقولون ليردوا

به العرب عن الإسلام ، فقال قائل نقول : إنه شاعر ، وقال آخر : لا إنه كاهن وقال ثالث : لا . إنه مجنون وقال رابع : لا إنه كذاب ! كل هذا والوليد يسمع ولا يتكلم فقالوا له : مالك لا تتكلم ؟ فقال لقد سمعت محمداً يقرأ كلاماً ما هو بكلام الإنس ولا الجن ، وإن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما يقول هذا بشر فكان لهذا الكلام وقع شديد على المجتمعين ، وقالوا لقد صبأ الوليد - أى ترك دين آبائه وأجداده ولتصبأن معه قريش . فخرج الوليد وتفرق الجمع وكلهم حزن أسيف . ولكن أبا جهل ذهب لدار الوليد يحتال عليه ، وأخذ يكلمه بكلام يثير فيه الحمية الجاهلية ، والنخوة المادية فقال له : لقد تركنا قريشاً تجمع لك مالاً حتى تكفيك تعرضك لمحمد وماله فقال الوليد : لقد علمت قريشاً أنى من أكثرها مالاً فهل أنا محتاج لكسر محمد اليتيم ؟! قم بنا إلى دار الندوة ولأتولن كلاماً أصحح به وضعى . اجتمع الناس فقال الوليد : إن محمداً ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب وأنتم تعلمون هذا ولا سبيل إلى إنكاره ، فقالوا له : فماذا نقول عنه إذاً يا عبد شمس ؟ - ولقد وصف القرآن الوليد في تلك اللحظة الرهيبة وصفاً دقيقاً جداً - فقال : إن الوليد فكر وقلب وجوه رأى فيما يقوله ، وقدر رأى وقلبه على وجوهه ، ثم قاطعه الوحى بقوله « قتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر » معجباً من أمره ناعياً عليه سوء فعله ثم نظر الوليد في القوم بعد تفكيره ثم عبس وبسر أى قطب حاجبيه تغطيباً شديداً وقال لهم : قولوا : إنه ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، ففرحت قريش بذلك فرحاً شديداً واغتم النبى صلى الله عليه وسلم وحزن ورجع إلى بيته وتدثر بدثاره وجلس فكانت هذه السورة ، وأمره الله أن يدع الوليد ومن على شاكلته فالله يكفيكه في الدنيا ، وليعذبه عذاباً شديداً في الآخرة بنار هى سقر تسود الوجوه ، وتشوى اللحم .. إلخ ما فى الآيات .

التفسير

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث : الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرأ ، وقابلها بالجحود بآيات الله ، والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حين قال تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أى خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى (مالاً ممدوداً) أى واسعاً كثيراً ، قيل : ألف دينار ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : أرضاً يشغلها ، وقيل : غير ذلك ، وجعل له بنين شهوداً ، وقال مجاهد لا يغيبون أى حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم ، وهم قعود عند أبيهم ، يتمتع بهم ، ويتجلى بهم ، وكانوا فيما ذكر السدى وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة ثلاثة عشر وقال بن عباس ومجاهد كانوا عشرة ، وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده (ومهدت له تمهيداً) أى مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك (ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً) أى معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم قال ، الله تعالى : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ وقال الإمام أحمد حدثنا حسن على أبى سعيد عن رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - قال : (ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره والصعود جبل من نار ستصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوى به كذلك فيه أبداً)^(١) .

وقد رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن الحسن بن موسى الأشيب به ، ثم قال غريب لا تعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج كذا قال : وقد رواه ابن جرير عن يونس عن عبد الله ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج وفيه غرابة ونكارة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة وعلى ابن عبد الرحمن المعروف بعلان المقرئ قال حدثنا منجاب أخبرنا شريك عن عمار الدهني عن عطية العوفي عن أبي سعيد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - (سأرهقه صعوداً) قال : « هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت وإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت »^(٢) .

ورواه البزار وابن جرير من حديث شريك به وقال قتادة عن ابن عباس صعوداً : صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه وقال السدي صعوداً صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها وقال مجاهد « سأرهقه صعوداً » أى مشقة من العذاب وقال قتادة عذاباً لا راحة فيه واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أى إنما أرهقناه صعوداً أى قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر ، أى تروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ، ففكر كيف يخلق من المقال (وقدر) أى تروى (فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر) وعاد عليه (ثم نظر) أى أعاد النظر والتروى (ثم عبس) أى قبض بين عينيه وقطب (وبسر) أى كلح كره ومنه قول توبة ابن حمير :

وقد راينى صدود رأيت
وإعراضها عن حاجتي وبسورها
وقوله : ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أى صرف عن الحق ورجع القهقري مستكبراً عن الانقياد للقرآن (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ، ويحكيه عنهم ، ولهذا قال : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أى هذا ليس كلام الله ، وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس قال دخل الوليد بن المغيرة عن أبي بكر ابن أبي قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش ، فقال يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك نفر من قريش أتمروا فقالوا والله لئن صبا الوليد لتصبثن قريش فلما سمع بذلك أبو جهل من هشام قال أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد ألم تر إلى قومك ؟ قد جمعوا لك الصدقة فقال أأست أكثرهم مالاً وولداً فقال له أبو جهل يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد أقدر تحدث به عشيرتي فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً - إلى قوله - لا تبقى ولا تذر ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال والله لقد نظرت فيما قال الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأنه ليعلوا وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر فأنزل الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ ٣ ص ٧٥ مسند أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسير جـ ٤ ص ٤٤٢ في تفسير سورة المدثر .

﴿ فقتل كيف قدر ﴾ الآية (ثم عبس وبسر) قبض ما بين عينيه وملح ، وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فاتاه فقال أي عن إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ، قال لم قال يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله ، قال قد علمت قريش أني أكثرها مالا ، قال فل فيه قولاً يُعلم قومك أنك منكر لما قال وأنت كاره له ، قال : فماذا أقول فيه فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنه ليعظم ما تحته ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، وقال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً - حتى بلغ - تسعة عشر ﴾ وقد ذكر محمد ابن اسحاق وغير واحد نحوه من هذا وقد زعم السدي أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يُقدم عليهم وفود العرب للحج يصدوهم عنه فقال قائلون : شاعر وقال آخرون : ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال قائلون : شاعر ، وقال آخرون : ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ (١) كل هذا والوليد يكفر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ونظر وعبس وبسر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر .

قال الله تعالى : ﴿ سأصليه سقر ﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته ثم قال تعالى : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحييون ، قاله ابن بريدة وأبوسفيان وغيرهما ، وقوله تعالى : ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال مجاهد أي للجلد وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد ابن أسلم : تلوح أجسادهم عليها ، وقال قتادة (لواحة للبشر) أي حرّاقة للجلد ، وقال ابن عباس : تحرق بشدة الإنسان ، وقوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أي من مقدمي الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة إبراهيم بن موسى حدثنا أبي زائدة أخبرنا حارث عن عامر عن البراء في قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال إن رهطاً من اليهود سألو رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن خزنة جهنم فقال الله ورسوله أعلم ، فجاء رجل فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ (عليها تسعة عشر) فأخبر أصحابه وقال (أدعهم أما إني سائلهم عن تربة الجنة إن أتوني إما أنها دورمكة بيضاء) فجاءوه فسألوه عن خزنة جهنم فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام في الثانية ثم قال : (أخبروني عن تربة الجنة ، فقالوا أخبرهم يا ابن سلام فقال كأنها خبزة بيضاء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أما إن الخبز إنما يكون من الدرملك) (٢) .

هكذا وقع عند ابن أبي حاتم عن البراء والمشهور عن جابر ابن عبد الله ، قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا منده حدثنا أحمد بن عبيدة ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم حدثنا سفيان عن

(١) الإسراء آية : ٤٨

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤

مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال يا محمد : غلب أصحابك اليوم فقال (بأى شيء) قال سألتهم يهود وهل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا - صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا - صلى الله عليه وسلم - ؟ على بأعداء الله لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة) فأرسل إليهم فدعاهم قالوا يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : (هكذا) وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة - وقال لأصحابه (إن سألتهم عن تربة الجنة هي الدرملك) فلما سألوهم فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (ما تربة الجنة) فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : أخبره يا أبا القاسم فقال : (الخبز من الدرملك) وهكذا رواه الترمذى عند هذه الآية عن ابن أبي عمر عن شيبان به وقال هو والبزار لا يعرف من حديث مجالد وقد رواه الإمام أحمد عن علي بن المدينى عن سفيان بنقصه الدرملك فقط^(١) .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أى خزنتها (إلا ملائكة) أى زبانية غلاظا شداداً ، وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل يا معشر قريش : أما تستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أى شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل أن أبا الأشدين واسمه كلداه بن أسيد بن خلف قال يا معشر قريش : اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم خمسة عشر ، إعجاباً معه بنفسه وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون ، كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه .

قال الهيلي وهو الذى دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مصارعته ، وقال إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبي - صلى الله عليه وسلم - مراراً فلم يؤمن ، قال وقد نسب ابن إسحق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وقد قيل : أنه لا منافاة بين ما ذكرناه والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس (ليستبقن الذين أوتوا الكتاب) أى يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله .

وقوله تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أى إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض) أى من المنافقين (والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) أى يقولون ما الحكم فى ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ أى من مثل هذا وأشباهه ، يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام وينزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ . أى ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين الذين

سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فافهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء المروى في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة (فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم)^(١) وقال الإمام أحمد حدثنا أسود حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورك عن أبي ذر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أظت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى)^(٢) ، فقال أبو ذر لوددت أنى شجرة تورق ، ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث إسرائيل وقال الترمذى حديث حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفاً وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا حسين ابن عرفة المصرى حدثنا عروة بن مروان الرقى حدثنا عبيد الله بن عمرو وعن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راکع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً »^(٣) وقال محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة حدثنا عمر بن زرارۃ أخذنا عبد الوهاب عن عطاء عن سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا ما نسمع من شىء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أسمع أطيظ السماء وما تلام أن تشط ، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راکع أو ساجد »^(٤) .

وقال أيضاً حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوى حدثنا عبيد ابن سليمان الباهلى سمعت الضحاک بن مزاحم يحدث عن مسروق بن الأجدع عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وذلك قول الملائكة (وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون) . وهذا مرفوع غريب جداً ثم رواه عن محمود بن آدم عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماء قائم ثم قرأ (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون)^(٥) .

ثم قال حدثنا أحمد بن بشار حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقى المعروف بابن أمه حدثنا المغيرة

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٦٢/٢٥٩

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ١٧٣

أنظر الترمذى فى ج ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب فى قول النبى لوتعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا رقم ١٣١٢

أنظر ابن ماجه فى كتاب الزهد باب الحزن والبكاء .

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الهد باب الحزن والبكاء

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٥

ابن عمر بن عطية من بنى عمرو بن سوف حدثني سليمان بن أيوب عن سالم بن عوف حدثني عطاء بن زيد ابن مسعود من بنى الحكم حدثني سليمان بن عمرو بن الربيع من بنى سالم حدثني عبد الرحمن بن العلاء من بنى ساعدة عن أبيه العلاء بن سعد وقد شهد الفتح وما بعده أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً لجلسائه « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا وما تسمع يا رسول الله ؟ قال « أظن السماء وحق لها أن تظن إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راکع أو ساجد وقالت الملائكة (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون)^(١) ثم قال حدثنا إسحق بن محمد بن اسماعيل العدوي حدثنا عبد الملك بن قدامة عن عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن عبد الله بن عمر أن عمر جاء والصلاة قائمة وتقر ثلاثة جلوس أحدهم أبو جحش الليثي فقال قوموا فصلوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقام اثنان وأبى أبو جحش أن يقوم وقال لا أقوم حتى يأتي رجل هو أقوى مني ذراعيه وأشد مني بطشاً ، فيصرعني ثم يدس وجهي في التراب قال عمر فصرعته ودسست وجهه في التراب فأتى عثمان بن عفان فحمزني عنه فخرج عمر مغتصباً حتى انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فقال « ما رأيك يا أبا حفص ؟ » فذكر له ما كان منه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن رضى عمر رحمه الله على ذلك لوددت أنك جثتي برأس الخبيث فقام عمر فوجه نحوه فلما أبعد ناداه فقال « اجلس حتى أخبرك بغناء الرب تبارك وتعالى عن صلاة أبي جحش إن الله تعالى في السماء الدنيا ملائكة خشوع لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت رفعوا رؤوسهم ثم قالوا ربنا ما عبدناك حق عبادتك وإن الله في السماء الثانية ملائكة سجود لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم وقالوا سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك » فقال له عمر وما يقولون يا رسول الله ؟ فقال « أما أهل السماء الدنيا فيقولون سبحان ذي الملك والملكوت وأما أهل السماء الثانية فيقولون سبحان ذي العزة وأما أهل السماء الثالثة فيقولون سبحان الحي الذي لا يموت فقلها يا عمر في صلاتك ، فقال عمر يا رسول الله فكيف بالذي كنت علمتني وأمرتني أن أقوله في صلاتي ؟ فقال « قل هذا مرة وهذا مرة »^(٢) وكان الذي أمره به أن يقوله « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك جل وجهك » هذا حديث غريب جداً بل منكر نكارة شديدة وإسناد المروزي روى عنه البخاري وذكره ابن حبان في الثقاب وضعفه أبو داود والنسائي والقصيلي والدارقطني وقال أبو حاتم الرازي كان صدوقاً إلا أنه ذهب بصره فربما لقن وكتبه صحيحه وقال مرة هو مضطرب وشيخه عبد الملك بن قدامة أبو قتاده الجمحي تكلم فيه أيضاً والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه ولم يتكلم عليه ولا عرف بحاله ولا تعرض لضعف بعض رجاله غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلاً بنحوه ، ومن طريق أخرى عن الحسن البصري مرسلاً قريباً منه ثم قال محمد بن نصر حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران أخبرنا النقد عباد بن منصور قال سمعت عدي ابن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال سمعت رجلاً من أصحاب النبي قال « إن الله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ما منهم ملك تقطر منه دمة من عينه إلا وقعت على ملك يصلي وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وإن منهم ملائكة

(١) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة المثر ج ٤ ص ٤٤٥

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة المثر ج ٤ ص ٤٤٦

ركوعاً لم يرفعوا رءوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، وهذا إسناد لا بأس به^(١) وقوله تعالى : ﴿ وما هي إلا ذكري للبشر ﴾ قال مجاهد وغير واحد (وما هي) أى النار التى وصفت ﴿ إلا ذكري للبشر ﴾ .

مبحث فى رحاب قوله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾

عالم الملائكة فى ضوء الكتاب والسنة

وكما سبق أن تناولنا عالم الجن بالتفصيل والبيان الشامل كما جاء على لسان العلماء ، وكان ذلك مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله فإننا هنا نتناول عالم الملائكة المكرمين تناولاً مفصلاً ، كما جاء فى كتاب الله تعالى ، وكما ورد فى سنة نبيه ﷺ نقول وبالله التوفيق .

يقول الشيخ « عمر سليمان الأشقر » فى كتابه « عالم الملائكة الأبرار فى ضوء القرآن والسنة » :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فالإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد لا يتم الإيمان إلا به ، والملائكة عالم من عوالم الغيب التى امتدح الله المؤمنين بها تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ .

وقد بسطت النصوص من الكتاب والسنة هذا الموضوع ، وبنيت جوانبه ، ومن طالع هذه النصوص فى هذا الجانب ، يصبح الإيمان بالملائكة عنده واضحاً ، وليس فكرة غامضة ، وهذا بما يعمق الإيمان ويرسخه ، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الاجمالية ، وما أطالت النصوص التفصيل والتوضيح فى هذا الموضوع ، إلا لأن العقل الإنسانى لا يستطيع التوصل إلى ما يهمه معرفته عن الملائكة بنفسه فحواس الإنسان أعجز من أن ترى الملائكة وتسمع أحاديثهم ، ولا شك أن هذا العجز فى صلح الإنسان ، فلو كان الإنسان يسمع ويرى كل ما يحيط به ، لما أطاق الحياة ، وحسبنا أن نتصور أن إنساناً تلتقط أذنه ما يلتقطه المذياع من أصوات لنعلم البلاء الذى يحل بهذا المسكين ، الذى لا بد أن يصاب بالذهول والجنون ولا يظن أحد أن دراسة هذا الأصل من فضول العلم ، فإن الحقائق التى تسوقها النصوص فى هذا الموضوع لها تأثير كبير فى نفى الخرافة والزيف عن العقول فى هذا الموضوع ، فقد انتشر منذ القديم بالوهية الملائكة أو أن الملائكة بنات الله ، ويرى بعض الفلاسفة أن الملائكة هم الأفلاك التى نراها فى الفضاء .

وهذه الحقائق التى جاءت بها النصوص تعمق فى نفوسنا الإيمان بالإله المعبود المهيمن على هذا الوجود ، الذى وضع جنوده من الملائكة للقيام على مختلف أمور الكون وعلاقة الملائكة بنا تكويناً وإيماناً

ومراقبة . . . توحى للإنسان بأهميته وقيمه وتنفى من فكرة القول بتناحية وحقارته ، وبذلك يقدر قدر نفسه ويسعى جاهداً لتحقيق الدور العظيم الذى عليه أن يقوم به .

ولو ذهبنا نعدد الآثار الطيبة التى يجنيها المرء من إيمانه بالملائكة ودراسة النصوص التى تتحدث عنهم ، لطال القول فى هذه المقدمة ، إلا أننى أترك للقارئ أن يعيش مع النصوص ، فتمده - حين يتأمل فيها - بموجباتها وآثارها .

والله تعالى المستول أن ينفع بهذا البحث وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

١ - صفات الملائكة وقدراتهم

سنحاول فى هذا الفصل أن نتبنى من خلال النصوص الصحيحة صفات الملائكة الخلقية والخلقية ثم نتحدث عن القدرات التى وهبهم الله إياها .

الصفات الخلقية وما يتعلق بها

مادة الخلق :

عرفنا الرسول ﷺ فى الحديث الذى ترويه عائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنها وعن أبيها - أن المادة التى خلقوا منها هى النور فقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم) رواه مسلم فى صحيحه^(١)

ولم يبين لنا الرسول - ﷺ - أى نور هذا الذى خلقوا منه ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض فى هذا الأمر لمزيد من التحديد ، لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث .

وما روى عن عكرمة أنه قال : (خلقت الملائكة من نور العزة وخلق إبليس من نار العزة) وما روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : (خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر) لا يجوز الأخذ به وعلى فرض صحته عن هؤلاء العلماء الأفاضل فهم غير معصومين ولعلمهم قد اشتقوا من الاسرائيليات . (راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة / ١٩٧) وأما ما ذكره ولى الله الدهلى فى الحجة البالغة (ص ٣٣) من (أن الملائكة الأعلى) ثلاثة أقسام : قسم علم الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم فخلق أجساماً نورية بمنزلة نار موسى فنفخ فيها نفوساً كريمة .

وقسم اتفق حدوث فراج فى النجارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض (أى الترك) للألوات البهيمية . وقسم هم نفوس إنسانية المأخذ من الملائكة الأعلى مازالت تعمل أعمالاً منجية تفيد اللحوق بهم حتى طرحت عنها جلايب أبدانها فانسلكت فى سلوكهم وعثرت منهم . - فلا يوجد دليل صحيح على صحة هذا التقسيم - بهذا التفضيل والتحديد .

(١) أخرجه الامام مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرفائق باب فى احاديث متفرقة رقم ٢٩٩٦/٦٠

متى خلقوا؟

لا ندرى متى خلقوا فالحمد لله سبحانه لم يخبرنا بذلك ؟ ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل في الأرض خليفة ﴿١﴾ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴿٢﴾ والمراد بالخليفة آدم عليه السلام ، وأمرهم بالسجود له حين خلقه ﴿٣﴾ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴿٤﴾

عظم خلقهم :

قال تعالى في ملائكة النار : ﴿٥﴾ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿٦﴾ وسأكتفى بسوق الأحاديث التي تتحدث عن ملكين كريمين فحسب .

عظم خلق جبريل :

روى الإمام أحمد في سننه عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل في صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سدّ الأفق . يسقط من جناحه التهاويل (الأشياء المختلفة الألوان) من الدر واليواقيت ﴿٧﴾

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح ، أن الرسول - ﷺ - قال في جبريل : (رأيت منبهطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض) ﴿٨﴾

وقال في وصفه : ﴿٩﴾ إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ﴿١٠﴾ والمراد بالرسول الكريم هنا : جبريل ، وذو العرش : رب العزة سبحانه .

عظم خلقه حَمَلَةُ العرش

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام) ﴿١١﴾

ورواه ابن حاتم وقال : (تحقق الطير) قال محقق مشكاة المصابيح ، إسناده صحيح . وروى الطبراني في معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : (أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش . رجلاه في الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، يقول : (أي الملك) : سبحانه حيث كنت) ﴿١٢﴾

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) الحجر آية : ٢٩

(٣) التحريم آية : ٦

(٤) أخرجه الامام أحمد : ج ١ ص ٤٦ مسند عبد الله بن مسعود

(٥) مسلم : في صحيحه ج ١ ص ١٥٩ كتاب الإيمان باب معنى قول الله عز وجل «لقد رآه نزلة أخرى» رقم ١٧٧/٢٨٧

(٦) التكوين الآيات : ١٩ - ٢١

(٧) أخرجه أبو داود في سننه ج ٥ ص ٥٦ كتاب السنة - باب في الجهمية رقم ٤٧٢٧

(٨) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ج ١ ص ٨٠

للملائكة أجنحة

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾^(١) والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة ، بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك .

جمالهم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى في جبريل : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ﴾^(٢)

قال ابن عباس : ﴿ ذو مرة ﴾ ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن وقيل : ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك ، انظر إلى ما قالته النسوة في حق يوسف الصديق عندما رأيته : ﴿ فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾^(٣)

هل بين الملائكة والبشر شبه في الشكل والصورة ؟

روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عن جابر رضى الله عنه قال : عرض على الأنبياء ، فإذا موسى ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً (صاحبكم يعنى نفسه)^(٤) فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي ، أم هو بين الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في صورة بشر ؟ الأرجح هو الأخير ، لأن جبريل كان يتمثل في صورة دحية كثيراً .

تفاوتهم في الخلق والمقدار

الملائكة ليسوا على درجة واحدة في الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾^(٥) وقال في جبريل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله .

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ، ففي صحيح البخارى عن رفاعه بن رافع : أن

(١) فاطر ١ : ١

(٢) النجم الآيتان ٦/٥

(٣) يوسف الآية : ٣١

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٥٣ كتاب الإيمان باب الإسماء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات رقم ١٦٧/٢٧١

(انظر الترمذى ج ٥ ص ٥٦٤ كتاب المناقب باب في صفة النبي ﷺ رقم ٣٦٤٩)

(٥) الصافات آية : ١٦٤

جبريل جاء للنبي ﷺ فقال : ما تعدون من شهد بداراً فيكم ؟ قلت : خيارنا ، قال : وكذلك من شهد بداراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة (١)

لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

من أسباب ضلال بني آدم في حديثهم عن عوالم الغيب ، أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية ، فنرى واحداً من هؤلاء يعجب في مقال في صحيفة سيارة ، من أن جبريل كان يأتي الرسول - ﷺ - بعد ثوان من توجيه سؤال إلى الرسول يحتاج إلى جواب من الله ، فكيف يأتي بهذه السرعة الخارقة ، والضوء يحتاج إلى ملايين السنوات الضوئية ، ليصل إلى بعض نجوم السماء . وما درى هذا المسكين أن مثله كمثله بعوضة ، تحاول أن تقيس الطائفة بمقياسها الخاص ، لو تفكر في الأمر لعلم أن عالم الملائكة لها مقاييس تختلف تماماً عن مقاييسنا نحن البشر .

ولقد ضل في هذا المجال مشركو العرب ، الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله .

وناقشهم القرآن في هاتين القضيتين ، فبين أنهم - فيما ذهبوا إليه لم يعتمدوا على دليل صحيح ، وأن هذا القول قول متهافت ، ومن عجب أنهم ينسبون لله البنات ، وهم يكرهون البنات ، وعندما يبشر أحدهم أنه رزق بنتاً ، يظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وقد يتوارى من الناس خجلاً من سوء ما بشر به ، وقد يتعدى هذا المأفون طوره فيدس هذه المولودة في التراب ، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد ، ويزعمون أنهم إناث وهكذا تنشأ الخرافة وتتفرع في عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهي . استمع إلى الآيات التالية تحكي هذه الخرافة وتناقش أصحابها ﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وانهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبین ﴾ (٢)

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ سنكتب شهادتهم ويسألون ﴾ (٣)

لا يأكلون ولا يشربون

أشرنا من قبل أنهم لا يوصفون بالذكورة والأنوثة ، وكذلك هم لا يحتاجون إلى طعام البشر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣ : ١٠ كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدر - ط / دار إحياء الكتب العربية

(٢) الصافات الآيات : ١٤٩ - ١٥٦

(٣) الزخرف آية : ١٩

وشرابهم ، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاءوا إبراهيم في صورة بشر ، فقدم لهم الطعام ، فلم تمتد أيديهم إليه ، فاجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم ، فزال خوفه واستغرابه : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فاجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾^(١) وفي آية أخرى قال : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾^(٢)

لا يملون ولا ينعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته ، وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى في وصف ملائكته : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾^(٣) ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفي الآية الأخرى ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ تقول العرب : سئم الشيء أى مله .

منازلهم

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾^(٤) وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾^(٥) وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيّطت لهم ، ووكلت إليهم : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾^(٦) ويكثر نزولهم في مناسبات خاصة ، كليلة القدر ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾^(٧)

عددهم

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾^(٨) وإذا أردت أن تعلم كثرتهم ، فاسمع ما قاله ﷺ في البيت المعمور الذى في السماء السابعة : (فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)^(٩) رواه البخارى ومسلم وفي صحيح مسلم عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام

(١) الذاريات الآيات : ٢٤ - ٢٨

(٤) الشورى آية : ٥

(٢) هود آية : ٧٠

(٦) مريم آية : ٦٤

(٣) الأنبياء آية : ٢٠

(٧) القدر الآيتان : ٣ ، ٤

(٥) فصلت آية : ٣٨

(٨) المدثر آية : ٣١

(٩) أخرجه البخارى ومسلم : مسلم ج ١ ص ١٥٠ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة رقم ٢٦٤ /

سبعون ألف ملك يجرونها^(١) فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك . وإذا تأملت في النصوص الواردة في الملائكة التي تقوم على الانسان - علمت مدى كثرتهم - فهناك ملك موكل بالانطفة ، وملك لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكي لهدايته وإرشاده .

أسماءهم

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل وهنا بعض الآيات التي ورد فيها أسماء بعض الملائكة :

١ ، ٢ - جبريل وميكائيل :

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾^(٢) وجبريل هو الروح الأمين المذكور في قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾^(٣) وهو الروح المعنى في قوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾^(٤) وهو الروح الذي أرسله إلى مريم : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾^(٥)

٣ - إسرافيل :

ومن الملائكة إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وجبريل وميكائيل وإسرافيل هم الذين كان يذكرهم الرسول ﷺ في دعائه كلما استيقظ من الليل (اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)^(٦)

٤ - مالك :

ومنهم مالك خازن النار ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾^(٧)

(١) أخرجه مسلم : ج ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب في شدة حر نار جهنم رقم ٢٨٤٢/٢٦

(٢) البقرة ١ : ٩٧/٩٨

(٣) الشعراء الآية : ١٩٣/١٩٤

(٤) القدر آية : ٤

(٥) مريم آية : ١٧

(٦) أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ رقم ٣٤٢٠ كتاب الدعوات باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، أبو داود في كتاب الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء النسائي ، قيام الليل وتطوع

النهار باب بأي شيء تستفتح صلاة الليل ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها : باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل .

(٧) الزخرف آية : ٧٧

٥ - رضوان :

قال ابن كثير : (وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث)

٦ ، ٧ - منكر ونكير :

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول - ﷺ - منكر ونكير ، وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر .

٨ ، ٩ - هاروت وماروت

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماروت) قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾^(١) ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس في فترة من الفترات وقد نسجت حولهما في كتب التفسير أساطير كثيرة ، لم يثبت شيء منها في الكتاب والسنة ، فيكتفى في معرفة أمرهما مادلت عليه الآية الكريمة .

عزرائيل :

وقد جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ، ولا يوجد في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم .

رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد ، استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾^(٢) وما ذكره غير صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد : أى ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد وليس المراد أنها اسمان للملكين .

* هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾^(٣) فالملائكة تشملهم الآية لأنهم في السماء ، يقول ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (هذه النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهود ، ثم يقبض أرواح الباقين ، حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : لمن الملك اليوم ؟

(١) البقرة آية : ١٠٢

(٢) ق الآيةان : ١٧ / ١٨

(٣) الزمر آية : ٦٨

ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ وما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾^(١)

وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا ما لا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

الصفات الخلقية

- الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ بأيدي سفرة ﴾^(٢) أى القرآن بأيدي سفرة : أى الملائكة : لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه قال البخارى : (سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم) وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفر الذى يصلح بين القوم ، وقد وصف الله هؤلاء الملائكة بأنهم ﴿ كرام بررة ﴾ أى خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .
وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق ، له أجران)^(٣) أخرجه الجماعة .
- استحياء الملائكة :

من أخبار الملائكة التى أخبرنا الرسول - ﷺ - بها : الحياء فى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه عن عائشة أن الرسول - ﷺ - كان مضجعاً فى بيتها كاشفاً عن فخذه أوساقه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدث . . ثم استأذن عثمان ، فجلس الرسول - ﷺ - وسوى عليه ثيابه ، فدخل ، فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر ، فلم تهش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)^(٤)

قدراتهم

- قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم ، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم فى صورة بشر : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾^(٥) وإبراهيم عليه السلام - جاءته الملائكة فى صورة بشر ، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

(١) القصص آية : ٨٨

(٢) عيسى الأيتان : ١٥ - ١٦

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب فضائل الصحابة باب فضل عثمان رقم ٢٤٠١ / ٣٦

(٥) مريم الأيتان : ١٦ - ١٩

وجاءوا إلى لوط في صورة شباب حسان الوجوه ، وضاق لوط بهم وخشى عليهم من قومه ، فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات ويأتون الذكران من العالمين ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ، وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عاصيب ﴾ (١)

يقول ابن كثير : (تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان امتحانا واختباراً ، حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر) وقد كان جبريل يأتي الرسول - ﷺ - في صفات متعددة ، فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي (صحابي كان جميل الصورة) وتارة في صورة اعرابي . وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتي كذلك .

ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام ، وفي الحديث أنه سأل عن الايمان والإحسان والساعة وأماراتها .

وقد أخبر الرسول فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم . (٢)

ورأت عائشة الرسول واضعاً يده على معرفة فرس دحية الكلبي يكلمه فلما سألته عن ذلك قال - ﷺ - ذاك جبريل وهو يقرؤك السلام (٣)

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكموا فيه ملكاً جاءهم في صورة آدمي ، يقول عليه السلام (فجاءهم الملك في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له) ولا بد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك في صورة آدمي (٤) .

- عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة (١٨٦) ألف ميل في الثانية الواحدة .

أما سرعة الملائكة فهي فوق ذلك ، وهي سرعة لا تقاس بمقاييس البشر .

كان السائل يأتي إلى الرسول - ﷺ - فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة سبحانه وتعالى ، واليوم لو وجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

(١) هود آية : ٧٧

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الإيمان والإسلام والإحسان

أخرجه أبو داود كتاب السنة . باب في القدر . والنسائي في كتاب بالإيمان باب بعث الاسلام

أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٨ كتاب الإيمان باب ما جاء في وصف جبريل رقم ٢٦١٠ ما جاء في المقدمة بالإيمان

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب في فضل عائشة رقم ٢٤٤٧/٩٠

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثرت قتلته رقم ٢٧٦٦/٤٦

- علمهم :

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه ، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (١)
فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشافه سنن الكون ، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى .

ولكن الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان ومن العلم الذي أعطوه علم الكتابة ، ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (٢)

اختصاص الملائكة الأعلى

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ، ففي سنن الترمذي ومسنده أحمد عن ابن عباس أن الرسول ﷺ قال : « أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ، فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفي ، حتى وجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، فقال : يا محمد : هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : نعم ، في الكفارات والدرجات . »

(والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الأقدام إلى الجماعات ، واسباغ الوضوء في المكاره)

قال : صدقت يا محمد ، ومن فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليّ ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون .
والدرجات : افشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام (٣)

قال ابن كثير في هذا الحديث : (هذا حديث المنام المشهور ، ومن جعل يقظة فقد غلط)
وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن في قوله تعالى ﴿ ما كان لي من علم بالملائكة الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ (٤)

(١) البقرة الآيتان : ٣١ - ٣٢

(٢) التكوين الآيتان : ١٠ - ١٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ١ ص ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، ج ٤ ص ٦٦ انظر سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٤٢ كتاب تفسير القرآن - سورة ص رقم ٣٢٣٣

(٤) سورة ص الآيتان : ٦٩ / ٧٠

فإن الاختصاص المذكور في الحديث قد فسرهُ الرسول ﷺ والإختصاص المذكور في القرآن فسره الآيات بعده : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . . . ﴾^(١) فالإختصاص المذكور في القرآن كان في شأن آدم - عليه السلام - وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه .

منظمون في كل شئونهم

الملائكة منظمون في عبادتهم وقد حثنا الرسول - ﷺ - على الاقتداء بهم في ذلك فقال . (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم ؟ قالوا : (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون في الصف) رواه الجماعة « إلا البخاري »^(٢) وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن (جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) الحديث في صحيح مسلم . وفي يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾^(٣) ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾^(٤) والروح جبريل وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر ، في صحيح مسلم وفي مسند أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (آت باب الجنة فاستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك)^(٥) ويمكن أن نلاحظ دقة تنفيذهم للأوامر من استعراض حديث الاسرار إذ كان جبريل يستأذن في كل سماء ولا يفتح له إلا بعد الاستفسار .

(١) سورة ص الآيات : ٧١ / ٧٤

(٢) أخرجه مسلم ج ١ ص ٣٢٢ كتاب الصلاة باب الأمر بالسكون في الصلاة رقم ٤٣٠ / ١١٩

(٣) الفجر آية : ٢٢

(٤) النبأ آية : ٣٨

(٥) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٨٨ كتاب الإيمان - باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته رقم ١٩٨ / ٣٣٤ .

الفصل الثاني

٢ - عبادة الملائكة

نظرة في طبيعة الملائكة

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ، ليست لديهم القدرة على العصيان ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾^(١)

فتركهم للمعصية ، وفعلهم للطاعة جبلة ، لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم .
لعل هذا هو السبب ، الذي دعا فريقاً من العلماء إلى القول بأن الملائكة ليسو بمكلفين ، وأنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسو بمكلفين بنفس التكليف ، التي كلف بها أبناء آدم ، أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً ، فهو قول مردود ، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾^(٢) وفي الآية أنهم يخافون ربهم ، والخوف نوع من التكليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم : ﴿ وهم من خشية ربهم مشفقون ﴾^(٣)

مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة ، أنهم عباد الله ، ولكنهم مكرمون ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن دعوى المشركين في أن الملائكة بنات الله ، دعوى باطلة ، لا نصيب لها من الصحة ، وقد أكذب الله القائلين لهذا القول ، وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾^(٤) الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية ، قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط ، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون ، وعلى احتمال أن بعضهم تعدى طوره ، فإن الله يعذبه جزاء تمرده .

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين ، ولا يعترضون على أمر من أوامره ، بل هم عاملون بأمره ، مسارعون مجيئون ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾^(٥) وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال :

(١) التحريم آية : ٦

(٢) النحل آية : ٥٠

(٣) الأنبياء آية : ٢٨

(٤) الأنبياء الآيات : ٢٦ - ٢٩

(٥) الأنبياء آية : ٢٧

قال رسول الله ﷺ لجبريل (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟) قال : فنزلت : (وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً)^(١)

نماذج من عبادتهم

الملائكة عباد الله ، مكلفون بطاعته ، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة ونورد هنا بعض العبادات التي حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .

التسبيح

الملائكة يذكرون الله تعالى ، وأعظم ذكرهم التسبيح ، يسبحه تعالى حملة عرشه ، ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحونه بحمد ربهم ﴾^(٢) كما يسبحه عموم ملائكته : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾^(٣) وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾^(٤) ولكثرة تسبيحهم ، فإنهم هم المسبحون في الحقيقة ، وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾^(٥) وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر ، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر ، قال سئل رسول الله ﷺ أي الذكر أفضل ؟ قال : (ما اصطفى الله لملائكته أولعباده : سبحان الله وبحمده)^(٦)

صلاتهم

كان النبي ﷺ يحث أصحابه على الاقتداء بالملائكة في الاصطفاف للصلاة : (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟) وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال : (يتمون الصف الأول فالأول ويتراصون في الصف) رواه البخاري^(٧)

وفي القرآن عن الملائكة : ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾^(٨) وهم يقومون ويركعون ويسجدون ، ففي

(١) مريم آية : ٦٤

(٢) غافر آية : ٧

(٣) الشورى آية : ٥

(٤) الأنبياء آية : ٢٠

(٥) الصافات الآيتين : ١٦٥ / ١٦٦

(٦) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٢٧٣١ / ٨٤

(٧) أخرجه البخاري :

(٨) الصافات آية : ١٦٥

شكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال :
(بينما رسول الله فى أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع ؟ قالوا : ما نسمع من شيء ، قال :
إنى لأسمع أطيط السماء ، وما تلام أن تنط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)^(١)

حجّهم

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون إليها ، هذه الكعبة التى أسماها الله تعالى البيت المعمور ، وأقسم به فى سورة الطور ﴿والبيت المعمور﴾^(٢)

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : (ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم)^(٣)) يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزء من جنس العمل) وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة ، أى فوقها لو وقع لوقع عليها ، وذكر أن فى كل سماء بيتاً يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذى فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة .

وهذا الذى ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروى عن على بن أبى طالب ، أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعة أن رجلاً قال لعلى : ما البيت المعمور ؟ فقال : (بيت فى السماء يقال له الصّراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمة فى السماء كحرمة البيت فى الأرض ، يصلّى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ولا يعودون فيها أبداً) .

خوفهم من الله وخشيتهم له

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة ، كان تعظيمهم له ، وخشيتهم له عظيمة ، قال الله فيهم : ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾^(٤)

ويبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
(إذا أراد الله أن يوصى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة ، أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد)^(٥)

(١) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٣٢ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة

(٢) الطور آية : ٤

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الإيمان باب لإسراء برسول الله ﷺ رقم ١٦٢ / ٢٥٦

(٤) الأنبياء آية : ٢٨

(٥) أخرجه ابن عاصم فى السنة ج ١ ص ٢٢٧

الفصل الثالث

٣ - الملائكة والإنسان

الملائكة وآدم

- سؤالهم عن الحكمة من خلق الانسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم ، أعلم ملائكته بمبراده ، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك ، لأنهم علموا أنه سيقع من بني آدم إفساد وسفك دماء ، وعصيان وكفر ، فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكم لا يعلمونها : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (١)

- سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، حين يتم خلقه ، وتنفخ فيه الروح ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٢) وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ (٣)

- توجيه الملائكة لآدم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : إذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله قال : (فزادوه ورحمة الله) (٤) متفق عليه

- غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفي آدم ، لم يعرف أولاده كيف يفعلون به ، فأعلمتهم الملائكة ، ففي مستدرك الحاكم ، ومعجم الطبراني الأوسط . بإسناد صحيح عن أبي رضي الله عنه عن النبي ﷺ : (لما توفي آدم ، غسلته الملائكة بالماء وتراً وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم في ولده) (٥)

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) ص الآيتان : ٧١ / ٧٢

(٣) الآيتان : ٧٣ / ٧٤

(٤) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢١٨٣ كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل أفئدة الطير رقم ٢٨ / ٢٨٤١

(٥) أخرجه : الحاكم في مستدركه ج ٢ ص ٤٤٥ كتاب التاريخ

وقد ثبت في صحاح الحديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبي عامر الذي استشهد في معركة أحد ، فقد قال الرسول ﷺ لأصحابه بعد مقتل حنظلة : (إن صاحبكم تغسله الملائكة - يعنى حنظلة) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائلة وهو جنب فقال رسول الله ﷺ (لذلك غسلته الملائكة)^(١) رواه الحاكم والبيهقي في السنن واسناده حسن .

الملائكة وبنى آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة ، فهم يقومون عليه عند خلقه ، ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ، ويأتونه بالوحي من الله ، ويراقبون أعماله وتصرفاته ، وينزعون روحه إذا جاء أجله . وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل والبيان :

- دورهم في تكوين الانسان :

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا مرّ بالنطفة إثنين وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكاً ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : أى رب ؟ ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك)^(٢)

وفي صحيح البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق : (إن أحدكم يجمع خلقه وهو في بطن أمه أربعون يوماً ، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات تكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد)^(٣)

وفي الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : (وكل الله تعالى بالرحم ملكاً فيقول : (أى رب نطفة ، أى رب علقه ، أى رب مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه)^(٤)

- حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾^(٥) وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس ، أن المعقبات من الله هم الملائكة ، جعلهم الله ليحفظوا الانسان من أمامه ومن ورائه ، فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه ، خلوا عنه .

(١) أخرجه : الحاكم في مستدركه جـ ٣ ص ٢٠٤

(٢) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٧ كتاب القدر باب كيفية الخلق الأدمى رقم ٢٦٤٥ / ١

(٣) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية الخلق الأدمى رقم ٢٦٤٣ / ١

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٢ ص ٢٣٨ كتاب القدر رقم ٢٦٤٦ / ٥

(٥) الرعد الآيتان : ١١ / ١٠

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك ، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه)
وقال رجل لعلي بن أبي طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك ، فقال علي : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة) .
والمعقبات المذكورة في آية الرعد هي المرادة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ (١) فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له .

- يبلغون وحى الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ (٢)
وقال : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ (٣)

وقد يأتي بالوحي غير جبريل - وهذا قليل - كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : (بينما جبريل قاعد عند النبي - ﷺ - سمع نقيضات من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته) (٤)

وفي التاريخ لابن عساكر باسناد صحيح عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أتاني ملك فسلم علي ، نزل من السماء لم ينزل قبلها ، فبشرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » (٥) .

وفي مسند أحمد والترمذي والنسائي عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أما رأيت العارض الذي عرض لي قبيل ؟ هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة ، أستأذن ربه عز وجل أن يسلم علي ، ويبشرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » (٦) .

(١) الأنعام آية : ٦١

(٢) البقرة آية : ٩٧

(٣) الشعراء الآيتان : ١٩٣ / ١٩٤

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين وقصورها باب فضل فاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٨٠٦ / ٢٥٤

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣١٧ / ٤

(٦) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ٣٩١

وفي المسند وسنن الترمذى بإسناد صحيح عن أبي بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : « أتانى جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقلت زدني ، فقال : اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل ، استزده فقلت : زدني ، كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف » (١) .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبي :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولاً أو نبياً ، فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم ، كما أرسله إلى أم إسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها .

ورأى الصحابة جبريل في صورة أعرابي ، وأرسل الله ملكاً إلى ذلك الرجل الذي زار أخاً في الله يبشره بأن الله يحبه لحبه أخيه . وهذا كثير وإنما المراد التنبيه .

كيف كان يأتي الوحي الرسول ﷺ ؟

سأل الحارث بن هشام رضى الله عنه ، الرسول - ﷺ - فقال : « يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ »

فقال الرسول ﷺ :

« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول » (٢) .

فجبريل كان يأتي الرسول - ﷺ - ويتصل به وهو في حالته الملكية ، وهذه شديدة على الرسول - ﷺ - والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية إلى البشرية ، وهذه أخف على الرسول - ﷺ - وقد رأى الرسول - ﷺ - جبريل على صورته التي خلقه الله عليها مرتين ، مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك في صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « بينما أنا أمشى ، إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت ، فقلت : زملونى » (٣) . والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء ، وهاتان المرتان مذكورتان في سورة النجم : ﴿ علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه ﴾

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ٤١ ، ١١٤ مشكل الآثار للطحاوى ١٨٩/٤ الأحاديث الصحيحة للالبانى ٨٤٣

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٧ كتاب الفضائل - باب عرق النبى ﷺ - في البرد وحين يأتيه الوحي - رقم ٢٣٣٣/٨٧ .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٤٣ كتاب الايمان باب بدء الوحي رقم ١٦١/٢٥٥

نزلة أخرى عند سدره المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدره ما يغشى ، مازاغ البصر وما طفى^(١) .

- لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي من الله تعالى ، فقد كان يأتيه في كل عام في رمضان في كل ليلة من لياليه ، فيدارسه القرآن^(٢) حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه .

- إمامته للرسول :

وقد أم جبريل الرسول ، كي يعلمه الصلاة ، كما يريد الله تعالى :
ففى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « نزل جبريل فأمنى فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس مرات »^(٣) وفى مسند أحمد وسنن النسائي وأبى داود عن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : « أمنى جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بى حين زالت الشمس ، وكانت قدر الشراك ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد ، صلى بى الظهر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشيء مثليه ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بى العشاء إلى ثلث الليل ، وصلى بى الفجر فأسفر . ثم التفت إلى وقال : يا محمد : هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين »^(٤) .

ولم يعلمه كيفية الصلاة عملياً وأوقاتها فحسب ، بل علمه الوضوء ، ففى مسند أحمد ومستدرک الحاكم عن زيد بن حارثة أن الرسول - ﷺ - قال : « أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى ، فعلمنى الوضوء والصلاة ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه »^(٥) .

- رقيته للرسول ﷺ :

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم ، قال : بسم الله أرقيك ، من كل ما يؤذيك ، من شر كل ذى نفس ، وعين حاسد ، بسم الله أرقيك ، والله يشفيك »^(٦) .

(١) النجم الآيات : ١٧-٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٤ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة .

(٤) أخرجه البخارى بمعناه ج ١ ص ١٣١ باب مواقيت الصلاة .

(٥) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع برقم ٢٧٠

(٦) أخرجه الترمذى ج ٣ ص ٣٠٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٢

كما أخرجه ابن ماجة - كتاب الطب باب ماعوذ منه النبى ﷺ رقم ٣٥٢٣

أعمال أخرى :

ومن ذلك أنه حارب مع الرسول في بدر والخندق ، وصحب الرسول ﷺ في الأسراء وغير ذلك .

- تحريك بواعث الخير في نفوس العباد :

وكل الله لكل انسان قريناً من الملائكة ، وقريناً من الجن ، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني الا بخير »^(١) ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله ، قيضه الله له ليهديه ويرشده .

وقرين الانسان من الملائكة ، وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم . وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان ، فإبعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم)^(٢) .

وانظر إلى الحديث التالى ، كى تعرف كيف يتسابق القرين الجنى ، والقرين الملكى على توجيه الانسان ، ذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : (ختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه النوم طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإذا قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد ما أماتها ، ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه)^(٣) .

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢١٦٧ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان رقم ٢٨١٤/٦٩

(٢) أخرجه الترمذى ج ٥ ص ٢٠٤ كتاب التفسير باب تفسير سورة البقرة رقم ٢٩٨٨

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه رقم ٢٣٦٢

الترغيب والترهيب ج ١ ص ٤١٥

وهذه الأحاديث توجهنا إلى الاكثار من الأعمال الخيرة ، التي تصلح نفوسنا ، وتقرب الملائكة منا ، ففي قرب الملائكة منا خير عظيم ، فقد (كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)^(١) رواه البخارى عن ابن عباس .

- حفظ أعمال بنى آدم :

الملائكة موكلون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾^(٢) وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين ، لا يفارقانه ، يحصيان عليه أعماله وأقواله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾^(٣) .

ومعنى قعيد أى مترصد ، ورقيب عتيد ، أى مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت ، والظاهر أن الملائكة الموكلة بالإنسان ، تكتب كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال ، لا يتركون شيئا ، لقوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ .

ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل ما صدر منه ، ولذلك فإن الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين : ﴿ يا وليتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا ﴾^(٤)

وفى مسند أحمد عن بلال بن الحارث المزني - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ﴿ إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله - عز وجل - له بها رضاه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ولا يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ﴾^(٥) . فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث .

وذكر ابن كثير في تفسيره عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ ثم قال : يا بن آدم : بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن

(١) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة جـ ٤ ص ١٢٨ .

(٢) سورة الانفطار الآيتان : ١٠ - ١١ .

(٣) سورة قى الآيات : ١٦ - ١٨ .

(٤) سورة الكهف آية : ٤٩ .

(٥) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب خ من تكلم بكلمة يضحك بها على الناس رقم ٢٣١٤ .

يسارك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ السيئات ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفةك وجعلت في عنقك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾^(١) .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : يكتب كل ماتكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت . حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر والقي سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾^(٢) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يثن في مرضه ، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين ، فلم يثن أحمد حتى مات ، رحمه الله .

- صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات

في معجم الطبراني باسناد حسن عن أبي أمامه أن رسول الله - ﷺ - قال : ﴿ إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطيء ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة ﴾^(٣) .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى : ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾^(٤)

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه ، يقول رسول الله - ﷺ - : (قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة فلم يفعلها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرا)^(٥) .

وفي الحديث الآخر المتفق عليه أيضا : (قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به ، فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائي)^(٦) .

(١) سورة الاسراء الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الرعد آية : ٣٩

(٣) أخرجه الميثمي في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٧ ، الطبراني في المعجم الكبير ج ٨ ص ٢١٨ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١٢٠٩

(٤) سورة الانفطار آية : ١٢

(٥) أخرجه مسلم ج ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة رقم ١٢٨/٢٠٤ ب (٦) أخرجه مسلم ج ١ ص ١١٧ ، ١١٨ كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ١٢٨/٢٠٥

شبهة

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾^(١) .
 فالجواب : أن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى ، فهو وإن خفى عن البشر ، فلا يعلم واحد منهم ما في ضمير أخيه ، فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة .
 وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما في الصدور ، وهو الإرادة والقصد ، أما بقية الأمور كالاعتقادات ، فلا دليل على كونها تعلمها .

دعوة العباد إلى فعل الخير

في صحيح البخارى ، عن أبي هريرة ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً ثلثاً)^(٢) .

وذكر ابن حجر فى شرحه للحديث رواية أخرى عن أبى الدرداء وفيها : (ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، إن ما قل وكفى خير مما كثر وأهمل ، ولا غربت شمسك إلا وبجنتها ملكان يناديان)^(٣) فذكر مثل حديث أبى هريرة السابق .

ابتلاء بنى آدم

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ، ففى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع النبى ﷺ يقول : (إن ثلاثة من بنى اسرائيل : ابرص وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يتليهم فأرسل اليهم ملكاً فأتى الأبرص ، فقال : أى شئ أحب إليك ، فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذى قدرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ، قال : الابل ، أو قال البقر ، فأعطى ناقة عشراء (أى حامل) . فقال : بارك الله لك فيها .
 فأتى الأقرع فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني الذى قدرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر فأعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى فقال : أى شئ أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس ، فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطى شاة والدا فأنجج وولّد هذا .

(١) سورة غافر آية : ١٩

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة - باب فى المتفق والمسك رقم ١٠١٠/٥٧

(٣) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤٩/٢

فكان لهذا واد من الأبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثم أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفرى ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، بغيرا أتبلغ به في سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرک الناس ، فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد هذا . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بي الحبال في سفرى ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرک : شاة أتبلغ بها في سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ماشئت ودع ماشئت ، فوالله لأجهدك اليوم بشيء أخذته الله عز وجل ، فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك (١) .

الملائكة تنزع روح الانسان

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد ، عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم ، قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ (٢)

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (٣) .

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين ، نزعا شديدا عنيفا بلارفق ولا هوادة قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذ توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (٦) أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رقيقا .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٢٢٧٦ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢٩٦٤/١٠

(٢) سورة السجدة آية : ١١

(٣) سورة الانعام الآيتان : ٦١-٦٢

(٤) سورة الانعام آية : ٩٣

(٥) سورة الانفال آية : ٥٠

(٦) سورة محمد آية : ٢٧

تبشيرهم المؤمنين عند النزاع

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن ، فإن الملائكة تنزل عليه تبشره وتثبته قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾^(١)

وهي تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم : ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾^(٢) .

موسى يفتأ عين ملك الموت

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران ، فقال له : أجب ربك . قال : (فلطم موسى عين ملك الموت ففقاها) قال : (فرجع الملك إلى الله ، فقال : إنك أرسلتني إلى عبدك لا يريد الموت ، وقد فقا عيني) قال : « فرد الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة » .

وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة (قال ثم مه ؟ قال : ثم تموت . قال : فالآن من قريب)^(٣) .

وملك الموت إنما جاء موسى فى صورة انسان كما فى رواية صحيحة فى المسند وهو الذى فعله موسى لأن الأنبياء يخبرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ما عند الله . وقد يبادر بعض الناس إلى التكذيب بمثل هذه الرواية ، لأن عقولهم لا تستسيغها ، وقد نسوا أن أول صفات المؤمنين ، أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك فى مطلع سورة البقرة ، فإذا صح الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾^(٤)

سؤالهم العبد فى القبر وما يكون منهم فى المحشر والجنة والنار

سيأتى فى مبحث الايمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى ، ما يكون من الملائكة نحو العباد بعد الموت من سؤال الملكين للعبد فى قبره ، وهذان هما منكر ونكير ، وأن منهم ملائكة ينعمون العباد فى قبورهم ، وآخرين يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين فى يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل فى الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار فى النار . وسلامهم على المؤمنين فى الجنة .

(١) سورة فصلت الآيتان : ٣٠ - ٣١

(٢) سورة الانعام آية : ٩٣

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٨٤٣ كتاب الفضائل باب من فضائل موسى عليه السلام رقم ٢٣٧٢/١٥٨

(٤) سورة آل عمران آية : ٧

الملائكة والمؤمنون

تحدثنا في المبحث الماضي عن الدور الذي كلف الله الملائكة القيام به تجاه بنى آدم كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فما ذكرناه من تشكيلهم للنظفة ، وحراستهم للعباد ، وتبليغ الوحي ، ومراقبتهم للعباد وكتابة الأعمال ، ونزع الأرواح ، لا تختص بقسم من بنى آدم دون قسم ، ولا بمؤمن دون كافر .

وللملائكة بعد ذلك دور مختلف مع المؤمنين والكفار ، - وسنتناول دورهم وموقفهم من التريقين بالبيان والتوضيح .

محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبه فإحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض)^(١) .

تسديد المؤمن

روى الترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : (من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسده)^(٢) .

أما كيفية تسديده فالله أعلم به .

ومن هذا الباب مارواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة ، تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله فقال الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ونسى ، فأطاف بهن ، ولم تلد إلا امرأة منهن نصف إنسان قال النبى ﷺ : لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته)^(٣) .

فالملك سدد نبى الله سليمان ، وأرشد الى الأصوب والأكمل .

صلاتهم على المؤمنين

أخبرنا الله أن الملائكة تصلى على الرسول ﷺ : (إن الله وملائكته يصلون على النبى)^(٤) وهم

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده رقم ٢٦٣٧/١٥٧

(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه جـ ٣ ص ٦١٣ ، كتاب الاجتماع باب ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فى التاخي رقم ١٣٢٣

أنظر ابن ماجه كتاب الأحكام رقم ٢٣٠٩

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه جـ ٣ ص ١٢٧٦ كتاب الايمان باب الاستثناء رقم ١٦٥٤/٢٥

(٤) سورة الاحزاب آية : ٥٦

يصلون على المؤمنين أيضا ﴿ هو الذى يصل على عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ (١)

* والصلاة من الله تعالى : ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاية البخارى عن أبى العالية وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة ، وقد يقال : لامنافاة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم ، وهذا ماسنوضحه فيما يأتى .

نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

- معلم الناس الخير :

روى الطبرانى والترمذى بإسناد صحيح عن أبى أمامة أن الرسول ﷺ قال : (إن الله وملائكته حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ، يصلون على معلم الناس الخير) (٢) .

- الذين يؤمنون المساجد للصلاة :

فى صحيح مسلم : (إن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد للصلاة فتقول : اللهم صلّ عليه ، اللهم أرحمه ، مالم يؤذ فيه مالم يحدث فيه) (٣) .

- الذين يصلون فى الصف الأول :

فى سنن أبى داود وابن ماجه ومسنند أحمد عن البراء - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول) . وفى سنن الترمذى (إن الله وملائكته يصلون على الصف المقدم) (٤) .

- الذين يكثرّون فى مصلاهم بعد الصلاة :

روى أبو داود فى سننه بإسناد صحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ولم يحدث ، أو يقيم : اللهم اغفر له ، اللهم أرحمه) (٥) .

- الذين يسنّون الفرج بين الصفوف :

فى سنن ابن ماجه ، ومسنند أحمد ، ومستدرک الحاكم بإسناد حسن عن عائشة أن الرسول ﷺ قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة) (٦)

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٣

(٢) أخرجه الميثمى فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢٤

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٤٦٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٦٤٩/٢٧٦

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٢٦٩ ، ٢٨٤ وعبد الرزاق فى مصنفه رقم ٢٤٥٠

(٥) أخرجه أبوداود فى سننه ج ١ ص ٣١٩ رقم ٤٦٩

(٦) أخرجه ابن ماجه فى سننه برقم ٩٩٥ ، أحمد ج ٦/٦٧ ، ٨٩ ، ١٦٠ والبيهقى فى السنن ج ٣ ص ١٠١ ، ١٠٣ والحاكم ١٢٤/١

- الذين يتسحرون :

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني الأوسط باسناد حسن عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين)^(١)

- الذين يصلون على النبي ﷺ :

روى أحمد في مسنده ، والضياء في المختارة عن عامر بن ربيعة باسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : (مامن عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى على ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر)^(٢)

- الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان في صحيحه باسناد صحيح عن على أن رسول الله ﷺ قال : (مامن امرئ مسلم يعود مسلما إلا ابتعث الله سبعين ألف ملك ، يصلون عليه في أى ساعات النهار كان ، حتى يمسي ، وأى ساعات الليل كان حتى يصبح)^(٣) وفي زواية لأبي داود والحاكم (مامن رجل يعود مريضا ممسيا ، إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، ومن أتاه مصباحا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي)^(٤) .

- هل لصلاة الملائكة علينا من أثر :

يقول تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾^(٥)

الآية تفيد أن ذكر الله لنا فى الملأ الأعلى ، ودعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم له تأثير فى هدايتنا وتخليصنا من الظلمات التى تعنى الكفر والشرك ، والذنوب والمعاصى ، إلى النور ، الذى يعنى وضوح المنهج والسبيل ، وبالتعرف على طريق الحق الذى هو الإسلام ، وتعريفنا بمراد الله منا ، وإعطائنا النور الذى يدلنا على الحق فى الأفعال والأقوال والأشخاص .

- التأمين على دعاء المؤمنين :

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ففى سنن ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : (دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب ، عند رأسه ملك يؤمن على دعائه ، كلما دعا له بخير قال : آمين ، ولك مثله)^(٦) ولما كان الدعاء المؤمن عليه حريا بالإجابة فإنه

(١) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ٣ ص ١٢ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ٣ ص ١٥٠ ابن حبان برقم ٨٨٠ والالب لى سلسله الأحاديث الصحيحة رقم ١٦٥٤

(٢) أخرجه الزبيدى فى انحاف السادة المتقين ٤٨/٥ وأبونعيم فى الحلية ١٨٠/١

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ٢٦٨/٤ رقم ٢٩٤٧

(٤) أخرجه أبوداود ٤٧٥/٣ رقم ٣٠٩٨ والحاكم فى المستدرک ٣٤١/١

(٥) سورة الاحزاب آية : ٤٣

(٦) أخرجه ابن ماجه فى سننه جـ ٢ ص ٩٦٧ رقم ٢٨٩٥

لا ينبغي للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر ، ففي صحيح مسلم عن أم سلمة قال : قال رسول الله ﷺ :
(لا تدعو على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون) . (١)

استغفارهم للمؤمنين :

أخبرنا الله أن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ (٢) .

وأخبر في آية سورة غافر أن حملة العرش والملائكة الذين حول العرش ، ينزهون ربهم ، ويخضعون له ، ويخصون المؤمنين التائبين بالاستغفار ، ويدعونه بأن ينجيهم من النار ، ويدخلهم الجنة ، ويحفظه من فعل الذنوب والمعاصي :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يؤمنند فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٣) .

- شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم :

ففي صحيح البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي - ﷺ - قال : « إن لله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا (٤) .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ : (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده) (٥) .

وفي مسند الامام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعاً : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع) (٦) أي تتواضع له .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب في أغماض الميت والدعاء له ، إذا حضر رقم ٩٢٠/٧

(٢) سورة السورى آية : ٥

(٣) سورة غافر الآيات : ٧ - ٩

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٦٩ ، ٢٠٧٠ كتاب الذكر والدعاء - باب فضل جمالي الذكر رقم ٢٦٨٩/٢٥

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٢٦٩٩/٣٨

(٦) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٤ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

فالأعمال الصالحة كما ترى ، تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد في حالة عالية من السمو الروحي ، لو صلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ، ومصافحتهم كما في الحديث الذي يرويه البخاري وغيرهما عن أنس رضي الله عنه عن النبي - ﷺ :

« لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة » (١) .

« وفي سنن الترمذى عن أبي هريرة بإسناد صحيح : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحالة التى أنتم عليها عندى ، لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم فى بيوتكم ، ولولم تذبوا ، لجاء الله بقوم يذبون كى يغفر لهم » (٢) .

- تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يثمنون الجمع الأول ، فالأول . ففى صحيح البخارى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الامام طواوا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر » (٣) .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى وغيره عن رفاعه بن رافع قال : « كنا يوماً نصلى وراء النبي - ﷺ - فلما رفع رأسه من الركعة قال : « سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف ، قال : من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعا وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها » (٤) .

فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين الذين يسجلون صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لأنهم بضعة وثلاثين ملكاً .

- تعاقب الملائكة فينا :

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون فى الطرق يلتمسون الذكر ويشهدون الجمع والجماعات ، يتعاقبون فينا ، فطائفة تأتى وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيح البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢١٠٦ كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة رقم ٢٧٤٩/٢١

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل ودام الذكر والفكر فى أمور الآخرة رقم ٢٧٥٠/١٢

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه ج ٢ ص ٥٨٧ كتاب الجمعة باب فضل التهجر فى يوم الجمعة رقم ٨٥٠/٢٤

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٣٣ ، ج ٢ ص ١٨ ، ١٤٧

وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم ، فيقول : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون « (١) .

ولعل هؤلاء هم الذين يرفعون أعمال العباد إلى ربهم . ففي البخارى ومسلم ، عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « قام فينا رسول الله - ﷺ - بأربع كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار » (٢) - الحديث .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها . قال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ (٣) .

- تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزل من السماء حين يقرأ القرآن فعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو في ليلة يقرأ في مريده (الجرن) إذ جالت (وبثت) فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت أن تطأ بحى فقممت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها فقال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة عند جوف الليل أقرأ في مربدى إذ جالت فرسى فقال رسول الله ﷺ : (أقرأ يا ابن حضير) قال : فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ : (أقرأ يا ابن حضير) قال : فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ : (أقرأ يا ابن حضير) قال : فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ : (تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ماتستتر منهم) (٤) رواه البخارى ومسلم ، ابلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : (إن لله ملائكة سياحين يبلغون عن أمتى السلام) (٥) .

وفي معجم الطبرانى الكبير باسناد حسن عن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ قال : (إن لله تعالى ملكا أعطاه سمع العباد فليس من أحد يصلى على إلا بلغنيها وإنى سألت ربى ألا يصلى على عبد صلاة إلا صلى عليه عشر أمثالها) (٦)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ١ ص ٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر رقم ٢١٠-٢٣٢ - انظر صحيح البخارى جـ ٢ ص ٢١٣ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ١ ص ١٦٢ كتاب الايمان - باب في قوله عليه السلام - الله لا ينام الله لا ينام رقم ٢٩٥/١٧٩

(٣) سورة الاسراء آية : ٧٨

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ١ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب نزول السكينة لقراءة القرآن رقم ٢٤٢/٧٩٦

(٥) أخرجه الامام أحمد في مسنده جـ ١ ص ٤٥٢ ، جـ ٢ ص ٢٥١

انظر السنن الكبرى للنسائى جـ ٣ ص ٤٣ كتاب الصلاة - باب السلام على النبى ﷺ .

(٦) أخرجه السيوطى في جمع الجوامع رقم ٦٩٤٧

أخرجه الذهبى في ميزان الاعتدال ترجمة اسماعيل بن ابراهيم رقم ٨٢٩ جـ ١ ص ٢١٣

تبشيرهم المؤمنين : فقد حملوا البشرى إلى إبراهيم فإنه سيرزق بذرية صالحة ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴿^(١) وبشرت زكريا ببيحي ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب إن الله يشرك ببيحي ﴿^(٢) وليس هذا مقصورا على الأنبياء والمرسلين بل قد تبشر المؤمنين ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (زار رجل أخا له فى قرى أخرى فأرصد الله له على مدرجته (طريقة) ملكا فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : (لا غير أنى أحبته فى الله عز وجل . قال : فأتى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه)^(٣)

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (أتانى جبريل فقال : يا رسول الله ! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى قد أتتك فأقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها بيت فى الجنة من قصب لا صخب فيها ولا نصب)^(٤) .

الملائكة والرؤيا فى المنام : روى البخارى فى صحيحه فى باب التهجد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنها قال : (كان الرجل فى حياة النبى ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ وكنت غلاما شابا وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار فإذا هى مطوية كطى البثر وإذا لها قرنان وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار قال : فلقينا ملك آخر فقال لى : لا ترع)^(٥) أى لا تخف .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (قال لى رسول الله ﷺ : (أريتك فى المنام يحىء بك الملك فى سرقة من حرير فقال لى : هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هى فقلت : إن يك هذا من الله يتمه)^(٦) .

يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم فى حربهم : وقد أمد الله المؤمنين بأعداد كثيرة من الملائكة فى معركة بدر قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴿^(٧) وقال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنت أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفىكم أن

(١) سورة الذاريات الآيات : ٢٤ - ٢٨

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٩

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة وآداب باب فضل الحب فى الله رقم ٢٥٦٦/٣٧

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - رقم ٢٤٣٢/٧١

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٢ ص ٦١ كتاب الجمعة باب التهجد بالليل .

(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٨٨٩ ، كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رقم ٢٤٣٨/٧٩

(٧) سورة الانفال آية : ٩

يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴿١﴾ .

وقد قال الرسول ﷺ : في يوم بدر : « هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب » ﴿٢﴾ وقد بين الله الحكمة والغاية من هذا الامداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال اعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم وأيديهم قال تعالى : ﴿ وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ ﴿٣﴾

وقال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فا ضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال في سورة آل عمران : ﴿ وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين ﴾ ﴿٥﴾ . وقد رأى الرسول ﷺ - الملائكة في يوم بدر ففى صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضى الله عنه وهما يدعوان أخذت الرسول - ﷺ - سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال : (أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثنياه النقع) ﴿٦﴾ .

وقد سمع أحد المقاتلين من المسلمين ، صوت ضربة لملك يضرب أحد الكفار وصوته ، وهو يزجر فرسه ، ففى صحيح مسلم عن ابن عباس (بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط ، فأخضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله - ﷺ - فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة) ﴿٧﴾ .

وقد حاربت الملائكة في مواقع أخرى ففى غزوة الخندق أرسل الله ملائكته : قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا و جنوداً لم تروها ﴾ ﴿٨﴾ . والمعنى بالجنود التى لم يروها الملائكة كما ثبت في الصحيح وفي غيرها أن جبريل جاء الرسول - ﷺ - بعد رجوع الأحزاب وعلى ثنياه جبريل النقع (الغبار) وكان الرسول - ﷺ - يغتسل فقال للرسول - ﷺ - (أوضعتم سلاحكم فإننا لم نضع سلاحنا بعد فقال إلى أين فأشار إلى بنى قريظة)

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٢٣ - ١٢٥ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه جـ ٥ ص ١٠٣ باب شهود الملائكة بدرأ .

(٣) سورة الانفال آية : ١٠ .

(٤) سورة الانفال آية : ١٢ .

(٥) سورة آل عمران الآيتان : ١٢٦ - ١٢٧ .

(٦) أخرجه ابن كثير جـ ٣ ص ٥٦٣ ، دلائل النبوة للبيهى جـ ٣ ص ٥٤ .

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٣ ص ١٣٨٥ - كتاب الجهاد والسير باب الامداد بالملائكة في غوة بدر رقم ١٧٦٣/٥٨ .

(٨) سورة الأحزاب آية : ٩ .

حمايتهم للرسول ﷺ : روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قال : فقل نعم فقال : والللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك ، لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه في التراب قال : فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلى يزعم ليظاً على رقبته ، قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ، ويتقى بيديه قال : فقل له : مالك ، فقال إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولاً واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - (لودنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)^(١) . ورواه البخارى في صحيحه بأخصر من رواية مسلم في كتاب التفسير .

حمايتهم ونصرتهم لصالحى العباد وتفريج كربهم : وقد يرسلهم الله لحماية بعض عباده الصالحين من غير الأنبياء والمرسلين ، وقد يكون من هذا ما حصل لرجل ذكر ابن كثير خبره ، ففى تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ قال : ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى ، قال هذا الرجل : كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزبدانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لى : خذ فى هذه فإنها أقرب ، فقلت : لا خبرة لى فيها ، فقال : بل هى أقرب ، فسلكناهما فانتبهنا إلى مكان وعمر ، ودار عميق ، وفيه قتلى كثيرة ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل ، فنزل وتشمم وجمع عليه ثيابه ، وسل سكيناً معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه . وتبعنى ، فناشدته الله وقتل : خذ البغل بما عليه ، فقال هو لى ، وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة ، فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت : إنى أريد أن تتركنى حتى اضلى ركعتين ، فقال : عجل فقممت فارتج على القرآن ، فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفاً متحيراً ، وهو يقول : هيه أفرغ ، فأجرى الله على لسانى قوله : (أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ويده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعاً ، فتعلقت بالفارس ، وقتل بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذى يجيب المضطر إذ دعاه ويكشف السوء .

قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً ، ومن ذلك أرسل الله جبريل لاغاثة أم اسماعيل فى مكة ففى صحيح البخارى عن ابن عباس فى قصة مهاجرة إبراهيم بابنه اسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة (وهى قصة طويلة) أن أم اسماعيل ، سعت سعى الانسان المجهود بين الصفا والمروة سبع مرات ، تبحث عن الماء فلما أشرفت على المروة ، سمعت صوتاً ، فقالت : (صه) تريد نفسها ، ثم سمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد اسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فقال لها الملك : (لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله)

وفي سنن النسائي بإسناد صحيح أن هذا الملك الذي جاءها هو جبريل (إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل ، تجمع البطحاء رحم الله هاجر لو تركتها كانت عينا معنا) (١) .

شهود الملائكة لجنازة الصالحين : قال الرسول ﷺ في سعد بن معاذ (هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضُمَّ ضمة ، ثم فُرج عنه) (٢) رواه النسائي عن ابن عمر بإسناد صحيح .

اظلالها للشهيد بأجنحتها : في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنها - قال : لما قتل أبي ، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي ، وينهوني ، والنبي ﷺ لا ينهاني ، فجعلت عمتي فاطمة تبكي ، فقال النبي ﷺ : (تبكين أولا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه) (٣) .

وبهذا ينتهى المبحث الخاص بعالم الملائكة في ضوء الكتاب والسنة .

خاتمة سورة المدثر الحديث عن أهل سقر

قال تعالى :

كَلَّا وَالْقَمَرَ ۖ (٢٢) وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَّرَ ۖ (٢٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۖ (٢٤) إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ۖ (٢٥)
نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۖ (٢٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۖ (٢٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ (٢٨)
إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۖ (٢٩) فِي جَنَّتٍ يَنْسَاءُ لُؤْلُؤًا ۖ (٣٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۖ (٣١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ (٣٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ (٣٣) وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۖ (٣٤) وَكُنَّا نَخُوضُ
مَعَ الْحَخَايِضِ ۖ (٣٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ ۖ (٣٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ۖ (٣٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۖ (٣٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ

(١) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع رقم ٦٤٥٥ وكتر رقم ٣٤٧٦٧

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ج ٤ ص ١٠٠ ، ١٠١ كتاب الجنائز باب صفة الغير وضغطته .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٩١/٢ في كتاب (الجنائز) باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفته .

مَعْرِضِينَ ﴿٥١﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٢﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥٣﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ
 أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنشَرَةً ﴿٥٤﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴿٥٦﴾
 فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ
 الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٨﴾

معاني المفردات

﴿ إذا أدبر ﴾ دبر وأدبر بمعنى ولى وانصرم ﴿ إذا أسفر ﴾ أضواء وظهر ﴿ الكبير ﴾ جمع كبرى أنثى
 الأكبر ﴿ رهينة ﴾ يقال رهن الشيء رهناً ورهينة ، وهو الشيء المرهون وثيقة لشيء آخر ﴿ ما سلككم ﴾
 ما أدخلكم ﴿ المصلين ﴾ الصلاة في اللغة الدعاء والدين ، وشرعاً تطلق على الصلاة المعروفة ، والمراد
 المعنى اللغوي لا الشرعي ﴿ نخوض مع الخائضين ﴾ نكذب مع المكذبين ، وأصل الخوض الذهاب في
 الماء ثم نقل إلى الذهاب في الكلام ، ثم غلب على الاكثار من باطل الكلام . ﴿ اليقين ﴾ الموت
 ﴿ التذكرة ﴾ المراد القرآن ﴿ مستنفرة ﴾ نافرة من نفسها ﴿ قسورة ﴾ أسد ﴿ صحف منشرة ﴾ الصحف
 القراطيس التي تكتب وتتداولها أيدي الناس والمنشرة المبسوطة المفتوحة .

أضواء كاشفة

لقد تكلم المشركون في خزنة جهنم وعددهم ، واتخذوا ذلك مادة لسخريتهم واستهزائهم ، فضلوا
 ضللاً بعيداً ، والقرآن هنا يزجرهم عن ذلك ويردعهم بكلمة زاجرة هي (كلا) ثم أقسم بالقمر ، والليل
 إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر على أن سقر هي إحدى الكبير ، أما قسمه بهذه الأشياء فإنه للفت أنظار
 المشركين إلى تلك الآثار الباهرة ، التي تدل على قدرة الله القادرة ، على أن هذا القلب والتغير من حال
 إلى حال ، ومن نور إلى ظلام ، ثم منه إلى ضياء دليل على جواز البعث والانتقال من حال الفناء إلى حال
 الحياة .

أقسم بالقمر ونوره كيف ينشأ صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً حتى المحاق ، وهذا الليل
 بجحافله وسكونه وهدوئه ، وموت الطبيعة فيه ، ثم يأتي الصبح بأضوائه اللامعة ووجهه المشرق وحياته
 الحافلة ، أقسم بهذا كله على أن جهنم المعدة للمكذبين ، الذين يتخذون القرآن عضيض ، هي إحدى
 الكبير من جهة أنها نذير للبشر لمن شاء منكم أيها البشر أن يتقدم للخير ، ولمن شاء أن يتأخر بفعل الشر ،
 نعم هي نذير لهؤلاء الذين يخافون يوماً عبوساً قمطيراً .

هذا إنذار للعالمين والعصاة المذنبين ، مع العلم أن كل نفس بما كسبت مرهونة ، أى أن النفس مرهونة بعملها ، فإن كان خيراً ، فك رهنها وحبسها ، وإن كان شراً ، فستظل حتى تستوفى عقابها ، وعلى ذلك فالعصاة نفوسهم مرهونة بعملهم الشر ، والمؤمنون أصحاب اليمين ليست نفوسهم مرهونة ، لأنهم أدوا ما عليهم ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ . فإنهم في جنات مكرمون ، على سرر متقابلون ، يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتساءلون ، أى يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين المكذبين ، ما حالهم ؟ ولعلمهم يعرفون الجواب ، ولكن هذا يساق زيادة في تبكيت المجرمين وإيلاهم ، وإمعاناً في سرور المؤمنين أصحاب اليمين ، يتساءلون عنهم ، فيطلون عليهم ، وهم في جهنم فيقولون لهم : ما سلككم في سقر ؟ وما الذى أدخلكم في جهنم ؟ قالوا لهم : الذين سلكنا أننا لم نك من المصلين ، ولم نك ندعو الله رب العالمين ، بل كنا ندعو غيره ونشرك به سواه ، وأنا لم نك نطعم المسكين المحتاج ؟ بل كنا ننفق للدنيا وللرياء ، وكنا نكذب مع المكذبين ، ونخوض مع الخائضين في هراء الكلام وفاسده ، وكنا نكذب بيوم القيامة ، ولا نصدق به ، وظللنا على هذا الحال ، حتى أتانا اليقين الذى لا شك فيه كالموت ، وهذا العذاب الذى نقاسيه اليوم .

إذا كان الأمر كذلك ، فما تنفع هؤلاء شفاعة الشافعين ، ومن ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ وهذا رد عليهم فى دعواهم أن الآلهة تشفع عند الله لهم .

عجباً هؤلاء بعد هذا البيان الساطع ، فما لهم عن القرآن معرضين ؟ أى شىء حصل هؤلاء ، حتى يعرضوا عن كلام رب العالمين ، مالك يوم الدين .

ما لهم يعرضون ويفرون ؟ كأنهم حمر - المراد حمر الوحش - نافرة من نفسها وطبعها - وقد فرت من أسد ، إن أمر هؤلاء لعجب .

بل - وهذا إضراب عن إعراضهم ونفورهم مما فيه سعادتهم وخيرهم كالحیوان - واستمع لما هو أعجب وأغرب ، بل يريد كل امرئ منهم أن تنزل عليه صحف من السماء مبسوطة ، تأمره باتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

كلا وألف كلا ، بل هم لا يخافون الآخرة ، ولا يرجونها أصلاً ، فهذا هو السبب ، وطلبهم الصحف المنشرة ضرب من العبث واللهو ، فأعرض عن هذا ولا تسمع لهم فى شىء .

كلا ، إن القرآن تذكرة وعظة لمن يريد الآخرة ، ويؤمن بالغيب ، وفيه استعداد للخير ، فمن شاء ذكره واتعظ به وآمن ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله ذلك بالقهر والالقاء ، لكن الله ترك الايمان والكفر لاختيار العبد ، الذى هو مناط الثواب والعقاب ، وقيل المعنى : وما يذكرون فى حال من الأحوال إلا فى حال أن يشاء الله لهم ذلك ، إذ الأمر كله له ، هو الله أهل لأن يتقى ويحذر عقابه فلماذا لا تتقون ؟ وهو أهل للمغفرة فلماذا لا تصلحون أعمالكم ؟ وتوبون لربكم وتوبون لرشدكم ؟ !!

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ﴾ أى ولى ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أى أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أى العظامم يعنى النار ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف ﴿ نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ أى لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

ويحدثنا العلامة ابن القيم فى كتابه ﴿ التبيان فى أقسام القرآن ﴾ فىقول :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ .

أقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل ، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه . وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه - ما هو معلوم بالمشاهدة . وهو سبحانه أقسم بالسما وما فيها ، مما لا نراه من الملائكة ، وما فيها ما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ، ودلالة من دلائل ربوبيته . ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين ، وجدتهما من أعظم الآيات فى خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا ينيان ولا يفتران دائبين ، ولا يقع فى حركتهما إختلاط بالبطء ، والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ، ولا يجرى أحدهما فى فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه فى سلطانه ، ولا تدرك الشمس القمر ، ولا يجىء الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدبير مدبر ، بهرت حكمته العقول ، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ما علمه الناس من الحكم التى فى خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم ، ولا تنتهى إلى مبادئها أو هامهم ، فغابتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ولطف تدبيره ، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار ﴾ (١) .

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيطة متسخن ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أضواً شىء وأحسنه وأجمله ، ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حاله الأول ، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين ، وحساب آجال العالم : من مواقيت حجهم ، وصلاتهم ، ومواقيت أجائهم ، ومدائنتهم ، ومعاملاتهم التى لا تقوم مصالحهم إلا بهما ، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة .

وقد ذكر سبحانه ذلك فى ثلاث آيات من كتابه : أحدها قوله : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ (٢) .

(١) آل عمران آية : ١٩١

(٢) البقرة آية : ١٨٩

والثانية قوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾^(١) .

والثالثة قوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾^(٢) . فلولا ما يحدثه الله سبحانه فى آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه ، لم يعلم ميقات الحج ، والصوم والعدد ، ومدة الرضاع ، ومدة الحمل ، ومدة الاجارة ، ومدة آجال الحاملات .

فإن قيل : كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التى تحفظ بطلوع الشمس وغروبها ، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس ، قيل : هذا وإن كان ممكناً ، إلا أنه يعسر ضبطه ، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس ، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور ، وأواسطها ، وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس ، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس ، وأقل اضطراباً واختلافاً ، ولا يحتاج إلى تكلف حساب ، وتقليد من لا يعرف من الناس لمن يعرفه . فالحكمة البالغة التى فى تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر وأنفع وأصح . وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس ، فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب ، وكمال حكمته وعلمه وتدبيره ، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية ، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها ، فهى آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغير ، ولا يمكن عدمها .

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً ، وافتقاره الى محل يقوم به ، وسيره دائماً لا يفتر ، مسير ، مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئاً فشيئاً ، ثم عوده إليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة ، حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف - علم قطعاً أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له ، كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً ، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهى إلى الانقطاع والسكون . وأن هذا الضوء والنور ، لا بد أن ينتهى إلى ضده ، وأن هذا السلطان ، لا بد أن ينتهى إلى العزل ، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب بهما حيث شاء ، ويرى المشركين من عبدتها حال آلهتهم التى عبدوها من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتشارها ، وعباد السماء انقطاعها ، وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها فى النار ، أحقر شىء وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل فى الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه فى اليم ، وكما أرى الأصنام فى الدنيا صورها مكسرة مخردة ملقاة بالأمكنة القذرة ، ومعاول الموحدين ، قد هشمت منها تلك الوجوه ، وكسرت تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأيدي والأرجل ، التى كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام ، وهذه سنة الله التى لا تبدل ، وعادته التى لا تحول ، أنه يرى عابد غيره حال معبوده فى الدنيا والآخرة . وإن كان المعبود غير راض بعبادة

(١) يونس آية : ٥

(٢) الإسراء آية : ١٢

غيره ويريه تبريه منه ، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ (١) ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها - لو تأملت خطها -
ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل التغيير في الشمس ، ولو شاء لغيرهما معاً ، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة ، ولكن يرى عباده آياته في أنواع تصاريدها ، ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (٢) .
وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات ، وفي النبات ، وجزر البحر ومده ، وبحرانات الأمراض ، وتنقلها من حال إلى حال ، وغير ذلك من المنافع ، فأمر ظاهر .

وما أقسامه سبحانه بالليل إذا أدبر ، فلما في ادباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان ، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم ، وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم ، وصاروا إخوان الأموات ، إذا أقبل من النهار داعيه وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الأصوات ، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور ، يقول قائلهم : (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) فهو معاد جديد بداه وأعاده الذي يبدى ويعيد . فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟ .

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر ، والصبح إذا تنفس وأسفر ، فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ، وفل كتائب الكواكب بعساكره ، وأضحك نواص الأرض بتباشيره وبشائره .
فيالها آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما ، وكمال ربوبيته وعظم قدرته وحكمته . فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار . فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله ، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم ؟ ويتصرفون في أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانت تهيئهم الحياة ، مع فقد لذة النور وروحه ، وأى ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟
ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار ، مع علم حاجتهم إلى الهدوء ، لراحة أبدانهم وجوم حواسهم . فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ، ما هداؤوا ولا قروا ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكناً ولباساً ، كما جعل النهار ضياءً ومعاشاً ، ولولا الليل وبرده ، لاحتزقت أبدان الحيوان والنبات من دوام شروق الشمس عليها ، وكان يحرق عليها من نبات وحيوان ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ، أن جعلها سراجاً يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه ، ويغيب في وقت استغنائهم عنه ، فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على تضادهما ، متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، والليل سرمداً إلى يوم القيامة ، لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده .

(١) الأنفال آية : ٤٢

(٢) الأعراف آية : ٥٤

وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس ، وانخفاضها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما في ذلك من مصالح الخلق ، ففي الشتاء تفور الحرارة في الشجر والنبات ، فيتولد منها مواد الثمار ، ويكثف الهواء ، فيتولد منه السحاب وينعقد ، فيحدث المطر الذي به حياة الأرض . ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع . وفي الصيف يخرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشتد الحبوب ، ويجفف وجه الأرض ، فيتهيأ العمل ، وفي الخريف يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبى .

والمقصود أن بحركة هذين النيرين ، تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فإن الزمان مقدار الحركة ، فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها ، والسنة القمرية مقدرة بسير القمر ، وهو أقرب إلى الضبط ، واشترك الناس في العلم به . وقدر أحكم الحاكمين تنقلها في منازلها ، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه ، لما وصل ضوءها وشعاعها إلى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك ، فجعل الله سبحانه طلوعها دولا بين الأرض ، لينال نفعها وتأثيرها البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع ، التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها ، واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل منها من صاحبه ، ومنتهى كل منها إذا امتد خمسة عشر ساعة ، فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً . أو أكثر ، لاختل نظام العالم وفسد أكثر النبات والحيوان ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح ، ولو استويا دائماً ، لما اختلفت فصول السنة ، التي باختلافها مصالح العباد والحيوان ، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ، ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ فالتق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٣) . فهذه ثلاثة مواضع ، يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية ، وما ينشأ عنها ، كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين . وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغنيات .

(١) يس الآيتين : ٣٧ - ٣٨

(٢) فصلت الآيات : ٩ - ١٢

(٣) الأنعام آية : ٩٦

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي القمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر - على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وإبداء الخلق وإعادته ، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما ، وفي إبداء النور وإعادته في القمر ، وفي إبداء الزمان وإعادته ، الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر ، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما ، وإبداء فصول السنة وإعادتها ، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته ، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد ، الذي أخبر به الرسل كلهم عنه ، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها ، وجعلها للفظ تارة ، وللسمع تارة ، وللمشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ، ونفسية ومنقولة ، ومعقولة ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان ، فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ (١) .

ولما أقام الحجة وبين المحجة ، ارتهن كل نفس يكسبها ، وأخذها بذنوبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداة ، واتبع رضاه ، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولا من مطعمي المسكين ، وهم من أهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين ، فهذه أربع صفات ، أخرجتهم من زمرة المفلحين ، وأدخلتهم في جملة الهالكين : (الأولى) : ترك الصلاة ، وهي عمود الإخلاص للمعبود .

(الثانية) : ترك إطعام المسكين الذي هو مراتب الإحسان للعبيد ، فلا إخلاص للمخلوق ، ولا إحسان للمخلوق ، كما قال تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ (٢) وقال : ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ (٣) ، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله : ﴿ الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون ﴾ (٥) وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه : فأمر بها تارة ، وأثنى على فاعليها تارة ، وتوعد بالويل والعقاب تاركها تارة ، فإن مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أخل بهما .

الصفة الثالثة والرابعة : الخوض بالباطل ، والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص والإحسان ، والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ، وبقينهم وكلامهم ، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً ، وبالإحسان إساءة ، وباليقين شكاً وتكديباً ، وبالكلام النافع خوضاً في الباطل . فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أى لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأساً وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة .

(٤) الأنفال آية : ٣

(٥) السجدة آية : ١٦

(١) الفرقان آية : ٣

(٢) الماعون الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) التوبة آية : ٥٤

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم ، بإثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأن ذلك إليه لا إليهم ، فالأول عدله ، والثاني فضله ، فالأول يوجب السعى والطلب ، والحرص على ما ينجيهم ، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم . بل أشد ، والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ : يقول تعالى مخبراً أن (كل نفس بما كسبت رهينة) أى معتقلة بعملها يوم القيامة ، قال ابن عباس وغيره (إلا أصحاب اليمين) فإنهم (فى جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم : ﴿ ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ أى ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلفه من جنسنا . ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نتكلم فيما لا نعلم : وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعنى الموت كقوله تعالى : ﴿ وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾^(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أما هو - يعنى عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه) قال الله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أى من كان متصفاً بمثل هذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنفع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وفى الله كافراً ، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ﴾ أى فما هؤلاء الكفرة الذين قبلك ، عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ أى كأنهم فى نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش ، إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد . وقال حماد بن سلمة بسنده عن ابن عباس : الأسد بالعربية ويقال له بالحبشية قسورة وبالفارسية شير ، وبالنبطية أوبا .

وقوله تعالى : ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤق صحفاً منشرة ﴾ أى بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب ، كما أنزل الله على النبى صلى الله عليه وسلم قال مجاهد وغيره كقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾^(٢) ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ أى إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها . ثم قال تعالى : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أى حقاً إن القرآن تذكرة ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكره إلا أن يشاء الله ﴾ كقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أى هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأتاب . قاله قتادة .

(١) الحجر آية : ٩٩

(٢) الأنعام آية : ١٢٤

وقال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له » (١) .

هل عرفت ما للقرآن الكريم من مكانة فى اللوح المحفوظ ؟ قال تعالى : ﴿ حم ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ (٢) .

وهل تأملنا بقلوبنا قول الله جل جلاله عن الكتاب العزيز والقرآن العظيم : ﴿ كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ﴾ أى من شاء الوصول إلى دار السعادة والنعيم ، فليذكر ما فى هذا الكتاب من مواعظ وهداية ، وقصص وعقيدة وأحكام وتشريع ووعد ووعد ، صدقت يا ربنا ﴿ إن هذا القرآن يهتدى للقى هى أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (٣) .

فضل القرآن يوم الحشر

وليس فضل القرآن مقصوراً على الدنيا وحدها ، إنما فضله ، يتعدى إلى ما بعد الموت ، من بعث وحشر ونشر وحساب ، وميزان وصراط وجنة ونار . نعم إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، ونحن هنا بصدد الحديث عن فضل القرآن فى رحاب قوله تعالى فى ختام سورة المدثر : ﴿ كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ فتقول :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، يا خير خلق الله على الإطلاق . نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة ومحوت الظلمة وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين .

وبعد : فإن ماديات الحياة قد تطفئ على روحانياتها ، وهنا تتمرغ النفس فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وتحاول أن تجد لها منفذاً تنفذ منه لتنشق النسيم العاطر ، نسيم الروح فتطاردها الدنيا ، وعندئذ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ومن هنا فإن الاسلام يضع معالم الهداية على طريق يؤدى إلى عالم الخلود ، فينادينا سبحانه وتعالى منها ومحذراً ومذكراً : ﴿ إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (٤) .

إنها أمارات كبرى ، وعلامات خطيرة ، تختل لها قوانين الكون ، ليجعلها الله تذكرة ، وتعيها أذن واعية .

(١) أخرجه الإمام أحمد جـ ٣ ص ١٤٢

(٢) الزخرف الآيات : ١ - ٤

(٣) الإسراء آية : ٩

(٤) الانفطار الآيات : ١ - ٥

أنظر يا أخا الاسلام إلى هذه السماء المتقنة الصنع ، التي أخبر الله عنها بقوله : ﴿ وما لها من فروج ﴾ ^(١) وأخبر عنها بقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ ^(٢) وأخبر عنها بقوله : ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ ^(٣) هذه السماء التي تحدى بها الله البشرية جمعاء بقوله : ﴿ الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ ^(٤) ثم يزيد التحدى تحدياً فيقول : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ ^(٥) .

سبحانك اللهم أنت الواحد
يا من له عنت الوجوه بأسرها رهياً
أنت الاله الواحد الحق الذي
يا حي يا قيوم أنت المرتجى
كل الوجود عل وجودك شاهد
وكل الكائنات توحيد
كل القلوب له تقرر وتشهد
وإلى علاك علا الجبين الساجد

هذه السماء ، التي من أخص خصائصها أن ليس لها فروج ، ولا شقوق ، ولا فطور ، أول ما تصب به عند البعث أنها تشقق ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ ^(٦) .

هذه حال السماء فما حال الكواكب التي تسير في أفلاكها بنظام دقيق بديع ، هذا الخلق العظيم الذي لم يستطع العلم بجبروته أن يقتحم عليه أسرارهِ المنيعه ، والذي عندما أراد العلم أن يرفع رأسه فخوراً بما اكتشفه من هذا العالم الغامض ، قال إننا لم نكتشف إلا جزءاً يسيراً ، هذا الجزء اليسير يشتمل على ألف مليون مجموعة شمسية ، كل مجموعة تحتوي على ألف مليون نجم ، أقل نجم في هذه المجموعة شمسينا تلك التي تنير الكوكب الأرضي ، وباقي العالم لا يعلمه إلا من أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وهذا الموقف يذكرني بنشيد كنا نردده في مراحل التعليم الأولى ونحن براعم لم تتفتح بعد . كان نشيد الصباح الذي نردده كما يلي :

ذات الغصون النضرة
وكيف صارت شجرة
يخرج منها الثمرة
أنعمه منهرة
وقدرة مقتدرة
جذوتها مستعرة

انظر لتلك الشجرة
كيف نمت من حبة
فانظر وقل من ذا الذي
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
أنظر إلى الشمس التي

(١ ، ٢) سورة ق آية : ٦

(٣) سورة النازعات آية : ٢٧

(٤ ، ٥) سورة الملك آية : ٤ - ٤

(٦) سورة الفرقان الايتان : ٢٥ - ٢٦

حرارة منتشرة
في الجو مثل الشررة
أنعمه منهمرة
وقدرة مقتدرة
من شق منه بصره
بقوة مبتكرة
أنعمه منهمرة
وقدرته مقتدرة
أوجد فيه قمره
كالدرر المنتشرة
أنعمه منهمرة
وقدرة مقتدرة

فيها ضياء وبها
من ذا الذي أوجدها
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
أنظر إلى المرء وقل
من الذي جهزه
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة
انظر إلى الليل فمن
وزانه بأنجم
ذاك هو الله الذي
ذو حكمة بالغة

هذه بعض مظاهر القدرة ، وبعض مشاهد الخلق الذي أبدعته يد الله :

سل الواحة الخضراء والماء جارياً
وهذي الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى
سل الليل والاصباح والطير شادياً
سل هذه الأنسام والأرض والسما
وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وأمتد سرمداً
فمن غير رب يرجع الصبح ثانياً
ولو غاض هذا الماء في القاع هل لكم
سوى الله يجريه كما نشاء راوياً

سبحانك يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، أرأيت إلى هذه الكواكب يا أخا الاسلام ، كيف تنثر وهي تسير في أفلاكها كما تسير السفينة في ساحات البحار ، وفي مساحات شاسعات تنثر هذه الكواكب كما تنثر حبات العقد إذا انفرط سلكه ؟ إنه إنذار شديد اللهجة بأن هناك محكمة ، وبأن هناك يوماً يجعل الولدان شيباً .

ويأتى المشهد الثالث من مشاهد القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ هذا مشهد أرضى بعد المشاهد العلوية من انشقاق السماء وانتثار الكواكب ، يلتقى المشهد الأرضى بالمشاهد العلوية إيذاناً وإعلاناً ببداية حياة جديدة ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة الغائبة الزائلة ﴿ وإذا البحار

فجرت ﴿١﴾ وما أدراك ما البحار ، خلق عظيم ، الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود .

ومعنى تفجير البحار هنا ، يقول على بن أبي طلحة عن ابن عباس : فجر الله بعضها في بعض ، وقال قتادة اختلط عذبها بملحها ، وقال آخرون ملئت . ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ ﴿٢﴾ وهذا هو الموقف المحتوم والمصير المعلوم ، فبعد انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، يأتي الدور على القبور ، وهي مساكن الموتى ، وأرحام ستدفع ما فيها للولادة الثانية ، فالولادة الأولى كانت من بطون الأمهات ، وتأتي الولادة الثانية من أرحام القبور . ومعنى (بعثت) كما قال ابن عباس رضى الله عنه بعثت ، وقال السدى : تحرك تبعثر ، فيخرج من فيها ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ﴿٣﴾ ومصداق قوله جل شأنه : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾ ﴿٤﴾ ثم تأتي النتيجة المترتبة على تلك المقدمات وهي قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ ﴿٥﴾ وهذه هي الجملة الواقعة جوابا للشرط (إذا) أى إذا ما تقدمت من الخير ففعلته وأدته ، وما سوقت فيه من الأعمال فلم تؤده ، ومن هنا ، فإن آيات الكتاب العزيز عندما تحث على أى عمل من أعمال الدنيا ، تحاطب المسلم بأسلوب رقيق فيه طمأنينة ورحمة ، وعدم عجلة وسرعة ، قال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾ ﴿٦﴾ فلم يقل تعالى : فسارعوا ولا سابقوا وقال تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ ﴿٧﴾ فالأمر هنا بالمشى لا بالمسارعة ولا بالمسابقة ، أما إذا كان الأمر أمر الآخرة ، فإن أسلوب القرآن ، يدعو الى التعجيل بفعل الخير . والمسابقة فيه والمسارعة ، قال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ﴿٨﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ ﴿٩﴾ وقال جل شأنه : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ﴿١٠﴾ وقال تبارك اسمه : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ ﴿١١﴾ .

- (٧) الملك آية : ١٥
(٨) الصافات آية : ٦١
(٩) المطففين آية : ٢٦
(١٠) الحديد آية : ٢١
(١١) آل عمران آية : ١٣٣

- (١) الانفطار آية : ٣
(٢) الانفطار آية : ٤
(٣) الزمر آية : ٦٨
(٤) ق الآيات : ٤١ - ٤٤
(٥) الانفطار آية : ١٠
(٦) الجمعة آية : ١٠

هذا لتعلم كل نفس أنها بمسيس الحاجة إلى ما قدمت من خير ، وأنه لا يليق بها أن تؤخر فعل الخيرات .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ (٢) وبعد هذه المقدمات يخاطب الله العباد خطاب تحذير وتذكير : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك ﴾ (٣)

قال ابن عمر : غره والله جهله ، وروى عن ابن عباس والربيع بن خيثم والحسن مثل ذلك . وقال قتادة : (ما غرك بربك الكريم) شىء ما غر ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى ما غرك بى لقلت ستورك المرخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى ما غرك بربك الكريم لقلت غرنى كرم الكريم . وقال بعض أهل الإشارة إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بطائل ؟ لأنه إنما أتى باسمه الكريم ، لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور .

وقوله تعالى : ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ أى ما غرك بالرب الكريم (الذى خلقك فسواك فعدلك) .

أى جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القامة منتصباً فى أحسن الهيئات والأشكال ، قال الإمام أحمد بسنده عن بشر بن مجاشد القرشى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة » (٤)

وقوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ ، قال مجاهد فى أى شبه أب أو أم أو خال أو عم . وقال ابن جرير بسنده عن موسى بن على ابن رباح قال حدثنى أبى عن جدى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : ما ولد لك ؟ قال يا رسول الله ما عسى أن يولد لى إما غلام وإما جارية ، قال فمن يشبه ؟ قال يا رسول الله من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم -

(١) المائدة آية : ٤٨

(٢) آل عمران آية : ٣٠

(٣) الانفطار الآيات : ٦ - ٨

(٤) أخرجه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ وبرقم ١١٤٣

عندها : (مه لا تقولن هكذا إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم ، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله تعالى : (في أى صورة ما شاء ركبك)^(١) قال : شكلك .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله إن إمراة ولدت غلاماً أسود . قال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : فهل فيها من أورك ؟ قال : نعم ، قال : فأنى أتاه ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعة عرق^(٢) .

قال : وهذا عسى أن يكون نزعة عرق ، وقد قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ في أى صورة ما شاء ركبك ﴾ إن شاء في صورة القرد وإن شاء في صورة خنزير .

قال قتادة : ﴿ في أى صورة ما شاء ركبك ﴾ قال : قادر والله ربنا على ذلك ، ومعنى هذا القول أن الله تعالى قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه ، وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم ، معتدل تام ، حسن المنظر والهيئة . وقوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾^(٣) أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ، تكذيب في قلوبكم بالميعاد والجزاء والحساب .

(١) أخرجه الألبانى في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ وبرقم ١١٤٣

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٣٦٥/٨

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١١٣٧ كتاب اللعان رقم ١٠٠٠/٢٠

(٤) الانفطار آية : ٩

تفسير سورة القيامة

مقدمة :

قال العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي في «بصائر ذوى التمييز» :
السورة مكية ، وآياتها أربعون ، وكلماتها مائة وتسع وتسعون ، وحروفها ثلاثمائة واثنان وخمسون .
فواصل آياتها (يقرأه) .

سميت سورة القيامة ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان هول القيامة ، وهيبتها ، وبيان إثبات البعث ، وتأثير القيامة في أعيان العالم ، وبيان جزاء الأعمال ، وآداب سماع الوحي ، لوعده باللقاء والرؤية ، والخبر عن حال السكر ، والرجوع إلى بيان برهان القيامة ، وتقرير القدرة على بعث الأسواق في قوله تعالى :
﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أعاد ، فقال : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : إنه سبحانه أقسم بهما ، والثاني : لم يقسم بهما ، والثالث : أقسم بيوم القيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة .

قوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ وكرره في الآية الثانية ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ، الأول عبارة عن بياض العين : بدليل قوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ وفيه قول ثان - وهو قول الجمهور من المفسرين - أنها بمعنى واحد . وجاز تكراره لأنه أخبر عنه بغير الخبر الأول . . . قوله : ﴿ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ﴾ كررها مرتين ، بل كررها أربع مرات فإن قوله : ﴿ أَوَّلَى لَكَ ﴾ تمام الذم ، بدليل قوله : ﴿ فَأَوَّلَى لَهُمْ ﴾ ، فإن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه للتهديد ، وإنما كررها لأن المعنى : أولى لك الموت ، فأولى لك العذاب في القبر ، ثم أولى لك أهوال القيامة ، فأولى لك عذاب النار . نعوذ بالله منها .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه ذكر في السورة السابقة قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم البعث ، وذكر هنا الدليل عليه بأتم وجه ، فوصف يوم القيامة وأحواله ، ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۖ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ
تُجْمَعَ عِظَامُهُ ۖ بَلَىٰ قَلِيلًا عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ۖ بَلَىٰ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ
أَمَامَهُ ۖ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۖ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ
وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ۖ كَلَّا لَا وَزَرَ
إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۖ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ بَلَىٰ
الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۖ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانُكَ لِنَعْلَجَ
بِهِ ۖ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْءَانُهُ ۖ فَإِذَا قُرْءَانُهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۖ ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا
بَيَانُهُ ۖ كَلَّا بَلَىٰ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۖ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۖ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۖ

معاني المفردات

(لَا أُقْسِمُ) يرى قوم أن (لَا) نافية ردُّ لكلام قد تقدم وجواب لهم ، فهم لما أنكروا البعث قيل لهم ، ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة : أن البعث حق لا شك فيه . ويرى جمع من المفسرين : إنها للنفس على معنى أني لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من هذا وهو يستأهل فوق ذلك . (النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) قال مجاهد هي التي تلوم نفسها على مافات وتندم على الشر لم فعلته ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟
(بَلَى) كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفيًا ، فالمراد بها هنا نعم فجمعها بعد تفرقها .
(بَنَانُهُ) البنان : واحده بنانة وهي الأصابع .
(لِيَفْجُرَ) : ليدوم على فجوره في الحاضر والمستقبل لا ينزع عنه .
(بَرَقَ) تحير فزعًا .

(خَسَفَ الْقَمَرَ) ذهب ضوؤه .
 (أَيْنَ الْمَفَرِ) أى : إلى أين الفرار .
 (الْوَزَرَ) : الملجأ ، وأصله الجبل المنيع .
 (يُنبَأُ) أى : يخبر .
 (بَصِيرَةٌ) أى : حجة شاهدة على ما صدر منه .
 (مَعَاذِيرُهُ) المعاذير : ما يعتذر به .
 (لَتَعْجَلَ بِهِ) أى : لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك .
 (قُرْآنَهُ) أى : قراءته أى : إثباتها فى لسانك .
 (قَرَأَنَاهُ) أى : قرأه جبريل عليك .
 (فَاتَّبَعَ قُرْآنُهُ) أى : فاستمع قراءته ، وكررها حتى يرسخ فى نفسك .
 (بَيَانَهُ) أى : تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل معانيه .
 (الْعَاجِلَةَ) دار الدنيا ، (نَاصِرَةٌ) أى : مهللة بشراً بما ترى من النعيم ، (نَازِرَةٌ) أى : تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب ، (بَاسِرَةٌ) أى : شديدة العبوس كالحلة متغيرة مسودة ، (تَظُنُّ) أى : تستيقن ، (فَاقِرَةٌ) أى : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ تَجْمَعُ عِظَامُهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوَّ بَنَانَهُ ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بيوم القيامة ، وعظيم أهواله ، وبالنفس اللوامة ، التى تندم على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لم تستكثر منه وقسمه سبحانه وتعالى بيوم القيامة وتفخيم شأنه ، والله أن يقسم بما شاء من خلقه . قال سعيد بن جبیر . سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه .

وقال العلامة ابن القيم : فقد تضمن الأقسام ثبوت الجزاء ، ومستحق الجزاء ، وذلك يتضمن إثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد ، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقررها أبلغ التقرير ، لحاجة النفوس إلى معرفتها ، والايمان بها ، وأمر رسوله أن يقسم عليها كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّ لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّ لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها ، يأمر نبيه أن يُقْسِمَ عَلَى مَا أُقْسِمَ عَلَيْهِ هُوَ سبحانه وتعالى من النبوة والقرآن والمعاد .

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم ، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه ، فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكذيباً .

واختلف في النفس المقسم بها ههنا ، هل هي خاصة أو عامة ؟
على قولين بناءً على الأقوال الثلاثة في اللوامة - فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون أزداد إحساناً ، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته .
والقول الثاني : أنها خاصة . قال الحسن : هي النفس المؤمنة وأن المؤمن - والله - لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حاله ، لأنه يستقصيها في كل ما تفعل فيندم ويلوم نفسه ، وأن الفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه .

والقول الثالث : إنها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل .
وهي النفس الكافرة التي تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والأظهر أن المراد نفس الانسان مطلقاً فإن نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم - سبحانه - بجنس النفس في قوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ فهذا اللوم غير محمود . فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ وعلى جزائها كقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهِنَّ أجمعِينَ ﴾ وعلى تباين عملها كقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ وكل نفس لوامة ، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر ، وترك الخير . فتبادر إلى التوبة ، والنفس الشقية بالضد من ذلك .

مناسبة الجمع بين القسمين في الذكر

وجمع - سبحانه - وتعالى - في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ، ومحل الكسب ، وهو النفس اللوامة ، ومنه - سبحانه - بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاققتها وضرورتها إلى من يعرضها للخير والشر ، ويدلها عليه ، ويرشدها إليه ، ويلهمها إياه ، فيجعلها مريدة للخير ، مرشدة له ، كارهة للشر مجانية له ، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه ، ولأنها متلومه مترددة ، لا تثبت على حال واحدة ، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره ، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق ، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه .

ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن ، وإنها لا غنى لها عن ذلك ،

ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة ، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ أى : أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟ بلى نحن قادرون على ذلك وأعظم منه ، فنحن قادرون على أن نسوى بنانه وأطراف يديه ورجليه ونجعلها مستوية قال ابن القيم :

وفى ذكر البنان لطيفة ، وهى أنها أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على دون ذلك أقدر ، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل : إنا نجمع ونسوى أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء ، وآخر أطراف البدن ، وهى عظام الأنامل ومفاصلها . وقالت طائفة : المعنى نحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير ، وحافر الحمار لا نفرق بينهما ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأني لما يريد من الحوائج . وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين .

والمعنى على هذا القول : إنا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرقة ، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفرقها .

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، وهو الاستدلال بقدرته - سبحانه - على جمع العظام التى فرقتها ولم يجمعها . والأول استدلال بقدرته - سبحانه - على جمع عظامه بعد تفرقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه ، فيرجح الأول أنه هو المقصود ، هو الذى أنكره الكفار ، وهو إجراء على نسق الكلام وأطراده ، ولأن الكلام لم يسق تجمع العظام وتفرقها فى الدنيا ، وإنما سيق لجمعها فى الآخرة بعد تفرقها بالموت . ويرجح القول الثانى - ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره - وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهى تفريق البنان مع انتظامها فى كف واحد . وارتباطها بعضها ببعض فهى متفرقة فى عضو واحد ، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة ، وكلها فى كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد ، فلو شاء - سبحانه - لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التى حصلت بتفرقها ، ففى هذا أعظم الأدلة على قدرته - سبحانه - على جمع عظامه بعد الموت .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أخبر - سبحانه - عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لا يرعوى ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حياً ، بل هو يريد للفجور ما عاش ، فيفجر فى الحال ، ويريد الفجور فى غد وما بعده . وهذا ضد الذى يخاف الله والدار الآخرة ، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع فى الحال ، ولا يعزم فى المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب النيب .

ثم نبه - سبحانه - على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم لقيامه وليس هذا استبعادا لزمه مع إقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه ، كما حكى عنه في موضع آخر قوله : ﴿ ذَلِكْ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أى : بعيد وقوعه ، وليس المراد : أنه واقع بعيد زمنه . هذا قول جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأصحابه قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وقال قتادة وعكرمة : قدما قدما في معاصي الله لا يتزع من فجوره . ثم أخبر - سبحانه - عن حال الانسان إذا شاهد اليوم الذى كذب به .

فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ .

أى : إذا تحير البصر ودهش فلم يطرف من شدة الهول ومن عظم ما يشاهد كما قال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوؤه ، كما نعقله من حاله في الدنيا ، إلا أن الخسوف في الدنيا انجلاء ، وفي الآخرة لا يعود ضوؤه .

وقوله : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى : أدرك كل واحد منهما صاحبه وطلعا من المغرب أسودين مكورين مظلمين على ما روى عن ابن مسعود وقد كان هذا مستحيلا في الدنيا كما جاء في قوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حنثذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر أى : هل من ملجأ أو موئل قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ قال المفسرون : أى : لا نجاة ، ليس لكم مكان تعتصمون فيه ولهذا قال سبحانه : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَالِكُمْ مَنْ مَلَجَأَ يَوْمَئِذٍ وَمَالِكُمْ مَنْ نَكِيرٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَنبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ، بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

أى : يخير بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ وهذا قال ههنا : (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) أى هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر كما قال تعالى : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قال مجاهد (ولو ألقى معاذيره) ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة وابن زيد والحسن البصرى (ولو ألقى معاذيره) أى حجته . قال ابن كثير والصحيح قول مجاهد وأصحابه كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وكقوله

تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ .

(توجيه وإرشاد)

قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ .

هذا تعليم من الله - عز وجل - لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وإيضاح معناه .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أى بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أى : فى صدرك (وقرآنه) أى : أن تقرأه (فإذا قرأناه) أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى : ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أى : فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقي منه شدة وكان إذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره . فأنزل الله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ وعند البخارى فكان إذا أناه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل .

قال العلامة ابن القيم : ومن أسرار السورة إنها تضمنت التأنى والتثبت فى تلقي العلم ، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التى أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي ، بل يصبر إلى أن يفرغ أمين الوحي جبريل من قراءته ثم يقرأه بعد فراغه عليه . فهكذا ينبغى لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه ، ثم يعيده عليه . أو يسأل عما أشكل عليه منه ، ولا يبادر قبل فراغه .

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى فى ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها ، والثانى (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً) والثالث (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) فضمن لرسوله ﷺ أن لا ينسى ما أقرأه إياه . وهذا يتناول القراءة وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي والقرآن العظيم أنهم إنما همهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لا هون متشاغلون عن الآخرة . قال ابن القيم :

وقد ذم الله - سبحانه - في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى ، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة لإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة ، وإيثاره لها ، واستعجاله لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون . وكذلك تكذيبه وتولييه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبة العاجلة ، والرب سبحانه وصف نفسه يضد ذلك ، فلم يعجل على عبده ، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي ، وأيقن بالموت ، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولى ، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ، ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء ، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال وينبه على مبدأه : من كونه نقطة من منى يمنى ، ثم علقه ، ثم خلقا سويا ، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذا كذب خبره ، وعصى أمره ، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناه ولهذا ذم الانسان بالعجلة بقوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

أى فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم الساعة مضيئة مشرقة ، تشاهد عليها نضرة النعيم . (إلى ربها ناظرة) أى : تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب ، قال جمهور العلماء : المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة .

قال ابن كثير : وهذا - بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الاسلام وهداة الأنام .

روى البخارى فى صحيحه « إنكم سترون ربكم عياناً »^(١) وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ قالوا لا . قال : فإنكم ترون ربكم كذلك » .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٨ ص ١٤٦ ، ١٤٧ كتاب الرفاق باب « الصراط جسر جهنم » فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة

وفي الصحيحين أيضاً عن جرير قال : كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون ولا تضارون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قال : (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) وزاد مسلم « يعني العصر والفجر » وقال ابن بطال قال المهلب : قوله : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة » أي في الجماعة . قال : وخص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيها ورفعهم أعمال العباد لئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم . قال الخطابي : هذا يدل على أن رؤية المولى سبحانه وتعالى قد يرجى نيلها بالمحافظة على هاتين الصلاتين .

وروى مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال ، يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال فينكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة » (٢) ثم تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الكفار تكون يوم القيامة كالحة ، عابسة ، باسرة تستيقن انها هالكة وهذا المقام كقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

صورة من مشاهد الموت

قال تعالى :

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾
وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾
وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ
لَكَ فَأُولَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَطْفَةً مِّن مَّنِيِّ
يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ
﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(١) انظر البخارى ج ١ ص ١٠٩ باب - فضل صلاة الفجر

(٢) انظر صحيح البخارى ج ١ ص ١٦٣ كتاب الايمان باب « إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى » فقد ورد الحديث من

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

معاني المفردات

- (التراقى) العظام المكثفة ثغرة النحر عن يمين وشمال واحدها ترقوة .
- (من راق) أى من يرقيه وينجيه مما هو فيه .
- (الفراق) أى من الدنيا حبيته .
- (التفت الساق بالساق) أى التوت عليها حين هلع الموت وفلقه ، والمراد أنه اشتد عليه الخطب .
- (المساق) المرجع والمآب .
- (فلا صدق ولا صلى) أى فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه .
- (يتمطى) أى يتبختر افتخاراً .
- (أولى لك) أى ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره .
- (فأولى) أى فهو أولى بك من غيرك .
- (سدى) . أى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب .
- (نطفة) أى ماء قليلاً وجمعها نطاف ونطف .
- (يمنى) أى يراق ويصب فى الرحم .
- (علقه) أى قطعة دم جامد .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال القيامة وما يرى فيها من عظيم الأهوال ووصف سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء ، بين أن الدنيا لها نهاية ونفاد ثم تكون مرارة الموت وآلامه ، وأن الكافر قد أضاع الفرصة فى الدنيا ، فلا هو صدق بأوامر دينه ، ولا هو أدى فرائضه .

ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين :

- ١ - أنه لا بد من الجزاء على صالح الأعمال وسيئها ، وثواب كل عامل بما يستحق والا تساوى المطيع والعاصى ، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جل وعلا .
- ٢ - أنه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الانسان من منى يمنى ، فأهون أن يعيده خلقاً آخر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ﴾ .

(كلا) ردع وزجر : أى اذجروا وتنبهوا إلى ما بين أيديكم من الموت ، فافلحوا عن ايثار الدنيا على الآخرة ، فستنقطع الصلة بينكم وبينها وتنتقلون إلى الدار الآخرة التى ستكونون فيها مخلدين أبداً .

ثم وصف الحال التى تفارق فيها الروح الجسد فقال :

﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ أى إذا بلغت الروح أعالي الصدر ، وأشرقت النفس على الموت كقوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ .

وقوله : ﴿ وقيل من راق ﴾ أى وقال أهله : من يرقيه ليشفيه مما نزل به ؟

قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً .

﴿ وظن أنه الفراق ﴾ أى وايقن المحتضر أن ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد ، وسمى هذا اليقين ظناً لأن المرء ما دامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه العاجلة فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة .

وقوله : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أى التوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما ، قال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى ، وقال عكرمة (والتفت الساق بالساق) أى الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد بلاء بلاء وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ هما ساقاك إذا التفتا وفى رواية عنه ماتت رجلاه فلم تحملاه وقد كان عليها جوالاً . وفى رواية عن الحسن . هو لفهما فى الكفن .

وقوله تعالى : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أى المرجع والمآب كقوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ شعراً :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا
ونحن فى غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها
وان توشحت من أثوابها الحسنات
ابن الأحبة والجيران مافعلوا
اين الذين هم كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأساً غير صافية
فصيرتهم لأطباق الثرى رُهنا

خطب عمر بن العزيز آخر خطبة خطبها فقال فيها : أما بعد « إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للفصل بين عباده ، فقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى

وسعت كل شيء ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيرتها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قضى نحبه وانقضى أجله فتدعون في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحاب ، وسكن التراب ، وواجه الحساب ، غنياً عما خلف ، فقيراً إلى ما أسلف ، فأتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقيته ، وإنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندي ، ولكن استغفر الله وأتوب إليه ، ثم رفع طرف رداءه وبكى حتى شهق ثم نزل ، فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات رحمة الله عليه .

قوله : تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾ .

قال ابن كثير :

هذا اخبار منه سبحانه عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه متولياً عن العمل بقلبه فلا خير فيه باطناً ولا ظاهراً ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطي ﴾ أي جذلاناً أشراً بطراً كسلاناً لا همة له ولا عمل كما قال تعالى : ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ وكما قال سبحانه : (إنه كان في أهله مسروراً إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربه كان به بصيراً) . وقوله تعالى ﴿ أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى ﴾

أي ويل لك مرة بعد مرة ، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك . ويرى بعض المفسرين أن معنى ﴿ أولى ﴾ أخرى فيكون المراد ، النار أولى بك وأخرى . ثم كرر هذا الوعيد فقال :

﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ أي يتكرر هذا الدعاء عليك مرة أخرى فأنت جدير بهذا .

ثم أقام سبحانه الدليل على البعث من وجهين في قوله تعالى :

﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى . ● ألم يك نطفة من منى يمنى ● ثم كان علقة فخلق فسوى ● فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ● أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ .
الدليل الأول :

﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أي لا يترك الإنسان في الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره مهملاً لا يحاسب ، بل هو مأمور منى محشور إلى ربه ، فخالق الخلق لا يساوى الصالح المزكى نفسه بصالح الأعمال ، والطالح المدسى نفسه باجتراح السيئات والآثام كما قال تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

وإذا فلا بد من دار للثواب والعقاب والبعث والقيامة .

والدليل الثانى :

قوله تعالى ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ أى أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام ؟ ﴿ ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾ أى فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً سوياً سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره ؟ . ولهذا قال تعالى ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴾ أى أليس الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ فتلك أهون من البدء فى قياس العقل كما قال تعالى ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقد جاء من طرق عدة أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهم وبلى وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ منكم : « والتين والزيتون ، وانتهى إلى آخرها : أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل : بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى : أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، فليقل بلى ، وقرأ المرسلات فبلغ فبأى حديث بعده يؤمنون « فليقل : آمنا بالله »^(١)

بحث فى خلق النطفة

قال الدكتور محمد على البار فى كتابه القيم خلق الانسان بين الطب والقرآن ما ملخصه : « إن بداية خلق الانسان - إذا تجاوزنا المرحلة الطينية - هى النطفة قد ورد ذكر النطفة فى القرآن الكريم فى اثنى عشر موضعاً . . كما ذكرت أحياناً باسم الماء المهين والماء الدافق . . وتذكر أحياناً باسم المنى وليست هذه الألفاظ مترادفة متطابقة المعنى - كلا - فهى تختلف فى التفاصيل فلفظ المنى مثلاً يشمل النطفة ويزيد عليها بالماء الذى يحتويها . . وهكذا .

والنطفة أنواع ثلاثة :

- ١ - النطفة المذكرة : وهى الحيوانات المنوية الموجودة فى المنى والتى تفرزها الخصية .
- ٢ - النطفة المؤنثة : وهى البويضة التى يفرزها المبيض مرة فى الشهر .
- ٣ - النطفة الأمشاج : وهى النطفة المختلطة من الحيوان المنوى الذى يلحق بالبويضة . أى (البويضة الملقحة) .

المنى :

ويطلق لفظ المنى على الإفرازات التناسلية للرجل والتى تفرزها الخصية والبروستاتا والحويصلة المنوية . . والمنى مكون من شقين !

(١) إنظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة

الأول : هو الحيوانات المنوية التى تتكون من القنوات المنوية فى الخصية .. وهى ذاتها المسماة بالنطفة .

والثانى هو السائل المنوى الذى يحمل هذه الحيوانات ويغذيها والتى تسبح فيه حتى تصل إلى الرحم ..

وقد ورد لفظ المنى فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع .. وهى

- ١ - قوله تعالى ﴿ أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سَدًى ؟ أَلَمْ يَكْ نَظْفَةً مِنْ مَنًى يَمْنَى ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فُسُوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴾ القيامة
 - ٢ - وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى ﴾ النجم
 - ٣ - ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونُ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ الواقعة .
- ما من كل الماء يكون الولد :

والعجيب حقاً (ولا عجب فى الواقع لأن خالق النطفة ومنشئها هو الذى يتحدث عنها) إن القرآن الكريم قد ميز بين النطفة فجعل النطفة جزءاً من المنى فى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَكْ نَظْفَةً مِنْ مَنًى يَمْنَى ﴾ وفى الحديث الشريف « ما من كل الماء يكرن الولد وإذا أراد الله خلق شيئاً لم يمنعه شيئاً أخرجه مسلم . إن هذا الحديث الشريف إعجاز كامل فلم يكن أحد يعلم أن جزءاً يسيراً من المنى هو الذى يخلق منه الولد .. فلم يكن أحد يتصور أن فى القذفة الواحدة من المنى ما بين مائتين إلى ثلاثمائة مليون حيوان منوى وأن حيواناً منوياً واحداً فقط هو الذى يقوم بتلقيح البويضة .

فالحديث صريح فى أنه ليس من كل الماء يخلق الولد .. وإنما من جزء يسير منه .. واتى لمن عاش قبل أربع عشر قرناً أن يعلم هذه الحقيقة التى لم تعرف إلا فى القرن العشرين إذا لم يكن علمه قد جاء من لدن العليم الخبير وقد دلت على معنى هذا الحديث آية قرآنية كريمة . قال تعالى ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ .. قال المفسرون السلالة هى الخلاصة وخلاصة الماء المهين هى التى يكون منها الولد .. فهناك انتقاء بعد انتقاء من مئات الملايين من الحيوانات المنوية .. فأول ما تخرج يكون عشرين بالمائة منها غير صالح للتلقيح ، ثم يموت فى المهبل عدد كبير منها .. ثم يموت على عنق الرحم عدد آخر .. ثم تذهب مجموعة منها إلى قناة الرحم اليمنى وأخرى إلى قناة الرحم اليسرى ولا تدرى فى أى منها تكون البويضة .. فتهلك تلك التى ذهبت إلى غير مكان البويضة .. ولا يصل فى النهاية إلى البويضة إلا ما يقرب من خمسمائة حيوان منوى فقط وهنا يقع اختيار وانتقاء واصطفاء آخر لحيوان منوى واحد فقط من بين هؤلاء ليتم به تلقيح البويضة وصدق الله العظيم .. وصدق رسوله الكريم الذى يقول « ما من كل الماء يكون الولد .. وإذا أراد الله خلق شيئاً لم يمنعه شيئاً » رواه مسلم .^(١)

(١) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦٤ كتاب النكاح باب حكم العزل حديث رقم ١٤٣٨/١٣٣ فقد ورد برواية لأبى سعيد

وهناك اختيار واصطفاء أيضاً للبويضة . . فمبيض الطفلة وهي لاتزن جنيناً في بطن أمها يحتوى على ستة ملايين بويضة . . فإذا ما خرجت إلى الدنيا مات الكثير منها . . وتستمر هذه البويضات في أندثارها حتى بلغت القناة المحيض لم يبق منها إلا ثلاثين ألفاً . . وما ينمو منها ويخرج من المبيض لا يزيد عن أربعمئة بويضة في حياة المرأة كلها . . وفي كل شهر تنمو مجموعة من البويضات ولكن يد القدرة تختار واحدة فقط لتكمل نموها وتخرج لملاقاة الحيوان المنوى السعيد في الثلث الوحشى لقناة الرحم . .

وهناك اختيار واصطفاء للحيوان المنوى وهناك اختيار واصطفاء للبويضة . بل أن هناك اختياراً واصطفاءً للبويضة الملقحة والكرة الجرثومية . . فليست كل بويضة تلقحت تصبح جنيناً كاملاً . . كلها فإن الأبحاث الحديثة جداً تقول : إن ٧٨ بالمائة من كل حمل يجهض ويتم اسقاطه . وأن ما يقرب من ٥٠ بالمائة تسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل مصداقاً لحديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول : « إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال يارب مخلقة أو غير مخلقة . فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً » أخرجه ابن أبي حاتم .

ولم تعرف الحيوانات المنوية ومكونات المنى إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث علم دور الحيوانات المنوية في ايجاد الانسان على ضوء المعلومات الطبية الحديثة وهذا وحده أحد المعجزات العديدة بل التي لا حصر لها بين دفتى الكتاب المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولم تكتف الآية الكريمة بذلك بل إنها قالت أن خلق الزوجين الذكر والأنثى هو من النطفة التي تمنى . . حيث يقول سبحانه في نفس الآية الكريمة فجعل منه ﴿ أى المنى ﴾ الزوجين الذكر والأنثى كما يقول في الآية الكريمة التي في سورة النجم ﴿ وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ . فالذكورة والأنوثة في الجنين يحددها الحيوان المنوى الذى تختاره القدرة الألهية المبدعة فإذا أرادت المشيئة الطليقة ايجاد ولد ذكر لفتح حيوان منوى يحمل شارة الذكورة البويضة وإن أراد سبحانه وتعالى أن يخلق أنثى جعل الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة هو الذى يلقح بويضة المرأة . قال تعالى ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾ .

الذكورة والأنوثة من الذى سيحدد نوع الجنين وجنسه ذكراً أم أنثى ؟ سؤال قديم اختلفت الأجابات حوله . . وجاء القرآن الكريم بفصل الخطاب ولا غرابة فإن الذى خلق أعلم بخلقه ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾

يقول المولى - عز وجل - في سورة القيامة !

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ ؟
ويكون الجواب الوحيد على هذا السؤال بلى إنه على كل شىء قدير .

كما يقول تعالى في سورة النجم : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى ﴾ والنطفة التي تمنى هي نطفة الرجل - هي الحيوان المنوى كما نسميه اليوم باصطلاح العلم الحديث . وقد رأينا فيما سبق كيف أن كل خلية في جسم الانسان تحتوى على ثلاثة وعشرين زوجاً من الجسيمات الملونة . وأن منها زوجاً واحداً هو المسؤول عن جنسه الشخصى وجنسه ذكر أم أنثى كل خلية من خلايا الجسم تنبئك بذلك . . فخلايا الرجل تحتوى على الجسيمات الملونة XY بينما خلايا الخصية انقساماً اختزالياً فإن ناتج هذا الانقسام هو خلايا أو حيوانات منوية تحتوى على X فقط أو Y فقط أن هذه الحيوانات المنوية مذكرة أو حيوانات منوية مؤنثة ، فالحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة Y يختلف عن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة X . . وقد استطاع العلماء أن يفرقوا بينهما في الشكل والمظهر كما فرقوا بينهما في الحقيقة والمخبر فللحيوان المنوى المذكر وميضاً ولمعاناً في رأسه بينما الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة يفقد ذلك اللمعان والنور ليس هذا فحسب ولكن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة أسرع حركة وأقوى شكيمة في الغالب من زميله الذى يحمل شارة الأنوثة .

وبما أن الأم (البويضة) تعطى دائماً شارة الأنوثة فإن الحيوان المنوى هو الرحيد الذى يحدد بإرادة الله نوع الجنين ذكر أم أنثى . . إذ أنه يحمل شارة الذكورة أو يحمل شارة الأنوثة . . فإذا لقح الحيوان المنوى المذكر البويضة كان الجنين ذكراً بإذن الله . أما إذا لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة فإن نتيجة الحمل هي أنثى بإذن الله وتبقى الآية بعد ذلك كله إعجازاً علمياً كاملاً .

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ .

فالنطفة التي تمنى زوجان : حيوان منوى مذكر وحيوان منوى مؤنث والنطفة التي تمنى تقرر نوعية الجنين وجنسه وصدق الله العظيم .

هل للمرأة دور في تحديد الذكورة والأنوثة ؟

لقد قررت الآيات الكريمة السابقة أن الذى يحدد ذكورة الجنين أو أنوثته هو الله سبحانه وتعالى بواسطة النطفة التي تمنى ويبدو أن ليس للمرأة من دور واضح في تحديد الذكورة والأنوثة . . ولكن الحديث الشريف الذى أخرجه مسلم في صحيحه يقول أن للمرأة دور في ذلك حيث يقول ﷺ لليهودى الذى سأل عن الولد فقال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنت بإذن الله ^(١) . . قال اليهودى صدقت وإنك لنبى .

وتضمن الحديث عدة قضايا : أولها صفة ماء الرجل وهو أبيض وصفة ماء المرأة وأنه أصفر . . والقضية الثانية : هي إذا علا ماء الرجل أذكر بإذن الله وإذا علا ماء المرأة أنت بإذن الله . ونحن نعلم أن إفرازات المهبل حامضية بينما إفرازات عنق الرحم قلوية . كما نعلم أن إفرازات عنق

(١) المرجع السابق

(١) إنظر صحيح مسلم جـ ٢ ص ١٠٦٤ كتاب النكاح باب حكم العزل حديث رقم ١٤٣٨/١٣٣ فقد ورم برواية لأب سعيد

الرحم تكون ثخينة ولزجة في غير وقت الإياض . . أما عند خروج البويضة من المبيض فإن هذه الإفرازات ترف وتخف لزوجتها لتسمح للحيوانات المنوية بالولوج بسهولة .

ونحن إلى الآن لا نعلم دور هذه الإفرازات في تشجيع الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الذكورة أو الحيوان المنوي الذي يحمل شارة الأنوثة . . ويحتاج الأمر إلى مزيد من الأبحاث لتحديد دور هذه الإفرازات في تحديد الذكورة أو الأنوثة . وذلك بواسطة تأثيرها على الحيوانات المنوية المذكرة أو المؤنثة . .

ونحن نقول مع ابن القيم (التبيان في أقسام القرآن) : « ومع هذا كله فهذا جزء سبب وليس بموجب . . والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب . وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون في ذلك مخالفة لحكمته كما لا يكون تعجيزاً لقدرته . . وقد أشار في الحديث إلى هذا بقوله « أذكر وأنت بإذن الله » وقد قال تعالى : ﴿ الله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير ﴾ .

فأخبر سبحانه وتعالى أن ذلك عائد إلى مشيئته . وأنه قد يهب الذكور فقط والإناث فقط وقد يجمع للوالدين بين النوعين معاً . وقد يخليهما عنهما معاً . وأن ذلك راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته .

الشبه :

وأما الشبه فموضوع آخر تحدث عنه الأحاديث النبوية أيضاً فقد يشبه الولد أباه وقد يشبه أمه أو أخواله . . وقد يشبه أحد أجداده . . وقد لا يشبه أياً من آبائه . . فقد جاء في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ عن الشبه فقال النبي ﷺ « وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » قال عبد الله بن سلام رئيس أحبار اليهود آنذاك أشهد أنك رسول الله فآمن رضي الله عنه .

فالسبق في الحديث يحدد الشبه فإذا سبق ماء الرجل كان الشبه له وإذا سبق ماء المرأة كان الشبه لها . وهذا لا ينفي أن الولد قد لا يشبه أياً من الوالدين . . كما جاء في حديث الفزاري الذي أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد والدارقطني وفيه أن رجلاً من بني فزارة جاء إلى النبي ﷺ يعرض نفي ولده لأن امرأته ولدت غلاماً أسود فقال النبي ﷺ : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال فما ألوانها ؟ قال أحمر فقال رسول الله ﷺ : هل فيها من أوراق (أى أسمر) قال إن فيها لورقاً . قال فأنى أتاه ذلك ؟ قال عسى أن يكون نزع عرق^(١) ولم يرخص له في الانتفاء منه .

وقد دل هنا الحديث على سعة علمه ﷺ مع قدرته التي لا تداني في الحوار والاقناع بحيث أرجع

(١) انظر صحيح البخاري ج ٧ ص ٦٨ ، ٦٩ بكتاب الطلاق « باب إذا عرض بنفس الولد » فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

السائل إلى ما يعهده من إبله سائلاً إياه عن ألوانها حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه . وتزيل ما قد ران على قلبه من ظلال الشك القائمة في زوجته التي لم يكن لها من ذنب إلا أنها ولدت غلاماً أسود . .

وقد قال أغلب العلماء والأئمة على أنه إذا لم يكن له قرينة يستدل بها على زنى الزوجة فليس له أن يتهمها إذا جاءت بولد لا يشبه أحد أبويه .

وعلم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر بل بعيد كل البعد عن كلا الأبوين . كما حدث للفزارى الذى جاءته امرأته بغلام أسود . .

والخلاصة أن عوامل الشبه لأحد الوالدين أو للأسلاف أو بظهور صفات جديدة - كما حدث للفزارى أمر بالغ التعقيد . . وتعمل فيه الجينات بصورة خفية ومعقدة . . وبعضها يتبع قوانين مندل حسب الصفة السائدة أو متنحية وبعضها لا يتبعها وحتى تلك التى تعتبر خاضعة لقوانين الوراثة قد تتخلف عن تلك القوانين ويعتبر الجنين عندئذ كامل التعبير أو ناقص التعبير ولا يزال العلم الحديث يجهل الكثير الكثير من الحقائق التى تحدد الشبه فى الولد .

ولا ندرى إلى الآن ما هو دور السبق فى ماء الرجل أو ماء المرأة فى الشبه من الناحية العلمية - وحتى يتسع مدى العلم فى هذا الباب فإننا نقبل الحديث الشريف بقلوب مطمئنة واثقة بصدق المصطفى صلوات الله عليه الذى لا ينطق عن الهوى والذى لا يقول إلا حقاً . . وينبغى أن يحفز ذلك العلماء المختصين فى هذا الباب لدراسته فقد تنفتح لهم أبواب وتكشف لهم كشوفات . . وهذا معلم من معالم البحث التى ينبغى أن يدرسها العلماء المسلمون المختصون فى هذا الفرع من العلم . أ. هـ .

تفسير سورة الإنسان

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية . وآياتها إحدى وثلاثون . وكلماتها مائتان وأربعون وحروفها : ألف وخمسون .
ونواصل آياتها : على الألف .
ولها ثلاثة أسماء .

سورة (هل أتى) لفتحها ، وسورة الإنسان لقوله (على الإنسان) وسورة الدهر ، لقوله : (حين من الدهر) .

مقصود السورة :

بيان مدة خلقة آدم ، وهداية الخلق بمصالحهم ، وذكر ثواب الأبرار ، في دار القرار ، وذكر المنة على الرسول - ﷺ - وأمره بالصبر وقيام الليل ، والمنة على الخلق بإحكام خلقهم ، وإضافة كلية المشيئة إلى الله في قوله (يدخل من يشاء في رحمته) .

مناسبتها لما قبلها :

أنه ذكر في السورة السابقة الأهوال التي يلقاها الفجار يوم القيامة وذكر في هذه ما يلقيه الأبرار من النعيم المقيم في تلك الدار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ
إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلََّا وَسْعِيرًا ﴿٤﴾
إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ
يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غِيُوسًا قَمَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّيْنَهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَكِعِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيُطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمُ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

معاني المفردات

(هل) أى : قد ، (حين) أى : طائفة محدودة من الزمان .
(الدهر) الزمان غير المحدود ، (أمشاج : أى : أخلاط واحدها مشج (بفتحيتين) .

(نبتليه) أى : نختبره ، (السبيل) الطريق أى : بنصب الدلائل وإنزال الآيات .
 أعتدنا : أى هيأنا وأعدنا .
 الأغلال : واحدها غُل (بالضم) وهو القيد .
 السعير : النار الموقدة .
 الأبرار : واحداهم بر وجمع البار البررة الأبرار وهم أهل الطاعة والإخلاص والصدق .
 والكأس : هى الإناء الذى فيه الشراب وقد يطلق الكأس على الخمر نفسها .
 والمزاج : ما يمزج به ، أى يكون شوبها وخلطها بماء الكافور ، وجعلت كالكافور لما فيه من البياض وطيب الرائحة والبرودة . (يوفون بالنذر) أى يؤدون ما أوجبوه على أنفسهم من الطاعات .
 شره : أى : شدائده .
 مستطيراً : أى : قاشياً منتشراً فى الأقطار .
 عبوساً : أى : تعبس فيه الوجوه .
 قمطيراً : أى : شديد العبوس .
 وقاهم : أى : دفع عنهم .
 لقاهم : أى : أعطاهم .
 نضرة : أى : حسناً وبهاء .
 سروراً : أى : حبوراً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ أى كان فى العدم - لم يكن له ذكر ولا وجود كقوله تعالى ﴿ أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ قال المفسرون (هل أتى) بمعنى قد أتى كما تقول : هل أكرمتك ، هل وعظمتك ؟ ومقصودك بأنك قد أكرمته ووعظته ، والمراد بالإنسان الجنس ، وبالحين مدة لبثه فى بطن أمه . والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته ، فقد كان منسياً لا يفطن له ، وكان فى العدم جرثومة فى صلب أبيه ، وماء مهيناً لا يعلم به إلا الذى يريد أن يخلقه ، ومر عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه ، ثم خلقه الله ، وأبدع تكوينه وإنشاؤه ، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد .

وبعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن موجوداً ، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود ، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متعه بنعمة العقل والحواس فقال تعالى :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . إنا خلقنا ذرية آدم من نطفة يعنى من ماء الرجل وماء المرأة . والنطفة كل ماء قليل في وعاء كان ذلك ركية أو قرية أو غير ذلك . وقوله تعالى ﴿ أمشاج ﴾ واحدها مشج ومشيج يقال منه إذا مشجت هذا بهذا خلطته وهو مشوج به ، ومشيج أى مخلوط . . وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

وروى بسنده عن عكرمة قوله : أمشاج نبتليه قال : ماء الرجل وماء المرأة يشمج أحدهما بالآخر وروى أيضاً قوله ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وكذا قال ابن عباس والربيع بن أنس والحسن البصري ومجاهد وكثير من المفسرين القدامى والمحدثين .

وقال تعالى ﴿ نبتليه ﴾ أى لنختبره بالتكاليف الشرعية ، والأوامر الإلهية لننظر أيشكر أم يكفر ؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ ؟ وقوله ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ أى فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميّزاً ذا سمع وبصر ، ليسمع الآيات التنزيلية ، ويبصر الدلائل الكونية على وجود الخالق الحكيم .

النطفة الأمشاج في علم الأجنة

يقول الدكتور محمد على البار في كتابه (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) :

وتخرج البويضة من المبيض مرة واحدة في الشهر - وعليها التاج المشع كأنها عروس تتهادى وتبعث شيئاً من أريجها لتلك الحيوانات المنوية الضارية أذيالها بقوة والسباحة عبر الإفرازات . . وتقطع المفاوز والمخاطر لعلها تلمى ولو بنظرة إلى هذه العروس الفتانة الجميلة وتسير تلك الحيوانات المنوية (نطفة الرجل) باحثة عن البويضة (نطفة المرأة) لا تدرى أين هى : عن يمين أو يسار فتخترق مجموعة منها القناة الرحمية اليمنى وتسير مجموعة أخرى عبر القناة الرحمية اليسرى (تدعى أيضاً قناة فالوب) وهى تمنى النفس بقاء المحبوب . . فيهلك من يهلك في تلك المفاوز وعبر تلك المخاطر دون أن يحظى ولو بنظرة من تلك المحبوبة وتشاء القدرة الإلهية المبدعة أن يقترب من البويضة مئات الحيوانات المنوية بينما تحتوى الدفعة الواحدة من المنى لمئات الملايين تهلك معظمها قبل الوصول إلى البويضة وتختار القدرة المبدعة واحداً من ملايين الحيوانات المنوية لتوصله سالماً إلى البويضة فتش له مرحبة وتفتح له كوة في صدارها حتى يلج من خلال ذلك الجدار المصمت المحاط بالتاج المشع - فإذا ما ولج أوصدت الباب وأحكمت الرتاح وأضافت إلى الجدار جداراً آخر حتى تمنع عنها أى راغب وتصد بابها دون كل لابس إن هذا الوصف يبدو خيالياً ولكنى سأنقل لك عبارة أستاذ علم الأجنة والتشريح في جامعة عين شمس القاهرة الأستاذ الدكتور شفيق عبد الملك بنصها حيث يقول في كتابه علم تكوين الأجنة . . « تبدأ عملية الإخصاب خطواتها بدور الحيوان المنوى الذى إذا أحس بقرب البويضة سرعان ما يفرز مادة خاصة لها قدرة على إذابة جزء من المنطقة

الدائرية بدورها إجابة لذلك مادة أخرى لزجة القوام على سطحها في منطقة اقتراب الحيوان المنوى تحية وترحيباً به من جهة ، ومساعدة وتسهيلاً لإمكان تعلقه والتصاقه بسطحها من جهة أخرى - رجاء إمكان الحيوان المنوى إذابة ما بقى في المنطقة الدائرية المشعة وكذا المنطقة التي تليها وتحيط بالبويضة . وهي المنطقة الشفافة تمهيداً لوصول الحيوان المنوى إلى غشاء البويضة ونقلها ليدخل البويضة وإذا ما ثقبها ودخلها يغلق الثقب حالاً ولن يسمح لحيوان منوى آخر بالدخول في البويضة ولذلك يكون نصيب العدد الكثير من الحيوانات المنوية التي حاولت ثقب البويضة والدخول فيها ولم تفعل أن تظل ملتصقة ومعلقة بمنطقة البويضة الشفافة حتى تتلاشى ، وإذا ما دخل الحيوان المنوى إلى البويضة هشت له نواتها ومكمن السر فيها لتكون النواة الأولية للأنثى أو الطليعة للأنثى كما أن نواة الحيوان المنوى المتجمعة في رأسه تفعل الشيء ذاته وتكون الأولية للذكر .

وعند دخول الحيوان المنوى تكمل نواة الأنثى إنقسامها الاختزالي الذي بدأته منذ كانت جنيناً في رحم أمها . . . أى منذ عشرات السنين - وتتقابل النوتان المذكرة والمؤنثة وجهاً لوجه ويقوم مريكيز الحيوان المنوى بتكوين أشعة مغزلية في قطبي الخلية الأمشاج وعندئذ يحصل أول انقسام عادي في الخلية الأمشاج . . . وتنتقل نصف الكروموسومات (الجسيمات الملوثة) في كل من الذكر والأنثى إلى جهة كما ينتقل النصف الآخر إلى الجهة المقابلة . . وسرعان ما ينزل بينهما جدار يفصل بينهما ليكون أول خليتين تامتين من هذه النطفة الأمشاج .

مرحلة الانشقاق والانقسام في النطفة الأمشاج

حالما يتم التخصيب وتكون النطفة الأمشاج من الحيوان المنوى والبويضة . . تصنع يد القدرة للبويضة الملقحة جداراً سميكاً مصمتاً لا يمكن لأى حيوان منوى آخر اختراقه كما أنها تخلع عنها تاجها المشع الذي كان يغرى الحيوانات المنوية بالاقتراب منها ومنذ تلك اللحظة تبدأ بالعمل الجاد وتبدأ بالانشطار : الخلية تصبح خليتان والخليتان أربع وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت عندئذ تسمى التوتة فإذا ما كبرت الكرة قليلاً صار ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق وعندئذ تدعى بالتكور الجرثومي أو البلاستولا .

وفي هذه الأثناء لا تكف البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج عن الحركة (تتحرك النطفة الأمشاج بواسطة شعيرات قناة الرحم وتقلصات جداره . وليست لها وسيلة للحركة الذاتية) . وإن كانت حركة بطيئة فهي تنتقل من الثلث الوحشي لقناة الرحم (قناة فالوب) حيث يتم التلقيح وتتجه عبر القناة الرحمية حتى تقترب من الرحم وفي خلال خمسة أيام أو أسبوع على الأكثر تكون قد وصلت إلى الرحم وهناك تنظر أين تتوسد وتتغرز .

وتوجهها يد العناية الإلهية إلى أن خير مكان لها هو النصف العلوى من الرحم وخاصة جداره الخلفى - وهناك تنشب وتعلق في جدار الرحم الذى قد استعد لاستقبالها بفرش الطنف والوسائد وجعل جداره مليئاً بالأوعية الدموية حتى يغذيها وينميها .

وعندما تنغرز الكرة الجرثومية تكون قد تحولت من نقطة الأمشاج إلى علقه وتبدأ عندئذ مرحلة جديدة في حياة الجنين . . . وهى مرحلة العلقه : - أ . هـ .

قوله تعالى :

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾

ثم ذكر أنه بعد أن ركبته وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى وسبيل الضلال فقال (إنا هديناه السبيل) أى بيناه ووضحناه وبصرناه به كقوله تعالى ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفقتين وهديناه النجدين ﴾ أى بينا له طريق الخير وطريق الشر .

وقوله : ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ أى فهو في ذلك إما شقى وإما سعيد كما جاء في مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن النبى - ﷺ - قال لكعب بن عجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » قال وما إمارة السفهاء ؟ قال « أمراء يكونون من بعدى لا يهتدون بهداى ، ولا يستنون بسنتى فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردون على حوضى ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى ، يا كعب بن عجرة : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، والصلاة قربان - أوقال برهان - يا كعب بن عجرة : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به ، يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » (١) ، وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان . فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته » .

وقوله تعالى : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ ، أى إنا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا وخالفوا أمرنا وسلوكوا سبيل الضلال - سلاسل بها يقادون إلى الجحيم ، وأغلالاً بها تشد أيديهم إلى أعناقهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا ، وناراً بها يحرقون . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولاً ﴾ .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعدّه للكافرين بين ما أعدّه للشاكرين من شراب شهى ولباس بهى فقال

تعالى :

(١) إنظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٢١ فقد ورد الحديث من رواية جابر بن عبد الله

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ .

أى : إن الذين بروا بطاعتهم ربهم ، فأدوا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه - يشربون من خمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكاפור طيب رائحة وبرداً وبياضاً .

وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون وهم فى غرف الجنات ، يسوقونها إليهم سوقاً سهلاً إلى حيث يريدون ، ويتنفعون بها كما يشاءون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يحبون وصوله إليه . قال مجاهد : يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيث مالوا . ثم ذكر ما لأجله استحقوا الكرامة قال تعالى :

﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً ﴾ .

أى : يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر :

قال الإمام مالك بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله - ﷺ - قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه »^(١) ورواه أيضاً البخارى من حديث مالك . وقوله تعالى : ﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ أى ويتركون المجرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذى شره مستطير أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله . كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ أى ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم كقوله تعالى ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ وكقوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

وفى الحديث الصحيح « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى »^(٢) ، أى فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ المسكين هو العاجز عن الاكتساب واليتيم : الذى مات كاسبه ، والأسير : المأخوذ من قومه ، المملوكة رقبة ، الذى لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٥٩ باب النذر فى الطاعة فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٧١٦ باب بيان أن أفضل الصدقة الصدقة الشحيح حديث ١٠٣٢/٩٢ فقد ورد هذا الجزء من

والمراد من إطعام الطعام ، الإحسان إلى المحتاجين ، ومواساتهم بأى وجه كان وإنما خص الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان لا جرم أن عبر به عن جميع وجوه المنافع .
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ أى نطعمكم رجاء ثواب الله ورضاه (لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً) أى لا نطلب منكم مجازاة تكافئونها بها ولا أن تشكرونا عند الناس قال مجاهد وسعيد بن جبیر أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

قال تعالى : ﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً ﴾ أى إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه فى اليوم العبوس القمطير . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما عبوساً أى ضيقاً ، قمطيراً أى طويلاً ، قال ابن جرير والقمطير هو الشديد ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء .

قال الله تعالى : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ .

أى آمنهم الله سبحانه مما خافوا منه (ولقاهم نضرة) أى وأعطاهم نضرة فى وجوههم كما قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (وسروراً) أى فى قلوبهم فقد جمع لأولوياته بين جمال الظاهر والباطن : فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه سبحانه فلا أجل لبواطنهم . ولا أنعم ، ولا أحلى - من النظر إليه ، ولا أجل لظواهرهم من نضرة الوجه ، وهى إشراقه وتحسينه وبهجته .

وقوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ أى بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنة وحريراً أى منزلاً رحباً وعيشاً رغداً ، ولباساً حسناً . وأخبر سبحانه أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنة يصبرهم كما قال ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ، ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عينا فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ أى متكئين فى الجنة على السرر فى الحجال ، ليس لديهم حر مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل جو واحد معتدل دائم سرمدى ، فهم لا يبغون عنها

حولا . وقوله : ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ أى أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار ، مظلة عليهم زيادة فى نعيمهم . كقوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظللاً ظليلاً ﴾ وكقوله ﴿ وظل ممدود ﴾ وكقوله ﴿ إن المتقين فى ظلال وعيون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلالٍ على الأرائك مُتَكئون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وذلت قطوفها تذليلاً ﴾ أى سخرت للمقائم والقاعد والمتكىء . قال مجاهد : إن قام ارتفعت منه بقدر ، وإن قعد تدلت له حتى يناها ، وكذلك إذا اضطجع ، لا يردُّ اليد عنها بُعد ولا شك . وعن البراء بن عازب قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أى حال شاءوا .

وبعد أن وصف - سبحانه - طعامهم ولباسهم ومسكنهم - وصف شرابهم وأوانيه فقال تعالى : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قَدَرُوها تقديرًا ﴾ أى يدبر عليهم خدمهم كؤوس الشراب والأكواب من الفضة . وقد تكونت وهى جامعة لصفاء الزجاجاة وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها كفايتهم وريهم . وذلك ألد لهم وأخف عليهم ، فهى ليست بالملاى التى تفيض ، ولا بالناقصة التى تغيض .

وقوله تعالى : ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ أى (كان مزاجها زنجبيلاً) فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منها حرفاً . كما قاله قتادة وغير واحد ، وقوله : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ أى الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلاً . وسميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريانها ، وكذلك لسلاستها فى الحلق .

وقوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

أى : ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة (مخلدون) أى على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . وقوله : ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أى إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء جوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً وقد وصفهم سبحانه أيضاً بقوله : ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ أى وإذا رأيت يا محمد (ثم) أى هناك يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحيرة والسرور (رأيت نعيماً وملكاً كبيراً) أى مملكة الله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً .

وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها» (١).

وقوله تعالى : ﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق﴾ أى لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان وهو مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس (وحلوا أساور من فضة) وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى : ﴿يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ . ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) أى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة كما قال تعالى : ﴿إن المتقين في جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾ .

قوله تعالى : ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾ أى يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى : ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وكان سعيكم مشكوراً﴾ أى جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير . وكما حكي سبحانه عن أهل الجنة : ﴿وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾ .

توجيهات ربانية

قال تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِن تَزِيلَا ۖ ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ۖ ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۖ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۖ ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ۖ ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ

(١) إنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٩ باب صفة الجنة والنار فقد ورد هذا الجزء من الحديث من حديث طويل لعبد الله

سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُ وَلَا أَنْ يُشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

معاني المفردات

- تنزيلاً : أى أنزلناه عليك مفرقاً منجماً .
حكم ربك : هو تأخير نصرتك على الكفار إلى حين .
والآثم : هو الفاجر المجاهر بالمعاصي .
والكفور : هو المشرك المجاهر بكفره .
(بكرة وأصيلاً) أى : أول النهار وآخره . والمراد بذلك جميع الأوقات .
(اسجد) أى : صل .
(سبحه) أى : تهجد .
(وراءهم) أى : أمامهم .
(شددنا أسرهم) أى : أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق .
(بدلنا أمثالهم) أى : أهلكناهم ، وبدلنا أمثالهم في شدة الخلق .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الآخرة ، وبين عذاب الكفار على سبيل الاختصار ، وثواب المطيعين على سبيل الاستقصاء أردف ذلك ذكر أحوال الدنيا ، وقدم أحوال المطيعين ، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على أحوال المتمردين والمشركين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ .
يقول تعالى ممتناً على رسوله صلى الله عليه وسلم بما أنزله عليه من القرآن العظيم ﴿تنزيلاً﴾ أى : أنزلناه مفرقاً منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته ، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التى تجدد فى الكون ، فتكون تثبيتاً لايمان المؤمنين وزيادة فى تقوى المتقين قال تعالى ﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾ .

وقد يكون المعنى : نزلنا عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون ، ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم وشرح صدره ، وأن الذى أنزل عليه وحى لا كهانة ولا سحر وبذا تزول الوحشة من قول الكفار : إنه كهانة أو سحر . وقوله تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أى كما أكرمك بما أنزل عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره . ﴿ ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً ﴾ أى لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس . ونحو الآية قوله تعالى ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

قوله تعالى ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ أى أول النهار وآخره والمراد بذلك جميع الأوقات كما قال تعالى ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ .

أذكار الصباح والمساء

قال ابن القيم فى كتابه « الوابل الصيب من الكلم الطيب » (فى ذكر طرفى النهار) « وهما ما بين الصبح وطلوع الشمس ، وما بين العصر والغروب . قال سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ والأصيل : قال الجوهري هو الوقت بعد العصر إلى المغرب وقال تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار ﴾ فالابكار أول النهار والعشى آخره ، وقال تعالى ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وهذا تفسير ما جاء فى الأحاديث : من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي ، أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به ، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه »^(١) .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٦٩٢/٢٩ فقد ورد الحديث

برواية عن أبى هريرة

وفي صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب في النار ، وعذاب في القبر . وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله ... »^(١) .

وفي السنن عن عبد الله بن حبيب قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل » قلت : يا رسول الله ، ما أقول ؟ قال (قل هو الله أحد) والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء قال الترمذی : حديث حسن صحيح . (وهذا اللفظ لأبي داود) . وفي الترمذی أيضاً عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه يقول : إذا أصبح أحدكم فليقل : اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا وبك نحيا ، وبك نموت وإياك النشور وإذا أمسى فليقل : اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإياك المصير » قال الترمذی حديث حسن صحيح .

وفي صحيح البخاري عن شداد بن أوس عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها حين يمسى فمات من ليلته دخل الجنة ، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة »^(٢) .

وفي سنن الترمذی عن أبي هريرة رضى الله عنه أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرنى بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل : اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم . قلّه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك »^(٣) قال الترمذی : حديث حسن صحيح .

وفي الترمذی أيضاً عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم - ثلاث مرات - فيضره شيء » قال الترمذی : حديث حسن صحيح^(٤)

وفيه أيضاً عن ثوبان وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يمسى وإذا يصبح : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً كان حقاً على الله أن يرضيه »

(١) إنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٨٨ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح - رقم ٢٧٢٣/٧٥ فقد ورد الحديث برواية

لعبد الله

(٢) إنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٩٨ « كتاب الدعوات » باب أفضل الاستغفار فقد ورد الحديث من رواية لشداد بن أوس

(٣) إنظر سنن الترمذی كتاب الدعوات ج ٥ ص ١٣٤ رقم ٣٤٥٢

(٤) إنظر سنن الترمذی كتاب الدعوات ج ٥ ص ١٣٢ رقم ٣٤٤٨

وقال : حديث حسن صحيح^(١) .

وفي الترمذى أيضاً عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قال حين يصبح أو يمسي : اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار ، ومن قالها مرتين أعتق نصفه من النار ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعاً أعتقه الله من النار»^(٢) .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن غنم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر . فقد أدى شكر يومه . ومن قال مثل ذلك . حين يمسي فقد أدى شكر ليلته»^(٣) .
وفي السنن وصحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم أستر عوراتي وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »^(٤) قال وكيع يعنى الخسف . ا . ه .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ هذه الآية كقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وكقوله ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ والمقصود أن يكون عابداً لله ذاكراً له في جميع الأوقات ، في الليل والنهار ، والصباح والمساء ، بقلبه ولسانه ، ليتقوى على مجابهة أعدائه كما قال تعالى : ﴿ ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

هديه - صلى الله عليه وسلم -

في قيام الليل

قال ابن القيم في الزاد :

وقد اختلف السلف والخلف في أنه هل كان فرضاً عليه أم لا ، والطائفتان احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قالوا فهذا صريح من عدم الوجوب ، قال الآخرون أمره بالتهجد في هذه السورة كما أمره في قوله تعالى ﴿ يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلاً ﴾ ولم يجيء ما ينسخه عنه ، وأما قوله تعالى ﴿ نافلة لك ﴾ فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة لك وإنما المراد بالنافلة الزيادة

(١) انظر سنن الترمذى كتاب الدعوات ج ٥ ص ١٣٣ رقم ٣٤٤٩

(٢) المرجع السابق

(٣) انظر سنن أبي داود ج ٥ ص ٣١٤ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح وإذا أمس

(٤) انظر المستدرک للحاكم ج ١ ص ٣١٣ كتاب باب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر

ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع قال تعالى ﴿ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة﴾ أى زيادة على الولد . وكذلك النافلة في تهجد النبي صلى الله عليه وسلم زيادة في درجاته وفي أجره ، ولهذا خصه بها فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فهو يعمل في زيادة الدرجات وعلو المراتب وغيره يعمل في التكفير . قال مجاهد : إنما كان نافلة للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت طاعته نافلة أى زيادة في الثواب ولغيره كفارة لذنوبه . قال ابن المنذر في تفسيره بسنده عن مجاهد قال ما سوى المكتوبة فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب وليست للناس نوافل إنما هي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة والناس جميعاً ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها .

قال ابن القيم : والمقصود أن النافلة في الآية لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه كالمستحب والمندوب وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب فلا يكون قوله (نافلة لك) نافياً لما دل عليه الأمر من الوجوب .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم يدع قيام الليل حضراً ولا سافراً وكان إذا غلبه النوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في هذا دليل على أن الوتر لا يقضى لفوات محله فهو كتحية المسجد وصلاة الكسوف والاستقاء ونحوها لأن المقصود أن يكون آخر صلاة الليل وترّاً كما أن المغرب آخر صلاة النهار فإذا انقضى الليل وصليت الصبح لم يبلغ الوتر موقعه هذا معنى كلامه .

وكان قيامه ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة كما قاله ابن عباس وعائشة فإنه ثبت عنها هذا وهذا ففي الصحيحين عنها ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة .

وفي الصحيحين أيضاً كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة يوتر من ذلك بخمس لا يجلس في شيء إلا في آخرهن . والصحيح عن عائشة الأول والركعتان فوق الأحدى عشر هما ركعتا الفجر جاء ذلك مبيناً في هذا الحديث بعينه وكان رسول الله ﷺ يصلي ثلاث عشرة ركعة بركعتي الفجر ذكره مسلم في صحيحه^(١) . وقال البخاري في هذا الحديث كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة ثم يصلي إذا سمع النداء بالفجر ركعتين خفيفتين . .

(فصل في سياق صلاته ﷺ بالليل ووتره وذكر صلاة أول الليل) .

قالت عائشة - رضى الله عنها - : ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل على إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات ثم يأوى إلى فراشه . وقال ابن عباس لما بات عنده صلى العشاء ثم جاء ثم صلى ثم نام . ذكرهما - أى الحديثين - أبو داود وكان إذا استيقظ بدأ بالسواك ثم يذكر الله تعالى (يقول : لا إله

(١) إنظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٠٨ كتاب الصلاة باب صلاة الليل

إلا أنت سبحانك اللهم استغفرك لذنبي وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ، وكان يقول إذا انتبه من نومه « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ثم يقول وربما قرأ العشر الآيات من آخر آل عمران من قوله تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ إلى آخرها وقال اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك لا يفلخ والجنة حق والنار حق والنبون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت . . .) ثم بعد ذلك يتطهر ثم يصلي ركعتين خفيفتين كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح بركعتين خفيفتين وأمر بذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال « إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين رواه مسلم . وكان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو انما يصيح في النصف الثاني وكان يقطع ورده تارة ويصليه تارة وهو الأكثر . كما قال ابن عباس في حديث مبيته عنده أنه ﷺ استيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ تم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات كل ذلك يستاك ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات ثم أوتر بثلاث فأذن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل لي من فوقی نوراً ومن تحتي نوراً اللهم أعطني نوراً » رواه مسلم ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة فأما أنه كان يفعل هذا تارة وهذا تارة وأما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظ ابن عباس وهو الأظهر لمواظبتها له ولمراعاتها ذلك ولكونها أعلم الخلق بقيامه الليل وابن عباس انما شاهده ليلة المبيت عند خالته وإذا اختلف ابن عباس وعائشة في شيء من أمر قيامه بالليل فالقول ما قالت عائشة .

وكان قيامه بالليل ووتره أنواعاً فمنها هذا الذي ذكره ابن عباس :

والنوع الثاني الذي ذكرته عائشة أنه يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين ثم يتمم ورده إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين ويوتر بركة .

النوع الثالث : ثلاث عشرة ركعة كذلك . النوع الرابع يصلي ثمان ركعات يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سرداً متواليه لا يجلس في شيء إلا في آخرهن . النوع الخامس : تسع ركعات يرد منهن ثمانياً لا يجلس في شيء منهن إلا في الثامنة يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعو ثم ينهض ولا يسلم ثم يصلي التاسعة ثم يقعد ويتشهد ويسلم ثم يصلي ركعتين جالساً بعد ما يسلم . النوع السادس : يصلي سبعة كالتسع المذكورة ثم يصلي بعدها ركعتين جالساً . النوع السابع : أنه كان يصلي مثني مثني ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهن فهذا رواه الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنه كان يوتر بثلاث .

النوع الرابع : ما رواه النسائي عن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ في رمضان فركع فقال في ركوعه سبحان ربى العظيم مثل ما كان قائماً ثم جلس يقول رب اغفر لي ، رب اغفر لي مثل ما كان قائماً فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعو إلى الغداة . وأوتر أول الليل ووسطه وآخره وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح وهى قوله تعالى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١) وكانت صلاته بالليل ثلاثة أنواع . أحدها وهو أكثرها صلاته قائماً . الثانى أنه كان يصلى قاعداً ويركع قاعداً . الثالث أنه كان يقرأ قاعداً فإذا بقى يسير من قراءته قام فركع قائماً . والانوع الثلاثة صحت عنه ﷺ . ا.هـ .

قوله تعالى : ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ أى إن هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا وتعجبهم زينتها وينهمكون في لذاتها الفانية ، ويدعون خلف ظهورهم العمل لليوم الآخر وما لهم فيه النجاة من أهواله وشدائده .

قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد في قوله تعالى ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ أى وشددنا خلفهم ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أى وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً ، وهذا استدلال بالبداة على المرجعة كما قال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يعنى هذه السورة تذكرة وقد كان ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الصبح ﴿ ألم تنزيل ﴾ السجدة ، ﴿ وهل أتى على الإنسان ؟ ﴾ رواه مسلم . قال ابن تيمية رحمه الله كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة لأنها تضمنتا ما كان ويكون في يومها فإنها اشتملتا على خلق آدم وعلى ذكر المعاد وحشر العباد وذلك يكون يوم الجمعة وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها حيث اتفقت .

وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أى فمن شاء الخير لنفسه في الدنيا والآخرة ، فليتقرب إلى ربه بالطاعة ، ويتبع ما أمره به ، ويتنزه عما نهاه عنه ، ليحظى بثوابه ، ويتبعد عن عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ أى وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ولا تقدرُونَ على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لنيلها فلا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل في الايمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿ إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أى عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقبض له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ ثم قال جل في علاه ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾

والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴿ أى يهدى من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له . ومن يضل فلا هادى له .

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنبى جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، أنا بك وإليك لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » .

تفسير سورة المرسلات

مقدمة

قال صاحب البصائر عن هذه السورة الكريمة :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمسون .

وكلماتها : مائة وإحدى وثمانون .

وحروفها : ثمانمائة وستة عشر .

مجموع فواصل آياتها : (عبرتم لنا) على اللام الفصل فى الموضعين ، وعلى الراء (القصر) (صفر) ، وعلى الباء (شعب) (واللهب) .

وسميت سورة المرسلات ، لمفتتحها .

معظم مقصود السورة :

القسم بوقوع القيامة ، والخبر عن إهلاك القرون الماضية ، والمنة على الخلائق بإيجادهم فى الابتداء ، وإدخال الأجانب فى النار ، وصعوبة الحق إياهم ، وأنواع كرامة المؤمنين فى الجنة والشكاية عن الكفار بإعراضهم عن القرآن فى قوله ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

المتشابهات :

قوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ مكرر عشر مرات : لأنه كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى ، فلا يكون تكرارها مستهجنًا . ولولم يكرر كان متوعداً على بعض دون بعض . وقيل : إن من عادة العرب التكرار والإطناب ، كما من عادتهم الاقتصار والإيجاز وبسط الكلام فى الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الإيجاز .

قال البخارى بسنده عن ابن مسعود - رضى الله عنه قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ والمرسلات ﴾ فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها . . . الحديث « (١) .
ومناسبتها لما قبلها : أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد الفجار ، ووعد المؤمنين الأبرار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَاتِ ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَرَقَاتِ ﴿٤﴾
فَرَقًا ﴿٥﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٦﴾ عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٧﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٨﴾ فَإِذَا
النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ
أُقِنَتْ ﴿١٢﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٣﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٥﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٦﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ نُنَبِّعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٨﴾ كَذَلِكَ
نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢١﴾
فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٢﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٣﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٦﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٧﴾ وَجَعَلْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾

معاني المفردات

﴿ والمرسلات عرفا ﴾ فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا ﴿ المراد الرياح .
﴿ فالفرقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ﴾ المراد الملائكة .

﴿ عذراً أو نذراً ﴾ أى : فالملائكة الملقيات الى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق ، وانذار لهم بعقاب الله إن هم خالفوا أمره .

﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ أى : أقسم بهذه الأقسام إن ما وعدتم به من قيام الساعة لكائن لا محالة .

﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أى : ذهبت ضوءها .

﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى : انفطرت وتشققت .

﴿ أقت ﴾ أى : عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممها .

﴿ أجلت ﴾ أى : أخرت وأمهلته .

﴿ الفصل ﴾ أى : الفصل بين الخلائق .

﴿ ويل ﴾ عذاب وخزى .

﴿ من ماء مهين ﴾ أى : من نطفة قدرة حقيرة .

﴿ فى قرار مكين ﴾ أى : فى الرحم .

﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أى : إلى مقدار معين من الوقت عند الله .

﴿ فقدرنا ﴾ أى : على خلقه وتصويره كيف شئنا .

﴿ كفات ﴾ ما يكفت ، أى يضم ويجمع .

﴿ رواسى ﴾ أى : جبلاً ثوابت .

﴿ شاخات ﴾ أى : مرتفعات .

﴿ فراتا ﴾ أى : عذاباً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفاً ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بالمرسلات وهى الرياح كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقيل ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ . أى أقسم بالرياح حين تهب متتابعة يقفوا بعضها إثر بعض ، ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ هى الرياح كما يقال عصفت الرياح إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات هى الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء كما يشاء الرب تبارك وتعالى .

وأقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووجدانيته ، وعظم قدرته ، ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها

وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها . فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذررو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح ، وللسفن ريح ، وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، الى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ويجعلها رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحى بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان وتارة تذيبها ، وتارة عقيا ، وتارة لاقحة ، وتارة جنوبا ، وتارة دبورا ، وتارة صبا ، وتارة شمالا ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شىء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثير والتأثير لطيفة المسارق بين السموات والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذى على وجه الأرض هلك ، كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها الله سبحانه إذا شاء ويرسلها إذا شاء ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب وهى أقوى خلق الله . . كما رواه الترمذى فى جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد . فخلق الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا يا رب ، هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد ، قالوا : يا رب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد قال النار قالوا يا رب فهل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال نعم : الماء قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الماء ؟ قال نعم . الريح . قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقه بيمينه يخفيها عن شماله » ورواه أحمد فى سنده (١) .

قوله تعالى : ﴿ فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا ﴾ يعنى الملائكة فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه ، إعذار إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله أن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ هذا هو جواب القسم أى أن ما توعدون به من أمر القيامة كأمر الحساب والجزاء ، كائن لا محالة . قال المفسرون : أقسم تعالى بخمسة أشياء : تنبيها على جلاله قدر المقسم به ، وتعظيما لشأن المقسم عليه ، فأقسم بالرياح التى تحمل الرحمة والعذاب ، وتسوق للعباد الخير أو الشر ، وبالملائكة الأبرار ، الذين يتنزل بالوحي للإعذار والإنذار ، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه ، وأن ما وعد الله تعالى به المكذبين ، من مجىء الساعة والثواب والعقاب ، كائن لا محالة فلا ينبغى الشك والامتراء .

وقال ابن القيم رحمه الله « ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم فى هذه الآيات وقع على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فإنها من

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ فقد ورد الحديث من رواية عن بشر بن حجاج

روح الله ، وقد جعلها الله تعالى نشورا ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة ، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء ا. هـ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين .

﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ أى : فإذا ذهب ضوء النجوم . كقوله تعالى ﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ كقوله ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى وإذا السماء انفطرت وتشققت ، كقوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ وكقوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وقوله ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أى وإذا الجبال فرقتها الرياح ، فلم يبق لها عين ولا أثر كقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا ﴾ وكقوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أى : وإذا جعل للرسل وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ الآية وكقوله ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لأى يوم أجلت ﴾ أى : ويقال حينئذ : لأى يوم أخرت الأمور المتعلقة من تعذيب الكفار واهانتهم ، وتنعيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أمور الآخرة وأحوالها وفضاعة أهوالها .

والمراد بهذا تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه ، كأنه قيل : أى يوم هذا الذى أجل اجتماع المرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم . ثم بين ذلك اليوم فقال تعالى ﴿ ليوم الفصل ﴾ أى ليوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، وهو اليوم الذى أجل اجتماع الرسل له . وقوله ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أى : وما أعلمك بيوم الفصل وشدته وعظيم أهواله ؟

ثم صرح بالمراد وأبان من سيقع عليهم النكال والوبال حينئذ فقال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : عذاب وخزى لمن كذب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وبكل ما ورد على السنة أنبيائه وأخبروا به .

قوله تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ . ثم تتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين .

يقول تعالى ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ يعنى من المكذبين للرسل أى : ألم نهلك من كذب الرسل قبلكم ، ونعذبهم فى الدنيا بشتى أنواع العذاب فتارة بالغرق كما حدث لقوم نوح وقوم فرعون ، وأخرى

بالزلازل كما كان لقوم لوط إلى أشباه ذلك من المثلات التي حلت بالاسم قبلكم ، جزاء لهم على قبيح أعمالهم وسوء أفعالهم ، وأن سننا في المكذبين لا تبديل فيها ولا تغير ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم وتندموا ، ولات ساعة مندم .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نتبعهم الآخريين ﴾ أى : ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخريين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم فعلوا مثل أفعالهم كقوله تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها ﴾ .

﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أى : إن سننا في جميع المجرمين واحدة ، فكما أهلكنا المتقدمين لأجرامهم وتكذيبهم - نفعل بالتأخريين الذين حذوا حذوهم واستنوا سنتهم .

وقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : هؤلاء وإن عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب ، فالطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة ، والتكرير للتوكيد شائع في كلام العرب كما تقدم في سورة الرحمن .

وقال القرطبي : كرر الويل في هذه السورة عند كل آية لمن كذب بشيء لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فجعل لكل مكذب شيء عذاباً سوى عذابه بتكذيب شيء آخر ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

ثم قال تعالى ممتنا على خلقه ومحتجا على الاعادة بالبداة ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ أى ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل .

أخرج الامام أحمد بسنده عن بشر بن حجاج قال إن رسول الله ﷺ بصق يوما في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعنى جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء . ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ يعنى إلى مدة معينة من ستة أشهر إلى تسعة أشهر ولذا قال تعالى ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ أى ونحن قد قدرنا ذلك فنعم المقدرين ، إذ خلقناكم في أحسن الصور والهيئات - أفلا يستحق ذلك الخالق منكم الشكر لا الكفران والاعتراف بوجدانيته وارساله للرسول والاقرار بالبعث ؟ لكنكم كفرتم أنعمه ، ونكلتم عن الاعتراف بوجدانيته وعبدتم الأصنام والأوثان ، وأنكرتم يوم الفصل والجزاء ، فسترون في هذا اليوم عاقبة ما أجترحتم ولذا قال سبحانه ﴿ ويل

يومئذ للمكذبين ﴿ أى خزى وعذاب لمن كذب بهذه المنن العوالى .

ألا إننا كلنا بائد وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحد الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

من آيات الله الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته (القرار المكين)

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه « خلق الانسان بين الطب والقرآن » تحت هذا العنوان « القرار المكين » .

قال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدردنا فنعم القادرون ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفه فى قرار مكين ﴾ لقد سمى الله تعالى الرحم القرار المكين . . الذى تنمو فيه النطفه الأمشاج حتى تصير جنينا ثم حملا ثم تخرج طفلا كامل الخلقة سوى التكوين . . لذا فلا بد أن يكون الرحم محروسا ومهيا لأن يكون القرار المكين كما أنه الفراش الوثير لتلك النطفه فالعلقة . .

وأول شىء نلاحظه هو أن الرحم موضوع فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم من كل عدوان خارجى ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم . . ومع ذلك تسمح له بالحركة والنمو حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة فى نهاية الحمل . . إذ أن حجم رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من ميليلترين ونصف بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف ميليلتر . . ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به . . كما نلاحظ عضلات الحوض والعجان وهى تحفظ الرحم فى مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة فى الحوض كالمثانة والمستقيم والقناة الشرجية . . . ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة والقناة الشرجية ولبرزت إلى الخارج . . . وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزيق عضلات العجان فى حالة الولادة المتعسرة أو فى الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدى الى سقوط هذه الأعضاء .

وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم وبالأجزاء العلوى من المهبل ويربط أجزائه بالمثانة من الأمام . . . وبالمستقيم من الخلف يساند مساندة فعالة فى جعل الرحم قرارا مكينا لنمو النطفه الانسانية فى أدوارها المختلفة كما أننا نلاحظ توازناً عجيباً بين الضغط المود فى تجويف البطن وتجويف

الحوض بحيث يمسك بالأعضاء في أماكنها .

وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضاً . . . واتصال الرحم بالعنق اتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل لما يساعد مساعدة فعالة في ثبات الرحم في مكانه .

ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات : خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم . وبينهما الطبقة العضلية الثخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات . . . وهذه العضلات أهمية خاصة في منع النزيف من الرحم وخاصة بعد الولادة . . . إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية الدموية المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم . . . ولكن الله هياً هذه العضلات العاصرة لتقفل هذه الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة افراز هرمون الحمل البرجستون إذ أن هذا الهرمون يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومنتدة عكس هرمون الأنوثة الأستروجين الذي يجعل انقباضات الرحم نزقة هاشة باشة للمنى . . . كما وصفها الفخر الرازي بقوله : « إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث قريباً وكان خالياً من الفضول المانعة له عن فعله أشد شوقه إلى المنى حتى أن الانسان يحس في وقت الجماع وكان الرحم يجذب أحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم . . . ولا يمكن أن يحصل ذلك أثناء الحمل مثلاً . . . لأن هرمون البروجسترون (هرمون الحمل) يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . . ويأمره بالسكينة والوقار . . . فإن بداخله درة مكنونة لوفعل بها ذلك لقذفها إلى الخارج .

وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ويقول لها أرخى من قبضتك قليلاً فتسمع له وتطيع وترخى من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعاً حتى يتسنى للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات .

فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة النخامية يسمى هرمون الارتقاء فيقول للحوض اتسع فيتسع وعند ذاك يمر الطفل في ذلك الطريق الضيق الذي احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر به دون أن ينحشر انحشاراً مميتاً فيه . . .

فانظر إلى رحمة الله وهي ترعاك في كل طور من أطوار حياتك منذ كنت نطفة مغلقة فعظماً فلحماً يكسو العظام . . . فخلقاً من بعد خلق . . . والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء . . . وتدفع عنك الأذى فإذا حان موعد خروجك إلى الدنيا . . . هيأ لك الأسباب وأرخى لك العظام وجعلها طبيعة لينة . . . وأمر الرحم بالانقباض فانقبض انقباضات متتالية ومتقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدى إلى الضغط عليك ضغطاً يؤدى إلى وفاتك . . . وهياً الطريق لخروجك في ذلك الحيز الضيق الذي لا يمكن أن تخرج منه لولا رحمته . . . ثم تخرج لتجد غذائك جاهزاً في ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات تسقيك إياه من

ثديها مع ذلك اللبن الذى يخرج من بين فرث ودم ثم يردك طفلاً ويافعاً . . فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وسأقتك الأوهام والخيالات إلى نكران تلك النعم التى تهطل عليك فى كل لحظة وآن . . وأنت عنها غافل سادر .

فما أحراك بالسجود شكراً لله على عظيم مننه وآلائه . . وما أحراك أن تطيع فلا تعص أبداً . . ولكنها النفس الأمارة بالسوء . . ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس فى آناء الليل وأطراف النهار . . ولا بد من أوبة . . ولا بد من توبة . . قبل فوات الأوان . . فإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار . . ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل . . أ . هـ

قوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً وجعلنا فيها رواسى شاخحات وأسقيناكم ماء فراتاً ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

أى : ألم نجعل الأرض مهاداً لكم ، فتكفتم وتجمعكم فيها أحياء على ظهرها وأمواتاً فى بطنها ، فالأحياء يسكنون فى منازلهم ، والأموات يدفنون فى قبورهم .

قال مجاهد وقتادة والشعبي فى هذه الآية : « ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً » بطنها وأمواتكم وظهرها لأحيائكم .

(وجعلنا فيها رواسى شاخحات) أى : وجعلنا جبلاً ثوابت عاليات على ظهرها لئلا تميد بكم .

وهذه الجبال بالطبقة الصوانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها وتلك الطبقة تضم فى جوفها كرة النار المشتعلة التى فى باطنها ، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ أى : وأسقيناكم ماء عذباً تشربون منه ، إما آتياً من السحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، وأما من العيون النابتة منها ويمدها الثلج الذى يذوب شيئاً فشيئاً فوق ظهر الأرض منتزلاً إلى بطنها ، متجهاً إلى عيونها الجارية .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى : عذاب عظيم فى الآخرة لمن كفر بهذه النعم .

من صور الوعيد والوعد

قال تعالى :

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٣٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٤٠﴾
 لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٤١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ رَكَالٍ قَصِيرٍ ﴿٤٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ
 صُفْرٌ ﴿٤٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ
 لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
 وَالْأُولَىٰ ﴿٤٨﴾ فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٤٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٠﴾
 إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٥١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
 هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّا كَذَّاكُ تَجْزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٤﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٧﴾
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٥٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٥٩﴾ فَبِأَيِّ
 حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾

معاني المفردات

- لا ظليل : أى : لا يقى من حر الشمس .
 الشرر : ما يتطاير من النار .
 كالقصر : أى : كالدار الكبيرة المشيدة .
 جمالة : واحدها جمل .
 فكيدون : أى : فاختلفوا على .
 ظلال : واحدها ظل ، وهو أعم من الفىء ، فإنه يقال ظل الليل ، ظل الجنة ، ولكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال فىء الا لما زالت عنه الشمس ويعبر بالظل أيضا عن الرفاهية ، وعن العزة .
 عيون : أى : أنهار .
 اركعوا : أى : صلوا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر - سبحانه - أن للمكذبين بالله وأنبيائه واليوم الآخر العذاب فى يوم الفصل والجزاء - بين هنا نوع ذلك العذاب بما يحار فيه أولو الألباب ، ويخر من هوله كل مخبت أبواب ثم أخبر بأن الويل للمكذبين بهذا اليوم ، يوم لا ينطقون من شدة الدهشة والحيرة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار فيعتذرون ثم أعقبه بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذ ، ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال : (كلوا وتمتعوا قليلاً) ولا نصيب لكم فى الآخرة ، لأنكم كافرون .

ثم ذكر أن الكفار إذا أمروا بطاعة الله والخشوع له أبوا وأصروا واستكبروا استكباراً ، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن والنبى الذى جاء به مع تظاهر الأدلة على صدقه ، فبأى كلام بعده يصدقون ؟

التفسير

قوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾
 يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » كقوله تعالى : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾^(١)

وقوله : ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ : لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب : شعبة عن يمينهم ، وشعبة عن شمالهم ، وشعبة من فوقهم ، والمراد أنه محيط بهم من كل جانب كما جاء في الآية الأخرى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ .

وقوله : ﴿ لا ظليل ولا يغنى من اللهب ﴾ : أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب يعنى ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر ﴾ : أى : يتطاير الشرر من لهيها كالقصر قال ابن مسعود كالحصون .

وقوله : « كأنه جمالة صفر » قال مجاهد وقتادة والحسن كالابل السود وقال سعيد بن جبير : (جمالة صفر) يعنى حبال السفن .

فهذه النار يتطاير منها شرر متفرق فى جهات كثيرة كانه القصر عظماً وارتفاعاً ، وكأنه الجمال الصفر لوناً وكثرة وتتابعاً وسرعة حركة .

(ويل يومئذ للمكذبين) بهذا اليوم الذى لا يجدون فيه لدفع العذاب عنهم محيص .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ويل يومئذ للمكذبين ﴾ : أى : هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار لأن ليس لديهم عذر صحيح ، ولا جواب مستقيم كقوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً ﴾ وقوله : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾ ، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما دعته اليه الرسل ، فأندرتهم عاقبه .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

أى : هذا يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، فيؤتى كل عامل جزاء عمله من ثواب وعقاب ، ويفصل بين العباد بعضهم مع بعض ، فيقتص من الظالم للمظلوم ، وترد له حقوقه .

وقوله : ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ : أى : جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم فى صعيد واحد ليتمكن الفصل بينكم ، فيقضى بهذا على هذا ، ولولا ذلك ما أمكن ، إذ لا يقضى على غائب .

وقوله : ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ : أى : فإن كان لكم حيلة فى دفع العذاب عنكم فاحتالوا ، لتخلصوا أنفسكم من العذاب .

وفى هذا تقرير لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا ، وإظهار لعجزهم وقصورهم حينئذ .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا .
قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات : إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليعموم وهو الدخان الأسود المتن ، وقوله : ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا كقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ وكقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ .

وقوله : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الاحسان اليهم .
كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ .

وقوله : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل .

قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

قوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ الذين عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل وكذبوا بما أخبرهم الله أنه فاعل بهم .

ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال تعالى :

﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ أى : كلوا بقية آجالكم ، وتمتعوا بقية أعماركم ، وهى قليلة المدى ، وسنستن بكم سنة من قبلكم من مجرمى الأمم الخالية التى تمتعت إلى حين ، ثم انتقمنا منهم بكفرهم وتكذيبهم لرسلنا .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أى : إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ﴾ أى : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأى كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾ .

قال ابن حاتم بسنده عن اسماعيل بن أمية قال سمعت رجلاً أعرابياً بدوياً يقول سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ والمرسلات عرفاً - فقرأ (فبأى حديث بعده يؤمنون) فليقل آمنت بالله وبما أنزل .

« اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

« رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، اللهم أسلمت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، والجات ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت » .